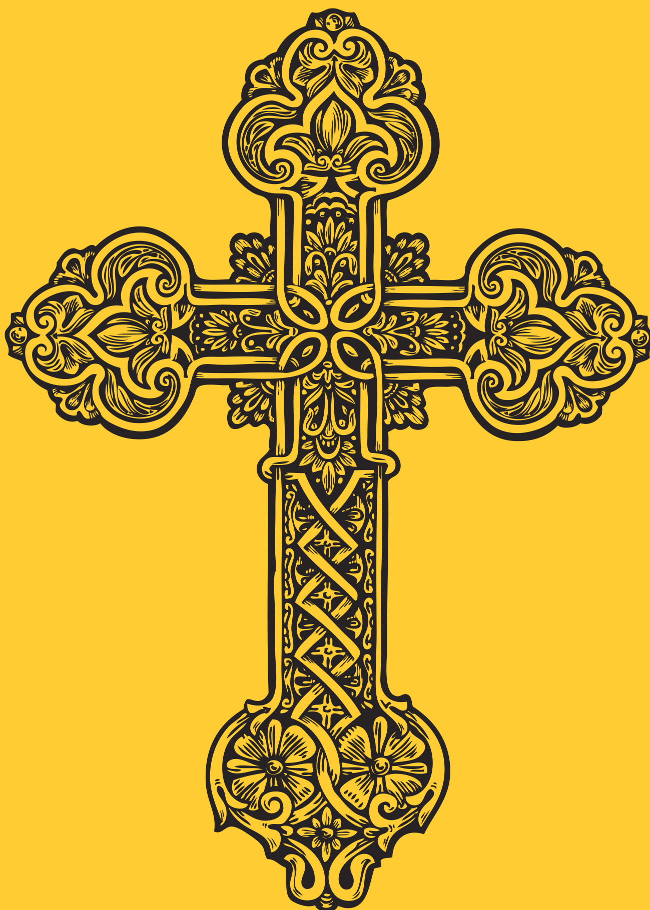
النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية



لويس شيخو

النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية

تأليف
لويس شيخو



النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية

لويس شيخو

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: عبد العظيم بيدس

الترقيم الدولي: ٥ ٣٦٨٦ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٢٣.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٤.

المحتويات

مقدمة المؤلف	٧
القسم الأول: في تاريخ النصرانية وقبائلها في عهد الجاهلية	٢٥
١- تاريخ النصرانية في جزيرة العرب	٢٧
٢- في قبائل العرب المُتَنَصِّرة	١٤٥
القسم الثاني: في الآداب النصرانية في عهد الجاهلية	١٦٩
١- النصارى والكتابة العربية	١٧١
٢- الألفاظ النصرانية في لغة عرب الجاهلية	١٨١
٣- في الأعلام النصرانية	٢٧١
٤- الأحداث النصرانية بين عرب الجاهلية	٣٠١
٥- في الأمثالِ العربيةِ المنقولة عن الأسفار المُقدَّسة	٣٣٩
٦- فيما ورد في الأسفار المُقدَّسَة من حِكَم العرب والحديث	٣٥٧
٧- في الخطابة النصرانية بين عرب الجاهلية	٣٨٥
٨- في التاريخ النصراني بين عَرَب الجاهلية	٣٩٣
٩- التعاليم الفلسفية واللاهوتية بين نصارى الجاهلية	٣٩٧
١٠- الفنون الجميلة بين النصارى	٤٠٥
١١- العلوم والصنائع بين نصارى العرب	٤٢٧
١٢- العادات النصرانية بين عرب الجاهلية وفي أول الإسلام	٤٥٧
١٣- الشعر النصراني وشعراء النصرانية بين عرب الجاهلية وأول الإسلام	٤٧٧
مراجع	٥٠٧

مقدمة المؤلف

عرَب الجاهلية

لما باشَرْنا قبل عشرين سنة[1] بنشر تأليفنا الموسوم بشعراء النصرانية كان قَصدُنَا أن نُقدِّم عليه فصلًا موسعًا في النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية، لكن الإنسان في التفكير والله في التدبير. فاضطرتنا الأحوال قبل نَجازِ الكِتاب إلى السفر إلى البلاد الأجنبية، حيث قضينا خمس سنين منقطعين إلى دروس أخرى شَغلتْنَا عن الشرق وعن العلوم الشرقية. ولما انكفأنا راجعين إلى الوطن انثالت علينا الأشغال من كل وجه، حتى انصرف فِكْرنا إلى هَمِّ كل يومٍ بيومه، وتسويف الوعد إلى أجل غير مسمًّى.

على أننا لم ننسَ تمامًا وَعْدَنا، بل كنا في زيارتنا للمكاتب العمومية في أوربَّة، وإبَّان دروسنا الخصوصية نُدوِّن ما يَحضُرنا من ذلك، ونُعِد المواد لهذا البناء أملًا بتشييده قريبًا، لا بل كنا إذا ما سَنحَت الفرصة نُسلف القراء من تعليقاتنا قِطَعًا، تجدها في بعض مقالاتنا في المشرق؛ كنصرانية غسَّان (١: ٥١٩ و٥٥٤)، ودين امرئ القيس الشاعر الجاهلي (٨: ٨٨٦ و٩٤٩)، وغير ذلك مما جعلناه كتمهيد لمقال أطول.

وزِدْ على ذلك أن التشديد الزائد في مراقبة المطبوعات كان يمنعنا عن إيضاح أفكارنا كما كنَّا نَوَد؛ فكان الأمر يخمد همَّتنا ويُثبِّط عزمنا.

[1] ظهر كتاب شعراء النصرانية سنة ١٨٩٠م.

فاليوم والحمد لله قد توطَّأ الطريق وتسهلت الأمور، فيجوز لنا أن نستوفي هذا البحث على قَدْر الإمكان. ولنا على كتابه وسائل جديدة فيما سطَّره أصحاب الرِّحَل الحديثة إلى بلاد العرب، وما نقلوه عن الآثار القديمة؛ كالكتابات الحِمْيرية والنَّبَطية والصفوية واليونانية، وكالتصاوير والتماثيل التي وُجدت في أطراف جزيرة العرب، مع ما نُشر في هذه السنين الأخيرة من التآليف المفقودة في السريانية واليونانية والعربية، وما كَتَبه المستشرقون في هذه الاكتشافات، فراجعنا كل ذلك لنقتبس منه أنوارًا نستضيء بها في بُنَيَّات طريقنا.

على أن البحث في النصرانية وآدابها يقتضي نظرًا سابقًا في جزيرة العرب وأقسامها وأهلها، يليه بحث ملخَّص في أديان العرب القدماء قبل ظهور الدِّين النصراني وانتشاره في أحياء العرب.

(١) جزيرة العرب: موقعها وأقسامها وأهلها

خص الله جزيرة العرب بموقع عجيبٍ كان سبب غناها، وجعل لها حصنًا طبيعيًّا يصونها من سيطرة الأمم الفاتحة، بما بُسط فيها من المفاوز والصحارى القحلة. فتراها متوسطة بين آسيا وإفريقية ترتفق على سواحل بحر العجم والهند والقلزم من ثلاث جهات، وتزاحم من الشمال الشرقي إلى الشمال الغربي بلاد العراق، وما بين النهرين والشام ومصر. فكانت مجاورة لمهد البشر الأول تنظر إلى نموهم وترقيهم وفتوحاتهم، وربما كانت وصلةً بينهم ومستودعًا لتجارتها؛ إلا أنها لم تدعهم يزحفون عليها ليضربوا فيها أطنابهم. وإن فعلوا على رغم منها كان دخولهم في براريها كسحابة صيف لم تلبَث أن تنقشع، فيعود أهلها إلى استقلالهم.

جزيرة العرب مربَّع مستطيل يمتد من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، وهو في جنوبه أعرض منه في الشمال، ويبلغ سطحه نحو ٦٠٠٠٠٠ كيلومتر مربَّع، قسمها اليونان ثم الرومان من بعدهم إلى ثلاثة أقسام: العربية الصخرية وكانت قاعدتها سلَع (סלע) المسماة بترا (Petra)، تمتد خصوصًا في شبه جزيرة سينا، ثم العربية القفرة غير المأهولة، أخصها المفازات الواقعة في أواسط العرب في نجد وتهامة واليمامة، إلى جهات عمان والمهرة، ثم العربية السعيدة وهي اليمن لخصبها.

أما العرب فلم يعرفوا هذا التقسيم، وإنما قسموا بلادهم إلى عدة أنحاء، أخصها صحارى نجد في أواسطها، يليها الحجاز مشرفًا على البحر الأحمر، بينهما تهامة. وفي الجنوب الشرقي اليمن وحضرموت ومهرة في شمالها البحرين وعمان على سواحل بحر

الهند، وفي شمالها الغربي الجوف واليمامة. ثم هجر أو الأحساء على سواحل خليج فارس، ثم العراق العربي وبَوادي الجزيرة إلى بادية الشام شرقيَّ دمشق، حيث حوران واللجأ والصفا والبلقاء وجولان، إلى بريَّة طور سينا.

أما سكان جزيرة العرب؛ فقد قدموا إليها من الشمال، واستوطنوها وكانت زحفات القادمين تتوالى، فتدفع القبائلُ الجديدة أمامها العشائرَ السابقة، إلى أن وجد هؤلاء البحر في وجههم، وربما تجاوزوه إذا وجدوا فرصة تمكِّنهم من قطعه كما فعلوا في الحبشة وفي مصر في عهد السلالة المعروفة بالرعاة «الهِكْسُس». وهذه القبائل لم تكن كلها من أصل واحد، فكان بينها قوم من أبناء كوش المنتمين إلى كنعان بن حام فسكنوا خصوصًا بعض جهات اليمن، إلَّا أن معظمهم ينتسبون إلى يقطان أو قحطان من ذريَّة سام. وقد فرق الكتاب الكريم بينهم (مزامير، ٧١: ١٢) فدعا الأولين سبا (סבא) والآخرين شبا (שבא). ويضاف إلى الساميين منهم أبناء إسماعيل بن إبراهيم، أَخَصُّهم النبطيون والقيداريون، وأبناء قطورة سُرِّيَّة إبراهيم، ومنهم المَدْيَنِيُّون، وكانت سُكنى هؤلاء في بادية الشام وشرقيَّ بحر لوط، وفي شبه جزيرة سينا وقسم من الحجاز.

(٢) أديان العرب قبل النصرانية

ليس بحثٌ أغمض من تعريف أديان العرب في الجاهلية، وإن استفتينا كَتبَة الإسلام في ذلك، وجمعنا كل ما أثبتوه في تآليفهم التي نجت من مخاليب الزمان، لما زاد مجموعها على أسطر قليلة. وكان ابن الكلبي أَلَّف كتابًا في أصنام العرب إلا أن كتابه قد ضاع، ولِحُسْن الطالع قد نجا معظمُه بما نقله عنه أصحاب معاجم اللغة، وياقوت في معجم البلدان. وكذلك روى الحاج خليفة في كشف الظنون (٥: ٤٤) كتابًا آخَر في الأصنام للجاحظ، وهو أيضًا مفقود. وقد جمع بعض المستشرقين — كلودلف كراهل: L. Krehl: *Ueber die Religion der vorislamischen Araber*، والعلامة فِلْهوسن: Wellhausen: *Reste arabischen Heidentums* — ما عثروا عليه من ذلك. على أن هذه المنقولات لا تشفي غليلًا، وكثيرًا ما تجدها مضطربة متناقضة، فلا تعرف الغث بينها من السَّمين ولعل أوسع ما جاء في ذلك ما كتبه الشهرستاني في «المِلل والنِّحَل»، وأحمد بن واضح المعروف باليعقوبي وهذا نصُّه (طبعة ليدن، ج١، ص٢٩٤–٢٩٦):

«وكانت أديان العرب مختلفة بالمجاورات لأهل المِلل والانتقال إلى البلدان والانتجاعات، فكانت قريش وعامة ولد معد بن عدنان على بعض دين إبراهيم يحجُّون البيت،

ويقسمون المناسك ويَقْرُون الضيف، ويعظمون الأشهُر الحُرُم، وينكرون الفواحش والتقاطع والتظالم، ويعاقبون على الجرائم. فلم يزالوا على ذلك ما كانوا ولاة. وكان آخر من قام بولاية البيت الحرام مِن ولد مَعَد: ثعلبة بن إياد بن نزار بن معد. فلما خرجت إياد وَلِيَت خزاعة حجابة البيت؛ فغَيَّروا ما كان عليه الأمر في المناسك، حتى كانوا يفيضون من عرفات قبل الغروب ومِن جَمْع بعد أن تطلع الشمس، وخرج عمرو بن لُحَيٍّ. واسم لُحَيٍّ ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر إلى أرض الشام، وبها قوم من العمالقة يعبدون الأصنام، فقال لهم: ما هذه الأوثان التي أراكم تعبدون؟ قالوا: هذه أصنام نعبدها، نستنصرها فننْتَصر ونستسقي بها فنُسْقى. فقال: ألا تعطوني منها صنمًا، فأسير به إلى أرض العرب عند بيت الله الذي تَفِد إليه العرب؟! فَأَعْطَوه صنمًا يقال له: هُبَل. فقدم به مكة فوضعه عند الكعبة. فكان أول صنمٍ بمكة، ثم وضعوا به إساف ونائلة كل واحد منهما على ركن من أركان البيت. فكان الطائف إذا طاف بدأ بإساف فقبَّلَه وختم به، ونَصَبوا على الصفا صنمًا، يقال له «مُجاوِر الريح»، وعلى المَروة صنمًا يقال له «مُطعِم الطير». فكانت العرب إذا حجَّت البيت، فرأت تلك الأصنام سألت قريشًا وخزاعة فيقولون: نعبدها؛ لتُقرِّبنا إلى الله زُلْفى. فلما رأت العرب ذلك اتَّخذت أصنامًا، فَجعلَت كل قبيلة لها صنمًا يُصَلُّون له؛ تقرُّبًا إلى الله فيما يقولون، فكان لكلب بن وبرة وأحياء قُضاعة «وَدٌّ» منصوبًا بِدومَة الجَنْدَل بجَرش، وكان لحِمْيَر وهَمدان «نَسْر» منصوبًا بصنعاء، وكان لكنانة «سُواع»، وكان لغطفان «العُزَّى»، وكان لهند وبجيلة وخثعم «ذو الخَلَصة»، وكان لطيِّئ «الفُلس» منصوبًا بالحبس، وكان لربيعة وإياد «ذو الكَعبات» بسنداد من أرض العراق، وكان لثقيف «اللَّات» منصوبًا بالطائف، وكان للأوس والخزرج «مَناة» منصوبًا بفَدَك مما يلي ساحل البحر، وكان لِدَوس صنم، يقال له «سعد»، وكان لقوم من عُذرة صنم يقال له «شمس»، وكان للأَزْد صنم يقال له: «رئام».»

وإذا أضفت إلى الأصنام المذكورة في هذه النُّبذة أسماء آلهة أخرى، ورَدَ ذِكْرها في المعاجم وفي بعض التواريخ والشروح؛ كرضا، ومناف، وجَلْسَد، وسعير، والقصير بلغ بك العدُّ إلى نحو ثلاثين صنمًا. وإذا بحثت عنها وعن صفاتها وخواصها، والأمكنة التي شاعت فيها عبادتها وطرائق مناسكها؛ وجدتَ الكتبة يتباينون ويتناقضون، فلا يكاد يُعوَّل على كلامهم. ولعل كثيرًا من هذه الأصنام لم تُعبَد في جزيرة العرب كوَدٍّ وسُواع ويغوث ويعوق ونَسْر، الذين يقال عنهم إنهم من آلهة قوم نوح (اطلب: سورة نوح، ع٢٢–٢٣)، فأين هذا وما زعم ابن إسحاق وابن هشام أن في الكعبة كان عدد الأصنام ٣٦٠ على عدد أيام السنة؟

وقد سعى المستشرقون أن يَسدُّوا هذا الخَلَل؛ فاستخرجوا أسماء لأصنام أُخَر عربية من أعلام الرجال المسبوقة باسم عبد؛ كعبد الأسد، وعبد تَيْم، وعبد الحارث، وعبد الدار، وعبد عمرو، وعبد المَدَان، وعبد المُطَّلب، وعبد الملك. وزعموا أن المُضاف إلى عبد مدلوله صنم من الأصنام، وكذلك الأسماء المسبوقة بـ «امرؤ» كامرئ القيس وامرئ اللات، أو المختومة باسم «إيل» كشراحيل وخيليل وشهميل وقسميل، ومنها أعلام عربية وردت في التواريخ اليونانية، أو الأسفار المُقدَّسة، أو الكتابات النبطية مركبة من ألفاظ دالة على الإله؛ مثل: Αραμηλος، وΖαβδιηλ، ولמלשת، وשמואל وغير ذلك.

فهذه الأعلام وغيرها أيضًا مما يمكن جَمْعها من المعجمات والآثار، ولو ثبت أنها دالَّة على أصنام العرب ومعبودات القبائل، إلا أنها لا تفيدنا فتيلًا لمعرفة خواصها وسدَنتها، والأمكنة والأزمنة التي شاعت فيها عبادتها وطرائق إكرامها والمناسك الخاصة بها، وفي بعض رواياتهم عنها ما لا يقبله العقل السليم ويردُّه النقد الصحيح كقول مُؤرِّخي العرب عمومًا بأن أول مَن أتى بالأصنام من بلاد الشام وجعلها في الكعبة إنما هو عمرو بن لُحَيٍّ رئيس بني خزاعة، لما طرد بني جُرْهُم منها وتولَّى مع قومه تدبيرها. فلدينا كما سترى شواهد تبطل هذا القول. ومثله مزاعم أخرى لا بد أن تُعرض على محك الانتقاد، فلا تُقبل إلا بالبرهان؛ لأن مُؤرِّخي العرب لم يُدوِّنوا رواياتهم إلا بعد الإسلام بزمن طويل، فكتبوا ما تناقلته الألسن شفاهًا، فتضاربت رواياتُه واختلفت صوره.

فهَلُمَّ نروي خلاصة ما ورد عن ديانة العرب في أقدم الآثار الحجرية، أو في التواريخ القديمة، مستندين في ذلك إلى ما كتبه أوثق الكتَبة مع ما جمعناه في مطالعاتنا العديدة، وهذه أخصُّ التآليف الحديثة في هذا الصدد:

(١) جزيرة العرب قبل محمد في الآثار للعلامة ف. برجه Berger (Ph): *L'Arabie avant Mahomet d'aprés les Inscriptions*.

(٢) أديان العرب في الجاهلية لبرغمان Bergmann: *De Relgione Arabum anteislamica*.

(٣) العرب في الشام قبل الهجرة للعلامة دوسو Dussaud (R.): *Les Arabes avant l'Islam en Syrie*.

(٤) سُواع والعُزَّى والكتابات اليمنية Glaser (E): *Suwā' und al-'Uzza*.

(٥) مقدمة جِرِيمه على تاريخ محمد Grimme (H.): *Mohammad*.

(٦) أبحاث عن الشرق الإسلامي لهرتمان Hartmann (M.): *Der islamsche Orient, II, Berichte und Forschungen*.

(٧) ديانة عرب الجاهلية للألماني كراهل Krehl (L.): *Ueber die Religion der vorislamischen Araber*.

(٨) تاريخ الشرق القديم لفرنسوا لونرمان ولبابلون Lenormant (Fr.) et Babelon: *Histoire ancienne de l'Orient*, 9e éd.

(٩) العرب القدماء للعلامة نولدك Noeldeke (Th.): *Arabs (ancients)* dans (ENCYCLOPÆDIA OF RELIGION AND ETHICS).

(١٠) تاريخ العرب لكوسان دي برسفال Perceval (C. de): *Essai sur l'Histoire des Arabes avant l'Islamisme*.

(١١) بنو لخم في الحيرة لروتشتين Rothstein (G.): *Die Dynastec der Lahmiden in Al-Hira*.

(١٢) بقايا الوثنية بين قدماء العرب للمستشرق فلهوسن Wellhausen (J.): *Reste arabischen Heidentums*, 2e éd.

هذا إلى مقالات متعددة ظهرت في المجلات الآسيوية الفرنسوية والألمانية والنمساوية، وفي نشرات أخرى شرقية، كالنشرة الساميَّة وغير ذلك.

كان زعم رينان زعمًا غريبًا، وأراد أن يثبته بالأدلة الوضعية لولا أن الاكتشافات الحديثة جاءت كلها مُزيِّفَة لزَعْمِه. ذهب المذكور إلى أن الشعوب الساميَّة عمومًا والعربية خصوصًا كانت تقول بالتوحيد، لا عن وحيٍ خاص بل عن غريزة؛ لأن عقل الساميين على زعمِه مطبوع من أصله على البساطة، فيوافق توحيد الله بساطة عقله، وكانت غايته من ذلك أن ينكر الوحي بالإله الواحد إلى بني إسرائيل.

فالآثار العربية قد كَذَّبت هذا المزعم كما كذبته اكتشافات بقية البلاد الساميَّة.[٢] فإن العرب في الجاهلية عاشوا في الشِّرك مدة قرون عديدة. أما شِرْكهم فكان تأليه قُوى الطبيعة

[٢] وممن فنَّدوا رأي رينان في التوحيد الغريزي بين قدماء العرب المستشرق الشهير «يوسف هالوي (Joseph Halévy)» في مقالاته عن الكتابات المكتشفة حديثًا في بلاد العرب[٣] بهمة الرَّحَّالِين إليها؛ كالإنجليزي «دوغتي Doughty»، والقنصل الفرنسوي «هوبر (Huber)»، والأستاذ «أوتنغ (Euting)» وكذلك العَلَّامة الأثري

إجمالًا والأنوار العلوية خصوصًا. ولا عجب فإن قومًا كانت عيونهم ليلًا مع نهار تشخص إلى الأجرام النَّيِّرة لم يلبثوا أن عظَّموها، حتى تَحوَّل تعظيمها إلى إكرام وسجود؛ لظنهم أن فيها قُوًى فائقة الطبيعة. ثم إن العرب قبل تَوغُّلهم في الجزيرة كانوا جاوروا الكَلْدان، وأخذوا منهم عبادة النجوم. وما لا شك فيه أن عرب اليمن كانوا على ديانة الصابئين يعبدون الكواكب والسيارات السبع. قال الشهرستاني في المِلَل والنِّحَل (طبعة لندن، ٤٣١): «أما بيوت الأصنام التي كانت للعرب والهند، فهي البيوت السبعة المعروفة المبنية على السبع الكواكب.» يريد بالعرب أهل اليمن خصوصًا.

(٢-١) الشمس

بل عمَّت عبادة الكواكب كل أنحاء العرب، فكانوا يعبدونها في شَمالِيِّ الجزيرة وفي غربيِّها وجنوبها الغربي على صور شتى، وتحت أسماء مختلفة. ولما كانت الشمس هي النَّيِّر العظيم؛ فإن عبادتها بين العرب فاقت على سواها.[٤] تارة يُؤنِّثُونها وتارة يُذَكِّرونها، ولدينا على صحته شواهد راقية إلى القرن السابع قبل المسيح، فإن بين الكتابات التي وُجدت في بابل كتابة «لتغلَتْ فلاسر» يذكر فيها انتصاره على مدينة دَوْمة الجندل، وظفره بملكتها التي كانت كاهنة للإله «شمس» (A. Layard: *Inscriptions*, p. 72). ومن الشواهد القديمة السابقة لعهد المسيح شهادة هيرودوتس الذي يُصرِّح في تاريخه (ك٣، ف٨) بأن العرب كانوا يعبدون أوروتال (Οὐροταλ)، وهي لفظة مركبة في اللغات الآرامية من אור؛ أي نور، وחעלח كالعربية تعالى من فعل צלת؛ أي علا. والمعنى: النور المتعالي وأرادوا به الشمس. والدليل عليه أن هيرودوتس بعد ذِكْره أوروتال أردف بقوله: «وهو ديونيسيوس أو نجوس»، الذي كان عند اليونان إله الشمس. وكرَّر ذلك الجغرافي إسترابون (Strabon, XVI, 741)، والمؤرخ أريان (Arrien, VII, 20) ومثلهم أوريجانوس في القرن الثالث للمسيح

«فيليب برجه (ph. Berger)» في كراسته عن كتابات تيماء Inscriptions de Teimâ ويتضح من هذه الإكتشافات أن عبادة الأصنام كانت شائعة في جزيرة العرب ومُنظَّمة، فلها هياكل وكهنة وذبائح وآلهة متعددون خلافًا لما زعم رينان رغبة في معاداة الوحي.

[٤] وفي المعاجم العربية وبعض التواريخ: «أن شمسًا كانت صنمًا لبني تميم ولعُذرة وكان له بيت، وكانت تعبده بنو أُدٍّ كلها، وكانت سدانته في بني أوس.» إلا أنهم لم يصيبوا بحصر عبادتها.

في رده على كلسوس (Origenes: *contra Celsum*, V, 37)، وكان النبطيون يعبدون الشمس عبادة خاصة، وكان لهم في عاصمتهم سلَع (Petra) معبد كبير لإكرامها، وإنما كانوا يدعونها باسم آخر، وهو ذو الشَّرى (Δουσάρης) أي الإله المنير، وقد ورد اسمه مرارًا في كتابات عيون موسى ومدائن صالح وطور سينا،[٥] أما كون ذي الشَّرى يراد به الشمس، فالأمر واضح من قول استرابون الذي يؤكد أن النبطيين يعبدون الشمس (Ἥλιος)، وكانوا جعلوا عيدها في ٢٥ ك١ كما أفادَنا القديس إبيفانيونس في كتابه عن الهرطقات (Epiphanius Hæres, 51). وزاد مكسيموس الصوري أن النبطيين كانوا اتخذوا صنمًا لذي الشَّرى، وهو حَجر أسود مكعب عُلوُّه أربعة أقدام، وعرضه قدمان (Maximus Tyr., c. 38)، ومن الأسماء التي شاع بها اسم الشمس في جهات العرب، وأكرموها على منطوقه «ذو الشارق» و«المُحرِّق». وكانوا يصرحون عن إكرامهم لها بأن يتسمَّوا بأسمائها؛ إذ وجدوا بين أسماء العرب من دُعوا باسم عبد الشمس، وامرئ الشمس، وعبد المُحرِّق، وعبد الشارق. ومن أصنام جنوبي العرب «الذريح» أرادوا به أيضًا الشمس الطالعة.

(٢-٢) القمر

ليس لدينا نص صريح يُنوِّه بعبادة العرب للقمر إلا ما يقال عن عبادة بني كنانة (Berg-mann, 4) وكذلك قد عَبده الحِمْيريون وبقية الصابئين مع السيارات السبع، بل نُرجِّح أن عبادته شاعت في غير أنحاء الجزيرة، وربما جمعوا بينه وبين الشمس فعبدوهما معًا.

(٢-٣) العزَّى

ومن أشهر معبودات العرب التي شهد لها قدماء الكتبة من يونان وروماني وغيرهم: اللات. يقول كتبة العرب (اطلب: معجم البلدان، لياقوت، ٤: ٣٣٦-٣٣٧) إنها كانت صخرة بيضاء مربعة تعبدها ثقيف في الطائف، وكانوا اتَّخذُوا له بيتًا فطافوا به وجعلوا له سدنة. واليوم قد أجمع الأثريون على أن اللات هي الزُّهرة، ولنا على ذلك شهادة هيرودوتس المؤرخ. قال في تاريخه (ك١، ف١٣١): إن العرب يعبدون الزهرة السماوية Ἀφροδίτη Οὐράνια، وهم يدعونها أليتًّا (Ἀλίττα)، وقد أصلح اسمها في محل آخر (ك٣، ف٣) فدعاها الإلات (Ἀλιλάτ) وهو اختصار الإلاهت كما اختصروا الاسم الكريم الإله فقالوا الله. ثم اختصروا

[٥] وفي معجم البلدان لياقوت الحموي أن ذا شَرى كان صنمًا لدوس، وكانوا قد حموا لهُ حمى.

الإلات فقالوا: اللات، وكانت اللات معبودة في كثير من جهات الجزيرة، ليس الطائف فقط، كما زعم كتبة العرب؛ فإن الأثريين وجدوا كتابات عديدة ورد فيها ذِكْر اللات، ولا سيما في بلاد النبط في حِجر وصلخد والبصرى، حيث كان لها هيكل، وفي أنحاء حوران وحتَّى في تدمر، وتُدعى هناك بألقاب تدل على مقامها كاللات العظمى وأم الآلهة، وكانوا يضيفون إلى اسمها اسم المكان الذي تكرم فيه فيقولون: «لات صلخد» و«ولات حبران» ... إلخ.

ودخل إكرامها بين أهل المدَر وبين سكنى حوران المتكلمين باليونانية، فنقلوا اسمها إلى اليونانية على صورة «أثيني» (Ἀθηνα) وهي عند اليونان إلهة الحكمة (Minerve) لكن صورها وأوصافها في الكتابات القديمة تثبت على كونها الزُّهَرة Vénus، ومما يدل على انتشار عبادتها بين العرب كثرة الأسماء المركبة من اسمها كوَهْبلات، وتَيْم اللات، وعمرو اللات، وزيد اللات وغيرها أيضًا مما وُجد في الآثار والأعلام القديمة.

وعُرفت الزُّهَرة بأسماء أخرى على مقتضى أحوال ظهورها مساءً بعد غيوب الشمس، أو صباحًا قبل طلوعها فيدعون نجمة المساء عَتر، وهي أيضًا أستار أو عشستر (Astarté) أو عَتَرْعَتَا (Atargatis) أما نجمة الصبح، فشاع اسمها العزَّى أي الإلهة الساميَّة. وجاء ذكرها باسم كوكب الحُسن في ميامر إسحاق الأنطاكي (ص١: ٢٤٧) من كتبة أوائل القرن السادس، وصرَّح بأنها هي الزُّهَرة.[٦] وأخبر بروكوبيوس المؤرخ في القرن السادس أن المنذر صاحب الحيرة ضحَّى للعُزَّى بابن عدوِّه الحارث ملك غسان، وكان في يده كأسير. وذَكَر

[٦] وهذا بعض قول إسحاق الأنطاكي (ed. Bickell, I. 244–246) في الزُّهرة وعبادتها عند العرب ثم عدولهم إلى دين المسيح.

«لهذا الكوكب (أي الزُّهرة) كانت قبائل أبناء هاجر (العرب) تُقدِّم الذبائح «لتنال نساؤهم موهبة الحسن والجمال»، لكن نساءهم كبقية النساء فمنهن جميلات ومنهن قبيحات، ومنذ أقبلت النساء العربيات

العُزَّى قبله القديس أفرام السرياني والقديس إيرونيموس، ثم روى القديس نيلوس من أشراف القسطنطينية خبر ابنه الذي أسره عرب البادية، وأرادوا تضحيته لإلهتهم العُزَّى؛ أي الزهرة عند طلوعها صباحًا، لولا أن النوم تثاقل عليهم فنجا الولد، وذلك نحو السنة ٤١٠ للمسيح. وفي تواريخ السريان أن أحد ملوك الحيرة ضحَّى للعزَّى بعدد من البتولات المسيحيات. وكان كثير من العرب يتسمون باسمها فيُدْعَون «عبد العُزَّى»، ويظن العلامة نولدك أن الغَرِيَّين أو الطِّرْبَالَين اللذين كان المُنذِر في يوم شؤمه يَصُبُّ عليهما دم أول وافد إليه إنما كانَا رمزًا إلى العزى.[٧]

ومن أسماء العزى أيضًا المناة كأنهم دَعَوْها بذلك لسطوتها.[٨] وعلى رأي ياقوت (٤: ٦٥٢) أنها كانت من الأصنام التي أتى بها عمرو بن لُحَيٍّ وأنها أقدمها. وقال في محل آخر (٤: ٣٣٧): إنَّ اللات أُخِذَت من مناة، وروى عن ابن الكلبي (٤: ٦٥٢) أن مناة كانت صخرة، وهذا كله ينطبق على صورة العُزَّى واللات السابق ذِكْرُهما، وكما دعوا عبد العزى سمَّوا أيضًا عبد مناة، وكان أخص إكرام مناة في هُذَيل قريبًا من مكة وفي يثرب، وكانت قبائل الأزد وغسَّان قبل تَنصُّرها تعبدها (ياقوت ٤: ٦٥٢).

ومن أسماء الزُّهرة أيضًا «كَبر» ذكره أفتيموس الكاتب اليوناني (Pocock, 2I) وقال: إنها من معبودات العرب، وإن كبر (κaβaρ) هي الزُّهرة أو نجمة الصبح، ودعاها قدرينوس المؤرخ كُبَر (κovβaρ).[٩]

وكان أهل الجاهلية عمومًا — ولا يُسْتَثنى منهم العرب — يجعلون الآلهة أزواجًا لكل ذَكَر أنثاه، فكان لإلهة الشمس تِرْبُها، وهو البَعْل من أصنام العرب، أيضًا كان مكرَّمًا في شبه جزيرة سينا، وتَسمَّى به العرب: عبد البعل وأوس البعل، وربما أشاروا به إلى

على «عبادة» شمس البر (أي المسيح) فإنهن جحدن «عبادة» ذاك الكوكب «الزُّهرة» الذي عَبدْنَه باطلًا، فإن أولئك الأفراء (أي العرب) حنوا رءوسهم للنير وإناثهم «خضعن» للتأديب، والنساء اللواتي تربين في المقدس (أي البِيعة) أَبْدَلْن «عبادة» الزُّهرة بعبادة المسيح واختلطن معنا بِصَلاتهن.»

[٧] وأفاد الشهرستاني في المِلَل والنِّحَل (ص٤٣١) بأن قصر غمدان الشهير الذي كان في صنعاء، إنما كان بيتًا على اسم الزهرة.

[٨] اطلب: دوسو، «العرب في الشام قبل الإسلام»، ص٢٢١.

[٩] اطلب أيضًا: تاريخ نيقيتا (Nicetas) في مجموع أعمال آباء اليونان (Migne, PP.GG.t.140, col. 105–132). ويزعم بلوشه (Blochet) أن (κaβaρ) تصحيف لفظة كعبة. اطلب كتابه: Blochet: *La culte d' Aphrodire Anabita chez les Arabes du Paganisme*, Paris, 1902.

الشمس. وكان ذكَر العُزَّى الإله «عزيز» الذي وُجِد اسمه في عدة كتابات في جهات الرُّهَا وحوران، وكان ذكر اللات «اللاه» وجدوا اسمه في آثار كتابية. وكان لعَتَر زوجها وهو الإله «مونيموس» الذي يُذكر مع «عزيز».

ومما يُلْحَق بعبادة الكواكب والنيِّرات العظمى عند عرب الجاهلية إكرامهم لزُحَل والشِّعْرى والدَّبَران والجوزاء أو الجَبَّار والثُّريَّا يستدل عليه من بعض أقوالهم أو من أعلامهم كعبد الثريا، وعبد نجم، وعبد الجبار، وكذلك تعظيمهم لبعض المظاهر الجوية كتعظيم الإله قُزَح الذي كان يُكْرَم قريبًا من مكة، وقد أفادنا يوسيفوس الكاتب في كتابه العاديات اليهودية (Ant. XV, 255) أن عرب آدوم كانوا يكرمون إلهًا يدعونه Koζέ ورأي العلماء أنه قُزَح المذكور وإليه نَسبوا قَوْس الغمام.

وكانوا يدلون على آلهتهم بنعوت شتَّى فإن أصحاب الأسفار الحديثة في اليمن وفي جهات الصفا كغلازر (Glaser)، ودوسو (Dussaud) وجدوا في الكتابات الحميريَّة والنبطية ذِكر تقادم لآلهتهم فمنها للإله مالك، والإله رحمن، والإله رحيم، والإله عزيز السابق ذكره، وربما نسبوا آلهتهم إلى بعض الأمكنة التي كانوا يُكْرَمُون فيها؛ مثاله: ذو الشَّرَى، وذو خَلَصة، وذات السلام.

ومن الأصنام المذكورة في الكتابات الحجرية[١٠] وفي بعض الآثار القديمة والأعلام التاريخية موصوفات شتى تدل على أسماء معاني كالخِصْب والسعادة والغنى والعز؛ منها الإله جَد والإله سعد والإله رُضا والإله كُثْرى والإله وَدٌّ والإله مَناف، فهذه كلها كان العرب يكرمونها ويتفاءلون بها وينتسبون إلى عبادتها فدعوا بأسمائها؛ عبد الجد، وعبد الرُّضا، وعبد وَد، وعبد مَناف، وجاءت أسماؤها جميعًا في الكتابات المكتَشفة حديثًا، ويقول الكتبة المسلمون: إن أهل دَوْمة الجندل كانوا يكرمون صنمًا على اسم ود (ياقوت ٤: ٩١٣).

وللعرب صِنف آخر من الشِّرْك شاع عند أمم كثيرة، وهو تكريمهم لمواليد الطبيعة (fétichisme) من جماد ونبات وحيوان، فمن آثار تعظيمهم للجماد إكرامهم لحجارة

[١٠] في تاريخ الجاهلية لأبي الفداء (Fleischer: *Abulfedæ Hist … anteislamica*, P. 180) ما حَرْفُه عن أصنام العرب قال:

«وصنف «من العرب» عبدوا الأصنام وكانت أصنامهم مختصة بالقبائل فكان وَد لكلب وهو بدَوْمة الجندل، وسُواع لهُذَيل، ويَغُوث لَمذْحِج ولقبائل من اليمن، ونَسْر لذي الكلاع بأرض حِمْيَر، ويعوق لهمذان «لهَمْدان»، واللات لثقيف بالطائف، والعُزَّى لقريش وبني كنانة، ومناة للأوس والخَزْرج، وهُبَل أعظم أصنامهم، وكان هُبَل على ظهر الكعبة، وكان إساف ونائلة على الصفا والمروة.»

بيضاء أو سوداء كانوا يُوقِعُونها موقع التَّجلِّي للقوات العلوية كانت تكرم في بعض جهات اليمن والحجاز وبلاد النَّبط، وكان ذلك شائعًا عند غيرهم من أهل الشرق، فإن هيكل الشمس في حمص كان محتويًا على حجر أسود يمثل إله الشمس وكان هليوغَبَل سادنًا له قبل أن يتولى التدبير كقيصر روماني، وكان ذو خَلَصة مَرْوةً بيضاء.

ومن آثار إكرامهم للجماد الأنصاب، وهي حجارة كانوا يَنْصِبونها في أنحاء بلادهم ذِكْرًا لآلهتهم ويَصبُّون عليها الزيت أو الأقط أو السمن أو يطلونها بدم الذبائح، ولعلهم أقاموها في بعض المواطن كتذكار لحادث جليل أرادوا تخليده بينهم فأكرمها الأخلاف وعظَّموها.

وكذلك كانوا يقيمون المناسك لبعض الأشجار كالنخل، وقد روى الكتبة كياقوت وابن خلدون أن العُزَّى كانت تكرم في نجران على صورة النخلة، وكذلك في نخلة اليمانية مكان قرب مكة (ياقوت، ٤: ٧٧٠)، ومنها ذات أنواط قال ياقوت (١: ٣٩٣): «إنها شجرة خضراء عظيمة كانت الجاهلية تأتيها كل سنة لها فتُعلِّق عليها أسلحتها وتذبح عندها وكانت في جوار مكة»، وقد بقي شيء من هذا الإكرام للأشجار حتى يومنا في أمكنة حيث يعلق بعض جهال العرب وغيرهم أخلاقًا وأسمالًا من الخرق في أغصان بعض الأشجار لينجوا من الحميات.[١١]

وكما عبد أهل الجاهلية الجماد والنبات عبدوا أيضًا بعض الحيوانات والطيور، منها النَّسْر الوارد ذكره في القرآن (٧١: ٢٣) مع وَد وسُواع ويَغُوث، وممن شهد على كون نسر من معبودات العرب كتاب التلمود لليهود (في فصل عبوده زارا)، وكتاب تعليم الرسول عدي في القرن الثالث للمسيح وكلاهما يدعوه باسمه الآرامي «نشرَا ܢܫܪܐ»، وقد امتدت عبادة النسر بين الآراميين، ومنها «عَوْف» وهو اسم طائر صياد وأحد أسماء الأسد ورَد ذِكْره كإله في الإعلام فقالوا: عبد عوف، وزعم البعض أن أسماء القبائل كأسد ونمر وكلب كانت تدل سابقًا على بعض عبادة يقدمها أصحاب القبائل لهذه الحيوانات، وقد بقي أيضًا أثر هذه العبادة في خدمة بعض الطيور والأسماك في أنحاء الشرق كالرُّهَا وحلب وطرابلس، فإنَّا رأَيْنا ذلك بالعيان.

هذا نظر إجمالي في آلهة العرب ومعبوداتهم، ويلحق به عدة أبحاث يلزمنا الكلام عنها.

---

[١١] اطلب: رحلة الأب جوسن الدومنيكي إلى بلاد مؤاب (Jaussen: *Coutumes des Arabes au Pays de Moab.* p. 330–337).

«المقامات الدينية» العرب إما أهل وبَر وإما أهل مَدَر فكان يصعب على القِسْم المتبدِّي منهم أن يتخذوا أمكنة ثابتة لإقامة عباداتهم، ومن ثم كانت الفرائض عندهم بسيطة يقيمونها حيثما حلُّوا، إما بتوجيه نظرهم إلى الأجرام الفلكية مع ذكر آلهتهم، وإما ببعض أعمال تقويَّة من سجود ودعاء وتقادُم، لا سيما في بعض أطوار حياتهم المهمة كمَوْلِد بَنِيهم وتزويجهم ودفن موتاهم، وفي بعض أمكنة عالية يدعونها المشارف، وكان إكرامهم لمواليد الطبيعة يُوافِق أيضًا حالتهم البدوية فيجدون منها شيئًا أينما ساروا كالأنصاب وبعض الأشجار والطيور التي يعيفونها ويزجرونها على مقتضى حركاتها يمينًا أو شمالًا، وكذلك يتيمنون بالصيد السانح ويتشاءمون بالبارح، وكان الأب في عائلته والشيخ في قبيلته يقومان مقام الكهنة ويتوليان إجراء المشاعر الدينية باسم ذويهم.

أما أهل المدَر وبالأخص الذين بلغوا منهم درجة راقية من التَّمدُّن كالحِمْيَرِيِّين والنَّبَطِيِّين ودول الحِيرَة وكَنْدة وغَسَّان فما كانوا ليكتفوا بهذه العبادة البسيطة، وإنما خصصوا لديانتهم أمكنة كانوا يفردونها لذلك، بمضارب يزينونها بأصناف الجلود والأقمشة على شكل قبة العهد في بني إسرائيل، وإما بتشييد بعض الأبنية لهذه الغاية وكان بعضها فخيمًا أثيرًا كغمدان وبعض هياكل النَّبَط مما ظهرت آثاره في هذه السنين الأخيرة في مدينة سلع وجوارها، وقد نقل الكاتب اليوناني ديودورس الصقلي (Diod. III, 45) عن السائح الإقريطشي أغاثرشيدس في القرن الثاني قبل الميلاد وصفًا لثلاثة هياكل زارها في جزيرة العرب قريبًا من سواحل البحر، وربما دعوا هذه الهياكل بالمساجد فإن لفظة المسجد قديمة وردت في كتابات النبط المكتشفة حديثًا.

ومن مقاماتهم الدينية «الكعبات» وهي بيوت مربعة مرتفعة على أشكال الكعاب كانوا يفرزونها لدينيَّاتهم منها ذو الكعبات في شمالي الجزيرة لبني إياد؛ ومنها كعبة نجران، والكعبة اليمانية حيث كان بنو خثعم يعبدون صَنَمهم المسمى ذا الخَلَصة مع غيره من الأصنام.[١٢] وأشهر منها الكعبة الحجازية في مكة، وأول من ذكرها في التاريخ ديودورس

---

[١٢] المُرجَّح أن ذا الخَلَصة لم يكن صنمًا، بل بيتًا أو بالحَرِي بِيعَة نصرانية لقبائل اليمن، قال ياقوت في معجم البلدان (٢: ٤٦١):

«الخَلَصة بيت أصنام لدَوْس وخَثْعَم وبَجِيلة … وقيل: هو الكعبة اليمانية التي بناها أبرهة بن الصبَّاح الحِمْيَرى … وقيل: كان ذو الخَلَصة يسمي الكعبة اليمانية، وبيت الحرم الكعبة الشامية.»

وقد ذكر ياقوت الكعبة اليمانية في محل آخر (٢: ٧٠٣)، ودعاها بدَيْر نجران وعليه يجب القول: إن القبائل التي كانت تحج إليها؛ أعني خَثْعَم وبَجِيلة ودَوْس كانت نصرانية.

الصقلي في القرن الأول قبل المسيح، حيث قال (ك٣، ص٢١١): «إن في جهات العرب المجاورة لبحر القلزم هيكل يبالغ في إكرامه كل العرب»، وربما سمَّوا كعباتهم بالبيوت؛ لأنها كانت مكعبة، وكثر عدد هذه الهياكل في بعض الأمكنة حتى إن بلينيوس الطبيعي في القرن الثاني للمسيح عد منها ستين في مدينة سبأ حاضرة اليمن و٦٥ في تمنة مدينة بني غطفان.

وكانوا يتخذون لهذه المقامات «حَرَمًا» أي يجعلون لها دائرة تحفظ حرمتها ولا يجوز لأحد انتهاكها وكان حرم مكة أشهرها، وكذلك كان يخدم هذه المقامات رجال يدعونهم كهنة أو كُهانًا ويريدون بهم الخبيرين بالأحوال الماضية والعرافين، وربما دعوهم سَدَنة أي خدَمًا للمقدس لقيامهم بحاجاته وحاجات زواره، ومنهم من تسمى باسم هذه الأمكنة كعبد الكعبة وعبد الدار.

وكانوا يزينون تلك الهياكل بالتصاوير المنقوشة على جدرانها أو ينصبون فيها التماثيل للأصنام على هيئات شتى، منها حجارة منحوتة بيضاء أو سوداء، ومنها صخور من العقيق وبعض الحجارة الكريمة أو الصخور العادية كسعد معبود بني كنانة الذي فيه يقول الشاعر:

أتينا إلى سعد ليجمعَ شملنا فشتَّتَنا سعد فلا نحن من سعدِ
وهل سعد إلا صخرة بتَنُوفةٍ من الأرض لا تدعو لغيٍّ ولا رشدِ

ومن الأصنام ما كان يمثِّل أشخاصًا بعينهم يجعلون في أيديهم شارات أو أمتعة تدلُّ على خواصهم الموهومة كوَد وهُبَل جعلوا في أيديهما أقواسًا وأزلامًا، وكالشمس اتخذوا لها صنمًا بيده جوهر على لون النار وجعلوا لها بيتًا حجُّوا إليه، وكذلك اتخذوا للقمر صنمًا على شكل العجل وجعلوا في يده جوهرة، ونصبوا أيضًا أصنامهم في خارج الهياكل بقربها أو على مشارف ليراها الناس كنائلة وإساف ومناف.

وكانوا يكرمون تلك الأصنام بمناسك مختلفة منها «حَجُّهم» إليها أفرادًا أو زرافات.

وكانوا إذا اغتسلوا أو توضَّئُوا يَطُوفون حول الصنم دفعات معدودة ويستلمون الصنم أو يقبلونه ويتقربون منه بتلبية معلومة قد دَوَّن منها الكَتَبة بعضها كتلبية ذي الكفين صنم دوس رواها ابن حبيب: «لبَّيك اللهم لبَّيك إنَّ جُرْهمًا عِبادُك، الناس طُرُف وهم تِلادُك، ونحن أولى منهم بولائك.» وروى تلبية نَسر: «لبيك اللهم لبيك لأننا عبيد، وكلنا ميسرة وأنت ربنا الحميد.» وتلبية شمس صنم تميم: «لبيك اللهم لبيك لبيك ما نهارنا نجرُّه. أزلامه، وحَرُّه وقُرُّه، لا نتقي شيئًا ولا نضرُّه، حجًّا لرب مستقيم بِرُّه.»

ومن مناسكهم أيضًا أنهم كانوا يسكبون «السَّكْب» من خمر أو زيت أو حليب لأصنامهم أو يجعلون أمامها طعامًا يأكله الطير، وقد سمَّوا لذلك بعض آلهتهم «مُطْعِم الطير».

وكانوا أيضًا يقصُّون عند أوثانهم نواصي أولادهم أو يحلقون شعورهم، أو يرمون عندها الجمرات وهي الحصى كما أثبت ذلك أحد كبار المستشرقين العلامة شوفين،[١٣] وكانت العذارى أيضًا يَرقُصْن حول الأصنام مُسْبِلات ذيولهنَّ كما قال امرؤ القيس:

فعنَّ لنا سِربٌ كأنَّ نِعاجه عذارى دُوار في مُلاءٍ مُذَيَّلِ

ومن أخص مناسك العرب الذبائح[١٤] لأصنامهم، وخصوصًا للات والعُزَّى ومَناة، فإنهم كانوا يرون في سفك الدماء وسيلة لإخماد غضب الآلهة وللتقرب منهم، وطلب رضاهم، وما كانوا يأنفون من تضحية البشر أنفسهم كما سبق القول، وممن شهد على ذلك برفيريوس الفيلسوف الوثني[١٥] في القرن الثاني للمسيح قال: «إن أهل دَوْمة الجندل كانوا كل سنة يضحون لإلههم رجلًا ثم يدفنونه بقرب المذبح»، وروى بروكوبيوس اليوناني ومؤرخ سرياني قديم نشر أعماله لند (Land) أن المنذر ضَحَّى لِلعُزَّى ابن ملك غسان أسيرَه و٤٠٠ من الرواهب المُتَنَسِّكَات في بعض أديرة العراق، وقد اتَّسَع نيلس من كَتَبَة القرن الخامس بوصف غزوات أهل البادية لطور سينا، وذكر قتلهم للرهبان الذين هناك وشرح خصوصًا ما حل بابنه تاودولس الفتى، وكيف أسره أهل البادية من العرب فعوَّلوا على تضحيته للعُزَّى كوكب الصبح، وقد وصف الكاتب ما كان دارجًا عندهم من العادات في مثل هذه المناسك فنرويه هنا معرَّبًا للدلالة على ديانتهم فقال يذكر تفاصيل ذبائحهم:[١٦]

«وليس لهؤلاء الهمج دين إلا أنهم يكرمون كوكب الصبح «العُزَّى» ويخرُّون له ساجدين ويضحُّون له أجود أسراهم الذين أخذوهم في الغزوات، وهم يُفضِّلون لذلك الشبان إذا كانوا في عِزِّ الشباب وصَبِيحي الوجوه، ويعدُّون لهذه الغاية مذبحًا من

١٣ اطلب كتابه في ذلك V. Chauvin: *Le jet des pierres cu Péler. De la Mecque* Anvers, 1902.

١٤ جاء في شرح المُفَضَّلِيَّات لابن الأنباري. (Lyall, P. 228–229ed) في قول سلامة بن جندل «كأنَّ أعناقَها أَنْصَاب ترجيب.» أن العرب «كانوا يذبحون في رجب.»

١٥ اطلب كتابه في القناعة: Porphyrius: *De abstinentia* II, 56.

١٦ اطلب: أعمال الآباء اليونان لمين (Mighne, pp. GG. LXIX, 611).

الحجارة والصخور التي يكوِّمونها وينتظرون الفجر حتى إذا لاح كوكب الصبح يضربون الضحية بالسيوف ويشربون دمها، وعادتهم إذا لم يقع في يدهم أحد من الأسرى أن يضحوا ناقة من العيس خالصة البياض فينيخونها ويدورون حولها ثلاثًا ثم يتقدم كاهنهم أو زعيمهم بكل رونق وهم يتغنون بأغانيهم فيضرب بسيف أوداج الناقة ويَتلقَّى دمها فيشربه، ثم يركض الباقون ويقطع كل منهم قطعة من الذبيحة فيأكلونها نيئة ويسرعون في ذلك لئلا يبقى شيء من الجزور حتى الجلد والعظام عند طلوع الشمس.»

ثم انتقل الكاتب إلى وصف ما جرى لابنه وكان الفتى مترهبًا معه في جبل الطور يعيش منفردًا في بعض أنحائه إذ هجم عليه العربان وإذ رأوه وسيمًا جميلًا استَعدُّوا لتقريبه للعزَّى، فقال نيلس راويًا لما سمعه من ابنه بعد أن نجا من الأسر:

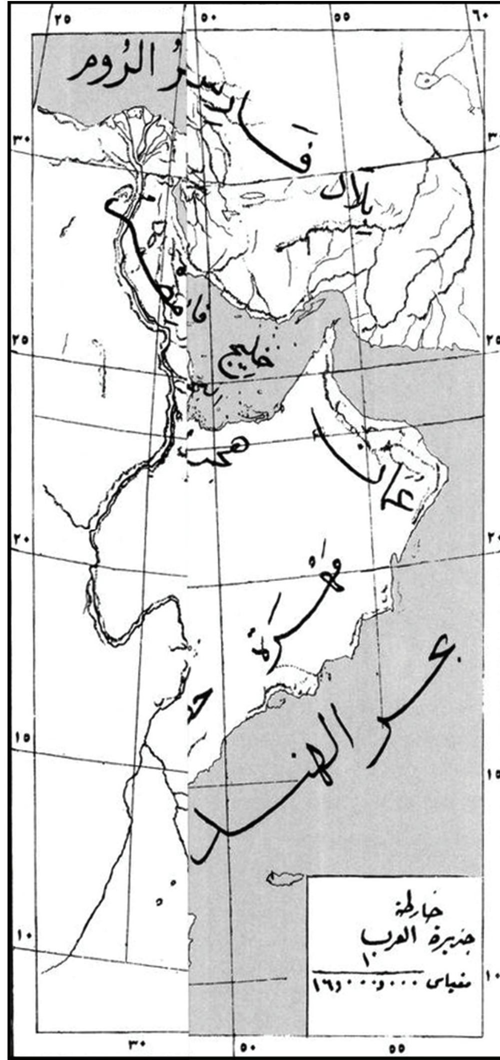
«وكان هؤلاء الغزاة عزموا على تضحيتي لنجم الصبح فأَعَدُّوا كل شيء للذبيحة في سَحَر اليوم التالي، فأقاموا لذلك مذبحًا وهيَّئُوا السيف والسَّكب والأقداح والبخور، وكنتُ أنا مُلقًى على وجهي على الحضيض، أما نفسي فكانت مرتفعة إلى الله أدعو إليه بحرارة كي ينقذني من هذا الخطر العظيم … وكان البرابرة قضوا قسمًا كبيرًا من ليلهم أكلًا وشربًا وقصفًا حتى غلب عليهم النوم فهجعوا إلى الصباح ولم يستيقظوا إلا والشمس قد طلعت وفات وقت الضحية … فلما رأوا ذلك أخذوني إلى قرية تدعى «سوقا» وتهدَّدوا بقتلي أمام أهلها إن لم يَفْدِني أحد منهم، فرحمني أحدهم ودفع فِدْيَتي واهتم بشأني أسقف المحل وها أنا الآن عائد إلى والدي.»

ومن دياناتهم إذا ضحَّوا الضحايا أن يصبُّوا دمها على الأنصاب كما سبق ويَطْلُوا به أجسامهم ويغمسوا به أيديهم عند حلفهم دلالة على صدق مواعيدهم ويدعون ذلك «اليمين الغموس».

(٣) بقية أديان الجاهلية غير النصرانية

كان الشِّرْك يعمُّ كما ترى بلاد العرب في الجاهلية، ولا نريد أن نحدد هنا زمنه هل امتد إلى مدة القرون التي سبقت الإسلام؟ أو هل شمل أنحاء الجزيرة التي عرفت الإله الواحد الصمد فَندَع الأمر للفصول الآتية؟

وإنما نضيف إلى قولنا السابق شيئًا عمَّا عُرف من الديانات الأُخَر في جزيرة العرب غير النصرانية بوجيز الكلام فنقول: إن هذه الأديان كانت المجوسية، والصابئية، واليهودية، وقد نوه بها في القرآن غير مرة.



(١) المجوسية: ديانة قدماء الفُرس الذين كانوا يعبدون النار ويرون فيها صورة اللاهوت ويقرنون بها عبادة النور، أخذوا هذا الدين من كيومرت أحد أجدادهم، وخصوصًا مِن زرادشت حكيمهم، فهل أثَّر هذا الدين في العرب؟ فالأمر ممكن بل هو محتمل لتقرُّب

بلاد العرب شمالًا من الفرس ولخدمتهم لملوكهم في جهات العراق، وممَّن أشاروا إلى دخول المجوسية بين العرب ابن قتيبة فزعم أن المجوسية كانت في تميم، والله أعلم.

(٢) الصابئية: إذا أُريدَ بها عبادة النجوم والشمس والقمر والسيارات السبع فإنها انتشرت خصوصًا في جنوبي جزيرة العرب، أما إذا أريد بها شيعة المندائيين الذين لا يزال منهم بضعة ألوف في العراق فإن تأثيرها في العرب كان مُنحصِرًا، ومن أراد تاريخ هذه الشيعة فعليه بالمقالات المُطوَّلة التي نشرها حضرة الأب أنستاس في المشرق في سنواته الثالثة والرابعة والخامسة، فإنه استوفى فيها الكلام.

ويلحق بدين الصابئين مذهب الحَرَّانيين الذين عبدوا النَّيِّرات السماوية مدة أجيال طويلة، وكان لهم بيت في حَرَّان يعظمونه بقي إلى خلافة المأمون فأُخرب، وكذلك المنويَّة المنسوبة إلى ماني وتُدْعى أيضًا بالثنوية لقول أصحابها بوجود مبدأين مُتناقِضَين هما النور والظُّلمة، وآل أَمْر هذه الشيعة إلى الزَّندَقة، وقالوا قول الدهريين.

(٣) اليهودية: دخل اليهود في أزمنة مختلفة في جزيرة العرب فاستوطنوا في بعض جهاتها، وعلى الأخص بعد جلاء بابل لما فَرَّ بعض بني إسرائيل من وجه الآشوريين فَتوغَّلُوا في أنحاء العرب، وحدث مثل ذلك بعد خراب أورشليم على يد الرومان إذ تشتت شمل اليهود، وكانت سُكناهم خصوصًا ما وراء بحر لوط وفي جهات تيماء، ووادي القرى في يثرب، وخيبر، وبعض أحياء اليمن، ولم نعلم من أخبارهم إلا النَّزْر القليل، وما لا ريب فيه أن القبائل اليهودية كانت تعيش بين العرب دون أن تختلط بهم مواظِبَة على عاداتها المألوفة وشرائطها الدينية كما ترى المُوسَوِيِّين في بلاد غير جزيرة العرب، وممن كتبوا عن تأثير اليهودية في دين العرب إبراهيم غايغر (Abr. Geiger) له كتاب عنوانه (ما أخذ محمد عن اليهودية) وفيه مبالغات ظاهرة وزاد عنه تطرُّفًا المستشرق دوزي (Dr R. Dozy) الذي وضع كتابًا عن اليهود في مكة منذ عهد داود إلى القرن الخامس بعد المسيح (Die Israeliten zu Mekka von Davids Zeit bis in’s 5th Jahrhundert unserer Zietrechnung) (Leipzig, 1864) وفيه من المزاعم الغريبة التي لم يوافقه عليها أصحاب النقد.

القسم الأول

في تاريخ النصرانية وقبائلها في عهد الجاهلية

الفصل الأول

تاريخ النصرانية في جزيرة العرب

هيا بنا الآن بعد هذه المُقدِّمات الوجيزة نبحث عن النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية، وهما البحثان اللذان جَعَلْنا الفصول السابقة كتمهيد لهما.

(١) الباب الأول: مبادئ النصرانية بين العرب

قلنا في مطلع كلامنا: إن الإفادات التي خَلَّفها كَتَبة العرب عن الأديان الشائعة في جزيرتهم قبل الإسلام نَزْرَة قليلة، وهذا القول يصحُّ أيضًا في النصرانية مع أنها كانت أقرب إليهم عهدًا، فإذا ذَكَروا الدين المسيحي لا يكادون يذكرون من تاريخه غير شيوعه في بعض القبائل، هذا إذا اعتبرت فصولهم الوجيزة التي خصوها بالأديان، بيد أنهم في عرض كلامهم عن بعض عادات العرب وقصصهم وأمثالهم ولهجاتهم حدَا بهم الأمر إلى أن يأتوا بمعلومات أخرى عديدة تجدها متفرقة متشعثة في تآليفهم لم يجمعها حتى الآن العلماء المستشرقون لانشغالهم بالبحث عن آلهة العرب وعن فَكِّ رموز دياناتهم القديمة، ونشر ما وجده السائحون في بلادهم من الكتابات الحجرية في اللغات الحميرية والنبطيَّة والصفويَّة فضلًا عن اليونانية واللاتينية أو ما استخرجوه بالحفر من الآثار بعد مخاطرتهم بالحياة.

وكذلك ورد في كُتب نصارى أهل الشرق، ولا سيما قدماء الروم والسريان وبعض الكَتبة اللاتينيين فوائد شتى عن النصرانية في أنحاء العرب دوَّنوها في معرض رواياتهم التاريخية وأوصافهم الاجتماعية ورِحَلهم العلمية وفي أخبارهم عن أولياء الله القديسين الشهداء أو النساء المُتعبِّدين في بوادي العرب مَمَّا رأَوه بالعيان أو استفادوه من شهود عيانيين أو كَتَبة موثوق بهم فهذه المعلومات أيضًا عظيمة الشأن غالية الأثمان لم تُجمع حتى اليوم تمامًا وإنما روى منها بعض الكتبة فصولًا تحتاج إلى توسيع وتكملة نخص

منها بالذِّكْر الكتب والمقالات الآتية، ما عدا ما ذُكِر من ذلك في التآليف التي عدَّدناها سابقًا:

(١) أعمال البولنديين: مقالة للأب كربنتيه اليسوعي في النصرانية بين العرب E. Carpentier S. j.: *De SS. Aretha et Ruma Commentarius (Acta SS., X, Octob*., 661–697).

(٢) أصول النصرانية في بلاد العرب للعلامة رَيْت Wright: *Early Christianity in Arabia* , London,1855.

(٣) الشرق المسيحي للأب لوكيان Lequien: *Oriens Christianus*.

(٤) دي ساسي: مقالة عن تاريخ العرب قبل محمد Le B^on^ de Sacy (S.): *Mémoire sur l'Histoire des Arabes avant Mahomet*.

(٥) تاريخ الدول العربية بين المسيح ومحمد J. J. Reiskii: *Primæ lineæ Historiæ Regnorum Arabicorum inter Christum et Mohammedem*.

اعلم أن أقدم الآثار النصرانية — كما لا يخفى — الأناجيل الأربعة، وتاريخ أعمال الرسل للقديس لُوقا، ورسائل بعض تلاميذ الرَّب الأولين، وكلها من القرن الأول للمسيح كما يقر به معظم العلماء من الإباحيين، فضلًا عن المؤمنين وإن كان أولئك يخالفون الكاثوليك في تعيين سَنة كتابة هذه الأسفار وأصحابها، فهذه الآثار لا تخلو من الدلائل على أن العرب نالوا شيئًا من أنوار النصرانية منذ بزوغ شمسها.

ولعل أول من استحق أن يُنظم من العرب بين تَبعَة السيد المسيح أولئك الشيوخ الذين عُرِفوا بالمجوس فأتوا إلى بيت لحم وأَهْدَوا الرب ألطافهم وسَجَدوا له في مَهْده، كما أخبر متى في إنجيله (ف٢)، أما كونهم من العرب أو على الأقل بعضهم فلنا على ذلك عدة بيِّنات تُرجِّح هذا الرأي إن لم تجزم به قطعيًّا، فمن ذلك أقدم نصوص الآباء والكتبة الكنسيين من القرن الثاني للمسيح إلى القرن الخامس الذين يجعلونهم عربًا كالقديس يوستينوس في القرن الثاني في مباحثه مع تريفون، وترتوليان المعلم في كتابيه ضد اليهود (ف٩) وضد مرقيون (ك٣، ف١٣)، وكالقديس قبريانوس في القرن الثالث في ميمرهِ عن كوكب المجوس، وكالقديس إبيفانيوس في القرن الرابع في شرحه لدستور الإيمان (عدد ٨)، والقديس يوحنا فم الذهب معاصره في الميمر الثاني على شرح إنجيل متى، وهكذا فَسَّر هؤلاء الكتبة آية إشعيا النبي عن المسيح (ف٦٠، ع٦): «كثرة الإبل

تغشاكِ بُكرانُ مِديَن وعيفة كلهم من شبأ يأتون حاملين ذهبًا ولبانًا يُبشِّرون بتسابيح الرب.» وسبق داؤد فقال (مز، ٧١): «ملوك سبأ وشبأ يقربون له العطايا.» فإن مِدْيَن وعيفة وشبأ كلها تدل على نواحي العرب.

وعليها تدل أيضًا الألطاف التي قدمها هؤلاء المجوس للمسيح؛ أي الذهب واللبان والمر، وكلها من مرافق بلاد العرب، فإن ذهب أنحاء العرب كان مشهورًا،[١] وتنبأ داؤد بتقدمته للمسيح (مز، ٧١) فقال: «يؤدون إليه مِن ذَهَب شبأ.» أما اللبان والمر فلا يكادان يُستَخْرَجان من غير جزيرة العرب فَيَتَّجر بهما أهلها كما شهد على ذلك قدماء الكتبة بعد سفر التكوين (٣٧: ٢٥).

ثم يؤيد هذا الرأي قول المجوس في الإنجيل لهيرودس بأنهم رأوا نجم المسيح في الشرق فأتوا ليسجدوا له، فقولهم: «في الشرق» يدل على بلاد العرب أكثر من سواها لوقوعها شرقي فلسطين، فضلًا عن كون العرب يُعْرَفون بالأسفار المقدَّسة ببني الشرق (وبالعبرانية פב קרם بمعناها) بل شاع هذا الاسم عند الرومان واليونان فاشتقوا منه Σαρακηνοί و Sarraceni.

وزد على ذلك أن النجم الذي رآه المجوس هو الكوكب الذي سبق وأنبأهم به بلعام في مشارف مُؤاب (سفر العدد ٢٤: ١٧) لما قال: «إنه سيطلع كوكب من يعقوب ويقوم صولجان من إسرائيل.» فتحققت النبوءة حيث تنبأ بها بلعام مرغومًا فتناقل العرب نبوءته ابنًا عن أب، وراقَبوا كوكبه حتى رأوه، ولا بأس من كون هؤلاء القادمين إلى مهد المسيح يُدعون مجوسًا، فإن هذا الاسم كان يطلق عند العبرانيين على حكماء الشرق عمومًا، وكثيرًا ما أثنى الكتاب الكريم على حكمة العرب في سفر أيوب، وسفر الملوك الثالث (٤: ٣٠)، وسفر باروك (٣: ٢٣)، وقد شهد كتبة اليونان بأن فيثاغورث الفيلسوف رحل إلى جزيرة العرب ليأخذ الحكمة عن أهلها، بل صرح بلينيوس الطبيعي بأن بلاد العرب كانت بلاد مجوس.[٢]

وفي الإنجيل الطاهر شاهِد آخَر على سَبْق العرب في معرفة السيد المسيح، وذلك لما ذكر المبشرون متَّى (ف٤، عدد: ٢٤–٢٥)، ومرقس (٣: ٧)، ولوقا (٦: ١٧) في جملة

---

[١] قال سترابون: إن الذهب لا يُعدَّن في بلاد العجم، لكن في بلاد العرب In Perside aurum nullum effoditur, effoditur tamen in Arabia (Strabo, I. XVI).

[٢] اطلب تاريخه الطبيعي: Fuere in Arabia quos Græci et ariali “Magos” vocant (Plin., Hist. Nat., XXV, S).

الجموع المتقاطرة إلى استماع تعاليم الرب أهل آدوم والمدن العشر وما وراء الأردن، فلا شك أن صيته يكون بَلَغ العرب القاطنين في تلك الجهات، بل ذكر الإنجيل (متَّى، ٨: ٣١؛ ومرقس، ٧: ٣١) أن السيد المسيح عَبَر الأردن وتَجوَّل في المدن الواقعة ما وراء ذلك النهر، ومر بالمدن العشر[٣] وصَنَع الآيات في بقعة الجرجاسيين، وكان أهل الحَضَر والمَدَر من العرب يسكنون تلك الأنحاء، فلا يقبل العقل أنهم لم يقتبسوا شيئًا من أنوار ابن الله الكلمة.

ثم ما لبث العرب أن نالوا نصيبًا طيبًا من الدعوة المسيحية، وذلك يوم حلول الروح القُدُس على التلاميذ في العليَّة الصهيونية كما أخبر القديس لوقا في سفر الأعمال (ف٢) فإنه صرح بأن العرب كانوا في جملة الذين عاينوا آيات ذلك اليوم الشريف وسمعوا الحَواريين يتكلمون بلغتهم العربية، فلا جرم أن بعضًا منهم كانوا في عِداد الثلاثة الآلاف المصطبغين ذلك اليوم (أعمال، ٢: ٤١) فلما عادوا إلى بلادهم نشروا بين مواطنيهم ما رأوا وسمعوا من أمر المسيح وتلاميذه.

وبعد مُدَّة قليلة أثار اليهود على تلامذة الرب تلك الاضطهادات التي ذَكَرها صاحب الأعمال (ف٨) فكانت على شبه الرياح التي تُقَوِّي الشجرة النامية وتُؤصِّل جذورها في الأرض وتنقل بذورها إلى أمكنة أخرى فتزداد وتَتوفَّر، وأول مَن يُذْكَر من الرُّسل أنه دخل بلاد العرب هو الإناء المصطفى القديس بولس فإنه أخبر عن نفسه في رسالته إلى أهل غلاطية (ف١، ع١٧) أنه بعد اهتدائه إلى الإيمان بظهور السيد المسيح له على طريق دمشق واعتماده على يد حنانيًّا التلميذ هرب من دسائس اليهود إلى جزيرة العرب، حيث أقام مدة، فمن البديهي أن ذلك الرسول الذي خصه الله بدعوة الأمم باشَر مذ ذاك الحين بالتبشير فدعا إلى النصرانية من رآهم من العرب مُستعِدِّين لقبول دين الخلاص؛ لئلا يحل به ذاك الويل الذي كان يوجس منه فزعًا، حيث قال[٣] (كور، ٩: ١٦): «الويل لي إن لم نبشر.» وعليه فنصادق على قول الذين يجعلون بولس الرسول كأحد رسل العرب، وقد عَدَّه بعض كتبة الروم كأول الدعاة إلى المسيح في بُصرى حاضرة حوران.

ولما جرى نحو السنة خمسين للمسيح افتراق الرُّسل إذ ساروا إلى أقطار المعمور ليقوموا بمهنة التبشير التي أمرهم بها سيدهم كان لبلاد العرب نصيب حسن في هذه القسمة المباركة، فإن التقاليد القديمة تتواصل وتتفق على أن بعض الرسل

[٣] اطلب في المشرق (١١: ٨١) مقالة للأب الفرد دوران في رحلة السيد المسيح إلى فينيقية والمدن العشر.

تلمذوا أمم العرب وقبائلهم من جهات مختلفة، وقد جمع العلامة يوسف السمعاني في مكتبته الشرقية في المجلد الثالث القسم الثاني (Bibl. Or. III^2, 1–30) كثيرًا من شواهد كتبة اليونان والسريان والعرب التي تثبت كرازة الرسل في أحياء العرب وفي أقطارها المتباينة كبادية الشام وجهات طور سينا واليمن والحجاز والعراق يذكرون منهم متى وبرتلماوس وتدَّاوس ومتيًّا وتوما، وقد نقل بعض هذه الشواهد المؤرخون المسلمون نفسهم كالطبري في تاريخه (ج١، ص٧٣٧-٧٣٨) وأبي الفداء في تاريخه (١: ٣٨)، والمقريزي في الخطط (٢: ٤٨٣)، وابن خلدون في تاريخ العبر (٢: ٤٧)، والمسعودي في مروج الذهب (١: ١٢٧)، هذا فضلًا عن بعض تلاميذ الرسل كفيلبس الشَّماس وتيمون وإدي أو تدَّاي ممن تناقل الرواة خبر بشارتهم بين العرب، وكفى دليلًا بهذه الشواهد المتعددة على أن الدعوة النصرانية التي امتدت إلى أقاصي المعمور لم تهمل جزيرة العرب القريبة من مهد الدين المسيحي، بل كان أهلها يقبلون كل يوم إلى فلسطين ويمتزجون بسكانها امتزاج الماء بالراح فيعاملونهم ويتاجرونهم، وقد ذكر القديس إيرونيموس في شروحه على نبوة أرميا (ف٣١) ونبوة زكريا (ف١١) أن أسواقًا سنوية كانت تقام قريبًا من سيحم (نابلس) يأتي إليها عدد عديد من نصارى ويهود ووثنيين يقصدونها للمتاجرة من بلاد الشام وفينيقية والعرب، فلا نتعدى إذن طورنا إن أكدنا انتشار النصرانية في بلاد العرب منذ عهد الرسل، وبذلك تحققت نبوءات الأنبياء الذين سبقوا وتنبَّئوا باهتداء العرب وإيمانهم بالمسيح، قال النبي إشعيا بعد وصفه العجيب للسيد المسيح (ف١١، ع١–١٠) ذاكرًا للشعوب التي تقبل شريعته فجعل منها آدوم ومؤاب، وكرر ذلك في الفصل ٤٢ وعدد قبائل قيدار وبلاد سلع (Pétra) وفي الفصل ٦٠ ذكر بين المستنيرين بأنوار أورشليم وملكها الموعود مدين وعيفة وسبأ وقيدار والنبط، وفيه يذكر قدومهم على المسيح ليُهْدوه ألطافهم من ذَهب ولبان، وكان النبي داؤد (في مزمورَيْهِ، ٦٧، ع٣٢؛ و٧١: ٨٠–١٠) سبق إشعيا في ذكر سجود العرب للمسيح وطاعتهم له، ومثلهما أرميا في فصله التاسع، حيث ذكر «افتقاد الرب للأمم المختونين مع الغُلْف ... أدوم وبني عَمُّون وموآب وكل مقصوصي الزوايا الساكنين في البريَّة.»

وفي السنة ٧٠ للميلاد تَمَّت نبوءة المسيح عن خراب أورشليم فلم يبقَ فيها حجر على حجر وتَفرَّق بقايا اليهود شَذَرَ مَذَر بعد أن قُتل منهم وسُبي الألوف ومئات الألوف إلا أن من كانوا تنصَّروا منهم كانوا بأمر الرب سبقوا وخرجوا من المدينة وعَبَروا الأردن

وسكنوا في مُدن العرب التي هناك كما أخبر أوسابيوس المؤرخ،[٤] فاستوطَنوا تلك الأصقاع وكان يرعاهم أساقفة من جنسهم، وقد وجد أصحاب الآثار في أيامنا عددًا دثرًا من كتبهم الدينية كالأناجيل الأربعة وبعض أسفار التوراة وقطعًا طقسية وأناشيد وصلوات وغير ذلك مما يشهد على نصرانيتهم وسُكناهم زمنًا طويلًا في تلك النواحي، وهذه البقايا كانت مكتوبة باللغة الفلسطينية؛ أي الآرامية الشائعة في فلسطين، ولا ريب أن العرب الذين حل بينهم هؤلاء النصارى أخذوا شيئًا من تعاليمهم واستضاءُوا بأنوار دينهم.

وإذا استفتينا أقدم آثار النصرانية وما كتبه آباء الكنيسة الأولون في القرون الأولى للميلاد وجدناهم يذكرون الدعوة المسيحية في جزيرة العرب إما تعريضًا وإما تصريحًا.

فمن تنويههم بذلك قولهم جميعًا بأن الإيمان المسيحي «منتشر في العالم كله» فإنْ صحَّ هذا القول في البلاد القاصية حتى الهند والعجم وجزائر البحر أفلا يكون أيضًا صح بالحري في بلاد العرب المُجاوِرة لمنبع الدعوة المسيحية، فترى القديس مرقس في آخر إنجيله (١٦: ٢٠) مؤكدًا بأن تلاميذ الرب «خرجوا وكرزوا في كل مكان والرب يعمل معهم ويثبت الكلام بالآيات.» وبعده بقليل كان يشكر بولس الرسول أهل رومية في رسالته إليهم (١: ٨) «على أن إيمانهم يبشَّر به في العالم كله.» وفي رسالة القديس إغناطيوس النوراني تلميذ الرسل إلى أهل أفسس (PP. GG., V, col, 647) يذكر «الأساقفة الذين يرعون المؤمنين في العالم كله ويتفقون جميعًا بالإيمان.» ومثله معاصره القديس بوليكربوس الذي كان يدعو المسيح «راعيًا للكنيسة الكاثوليكية المنتشرة في العالم كله.» (ibid., col. 1035) فهذه النصوص وغيرها كثير تثبت صريحًا انتشار الدين المسيحي في العالم كله فتشمل أيضًا بلاد العرب، ولولا ذلك لما أمكن القديس أوغسطينوس أن يقول في شرحه على المزمور ٦٦ (PP. LL. t. 36, col., 669): «نحن الكاثوليك مُنبَثُّون في الأرض كلها لأننا نعلن بكل مكان ما للسيد المسيح من المجد ونشترك به.» ولَمَا استطاع قبله كيرلس الأورشليمي أن يقول في تعليمه الثامن عشر (PP. GG., t. 33, col. 1043): «تُدعى كنيستنا كاثوليكية لأنها منتشرة في كل المسكونة من أقاصي تخوم الأرض إلى أقصى حدودها.» وسبقهما القديس قبريانوس فقال فقي كتاب وحدة الكنيسة (PP. LL., IV. Col. 502): «إن الكنيسة تلقي أشعتها في كل المعمور.» وقال معاصره القديس

[٤] اطلب تاريخه الكنسي: ك٣، ف٥ (Migne, PP. GG., XX, 221).

إيريناوس في كتابه ضد الهرطقات (PP. GG. VII. Col. 550): «إن الكنيسة المنتشرة في سائر العالم قد وَرِثت الإيمان من الرسل وحفظته بكل حرص.»

وزاد عن هؤلاء إيضاحًا في أواسط القرن الثاني للمسيح القديس يوستينوس الشهيد من أهل نابلس في مباحثته مع تريفون اليهودي (PP. GG., VI, col. 750) فَعدَّ بين مَن دانوا بدين المسيح «الساكنين في الخيم وأهل البادية» قال: «ليس مطلقًا جنس من البشر سواء كانوا من اليونان أو البرابرة وبأي اسم تسمَّوا حتى العائشين في العربات «الإسقيثيين» والساكنين في الخيم الذين يرعون المواشي وأهل البادية الذين لا يحلون في بيت إلا وبينهم جموع يقدمون الصلوات والقربات للرب باسم يسوع المصلوب.»

وقال إيريناوس معدِّدًا الشعوب التي دخلت بينهم النصرانية (PP, GG. VII. Col. 554)، وقد دعا العرب بأهل الشرق كما روى مفسروه: «هذا الإيمان المسيحي هو اليوم مُنْبَث في العالم كله ... فترى الألسنة مختلفة والنفس واحدة والقلب واحدًا سواء اعتبرت آل جرمانية أو الأيبريين أو القلتيين أو سكان الشرق أو مصر أو ليبية والأمم التي في أواسط الدنيا فكلهم يعتقدون اعتقادًا واحدًا يشبه إيمانهم الشمس التي تضيء العالم كله وهي واحدة.»

وللمعلم ترتليان في أوائل القرن الثالث نصوص متعددة يؤكد فيها انتشار النصرانية بين كل شعوب زمانه مهما كانت بعيدة أو مجهولة فما قولك بالعرب؟ قال في كتابه إلى الأمم (Ad Nationes, c. 8): «تأمَّلوا أنه لا يوجد اليوم أمة إلا ودخلتْ فيها النصرانية.» (non ulla gens non christiana)، وفي الفصل السابع من رده على اليهود يعدد في جملة المُتَنَصِّرين ليس فقط الأمم الخاضعة للرومان «لكن غيرها كثيرة كالسرماتيين والداقيين والجرمانيين والإسقيثيين وقبائل مجهولة وأقطار متفرقة وجزائر البحر ففيها كلها يعرف اسم المسيح وفيها يملك.»

وكثيرًا ما دعا الكتبة جزيرةَ العرب باسم الهند لا سيما جهات اليمن، وقد شاع هذا الاسم بهذا المعنى (اطلب: البولنديين، في المجلد العاشر من أعمال القديسين، من شهر ت١، ص٦٧٠)، وإليها أشار القديس يوحنا فم الذهب في رده على اليهود (PP. GG., XXX. 500) قال: «انظر بأي سرعة انتشرت الكنيسة في كل أطراف المسكونة وبين كل الشعوب، وذلك بمجرد فضل الإقناع حتى إن أممًا كثيرة تركت أديانها وتعاليم أجدادها وشَيَّدت هياكل لتعبد فيها الرب، فمنها ما هو واقع في ممالك الرومان كالإسقيثيين والمغاربة وأهل الهند، ومنها ما هو خارج عن تخوم الرومان إلى جزائر بريطانية وأقاصي العالم.»

وبعضهم قد دَعَوهم صريحًا باسم العرب أو الإسماعيليين، قال أرنوبيوس في القرن الثالث للمسيح يذكر الشعوب الوثنية التي بَشَّر بينها الرسل، فأنشئت الكنائس لمن تنصر منهم (ك٢، ف٥ و١٢): «انظروا العجائب التي جرت في أنحاء المعمور منذ ظهور المسيح حتى إنه لا يكاد يوجد الآن أمة عريقة بالهمجية إلا لطفت خشونتها محبة به وأخضعت عقلها للإيمان بتعاليمه، فاتفقت على ذلك أجيال الناس المتباينة المختلفة طباعًا وآدابًا، ومما نقدر أن نحصيَهُ من هذه الشعوب أهل الهند والصين والفرس والماديين والذين يسكنون في بلاد العرب ومصر وجهات آسية وسوريًّا … وفي كل الجزائر والأقاليم.»

فترى أنه أحصى بلاد العرب في جملة من دان للمسيح في ذلك العهد، وقد ذكرهم المؤرخ سوزمان (PP. GG. t, 67, 1476.) في القرن الرابع وأفاد «إن بعض قرى العرب ودساكرهم يوجد فيها أساقفة.» وكذلك صرح بذِكْرهم تاودوريطس في القرن الخامس في كتابه المعروف بدواء أضاليل اليونان (PP. GG. T, 88, p. 1037.) قال: «ليس فقط قد خضعت للمسيح الأمم الخاضعة لشرائع الرومان كالحبش المتاخمين لتيبة وقبائل الإسماعيليين … بل حتى غيرهم من الأمم أحنوا رءوسهم لتعاليم الصيادين وشرائع الإنجيل كالسرماتيين والهنود والعجم والصينيين (Seræ) والبريطانيين والجرمانيين»، وقال مثل ذلك في محل آخر في كتابه المسمَّى التاريخ الرهباني (PP. GG. t,. 82, p. 1471).

(٢) الباب الثاني: النصرانية بين عرب الشام

إذا نظرت في خارطة إلى بحر الشام وحدَّدت مدينتيه الساحليتين طرابلس شمالًا وعَكَّا جنوبًا، ثم سِرْت منهما على خَطَّين متوازيين إلى الشرق بلغ بك المسير بعد مرحلتين من طرابلس وثلاث إلى أربع مراحل من عكا إلى مفاوز مُتَّسعة تمتد على مدى البصر إلى جهة تدمر، فالفرات شمالًا وإلى مشارف الشام فاللجا وتلال الصفا حتى جبال حوران وسهول البلقاء جنوبًا، فكل تلك النواحي الرحبة الأرجاء التي تقيس نحو أربعمائة كيلومتر طولًا في مثلها عرضًا تعرف اليوم ببادية الشام.

ولم تكن هذه البادية في سالف الأجيال قفرة قليلة السكان لا تكاد تجد فيها كاليوم غير قُرًى معدودة أو بعض أحياء البدو الذين يتنقلون فيها مع مواشيهم انتجاعًا للمراعي، وإنما كانت بعد تَملُّك الرومان عليها في أوائل التاريخ المسيحي أصبحت كروضة غَنَّاء شَيَّد فيها أصحابها المدن العامرة لسكنى الأهلين وابْتَنَوا الحصون الحريزة تأمينًا للطُّرق، وعزَّزوا الزراعة والفلاحة وأنبطوا الآبار وحفروا الصهاريج لجمع مياه

الأمطار وخدَّدوا القُنِيَّ لسقي المزروعات، والآثار الباقية من هذه الأعمال إلى يومنا تنطق بعمران تلك الأصقاع وحضارتها الراقية.

أما سكَّانها فكانوا من عناصر شتى، بينهم الرومان المستعمِرون، لا سيما من الجنود الذين أتمُّوا مدة خدمتهم، ثم جالية اليونان من بقايا الدول السابقة منذ عهد الإسكندر والسلوقيين، ثم الوطنيون والفِنِيقيُّون الذين احتلوا تلك البلاد لاستثمارها والمتاجرة فيها.

وكانت تلك الأنحاء أوفق ما يتمناه العرب لسكناهم فترى أهل الحَضَر منهم يسكنون القرى ويتعاطون أشغال الفلاحة، أما أهل الوَبَر فكانوا يَرعون مواشيهم في الأرياف ويرتزقون بلحومها وألبانها وأصوافها، وقد نما فيها عددهم حتى رسخت قدَمُهم وصار إليهم الأمر.

وكان الرومان في بدء احتلالهم يعدُّون العرب كخطر على البلاد، لما اعتاده أهل البدو من الغزوات وشن الغارات والسلب والنَّهب فحاوَلوا غير مرة كسر شوكتهم غير أنهم عرفوا بالاختبار أنهم لا يظفرون بهم ظفرًا تامًّا ما لم يستنجدوهم ويستعينوا ببعض عشائرهم لقطع دابر الشاذ الباقين منهم، فحالَف الرومان شيوخ قبائلهم ودفعوا لبعضهم قسمًا من السلطة على بادية الشام بصفة شيوخ أو ملوك فكانوا يتصرفون مع أهل جنسهم تَصرُّف السيد مع المَسود، وربما زاحموا الدولة الرومانية كلما كانوا يشعرون بانتفاض حَبْلها أو ضعف وُلاتها، فترى النَّبطيِّين منهم في أواسط القرن الأول للمسيح مُتقلِّدين الحكم على دمشق نفسها، كما ورد عن الحارث ملكهم في رسالة بولس الرسول في رسالته الثانية إلى أهل كورنتية (١١: ٣٢) وتبعه في الحكم غيره من النَّبَط، وقد أفادنا تاقيتس المؤرِّخ في تاريخ طيطس بأن الرومان كانوا اتخذوا في مقدمة جندهم كتيبة من العرب كانوا يتقدمون الجيش في محاربة أورشليم على عهد وسبسيانوس وابنه طيطس، بل كان الرومان يدفعون لبعض الفِرَق العربية وظائف معلومة ليقوموا بحراسة التخوم الرومانية من جهة البادية، وقد أخبر أميان مرقلينوس (Ammien Marcellin, XXV, 6.) في ترجمة يليانوس الجاحد بأن بعض شيوخ هؤلاء المتحالفين قَدموا على القيصر وشَكَوا إليه تأجيل عمَّاله في دفع رواتبهم فغضب يليانوس وزَجَرَهم بقوله: إنه أعدَّ لهم حديدًا (لقتالهم) لا ذهبًا (لأجرتهم)، فخرجوا ناقمين على الرومان ولحقوا بجيش العجم وحاربوا يليانوس مع جيش سابور فكانت عليه الدولة.

أما الديانة التي كانت عليها أمم بادية الشام وقبائلها فكانت خلطًا من أديان الوثنية، فكان اليونان والرومان أَتَوا بمعبوداتهم المنوطة بالسيارات كالمشتري وزُحَل

وعُطارد والزُّهرة والمريخ، فأكرموها إكرام أجدادهم ومواطنيهم لها في أثينة ورومية، ونشر الفينيقيون عبادة تموز وعشتروت والبعل، أما النبط فكانوا يُفضِّلون ذا الشرى (Dusares) واللات وشمس ويتع، ثم اختلطت هذه العناصر المتباينة وتداخلت أديانهم ببعضها وأكرم كل قوم معبودات القوم الآخَرين.

وفي غضون ذلك ظهرت النصرانية وقامت لمناهضة تلك الأديان كلها دون أن ترضى أن تختلط بها أو تبادلها بشيء، والمُرجَّح أن الدين المسيحي دخل بلاد العرب من غربي الجزيرة من جهة الشام حيث انتشر بعد صعود السيد المسيح بزمن قليل كما ورد في سفر الأعمال، ولا يقبل العقل أن بولس الرسول رحل إلى العربية كما جاء في رسالته إلى أهل غلاطية (١: ١٧) دون أن يكون سبقه إليها أحد من المُتَنَصِّرين أو خلف فيها أثرًا من دِينه.

والظاهر أن النصرانية دخلت أولًا في حاضرة حوران أعني بُصرى كما تشير إليه التقاليد القديمة التي تناقلها الكتبة اليونان والسريان ثم العرب المسلمون من بعدهم، فقد ورد في جدول دورتاوس السوري لتلامذة السيد المسيح السبعين أن تيمون أحد الشمامسة السبعة المذكورين في سفر الأعمال (٣: ٨) نشر الدعوة النصرانية في مدينة بُصرى فعُدَّ كرأس أساقفتها، وفي الروايات التي تداولها الكتبة النصارى عن الرسل وأثبتها السمعاني في مكتبته الشرقية (ج٤، ص١–٢٠) أن البعض منهم تلمذوا العرب وخَصُّوا بهم عرب بادية الشام وحوران كما يظهر من القرائن، وصرح بالأمر المقريزي في كتاب الخطط والآثار (ج٢، ص٤٨٣) فروى عن متَّى العشَّار «أنه سار إلى فلسطين وصور وصيداء وبصرى»، وقال ابن خلدون في تاريخه (٢: ١٥٠): «إن برتلماوس بعث إلى أرض العرب والحجاز»، أما تدمر وباديتها فذكر سليمان أسقف البصرة في كتابه السرياني المعنون بالنحلة (Budge: *Book of the Bee, p. 106*.) أن يعقوب بن حلفا بشَّر فيها.

على أن هذه الشواهد في الدعوة النصرانية الأولى في بادية الشام تعم كل عناصر الأهلين ولا تفرز العرب من سواهم، فتُبْقي شكًّا في تنصُّرهم إلا أن ما يتبع ذلك العهد من الشواهد التاريخية أصرح وأجلى.[٥] فقد أفادنا مُؤرِّخو العرب أن القبيلة الأولى التي تولَّت

[٥] ومن أعلام الأمكنة الدالة على نفوذ الرومان بين العرب ما دعاه ياقوت (١: ٩٣٥) بثمد الروم بين الشام والمدينة.

على بادية الشام باسم الرومان إنما كانت قُضاعة من قبائل اليمن، ثم غلبتها على الأمر سليح ثم جاءت بعدهما قبيلة غسان فملكت على تلك الجهات وبَقِي مُلْكُها إلى ظهور الإسلام، والحال أن هذه القبائل الثلاث قد دانت بالنصرانية على رأي أولئك المؤرخين، قال اليعقوبي في تاريخه (طبعة ليدن، ١: ٢٣٤) عن قُضاعة: «إن قُضاعة أول من قَدم الشام من العرب فصارت إلى ملوك الروم فمَلَّكُوهم، فكان أول الملك لتنوخ بن مالك بن فهم ... فدخلوا في دين النصرانية فملَّكهم ملك الروم على مَن ببلاد الشام من العرب.» وكذلك بنو سليح فقد صرح بنصرانيتهم المسعودي في مروج الذهب (طبعة باريس ٣: ٢١٦) قائلًا: «وردت سليح الشام فتغلبت على تنوخ وتنصَّرت فمَلَّكها الروم على العرب الذين بالشام.»

أما نصرانية غسَّان فهي من الأمور التاريخية الراهنة التي لا يختلف فيها اثنان، على أن كاتبًا من البَغادِدَة أغفل اسمه كان تصدَّى لنا في هذه المسألة ونَشَر في المقتبس (٢: ٣٨٢) رأيًا خالف فيه مجموع المؤرخين وزعم أننا بنسبتنا النصرانية إلى غسان ركبنا شططًا، فرددنا عليه بمقالتين ضافيتين نشرناهما في الشرق (١٠: ٥١٩–٥٥٤) جمعنا فيهما البينات اللامعة والشواهد الساطعة التي تثبت تَديُّن غسَّان وأحيائها وملوكها بالنصرانية، ولا بأس أن يقال: غسان كلها مع إمكان وجود بعض أفراد أو عشائر لم يكونوا نصارى فإن الكلام على الأغلبية، ولإثبات زَعْمنا أتينا بالأدلة التابعة التي لم نركن فيها إلى أقوال مؤرِّخِي العرب فقط وكل ذي انتقاد يعلم أن كتبة العرب لم يُدوِّنوا تاريخًا صحيحًا قبل القرن الثامن، وإنما نقلنا نصوص كَتَبة يُوثَق بهم من يونان ورومان وسريان ممن كانوا معاصرين للحوادث التي فصلوا أخبارها وأمكنهم الوقوف على صحَّتها، إما بالمعاينة وإما بصوت العموم.

(٢-١) نصرانية غَسَّان

غَسَّان قبيلة يمنية قدمت جهات الشام بعد انفجار سد مأرب وسَيْل العَرِم، فاستوطنوها ثم تَغلَّبَت على أهلها بعد سليح كما سبق فصار إليها الأمر وتَبِعت قُضاعةَ وسليحًا في نصرانيتهما، والكَتَبة العرب لسان واحد في إثبات ذلك فإن تَتبَّعْنا آثار النصرانية في كتبهم وَجدْنَاهم يذكرون لملوك غَسَّان الأوَّلِين أبنية تدل على نصرانيتهم، فإن حمزة الأصبهاني في تاريخ الملوك والأنبياء (ص١١٧) يؤكد أن ثاني ملوك غسان عمرو بن جفنة بنى بالشام عدة ديورة «منها دير هند، ودير حالي، ودير أيوب.» ثم ذكر (ص١١٨) للأيهم

بن الحارث بن جبلة أخي المنذر الغساني الأكبر أنه «بنى دير ضخم، ودير النبوة»، ومن المعلوم أن تنصُّر الملوك يدلُّ عادة على تنصُّر رعاياهم، وفي الواقع لا تكاد تجد مؤرخًا عربيًّا إلا يشير إلى نصرانية غسَّان، فالمسعودي في مروج الذهب طبعة مصر (١: ٢٠٦)، وفي كتاب التنبيه والإشراف طبعة ليدن (ص٢٦٥)، وابن رسته في كتاب الأعلاق النفيسة (طبعة ليدن، ٢١٧)، وأبو الفداء في تاريخه (١: ٧٦)، والنويري (Rasmussen, 72) وغيرهم لا يَدَعُون في الأمر رِيبًا، وقال اليعقوبي من كَتَبة القرن العاشر للمسيح (في تاريخه، ١: ٢٩٨): «وأما مَن تنصُّر مِن أحياء العرب فقوم من قريش ومن اليمن طي وبَهْراء وسليح وتنوخ وغسان ولخم.»

وقال في (ج١، ص٢٣٣) بعد ذِكْرِه لتَنَصُّر بني سَلِيح في الشام: «وتَنصَّرَت غسان مملكة من قِبَل صاحب الروم.» وجعل تَنصُّرها على عهد «جَفْنة بن عليَّة (ثَعلبة) بن عمرو بن عامر»، وكذلك الفيروزآبادي في مُقدِّمة قاموسه: «أن كثيرًا من ملوك الحيرة واليمن تَنصَّروا، وأمَا ملوك غسان فكانوا كلهم نصارى»، وقد أفادنا ابن خلدون في تاريخه (٢: ٢٧١) عن أخبار غَسَّان بعد الإسلام ما حرفه: قال:

«وقامَت غَسَّان بعد مُنْصَرفها من الشام بأرض القسطنطينية حتى انقرض مُلك القياصرة فتَجَهَّزوا إلى جبل شركس وهو ما بين بحر طبرستان وبحر نيطش الذي يمده خليج القسطنطينية وفي هذا الجبل باب الأبواب، وفيه من شعوب التُّرك المُتَنَصِّرة، والشَّرْكس، وإركس، واللاص، وكسا، ومعهم أخلاط من الفُرس واليونان.»

وقال السيوطي في المُزْهِر نقلًا عن كتاب الألفاظ والحروف بأن اللغة العربية لم تؤخذ من قبائل شتى إلى أن قال: إنها لم تؤخذ «ولا من قُضاعة وغَسَّان وإياد لمجاورتهم أهل الشام وأكثرهم نصارى يقرءون بالعبرانية» يريد بالعبرانية السريانية الفلسطينية.

وممن أشار إلى نصرانية غَسَّان النابغة في بائيته التي مدح فيها ملوك غسان وأثنى على دينهم وذكر عيد الشعانين فقال:

مَحلَّتُهم ذات الإله ودِينهم قديم فما يَرْجُون غير العواقبِ
رِقَاق النِّعال طَيِّبٌ حُجُزاتهم يُحَيَّون بالرَّيْحان يوم السَّباسبِ

هذا ما عَلِق في ذهن العرب عن نصرانية غسَّان ولعله كافٍ لِيُقْنِع بِشيُوع دين المسيح في بادية الشام كلها؛ لأن كلامهم يدل على أن النصرانية بتلك الأصقاع ما كانت محصورة في غسان، بل امتدَّت أيضًا إلى القبائل العربية من أهل الحضر والمَدر الذين

سكنوا في تلك الأنحاء واختلطوا بمستعمريها، فمن أراد أن يتتبع تاريخ النصرانية بينها ينبغي عليه أن يجمع ما دوَّنه المؤرخون اليونان والرومان والسريان منذ انتشار الدين المسيحي في تلك الجهات؛ إذ لا يجوز القول بأن النصرانية لم تؤثر في غير الأجانب المستوطنين فيها وأقوالهم جديرة بالاعتبار وهم معاصرون للأمور التي كتبوا عنها.

فممَّا رواه أوسابيوس القيصري في تاريخه الكنسي (ك٦، ف١٩) أن النصرانية كانت في مبادئ القرن الثالث للمسيح راسخة القَدَم وافرة العدد في بُصْرى حاضرة حوران. وقد أخبر عن أوريجانوس المعلم الإسكندري الشهير أنه رحل ثلاث مرات إلى بُصْرى، فالمرة الأولى استدعاه حاكمها الروماني المدعو جالِّيوس سنة ٢١٧م ليفقهه تعاليم الدين المسيحي وينصِّره فجاء أوريجانوس إلى بلاد العرب ملبِّيًا دعوته وبعد أن أتم مرغوب الحاكم وعمَّده رجع إلى الإسكندرية، أما الرحلة الثانية فباشرها أوريجانوس كما أفاد أوسابيوس في تاريخه (ك٦، ف٣٣) بسبب بيرلُّوس مطران بُصْرى، فإن هذا الرجل كان من مشاهير أساقفة زمانه في بلاد العرب ألَّف رسائل ومقالات دينية وأدبية فصيحة الألفاظ بليغة المعاني لولا أنه شَطَّ في كلامه عن لاهوت السيد المسيح فجرى بينه وبين الأساقفة معاصريه جدال وخصام، ولما لم يُقْنِعوه أرْسَلوا إلى أوريجانوس ليأتي إلى حوران، فيباحث بيرلُّوس المذكور ويرده عن ضلاله فعاد المعلم الإسكندري إلى حاضرة بلاد العرب، وبعد أن اجتمع بأسقفها وتحقَّق شَطَطَه عَرَض عليه الرأي الصحيح وأزال رِيبه فجاهر بيرلُّوس بخضوعه للإيمان المستقيم أمام مجمع من الأساقفة عُقد لذلك وانصرف أوريجانوس راجعًا إلى الإسكندرية، ففي التئام هذا المجمع دليل واضح على نفوذ النصرانية في بادية الشام ووجود أساقفة في مدنها كجرش (Gérasa) وربة عمَّان (Philadelphie).

أما المرة الثالثة التي قدم فيها أوريجانوس الإمام إلى بادية الشام فكانت بسبب بدعة ابتدعها بعض أهلها فزعموا أن النفوس تَفْنَى بالموت كالأجساد ثم تُبْعَث يوم الدَّيْنُونة معها لتنال الثواب عن أعمالها، فلمَّا عرف أوريجانوس بهذا القول أسرع إلى تفنيده في مجمع ضم أربعة عشر أسقفًا وبَيَّن أمام الجموع الملتئمة لاستماعه حقيقة تعليم الكنيسة فَرَد الضالين وثبَّت الإيمان في قلوبهم وانكفأ منصرفًا إلى مركزه (راجع: تاريخ أوسابيوس، ك٦، ف٣٧).

وكان قبل ذلك بمدة اشتهر مبتدِع آخَر نصراني من عرب الشام اسمه منيم (Monoimos) كان هذا كططيانوس (Tatien) تلميذًا للقديس يستينوس النابلسي

والفيلسوف الشهيد لكنه خلط بين الآراء الفلسفية والإيمان كما ذكر تاودوريطوس في كتاب الهرطقات (Fab. Hær., I, 18.) واتضح مؤخرًا من كتاب القديس هيبوليتس الشهيد المدعو بفيلوسوفومينا Philosophoumena.

ومما يُثبت ارتقاء النصرانية واتساع دائرتها في بادية العرب أن منها خرج أول قياصرة الرومان النصارى، ونريد به فيلبُّوس العربي الذي ملك على رومية من السنة ٢٤٤ إلى ٢٤٩م، وكان أصله من بُصْرى ثم تَجنَّد في جيوش الرومان ولم يزل يتقلب في كل مناصب الجندية حتى صار كبير رؤساء العسكر ووزير الحرب وصحب غرديان الثالث في محاربة الفُرْس، إلا أن الجند شغبوا على الملك في طريقه وأقاموا بدلًا منه فيلبُّوس العربي، وكان فيلبوس نصرانيًّا كما تشهد على دينه الآثار التاريخية ورسائل أوريجانوس إليه، كما يشهد على نصرانيته نقود طُبِعَت باسمه مع رموز نصرانية كصورة الطوفان وفُلْك نوح والحمامة والغراب، وكذلك يشهد على نصرانيته القديس إيرونيموس (De Viris Illustribus, no 54). وقد زعم البعض أن غورديان قتل بإغرائه إلا أن غيرهم ينكرون ذلك بتاتًا ولعله لم يخل من الطمع فلم يدافع عن مولاه كما وجب عليه؛ ولذلك قد أخبر أوسابيوس القيصري (ك٦، ف٣٤) وصاحب التاريخ الإسكندري Chronicon Alexandrinum أنه لما عاد راجعًا بالعسكر إلى رومية مر بأنطاكية وأراد أن يشترك مع النصارى في موسم عيد الفصح إلا أن أسقف المدينة القديس بابيلاس تصدَّى له ولم يسمح له بمشاركة المؤمنين إلا بعد اعترافه بخطاياه وتقدمته التوبة عنها.[٦] وكانت أيام فيلبوس العربي أيام راحة وعمران للدولة الرومانية، وفي عهده أقيمت الأفراح العمومية في كل المملكة بنسبة مرور ألف سنة على مدينة رومية ومن أعماله تشييد مدينة «عَمَّان» في حوران ودعاها باسمه Philippopolis ونالت بهمته النصرانية سلامًا مؤقتًا فانتشرت أي انتشار إلى أن فتك به أحد القُوَّاد المدعو دقيوس وقتله مع ابنه وتولَّى الأمر مكانه، قال أوسابيوس (ك٦، ف٣٩): إن دقيوس هذا أثار على النصارى اضطهادًا دمويًّا بُغضًا بفيلبوس سلفه.[٧] وفي تاريخ أوروزيوس «أوروشيوس» من كتبة

[٦] اطلب أيضًا: تاريخ مختصر الدول لابن العبري (ص١٢٦).

[٧] قال أوروزيوس «أوروشيوس» المؤرخ الإسباني في القرن الخامس للميلاد عن فيلبس العربي: «إن فيلبس سبق كل الأباطرة (القياصرة) في دينه بالنصرانية.» Hic “Philippus Paul”, Primus Imperatorum omnium Christianus fuit *Paul–Orose, Hist.* VII, c.20 (Arabs).

القرن الخامس (ك٧، ف٢١) أن دقيوس قتل فيلبوس وابنه بسبب تنصرهما وعليه يكون موتهما استشهادًا، وقد جمع البولنديون في أعمال القديسين (Acta SS. Janv., II, 617–621.) عدة شواهد تثبت ذلك، فكفى به فخرًا لبلاد العرب أن أول قياصرة رومية المُتَنَصِّرين كان مولده في ربوعها وسبق قسطنطين في تَنَصُّره.

كل ما سبق قد تم قبل القرن الرابع فلما نالت النصرانية حريتها وخرجت ظافرة من الدياميس زاد الدين بذلك رونقًا وعزًّا في بادية العرب وكافة مدنها، ولنا أدلة على ذلك في الكنائس العديدة التي تَشيَّدَت مذ ذاك العهد بكل أنحاء حوران والصفا واللجا وجولان والبلقاء التي وَجَد كثيرًا من بقاياها الجليلة الأثريون الذين تجوَّلوا في تلك الجهات «كوادنغتون (Waddington)»، و«دي فوكويه (de Vogüé)»، و«وتشتين (Wetzstein)»، و«راي (Rey)»، وDussaud، وآباء رهبانيتنا، وكلهم وصفوا هذه الآثار ورسموا تصاويرها وذكروا تواريخها.[٨]

ومن هذه الآثار مئات من الكتابات اليونانية واللاتينية[٩*] وجدت في نيف ومائة موضع فيها أسماء كنائس وأساقفة ووجهاء من النصارى وعليها رموز نصرانية لا شك فيها؛ كالصليب في هيئات مختلفة، وأول حروف اسم السيد المسيح، والأنجر، وسعف النخل، والسمكة، ومنها ما يحتوي شعارًا دينيًّا صريحًا كآية التوحيد «الله واحد هو» وتسبحة السيد المسيح «قد انتصر المسيح» أو «المسيح إله هو»، وبين تلك الكتابات كتابة عربية سبقت الإسلام خمسين سنة بأحرف عربية تاريخها سنة ٤٦٣ لِبُصْرى أي ٥٦٨ للمسيح وُجدت في حران وجاء فيها ذكر مشهد أقيم تذكارًا للقديس يوحنًّا المعمدان على يد أحد شيوخ القبائل العربية المدعو شراحيل.[١٠]

وكذلك توفرت شواهد المؤرِّخِين الذين أبقوا لنا ذكرًا للنصرانية ولأمورها الدينية والمدنية في بادية الشام، فمنها جداول الأساقفة الذين حضروا المجامع المسكونية الكبيرة التي سبقت الإسلام، وبالأخص الأربعة الأولى في نيقية والقسطنطينية وأفسس

---

[٨] راجع: كتاب وادنغتون، ودي فوكويه (Waddington et de Vogüé: *syrie Centrale: Architecture civile et religieuse du I^{er} jusqu'au 7° siécle*, Paris, 1864).

[٩*] بين القرن الثاني والقرن الرابع للمسيح.

[١٠] اطلب: كتاب لوبا ووادنغتون (Ph. Le Bas et Waddington: *Inscriptions Grecques et ariales,* III, p. 563).

وخلقيدونية، فهناك أسماء عدة أساقفة أَتَوا من مدن بادية الشام وصادقوا على أعمال تلك المجامع بتوقيعهم وأسماء بعضهم عربية محض كالحارث أو منقولة عن العربية كتاودولس تعريب عبد الله وتاودورس تعريب وهب الله.

وكان هؤلاء الأساقفة من أهل الحضر يسكنون مدن بادية الشام، إلا أن غيرهم كانوا يسكنون المَضارب ويتنقلون مع القبائل الراحلة الناجعة المتقلبة في المجالات ارتيادًا لمراعي غنمها ومصالح إبلها، وقد بلغتنا أسماء بعضهم ممن عُرِفوا بأساقفة الخيام وحضَر بعضهم المجامع الكنسية وأمضوا عليها.

واشتهر بعض أساقفة البلاد العربية بما خلفوه من الآثار، منهم القديس طيطس رئيس أساقفة بُصرى وضع عدة تآليف أعظمها شأنًا ما كتبه في تزييف بدعة ماني والمانويين وكانت هذه التآليف مفقودة حتى تَوفَّق إلى اكتشافها في عهدنا بعض المستشرقين فوجدوها في السريانية ونشروها مع ترجمتها، وكان طيطس في عهد يليانوس الجاحد ولم يَخَف من تحذير شعبه عن كفر ذلك القيصر المارق.

واشتهر في القرن الخامس للميلاد خلفه على كرسيه القديس أنطيفاتر صاحب مصنفات عديدة في مواضيع دينية شتى كمقالات في إيضاح الإيمان وميامر في الأعياد وردود على الهراطقة.

وفي تاريخ كتبة اليونان كسوزومان (ك٦، ف٣٨)، وروفينوس (ك٢، ف٦)، وتاودوريطس (ك٤، ف٢٠)، وثاوفان في تاريخ سنة ٣٧٩ وغيرهم من مُؤرِّخِي القرن الرابع إلى أواخر السادس للمسيح فصول شتى وأخبار منثورة عن أحوال الدين بين عرب الشام تفيدنا علمًا عن سطوة النصرانية واجتذابها لقلوب أهل البادية لا سيما بواسطة السُّيَّاح والنُّسَّاك الذين كانوا يعيشون في قِفارهم ويخدمون الله كملائكة مُتقَمِّصِين أجسادًا هيولية، فكانت فضائلهم العجيبة والكرامات التي تجري على أيديهم من شفاء الأسقام وطرد الأرواح النجسة واستمداد النعم الروحية والبركات الزمنية تجذب إليهم أهل المدن والقرى، فلا يلبثون أن يسمعوا تعاليمهم ويستنيروا بإرشاداتهم ويهتدوا على أيديهم إلى جادَّة الحق فيطلبوا الاصطباغ بمياه المعمودية.

قال سوزمان في تاريخه (Sozoméne, HE, VI, c. 38) عن عرب الشام: «قد تَنصَّر كثير من العرب (هو يدعوهم بالشرقيين Σαραϰηνοί) قبل زمان والنس «من ٣٦٤ إلى ٣٧٨م» ممن اجتذبتهم إلى الإيمان المسيحي إرشادات الكهنة والرهبان الذين كانوا يعيشون في النسك والزهد في الأنحاء المجاورة لهم عائشين بالقداسة ومجترحين المعجزات

الباهرة.» ثم ذكر سوزمان ما أشرنا إليه سابقًا في دفاعنا عن نصرانية غسان أعني رجوع قبيلة كان زعيمها يُدْعى زوكوموس (وهو ضجعم) فنال له أحد الرهبان بصلواته إلى الله ولدًا ذكرًا فاعتمد هو وكل قبيلته.

وأردف المؤلف ذلك بخبر ماوية[١١] ملكة العرب التي حاربت الرومان وغلبتهم واستولت على بلادهم إلى تخوم مصر ولم تَرضَ بصلحهم إلا على شرط بأن يرسل الرومان إلى مملكتها ناسكًا شهيرًا يُدْعَى موسى خصَّه الله بصنع العجائب وبقداسة الحياة فسُقِّف على العرب الذين تحت حكمها، وكان عدد النصارى الذين وجدهم في دولتها قليلًا أما هو فأنار معظم رعاياها وعمَّدهم، وقد أخبر تاودوريطس في تاريخه (ك٤، ف٢٠) أن ماوية هذه توطيدًا للصلح مع الرومان قَرنَت ابنتها بالزواج مع القائد الروماني فكتور، وكانت الفتاة شديدة التحمس في الإيمان.

ومذ ذاك الحين إذا ورد اسم أحد ملوك غسَّان[١٢] إما في تواريخ السريان وإما في تواريخ اليونان واللاتين تجد الكتبة لسانًا واحدًا في وصفهم كنصارى يخصُّهم الكتبة بالألقاب الشرفية الممنوحة لهم من القياصرة، فيُدْعَون بطارقة وأمراء وذوي العز والدولة، وربما زادوا على هذه الألقاب ما دل على دينهم فيدعون مؤمنين ܡܗܝܡܢ̈ܐ ܘܫܪܝܪ̈ܐ ܚܐܪ̈ܐ، ومحبين للمسيح ܡܗܝܡܢܐ ܘܪܚܡ ܡܫܝܚܐ ܚܐܪ̈ܐ، وكذلك ورد في أحد مخطوطات لندن اسم كاهن يُدعى «كاهن ذي العزة والمحب للمسيح البطريق المنذر بن الحارث».[١٣]

وفي القرن الخامس أخذ الرهبان يعيشون عيشة اجتماعية بعد أن كانوا يعيشون منفردين في الأقفار، والمُرجَّح أن الأديرة التي ذكرها حمزة الأصبهاني وأبو الفداء وغيرهما بُنيت في هذا الزمان، وكذلك الأديرة التي وصفها ياقوت الرومي في معجم البلدان كدير

---

[١١] جاء في تاريخ سوزمان (Sozoméne, H. E. V, c.I)، أنَّ الروم لمَّا ساروا لُمحارَبة الغُوطِيِّين الزاحفين على القسطنطينية استعانوا بفرقة من العرب الخاضعين لماوية.

[١٢] قال النابغة في لاميته يرثي النعمان بن الحارث بن أبي شمر بقوله:

فآبَ مُصَلُّوه بعينٍ جَلِيَّةٍ وغُودِر بالجولانِ حَزمٌ ونائلُ

قال أبو عبيدة: «مُصَلُّوه» يعني أصحاب الصلاة، وهم الرهبان وأهل الدِّين منهم.

[١٣] اطلب: كتاب نلدكه عن غسَّان (Die Ghassan. Fürsten, p. 8).

أيوب في حوران (في قنوات على ما يظن وهي بلد أيوب)، ودير بَوَنًّا، ودير سعد، ودير بُصْرى،[١٤] وقد بقي بعض هذه الأديرة مدة حتى بعد عهد الإسلام.

وممَّا زاد النصرانية ترقِّيًا في بلاد العرب عدد كبير من الأساقفة[١٥] والكهنة والرهبان[١٦] كانوا في أيام الاضطهادات على عهد القياصرة الوثَنِيِّين أو ملوك الروم المتشيعين لا يجدون على حياتهم أمانًا إلا بأن يَهْجُروا بلادهم ويَفِرُّوا إلى أنحاء العرب حيث كان يصعب على المغتصبين أن يدركوهم ويُلْحِقوا بهم الأذى.

وربما نفى المُغْتَصبون هؤلاءِ المعترِفِين بالإيمان من بلادهم إلى بلاد العرب ليذوقوا هناك مَشقَّات العيش من الجوع والعطش والعري.[١٧] وكَثُر عددهم في أيام بدعة آريوس، وكان بعض هؤلاء رجالًا ذوي علم واسع وفضل كبير كإيليَّا بطريرك القدس، وأوجان أسقف الرُّهَا، وبروتوجان أسقف حرَّان، فكان المنفيُّون إذا احتلوا بين العرب سعوا في إنارة عقولهم وبيَّنوا لهم بطلان أوثانهم وأقنعوهم بجحد أضاليلهم.

بل يذكر التاريخ جملة من الشهداء قُتلوا في سبيل الإيمان في بادية الشام ومدنها كالقديسين كيرلُّس وأكويلا ودومطيان المستشهدين في مدينة عَمَّان على عهد ديوقلطيانوس وتذكرهم الكنيسة في ١٠ آب، وكزينون، وزيناس الشهيدين على عهده أيضًا سنة ٣٠٥م، وذكر أوسابيوس القيصري (ك٨، ف٢١) أن في زمن هذه الملك «قُتل عدد لا يُحصى من الشهداء في بلاد العرب.» وفي السِّنكسار الروماني عدة شهداء.

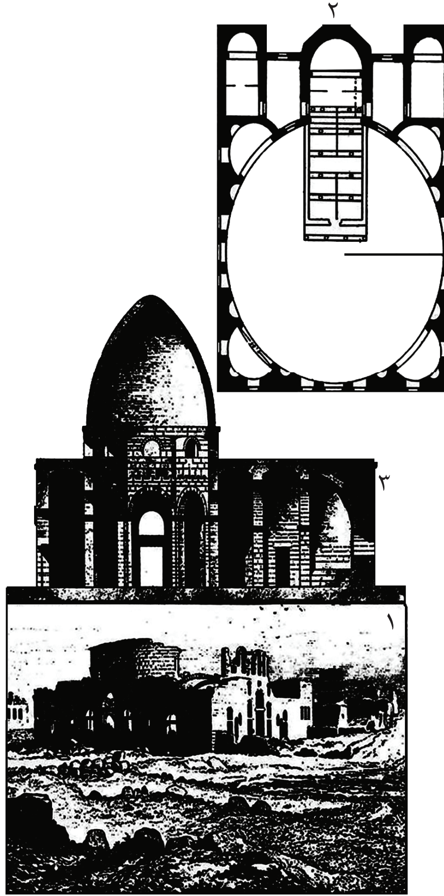
---

[١٤] قال ياقوت في معجم البلدان (٢: ٦٤٧): «بهذا الدير كان بُحيرا الراهب الذي بَشَّر بالنبي ﷺ.» وقال سابقًا (ص٦٤٥): إن «دير بُحيرا هو دير الباعِقَى قِبْلِيَّ بُصرى من أرض حوران.» وبقيت النصرانية في هذا الدير بعد الإسلام، وذكر ياقوت أن المازني وَجَد في دير بصرى رهبانًا من العرب المُتَنَصِّرين من بني صادر قال عنهم «وهم أفصح من رأيت.» وذكر منهم أمة شاعرة.

[١٥] وقد ذكر القديس إبيفانيوس في القرن الرابع (Epiphanius: *Anacepb.* n°12)، أساقفة أقيموا على قرى العرب (μητροϰωμίαι ’Αραβίας).

[١٦] ذكر سوزومان في تاريخه (ك١، ف١٣) أنه كان بين تلامذة القديس أنطونيوس الكبير كثيرون من أهل سورية وعربية (plurimos auditors habuit ex Syria et Arabia).

[١٧] قال تاودويطس المُؤرِّخ في القرن الخامس عن فالنس القيصر الروماني: «إنه نفَى كثيرين من المعترفين بالإيمان في الرُّهَا إلى حدود العرب.» Qui (Valens) multos confessarios fidi Edessenos in finibus Arabiæ dispergi Jussit (*Theodoret*, H. E. IV. 18).



(١) كنيسة بُصْرى في حُوران (رسم العلَّامة دي فوكويه). (٢) رسم الكنيسة المذكورة وهندستها. (٣) قطع نصفي لكنيسة أذرح في حوران.

قُتلوا في بادية الشام في ذلك الاضطهاد عينه فيُكرمون لشهامتهم في غُرَّة آب، واسْتُشْهِد فيها على عهد يليانوس الجاحد القديسان أوجان، ومكاريوس المكرَّمان في ك١، فلا غرو أن دم هؤلاء الشهداء أخصب زريعة الإيمان وأنماها في جهات العرب.

ومن هذه الآثار القديمة أعلام الأمكنة التي بقيت حتى اليوم كدليل ناطق على اتساع النصرانية في منازل غسَّان لا سيما الصفا وحوران، فإن عددًا دَثْرًا من أسماء الأمكنة

يدعى في زماننا بالدير كدير الكهف، ودير قن عددها الأثريون دي فوكوي، ووادنغتون، ودسُّو وغيرهم.

ويضاف إلى هذه الشواهد جداول المراكز الدينية التي تدل على تعدُّد الأسقفيات في تلك الأنحاء فإن مطران البصري وحده كان يحكم على ٢٠ أسقفًا،[١٨] وكان بعض هؤلاء الأساقفة يتنقلون مع القبائل الراعية فيسكنون الخيم؛ ولذلك يدعونهم أساقفة الخيم (ἐπίσκοποι τῶν παρεμβολ ῶν)، وقد أمضوا غير مرة أعمال المجامع بهذا التوقيع «فلان أسقف أهل الوبر.» أو «فلان أسقف القبائل الشرقية المتحالفة.» أو «فلان أسقف العرب البادية.»[١٩] أَفَتَرى بَيِّنَة أعظم من ذلك على انتشار النصرانية بين عرب الشام.

فهذه الحجج كافية لِيُقِر كل مُناظر بصحة قولنا عن غسَّان: إنها كانت تدين بالنصرانية، ولو شئنا لعزَّزنا هذه الأدلة بشواهد أخرى من كَتبة السريان كميخائيل الكبير، ويوحنَّا أسقف أفسس، ويوشع العمودي، وابن العبري ونصوصهم تُوافق ما ذكرناه آنفًا.

ومما يقتضي التنبيه إليه أن النصرانية في بادية الشام ثبتت في عِزِّها إلى ظهور الإسلام ونَمَت واتَّسعَت حتى يجوز القول بأن الوثنية تقلَّص ظلها حتى كاد يضمحل، ومما يدلُّ على ذلك أن نصارى العرب الذين اجتمعوا مع الرومان لرد غارات المسلمين في غُرَّة الإسلام كانوا ألوفًا مُؤلَّفة[٢٠] يبلِّغ الكتبة عددهم إلى مائة ألف بنيِّف،[٢١] فهذا العدد الوافر من المقاتلين يدلُّ على أن النصارى في بادية الشام كانوا ألوف الألوف فلا يكاد يبقى مكان لأهل الشِّرْك وعبدة الأصنام.

[١٨] وجاء في بعثة دوسو إلى بادية الشام (René Dussaud: *Mission dans les régions désertiques de la Syrie moyenne*, p. 77.) إن عددها كان ٣٣.

[١٩] اطلب: مجموع أعمال المجامع (Labbe: IV, 83, 91, 268).

[٢٠] قال ياقوت (١: ٩٢٨): إن غسان وتنوخ لحقوا بهرقل فحارَبَهم ميسرة بن مسروق، وقال في مادة معان من نواحي بلقاء: «بعث النبي جيشًا إلى مُؤْتَة فيه زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة ... وقيل: قد اجتمع من الروم والعرب نحو مائتي ألف.»

De Goeje: *mém. D'Hist. et de Géogr. 2e éd.* 1910: Trois Chefs musulman furent tués et victoire resta aux Chrétiens.

[٢١] راجع: ما كتبه إلياس النصيبيني المؤرخ (Elias Nisib. *ab. Baethgen*, Fragm. 109).

هذا ولا نَدَّعي أن النصرانية الغالبة على بادية الشام كانت صافية خالية من كل شائبة وضلال، كلا بل نعلم حق العلم أن البدعة اليعقوبية تسرَّبت إلى تلك الجهات وكدَّرت صفاء الإيمان بما أدخلته من المعتقدات الباطلة في طبيعتَي السيد المسيح وبزعمها أن المسيح طبيعة واحدة كما هو أقنوم واحد فمزَجَت اللاهوت بالناسوت، وبَلْبَلَتْ كل تعاليم الخلاص.

ولم تكن اليعقوبية البدعة الوحيدة التي قوَّضت أركان التعاليم الرسولية، بل دخل إلى بلاد العرب كثيرون من المبتدعين الذين كانوا يُؤمِّلُون رواج أضاليلهم في أنحائها دون أن يلاقوا فيها زاجرًا يزجرهم ولا وازعًا يزعهم، وكان بعضهم يَفِرُّون إلى جهات العرب لينجوا من مُصادرة ملوك الروم الذين كانوا يريدون قهرهم على جحود أضاليلهم فيفضِّل أولئك المُتشيِّعون الهرب إلى بادية العرب، فكثروا هناك ونشروا بدعهم حتى قال القديس إبيفانوس: إن بلاد العرب ممتازة ببدعها (Arabia hæresium ferax).

وقد ردَدْنا في «المشرق» (١٠: ٥٥٦) على بعض اعتراضات اعترض بها على نصرانية غسَّان مُراسِل «المقتبس» فبيَّنَّا بطلانها، كزعمه بأن الحارث الأكبر ابن أبي شمَّر الغساني المُلقَّب بالأعرج كان وثنيًّا؛[٢٢] لأنه أهدى سيفَيْه رسوبًا ومخذمًا لبيت صنم كما روى الطبري (١: ١٧٠٦) فأثبتنا نصرانية الحارث بشواهد مؤرِّخِين معاصرين للحارث من يونان ولاتين وسريان، وقد ورد اسمه في الكتابات القديمة ملقَّبًا بالمحب للمسيح كما رأيت، وإن كان يعقوبيَّ النِّحْلة كما ذكر هؤلاء الكتبة، أما تَقْدِمَته سيفين لبيت صنم فهي رواية ضعيفة لا يتفق فيها الرواة (اطلب: ياقوت، ٤: ٤٥٣) ما لم يقل: إن الطبري جعل بيت صنم أحد معابد النصارى أو يقال: إن الحارث النصراني أتى بفعله عملًا ذميمًا فنسي شرائع النصرانية أو تجاهل بها.

واعترض الكاتب البغدادي على نصرانية عرب غسَّان بشهادة ياقوت الحموي (٤: ٦٥٢) بأن غَسَّان كانت تَعبُد مناة وذكر دعاءها عند وقوفها عند صنمها، فكان جوابنا أننا لم نُنكِر كون غسان دانت مدة بالوثنية لكنها لَمَّا تَنصَّرَت نبذت عبادة مناة وبقية

---

[٢٢] **Mr G. Dugat**, *J. As. 1855 Avril, 5e Série* 371: “Harith el Aradj roi des Arabes Chrétiens de Syrie et Patrice romain”.

ومما صَرَّح به العرب أن جبَلَة آخر ملوك غسان مات نصرانيًّا في القسطنطينية (تاريخ دمشق، لابن عساكر، ٣: ٣٥٨، وغيره كثيرون).

الأصنام منذ القرن الرابع للمسيح كما ثبت من الشواهد التي ذكرناها، هذا فضلًا عن أن الدعاء الذي ذكره عن تاريخ اليعقوبي (١: ٢٩٧): «لبيك ربَّ غسان راجلها وفارسها.» لا يختص بصنم ويجوز التوسُّل به.

وكان آخر ما اعترض علينا الكاتب البغدادي قول اليعقوبي إلى إله الحق (١: ٢٩٨) بعد ذكر نصرانية غسان أن «قومًا منهم تهوَّدوا» فكان جوابنا عليه أن الكتبة العرب إجمالًا (إلا اليعقوبي) ليس فقط لم يذكروا تهوُّد غسان، بل نَفَوا اليهودية عنهم، وعنهم نقل صاحب الفضل شكري أفندي الآلوسي البغدادي في كتاب بلوغ الأرب في أحوال العرب (٢: ٢٦) حيث روى عن تُبَّع الأصغر الحميري أنه لَمَّا تهوَّد دعا إلى اليهودية غسَّان فأبوا معتذرين بدخولهم إلى النصرانية، قال: «وسار تبَّع إلى الشام وملوكها غسَّان فأعطته المقادة واعتذروا من دخولهم إلى النصرانية.»

وأضفنا إلى قولنا هذا جوابًا آخر فقلنا: إنه لمحتمل أيضًا أن اليعقوبي نسب اليهودية إلى قوم من غسان لانتشار بعض الشيع بينهم كشيعة الأبيونيين (Ebionites)، والنزاريين Nazaréens وغيرهما كانت من بقايا اليهود الأوَّلين الذين تَنَصَّروا وحفظوا شيئًا من نواميس موسى وهم الذين خرجوا بأمر الرب من أورشليم قبل حصارها في عهد طيطس فعَبَروا بلاد العرب وعُرِفوا باليهود المتنصِّرين Judéo-chrétiens.

(٣) الباب الثالث: النصرانية بين عرب الغور والسلط والبَلقاء

إن نهر الأردن المعروف بالشريعة بعد خروجه من أغوار حرمون في جهات بانياس وجريه جنوبًا، فتتكون منه بحيرة الحولة يصب في بحر الجليل، ثم يخترقه فيسيل متحدِّرًا إلى الأعماق بين ضفَّتين ترتفعان شرقًا وغربًا حتى يبلغ تحدُّره نحو ٣٠٠ متر تحت سطح بحر الشام وينتهي إلى بحر لوط، فتلك الناحية التي يقطعها الأردن تدعى بالغَور، وليست تلك الجهة مسيلًا للنهر فقط بل تتسع ضفافها وترتفع بالتدريج في سعة يقدَّر معدُّلها نحو ١٠ كيلومترات فيها البقع المخصبة والنواحي العامرة والعيون المتدفقة.

وإن لحظت عبر الأردن وجدت وراء ضفافه شرقًا بلادًا واسعة تعلوها الجبال الشاهقة؛ كجبل عجلون، وجبل جلعاد، وجبل نبو إلى جبال مؤاب بينها المشارف الفسيحة والأودية الكثيرة الخيرات، والمناجع الطيبة كالسلط والبلقاء[٢٣] وصحاري مؤاب

[٢٣] ومن مدن البلقاء عمَّان، وفي وفادات العرب لابن سعد (ed. Wellhausen, 20)، أن فروة بن عمرو الجذامي كان عاملًا على عمَّان من أرض البلقاء وكان نصرانيًّا، فأسلم عند ظهور الإسلام، فغضب عليه هرقل وقتله صلبًا.

تتصل شمالًا ببادية الشام وجنوبًا بنواحي كرك وجهات النبط وشبه جزيرة سينا، فهناك سكنت شعوب كبيرة كالعمونيين والمؤابيين والمدينيين، وكانت قبائل العرب البادية والحاضرة ممتزجة معها تتنقل في جهاتها من أريافها إلى صُرُودِها طلبًا للمراعي أو تسكن في المَدر فتُعْنى بالفلاحة.

فالنصرانية وجدت لها في تلك الأقطار كلها بين أهلها المطبوعين على شظف العيش وسذاجة الأخلاق ومجانبة التَّرفُّه والبذخ تربة صالحة ما كاد يقع في ظهرانيها الزرع الجيد حتى نما أيَّ نمو، وكان حلول المسيحيين الأولين في تلك الجهات قليلًا بعد صعود الرب، ولا سيما لمَّا ثار الاضطهاد الأول على تلاميذ الرسل (أعمال ٨: ١)، ولما جاء الرومان لمحاصرة أورشليم إذ خرجوا إلى عبر الأردن بوحي من الرب[٢٤] فاستوطنوا أنحاءه كما أخبر أوسابيوس، ولا شك أنه نال العرب قسم من تلك النعم الروحية التي أفاضها الله على سكان تلك الأصقاع فدانوا بدين المهاجرين.

ومن الأدلة التي تناقلها بالتقليد فدوَّنها المؤرخون تنصُّر الضجاعمة الذين سبقوا الغسانيين في ملك البلقاء، وقد حفظوا لنا اسم أحد أمرائهم فدعوه دؤاد بن الهبولة المعروف باللثق وجعلوا مقامه في مادبا (اطلب: تاريخ ابن خلدون، ٢: ١٥٣) وذلك في أواخر القرن الثاني للمسيح.[٢٥]

ولمَّا انتهى طور الاضطهادات على المسيحيين في القرن الرابع قُسمت تلك النواحي إيالتين مدنيتين، فدعيت الواحدة بفلسطين الثانية كانت حاضرتها مدينة باسان والأخرى

---

[٢٤] خرَجُوا بوحي الله إلى مدينة فهيل Pella فاستوطنوها، ومنها كان أرستون نحو السنة ١٤٠م الذي ألَّف كتابًا جدليًّا يدعى مباحثة ياسون وبابسكوس، وكلاهما يهودي إلا أن أرستون ارتد ورد بمباحِثته الجِدَالية خصمه إلى الإيمان: وذكر العلامة غِيرِين (Guérin: *Galilée*, I, 290) أنه وجد في فهيل آثار كنيسة ذات ثلاث أسواق يرجح أن عهدها راقٍ إلى قرون النصرانية الأولى، وكذلك (I, 300) وجد في أم قيس وهي جدر Gadara هياكل رومانية حوَّلَها النصارى إلى كنائس بعد الاضطهادات، وكانت جدر كرسي أساقفة منذ القرون الأولى (سنة ٣٠٧م)، وكذلك خربة السمرة Hippias كانت كرسيًّا أسقفيًّا: حضَر أسقفها المُسمَّى بطرس مجمعي سلوقية سنة ٣٥٩م وأنطاكية سنة ٣٦٣م ثم تاودوروس حضر مجمع أورشليم ٥٣٦م، ووجد غيرين (I, 313) كنيستين في فيقه Apheka، وكنيسة في كفر حازب، واكتشف في خربة قلعة الحصن Gamalas باسيليقة راقية إلى القرون الأولى (I, 319).

[٢٥] قال ابن دريد في كتاب الاشتقاق (طبعة ليبسيك، ص٣١٩): «والضجاعم كانوا ملوكًا بالشام قبل غسان، ومنهم داود اللثق الذي يضاف إليه دير داود بالشام، وقد ملك زمانًا، والضجاعم هم بنو ضجعم بن سعد بن سليح بن عمران بن الحاف بن قُضاعة.»

فلسطين الثالثة كانت حاضرتها مدينة بترا أو سلع، وقد بلغ عدد الكراسي فيها قبل الإسلام نيِّفًا وأربعين كرسيًّا يُعرف أسماء كثيرين من أساقفتها الذين دبروها ورعوا مؤمنيها فناهيك بذلك شاهدًا صادقًا على امتداد الدين المسيحي في العرب.

وكان أكثر الدعاة عملًا في نشر النصرانية نسَّاكها وسيَّاحها الذين كانوا اتخذوا لهم مآوي ومحابس يسكنونها مُعتزِلِين عن الناس ليعيشوا فيها عيشة الملائكة بالزهد وضروب المناسك الرهبانية، فكان مثلهم يعمل في قلوب العرب خصوصًا، ويجتذبهم إلى دِين أولئك الأبرار فيطلبون منهم نعمة المعمودية.

ومما أخبر به القديس هيرونيموس في ترجمة القديس هيلاريون[٢٦] أن هذا السائح الجليل الذي تنسَّك في جهات غزة سار إلى مدينة الخلصة (Elusa) في البَرِّيَّة جنوبي بحر لوط ليعود أحد تلامذته، وكان أهلها يدينون بالوثنية ويُكرمون الزُّهرة على شكل حجرة فوافق وصوله إليها يوم عيد الزُّهرة، فلما بلغهم قدوم القديس خرجوا لاستقباله وأكرموه إكرامًا جزيلًا مع نسائهم وأولادهم، وكانوا يطلبون بركته، وكان قوم منهم نالوا بدعائه الشفاء من أمراضهم، فجعلوا يتوسلون إليه بأن يقيم بينهم فوعدهم بأن يفعل إذا نبذوا عبادة الحجارة وآمنوا بالسيد المسيح، فأجابوا إلى طلبته ولم يَدَعوه يخرج من بلدتهم حتى اختط لهم حدود كنيسة يقيمونها وكان مِمَّن تنصروا على يد القديس كاهنهم وسادن أصنامهم، ومذ ذاك الوقت وردت عدة آثار عن النصرانية في الخلصاء وأسماء أساقفتها منهم واحد يُسمَّى عبد الله، وسنذكر أعمالًا أخرى لهيلاريون.

وممن دخلت النصرانية بينهم في تلك الأنحاء أمة النبيط أو النبط،[٢٧] فهؤلاء كانوا أيضًا من العرب فأنشَئُوا دولة عظيمة ومصَّروا لهم الأمصار واتخذوا لهم مدينة عظيمة يدعونها بترا أو سَلَع لا تزال آثارها الفخيمة تدهش كل من يقصدها، وقد مرَّ لحضرة الأب جلابرت (المشرق، ٨: ٩٦٥–٩٧٣) وَصْف بعض أبنيتها العادية، وكان ظهور النبط

---

[٢٦] اطلب: أعمال الآباء اللاتين (Migne P. L., XXIII, col. 42).

[٢٧] للعلامة كاترمار المستشرق الكبير مقالة واسعة في النبط نشرها في المجلة الآسيوية (J. As., 2^{8} Série, XX, 1853) يذكر هناك منازلهم في بادية الشام وبين الشام والحجاز، ويتسع في لغتهم السريانية ودينهم النصراني وفوائد أخرى عديدة، وقد جاء عن النبط في شعر قديم (أمالي المرتضي، ٣: ٩٣):

لمَّا رأيتُ نبطًا أنصارا   شَمَّرْتُ عن ركبتَيَّ الإزارا

كنتُ لها من النصارى جارَا

نحو القرن الخامس قبل المسيح وما لبثوا أن اشتد ساعدهم، واستفحل أمرهم، وصار لملوكهم شهرة واسعة، واستقَلُّوا بالمُلك في القرن الثاني قبل المسيح، وكان أولهم «الحارث الأول» ودام ملكهم إلى العُشر الأوَّل من القرن الثاني بعد المسيح حيث تغلب الرومان على بلادهم، وكان آخر ملوكهم مالك أو مليكوس الثاني «١٠٣–١٠٧م»، وأصبحت بلاد النبط إقليمًا رومانيًّا يتولاه أحد حكام رومية.

وكانت بترا معبرًا لكل القوافل القادمة من مصر إلى دمشق ومن جزيرة العرب إلى فلسطين ومن العراق إلى مصر؛ ولذلك ازدادت ثروتها واشتهر أهلها بالمتاجرة وبلغتها النصرانية قبل غيرها من مدن النبط، وترى إستيريوس أسقفها يلعب دورًا مهمًّا في عهد قسطنطين لمعاكسة البدعة الإريانية، ثم انتشرت النصرانية في بقية النبط وتأصَّلَت فيهم وثَبَتوا عليها حتى بعد ظهور الإسلام بمدة حتى إن بعض الكتبة يدعون نصارى العرب نبطًا، ولك مثال على ذلك في بعض مقامات بديع الزمان في المقامة القزوينية، حيث جعل نصَّابه أبا الفتح الإسكندري نبطيًّا فيقول متظاهرًا بالإسلام:

إنْ أكُ آمنتُ فَكَم ليلةٍ   جحدتُ فيها وعبدتُ الصليبْ

وكذلك ضرب شعراء العرب المثل برهبان مَدْين وزهدهم، قال كُثَيِّر عزة:

رهبانُ مَدْينَ والذين عَهِدتُهم   يبكون من حَذَر العقاب قُعودا

وكانت نواحي الغَوْر على ضفَّتَي نهر الأردن أديرة عديدة يُعرف منها نحو العشرين قد اكتْشَف بعضها حضرة رئيس مدرسة الصلاحية المفضال الأب ي. ل، فدرلين (R. P. J. L. Féderlin) ووصف أخربتها وصفًا مدققًا في مقالاته الفريدة التي نشرها في مجلة الأرض المقدسة[٢٨] في السنين ١٩٠٢م، و١٩٠٣م، و١٩٠٧م، ولا شك أن رهبان تلك

وقال متمم بن نُوَيْرة يذكر طواف النبط حول كنيستهم، وقد دعاها بالفدن، وهو البناء المُشَيَّد والقصر (المفضليات، ص٦٩):

بِمحدَّةٍ عَنسٍ كأن سَراتَها   فَدَنٌ تُطيف به النبيط مُرفَّعُ

[٢٨] اطلب: LA TERRE SAINTE: Recherches sur les Laures et Monastéres de la plaine du Jourdain et du désert de Jérusalem؛ راجع أيضًا: ما كتبه بلَّاديوس الأسقف في تاريخه (المشرق، ١٠: ١٧٧)؛ ويوحنا موسكوس، في المرج الروحي.

الأديرة اجتذبوا إلى الدين المسيحي مَن كان يجاورهم من عرب الحضر، بل لدينا دلائل على تَرهُّب بعض أولئك العرب المتنصِّرين في هذه الأديرة أشهرهم القديس إيليا البطريرك الأورشليمي، فهذا كان عربي الأصل رحل من بلده إلى دير نطرون في مصر، وبعد أن ارتاض في الآداب الرهبانية سكن مدة في دير سابساس على ضفة الأردن اليُمنى ثم رُقِّي إلى رتبة البطريركية فدافع عن الإيمان بغيرة شديدة حتى فضَّل النَّفْي على موافَقة المبتدعين ومات في أَيْلة سنة ٥١٣م.

وممن يستحق ذكرًا خصوصيًّا في تبشير العرب ودعوتهم إلى النصرانية القديس العظيم أفتيميوس كوكب بَرِّيَّة الأردن وجهات الغور، فإن الله اصطفاه في أواسط القرن لينير عددًا عديدًا من العرب ويهديهم إلى سبيل الإيمان، فإن المؤرخ الشهير والراهب معاصره كيرلُّس من سيتوبوليس (Scythopolis) أو بيسان روى في ترجمته تفاصيل ذلك الخبر الذي رواه حضرة الأب بيترس من جماعة البولنديين (في المشرق، ١٢: ٣٤٤–٣٥٣) نقلًا عن نسخة عربية قديمة في مكتبتنا الشرقية، وخلاصته أن أحد الوثنيين يوناني الأصل المدعو إسباباط، ولعله إصبهبذ (Ἀσπέβετος) ولاه أزدشير الملك تخوم العجم، فلما أثار الاضطهاد على نصارى مملكته، وأخذ يصادرهم ويذيقهم ضروب العذابات جعلوا يُوَلُّون هاربين من العجم إلى ممالك الرومان وإسباباط لا يتعرض لهم رغمًا عن أوامر الملك، فسعى المجوس به لدى أزدشير ليعاقبه، ففر هو أيضًا هاربًا إلى أراضي الرومان حيث أكرم وفادته أناطوليوس الحاكم وولاه على القبائل العربية المنتمية لرومية.

وكان لإسباباط ولد يُدعى طرابون مصاب بالفالج أفرغ أبوه في شفائه كل الوسائل دون فائدة فالتجأ أخيرًا بإلهام من الله إلى القديس أفتيميوس، فشفى الغلام ونصَّر أباه ودعاه بطرس وعَمَّد كل آل بيته، وتبعهم في دينهم قوم كثيرون من العرب سعى القديس أفتيميوس في تلقينهم كل عقائد النصرانية، ثم اجتذب مَثَلَهم غيرهم من قبائل العرب فخطط لهم القديس أفتيميوس حدود مدينة صغيرة ليست بعيدة من ديره، وأمرهم ببنائها على رسم معلوم وحفر لهم بئرًا وابتنى لهم كنيسة ودارًا لزعيمهم، ثم اتفق مع البطريرك يويناليوس فجعل بطرس أسقفًا عليهم، وأخذ كثيرون من العرب يتواردون إلى منزلهم حتى بلغ عددهم عشرين ألفًا ودعيت مدينة هؤلاء المُتَنَصِّرين بالمحلة (παρεμβολη)، وتوالى الأساقفة عليهم حتى أواخر القرن السادس مع ما ألمَّ

بهم من الضيقات والبلايا، لا سيما بمعاداة قبائل العرب الوثنيين الذين غَزَوهم غير مرة.[٢٩]

والحق يقال: إن هؤلاء الغزاة كانوا على مألوف عادَّة شُذَّاذ العرب يتلصصون الأقفار فينهبون محابس الرهبان وأديرتهم، ويسلبون ما يجدونه فيها، وقد أخبر كاسينانوس في خطابه السادس (Migne, P. L., XLIX, col. 643–648) أن هؤلاء الأشقياء هجموا على تقوع على مسافة ستة أميال من مدينة بيت لحم جنوبًا، فقتلوا رهبانًا كانوا يعيشون في البراري بالنسك والتُّقى ثم أخبر أن أهل تلك الناحية أبدوا لذخائرهم إكرامًا عظيمًا «ولا سيما جموع العرب الذين هناك وبلغت رغبتهم في اقتنائها إلى أن وقَع بينهم قتال للفوز بتلك الأجسام المقدَّسة» وكان ذلك سنة ٣٩٥ للمسيح، وفي هذا دليل على أن عرب فلسطين كانوا يدينون بالنصرانية.

وجاء أيضًا في مجموع المجامع (Labbe: *Collect. Concil.*, III, 728) أن البطريرك يولياليوس سقَّف عددًا من الأساقفة لجهات العرب قبل السنة ٤٣٠م، وهذا دليل آخر على انتشار النصرانية بين عرب فلسطين، وورد قبل ذلك في تاريخ سنة ٣٦٣م في مجمع أنطاكية اسم أسقف يُدعى تاوتيموس قد وقَّع على أعماله بهذا الإمضاء «تاوتيموس أسقف العرب» ولعله أراد قبائل العرب الساكنة في نواحي تَدْمر حيث كانت النصرانية أصابت مقامًا رفيعًا ليس فقط في حواضرها كتدمر والقريتين وحوَّارين، ولكن في بادية تدمر نفسها حيث تنصَّرت القبائل المتنقلة فيها.

(٤) الباب الرابع: النصرانية في النجب وطور سينا

إن انحدرتَ من فلسطين جنوبًا فَسِرتَ من غزة على سيف البحر مارًّا بالعريش حتى ترعة سويس ثم مددت من هاتين النقطتين خطَّين متوازيين إلى الجنوب انبسطت أمامك البراري الواسعة كَبَرِّيَّة سين، وبَرِّية سُور وبلاد الشراة والنجب، ثم يتشكَّل لك شبه مثلث مخروط رأساه الأعليان عند خليج سويس غربًا وخليج عقبة شرقًا والرأس الثالث يدخل في البحر ويعرف برأس محمد، فهذا المثلث الكبير هو شبه جزيرة سينا، فيه

[٢٩] اطلب: ترجمة القديس أفتيميوس لحضرة الأب جانيه الدومنيكي (F. R. Génier. O. P.: *Vie de S^t^ Euthyme le Grand*).

بادية التيه التي تَنَقَّل فيها بنو إسرائيل سنين عديدة وبَرِّيَّة فاران، وهناك سلسلة جبال شاهقة كجبل غرندل، وجبل سرابيط الخادم، وجبل التِّيه، وخصوصًا طور سينا أو حوريب، وجبل موسى، وجبل سربال، وجبل كاترين، مع ما فيها من الأودية (انظر في المشرق، ٩: ١٠٦٨، خارطة طور سينا) فتلك البلاد كانت شمالًا في أيام بني إسرائيل مواطن للأدوميين ولِلعَمالقة وللمدينيين، وقد كثرت فيها بعد ذلك قبائل العرب من بني إسماعيل والنَّبَطيين، فاستولَت عليها واقتسَمَتْها وكانت تتجول فيها على حسب حاجاتها كما يتجول الملك في مملكته والسيد في أملاكه دون أن تركز في محل مخصوص إلا أهل المدر منها، فإنها وجدت في بعض بقعها وواحاتها ما يقوم بلوازمها ومناجع مواشيها فاستوطنتها.

فهذه البلاد الواسعة قدم إليها تلامذة المسيح ليدعوا الناس إلى دين سيِّدهم. وممن ذكرهم القدماء الرسول برتلماوس فقالوا عنه: إنه «تَلْمَذ بلاد العرب والنبط.» يريدون جنوبي الجزيرة وهذه الجهات خصوصًا. وجاء في تاريخ القبط للمقريزي (Wetzer: *Macrizii Historia Coptorum*, p. 14) أن متيَّاس (وهو الرسول الذي أقيم بدلًا من يهوذا الأسخريوطي) سار إلى بلاد الشراة،[٣٠] فبشَّر فيها بالمسيح.

وكأن النصرانية وجدت في تلك الأنحاء ملجأ في قرون الميلاد الأولى، نزعت إليه ولاذت به رغبة في التنسك والزهد، أو فرارًا من اضطهادات الوثنيين، فكان نصارى مصر والشام يرون في شبه جزيرة سينا مقامًا آمنًا، لا يستطيع العالم أن يكدِّر فيه صفاء حياتهم الملائكية، ولا يقدر أعداؤهم القبض عليهم، فكانوا يسكنون في أوديتها ووهادها أو يَرْقَون جبالها ليعيشوا فيها عيشة سماوية في مناجاة الله.

ولنا على ذلك عدة شواهد تَرتقي إلى أواسط القرن الثالث للميلاد منها رسالة للقديس ديونيسيوس أسقف الإسكندرية كتبها إلى فابيوس أسقف أنطاكية وصف فيها المحن والبلايا المتعددة التي نالت نصارى مصر بسبب اضطهادات الحنفاء وعبدة الأوثان، لا سيما في عهد القيصر دقيوس[٣١] فمما قاله:[٣٢] إن أسقف مدينة نيلوس هرب إلى جبال

---

[٣٠] وفي طبعة مصر للخطط والآثار (٢: ٤٨٣) أنه سار إلى الشرق، ونظنها تصحيفًا.

[٣١] أخبر أوسابيوس في تاريخه (Eusébe, H. E., VI, c. 39) «أن كثيرين من النصارى هربوا إلى بلاد العرب لَمَّا ثار اضطهاد القيصر دقيوس.»

[٣٢] اطلب: مجموع أعمال آباء اليونان لمين Migne. P. L., X col. 1505-6، وتاريخ أوسابيوس القيصري (ك٦، ف٤١ و٤٢).

العرب مع عدد كبير من النصارى فبعضهم ماتوا وبعضهم استعبدهم العربان إلى أن افتداهم النصارى بالمال الكثير، وبقي غيرهم منقطعين إلى العيشة النسكية، وقد أثبت البولنديون في أعمال القديسين وبعض مُؤرِّخي الكنيسة أن العيشة الرهبانية في شبه جزيرة سينا، وما وراء بحر القلزم سبقت عهد القيصر ديوقلطيانوس.

وجاء في أعمال القديسين الشهيدين غلاقتيون وامرأته إبيستام المولودين في حمص[٣٣] أنهما نذرَا لله عِفَّتَهما في الزواج ورحلَا إلى طور سينا، حيث وجدَا عشرة من النُّسَّاك كانوا يعيشون هناك عيشة الأبرار، فأخذ العرسان عنهم آداب السيرة النسكية وعاشَا مُتفرِّدَين لأعمال البر، غلاقتيون بين الرجال وإبيستام مع النساء حتى بلغ خبر أولئك السُّيَّاح والي الرومان سنة ٢٥٠م فطلبهما وقتلهما شهيدين.

ومع ما كان يلقى أولئك السُّيَّاح من أنواع المشقات من القبائل الوثنية التي تسكن جهات الطور والبراري المجاورة لأرض مصر لم يلبث أن يؤثر في بعضها مثل أولئك الأبرار حتى ارتد منهم قوم إلى الإيمان، ونظن أن القديس ديونيسيوس الإسكندري يشير إلى هؤلاء المُتَنَصِّرين في كتابه إلى البابا القديس إسطفانوس الأول نحو ٢٥٥م، حيث يبشره بموافقة الكنائس الشرقية على تعليمه بخصوص معمودية الهراطقة قال:[٣٤] «وقد ترى رأيكم كل الأقاليم السورية مع بلاد العرب التي تقومون من حين إلى آخر بضرورياتها، والتي وجَّهتم إليها رسائلكم الآن.» فقوله: «بلاد العرب» يدلُّ خصوصًا على ما جاوَر منها مصر كما يظهر من القرائن، وقوله: «تقومون بضرورياتها» دليل حي على عناية الكرسي الرسولي في القرون الأولى بكل كنائس العالَم حتى أقصاها لمساعدتها في حاجاتها الروحية والمادية.

وفي هذه البلاد العربية المجاورة لمصر بَشَّر بالإيمان أحد الشهداء في عهد ديوقلطيانوس، وهو القديس كيروس كما ورد في أعماله التي نشرها الكردينال ماي،[٣٥] ونصَّر جمًّا غفيرًا من أهلها بكلامه ومعجزاته ثم قُتل شهيدًا.

وأشهر منه أربعون شهيدًا قتلهم العرب الوثنيون في سنة ٣٠٩م، وكان هؤلاء تنسَّكوا في لحف جبل موسى فيعيشون هناك في الصوم والشغل اليدوي، فوثب عليهم

---

[٣٣] اطلب: مجموع متافراست (Migne. P. G., CXVI, col. 102).

[٣٤] أعمال الآباء اليونان (Migne, P. G., X, 1314–5).

[٣٥] اطلب: A. Maï: *Spicileg. Romanum*, IV, 230–241؛ اطلب أيضًا: أعمال البولنديين (Acta SS, III Janv. 701).

أهل البوادي وقتلوا منهم أربعين، وقد أقيم لذكرهم دير ترى حتى يومنا آثاره ويُدعى بدير الأربعين،[٣٦] ويُعيَّد لهؤلاء الشهداء في تاريخ ٢٨ ك١.

ولمَّا فازت النصرانية بتنصُّر قسطنطين رسخ الدين النصراني في أنحاء طور سينا والبلاد العربية الواقعة بجواره، وقد أخبر المؤرخون أن القديسة هيلانة شيَّدت كنيسة على طور سينا تذكارًا لما جرى فيه من الأعاجيب في عهد موسى وشعب إسرائيل، وزاد النُّسَّاك عددًا وانتشارًا في سائر أصقاع تلك الجهات، ففي غزَّة ونواحيها الشرقية والجنوبية اشتهر القديس هيلاريون المار ذكره، ولا تزال آثار هذا الرجل العظيم باقية هناك، وقد وصفها في المشرق (١: ٢١٣–٢١٥) السائح الهمام الكاهن لويس موسيل نزيل كُلِّيَّتنا سابقًا مع بيان موقعها، وذكر تلامذة القديس الذين أخذوا عنه الطريقة النسكية، وفي ترجمة حياته التي كتبها القديس هيرونيموس معاصره ما ينبئ بأعماله الرسولية بين عرب تلك النواحي، وقد أقام عدة أديرة في ظهرانيهم في برية غزة وجهات عين قادس، وكان يتردد إليها ويرافقه الرهبان في سياحته زرافات بلغ أحيانًا عددهم ألفي راهب.[٣٧] ولما شاع خبر قداسته كان الأهلون يخرجون إليه أفواجًا أفواجًا وجماهير مجمهرة يتقدمهم الأساقفة والكهنة، وذكرنا سابقًا إكرام العرب له في خَلَصة، وأخبر الثقة أنهم كانوا يقصدونه في كل حاجاتهم فتارة كان يلتمس لهم المطر في سنتهم، وتارة كان يشفي نوقَهم من عاهاتها، وكان يخرج منهم الشياطين أو ينال لهم من الله البرءَ من أمراضهم فرد النظر في مدينة العريش (Rhinocolure) لامرأة عمياء، وأبرأ من مرض عُضَال شيخ مدينة أَيْلة النصراني المدعو أوريون،[٣٨] وذكر سوزومان في تاريخه الكنسي (ك٥، ف١٥) أن القديس شفى أيضًا في غزة جدَّه ألافيان الذي اشتهر بَعدئذٍ بتقاه وشَيَّد أديرة وكنائس.

وفي هذا القرن الرابع نُفي إلى براري سينا والنبط رجال أفاضل من الأساقفة والكهنة نفاهم الملك قنسطنسيوس الآريوسي كالقديسين أوجان وبروتوجان المنفيين من الرُّهَا إلى براري العرب (عِيدُهما في ٥ أيَّار) وفي ترجمة القديس هيلاريون ورد ذكر الأسقفين دراكُنْتيس وفيلون المنفيَّين إلى نواحي غزة، وإلى أَيْلة نفى الإمبرارطور أنستاس

[٣٦] اطلب: سياحة الأب ميشال جوليان اليسوعي إلى سينا (M. Jullien: *Sinai et Syrie*, p. 140).

[٣٧] اطلب: أعمال القديس هيرونيموس في مين (Migne, P. L., XXXIII, 42).

[٣٨] (ibid. 37).

القديس إيليا بطريرك أورشليم، وكان عربي الأصل كما مر،[٣٩] وكذلك أسقف أَيْلة الذي أمضى أعمال المجمع الخلقيدوني سنة ٤٥١م كان عربيًّا ويدعى غَوْثًا.

وأخذت الأديرة تمتد في أواسط بلاد سينا وتكثر حولها القبائل المتنصِّرة وأخص هذه الأديرة دير فاران الذي ورد ذكره في كتاب المرج الروحي تأليف حنا موسكوس في القرن السادس للمسيح،[٤٠] وقد أثنى هناك على رئيسه غريغوريوس الذي صار بعد ذلك بطريركًا على أنطاكية، وكان دير فاران حافلًا بالرهبان الوطنيين وغيرهم، ذكر الآباء منهم القديس سلوانس رئيسه ثم موسى الفاراني الشهير بقداسته وكراماته.

وفاران هذه كانت شهيرة في عهد الدولة الرومانية، وأصبحت مدينة كبيرة وافرة السكان، وهي اليوم قرية حقيرة نحو الخمسين بيتًا وهي تُدعوا فيران موقعها في واد كثير الخصب تنمو فيه الأشجار، لا سيما النخيل وتجري فيه المياه الطيبة، فالنصارى دخلوا فاران ونشروا فيها دينهم حتى كاد يعم كل أهلها منذ القرن الرابع، وكان فيها كرسي أسقفي يذكر الروم في ميناون في ١٨ شباط أسقفها المدعو أغابيطوس أو محبوب في عهد قسطنطين الكبير، وممن لا يشك في تاريخه الأسقف نثراس أو نثير في النصف الثاني من القرن الرابع وتلميذ القديس سلوانس، وكان أمير فاران نصرانيًّا يُدعى عوبديان أو عبدان، وقد بقيت فيها النصرانية معزَّزة رفيعة الشان إلى القرن السابع، وحجت إليها القديسة سيلفيا «أوكارية» في أواخر القرن الرابع في رحلتها إلى الأراضي المقدسة، والقديس أنطونينوس الشهيد نحو سنة ٥٨٠م، وترى بين أخربتها حتى اليوم بقايا من كنيستها ومدافنها النصرانية عليها النقوش المسيحية كالصلبان والرموز الدينية واسم السيد المسيح مختصرًا.

ومن الأديرة الشهيرة في التاريخ الكنسي دير رَيْث الذي موقعه بجوار مدينة الطور، فهذا الدير توارد إليه الرهبان ونمت شهرته حتى طمعت فيه قبيلة همجية كانت تسكن في سواحل مصر يدعونها بلاميس (Blemmeys) فاجتازت بحر القلزم واغتالت رهبانه سنة ٣٧١م وفرت هاربة، فلمَّا بلغ الخبر أهل فاران ساروا مع أسقف البلد وعوبديان الأمير إلى دير ريث، وجمعوا جثث الشهداء ودفنوهم بكل إكرام، وقد روى أخبارهم أمُّونيوس الراهب الشاهد العياني لاستشهادهم.

---

[٣٩] اطلب ترجمته، للأب جنيه الدومنيكي (Conférences de s^{t} Etienne, 1909–1910, p. 287–330).

[٤٠] اطلب: أعمال الآباء لمين Migne, P. L. LXXIV, 188–190.

وقبل أن يقدس هؤلاء وادي فيران وسواحل جبل الطور كان رقي قوم آخرون أعالي جبل موسى حيث كان التقليد عيَّن موقع مناجاة الكليم لربه، وحيث صعد إليَّا إلى جبل الله فانقطعوا على مثالهما للإلهيَّات، وقد مر بك ذكر بعض هؤلاء النسَّاك في أواسط القرن الثالث، وأخبر سولبسيوس ساويرس[٤١] في سياحته إلى جبل سينا نحو السنة ٣٨٠م أنه رأى راهبًا كان يقطن أعالي سينا منذ خمسين سنة، ثم كثر عددهم فابتنوا لهم مآوي ليسكنوا فيها، على أن لصوص العرب الوثنيين والمعادين لأهل الحضر المتنصِّرين قدموا من شمالي الجزيرة وجهات الشراة وهجموا بغتة على محابس الرهبان المتفرقة في أنحاء جبل موسى، ووقع ذلك نحو سنة ٣٩٠م كما رواه أحد الشهود العيان والكاتب اليوناني القديس نيلوس الذي مر ذكره وكان هذا من أسرة شريفة تولَّى نظارة الأمور على مدينة القسطنطينية ثم استعفى ليتجرَّد لخدمة الله فرحل إلى طور سينا مع ابنه تاودولوس وتنسَّكا في ذلك المقام، فقتل العرب في هذه الزحفة سبعة من السياح وأسروا غيرهم، وكان من جملتهم ابن القديس نيلوس الذي روينا شيئًا من أخباره في باب تاريخ أديان العرب، وقد نجا من أيدي الغزاة في مدينة الخَلَصة بِهِمَّة أهلها النصارى وأسقفها.[٤٢]

ومذ ذاك الحين أخذ رهبان جبل سينا يتحصَّنون في وجه الغزاة، ولمَّا صار الأمر إلى يوستنيان الملك ابتنى لهم الكنائس الفخيمة والأبنية الحصينة، وجعل في خدمة الرهبان بعض قبائل العرب المُتَنَصِّرين أخصهم بنو صالح، وقد عرفوا بالجبلية، وكان الزوَّار إذا ما قصدوا الأراضي المقدسة يزورون أيضًا هذه الأديرة لينالوا بركتها وبركة أهلها، وقد ازداد عدد رهبانها حتى جُعل لطور سينا أساقفة عدَّدنا أسماءهم في مقالة نشرناها في أعمال المكتب الشرقي.[٤٣]

وكذلك اشتهر بين الرهبان بعض القديسين والكتبة كالقديس أنستاس السينوي في القرن السادس، وليس أقل منه شهرة القديس يوحنا رئيس طور سينا المعروف بالسلمي أو كليماكوس باسم كتاب ألفه دعاه سُلَّم الكمال، وكان معاصرًا للقديس البابا غريغوريوس الكبير، وكان بين القديسين مكاتبات رواها جامعو آثار الحبر الأعظم، وقد

---

[٤١] اطلب: أعمال الآباء اللاتين (Migne, P. L., XX, 194, Sulpice-Sévére, Dial. 1, 17).

[٤٢] أعمال الآباء اليونان (Migne, P. G., LXXIX, col. 678–700).

[٤٣] اطلب: الجزء الثاني من هذا المجموع Les Evéques du Sinaï (*Mélanges de la Fac. Or.* I1, 408–421).

ذكرنا في المشرق (٧: ٩٩٣) ما تبرع به ذلك البابا من الحسنات لدير طور سينا، حيث أنشأ يوحنًّا مأوى للعجزة والزوار.

وفي أعمال القديس صفرونيوس بطريرك القدس تكرر ذكر طور سينا ورهبانه والزوار المترددين إليه.[٤٤]

وبعد ذلك بقليل استولى العرب المسلمون على شبه جزيرة سينا، وقد قيل: إن بين آثار دير الطور سجلًّا أعطاه محمد كامان لأهله وبقي عندهم إلى أيام السلطان الغازي سليم الأول، فأخذه إلى القسطنطينية (راجع في المشرق، ١٢: ٦٠٩ و٦٧٩) مقالتنا في عهود نبي الإسلام والخلفاء الراشدين للنصارى.

ومن الآثار النصرانية كتابات عديدة وُجِدَت منقورة في الصخر أو مكتوبة بالمغرة على جوانب وادي المكتب، فإن السُّيَّاح كانوا إذا مروا هناك كتبوا أسماءهم وطلبوا من الله الرحمة وأعلنوا إيمانهم بالله الواحد ورسموا بعض العلامات المسيحية كالصليب والأنجر وسعف النخل والحرف الأول من اسم السيد المسيح، وهذه الكتابات منها يونانية ومنها قبطية لا شك في نسبتها إلى النصارى، وبينها كتابات أخرى عديدة مكتوبة بالنبطية ومن جملتها ما نصفه يوناني ونصفه الآخر نبطي، وبعض العلماء يرتَئُون أنها للوطنيين المشركين أما غيرهم فيرجِّحون أيضًا أنها للنصارى منهم من قبائل تيم الله وكلب وأوس ممن اعتقدوا النصرانية، بل تُرى العلامات النصرانية عليها كما تُرى على اليونانية والقبطية، وإن لم يكن في منطوقها ما يدل على الدين المسيحي صريحًا ما لم يُقَل: إن تلك العلامات أُضيفت بعد ذلك العهد والله أعلم.[٤٥]

ومن البلاد اللاحقة بشبه جزيرة سينا بقعة واسعة في تخوم فلسطين عن جنوبها الشرقي كثيرة النخيل عرفها الكتبة اليونان ودعوها فينيقون (Φοινιϰών) أي مغارس النخل، وقد ظن البعض أن موقعها في وادي فيران إلا أن كلام الكتبة الأقدمين لا ينطبق عليها، والصواب أنها شمالي غربي وادي فيران، وقيل: إن هناك مكانًا يُدعى بالنخل لكثرة نخله، فلعله هو مدلول كتبة اليونان، ففي القرن السادس كان يحتل هذا البقيع قوم من العرب من جذام ولخم، وكان أحد أمرائهم يدعى أبا كرب، فروى عنه المؤرخ

---

٤٤ اطلب: أعمال الآباء اليونان (Migne, P. G. LXXVII, col. 719, 2958, 3035, 3051).

٤٥ اطلب: المجلة الآسيوية الفرنسوية (J. A., 1859[1], 5 et 194)؛ وسياحة الأب ميشال جوليان إلى سينا، ص٧٧.

بروكوبيوس الغزي[٤٦] أنه كتب إلى يوستنيان ملك الروم يقدم له ولايته فشكره الملك وجعله أميرًا على كل قبائل العرب (phylarque) التي في جواره فتولاها باسم ملك الروم وأخضع العرب لأمره، ولا شك أن هذا الأمير كان نصرانيًّا، ولولا ذلك لما رضي يوستنيان أن يُرَئِّسه على بلاد كان الدين المسيحي قد مد عليهم سيطرته كالنبط وبني كلب وغيرهم، وفيه أيضًا دليل على نصرانية العرب المستوطنين لبقعة النخيل التي كان أبو كرب مالكًا عليها.

وقد جاءت الاكتشافات الجديدة للسياح الأوربيين في بلاد مؤاب وآدوم والنبط مُثْبِتة لهذه الآثار التاريخية القديمة، فإن الكاهن العالم نزيل كُلِّيَّتنا سابقًا الدكتور لويس موسيل الذي تَجوَّل مرارًا في تلك الأنحاء وصف ما رأى بالعيان في مجلدات ضخمة فرسم في تآليفه ما وجده من الآثار كالرسوم والقبور والصلبان وغير ذلك منها في قصر الموقَّر،[٤٧] وفي العويرة،[٤٨] وفي أم الرصاص،[٤٩] ومما تُرى بقاياه إلى يومنا آثار كنائس عديدة في أمكنة شتى كعبد والعوجاء وفار وفينان وحسبان والكسيفة والمكاور والمحي، وقد يُسمَّى بعضها اليوم بأعلام تدل على دين أهلها كالكنيسة والنصرانية والدير،[٥٠] بل وجد بين الأحياء التي تسكن حتى الآن في تلك البوادي عادات نصرانية تدل على أصلها القديم كرسم الصليب والدعاء إلى السيد المسيح.[٥١]

ومثله سائح آخَر جال في تلك الأنحاء سنة ١٩٠٨م يُدعى دلمان،[٥٢] فإنه وصَف نحو عشرين أثرًا نصرانيًّا وَجدَها في رحلته إلى جهات النبط.

وليس أقل منها شأنًا ما رواه العالمان برونُّو ودومازفسكي في المجلدات الثلاثة الضخمة التي دوَّنا فيها أعمال بعثتهما العلمية إلى إقليم عربية،[٥٣] وقد مر وصْفُها للأب

---

[٤٦] اطلب كتابه: في الحرب الفارسية Procopius: *De Bello Persico* I. 19.

[٤٧] اطلب كتابه (A. Musil: ARABIA PETRÆA: I, Moab 194).

[٤٨] فيه Ibid, III, 58.

[٤٩] فيه Ibid I, 109.

[٥٠] فيه أيضًا Ib. I. 97, 109, 120, 134, 193, 273, 338, etc, II^1, 67, 105, 205, 273, 278: etc, II^2, 18, 26, 39, 45, 110, 119, 125, 142, etc.

[٥١] اطلب: المجلد الثالث (Ibid. 111, 297, 304, 316).

[٥٢] اطلب كتاب سياحته (Dr. Gustaf Dalman: *Petra und seine Felsheiligtümer*, p. 98).

[٥٣] اطلب: R. E. Brünnw et A. V. Domaszewski: *Die Provincia Arabia*.

جلابرت في المشرق (٨: ٤٥٧–٤٦١) في المقالة المعنونة السكة الرومانية من مادبا إلى عقبة، وفي هذا التأليف الجليل وَصْف آثار خطيرة للنصرانية لا يسعنا هنا بيانها.

فيؤخذ من كل هذه الأدلة التي استدلَلنا بها أن طور سينا والبلاد اللاحقة أو المحدقة به كاد يعمها الدين النصراني في القرن السادس، وقد أقر بذلك المستشرق دوزي (Dozy) في مقدمة كتابه عن الإسلام[٥٤] قال: «إن شبه جزيرة سينا كلها تقريبًا كانت ارتَدَّت إلى النصرانية، وكانت حاوية لجملة من الأديرة والكنائس، وكان عرب الشام يدينون بالنصرانية.»[٥٥]

(٥) الباب الخامس: النصرانية في اليمن

فَلْنَدعنَّ طور سينا لِننحَدِر إلى أطراف جزيرة العرب في جنوبها الشرقي حيث نلقى بلادًا واسعة كثيرة الخيرات وافرة الأسباب تمتد بين بحر القلزم وبحر الهند فيها السهول الرحبة المخصبة والجبال الطيبة الهواء الغنية بالمعادن وبالأشجار النافعة كالكروم والبن والوَرْس واللُّبان أو الكُنْدُر، فتلك البلاد سكنتها أمم عديدة تزاحمت فيها وتنازعت على ملكها وتَركت فيها آثارًا عظيمة من أبنيتها كهياكل وقصور أشهرها قَصرَا غمدان ورَيْدان، وكانت تلك الشعوب من عناصر شتَّى وقبائل مختلفة منها كُوشيَّة ومنها ساميَّة، وبلاد اليمن تشمل عدة أعمال ومخاليف كعسير ومهرة وحضرموت والشحر، ومن مدنها الشهيرة مأرب ذات السد قاعدة تَبابِعة اليمن، ومن حواضرهم أيضًا ظَفَار وصنعاء ونجران وزبيد وذَمار وعَدَن كلها قصبات شهيرة حافلة بالسكان دارَّة المرافق، وكانت لغتها من اللغات الساميَّة تُدعى بالحِمْيَرية، لها قَلَم خاص يُعْرَف بالمُسْنَد وجد منها الأثريون المحدثون كتابات عديدة يرتقي بعضها إلى الأزمنة السابقة لتاريخ الميلاد بمئين من السنين تدلُّ على أن أهلها كانوا يدينون بالصابئية ويكرمون القوات العلوية والنَّيِّرات السماوية والسيارات السبع، وكان المتملك على اليمن في أوائل تاريخ الميلاد ملوك من حمير يتلقَّبون في الكتابات المكتشفة حديثًا في جنوبي جزيرة العرب بـ «ملوك سبأ وذي

---

٥٤ اطلب: Dozy: *Essai sur l'Hist. de l'Islamisme*, traduction de V. Chauvin, p. 13.

٥٥ وهذا كلامه: La Presqu'île sinaïtique à peu près entièriment convertie, renfermait nombre de couvents et d'églises: les Arabes de Syrie professaient le Christianisme.

ريدان» ولما استولى ملوك حِمْيَر على بلاد حضرموت نحو السنة ٣٠٠ للمسيح أضافوا إلى ألقابهم «ملوك حضرموت ويمانات».[٥٦]

لا مِراء أن النصرانية منذ بزوغها وجَّهَت أنظارها إلى اليمن كما يشهد عليه أقدم الكتبة الغربيين والشرقيين حتى إن بعض الآباء زعموا أن المجوس الثلاثة الذين سبق ترجيحنا لجنسهم العربي كانوا من اليمن وماتوا شهداء في صنعاء بعد أن عَمَّدَهم القديس توما قبل سفره من عدن إلى الهند.[٥٧]

ومن الرسل الذين يُنْسَب إليهم التبشير بالمسيح في اليمن متَّى الرسول، فإن أوريجانس في كتابه الذي رد فيه على الأمم، ومثله المؤرخ سقراط (ك١، ف١٥)، وروفينوس في تاريخه (ك١، ف٩)، والقديس هيرونيموس في تأليفه عن الكتبة الكنسيين ونيقيويفوروس في تاريخه (ك٢، ف٤٠) كلهم يؤكدون بأن مَتَّى الرسول بَشَّر في جهات الحَبَش، وادعى المحدثون بأن اسم الحبش يُطلق أيضًا على اليمن، وهو اسم شاع عند القدماء، فسمَّوا به تلك الناحية؛ لأن الحبشة كانوا استولوا مدة طويلة على اليمن، ولأن قبائل من الحبشة كانت اجتازَت من سواحل الحبش إلى اليمن، وهذا القول لا يخلو من الصحة؛ لأن القدماء ربما دعوا أهل اليمن بالحبش منذ عهد هيرودوتس وإسطرابون (ك١، ص٥١، من طبعة أوكسفورد) إلا أن معظم الكتبة لا يسلمون ببشارة متَّى في اليمن، ويزعمون أن القديس بشَّر حبشة إفريقية ليس عرب اليمن.

وسبق لنا ذكر القديس برتلماوس ودعوته للعرب،[٥٨] فإن الكتبة القدماء كأوريجانوس وأوسابيوس القيصري (في التاريخ الكنسي ك١، ف١٠) وسقراط المؤرخ زادوا على تعريفهم للعرب بقولهم: إن الرسول برتلماوس بشَّر بالمسيح في الهند القريبة

[٥٦] اطلب: دائرة العلوم الإسلامية (Encyclopédie de l’Islam, p. 383).

[٥٧] اطلب: أعمال الآباء اللاتين (Migne, P. L., XXI, 230).

[٥٨] برتلماوس رسول اليمن، يؤيد هذا الرأي فوتيوس في مكتبته (PP. Gr., Migne, LXV, 459 seqq 1) حيث روى تبشير الرسول برتلماوس للهند فيصرح بأن الهند المقصودة هنا هي اليمن، وأن الذين بَشَّرَهم هم العرب المعروفون قديمًا بأهل سبأ، ثم عُرِفُوا بالحميريين، وقد جنح البولنديون إلى هذا الرأي في ترجمة القديس برتلماوس، وهكذا ارْتَأَوا أيضًا فيما أخبره أوسابيوس عن رحلة بنتانوس إلى الهند قالوا: يراد بالهند جنوبي العرب؛ أي اليمن حيث كان بَشَّر برتلماوس الرسول. وكانت هذه الرحلة سنة ١٨٩ للميلاد، وتوفي بنتانوس نحو السنة ٢١٥م.

يريدون بها اليمن؛ لأن اسم اليمن كان مجهولًا لديهم فسموها بالهند القريبة مُعارَضة بالهند الشرقية ما وراء البحر الهندي، ثم إن المؤرخ فيلوسترجيوس (ك٢، ف٦)، وتاوفانوس في تاريخ سنة العالم (٦٠٦٤) وتاوفيلاكتوس (ك٣) يَدْعُون الحِمْيَريين بالهنود، وزاد بعضهم إيضاحًا، فقالوا: إن برتلماوس بَشَّر بني سبا، وفي الميناون المنسوب إلى الملك باسيل يقال: إنه بشَّر هنود العربية السعيدة وهي اليمن كما لا يخفى.

وقد رأيت آنفًا أنهم ينسبون أيضًا دعوة النصرانية في بلاد العرب إلى القديس توما قبل سفره إلى الأقطار الهندية، وقد ارتأى هذا الرأي القديس غريغوريوس النَّزينزي في ميمره عن الرسل، ومثله تاودوريطس في كتابه عن الأناجيل (ك٩) وبعض كتبة السريان.

ومن الشواهد الجليلة التي توقفنا على دخول النصرانية في اليمن منذ القرون الأولى لتاريخ الميلاد ما رواه أوسابيوس القيصري (ك٥، ف١٠)، ومثله هيرونيموس (Hieron., de vir. illustr. c. 36) عن أحد العلماء الإسكندريين في النصف الثاني من القرن الثاني للمسيح، ألا وهو بنتانوس الفيلسوف[٥٩] فإن هذا كان من الفلاسفة الرِّوَاقيين جحد الوثنية وتنصَّر وعهد إليه دمتريوس أسقف الإسكندرية التدريس في مدرسة الإسكندرية ففعل وأحرز له شهرة واسعة بالتعليم الديني، وعنه أخذ أوريجانوس المعلم الكبير فبنتانوس المذكور نحو السنة ١٨٣ للمسيح تَنَزَّل عن التدريس وسافر إلى الهند ليبشر فيها بالدين النصراني، وقد اتفق المؤرخون على أن الهند المقصودة هنا هي المجاورة لمصر، أعني بلاد اليمن كما سبق.

قال أوسابيوس: «فبلغ بنتانوس تلك الجهات ودعا إلى النصرانية أهلها فأوقفوه على إنجيل مخطوط بالعبرانية[٦٠] للقديس مَتَّى كان أتى به إليهم القديس برتلماوس الرسول

---

[٥٩] راجع: في مجلة الكلية الكاثوليكية (Université Catholique, 1853 XXXV, P. 329) للمستشرق البلجكي نيف (F. Néve) مقالة مُسْهَبة يثبت فيها أن الهند المذكورة في تاريخ بنتانوس إنَّما هي اليمن ليس إلَّا، قال:

“Quand nous lisons “dans Eusébe” que Démétrius archevêque d’ Alexandrie donna en 189 à S. Panténe la misson d’ annoncer l’ Evangile dans les Indes, nouns ne pouvous entendre par ce terme que l’ Arabie Heureuse. Cfr. aussi Annales de Philosophie, 3° série, t.” XIII, XIV (p.7) et XV.

[٦٠] يراد بالعبرانية اللغة الفلسطينية التي كانت شائعة في أيام السيد المسيح، وهي من فروع الآرامية.

وأودعه عندهم.» وفي هذا القول شهادة على ما سبق بالدعوة النصرانية في جهات اليمن منذ عهد الرسل.

هل كان لدعوة بنتانوس في اليمن تأثير في أهل تلك البلاد؟ ذلك أمر لا يمكن القطع به، وإنما هو مُحتمَل بل مُرجَّح، ففي وجوده بين القوم إنجيلًا قديمًا دليل على أن النصرانية التي بشَّر بها برتلماوس الرسول لم تَمُت بينهم، ويُؤخَذ من رواية أوسابيوس أن الأستاذ الإسكندري عاد إلى وطنه راضيًا شاكرًا لم يذهب تعبه سُدًى، ولعله لم يَنْسَ أولئك الموعوظين فأمَدَّهم بمرسلين يجارونه في عمله، وكما هاجر بعض النصارى المصريين في زمن الاضطهادات إلى جهات سينا وبادية الشام على ما روى المؤرخون يجوز القول أيضًا بأن قومًا منهم هاجروا إلى اليمن لا سيما في عهد دقيوس وديوقلطيانوس فنشروا دينهم فيما بينهم.

ومما يستدل إليه من تواريخ العرب كالطبري وسيرة الرسول لابن هشام والمسعودي وغيرهم أن النصرانية واليهودية أخذَتا في النزاع والمخاصمة منذ أواسط القرن الثالث للمسيح، وبلغ الخصام إلى أعيان الدولة وملوكها، فيخبرون أن التُّبَّع أسعد أبا كرب تهوَّد على يد ربَّانِيِّين من يثرب، وحمل أهل رعيته على التهود وتبعه في أمره بعض أولاده بعده، لكن النصرانية فازت في عهد عبد كُلَال بن مثوب.

وقيل: إن عبد كُلَال المذكور مَلَك في القسم الثاني من القرن الثالث[٦١] منذ نحو السنة ٢٧٣ للمسيح إلى ٢٩٧م، وقد جعل الأصفهاني مُلكه (ف١٣١، طبعة بطرسبرج) أربعًا وسبعين سنة، وقد اتَّفَق المؤرخون على تدينه بالنصرانية،[٦٢] جاء في القصيدة الحميرية:

أم أينَ عبدُ كُلالٍ الْماضي على دِين المسيح الطَّاهر المسَّاحِ؟

وقال الطبري في تاريخه (طبعة ليدن، ج١، ص٨٨١):

وملك بعد عمرو بن تُبَّع، عبدُ كُلال بن مثوَّب … فأخذ المُلكَ عبدُ كُلال … ووليه بسن وتجربة وسياسة حسنة، وكان فيما ذكروا على دين النصرانية الأولى وكان يسرُّ

[٦١] اطلب: تاريخ العرب لكوسان دي برسفال (C. de Perceval*Essai sur l’Hist. des Arabes*, I, 107).

[٦٢] قال ابن قتيبة في المعارف (ص٢١٢): «كان عبد كُلَال بن مثوب مؤمنًا على دِين عيسى — عليه السلام — ويُسِرُّ إيمانه وكان ملكه ٧٤ سنة.»؛ (اطلب أيضًا: تاريخ الطبري، ١: ٨٨١).

ذلك من قومه، وكان الذي دعاه إليه رجل من غَسَّان قدم عليه من الشام، فوثَبت حِمْيَر بالغساني فقتلَتْه.

ثم عاد من بعده عبد كُلال إلى اليهودية أخلافه، هذا ما يُسْتَخْلَص من تواريخ العرب، إلا أن هذه التواريخ سقيمة جدًّا، ولا سيما تاريخ حِمْيَر، قال حمزة الأصبهاني (ص١٣٤): «ليس في جميع التواريخ أسقم ولا أخل من تاريخ الأقيال ملوك حمير.»

ومما وُجِد من الكتابات الحجرية الحميرية في أواسط القرن الماضي (CISI. 6) كتابة فيها اسم عبد كُلَال وامرأته أبعلي وولديه هني وهعلل نقشوها تذكارًا لبناية دار يدعونها «يرث» شيدوها «برضى الرحمن» وذلك في شهر ذي خرف من السنة الحميرية ٥٧٣ الموافقة للسنة المسيحية ٤٥٨، فذكر الرحمن[٦٣] من الأدلة على توحيده أو نصرانيته.

ومن الآثار التاريخية اليونانية عن نفوذ النصرانية في اليمن ما رواه المؤرِّخ الآريوسي فيلوسترجيوس من كتبة القرن الرابع وأوائل الخامس، فكان هذا من قباذوقية، وكتب تاريخًا في اثني عشر كتابًا دافَع فيه عن أعمال الآريوسيين مباشرة من السنة ٣٠٠ إلى ٤٢٥م، وتاريخه مفقود إلا ما نقله عنه فوطيوس البطريرك القسطنطيني في مكتبته يبلغ نحو ثمانين صفحة،[٦٤] ومما رُوي هناك[٦٥] أن الإمبراطور قنسطنسيوس ابن قسطنطين الكبير المتشيِّع للآريوسية أرسل نحو السنة ٣٥٦م وفدًا من الرومان إلى الحِمْيَريين في اليمن، وكان يترأس الوفد تاوفيل الهندي من جزيرة سرنديب أي سيلان، فرحل هذا إلى بلادهم ودخل على الملك وقدَّم له ألطافًا وهدايا فنال لديه الحظوى وبشر هناك بالدين المسيحي واسترخص بتشييد الكنائس بل جادَل اليهود الذين وجدهم في بلاط الملك، واقتنع الملك بالحجج الدامغة عن صحة النصرانية حتى نصَّره، وشيد تاوفيل ثلاث كنائس: الأولى في حاضرتهم ظَفَار، والثانية في عَدَن على ساحل الأوقيانوس (الهندي) حيث كان ينزل الرومان للمُتاجَرة، والثالثة في فُرْضَة عند مدخل خليج العجم يظنونها هرمز، وعيَّن للمُتَنَصِّرين رئيسًا ثم رحل، هذا ما رواه فيلستورجيوس إلا أن تشيعه للآريوسية حدَا به إلى القول: إن النصرانية لم تدخل بلاد العرب قبلًا، والأمر على خلاف

[٦٣] اسم الرحمن ورد مرارًا في الكتابات الحميرية المكتشفة حديثًا ولا سيما في الكتابات النصرانية (اطلب: المجلة الآسيوية الألمانية (Fell: *Sudarab. Studien*, ZDMG, 1900, LIV, p. 252)).

[٦٤] أعمال الآباء اليونان (Migne, P. G., LXV, col. 459–637).

[٦٥] فيه (Ibid. 482–485).

ذلك كما رأيت، والمؤرخون يرون أن الأسقف الذي أمضى أعمال مجمع نيقية سنة ٣٢٥م باسم «يوحنا أسقف الهند» إنما كان أسقفًا على اليمن، وقد سبق أن اسم الهند كثيرًا ما أطلق على اليمن، وكذلك قد بيَّن العلَّامة المستشرق السنيورك روسيني[٦٦] أن الملك قنسطنسيوس لم يقصد بوفده إلى ملك حِمْير أمرًا دينيًّا محضًا، وإنما أراد أن ينهج للرومان طريقًا تجارية في البحر إلى اليمن، ويعقد مُحالَفة مع الحِمْيَريين ضد الفُرْس وملكهم سابور الثاني، أما اسم الملك المتنصِّر على يد تاوفيل في اليمن فلم يذكره المؤرخ فيلسترجيوس، ولعله مرثد بن عبد كُلال المالك على ما يظن من السنة ٣٣٠ إلى ٣٥٠م، وقد أطرأ الثعالبي في طبقات الملوك حِلْمَه وحُبَّه للفقراء وحِكمَتَه وتَساهُله، وقال عنه: إنه لم يشأ أن يقلق رعاياه بسبب دينهم، أو هو وليعة بن مرثد الذي تعصب أولًا لليهودية ثم عدل إلى النصرانية، وقد جاء للفيروزآبادي ما يؤيد نصرانية هؤلاء الملوك، حيث قال: «إن كثيرًا من ملوك اليمن والحيرة تنصرَّوا.»

ومما يشهد على ثبات المعاهدة التجارية المُبْرَمة بين الرومان والعرب قانون سنَّه تاودسيوس الكبير في تلك الأثناء نظَّم فيه أمور الوفود الراحلين إلى الحِمْيَريين والحبشة من الإسكندرية.[٦٧]

ومن الشهود على نفوذ النصرانية في اليمن القديس هيرونيموس، فإنه غير مرة ذكر بين المُتَنَصِّرين أهل الهند والحبشة، من ذلك رسالته إلى مارسلَّا الرومانية (Migne, P. L., XXII. 489) حيث يُعدِّد فئات المتقاطرين لزيارة الأراضي المقدسَّة، وكلهم على إيمان واحد ممن كان يشاهدهم ويحادثهم فجعل في مقدمتهم العجم والأرمن وعرب اليمن (الذين دعاهم بأهل الهند) والحبشة، وكذلك كرر قوله في رسالته إلى السيدة ليتا (Ibid., XXII. 870) وخصَّ بالذِّكر «رهبان الهند» أي اليمن كما قلنا.

وفي ترجمة القديس سمعان العمودي التي كتبها تاودورويطس في القرن الخامس قد ذكر غير مرة بين الذين قصدوا القديس على عموده عربَ حمير، وقد رآهم تاودوريطس عيانًا قال (Migne, P. G., LXXIV. 104): «ولا يتزاحم حول سمعان أهل بلادنا فقط، بل يأتيه جموع من الإسماعيليين والعجم والأرمن والكرج والحميريين.» وكذلك كتب

[٦٦] اطلب: أعمال أكادمية لينشاي (Rendiconti d. reale Accademia dei Lincei, *Aprile*, 1911, p. 715).

[٦٧] اطلب: الدستور التيودوسي (Code Théodosien IV, p. 616, *de legatis*, 1. XII, tit. XII, 2).

أنطونيوس تلميذ القديس (Ibid., LXXXII, 328): «قد نصَّر سمعان العمودي أممًا عديدة من الشرقيين (السراكسة) والعجم والأرمن والأسكوتيين وذوي القبائل.» وقد صرَّح باسم تلك القبائل قدرينوس المؤلف فقال: إنهم «الحميريُّون».

ثم إن النصرانية لم تدخل فقط إلى اليمن من جهة الجنوب ومن بلاد الرومان، ولكن نفذت إليها من جهات الشمال وخصوصًا من العراق، فمن المعلوم أن ملوك الفرس كانوا يسعون في محالفة ملوك اليمن، ويتقربون إلى أهلها ليستعينوا بهم على رد غارات الرومان، وكذلك ملوك اليمن والحبشة ربما أوفدوا الوفود إلى ملوك العجم ليبرموا معهم المعاهدات كما روى المؤرخون.[٦٨]

وكانت القوافل تسير ذهابًا وإيابًا من العراق إلى اليمن، ومن اليمن إلى العراق، فالنصرانية التي كانت بلغت في الشمال مبلغًا عجيبًا ما كانت لتهمل هذه الوسائط لنشر الدين المسيحي في الجنوب، ومن التقاليد الشائعة عند الكلدان أن رسولَيِ الكلدان الأوَّلين آدي وماري سارَا أيضًا إلى بلاد العرب سكان الخيم وإلى نجران وجزائر بحر اليمن.[٦٩]

وجاء في المصحف الناموسي (ص١٨): «وبشر الجزيرة والموصل وأرض السواد كلها، وما يليها من أرض التيمن كلها وبلاد العرب سكَّان الخيم، وإلى ناحية نجران والجزائر في بحر اليمن ماري الذي من السبعين.» وإلى هذه البشارة في اليمن أشار القديس أفرام في القرن الرابع، حيث قال في أحد ميامره: «جاءت ملكة التيمن «سبأ» إلى سليمان ونالت من نوره شعلة استضاءت بها، وبقيت تلك الشرارة مخبوَّة تحت الرماد إلى أن ظهرت شمس العدل السيد المسيح، فاتقدت تلك الشرارة حتى أصبحت نجمًا باهرًا ينير اليوم تلك الأنحاء.»

وما لا ينكر أن النساطرة كانوا انتشروا في تلك البلاد قبل الإسلام، وأنشئُوا عدة كنائس وكان لهم فيها أساقفة أَتَوْها من قبل جثالقة المشرق أصحاب كرسي المدائن، وبقوا فيها بعد الإسلام مدة كما سيأتي، وقد ارتأى العلامة دي ساسي في إحدى مقالاته[٧٠] أن نصارى الشمال من أهل العراق كانوا يترددون إلى اليمن، وأنهم أَدخَلوا

---

[٦٨] اطلب: منشورات لند السريانية (Land: *Anecdota Syriaca*, II, 76 et seqq).

[٦٩] اطلب كتابَي: فطاركة كرسي المشرق، لسليمان بن ماري، طبعة رومية، ص٢؛ والمجدل، لعمرو بن متى الطيرهاني، ص١.

[٧٠] اطلب: Mémoires des Inscript. et Belles-Lettres, t. 50, p. 266.

بين إخوانهم في الدين الكتابة السريانية بدلًا من الخط المُسْنَد الشائع هناك قبلهم، وقد روى السمعاني في المكتبة الشرقية (Assemani, BO, III, 603) أن اللغة السريانية كانت دخلت في جهات عديدة من اليمن، وكذلك ذكر المؤرخ فيلسترجيوس أن في زمانه كانت مستعمرات أخرى سورية احتلت سواحل إفريقية بإزاء بلاد العرب، وأن أصحابها كانوا يتكلمون بالسريانية، وقد جاء في كتاب كشف الأسرار في بيان قواعد الأقلام الكوفية «إن القلم الكوفي كان يُدعى بالسوري.» ولعله أراد بذلك شبهه بالقلم السرياني، وقال هناك: إن «آل طسم وقحطان وحمير» كانوا يكتبون به.

ومن أعظم الشواهد التي أثبتها العرب على دخول النصرانية في اليمن ما رواه الطبري في تاريخه[٧١] وياقوت في معجم البلدان (٤: ٧٥٢)؛ وابن خلدون في كتاب العبر (٢: ٥٩)؛ وابن هشام في سيرة الرسول (ص٢٠) وغيرهم أن أهل نجران وهي من أمهات مدن اليمن تَنصَّروا جميعهم، وقد ذكروا الخبر في كلام طويل، خلاصته أن رجلًا من بقية أصحاب الحواريين يقال له: فيميون وقالوا: قيمون وقالوا: ميمون[٧٢] من أفضل الناس عبادة وأعرقهم في أعمال الصلاح كان سائحًا تجري على يديه الكرامات والمعجزات وصل في سياحته إلى بلاد غسَّان فتبعه رجل من أهل الشام اسمه صالح فَتوغَّلَا في بلاد العرب، ثم اختطفتهما سيارة وباعوهما بنجران وأهلها حينئذٍ من بني الحارث بن كعب المنتمين إلى كهلان يعبدون العُزَّى على صورة النَّخْلة، فأوقف فيميون سيده على بطلان الشرك بما صنع لديه من الآيات، ولا سيما إذ دعا ربه في يوم عيد العزَّى، فأرسل الله ريحًا جعف النخلة من أصلها فعرف أهل نجران صحة دينه ودانوا بدين المسيح، وجعل فيميونُ عليهم رئيسًا أحد أشراف المدينة عبد الله بن الثامر ورعاهم أسقف كان يُدعى بولس.

وأقام أهل نجران على دين المسيح حتى دعاهم إلى اليهودية أحد ملوكهم اسمه ذو نؤاس كان متعصبًا لدين اليهود فأبى النجرانيون اتباعه في ضلاله، وكان رئيسهم إذا

[٧١] اطلب تاريخه، طبعة لندن، ج١، ص٩١٨.

[٧٢] وفي تاريخ فطاركة المشرق، لسليمان بن ماري (ص٣٣) أنه كان يُدعى حيَّان كان أصله من نجران تنصَّر في الحيرة على يده خلق من حمير والحبشة.

ذاك اسمه الحارث، واستعدوا للدفاع عن بلدهم إلا أن ذا نؤاس[٧٣] دخله بالمكر وحفر أخاديد (أشار إليها في القرآن) أضرمها نارًا وألقى فيها على ما روى ابن إسحاق عشرين ألفًا من النصارى أو يزيدون ماتوا في سبيل إيمانهم مع الحارث رئيسهم.[٧٤]

على أن الخبر لم يلبث أن نما إلى قيصر الروم بواسطة رجل من أهل نجران فر هاربًا اسمه دوس ذو ثعلبان، فاستنصره على ذي نؤاس فأمر القيصر النجاشيَّ أَلِصْبان ملك الحبشة بمحاربة اليهودي، ففعل وأرسل جيشًا مع إرياط وأبرهة الأشرم فناجزوه القتال وظفروا ببلاده ومات الطاغية غرقًا، وأتم الحبشة فتح اليمن فملكوا عليها أكثر من نصف قرن كان أول ملكهم إرياط (٥٢٥م)، ثم أبرهة الأشرم (٥٣٧–٥٧٠م)،[٧٥] ثم ابنه يكسوم (٥٧٠–٥٧٢م)، ثم مسروق (٥٧٢–٥٧٥)، أما الملوك الحميريون فبعد موت ذي نؤاس حاوَل أحدهم المسمَّى ذو جدن أن يضبط زمام الملك لكنه قُتل في حرب الحبشة، ولم يعودوا إلى المُلك إلا في زمن سيف ابن ذي يزن الذي استعان بالفُرس وأخرج الحبش من اليمن وملك هو وابنه معدي كرب، ثم إن الفُرس لم يلبثوا أن يمدوا سيطرتهم على تلك البلاد، وجعلوا عليها عمَّالًا كان أولهم وهرز (٥٩٧م) ثم بَدْهان وفي زمنه فَتَح المسلمون نواحي اليمن.

هذا ملخَّص ما جاء في تواريخ المسلمين، وقد أيَّدته في أموره الجوهرية التواريخ اليونانية والسريانية كتاريخ الحرب الفارسية لبروكوبيوس الغزي (Procop., *de Bello*

[٧٣] راجع أيضًا أخباره، في تاريخ مكة للأزرقي (ص٨٦)، وقد ورد الخبر في القصيدة الحميرية على هذه الصورة:

أو ذو نُؤاسٍ حافرُ الأخدودِ في ... نجرانَ لم يخشَ احتمالَ جُناحِ
ألقى النصارى في جحيمٍ أُجِّجَتْ ... بوقودِ جمرٍ مُضْرمٍ لفَّاحِ
فدعا له ذُو ثُعلبان أحابشًا ... منهم بقاع الأرض غير وضاحِ
فتَقحَّم البحرَ العميقَ بنَفْسِه ... وسلاحِه وجوادِه السَّبَّاحِ
فغدَا طعامًا بعدَ عِزٍّ باذخٍ ... للحوتِ من نونٍ ومن تمساحِ

[٧٤] راجع في: المجلة الآسيوية الألمانية (ZDMG XXXV, 1881, 1–75) مقالة مطولة في الآثار العربية والسريانية والحبشية المنوطة بأخبار أولئك الشهداء للعلامة الألماني فال (Fell: *Die Christenferfolgung in Südarabien*).

[٧٥] قال الأزرقي في تاريخ مكة (ص٩٣): «كان أبرهة رجلًا حليمًا ورِعًا ذا دين في النصرانية.»

pers. I, c. 20)؛ وتاريخ يوحنا المعروف بأسقف آسية (Assemani, BO, II, 83)؛ وتاريخ تاوفانوس (ج١، ص٣٤٦، من طبعة بونًّا)؛ وتاريخ يوحنًّا ملالا (ص٤٣٤، من الطبعة عينها) فكل هؤلاء ذكروا أمور الحبشة وما جرى من الحروب بين ملكها وملك حِمْيَر اليهودي بسبب قتله لنصارى نجران، وفي رواياتهم بعض إفادات عن ذي نؤاس الذي يدعونه دمنوس أو دميانوس، وعن القيصر يوستينوس الذي انتصر للمظلومين وبعث الحبشة لمحاربة اليمن، وكان على الحبشة ملك يدعونه أليسباوس Elesbaas أو أَلِصْبان وصحَّفَه غيرهم بأليستاوس من أحكم الملوك وأعرقهم في الدين النصراني، وهم يقولون: إن أسقف نجران المدعو بولس كان توفي قبل هجوم ذي نؤاس عليها، وإن الملك اليهودي بعد ظفره بنجران انتهك حرمة قبره.

أما استشهاد أهل نجران على عهد ذي نؤاس فقد وصفه المعاصرون، منهم شمعون أسقف بيت أرشام الذي سمع في العراق الخبر من شهود عيانيين فدَوَّنَه في رسالة نشرها السمعاني في المكتبة الشرقية (BO, I, 364–79)، وكذلك ليعقوب الرُّهَاوي فيهم ميمر نشره الأب بيجان (Acta Martyrum I. 372–97) ثم نشر البولنديون أعمالهم في اليونانية عن نسخة قديمة في تاريخ ٢٤، ت١ (Act. SS. X, Oct. 750–780)، وفي مكتبتنا الشرقية نسخة عربية من هذه الأعمال نقلناها عن مخطوط قديم.

ومن الآثار الكتابية التي نُشرت حديثًا وأتتنا بفوائد جديدة عن دخول النصرانية في نجران أعمال القديس «أزقير» بالحبشية من مخطوطات خزانة الكتب الشرقية في لندن فنشرها لأول مرة الأستاذ الإيطالي المفضال كنتي روسيني،[٧٦] وخلاصتها أن «أزقير» كان كاهنًا نصرانيًّا دعا إلى دينه أهل نجران فأمر الملك شرحبيل بن ينكف بحبسه، لكنه نجا من الحبس وعمَّد كثيرين وتبعه رجل يدعونه قرياقوس، واجتمعت عليه اليهود ففَنَّد أقوالهم جهارًا وقضي لمجادلته آخرًا بقطع الرأس مع ٣٨ آخرين، وعيده في الكلندار الحبشي واقع في ٢٤ شهر خدار (٢٠، ت٢).

فكل هذه الآثار بَيَّنت انتشار النصرانية في اليمن، ولم يزدها اضطهاد ذي نؤاس واليهود إلا نموًّا لأن مَلِك الروم ونجاشي الحبش القديس أَلِصْبان ما فَتِئَا أن أرسلَا جنودًا إلى اليمن انتقمت للمظلومين، وكسرت شوكة اليهود في تلك الأنحاء.

---

[٧٦] اطلب: مجلة لينشاي (Rendic. d. reale Accad. d. Lincei, 1910, ser, V., vol. XIX p. 705–750)، ويظن الكاتب أن أزقير هذا هو فيمون والله أعلم.

وقد أتتنا في هذه الحقبة الأخيرة شواهد جديدة غير منتظرة، ألا وهي كتابات يونانية وحبشية وحميرية اكتشفها الأثريون، وهي تُبيِّن ما كان من النفوذ للحبشة في بلاد اليمن، فاليونانية اكتشفها أكسوم الرحالة الإنجليزي هنري سَلت (H. Salt). كتبها «أَيْزن ملك أكسوم والحميريين وريدان والحبش والصابئة وزيلع وتهامة وبغيث، وتوقال ملك الملوك ابن الإله المريخ غير المغلوب.» يصف فيها انتصاره على أعدائه البغيثيين، وتاريخ هذه الكتابة أواسط القرن الرابع يظهر منها أن ملوك الحبشة الوثنيين كانوا استولوا مدة على اليمن والحميريين.

ومن الكتابات الحبشية كتابة وقف عليها المرسل الإيطالي يوسف سابيتو (G. Sapeto) في أكسوم أيضًا ثم نشرها وفسرها وهي للملك النصراني «تازينا ابن الاعميدا ملك أكسوم وحمير وريدان وسبا إلخ» افتتحها بذكر الاسم الكريم «خالق السماء والأرض الرب الأزلي»، وكان تازينا المذكور مالكًا نحو السنة ٥٠٠م ومن كلامه يظهر أن ملوك الحبشة لم يزالوا باسطين سيطرتهم على الحميريين، ولا غرو أن نصرانيتهم أثَّرَت بدين الحميريين الوثنيين واجتذَبَت منهم قومًا إلى المسيحية.

أما الكتابات الحميرية فأعظم شأنًا وأخطر بيانًا لتاريخ النصرانية اكتشفها في أنحاء اليمن رجال ذوو حزم لا يهابون الأخطار دخلوا في هذه السنين الأخيرة إلى أقاصي اليمن، ونقلوا ما كانوا يراقبونه من الكتابات الحميرية الكاشفة لأسرار التاريخ اليمني، أشهرهم العلماء: يوسف هالوي (J. Halévy)، وإدورد جلازر (Ed Glaser) فأتوا من اليمن بمئات من الآثار الكتابية بينها كتابات حميرية تفصل محاربة الحبشة لذي نؤاس وظفرهم باليمن، وتاريخ هذه الكتابات هو تاريخ حمير الواقع سنة ١١٥ للمسيح، فمن جملة المآثر التاريخية كتابة تنسب إلى حصن الغراب وجدها جلازر[٧٧] فنشرها وهي لـ «سميفع أشوع»[٧٨] أقامها في ذي الحجة سنة ٦٤٠ (أي ٥٢٥ للمسيح) تذكارًا لدخول الحبشة في بلاد حمير بعد انتصارهم على ملكها (ذي نؤاس).

---

[٧٧] اطلب كتابه: الحبشة في بلاد العرب وفي إفريقية (E. Glaser: *Die Abessinier in Arabien u. Afrika*, p, 113).

[٧٨] هذا الاسم صَحَّفه اليونان باميسيفاوس.

ومنها كتابة أخرى تاريخها سنة ٦٥٧ و٦٥٨ (أي ٥٤٢–٥٤٣م) ورد فيها ذِكْر انفجار سد مأرب،[٧٩] وهو من أجلِّ الحوادث التاريخية كان العلماء يرقُّونه استنادًا إلى مؤرخي العرب إلى القرن الثاني للمسيح، فثبَت الآن أنه جرى في أواسط القرن السادس، والكتابة قد نُقرت في الصخر بأمر أبرهة الملك الحبشي أولها: «بقوة ونعمة ورحمة الرحمن ومسيحه وروحه القدوس قد أمر برسم هذه الكتابة أبرهة الحاكم (على اليمن) باسم الملك الجيزي (الحبشي) رمحيس ذو بي يمن ملك سبا وذي ريدان وحضرموت ويمانات والعرب الذين في الجبال والسهول.» ومما قال هناك: «ونحن على ذلك إذ بلغنا خبر تهدُّم السد والخَزَّان والحَوض والمصرف في شهر ذي المدرح سنة ٦٥٧.» ثم أردف أبرهة قوله: «فأرسلت إلى القبائل لتنفذ الحجارة والأخشاب والرصاص لترميم السد في مأرب ... ثم توجهت إلى مأرب وبعد أن صلَّيتُ في كنيستها عمدت إلى ترميم السد فعزلوا الأنقاض حتى وصلوا إلى الصخر وبنوا عليه»، ثم يذكر تَأَخُّر العمل لسأم بعض القبائل عن الشغل، وكيف حالَف أبرهة أقيال اليمن، وقابَل وفود ملوك الروم وفارس والحيرة (المنذر) وغسَّان (الحارث بن جبلة وأبي كرب بن جبلة) وغير ذلك مما يفيدنا علمًا عن أخبار العرب، وفَوْز أبرهة بقبائلهم سنة ٦٥٧ للحبش (٥٤٢م)، ثم عاد إلى وَصْف ترميم سد مأرب فقال: «فرمَّموه ووسعوه حتى بلغ طوله ٤٥ ذراعًا وارتفاعه ٣٥ ذراعًا.» ثم فصَّل هناك ما أنفق على العمل من الحجارة والأطعمة للعملة إلى أن ختم الكتابة بقوله: إنهم «انتهوا من العمل في شهر ذي معان سنة ٦٥٨ (٥٤٣م).»[٨٠]

---

[٧٩] في رواية كَتَبة العرب عن هذا السد إشارة إلى نبي دعا أهل اليمن إلى التوحيد فأبوا الإصغاء إليه فعاقبهم الله بانفجار هذا السد، فنجد في خبرهم عَيْنِه مع ما فيه من المزاعم الباطلة إشارة إلى الدعوة النصرانية لدى ذِكْرِهم ذلك النبي الذي دعاهم إلى الله فقتلوه، وهو على رأينا أحد دعاة النصرانية وشهدائها في اليمن، دونك شيئًا من روايتهم نقلًا عن كتاب الأعلاق النفيسة لابن رسته (ed. de Goeje, p. 114):

«كان أهلها (أي أهل سبأ) أغنياء صاحب صامِت ومواشٍ، فلم يكونوا يَرَوْن لأحد على أنفسهم طاعة إلَّا لمن قد مَلَّكوه على أنفسهم وانقادوا لرئاسته، وكان لهم أوثان يعبدونها، فبعث الله عز وجل إليهم نبيًّا أقام فيهم زمانًا يدعوهم إلى الله فكذبوه فأوعدهم وخوَّفَهم وحَثَّهم على شُكْر الله على ما أنعم عليهم فلم يلتفتوا إلى قوله، واستهانوا به، وقالوا: آتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين وذَبَحوه ذبحًا ... فانبثق ذلك السد وأتى على أهل هاتين المدينتين (يريد سبأ المنقسمة إلى مدينتين عظيمتين) فلمَا حل بهم هذا الحدث آمنوا بالله وسألوه العفو وأنابوا وخضعوا فقبل الله تعالى ذلك منهم وقوَّاهم وجمع كلمتهم وأيَّد أمرهم.»

[٨٠] اطلب: كتاب مردتمان في الكتابات الحميرية (Mordtmann: *Himjar. Inscbriften*, Berlin 1893)؛ وكتاب مولر في مدن اليمن وقصورها (Müller: *Bürgen u. Schloesser*, Wien 1881).

ولعل هذا السد كان انفجر قبل ذلك غير مرة ورُمِّم إلا أن أخبار العرب تنطبق خصوصًا على هذا الحادث الأخير، وإنما خلطوا في أقوالهم خلطًا عجيبًا وكفى به استدلالًا على ضعف رواياتهم التاريخية التي لا يمكن التسليم بصحتها إلا بعد النقد والنظر المَلِيِّ.

لا غرو أن النصرانية في مدة ملك الحبشة على اليمن بلغت أقصى النجاح والتقدم، لنا على ذلك شواهد تاريخية عديدة، وكان أول ما باشَر به الحبش أن جعلوا نجران كقبلة الدين النصراني بعد أن اصطبغت بدماء أهلها الشهداء، فأقاموا فيها مزارًا كان العرب يقصدونه من كل صوب، كانوا أنفقوا عليه القناطير المقنطرة ليزينوه بأنواع الحلي، وهذا المزار قد شاع ذكره عند العرب فدعوه «كعبة نجران» أو «كعبة اليمن» وضربوا بحُسْنه المثل، وإليه أشار الأعشى في بعض أبياته حيث قال يكلم ناقته:

وكعبة نجرانَ حتمٌ عليك ... حتى تُناخِي بأَبوابها
تزور يزيدًا وعبد المسيح ... وقيسًا هم خير أربابها
إذا الحبرات تلوَّت بهم ... وجرُّوا أسافل هدَّابها

يريد بني عبد المَدَان الذين كانوا يتولون أمرها وهم أعيان بني الحارث بن كعب[٨١] وأعرق الناس في النصرانية، وممن طبَّقت أخباره أقاصي العرب في ذاك الوقت خطيب مصقع ضربت العرب المثل في بلاغته نريد القس بن ساعدة أسقف نجران، وقد جمعنا في شعراء النصرانية (ص٢١١–٢١٩) ما رواه الكتبة العرب عنه، وعن يزيد بن عبد المدان النجراني (ص٨٠–٨٨).

وممَّا يعود فضله إلى الحبشة كنيسة عظيمة[٨٢] جمعوا فيها ضروب المحاسن وأنفقوا عليها المبالغ الطائلة بنوها في حاضرة ملكهم صنعاء لا تزال حتى اليوم تُرى بقاياها

---

[٨١] قال في الأغاني (١٠: ١٤٤): «أول من نزل نجران من بني الحارث بن كعب كان عبد المسيح بن دارس بن عربي بن معيفر من أهل نجران، وكانت له قبة من ٣٠٠ جلد أديم، وكان على (ص١٤٥) نهر نجران يقال له: البجيروان (قال) ولم يأتِ القبَّةَ خائفٌ إلا أُمِّن ولا جائعٌ إلى شَبِع، وكان يستغل من ذلك النهر عشرة آلاف دينار، وكان أول من نزل نجران من بني الحرث بن كعب بن يزيد بن عبد المَدَان ابنته رهيمة، فولدت له عبد الله بن يزيد فَهُم بالكوفة ومات عبد المسيح فانتقل مالُه إلى يزيد، فكان أولَّ حارثيٍّ حلَّ في نجران.» (وروى ١٠: ١٥٠) نسب بني عبد المَدَان فقال: عبد المَدَان هو عمران، وكنيته أبو يزيد، وهو ابن الديان بن قطرن بن زياد بن الحرث بن مالك بن ربيعة بن كعب بن عمرو.

[٨٢] قرأنا في أحد مخطوطات باريس (de Slane, Mss. Arab. Paris, Ms 701 ff. 71) عنوانه «تاريخ صنعاء اليمن، لأحمد الرازي» كتبه سنة ٣٩٠هـ/١٠٠٠م ما حَرْفُه:

في جامع هذه المدينة، وكانوا زَيَّنوها بكل أصناف الزين والتصاوير وضروب الفسيفساء وهي الكنيسة[83] التي عرفها العرب بالقُلَيس،[84] وذكروها في تواريخهم ووصفوها في

«حدَّث غسَّان بن أبي عُبَيد قال: دخل عيسى بن مريم صلَى الله عليه في موضع الكنيسة (يريد في صنعاء) فاتخذ النصارى الكنيسة بصنعاء على أثر مصلَّاه، وهذه الكنيسة في وقتنا خربة وهي أسفل زقاق المنصبين في صنعاء في الجانب الغربي محاذية لبِيعَة اليهود، التي هي اليوم باقية بصنعاء، وقد بقي من هذه الكنيسة ضبر شبه أسطوان على حرف الطريق إلى سوق العطارين وإلى درب دمشق، وقد أدركت عقودًا كثيرة كانت باقية إلى سنة ٣٩٠هـ.»

[83] تجد وصف عجائبها في تاريخ مكة للأزرقي (ص٨٦، ٨٨–٩٣)، ويذكر هناك أن تلك الكنيسة بقيت إلى أيام أبي جعفر المنصور فأَخْرَبها بإغراء بعض اليهود الذي وعده إذا هدمها بأن يملك ٤٠ سنة. قال: «وقد أصاب المنصور بهدمها مالًا كثيرًا.» وذكرها أيضًا ابن الأثير في تاريخه (١: ١٧٨) قال عنها: «وهي كنيسة لم يُرَ مثلها في زمانها بشيء من الأرض.» راجع أيضًا وصفها في محاضرات ابن العربي، ١: ١٣١؛ وفي معجم البلدان لياقوت، ٤: ١٧٠؛ وجاء في تاريخ الشيخ أبي صالح الأرمني (طبعة أوكسفورد، ص١٣٩) في وصفها قوله:

«صنعاء اليمن بها الكنيسة المعروفة بالقليس، أنشأَها إبراهيم ملك اليمن من قبل النجاشي ملك الحبش، وهو أبرهة الأشرم، وهذا في الحرب شُرِمَت أنفه فسُمِّي الأشرم، بنى هذه الكنيسة المذكورة وزَخْرَفها بالذهب والأصباغ الحسنة الملونة وبسط أرضها بالرُّخام الملون وعمد الرخام فيه قائمًا ونائمًا، وجلاها بأحسن الجلاء من الذهب والفضة، وسَمَّر الصفائحَ الذهبَ بمسامير الفضة، والفضة بمسامير الذهب المُلوَّحة، وجعل على أبواب المذابح بها صفحاتِ ذهبٍ عِراض، ورصع فيها الجواهر من الأحجار الكريمة، وجعل في وسط كل صفحة من ذلك صليبَ ذهبٍ، وفي وسطه ياقوتة بَهرمان أحمر شفَّاف ينبسط جرم تلك الجواهر حولهم بأنوار تشف مختلفة الألوان تُذْهِل الناظرين إليها، وأمر الناس بالحج إليها فتواردوا إليها من كل الجهات، وجعل لها حجابًا محكوم الصَّنْعة من خشب الأبنوس والساسم مُطعَّم بالعاج الأبيض النقي المنقوش بحسن الصنعة. وشاع خبرها في تلك البلاد وسمع بها مَن لم يرها، وحج إليها كثيرون من الناس، وحملوا لها النذور، وكثير من الناس جاوَرُوا هناك ولازَمُوا المُقام فيها والمبيت، وكان الملك يهتم بالمجاوِرين بها وبنى لهم بيوتًا يسكنونها، وبنى لها أملاكًا كثيرة وحبَسَها عليها. وكان هذا الملك (ص١٤٠) رجلًا حكيمًا كبير العلوم محبًّا لله محسنًا للناس عادلًا في أحكامه حسن السيرة مُكرمًا من جميع الملوك، ليس له عدو يخشاه لحسن سيره وسيرته، كما شهد بذلك تاريخ الطبري.

وأيضًا مرور الدير وهي كنيسة عليها حِصْن منيع، وهي الآن تُسمَّى مقبرة الحكماء، وبهذه الناحية أمير اليمن من جهة كسرى أبو شروان (أنو شروان).»

وروى ياقوت عن السكَّري (٤: ١٧١) أن أبرهة كتب بالمُسْنَد على باب القليس: «بنيتُ هذا لكَ مِن مالِك ليُذْكَر فيه اسمك وأنا عبدُك.»

[84] القليس مشتقة من اليونانية Ἐχχλησία ومعناها الكنيسة.

كتبهم (اطلب مجموعنا: مجاني الأدب، ج٣، ص٣٠٢؛ وكتاب الأغاني، ٢: ٧٥) فما لبثت أن جذبت إليها الجماهير المجمهرة حتى نسي الوثنيون قصر غمدان القريب منها وأصنامه الصابئية.

وكما فعلوا في صنعاء أقاموا أيضًا في ظَفَار كنيسة[٨٥] أخرى جليلة كانت آية في الحسن والجمال، وكان المتولي تدبير هذه الكنيسة أسقف شهير يدعى جرجنسيوس اتخذه ملك الحبشة كمستشاره ومساعده لتنصير الحِمْيَريين، فما أَلا جهدًا في ذلك، وقد ترك لنا من آثاره كتاب شرائع الحميريين التي تُرى ترجمتها اليونانية في مجموع الآباء اليونان لمين (Migne, P. G., T. 86, col. 567–620) وكان يجادل اليهود ويرد على مزاعمهم وله جدال مع هربان الرباني صبر أيضًا على آفات الدهر باليونانية (Ibid., col. 621–783) ولدينا منه ترجمة عربية.

ولنا حتى اليوم دليل حسي على تأثير نصرانية الحبشة في العرب ألا وهو ما دخل في اللغة العربية من الألفاظ الدينية الحبشية بعضها حبشي الأصل كالمِنْبر والمِصْحَف والحواري والمنافق والفاطر؛ (أي الخالق)، والجِبْت؛ (أي الصنم)، والشيطان والزَّار، وبعضها يوناني أو سرياني أو عبراني لكنه دخل في العربية بواسطة الحبش كما تدل عليه صورته الحاضرة كالإنجيل، وجهنم، والتابوت، والقلم، والحرم، والجن، والرقية، وللعلامة المستشرق نولدك بحث خصوصي في هذه الألفاظ.[٨٦]

وكان شيوع الخط المُسْنَد وهو الخط الحميري في بلاد العرب بفضل الحبشة واشتقاقه من الخط الحبشي القديم ظاهر، نقلوه إلى اليمن في التاريخ السابق للميلاد ثم استعملوه في كتاباتهم الحجرية إلى ظهور الإسلام. قال ياقوت في معجم البلدان (٤: ١٧١) عند وصفه كنيسة القُلَيْس: إن أبرهة كان كتب على بابها بالمُسْنَد: «بنيت هذا لك (اللهمَّ) من مالك ليُذكر فيه اسمك وأنا عبدك.»

وفي مدة ولاية الحبش على اليمن رحل إلى الهند قُسَمَا الرحالة (Cosmas Indicopleustes) نحو السنة ٥٣٥م فعدَّد ما وجده من الكنائس في طريقه وانتشار

---

[٨٥] ذكر الرحالة جلازر في كتاب رحلته (Skizze I, 15, 37) أنه وجد سنة ١٨٨٦م في بريم قريبًا من ظَفَار آثار مسجد تُرَى في بقاياه نقوش نصرانية، وأعمدته وكُواه من الطِّرْز الغوتي مع صُلْبان منقوشة عليها، ويدعو هذا المسجد بمسجد نجيم.

[٨٦] اطلب: Th. Noeldeke: *Neue Beitraege z. semit. Sprachwissenschaft*.

النصرانية في أواسط الشرق وأقاصيه، وقد خص بينها بلاد اليمن، حيث قال ما تعريبه:[٨٧] «إنك حيثما سرتَ تجدْ كنائس للنصارى وأساقفة وشهداء وسيَّاحًا حتى بين أهل عربية السعيدة الذين يُدْعَون بالحميريين كما في كل العرب أيضًا وبين النبط وبني جرم ...»

وإن سأل السائل أكانت النصرانية في اليمن مستقيمة خالية من البدع، الجواب أنه من المرجح أن دينهم كان في أول الأمر خالصًا من كل شائبة وكاثوليكيًّا محضًا؛ لأن الإمبراطور يستينوس وخلفه يستنيانوس لحسن ديانتهما ما كانَا ليسمحا للحبش أن يَنشرَا في بلاد العرب غير الإيمان الأَرثذكسي الموافق لتعليم المجامع الأربعة الأولى، يثبت ذلك تكريم الكنيسة لملك الحبشة أَلِصْبان الذي كان مالكًا في وقت فتح الحبشة لليمن ثم جلوس جرجنسيوس على كرسي أساقفة صنعاء, هو قديس تكرمه الكنيسة لقداسته، وإنما يظهر أيضًا أن بدعة أوطيخا سرت إلى جهات اليمن وكدَّرت صفاء إيمانهم، فإن الحبشة في القرن السادس جنحوا إلى تعاليم اليعاقبة، فلا بد أن أضاليلهم انعكس صداها إلى العرب، لكن المؤرخين اليعاقبة قد بالَغوا في ذكر شيوع هرطقتهم بين أهل اليمن كما يُسْتدل من تاريخ يوحنًّا الآسيوي،[٨٨] وكما نقله ابن العبري في تاريخ مختصر الدول، ص١٤٨.

على أن العنصر العربي وسلالة ملوك اليمن لم يَعُودوا يطيقون نِير الأجانب عليهم، لا سيما بعد موت أبرهة وتَملُّك ابنيه يكسوم ومسروق على حِمْيَر إذ تشدَّدا على الوطنيين وأساءَا إليهم الصنع، فأخذ أمراء حمير يطلبون لهم وسيلة لينجوا من الحبشة، وكان في مقدمتهم سيف بن ذي يزن[٨٩] فاستنجد بملك الروم وطلب منه جيشًا ليُخرج الحبش من جزيرة العرب، فلم تلقَ دعوته أذنًا صاغية فعدل إلى كسرى ملك العجم فنصره بجند من صعاليك دولته تحت قيادة رجل اسمه وهرز، فظفروا بالحبشة وبددوا شملهم، وملك

---

٨٧ اطلب: مجموع آباء اليونان (Migne, P. G., t. LXXX, col. 169).

٨٨ اطلب: المكتبة الشرقية للسمعاني (Assemani: BO, II, 381–386).

٨٩ وقال ابن الأثير في تاريخه (١: ٧٤): «تزَوَّج أبرهةُ ابنةَ ذي جَدَن ريحانة، وكانت زوجة أبي مُرَّة ذي يزن، فولدتْ له مسروقًا، وكانت ولدت لذي يزن ابنًا اسمه مَعْدِي كرب، وهو سيف، فقدم ذو يزن الحيرة إلى عمرو بن هند، وسأله أن يكتب إلى كسرى ليستنصره على الحبشة، فأرسله إليه وأوصاه به، فبقي عنده حتى هَلَك، ونشأ ابنُه سيف في حجر أبرهة وهو يَحْسَب أنه أبوه إلى أن صَدَقَتْه أُمُّه ومات أبرهة وابنُه يَكْسُوم.»

سيف بن ذي يزن. لكن ملكه لم يدم زمنًا طويلًا إذ فتك به بعض الحبشة فخلفه ابنه معدي كرب، ولم يلبث العجم أن استولوا على اليمن فأرسلوا عمالًا يحكمون باسمهم، كان أولهم وهرز المذكور ثم خلفه باذان، وفي عهده صارت اليمن في أيدي المسلمين.

أما النصرانية فإنها لم تمت بنفي الحبشة، بل بقيت في عزها إلى ظهور الإسلام، ولعل سيف بن ذي يزن عينه كان يدين بها يؤيده ما وقفنا عليه في أحد مخطوطات باريس العربية، وهو كتاب أنساب العرب لسلمة بن مسلم (Suppl. Paris, 2886) في الصحيفة ٩٧ حيث قال: إن سيف بن ذي يزن دخل على القيصر ومال إلى النصرانية، والحق يقال: إنه ما كان ليلوذ بالقيصر ملك الروم النصراني لو دان هو باليهودية كذي نوَاس، وكذلك قد مدحه الشاعر النصراني أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت بقصيدته الشهيرة التي أولها:

لا يطلبُ الثأر إلا كَابْن ذي يزنٍ في البحر خيَّم للأعداء أحوالا

ولا شيء في هذ الأبيات يُشْعِر بيهودية سيف، ولَو عرف أهل نجران وعرب النصارى في اليمن أن ابن ذي يزن من أنصار اليهودية لَما مكنوه من الملك.

وعلى ظننا أن نساطرة العراق انتهزوا فرصة دخول الفُرس في اليمن لينشروا هناك بدعتهم، ولعلهم كانوا سبقوا إلى بثها قبل ذلك فعززها، وفي تواريخ النساطرة ما يصرح بانتشار تلك البدعة في جنوبي العرب ومقاومتهم لليعاقبة، وفي كتاب الأغاني (١٠: ١٤٨) أن عشرة من أساقفة نجران قدموا على نبي المسلمين وجادَلوه فدعاهم إلى المباهلة، ولعل منهم من كان نسطوريًّا وكان حينئذٍ رئيسًا على نجران رجل اسمه السيد،[٩٠] فأُعطي الأمان هو وقومه.

ولكن النصارى بعد فوز الإسلام أخذوا يَضْعُفون في اليمن شيئًا فشيئًا،[٩١] ولا سيما بعد أن أمر عُمَر بإخراجهم من الجزيرة استنادًا إلى حديث يعزونه إلى محمد هذا

---

[٩٠] اطلب: التاريخ الكنسي لابن العبري (Barhebræus: Chron. Eccl., II, p. 116).

[٩١] ورد في معجم ما استعجم للبكري (ص٤١٩) عن أهل رعاش من أرض نجران أنهم ارتدوا إلى النصرانية، فجعل عمر بن الخطاب ذمته منهم بريئة إن أبوا إلا النصرانية، وعلى نصرانية نجران يدل قول أبي زيد العبشمي يذكر ابنه زيدًا، وكان هاجر إلى اليمن:

فما زالَ يسعى بين نابٍ ودارُه بنَجْرانَ حتى خِفْتُ أن يَتنصَّرَا

منطوقه: «لأُخرجن اليهود والنصارى عن جزيرة العرب حتى لا أدع فيها إلا مسلمًا»، والظاهر أن هذا لم يتم بالحرف فإن لدينا عدة شواهد على وجود النصارى في اليمن في أيام الخلفاء، فمن ذلك ما ورد في أعمال طيموتاوس الكبير بطريرك النساطرة أنه سامَ أسقفًا على نجران وصنعاء اسمه بطرس في أواخر القرن الثامن،[٩٢] وجاء في كتاب الفهرست لأبي الفرج بن النديم (ص٣٤٩) أن المؤلف اجتمع براهب من نجران في اليمن يدعى حسَّان كان أنفذه جاثليق النساطرة إلى الصين، فعاد منها سنة ٣٧٧ (٩٨٨م) وأخبره بعجائبها.

وجاء في تقويم الكنائس النسطورية الذي طبعه الخوري بطرس عزيز الكلداني «واليوم مطران سلمست في العجم» عن بعض مخطوطات مكتبتنا الشرقية (ص٧) في الحاشية أن البطريرك يوحنًّا الخامس أرسل كتابًا إلى حسن قسيس اليمن سنة ٩٠١م يجاوب فيه على ٢٧ سؤالًا ألقاها عليه، وقال في الجداول: إن في سنة ١٢١٠ للمسيح كان في صنعاء اليمن خمسة أساقفة للنساطرة، الأول مطرابوليط على صنعاء اسمه إسطيفانوس وتحت يده ثلاثة أساقفة إيليا وياولاها وشمعون لهم ثلاث كنائس وعدد المؤمنين عندهم ٥٧٠٠، ثم كان أسقف لمدينة زبيد اسمه عبد يشوع وعدد المؤمنين فيها ٢١٠٠ بيت، ثم ذكر نجران وقال: إن في سنة ١٢٦٠م كان لها أسقف يدعى يعقوب، وإن في أنحائها كان ١٤٠٠ بيت من النساطرة، وقال عن عدن: إنها كان يوجد فيها سنة ١٢٥٠م أسقف اسمه ميلو، وإن جماعة النساطرة كانت ١٣٠٠ بيت إلا أن أكثرهم قُتلوا بالسيف أو عدلوا إلى الإسلام، هذا ما نقلناه عن هذا الأثر الذي لم يمكنَّا أن نقابله على غيره لنتأكد صحته.

وفي القرن السادس عشر ذكر الكاتب الإسباني أوردينو دي سينالتوس Ordeno de Cenaltos أنه في رحلته إلى المغرب لقي بعض قبائل عربية احتفت به، وأكدت له أن أصلها من قبائل نصارى العرب في اليمن، وقد أخبرنا المرسلون الكبوشيون في عدن سنة ١٨٥٩م أنهم وجدوا في بعض أهل اليمن آثارًا مسيحية ظاهرة ورثوها من أجدادهم النصارى.

---

[٩٢] اطلب: مكتبة السمعاني (BO. IV, 609).

(٦) الباب السادس: النصرانية في حضرموت وعمان واليمامة والبحرين

إن بلاد حضرموت وعُمَان واليمامة والبحرين مجاورة لليمن، فكان ملوك اليمن إذا قويت شوكتهم طمحوا إليها بالأبصار وأدخلوها في سيطرتهم، إلا أن أخبار تلك الجهات نادرة جدًّا لا يعرف إلا القليل من أمورها السياسية والأدبية والدينية.

(٦-١) حضرموت

ومنها[٩٣] بلاد مَهْرة ما وقع من جزيرة العرب شرقي اليمن بين اليمن وبحر الهند، روى ابن خلدون في تاريخه[٩٤] أسماء دولة مستقلة ملكت عليها بعد المسيح إلى أيام الحبشة، فلمَّا صارت اليمن في حوزة الحبش ملكوا أيضًا حضرموت؛ ولذلك لم يذكر ابن خلدون لحضرموت أمراء بعد دخولهم إلى اليمن فَنوَّه بسكوته إلى أنها دخلت في حكم الحبش، فلا بد إذن من أن يقال: إن النصرانية دخلت أيضًا في حضرموت مع أولئك الفاتحين، بل دخلت قبلهم والدليل عليه أن قسمًا كبيرًا من كندة كانوا يسكنون في حضرموت[٩٥] ومعلوم أن النصرانية كانت الديانة الغالبة على كندة كما سترى.

ثم إنه كان لحضرموت عدة مدن ساحلية ذكرها بطليموس الجغرافي[٩٦] كانت تقام فيها أسواق تجارية تقصدها الروم وغيرهم، فكان أهل حضرموت يختلطون بتجار النصارى القادمين من أنحاء شتى فيدينون بدينهم، وكان يسكن بعض هؤلاء النصارى الجزائر المجاورة[٩٧] التي لدينا شواهد على نصرانيتها قبل الإسلام بزمن مديد، قال قزما

[٩٣] روى الطبري في تاريخه (ج١، ص١٨٥٢–١٨٥٦ و٢٠٠٥–٢٠٠٧) أن قسمًا من قبيلتي السَّكون والسَّكاسِك النصرانيتين كانوا يسكنون في حضرموت.

[٩٤] اطلب تاريخه المطبوع في مصر، ٢: ٢٥٢.

[٩٥] فيه، ٢: ٢٥٣.

[٩٦] اطلب جغرافيته (ك١٦، ف٤)؛ ثم كتاب جلازر (Ed. Glaser: *Skizze d. Geschichte u. Geogr. Arabiens* 88-89).

[٩٧] من جزائرها جزيرة فرسان، ورد في معجم البلدان لياقوت (٣: ٨٧٤)؛ وفي تاج العروس (٤: ٢٠٦): «إنها جزيرة مأهولة ببحر اليمن وسُمِّيَت ببني فَرَسان، وهي قبائل منهم من يَنْتَسب إلى كنانة، ومنهم من يَنْتَسب إلى تَغْلِب. قال ابن الحائك: وفَرَسان قبيلة من تَغْلِب كانوا قديمًا نصارى، ولهم في جزائر فَرَسان كنائس قد خَرِبَت وفيهم بأس.»

الرحالة (Cosmas, P. G., T. 88, col. 169): «وفي جزيرة تابروبانا التي يدعوها أهل الهند سيدليبا «وهي سيلان ويدعوها العرب سرنديب» في بحر الهند كنيسة للنصارى مع عدد من الإكليريكيين والمؤمنين، وكذلك في مالي «ملبار» حيث يُجنى الفلفل، وفي جزيرة كاليانا أسقف يُسام في العجم ويُرسل إليها، وفي جزيرة ديوسقريدس[٩٨] (وهي سُقُطرى[٩٩] القريبة من سواحل العرب) كذلك إكليريكيون يُرسمون في العجم وهناك جمٌّ غفير من النصارى ... وخدمة الدين النصراني في تابروبانا يُرسلون أيضًا بعد سيامتهم.»

وما يدل على علاقات هؤلاء النصارى مع سواحل العرب ما قرأناه في كتاب سلمة بن مسلم العوتبيِّ الصحاريِّ في أنساب العرب الذي مرَّ ذكره (ص١٠٦) عن مهرة وسُقُطرى:

«وبجزيرة سُقُطرى من جميع القبائل من مهرة، وهي جزيرة طولها ٣٠٠ فرسخ وبها العنبر السقطري ... وكان أهلها من أولاد الروم، فدخلوا في نسب القُمْر من مهرة وهم معروفون، (قال) وبها عشرة آلاف مقاتل كانوا نصارى، وذلك أنهم يذكرون أن قومًا من بلد الروم طرحهم بها كسرى فعمروا بذلك الموضع حتى عبرت إليهم مهرة

---

[٩٨] قال ياقوت في معجم البلدان (٣: ١٠١–١٠٢): «سُقُطرى اسم جزيرة عظيمة فيها عدة مدن وقرى تناوح عدن جنوبيها عنها، وهي إلى بر العرب أقرب منها إلى بر الهند ... وأكثر أهلها نصارى عرب.» ثم ذكر من سكانها أولًا من الروم حتى قال: «ثم نزلت بهم قبائلهم من مَهْرة فساكَنُوهم وتَنصَّر معهم بعضهم.» وفي تواريخ النساطرة أن جثالقتهم أرسلوا أساقفة إلى سُقُطرى بين القرن التاسع إلى الثالث عشر.

[٩٩] وممن أثبتوا دخول النصرانية في جزيرة سُقُطرى المؤرخ فيلو ستورج (Philostorge, P. G., LXV, p. 470–482) من كتبة القرن الرابع للمسيح، وبقيت النصرانية فيها أجيالًا طويلة بعد الإسلام. قال المسعودي في مروج الذهب (طبعة باريس، ٣: ٣٧): «وظهر المسيح فتنَصَّر من فيها (أي جزيرة سُقُطرى) إلى هذا الوقت.» وفي معجم البلدان لياقوت (٢: ١٠٢): أن في سُقُطرى «من جميع قبائل مَهْرة وبها عشرة آلاف مقاتل وهم نصارى.» ثم قال: «وأمَّا أهل عدن فإنهم يقولون: لم يدخلها من الروم أحد ولكن كان لأهلها رهبانية ثم فَنَوا وسكنها مهرة وقوم من الشراة.»

ومثلهما الشريف الإدريسي في القرن الثاني عشر (ed. Jaubert. I. 47)، وأفادنا الرحالة مركو بولو في أواخر القرن الثالث عشر أن سُقُطرى كانت خاضعة لبطاركة الكلدان الذين كان يرسلون لها مَطارنة، عُرف منهم ماردوا سنة ٨٨٠م وقرياقوس سنة ١٢٨٢م، فغلبت النسطورية على أهلها، ولَمَّا دخلها البرتغاليون سنة ١٥٠٣م وجدوا أهلها نصارى كان استولى على جزيرتهم حديثًا عَرَب اليمن سنة ١٤٨٠م فحارَبوهم سنة ١٥٠٧م وضبطوا جزيرتهم مدة.

فغلبت عليهم وعلى الجزيرة، (قال)، وقد يقولون: إنه لم يكن بها روم ولكن رهبانية على دين الروم من النصرانية ثم دخلتها الشراة من مهرة وحضرموت وقتلوا من بها.»

وقد بقي قوم من النصارى في سُقُطرى حتى القرن السادس عشر، كما ورد في رسالة للقديس فرنسيس كسفاريوس[١٠٠] كتبها عند سفره إلى الهند، وكان نزل إلى سُقُطرى ورأى فيها بقايا النصرانية، فألحوا عليه بأن يسكن عندهم فلم يمكنه الأمر.

ويثبت انتشار النصرانية في حضرموت ما جاء في كتاب طبقات ابن سعد في فصل الوفادات، فذكر وفد حضرموت، وأورد قول أحد الوافدين اسمه كُليب بن أسد:

أنتَ النَّبِي الذي كنا نُخَبَّره   وبشَّرَتْنا بك التوراة والرُّسلُ

فكفى بهذا دليلًا على وجود النصرانية في حضرموت.[١٠١]

(٦-٢) عُمَان

شمالي حضرموت واقعة على شواطئ بَحرَي الهند والعجم، وحاضرتها صُحار، وكانت النصرانية دخلت إليها بواسطة دعاة أتوها من العراق، وفي التواريخ الكلدانية[١٠٢] أسماء أساقفة كانوا في عُمَان منذ القرن الخامس وهم يدعونها مَزُون كما دعاها أيضًا العرب

وجزيرة سقطرى ذكرها النَّاخُذَاة أبو زيد في كتاب سلسلة التواريخ (éd. Reinaud, I33–I35) من آثار القرن العاشر للمسيح قال عن سُقُطرى «بها منابِت الصَّبْر وهو الدواء الأعظم ... حتى بعث الله عيسى — عليه السلام — فبلغ مَن بهذه الجزيرة أَمْرُه فدخلوا في جملة ما دخلَتْ فيه الروم من التنصُّر وبقاياهم بها إلى هذا الوقت مع سائر من سكنها من غيرهم.» وأخبر السائح الإيطالي مركو باولو «أنه مر بها في القرن الرابع عشر فوجَد أهلها نصارى يَرعَاهم رئيس أساقفة يرسله إليهم جاثليق النساطرة من بغداد.» ولما استولى عليها المسلمون وأخذوها من البرتغاليين أكرهوا أهلها على أن يَدِينوا بالإسلام.

[١٠٠] لم يَنْسَ القديس كسفاريوس جزيرة سُقُطرى بعد رحلته إلى الهند، بل أرسل إليها مُرْسَلين يسوعيين بلغ عددهم سنة ١٥٤٩م أربعة وتبعهم غيرهم من المُرْسَلين سنة ١٥٦٢م، إلَا أن غزوات العرب المتوالية لم تَعُد تسمح لهم بالسُّكْنى هناك (راجع مقالة مطولة للكاتب الفرنسوي رومانه دي كليو F. Romanet de Caillaud في مجلة الأرض المقدسة (La Terre Sainte. 1889, PP. 174 et 187) وترجمة حياة القديس فرنسيس كسفاريوس الجديدة للأب برو (A. Brou: St François Xavier. 1. 120)).

[١٠١] اطلب: Wellhausen: *Skizzen u. Vorarbeiten*, IV, 178.

[١٠٢] اطلب: Chabot: *Synodes Nestoriens*.

ونبه إليه ياقوت في معجم البلدان (٤: ٥٢١)، فممن ذكروه: يوحنان سنة ٤٢٤م، وداود (٥٤٤م)، وشمويل (٥٧٦م)، وإسطفان (٦٧٦م).

وفي جملة الرسائل التي بعث بها رسول الإسلام إلى الملوك رسالة وجهها إلى ملك عُمَان المسمَّى جَيْفر بن الجلندي من أزد عُمَان كان نصرانيًّا هو وأخوه عبَّاد، ويقال: عَبْد وعُبَيْد، فنصرانية الملك تشير إلى نصرانية البلاد الخاضعة له.

وكان في عُمَان أديرة للنصارى يشير إليها صاحب الأغاني، وجاء في تاريخ ابن الأثير (١: ٢٣٤) أن قيس بن زهير «لمَّا تَنصَّر ساح في الأرض حتى انتهى إلى عُمَان فترَهَّب بها.»

(٦-٣) البحرين

هي البلاد[١٠٣] الساحلية الواقعة في شرقي جزيرة العرب على سواحل خليج العجم،[١٠٤] حيث مغاص اللؤلؤ الشهير كان أهلها في الجاهلية من بني عبد القيس وهي إحدى القبائل المعروفة بنصرانيتها، قال الشاعر ذو الرَّمة في بعض أحيائهم (اطلب نسخة مكتبتنا الخطية، ص٥٧):

ولكنَّما أهل امرئ القيس معشرٌ يحلُّ لهم أكل الخنازير والخمرُ

وفي البحرين مغاص اللؤلؤ الشهير الذي لا يزال أهل تلك الأنحاء يستخرجون منه الدرر الثمينة، وقد مررنا به في رحلتنا من بغداد إلى الهند، ولأهل البحرين عادات نصرانية تناقلوها أبًا عن جد حتى اليوم، وأشار إليها السيَّاح الألمانيون الذين طافوا تلك البلاد

[١٠٣] ومن المُحْدَثِين الذين أشاروا إلى تَنَصُّر عرب البحرين قبل الإسلام الرحالة بالغراف (Pslgrqve) في سفره إلى أواسط جزيرة العرب (ج٢، ص٢٠٢)، راجع أيضًا ما نقلناه عن ياقوت (٣: ٨٧٣–٨٧٤) في ذكر فَرَسان (ص١٣٧).

[١٠٤] قال ابن الأثير في تاريخه (١: ١٥٦): «سابور ذو الأكتاف بن هرمز بن نرسي … قطع البحر إلى الخط فقَتَل مَن بالبحرين، وسار إلى هَجَر وبها ناس من تميم، وبكر بن وائل، وعبد القيس، فقَتَل منهم حتى سالت دماؤهم وأبادَ عبدَ القيس، وقصد اليمامة وأكثَرَ في أهلها القَتْل، وغَوَّر مياه العرب، وقصدَ إياد وتغلب فيما بين مناظر الشام والعراق فقَتَل وسبى … وانتقلَتْ إياد حينئذٍ إلى الجزيرة … فأبادهم قتلًا إلا مَن لحق بأرض الروم.»

حديثًا كصورة الصليب يرسمونها على جبهاتهم أو يطبعونها بالوشم على أعضائهم، وكإكرامهم للخبز ذكرًا بالقربان الأقدس، وقد لحظ ذلك منهم أحد آباء رهبانيَّتنا منذ ثلاثين سنة في دمشق، كان قوم منهم قصدوها للارتزاق.

وكانت بلاد البحرين والأحساء المجاورة لها تحت حكم الفرس منذ ظهور الإسلام، وكان أهل الأرض كما أثبت ياقوت في معجم البلدان (١: ٥٠٨) «من المجوس واليهود والنصارى.» وكان العامل عليها أحد بني تميم المُتَنَصِّرين اسمه المنذر ابن ساوي،[١٠٥] ومن أشرافها النصارى عند ظهور الإسلام بشر بن عمرو المعروف بالجارود، وكان سيد عبد القيس، والمؤرخون العرب يذكرون أنه أسلم ومات سنة ٦١هـ (٦٨١م).

وكان للنساطرة في بلاد البحرين أساقفة، وخصوصًا في قَطَر[١٠٦] وهم يسمونها بيت قطرايا.[١٠٧] وقد ذكروا في مجمعهم الذي عقده سنة ٥٨٥م الجاثليق يشوعياب أهل البحرين المُتنصِّرين، ويأمرونهم بالكف عن الشغل يوم الأحد إن أمكنهم الأمر وإلا أعفوهم من ذلك لأجل الضرورة، وقد ثبت هؤلاء النصارى على دينهم بعد الإسلام كما يظهر من مجمع آخَر نسطوري عُقِد سنة ٥٧هـ (٦٧٦م) دبَّر فيه الآباء عدة أمور دينية، ومنه يظهر أن بلاد البحرين كانت حافلة بالكنائس والأديرة ودعاة الدين وكان إذ ذاك على قَطَر أسقف اسمه توما.[١٠٨]

---

[١٠٥] قال ياقوت في معجم البلدان (١: ٢٣٧): «أَسْبذ صاحِبُها المنذر بن ساوي، وهو صاحب هَجَر الذي كاتبه النبي ﷺ، والأسبذيون ولدُ عبد الله بن زيد بن عبد الله بن دارم بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم.» (قال): «والغالب على البحرين عبد القيس، وهم أصحاب المُشقَّر والصفا حِصنين هنالك.»

[١٠٦] ورد ذكر قطر في شعر المثقب العبدي (شعراء النصرانية ٤٠٤)، قال يذكر يوم الحِنْو:

كل يومٍ كان عنا جَلَلًا   غيرَ يومِ الحِنْوِ مِن جَنْبَي قَطَرْ

(قال) قطَر قَصَبة عُمَان.

[١٠٧] اطلب: كتاب المجامع النسطورية المنشور حديثًا (J. B. Chabot: *Synodes Nestoriens*, p. 189 et 448).

[١٠٨] ذكر في الأغاني (١٤: ٤٩) ارتداد أهل البحرين بعد وفاة محمد … وفي بعض مجاميع مكتبتنا الشرقية «رسالة من أنبا حبيب أسقف تكريت ويُعْرَف بابن رائطة إلى من بالبحرين من نصارى العرب.» وفي قوله هذا دليل على أن النصرانية ثبتت في البحرين إلى القرن الثاني عشر.

وكان لقصبة بلاد البحرين وهي هَجَر أسقف يُدعى إسحاق ذكر في مجمع النساطرة سنة ٥٧٦م ثم ورد ذكر أسقف آخر يُدعى فوسي سنة ٦٧٦م.[١٠٩]

ومن جزائر البحرين دَارِين ويقال: دَيْرِين ذُكر لها في تواريخ النساطرة ثلاثة أساقفة، وهم: بولس سنة ٤١٠م، ويعقوب سنة ٥٨٥م، ويشوعياب سنة ٦٧٦م.[١١٠]

ومنها أيضًا جزيرة سماهيج «وفي السريانية مشمهيج» في وسط البحر بين عُمَان والبحرين (ياقوت ٣: ١٣١) كانت فيها كنيسة مسيحية، وفي المجامع النسطورية (Chabot, 273, 275, etc) أسماء ثلاثة أساقفة تولوا تدبيرها وهم باطاي وإلياس (٤١٠م) وسركيس (٥٧٦م).

ومن مدن الأحساء الخَط وهي بلدة تُنسب إليها الرماح الخطية، وكان الفُرْس يدعونها بيت أردشير، وكان للنساطرة فيها كنائس ذُكر من أساقفتها إسحاق سنة ٥٧٦م، وشاهين سنة ٦٧٦م.[١١١]

(٦-٤) اليمامة

وربما سُمِّيت بالعَرُوض والجَوِّ وتُلْحَق بإقليم الأحقاف، وهي مَفاوِز متسعة في الجنوب الغربي من عُمَان بين الأحساء شرقًا والحجاز غربًا كانت قصبتها حَجْر بفتح فسكون مدينة كبيرة، والعرب يجعلون فيها قومًا من الجبابرة من طسم وجديس، وما لا ينكر أن النصرانية انتشرت في تلك الأنحاء بعد قسطنطين الكبير، فإن عمرو بن مَتَّى في كتاب فطاركة المشرق ذكر أن عبد يشوع السائح[١١٢] بشَّر بالنصرانية في جهات اليمامة في أواخر القرن الرابع للمسيح.

---

[١٠٩] اطلب: كتاب المجامع المذكور: (Ibid. 387, 482).

[١١٠] فيه (Ibid., 482, 618).

[١١١] فيه (Ibid., 387, 482).

[١١٢] قال ابن ماري في تاريخ بطاركة المشرق (ص٢٨-٢٩): «في أيام البطريرك تومرصا في أواخر القرن الرابع للمسيح تَرهَّب عبد يشوع من ميشان في أسكول مار عبدا ثم إنه خرج إلى جزيرة اليمامة فأقام منفردًا وعَمَّد أهلَها وبنى ديرًا فيها.»

وكان معظم سكان اليمامة قبل الإسلام بني حنيفة[١١٣] ممن يشهد الكتبة المسلمون على نصرانيتهم،[١١٤] وكان يملك عليهم قبل ظهور الإسلام بقليل هوذة بن علي[١١٥] الذي كان أَسَر قومًا من بني تميم ثم أطلقهم يوم عيد الفِصْح، كما ذكر ابن الأثير في تاريخه (ج١، ص٢٦٠، من طبعة مصر) فقال الأعشى يمدحه لفعله:

بِهِم يُقرِّب يوم الفِصحِ ضاحيةً   يرجو الإله بما أسدى وما صنَعَا

على أن بعض الكتبة زعموا أن بني حنيفة كانوا يعبدون صنمًا من عجين ثم أتت عليهم سنة فأكلوه، فهجاهم البعض بقوله:

أَكلتْ حنيفةُ رَبَّها   زمن التقحُّم والمجاعَهْ
لم يَحذَروا من ربهم   سوء العقوبة والتباعَهْ

وعندنا أن هذه الشكوى باطلة، وأن الذين نسبوا إلى بني حنيفة أكل صنم من عجين إنما خُدِعوا بما رأوه من تقرُّبهم من القربان الأقدس، فإن الأصنام لا تُتخذ من العجين ولا تسد جوع كثيرين في أيام القحط، فضلًا عن كون الأقط اليابس العتيق لا يصلح لأكل.

ومما يدل على نصرانية اليمامة مقاومة أهلها للمسلمين تحت قيادة مسيلمة الذي عُرف بالكذاب، وكان نصرانيًّا هو وسجاح التغلبية امرأته، وقيل: إن أمر مسيلمة المذكور قد تفاقَم حتى خاف المسلمون فتنته، وكان يتلو قرآنًا كرسول المسلمين، ذَكرَه عبد المسيح الكندي في رده على الهاشمي (ص٨٧، من طبعة أوكسفورد) فدخل عليه قوم ليلًا واغتالوه وكُفوا شرَّه.

[١١٣] في تواريخ العرب أن بني حنيفة نزلوا بلاد حَجر، وهي مدينة اليمامَة في البحرين، وكان أولهم عبيد بن ثعلبة، وقد ردَّ عبدُ يشوع السائح بني ثعلبة إلى النصرانية كما روى ابن ماري في تاريخه (ص٢٩).

[١١٤] اطلب: كتاب أرنلد في الإسلام والنصرانية Arnold (J. M.): *Islam, his History and Relations to Cbristianity*, p. 54.

[١١٥] قال في الأغاني (١٦: ٧٨)؛ وفي تاريخ ابن الأثير (١: ٢٦٠) أن هوذة كان نصرانيًّا أَمَرَه كسرى أن يغزو بني تميم هو والمُكَعبر مع عساكر كسرى ... فبعد انتصارهم عليهم وفَتْح هَجَر وحِصْن المُشَقَّر أَمَر المُكَعْبر بغلق الأبواب وقَتْل كل من كان بالمدينة، وكان يوم الفِصْح فاستوهب هوذة منه مائة رجل فكساهم وأطلقهم يوم الفِصْح ... وذكر ابن الأثير، وصاحب الأغاني أن كسرى أبرويز ألبسه تاجًا وقِيل: قلنسوة فيها جوهر، فسُمِّي هوذة ذا التاج، ولهوذة أحاديث وشرف ووفادة إلى الملوك من الأعاجم.

هذه بعض شواهد على وجود النصرانية في البلاد العربية المتوسطة بين اليمن والعراق المجاورة لبحر الهند وخليج العجم وفيها دلائل كافية على ما كان للدين المسيحي من النفوذ في تلك الجهات التي لم يفدنا عنها المؤرخون إلا الفوائد الزهيدة.

(٧) الباب السابع: النصرانية في العراق

إن صعدت من بلاد البحرين وجهات الأحساء انتهى بك المسير إلى مَفاوز واسعة يَحدُّها شرقًا خليج العجم وغربًا بوادي قحلة جرداء، لكن شمالها أراضٍ طيبة كثيرة الخيرات تُعَدُّ من أخصب بلاد الله يسقيها النهران الكبيران الفرات ودجلة فيجعلانها جنَّات غنَّاء تزاحمت على ملكها الأمم القديمة من بابليين وكلدان وآشوريين، وشبعت من دسمها ووفرة غلاتها، وكان العرب يدعون تلك الأنحاء بالعراق ويخصُّون باسم السواد الأرياف المجاورة لبوادي العرب.

والعرب منذ سالف الأعصار كانوا لا يزالون يراقبون لتلك البلاد طامعين في ثروتها حتى إذا وجدوا غِرَّة من عمَّال الأمم المالكة عليها غزوها وبسطوا أيديهم إليها ريثما يزحف إليهم مَن يردهم إلى بواديهم، وكان ملوك العراق في الغالب يفضلون محالفتهم فيجعلونهم كحرس ثغورهم وسور مملكتهم على شرط أن يُعْطَوا حظهم من مستغلات تلك الجهات ويسرحون في مراعيها قطعانهم.

لكن القبائل المحالفة لممالك العراق كان يحسدها على هناء عيشها غيرها من العشائر فتسير إليها من الجنوب، ولا تزال تزاحمها إلى أن تغلبها على منازلها فتسكنها معها أو بدلًا منها، ومن القبائل التي ذكرها المؤرخون ووصفوا سيرها إلى سواد العراق قبائل يمنية من الأزد تركوا بلاد اليمن، سواء كان ذلك لانفجار سد مأرب على قولهم، أو لأسباب أخرى كالمزاحمة وتوفُّر النَّسل فعدل قسم منها إلى غرب البلاد نحو الشام، وهم الغسانيون تحت إمرة جفنة بن عمرو بن ثعلبة، وتوقَّل القسم الآخر في الشمال تحت قيادة مالك بن فهم، وإذ وجدوا في تلك الجهات عشائر من إياد ولخم وغيرهما انضموا إلى بعضها، وقهروا البعض الآخر حتى رسخت ثمَّت قدمهم وثبتت كلمتهم، بل أخذوا يسعون في ضبط زمام السلطة على كل القبائل التي هناك ففازوا بمرغوبهم وأنشئوا لهم دولة تُعرف بدولة المناذرة كان أول ملوكها جذيمة الأبرش فاستولى على جهات السواد الواقعة غربي الفرات، واتخذ له مدينة الأنبار كقاعدة ملكه ثم نقلها خلفاؤه من بعده إلى الحيرة، ولم يزالوا يتتابعون في الملك عليها إلى ظهور الإسلام، فغلب خالد بن الوليد ملكها الأخير المنذر بن النعمان أبي قابوس سنة ١١ للهجرة (٦٣٣م). وكان ملوك

الحيرة في مدة دولتهم محالفين لملوك العجم من السلالة الساسانية، بينما كان إخوتهم الغسانيون أحلافًا للروم في بادية الشام.

وإن اعتبرنا دين عرب العراق وجدنا الشرك شائعًا بينهم كما في بقية جهات العرب وجرت عندهم خصوصًا عبادة الكواكب والسيارات السبع، كما ألفها عرب اليمن والكلدان أهل العراق، ولعله دخل في دينهم أيضًا شيء من ديانة المجوس كتعظيم الشمس والنيِّرات.

أما النصرانية فكان لها فيهم تأثير عظيم، وهذا ما يلوح من الآثار القديمة التي ورد فيها تاريخ تلك البلاد بعد السيد المسيح، فلمَّا أشرقت شمس النصرانية سار دعاتها إلى ما بين النهرين والجزيرة والعراق فدعوا إليها أهل تلك الأقطار الذين لبَّوا دعوتهم وانتظمت الجموع الغفيرة في سلك النصرانية، وإذ كانت العرب ممتزجة مع سكان تلك الجهات أقبلوا هم أيضًا إلى التدين بها وجحدوا عبادة الأصنام والكواكب، ولنا على تنصُّر عرب العراق شواهد سبق بعضها عهد مالك بن فهم.

فمن ذلك ما رواه كتبة الكلدان عن أول من بشَّر بالدين المسيحي في مواطنهم، وكان العلامة يوسف السمعاني في مكتبته الشرقية (٤: ٥–٣٠) جمع عدة شواهد من أقوالهم تصرح بانتشار النصرانية في العراق ونواحي آشور وبابل على يد الرسولين توما وبرتلماوس، وبدعوة ثلاثة من المبشرين الأولين أعني إدي أو تدَّاي أحد السبعين وتلميذيه إجي وماري، لكن كثيرًا من علماء التاريخ لم يسلموا له بصحتها؛ إذ رأوها حديثة العهد من القرن العاشر، فما بعد لكن الاكتشافات الحديثة في السريانية لم تُبْقِ ريبًا في الأمر إذ تثبت أن إدي الذي يعتبره الكلدان كرسولهم، كان حقًّا من تلامذة السيد المسيح وأن بشارته في جهات العراق لا يجوز نكرانها، فإن أقدم التواريخ الكلدانية من القرن الخامس إلى التاسع التي نشرت مؤخرًا كتاريخ «بَرْحَدْ بشابا عَربايا»، وتاريخ «مشيحا زخا» وشعر نرساي في القرن الخامس، وشهادة آباء مجمع المدائن المنعقد في بلاط الملك كسرى سنة ٦١٢م وأعمال الشهداء والكتب الطقسية القديمة كلها تشير إلى بشارة الرسول إدي.[١١٦] كما أن بعضها يروي أعمال القديس ماري تلميذ إدي.[١١٧] وفي

[١١٦] اطلب: كتاب حضرة القس منجنا المعنون A. Mingana: *Sources Syriaques*؛ وكتاب السيد عبد يشوع خياط في الكلدان والنساطرة والرئاسة البطرسية (Eb. Khayyath: *Syri Orientales seu Chaldæi*).

[١١٧] اطلب ترجمته التي نشرها لأول مرة في الأصل السرياني السيد إبلوس (J. B. Abbeloos: Acta S. Maris).

الشواهد عن هؤلاء المبشرين الأولين للكلدان ربما ذكروا أيضًا تبشيرهم لنواحي العرب، قال صاحب كتاب النِّحْلة من كتبة القرن السابع: «وكان الداعي والمنصِّر والمتلمذ والمدبِّر بالجزيرة والموصل وأرض بابل والسواد وما والاه من بلاد التيمن والحزَّة ونواحي العرب من التلاميذ السبعين إدِّي وماري ولحق بهما من التلاميذ الاثني عشر ناثنيل وهو ابن ثلماي (أي برتلماوس).» وقد قال سليمان بن ماري عن هذا الرسول (ص٥): إن برتلماوس تلمذ مع إدي وماري «نَصِيبِين والجزيرة والموصل وأرض بابل والسواد وبلاد العرب وأرض المشرق والنبط.»

وقد سبقهما القديس إفرام الكبير في القرن الرابع، وذكر بشارة إدي إلى الرُّهَا والمشرق في الميمر الذي مدح فيه مدينة الرُّهَا.

أما ماري فإن ذكره لا يكاد يفترق عن ذكر إدي في الشواهد السابق ذكرها كالكتب الطقسية النسطورية وأعمال المجامع وترجمته المُومَأ إليها، وكلها تشير إلى دعوته بين العرب في بلاد ميشان وسواد العراق وسكَّان الخيام، قال ابن ماري في تاريخ فطاركة المشرق: «إن ماري بادر إلى تلماذ جميع نواحي أرض بابل[١١٨] والعراقيين والأهواز … وبلاد العرب سكان الخيم ونجران وجزائر بحر اليمن.» وقد روى الطيب الذكر السيد عبد يشوع خيَّاط في مقدمة أعمال مار ماري[١١٩] أن ذخائره وُجدت سنة ١٨٧٩م مع ذخائر يشوع سبران أحد شهداء القرن السادس بين آثار كنيسة قديمة موقعها في كرملاش شرقي الموصل، فهذه الشواهد من شأنها أن تزيل الشك في تاريخية ماري التي ارتاب فيها البعض.

قلنا: إن بعض قبائل العرب كانت سبقت مالك بن فهم في سكنى العراق من جملتها بنو إياد الذين يذكر المؤرخون تنصُّرهم منهم البكري في معجم ما استعجم (ص٤٨)، وقد أشار شاعرهم لقيط بن يعمر الإيادي إلي بِيَعهم في قصيدته العينية التي كتبها ليحذرهم من غزوة كسرى، وهي من أقدم الآثار العربية فقال:

تامَت فؤادي بذاتِ الجزع خَرْعبةٌ　　　مرَّت تريد بذات العَذْبة البِيَعَا

---

[١١٨] ومما يؤيد انتشار النصرانية هناك استشهاد القِدِّيس بوليخرون أسقف بابل في عهد الملك دقيوس قيصر في أواسط القرن الثالث للمسيح، يذكره السنكسار الروماني في ١٧ شباط.

[١١٩] اطلب هذه الترجمة (Acta S. Maris, 7–8).

ففي ذكره لِلْبِيَع في ديار إياد على عهد كسرى شاهد على شيوع النصرانية بينها منذ القرن الرابع، وهذا يخالف رواية ابن دريد في الاشتقاق (ص١٠٥، ed. Wüstenfeld.) حيث أخَّر تَنصُّرَهم قائلًا: «إياد قدم خروجهم من اليمن فصاروا إلى السواد فألحَّت عليهم الفُرس في الغارة فدخلوا الروم فتنصَّروا.»[١٢٠]

وكان أيضًا بين قبائل العراق قوم من لَخْم، وفي السيرة الحلبيَّة (طبعة مصر ٣: ٩٥) أن بني لخم كانوا من عدد القبائل المُتنَصِّرة، لكنَّ الكاتب لم يذكر زمن تنصُّرهم.

ولَمَّا ظفرت النصرانية بالدين الوثني في الدولة الرومانية بجلوس قسطنطين على منصة الملك بلغ صدى ذاك الانقلاب حتى العراق، وحدثت نهضة جديدة ساقت الألوف المُؤلَّفة إلى التنصُّر رغمًا عن مُعارَضة ملوك العجم حتى كادت النصرانية تعمُّ تلك الأنحاء كلها وتستأصل شأفة المجوسية، لكنه قام سابور ذو الأكتاف وسفك دماء النصارى مدة ملكه الذي دام سبعين سنة فضحَّى بـ ١٦٠٠٠٠ من المسيحيين الذين كانوا في دولته، وأعمال هؤلاء الشهداء قد كتبها شهود عيانيُّون تُعَد رواياتهم من أصدق وأثبت التواريخ نشرها السمعاني ونقلها إلى اللاتينية.

ولا غرو أن بين هؤلاء الشهداء كان أيضًا قوم من العرب المتنصِّرين، كما يستدل من أمكنة استشهادهم وبعض أعلامهم كعبد الله، والحارث، وعزيز، وحبيب إلخ، وقد ذكر إليَّا النصيبيني أساقفة على البصرة (وكان اسمها فرات ميشان) منذ السنة ٣١٠م.

وقد شهد المؤرخون أن سُيَّاحًا من النصارى كانوا يعيشون بين أحياء عرب العراق منذ أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع ذكرهم المؤرخ سوزمان[١٢١] ودعاهم بالرعاة (Βοσχόμενοι) لأنهم كانوا يعيشون في البراري ويقتاتون من النبات، وروى ذلك المؤرِّخ «أنهم بحياتهم النسكية وفضائلهم العجيبة ردوا كثيرين من العرب والعجم إلى الدين النصراني.»

ثم تبع هؤلاء السيَّاح رهبان غيرهم جَرَوا على مثال رهبان الصعيد وأخذوا عنهم طرائقهم النسكية فكثيرون منهم اشتهروا في جهات العراق وفي البلاد التي كان يسكنها العرب.

---

[١٢٠] ورد في تواريخ الروم ما يؤيد ذلك، قالوا: إن عشرين ألفًا من نصارى العجم احتلوا جبال كردستان قبل الهجرة.

[١٢١] اطلب تاريخه (Sozomène, H. E., I. VI, 34).

وممَّن خصَّهم بالذِّكر قدماء الكتبة الراهب حنا الكشكري[١٢٢] الذي سكن في بلاد جرم وابتنى ديرًا هناك نحو سنة ٣٢٠م.

وذكر تاودوريطس المؤرخ القديس سمعان القديم،[١٢٣] فروى أنه كان تنسك في بلاد «الإسماعيليين» مختفيًا في بعض المجاهل إلا أن العرب اكتشفوا مكانه وأتوه جموعًا متكاثفة ليسمعوا تعاليمه وينالوا منه الشفاء لمرضاهم، فأجاب إلى مُلْتَمَسهم لكنه لم يزل يُراقِب الفرصة ليهرب من لجاجهم ويبقى معتزلًا في مناجاة ربه.

ويُرْوى عن القديس يليان سابا أي الشيخ أنه ساح في بلاد العرب مع تلميذه المُسمَّى يوحنَّا الفارسي[١٢٤] في غضون ذلك القرن الرابع.

وفي هذا القرن نفسه كانت القبائل اليمنية من آل نصر بن ربيعة الأزدي التي انتقلَت من جنوبي العرب إلى الشمال، فألقت في جهاتها عصا التسيار، وأخذَت تقوى وتنمو وتضم إليها شتات القبائل العربية لتملك عليها، وكان بين ملوكها الأولين المسمَّى امرأ القيس بن عمرو المعروف بالبدء الذي طالت مدة ملكه إلى أواسط القرن الرابع، ومما يَجْدُر بالذِّكْر أن الكتبة يؤكدون تنصُّره[١٢٥] قال ابن خلدون في تاريخه نقلًا عن ابن الكلبي وغيره (طبعة مصر ١: ٢٦٣): «ولَمَّا هلَك عمرو بن عدي وَلِي بعده على العرب وسائر من ببادية العراق والحجاز والجزيرة امرؤ القيس بن عمرو بن عدي ويقال له: البدء، وهو أول من تنصَّر من ملوك آل نصر وعمَّال الفرس.»

ولسنا نحن نرى في الأمر عجبًا بعد ما روينا عن أمور النصرانية في اليمن، فهذه القبائل المهاجرة إلى الشمال كانت عرفت الدين المسيحي في مواطنها فبقيت خميرته فيها عند انتقالها إلى العراق، يؤيد ذلك ما رواه القزويني من أمر «الأنبياء» الذين أرسلهم الله إلى بني حمير ليردوهم إلى الله قال: «فبعث الله ثلاثة عشر نبيًّا (لأهل اليمن) فكذبوهم.» لكن المسعودي في مروج الذهب (٣: ٣٩٣) ذكر توبتهم على يد أولئك الرسل وانتظام

---

[١٢٢] اطلب: المكتبة الشرقية للسمعاني (٤: ٦٩١–٧٠٤).

[١٢٣] اطلب: تاريخ الرهبان، لتاودوريطس (Migne PP. GG. Vol. 82, col. 1350).

[١٢٤] اطلب: أعمال البولنديين، في اليوم ١٨ من شهر تشرين الأول، ومما روى تاودوريطس المذكور في تاريخه (ك٣، ف٢٠) أن بعض كتبة زمانه نَسبُوا قتل الإمبراطور يليان الجاحد في حرب الفرس إلى أحد رعاة العرب.

[١٢٥] وقد سبق الطبريُّ، ابنَ خلدون في رواية تَنصُّر امرئ القيس، حيث قال في تاريخه (ج١، ص٨٣٤–٨٣٥):

أمورهم فقال: «وأزال الله أنعامهم وأموالهم فقالوا لرسلهم: ادعوا لنا الله أن يُخْلِف علينا نعمتنا ويرد علينا ما شرد من أنعامنا ونعطيكم موثقًا أن لا نشرك بالله شيئًا، فسألت الرسل بربها فأجابهم إلى ذلك وأعطاهم ما سألوا، فاتسعت بلادهم وأخصبت عمائرهم إلى أرض فلسطين والشام.» وقال القزويني: «إن ذلك كان بين مبعث عيسى والنبي.» فتعيَّن بقوله هذا أن هؤلاء الأنبياء أو الرسل ما كانوا إلا دعاة لدين المسيح كما يُستدل عليه من الشواهد السابقة.

ولنا دليل آخر على تنصُّر تلك القبائل اليمنية في العراق، وذلك ما ذكره المؤرخون عنها، فقالوا: إن قبائل من قُضاعة من تيم اللات وكلب بن وبرة والأشعريين مع قوم من الأزد تحالفوا وتآخوا فدُعوا تنوخًا ونزلوا جهات البحرين، ثم العراق ما بين الحيرة والأنبار وتنصَّروا، قال ابن خلكان في ترجمة أبي العلاء المعري (ص٤٩، éd. de Slane): «تنوخ اسم لعدة قبائل اجتمعوا قديمًا بالبحرين وتحالفوا على التناصر وأقاموا هناك وسموا تنوخًا، وتنوخ إحدى القبائل الثلاث التي هي نصارى العرب وهم بَهْراء وتنوخ وتغلب.» أما تَنصُّرُهم في القرن الرابع فيؤخذ من قول صاحب الأغاني عن سابور ذي الأكتاف لَمَّا حاربهم، وكان شعارهم شعار المسيحيين، قال (١١: ١٦٢): «ونزلت تنوخ بالبحرين سنتين … حتى نَزلوا الحيرة فَهُم أول من اختطها … ثم أغار عليهم سابور الأكبر فقاتلوه، فكان شعارهم يومئذٍ: آل عُبَّاد الله فسُمُّوا العُبَّاد.»

ولعلَّ الديرَيْن أي دير الجماجم[١٢٦] بظاهر الكوفة، ودير الحريق قرب الحيرة اللذين ذكرهما ياقوت في معجم البلدان (٢: ٦٥٢، ٦٦٤) قد أنشأهما نصارى العرب في العراق تذكارًا لأولئك الشهداء الذين قتلهم سابور لأجل إيمانهم، وفي روايات نقلها ياقوت ما يلمِّح بذلك، وجاء في روايات أخرى فيه عن ابن الكلبي أن دير الجماجم بناه بنو عامر

«وكان من عُمَّال سابور بن أزدشير وهرمز بن سابور وبهرام بن سابور بعد مهلك عمرو بن عدي على فُرَج العرب من ربيعة ومضر وسائر من ببادية العراق والحجاز والجزيرة يومئذ ابن لعمرو بن عدي، يقال له: امرؤ القيس البدء وهو أول مَن تَنصَّر من ملوك آل نصر بن ربيعة وعُمَّال ملوك الفُرس.»

وفي مروج الذهب للمسعودي (٣: ١٩٩) أن أم امرئ القيس البدء كانت غَسَّانية اسمها مارية أخت ثعلبة بن عمرو من ملوك غَسَّان.

[١٢٦] ورد في نقائض جرير والفرزدق (ص٤١٢): «إنما سُمِّي ذلك الموضع دير الجماجم؛ لأنه كانت تُعْمَل فيه الأقداح، فلذلك سمي دير الجماجم.»

شكرًا لله على ظفرهم ببني ذبيان وبني تميم بعد حرب وقعت بينهم، أما دير الحريق فبُني تذكارًا لقوم أُحرقوا بالحيرة.

وما لا يُنكَر وتثبته الشواهد التاريخية أن الأديرة كثرت في أواخر القرن الرابع للمسيح في جهات العراق التي كان يسكنها العرب، فإن القديس أوكين الذي كان نشر العيشة الرهبانية في بلاد الجزيرة وما بين النهرين أرسل عصبة من تلاميذه حتى أقاصي العراق، وما عتَّمت الآداب الرهبانية أن انتشرت فيها على يدهم أيَّ انتشار خص منهم المؤرخون بالذكر الراهب يونان أو يونس الذي شيَّد ديرَيْن الواحد في الأنبار قاعدة اللخميين قبل سكناهم في الحيرة على الفرات، والآخر بقرب نينوى، وقد عرف العرب الديرين كليهما، فذكرهما ياقوت ودعا الأول (٢: ٧٠١) دير مار يونان والثاني دير يونس، قال عن هذا الأخير (٢: ٧١٠) إنه «في جانب دجلة الشرقي مقابل الموصل وبينه وبين دجلة فرسخان وأقل وموضعه يُعرف بنينوى.»

وفي التواريخ الكلدانية القديمة أن يونان المذكور طاف بلاد السواد وبشَّر العرب بالمسيح، وكان قبل أن يزهد بالدنيا يتعاطى العلوم الفلسفية ويزاول الطب، فحببه ذلك إلى العرب وكافة أهل السواد، ولما ابتنى ديره في الأنبار كثر عدد الطالبين للترهب تحت تدبيره.

وفي النصف الثاني من هذا القرن الرابع تولَّى أحد رهبان النصارى اسمه عَبدَا بناء الأديرة في أنحاء العرب، فقدم على جاثليق المدائن المسمى تموز أو تومرصا ونال منه الرخصة في ذلك، فبنى هو ديرًا كبيرًا في دير قنَّى أو درقان وطنه على اسم مار ماري، حيث كانت ذخائر ذاك الرسول، وبنى تلامذته أديرة أخرى منهم تلميذه عبد يشوع الذي شيد على نهر صرصر الدير المعروف بالصليب، حيث كان ظهر صليب منير في أيام استشهاد المسيحيين على يد سابور بإغراء المجوس، وشيد ديرًا آخر في باكسايا في سواد العراق، ثم ديرًا ثالثًا عند الفرات، وأخبر المؤرخ ابن ماري (ص٢٩) أنه تلمذ العرب في متوث وميشان واليمامة وردَّ بني ثعلبة إلى الإيمان،[١٢٧] فجعله تومرصا أسقفًا مقامه في دير محراق، ومنهم تلميذه يبالاها الذي رد أقوامًا من العرب في أرياف الفرات وابتنى ديرًا في دسكرة السواد وديرًا آخر على ضفة النهر، قيل: إن عدد رهبان ديره قد كثر حتى ضاق بهم الدير مع سعته، فبلغوا الأربعمائة بنيِّف، وكان الرهبان من أنحاء شتى

---

[١٢٧] اطلب: المكتبة الشرقية للسمعاني (ج٣، ص١٩٨ و٢١٨ و٣٠٢).

يتكلمون لغات مختلفة فجعلهم أربعًا وعشرين فرقة يتعاقبون في تلاوة الفرض الإلهي ليلًا ونهارًا، فيتلون الصلوات والتسابيح في لغاتهم أي السريانية واليونانية واللاتينية والقبطية، وكان سبقه إلى ذلك في هذه المناسك راهب آخر اسمه إسكندر الذي أنشأ طائفة الساهرين (Acémètes) لمواصلتهم الصلاة ليلًا مع نهار، وقد ذكر سليمان بن ماري في تاريخ فطاركة كرسي المشرق (ص٢١) وعمرو بن متى في المجدل (ص٢٨) كثيرًا من هذه الأديرة، واختصرا تواريخها عن كتبة معاصرين أخصهم أحي تلميذ مار عبدا الذي وضع ترجمة حياة معلمه ثم صار بعد ذلك بطريركًا على الكلدان.

فهذا العدد الوافر من الأديار وكثرة المترهَّبين فيهما دليل واضح على سطوع ضياء النصرانية بين عرب العراق في ختام القرن الرابع للمسيح، فإن كل دير منها كان كينبوع من المياه الحية يسقي تلك الأرجاء فينبت للخلاص الثمار الطيبة، وكان المتنصِّرون يمارسون من الفضائل أسماها ومن الأعمال المبرورة أفضلها وأولاها حتى إنهم ما كانوا يحجمون عن الموت والعذابات لأجل دينهم كما يُروى عن السفراء الثلاثة الذين أوفدهم ملك العجم إلى القيصر يليانوس المارق سنة ٣٦١م وأسماؤهم مانويل (أو عمانويل)، وشابيل، وإسماعيل أراد يليانوس أن يغصبهم على السجود للأصنام فأبوا وماتوا في سبيل دينهم القويم في القسطنطينية وأعمالهم مدونة في مجموع البولنديين (Acta Sanctorum, d. XVII Junii)، وكان قبلهم سفيران آخران (سنة ٢٥٠م) قد وفَدَا على دقيوس من قبل دولة الفرس اسمهما عبدون وسنان[١٢٨] وفضَّلا الموت على جحود النصرانية، فقُتلا في رومية وعيدهما في الكنيسة في ٣٠ تموز.

وبعد هؤلاء نسَّاك العراق بزمن قليل قام في الكنيسة الأنطاكية قدِّيس آخر اشتهر في الشرق والغرب معًا نريد به القديس سمعان العمودي المولود نحو سنة ٣٦٠ للمسيح الذي رقي عموده في الجبل المعروف باسمه في جهات أنطاكية وأضحى بعد مدة كمنارة استضاء بها العالم كله، وسيرته قد كتبها أحد تلاميذه المسمى أنطون فنُشرت في أعمال الآباء اللاتينيين (Migne, P. L. t. 73, p. 329)، وكتبها أيضًا تاودوريطس معاصره الذي كان يتردد عليه وهو من أوثق المؤرخين وأصدقهم رواية، وكذلك روى أعماله كثيرون من السريان فنُشرت تآليفهم في هذه المدَّات الأخيرة، ومن يتصفحها يتحقق ما ناله

---

[١٢٨] الشهيدان عبدون وسنان، في دياميس رومية صورة هذين الشهيدين العربيين، رسمهما البولنديون في أعمالهم في اليوم الثلاثين من تموز.

العرب من فضل القديس سمعان، وقد مرَّ لنا ذكر الحِمْيَرِيِّين الذين كانوا يقصدونه من اليمن، وكان العراقيون من العرب ينتابونه بشوق أعظم لقربهم منه، اسمع ما كتبه تاودوريطس أسقف قورش بعد أن شاهد عيانًا العجائب التي كان يأتيها العمودي قال عن العرب ما نروي قسمًا منه معرَّبًا:[١٢٩]

«إن مقام سمعان على عموده قد أنار قلوب الألوف المُؤلَّفة من بني إسماعيل، فكانوا يأتونه أفواجًا أفواجًا، فيتقاطرون إليه تارة مائتين وتارة ثلاثمائة، وأحيانًا ألوفًا (óτε ϰαί χίλιοι) فيجحدون لديه أضاليل أجدادهم، وربما حطموا أمامه أصنامهم ولعنوا بإغرائه الزُّهرة وعبادتها النجسة ثم كانوا يتلقَّنون التعاليم الخلاصية ويذعنون للبشارة الإنجيلية، وقد حصل لي خطر على حياتي من تزاحمهم عليَّ لأن القديس سمعان كان يأمرهم أن يطلبوا مني البركة الأسقفية مؤكدًا لهم أنها تعود عليهم بالخير، فكانوا إذ ذاك يقحمون عليَّ من كل جانب من الأمام والوراء والجانبين، ويركب بعضهم على أكتاف البعض ويمدُّون إليَّ أيديهم ليلتمسوا مني البركة ولولا أن القديس سمعان كان يزجرهم لكنت تأذيت من لجاجهم وازدحامهم عليَّ.»

وقد ذكر هناك تاودوريطس ومثله المؤرخ إيفاغريوس والكاهن قزما معاصره عدة عجائب وآيات باهرة صنعها سمعان مع العرب وشيوخهم زادت ثقتهم به وتواردهم إليه وإقبالهم على استماع أقواله، فمن ذلك ما أخبر به عن أمير قبلة نُقل إليه مخلَّعًا على سرير من مدينة الرَّقَّة فشفاه القديس برسم إشارة الصليب عليه وصبغه بمياه المعمودية فعاد كمخلع الإنجيل حاملًا سريره، والحضور كلهم يشكرون الله على هذه النعمة السابغة.[١٣٠] وكذلك أخبر عن أمير آخر كان تنصَّر ونذر بين يدي القديس أنه يصوم عن أكل اللحم فنسي نذره مرة وأكل قطعة من اللحم استحالت في جوفه إلى حجر كاد يلفظ به روحه لو لم يسرع إلى القديس الذي خلَّصه بصلاته.[١٣١] وأرسلت ملكة العرب من العراق وسألته أن يزيل عُقْمَها وينال لها من الله ابنًا ذكرًا فنالته وأرسلته إلى رجل الله لينال بركته.

[١٢٩] اطلب: الباب ٢٦، من كتابه المدعو: بفيلوتاوس والحياة الرهبانية (Migne P. G., t. 82, col. 1474).

[١٣٠] الآباء اليونان (P. G., 88, col. 1477).

[١٣١] فيه أيضًا.

وذكر تلميذه أنطون في سيرته[١٣٢] أن أميرًا من أمراء قبائل عرب الجزيرة دعاه مالكًا (Basilicus) قدم على القديس فوجد سمعان يصلي فوق عموده فجثًا تحته ينتظر نهاية صلاته ليطلب بركته، وإذا بدودة كانت ترعى جسم القديس وكان يحتمل ذلك بصبر حبًّا بالله سقطت فالتقطها الأمير ليحفظها كتذكار وذخيرة، فلحظ سمعان فعل الأمير فصرخ إليه: إنك بفعلك هذا أيها الرجل الشريف قد كدَّرتني فكيف تمس ما ينتثر من جسدي من القذر، ففتح الأمير يده وإذا بالدودة قد استحالت إلى درة ثمينة فأراها القديس وقال: ليست هذه دودة بل درة، فأجابه سمعان: على حسب إيمانك قد صنع بك الرب، فلتكن يدك مباركة طول حياتك، وانطلق الأمير فرحًا.

على أن بعض أمراء العرب غير المُتَنَصِّرين لم يرضوا بفعل رعاياهم وخروجهم إلى بلاد الرومان وتنصُّرهم على يد سمعان العمودي، وممَّا أخبر المؤرخ قزما الكاهن أن ملك الحيرة الذي دعاه بالنعمان وهو النعمان الأول الذي يلقبه العرب بالأعور[١٣٣] لَمَّا استولى على مُلك الحيرة بعد امرئ القيس الثاني (نحو سنة ٣٩٠ إلى ٤٢٠م) امتعض من رحلة أهل الحيرة إلى القديس سمعان، فأعلن بأمر ملكي أنه ينهى تحت عقاب الموت الخروج إلى زيارة السائح، فما انتشر هذا الخبر حتى استولى الخوف على رعاياه، فرَأَوا أن الطاعة لهذا الحاكم الظالم أولى من التعرُّض للموت الأحمر، إلا أن الملك لم يلبث أن ندم على ما فعل، ففي ذات الليلة التي وليت صدور الحكم ظهر له القديس في الحلم وفي يده سيف ومعه خمسة رجال لابسين ثيابًا بيضًا ناصعة، فنظر إلى الملك شزْرًا وبكَّته على فعله، ثم أمر الرجال أن يربطوه ويجلدوه جلدًا مبرِّحًا دون أن يرثوا لعويله، فلمَّا كاد يصير إلى التلف أمر بالكف عنه ثم سل السيف متهددًا وقال: «إياك إياك أن تعود إلى مثلها فبهذا السيف تُقطع مفاصلك.» فقام الملك وهو على آخر رمق، ولما أصبح الصباح جمع حاشيته وألغى حكمه أمامهم وحض شعبه أن يذهبوا إلى القديس كيفما شاءوا، قال قزما المؤرخ: «وهذا الخبر رواه أحد قوَّاد النعمان المسمَّى أنطيوخس بن سالم، وكان سمعه من فم النعمان ولَمَّا جاء ليزور القديس أخبر بما سمع أمام سمعان نفسه وأنا حاضر.» وأردف الراوي قائلًا: ومذ ذاك الحين أُطلقت الحرية لعرب الحيرة بأن يدينوا

[١٣٢] اطلب: مجموع الآباء اللاتين (Migne: P. L., t. 73, p. 329).

[١٣٣] ذكر قزما الكاهن أن النعمان هذا شفاه القديس سمعان من داء أصابه فتنصر وزهد بالدنيا (اطلب: المكتبة الشرقية، للسمعاني، ج١، ص٢٤٧).

بالنصرانية ثم قال: والملك النعمان كان يريد بعد ذلك أن يتنصَّر ويزهد بالدنيا، لكنه خاف من سطوة مَلك العجم.

(قلنا): ولنا في شهادة مؤرِّخِي العرب ما يثبت هذه الرواية ويؤيد صحتها، فإن المؤرخين قد رووا أن النعمان الأعور بعد سنين من ملكه اجتمع بأحد النساك الصالحين المدعوِّين بالرابطة فزهَّده بالفانية ودعاه إلى ترك الدنيا وعبادة الله، فلبى الملك دعوته، ولبس معه المسوح وساحًا في الأرض زهدًا.[١٣٤] وليس هؤلاء الرابطة على رأينا سوى رهبان النصارى الذين بينًّا لك وفرة عددهم في جهات العراق وزهدهم بالعالم، وفيما ذكرنا من تاريخ قزما مصداق على هذا الرأي، ولعل الدير الذي دعاه العرب بدير الأعور قد ابتناه نعمان الأعور المذكور لولا أن ياقوت (٢: ٦٤٤) نسب دير الأعور الواقع على قوله بظاهر الكوفة إلى رجل من بني حذافة بن زهر بن إياد، وقد مرَّ بك أن بني إياد من أقدم قبائل العرب المُتَنَصِّرة.

ولا غرو أن تنصُّر هذين الملكين زاد النصرانية شأنًا وعزًّا في العراق، قال قزما بعد رواية أنطيوخس بن سالم عن ندامة النعمان أن الدين المسيحي مذ ذاك الوقت نما نموًّا عظيمًا فكثر عدد الأساقفة والكهنة حتى ضاق عن الحصر، ولمَّا قام الملك أزدشير الأول واضطهد النصارى في ملكه نال عربَ العراق قِسمٌ من تلك المحن أظهروا فيها من الثبات ما غيَّر بعد مدة أفكار الملك، فتغاضى عنهم، وقيل: إن امرأة الملك أزدشير نالت بشفاعة القديس سمعان الشفاء من مرض عُضال فرغبت إلى الملك أن يكفَّ الاضطهاد عن النصارى في مملكته.

وفي القسم الأول من القرن الخامس بلغت النصرانية أوج فخرها وازدهارها في العراق، وكان الإيمان كاثوليكيًّا محضًا لم يُشَب بشيء من أضاليل النساطرة[١٣٥]

---

[١٣٤] اطلب: تاريخ الطبري، طبعة ليدن، ج١، ص٨٥٤؛ ومجموعنا مجاني الأدب، ٢: ٢٢١.

[١٣٥] نسطور والنسطورية، قال ابن رسته في الأعلاق النفيسة (ص١١٥): «أضافت الملكيَّة العُبَّادَ من النصارى وهم المَشارقة إلى نسطور تقريبًا لهم بذلك فسُّموا النسطورية، وكانت رئاسة البطاركة للمشارقة في ذلك الوقت بالمدائن في أرض العراق لِداد يشوع يُعَد بلادها في ملك فارس، والعُبَّاد تذكر أن أوَّل البطاركة السريانيين الذين نزلوا كرسي المشرق على قديم الأيام بعد صعود المسيح إلى السماء بنحو ٣٠ سنة، فبعث توما أحد الاثني عشر أدي السليح هو أدي برماري من السبعين، وهو نصر أهل المدائن ودير قُنَّى وكسكر وغيرها من السواد وبنى بيعتين إحداهما بالمدائن دار مملكة فارس يومئذ

واليعاقبة، وكان الأساقفة حريصين على وديعة التعاليم الرسولية كما ترى من أعمال مجمع المدائن[١٣٦] الذي عقد سنة ٤١٠م فشذبت أضاليل آريوس وغيره من المبتدعين.

وفي هذا الزمان عُرف القديس ماروثا رئيس أساقفة ميَّافارقين الذي حظي لدى ملك العجم أزدشير الثاني وأبرأ ابنته من داء عقام، فنالت من أبيها الحرية التامة لنشر النصرانية في العجم، وماروثا من كبار القديسين الشرقيين والمدافعين عن الإيمان المستقيم بهمته عُقد مجمع ثانٍ في المدائن سنة ٤٢٠م لإثبات عقائد الإيمان وحُرم نسطور.

وفيه أيضًا أصبحت جهات الجزيرة ولا سيما العراق العربي كصعيد آخر بلغ فيها عدد الزُّهَّاد إلى ما تجاوز كل إحصاء، فكانت الأديرة كمدن واسعة يسكنها ألوف من الرهبان يقضون فيها الحياة في الصلاة والشغل، ولو راجعت الفصل الذي خصَّه البكري في معجم ما استعجم (٣٥٨–٣٨١)، وياقوت الحموي (٢: ٦١٠–٧٣٩) وغيرهما بهذه الأديرة لرأيت أن بلاد العراق كان لها نصيب كبير منها، وهم لم يذكروا غالبًا إلا ما ورد اسمه في شعر الشعراء كدير الأبلق في الأهواز، ودير أبي يوسف فوق الموصل قريب من بَلَد، وديارات الأساقف[١٣٧] بالنجف بين قصري أبي خصيب والسدير، وديرَي الأُسكون بالحيرة وقرب واسط كانت فيهما مدارس للعلوم الدينية، ودير أشموني قرب بغداد،[١٣٨]

وجعلها كرسيًّا لمن يأتي بعده من البطاركة والأخرى بدير قُنَّى ... فيما سلف من كتبنا خَبرُ المشارقة من النصارى مع سابور ملك فارس حين أخذَهم التحمس وامتناعهم من ذلك وقتله منهم نحوًا من مائتي ألف وغير ذلك من أعيادهم.»

[١٣٦] اطلب أعمال هذا المجمع في كتاب: المجامع النسطورية الذي عني بنشره الأب شابو **Chabo**: Synodes Nestoriens, *Notices et Ertraits des Mss. De la Bibl. Nat.*, XXXVII، وهناك جداول أساقفة كانوا في جهات بلاد العرب في العراق والبحرين واليمن.

[١٣٧] روى ياقوت في معجم البلدان في كلامَه عن قصر أبي الخطيب أبياتًا تبين انتشار النصرانية في الحيرة وفي نجف، وهي لبعضهم قال:

يا دارُ غَيَّر رسْمَها مَرُّ الشمال مع الجنوبِ
بين الخورنقِ والسد يرِ وقصرِ أبي الخصيب
فالدَّيْرُ فالنَّجفُ الأشمُّ حِيَال أرباب الصَّليبِ

[١٣٨] قال ابن رسته في كتاب الأعلاق النفيسة (ص٢٣٥): «لم تكن بغداد في الأيام المتقدمة، أعني في أيام الأكاسرة والأعاجم، وإنما كانت قرية من قرى طسُّوج بادوريا ... ولم يكن ببغداد إلا دَيْر على مَصَب

ودير الأعلى بالموصل على جبل مطلٍّ على دجلة، ودير باشهرا بين سامرًّا وبغداد، ودير باعَربا بين الموصل والحديثة على شاطئ دجلة، ودير ميخائيل، ودير الثعالب منسوب على ما نظن إلى بني ثعلبة المُتَنَصِّرين قريب من بغداد عند الحارثية، ودير الجرعة بالحيرة، ودير الخوات بعُكْبرا، ودير الخنافس على قُلَّة جبل تشرف على دجلة ونينوى، ودير دُرْتا غربي بغداد، ودير الدِّهْدار بنواحي البصرة، ودير النَّرْنَدَوْرد في الجانب الشرقي من بغداد، ودير سابور غربي دجلة، ودير سمالو، وكلاهما قرب بغداد، ودير السُّوسي بنواحي سرَّ من رأى (وهي سامرًّا) ودير الشاء بأرض الكوفة، ودير صباعي شرقي تكريت، ودير الطواويس بسامرًّا، ودير العاقول بين مدائن كسرى والنعمانية، ودير العجَّاج بين تكريت[١٣٩] وهيت، ودير العَلث ودير فثيون، وكلاهما بسامرًّا وديرَي القباب وقوطا من نواحي بغداد، ودير القيَّارة عند الموصل، ودير كرْدشير بين الري وقم، ودير كوم من أعمال الموصل، ودير مارفثيون بالحيرة أسفل النجف، ودير مارسرجيس قرب سامرًّا، ودير متَّى قرب نينوى، ودير مديان على نهر كرخايا قرب بغداد، ودير مر جرجس بالمزرفة قرية من منتزهات بغداد، ودير مَرْ ماري من نواحي سامرًّا، ودير يُحنًّا جانب تكريت، ودير ملكيساوا فوق الموصل، ودير هِزْقِل في جهات البصرى، ودير الجاثليق، دير قديم البناء قرب بغداد غربي دجلة، ودير الجب شرقي الموصل بينها وبين أربل يقصده الناس لأجل الصرع فيبرأ منه بذلك كثير (ياقوت، ٢: ٦٥١)، دير الجرعة وهو دير عبد المسيح الحيري، ذكره سليمان بن ماري وقال: إنه فيه دفن (ص٢٦)، دير الدهدار، قال ياقوت: إنه دير أزلي كثير الرهبان، وبناؤه قبل الإسلام، ودير سرجس وبكوس بين الكوفة والقادسية، ودير اللُّج بالحيرة، قال ياقوت (٢: ٦٩١) «بناه النعمان بن المنذر أبو قابوس في أيام مملكته، ولم يكن في ديارات الحيرة أحسن بناءً منه ولا أنزه موضعًا.» وغيرها أيضًا تؤيد كثرتها ما قلنا عن انتشار النصرانية في العراق.

الصراة إلى دجلة، وهو الدير الذي يسمى الدير العتيق، وهو قائم بحاله إلى هذا الوقت ينزله الجاثليق رئيس النصارى النسطورية.»

وقد اختلفوا في اسمها المشتق من الفارسية القديمة، فمنهم من فَسَّرها بجنة الإله ومنهم بعطية الله، فلما بناها أبو جعفر المنصور دعاها مدينة السلام، وعرفت أيضًا باسمه مدينة المنصور، وفي معجم البلدان لياقوت (١: ٦٨١–٦٨٢) أن راهبًا دل الخليفة المنصور على موقعها فاستحسنه وبنى فيه المدينة.

[١٣٩] قال ياقوت (١: ٣٨١): «تكريت أصل بنائها بعد تَنَصُّر مرزبان مجوسي خطب لنصرانية.» قال: «وكان هناك حي للنصارى.»

والعرب لم يعرفوا فقط هذه الأديرة ورووا أسماءها في أشعارهم أو ذكروها في جملة أخبارهم، بل نُسب كثير منها إليهم أو لوقوعها في ديارهم، أو لأنهم عُنوا بتشييدها، وكل ذلك ما يزيد بيانًا قولنا في نفوذ النصرانية بين عرب العراق، فمن ذلك ما ذكره البكري وياقوت أيضًا كدير ابن برَّاق بظاهر الحيرة، ودير ابن عامر، ودير ابن وضَّاح ويسمى أيضًا دير مر عَبدَا بناه بذات الأُكيراح من نواحي الحيرة عَبدَا بن حنيف بن وضَّاح اللحياني، ودير حنظلة المنسوب إلى حنظلة بن عبد المسيح بن علقمة بن مالك من بني لخم، ودير حنة دير قديم في الحيرة منذ أيام بني المنذر لقوم من تنوخ يقال لهم: بنو ساطع، ودير حنة آخر بالأُكيراح بناحية البليخ ذكره البكري (٣٧٢) ثم قال: «والأُكيراح موضع أيضًا بالحيرة فيه دير بناه عبد بن حنيف من بني لحيان الذين كانوا من لخم وملك الحيرة منهم ملكان.» ودير خندف وهي ليلى بنت حلوان القضاعي أم ولد إلياس بن مضر بن نزار، ودير السوا المنسوب إلى رجل من إياد، وقيل: إلى بني حذافة، ودير عبد المسيح المنسوب إلى عبد المسيح بن عمرو بن بُقَيلة الغساني الشاعر وأحد المعمرين موقعه في ظاهر الحيرة، ودير العذارى بين سرَّ من رأى والحظيرة، وكان يسكنه عدد من أبكار العباديين وعرب النصارى، روى ياقوت (٢: ٦٨٠) والبيروني في كتابه الآثار الباقية (éd. Sachau p. 314) «إن أحد ملوك الحيرة أراد أن يختار منهنَّ له نسوة فصُمن ثلاثة أيام بالوصال فمات ذلك الملك في آخرها، ولم يمْسَسْهنَّ، ومذ ذاك أخذوا يصومون هذا الصوم المعروف بصوم العذارى.» ودير علقمة بالحيرة منسوب إلى علقمة بن عدي بن الرميك من بني لخم، ودير عمرو في جبال طيئ، ودير قرة المنسوب إلى قرة أحد بني حذافة بن زُهر بن إياد، ودير اللج للنعمان ملك الحيرة، ودير هند الكبرى وهند الصغرى وسنعود إلى ذكرهما.

ويخبر عن المتعبدين في تلك الأديرة أو القلالي الممتدة بين الحيرة والبصرة أنهم كانوا يجتمعون في الأعياد فيحتفلون بها برونق، وكان أهل تلك الأنحاء يخرجون إليهم فيحضرون حفلاتهم ويطلبون منهم شفاء مرضاهم، وكان النسَّاك يعيشون غالبًا من صيد الأسماك ومن حسنات المؤمنين.

فهذه أديرة عديدة كلُّها من بناء نصارى العرب في جهات العراق، فلعمري إنها من أدل الأدلة وأجْلَى البَيِّنات على علو منار النصرانية بين عرب الجاهلية.

وما قلناه عن الأديرة يجوز قوله عن عدة كنائس وبِيَع شيَّدها العرب وأشاروا بذلك إلى تُقاهم وتحمُّسهم في الدين، وكانوا يتفاخرون ببناء البِيَع في أحيائهم، قال

الفيروزآبادي: وكان في الحيرة كثير من الكنائس البهية، وقال الزبرقان بن بدر التميمي لما وفد على محمد يذكر كنائس قومه (سيرة الرسول، لابن هشام ٩٣٥):

نحن الكِرامُ ولا حيٌّ يُعادِلُنا   منَّا الملوك وفينا تُنْصَب البِيَعُ

وقال في معجم البلدان (٢: ٧٠٣): «كان أهل ثلاث بيوتات يَتبارَون في البِيَع وربها (كذا) أهل المنذر بالحيرة، وغسَّان بالشام، وبنو الحارث بن كعب بنجران، وبَنَوا دياراتهم في المواضع النزهة الكثيرة الشجر والرياض والغدران ويجعلون في حيطانها الفسافس، وفي سقوفها الذهب والصور، وكان بنو الحارث بن كعب على ذلك إلى أن جاء الإسلام.» وقال ابن دُرَيْد في كتاب الاشتقاق (ed. Wüstenfeld. 226) عن بني عدي: «ومن بني لخم بنو عدي بن الذُّميل بن أسس لهم بيعة بالحيرة وكانوا أشرافًا.»

وبيعة خالد بن عبد الله القسري أمير الكوفة قال ياقوت (١: ٦٩٦): «بناها لأمه وكانت نصرانية.» ثم «بيعة عدي بن الرميك اللخمي بالكوفة ذات أشجار ونخل كثير.»

وكان يحق بنا أن نضيف إلى هذه الشواهد جدول الأساقفة[١٤٠] الذين كانوا في القرن الخامس يدبرون كنائس العراق العربي كالأنبار والحيرة والبصرة وبيت عربايا وميشان وغيرها، لكن ذلك يطول بنا فنشير إليه فقط إشارة خفيفة.

لكنَّ الحقيقة تضطرنا أيضًا أن نذكر ما أصيبت به كنائس بابل والعراق، فإنَّ في أواخر القرن الخامس نفثت البدعة النسطورية فيها سمَّها وخدعت كثيرين من المؤمنين والأساقفة فأعاروا لها أذنًا صاغية وانتموا إلى أصحابها، ثم قامت بأثرهم البدعة اليعقوبية وانتشرت انتشارًا عظيمًا في بلاد الجزيرة، وبلغت أيضًا إلى أنحاء العراق فقامت الحرب الدينية بين البدعتين على ساق، وكانتا في البيعة الشرقية[١٤١] كالزؤان الذي خنق الزرع الجيد الذي زَرَعه ربُّ البيت، فلا غَرو أن العرب انقسموا مع أهل تلك البلاد إلى قسمين، فعدل قسم منهم ولا سيما أهل القبائل الواقعة شرقي الموصل حتى خليج العجم إلى النسطورية، بينما كان القسم الآخر ومقامهم على الأخص في غربي الموصل وفي ديار ربيعة إلى جهات الرُّهَا وتخوم حلب وحمص وحماة قد تبع اليعقوبية.

---

[١٤٠] نشر هذا الجدول المستشرق الإيطالي الشهير إغناسيو غوديدي في المجلة الآسيوية الألمانية (ZDMG. XLIII, pp.393–411).

[١٤١] أي النسطورية، قال المسعودي في مروج الذهب (٢: ٣٢٨): «المشارقة هم العُبَّاد المُلقَّبون بالنسطورية.» وقال عن عدي بن زيد: «إنه كان عبادي المذهب، وهم النسطورية من النصارى.»

فابتدأ تقهقر النصرانية مذ ذاك الحين في الشرق فترى تاريخ الكنيسة الشرقية ينحصر غالبًا في تاريخ الخصومات والمشاغبات التي سببتها تانك البدعتان أو ما كان ينوط بهما من البدع والمشاكل، وزاد في الطين بلَّة تداخل ملوك القسطنطينية من الروم في أمور الدين، فأقاموا نفوسهم كقضاة في المعتقدات المسيحية، وكان منهم من يُعَضِّد البدع وينتمي إليها جهارًا كما فعل قنسطنسيوس ووالنس اللذان نَصَرا الآريوسية وكزينون وإنستاس المدافعين عن اليعقوبية، وكهرقل الذي دافع عن بدعة المنوثليين، فكنتَ ترى المجامع تتوالى منها كاثوليكية ومنها هرطوقية، فتبطل هذه ما أثبتته تلك، وكان الأحبار الرومانيون مهتمين وقتئذٍ بتهذيب أُمَم البرابرة التي هجمت على المملكة الرومانية، فلا يستطيعون أن يُداووا أسقام الشرق، كما يشاءون لبُعد الشرق عن نظرهم أو أيضًا لما كانوا يجدونه في ملوك الروم وبطاركة القسطنطينية من المخالفة لأوامرهم، فأصبح الشرق في هرج ومرج واختلت بذلك أمور الدين وانتقض حبل الإيمان المتين.

وإن تتبعنا تاريخ النصرانية بين عرب العراق في أواخر القرن الخامس ومدة القرن السادس وجدنا بينهم رجع صدًى لهذه الحوادث الجارية في ظهرانيهم وهم منوطون في العراق بالكنيسة الكلدانية التي تبعت أضاليل نسطور، وفي الجزيرة وديار بكر وربيعة وأنحاء الرُّهَا بالكنيسة السريانية التي غلبت عليها الهرطقة اليعقوبية.

وكان ملوك الحيرة أول من تأثر بهذه الحوادث فإن السياسة قضت عليهم بأن يتبعوا الدولة الساسانية التي بسطت حمايتها على النسطورية وعضدتها في بلاد العراق إلى نصيبين، وذلك بغضًا بملوك الروم الذين كانوا يتقلبون حينًا مع البدعة اليعقوبية وحينًا مع الكنيسة الكاثوليكية، ونرى المؤرخين الروم واللاتين مضطربين في إيضاح تاريخ ملوك الحيرة، فتتناقض آراؤهم فيهم؛ إذ كانوا يرونهم في مصاف أعدائهم الفرس، فبعضهم يجعلونهم وثنيين وبعضهم يذكرونهم في عداد النصارى، ويروي غيرهم عن أمراء الجيش ما لا يصحُّ إلا عن الملوك، وبعكس ذلك ينسبون إلى الملوك ما أتاه الأمراء، وترى شيئًا من هذا الاضطراب في رواية السريان والعرب، وها نحن نورد من ذلك ما نراه أقرب إلى الحق.

خلَف المنذرُ الأول في ملك الحيرة أباه النعمان بعد تَنَصُّره وزهده فملك ٤٤ سنة (٤١٨–٤٦٢م) قضاها في حروب متواترة ضد الروم في خدمة ملوك الفرس لا سيما

بهرام جور بن أزدشير الذي كان تربى بين عرب الحيرة، وكان بهرام عدوًّا للنصارى[١٤٢] فامتحنهم في بلاد فارس وجوارها وصادَرهم وقَتَل منهم كثيرين، تعيِّد الكنيسة ذكرًا لاستشهادهم، وكأن المنذر وافقه على آرائه وعاد إلى شرك آبائه القديم، وأخبر سقراط[١٤٣] المؤرِّخ معاصره أنه دخل في بلاد الروم، فنهب وسلب وأحرق وسبَى وكان يقصد السَّير إلى القسطنطينية ليفتتحها لكنه لم يفلح وأُصِيب جيشه بكسرة عظيمة، وقُتل منهم مائة ألف على قول سقراط، وسبعون ألفًا على رأي الكتبة السريان.

وقام بالمُلك بعد المنذر أبناؤه الثلاثة بالتوالي أعني نعمان الثاني (٤٦٢–٤٧١م)[١٤٤] المعروف بابن شقيقة[١٤٥] صاحب الفرقتين الشهباء ودوسر، ثم الأسود (٤٧١–٤٩١م) ثم المنذر الثاني (٤٩١–٤٩٨م) ولا نعلم من أمر دينهم شيئًا، بل أخبارهم مضطربة لا تؤخذ سندًا لتاريخ.

وأثبت منها أخبار النعمان الثالث ابن الأسود بن المنذر (٤٩٨–٥٠٣م) الذي سها عن ذكره معظم مُؤرِّخِي العرب إلا حمزة الأصفهاني (ص١٠٤) وقال: إن أمه كانت تدعى أم المالك، وإنها كانت ابنة عمرو المقصور أحد ملوك كندة وجد امرئ القيس الشاعر، غزا أيضًا الروم ونهَب بلادهم وكان في خدمة الملك قباذ، ولعله هُوَ هُوَ الذي أشار إليه مُؤرِّخو الروم[١٤٦] لَمَّا ذكروا فتح الفرس لمدينة آمد فقالوا: إن ملك العرب طلب من قُباذ أن لا يصيبوا بأذًى الذين التجَئُوا إلى كنيسة الأربعين شاهدًا، وفي هذا دليل إلى ميله إلى النصرانية لكنه بعد ذلك دالَت عليه الدولة فكسره الرومان دفعتين، وأخبر يوشع العمودي المؤرخ السرياني[١٤٧] أن النعمان مشى أخيرًا إلى محاربة الرُّهَا مع قباذ، ولما نهاهما عن ذلك أحد ضباط جيشه النصارى، وذكر له قصة الأبجر ملك الرُّهَا

---

[١٤٢] قد روى تاودوريطس معاصره في تاريخه الكنسي (Théodoret: H. E. l. v., c. 38) الاضطهاد الذي أحدثه ضد النصارى.

[١٤٣] اطلب تاريخه (ك٧، ف١٨).

[١٤٤] قيل: إنه صاحب الخورنق بناه له سِنِمَّار لابن يزدجرد بهرام جور، غزا الشام مرارًا وفتَك بأهلها، وشقيقة أمه ابنة أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان (راجع ابن الأثير، ١: ١٥٦).

[١٤٥] نقل ابن خلدون في تاريخه (٢: ٢٧١) عن البيهقي أن النعمان ابن الشقيقة «هو أول من تَنصَّر»، وقد رأيت سابقًا أن امرأ القيس البدء هو أول ملوك المناذرة المُتَنَصِّرين قبل ذلك بزمن طويل.

[١٤٦] اطلب: تاريخ رورباخر، ٨: ٥٥٧.

[١٤٧] اطلب تاريخه (Josué le Stylite, *éd. Martin*. P. 42).

والسيد المسيح غضب عليه وشتم دينه، وكان ذلك داعيًا إلى موته إذ انتقض جرحه السابق فمات، فعين قُباذ كخلفه في تدبير الملك رجلًا يدعوه أبو الفداء وحمزة الأصفهاني وغيرهما أبا يعفر علقمة، وهذا لم يكن من أبناء الملوك ولعله كان فقط وليًّا للملك، وإنما كان من أشراف اللخميين وأحد أبناء أسرة بني ذميل النصرانية التي سبق ذكرها، فاستخلفه قباذ، ولم يَتولَّ سياسة الدولة إلا ثلاث سنوات ثم أقيم امرؤ القيس الثالث الذي لم تطل مدته (٥٠٥–٥١٢م).

وصار الملك من بعد امرئ القيس إلى ابنه المنذر الثالث الشهير بابن ماء السماء الذي ملك ٤٩ سنة (٥١٣–٥٦٢م) وماء السماء لقب أمه ماوية (ويُرْوَى مارية) ابنة عوف، وقيل: بل هي أخت كليب والمهلهل التغلبيين وأن اسمها رُبَيعة، والعرب دعوها بماء السماء لكرمها ورِقَّة طباعها، ويدعى أيضًا هذا المنذر بذي القرنين لضفيرتين كانتَا له من شعره، وكان المنذر المذكور أرفع ملوك الحيرة قدرًا وأشدهم بأسًا، وهو الذي انتصر من بليزار أحد أبطال الروم في زمانه وكبير قُوَّاد يستنيان، أما دينه فإن شواهد المُؤرِّخِين متضاربة في تعريفه، وما يُحصَّل منها أنه عرف النصرانية منذ حداثة سنه؛ لأن أمه كانت نصرانية فلا شك أنها لقنته منذ صغره مبادئ الدين المسيحي، لكنه لَمَّا كبر وتولى الملك تحت سيطرة ملوك العجم عدل إلى الشرك ودين المجوسية أو بالحَرِي إلى مذهب مزدك؛ أي المانوية بإيعاز ملك فارس. والظاهر أنه في أثناء زندقته استقبل الوفد الذي أرسله إليه ذو نُؤاس بعد قتله نصارى نجران، كما أخبر الكاتب المعاصر شمعون أسقف بيت أرشم،[١٤٨] منه أن يقتفي آثاره ويقتل نصارى الحيرة فأثَّر كلام ملك اليمن في المنذر وأراد أن يختبر صدق إيمان المُتنصِّرِين من جيشه فدعَا قومًا منهم وعرض عليهم جحود إيمانهم، فقام أحد صناديد ضباطه فقال له: «إنَّ تنصُّرَنا قد سبق جلوسك على عرش المناذرة فهيهات أن تقنعنا بالعدول عن ديننا، وعلى كل حال إن كان رصفائي لا يثبتون في مذهبهم فإني لا أجحده مطلقًا، ولست أخاف العذاب ولا الموت كما تحقَّقتَ ذلك لَمَّا رأيتني في وقائع الحروب؛ إذ لم يكُ سيفي أقصر من سواي.» فلمَّا سمع المنذر كلامه عرف أنه لا يستفيد شيئًا فعدل عن قصده، وترك كلًّا من جنوده يتبع دينه، وبقي المنذر على زندقته زمنًا وعبد كبعض العرب اللات والعزَّى، ومما أخبره

[١٤٨] اطلب: المكتبة الشرقية للسمعاني (BO, I, 364).

عنه المؤرخ زكريا الخطيب،[١٤٩] وميخائيل الكبير[١٥٠] أنه انتهك في بعض حروبه حرمة الكنائس والأديرة فنهب وسلَب وأسر في أراضي الرومان عددًا من الأسرى بينهم ٤٠٠ من العذارى الراهبات قَتلَهن وقدَّمَهن كذبائح للعُزَّى.

على أن المنذر لم يثبت في زندقته، بل جحد الوثنية ونبذ مذهب مزدك، بل تنصَّر بعد ذلك،[١٥١] كما يؤخذ من شهادات المُؤرِّخِين الروم والسريان والعرب، وقد روى صاحب الأغاني (١٩: ٧٧)، والقزويني (ص٢٨٥) وغيرهما خبر تنصُّره في مطاوي ذكرهم للغريَّين قالوا: إن المنذر المذكور إذ كان قتل في بعض أيام ثملته اثنين من أعز ندمائه عمرو بن مسعود، وخالد بن المضلل أقام على قبريهما غريَّين أو طربالين، واتخذ لهما يومين يوم نعيم كان يغني فيه من أتاه قبل غيره ويوم بوس كان يقتل فيه أول وافد عليه، فقتل في إحدى السنين عَبيد الأبرص الشاعر ثم أتاه في سنة أخرى أحد مضيفيه المحسنين إليه في يوم صيده يُدعى حنظلة بن أبي عفراء الطائي وهو يُرجِّي خيرًا، فلم يَرَ المنذر بُدًّا من قتله لئلَّا يحنث بوعده إلا أن حنظلة طلب تأجيل الحكم لمدة معلومة، واتخذ له كفيلًا شريك بن عمرو الشيباني، فلمَّا جاء اليوم المعهود وكاد يُنفَّذ الحكم في الكفيل رجع حنظلة مستعدًّا ليُقتَل، وإذ قضى الملك المنذر منه العجب سأله ماذا دفعه إلى القيام بوعده فأجاب أن دينه النصراني دفعه إلى ذلك، فتَنصَّر المَلِك وأهل الحيرة معه، هذا ما رواه العرب، ومنهم من ينسب الأمر إلى النعمان الأول وغيرهم يروونه عن النعمان أبي قابوس، إلا أن أصحاب النقد يرجِّحون أنه المنذر الثالث ابن ماء السماء، وهو يؤيد كما ترى ما قلناه عن تنصر المنذر.[١٥٢]

قال أبو الفداء في تقويم البلدان (ed. Reinaud, p. 229): «كانت الحيرة منازل آل النعمان بن المنذر وبها تَنصَّر المنذر بن امرئ القيس وبنى بها الكنائس العظيمة.» ومن الحيرة كان أحد كبار السياح المعروف بمار يوحنان (Chabot: Le livre de la

---

[١٤٩] اطلب تاريخه (éd. Land III, 244).

[١٥٠] في تاريخه (éd. Chabot II, 178).

[١٥١] قال أبو الفداء في تقويم البلدان (ص٢٩٩): «كانت «الحيرة» منازل آل النعمان بن المنذر، وبها تَنصَّر المنذر بن امرئ القيس وبنى بها الكنائس العظيمة.»

[١٥٢] وذكر أبو الفداء في تقويم البلدان (ص٢٩٩ éd. Reinaud) تنصُّر المنذر بقوله: «وبها (أي بالحيرة) تنصَّر المنذر بن امرئ القيس، وبنى بها الكنائس العظيمة.»

Chasteté., p. 28) الذي تَنسَّك في جبل الإزل في دير معرتا، قال مُؤلِّف كتاب العفاف السرياني ܟܬܒܐ ܕܢܟܦܘܬܐ إنه «كان من الحيرة عربي الأصل من أسرة شريفة وبعد أن دَرَس في مدرسة نَصِيبِين تَرهَّب في دَيْر معرتا وكرمه الله بعمل المعجزات.»

أما حنظلة فروى ياقوت (٢: ٦٥٥) أنه بعد نجاته من الموت زهد في الدنيا وابتنى ديرًا قريبًا من الفرات عند الرحبة دُعي باسمه دير حنظلة، وكان حنظلة عم إياس بن قبيصة الذي صار ملكًا على الحيرة بأمر ملك العجم كما سترى.

وقد جاء أيضًا في تاريخ[١٥٣] ابن العبري (مختصر الدول ١٤٨) أن المنذر كان يعتقد اعتقاد اليعقوبية كنصارى العرب إلا أن ابن العبري ليس مصيبًا في ذلك ولعله انخدع بشهادة بعض المؤرخين اليعاقبة مثله، ولنا على صحة إيمان المنذر دليل لامع، وهو ما رواه المؤرخ اليوناني تاوفانوس قال: إن ساويريس البطريرك السرياني الدخيل أراد أن يجتذب إلى بدعته ملك الحيرة، فأرسل إليه أسقفين ليقنعاه بأن في المسيح طبيعة واحدة ليس طبيعتين كما تُعلِّم الكنيسة الأرثذكسية، فالملك سمع كلامهما ساكتًا ثم فضَّ كتابًا كان في يده فبدت عند قراءته الكآبة على وجهه، فسأله الأسقفان: ما الأمر؟ فقال: قد أبلغني كاتب هذه الرسالة أن رئيس الملائكة قد تُوفِّي، فهذا الخبر قد أمعضني جدًّا، فضحك الأسقفان حتى قهقها وقالَا للملك: كيف يمكن أن يموت ملاك لا جسد له، فهذا كذب محض، فأردف الملك وقال لهما: وكيف أنتما تزعمان أن المسيح وهو ذو طبيعة إلهية مفردة قد مات، أليس هذا أعظم كذبًا وضلالًا؟ ثم رد الأسقفين خائبين.[١٥٤]

---

[١٥٣] هذا الخبر المروي عن المنذر، رواه المؤرخ اللاتيني «وكتور التوني Voctpr Tununensis, †556» المتوفى سنة ٥٥٦م في تاريخ سنة ٥١٢م بما حرفه:

"Alamundarus Saracenorum rex a defensoribus Synodi Chalcedonensis baptisatus, Theopaschitas episcopos a Severo Antiochensi episcopo ad se cum litteris missos, barbaram mirabiliter propositionem concludens atquesuperans. Deum immortalem ostendit" (Migne P. L., LXVIII, p.95).

[١٥٤] راجع: تاريخ تاوفانوس في سنة ٥٠٥م؛ وتاريخ إيفاغريوس (ك٣، ف٣٣)؛ وتاريخ تاودورس القارئ (ك٢)؛ وتاريخ زوناراس (ك١٤، ص١٦٠).

فيظهر من جواب المنذر لهذين الأسقفين أنه ليس فقط كان نصرانيًّا، بل كاثوليكيًّا يؤيد ذلك المؤرخ فكتور التونوي المتوفى سنة ٥٥٦م، فقال: إن المنذر تعمَّد على يد أساقفة من أنصار المجمع الخلقيدوني.[١٥٥]

وكان هذا المجمع قد عُقد سنة ٤٥١م وحضره أسقفان من العرب أوسطات ويوحنًّا فوقَّع كلاهما على أعماله باسم أسقف السراكسة أو الشرقيين، وعلى رأي البولنديين المشهورين بتدقيقهم في البحث أن البدعتين اليعقوبية والنسطورية لم تفشوا بين عرب العراق إلا بعد أواسط القرن السادس في أيام فيروز ملك العجم، لمَّا أطلق العنان لبرصوما، إلا أن السمعاني في المكتبة الشرقية (مج٣ الجزء ٢، ص٦٠٥) يَرْتَئي أن البدعتين أُخِذتَا في الانتشار منذ أواسط القرن الخامس ويأتي ببعض الشواهد لتأييد قوله، وكان للنسطورية في العراق السهم الأفوز.

وكانت وفاة المنذر ابن ماء السماء في يوم حليمة[١٥٦] أحد أيام العرب الشهيرة بين اللخميين وبني غسَّان، فضبط زمام الملك ابنه عمرو بن المنذر الشهير بعمرو بن هند (٥٦٢–٥٧٤م) واشتهر كأبيه بعدة وقائع مع الروم وعرب غسَّان وعرب اليمامة وغيرهم، أما دينه فالنصرانية، لنا على ذلك شاهد جليل رواه أبو عبيد البكري الوزير في معجم ما استعجم (ص٣٦٤)؛ وياقوت في معجم البلدان (٢: ٧٠٩) في وصف دير هند الأقدم أو دير هند الكبرى[١٥٧] أم عمرو وابنة الحارث بن عمرو بن حجر الكندي قال:

«وكان في صدره (أي صدر دير هند) مكتوب: بَنَت هذه البِيعَة هند بنت الحارث بن عمرو بن حُجر الملكة بنت الأملاك وأم الملك عمرو بن المنذر أَمَة المسيح وأم عبدِه وابنة عبده في زمن ملك الأملاك خسرو أنوشروان وفي زمن أفرائيم الأسقف، فالإله الذي

---

[١٥٥] اطلب تاريخه في: مجموع الآباء اللاتين لمين (Migne P. L. t. 88 col. 951).

[١٥٦] ويقال: إن المنذر بن ماء السماء قتل قبل ذلك في يوم عين أباغ في واد وراء الأنبار على طريق الفرات إلى الشام قتله الحارث الأعرج بن أبي شمر الغساني، وأما المقتول في يوم حليمة فهو ابنه المدعو مثله أيضًا بالمنذر قُتِل بمرج حليمة، قتلَه الحارث أيضًا، وحليمة هذه هي ابنته.

[١٥٧] جاء في نقائض جرير الفرزدق (ص٢٦٧) إفادات عنها فيروى هناك أن سفيان بن مجاشع بن دارم أحد أجداد الفرزدق سعى بتوطيد السلام بين الحارث بن عمرو الكندي، والمنذر بن ماء السماء، وذلك بأن خطب ابنة الحارث هندًا فزوجها المنذر فتهادن الملكان وطُفِئَت النائرة بينهما، وهند هي أم الملك عمرو بن هند.

بَنَت له هذا الدير يغفر خطيئتها ويترحَّم عليها وعلى ولدها ويُقبل بها وبقومها إلى أمانة الحق ويكون الإله (وروى ياقوت: الله) معها ومع ولدها الدهر الداهر.»

فهذا القول من أوضح البينات على نصرانية عمرو بن هند بل على نصرانية ملوك كندة كما ترى.

وخلف عَمْرو بن هند النعمان بن المنذر[١٥٨] وهو صاحب عدي بن زيد الشاعر النصراني العبادي الشهير، وعلى ما يستنتج من رواية مُؤرِّخِي السريان أنه كان نصرانيًّا قبل جلوسه على سَدَّة المُلك، أما العرب فيخبرون أنه تَنصَّر على يد صهره عديٍّ بن زيد زوج ابنته هند بنت النعمان، ومارية الكندية المعروفة بالحُرَقة، وقد روى غير واحد منهم (راجع الأغاني ٢: ٣٤) أن النعمان مرَّ بمقبرة فأنشده عدي أبياتًا زُهْديَّة (اطلب: شعراء النصرانية، ص٤٤١-٤٤٢) كانت سبب تنصُّره،[١٥٩] بل روى أبو الفرج أنه «لبس المسوح وتنصَّر وتَرهَّب وخرج سائحًا على وجهه، فلا يُدْرى ما كانت حاله فَتنصَّر ولده بعده وبَنَوا البِيَع والصوامع.»[١٦٠]

على أنك رأيتَ مِمَّا سبق أن ملوك الحيرة تَنصَّروا قبل ذلك، وقد جاءت أخبار النعمان بن المنذر مضطربة، فمنهم من أخبر أنه فتَك بعَدِي بن زيد فقتله فقام ابن

---

[١٥٨] هند هذه المعروفة بالحُرَقة هي غير هند الكبرى، ولهما سَمِيَّة ثالثة هي هند بنت المنذر بن ماء السماء، قال ابن الأثير يذكر يوم عين أباغ بينه وبين الحارث الأعرج الغساني (١: ٢٢٢): إن سبب هذه الحرب أن الحارث خطب إلى المنذر ابنته هندًا فوعده بها، وكانت هند لا تريد الرجال، وصنعت بجلدها شبه البرص فندم على تزويجها ورَدَّها عن ملك غسان فصارت الحرب بسبب ذلك، فترى أن في روايات المؤرخين عن الهنود بعض الاضطراب والتناقض.

[١٥٩] زعم عمرو بن مَتَّى (ed. Gismondi, p.48)؛ وسليمان بن ماري (Id. p, 96)، أن النعمان بن المنذر مَرِض مرضًا شديدًا فشفاه الأسقفان النسطوريان شمعون أسقف الحيرة وسبريشوع أسقف لاشوم مع الراهب إيشوع زخا، وأنه اعتمد من بعده ولداه المنذر والحسن قال: «وكان الحسنُ أشدهم تمسكًا بالنصرانية، وكان لا يمنع تَقَدُّم المساكين إليه إذا دخل البِيعة.»

[١٦٠] تنصر النعمان، وفيه يقول النابغة:

ظَلَّت أقاطيعُ أنعامٍ مُؤَبَّلةٍ   لدى صليبٍ على الزَّوراءِ منصوبِ

أراد بالزوراء الرصافة، وكانت للنعمان. قال ياقوت في معجم البلدان (٢: ٩٥٥): «وكان عليها صليب لأنه كان نصرانيًّا.» قال النابغة (البيت) ولعله النعمان الذي أشار إليه خداش بن زهير العامري بقوله (خزانة الأدب، ١: ٩٢):

عدي المدعو زيدًا كجده فسعى به لدى كسرى أنوشروان فحبسه وقتَله، وروى غيرهم ولعله الأصح أن قاتِل عدي بن زيد إنما هو خلَفُه المنذر أبو قابوس.[١٦١] أما ابنته هند فزهدت بالدنيا وعمَّرت لها ديرًا عُرف بدير هند، ولهند هذه قصة مشهورة مع سعد ابن أبي وقاص بعد يوم القادسية ثم مع المغيرة بن شعبة الذي خطبها لَمَّا تولَّى الكوفة فَردَّتْه ردًّا لطيفًا وماتت في رهبانيتها.

ومما لا يُنْكَر أن النصرانية غَلَبت بعد ذلك على ملوك الحيرة وأهلها العرب حتى يجوز القول بأنها عمتهم قاطبة، وأن المسلمين لَمَّا فتحوا مملكة المَناذِرة وجدوها مملكة نصرانية في دينها وآدابها وعاداتها، ومن بعض أصحابها أخذ العرب كتابتهم كما مر في المشرق (٤: ٢٧٨–٢٨٢) وإن كانت بعض فروع الكتابة أَتتهم أيضًا من نصارى النبط، ومن أهل دَوْمة الجندل، ومن الحبشة كما ورد هناك أيضًا، وأثبتته الاكتشافات الأثرية الأخيرة. وكان المُتولِّي على عرب الحيرة في عهد الفتح الإسلامي إياس بن قبيصة الطائي كان كسرى أبرويز ولَّاه عليهم بعد وفاة المنذر ريثما يُعَيِّن لهم ملكًا من أبنائه، فبقي على ولايتهم إلى دخول المسلمين في الحيرة، ونصرانية إياس المذكور ثابتة لا شك فيها كما رأيت.[١٦٢]

(٨) الباب الثامن: النصرانية في الجزيرة

تَتبَّعْنَا آثار النصرانية بين العرب في الجاهلية على حدود بحر فارس ثم في جهات العراق، ورأينا ما خَلَّفَتْه لنا التواريخ من أخبار الدين المسيحي في الممالك الثلاثة الكبرى التي اقْتسَمَت جزيرة العرب، أعني دول الغساسنة والتَّبابِعَة والمَناذِرة، وحتى الآن لم نَستوفِ مآثر نصارى العرب على التخوم الفاصلة بلادهم عن البلاد المجاورة.

وبالمَرْوَة البيضاءِ يوم تبالةٍ ومَحبسةُ النُّعمانَ حيثُ تَنصَّرا

وقد ذكر البكري أبا قابوس بن منذر في معجم المستعجم في وصفه لدير اللج (ص٣٦٦)، وكان النعمان بناه في جهات الحيرة، قال: «وكان النعمان يَركَب في كل عيد ومعه أهل بيته … عليهم حُلل الديباج المذهبة، وعلى رءوسهم أكاليل الذهب، وفي أوساطهم الزنانير المفضضة بالجوهر، وبين أيديهم أعلام فوقها صُلبان الذهب، فإذا قضوا صلاتهم انصرفوا إلى مستشرفه.»

[١٦١] اطلب: أخبار عدي بن زيد في شعراء النصرانية (ص٤٣٩–٤٧٤).

[١٦٢] اطلب أيضًا: شعراء النصرانية، ٩٢ و٩٤.

فمما لم نَذكُره حتى الآن السهول الواسعة والبقاع الرحبة الممتدة من جهات الموصل إلى مجرى الفرات المتوسطة بين الأرمن والشام، فهناك مَفاوِز مُتَّسِعة يسقيها النهران الكبيران دجلة والفرات مع عدة أنهار تنصب فيها أخصها الخابور. فتلك البوادي التي كانت الأمم القديمة تتزاحم في ملكها لخصبها العجيب ووفرة خيراتها وسعة غلاتها أزهرت فيها مدن عديدة وحواضر ممصَّرة لم يَبْقَ من أكثرها اليوم غير أخربة مهيبة أو مدن ثانوية تنبئ بعظم مقامها في القرون الغابرة كنصيبين، ودارا، ودُنيسر، وآمد، ومَيَّافارِقِين، وسعرت، وماردِين، والرَّقَّة، ورأس العين، وقرقميش، وقرقيسيا، والرُّهَا، التي يطلق على مجموعها اسم الجزيرة.

فتلك البلاد المُتدفِّقة بالنِّعَم الزاخرة بالخير قد أحبتها منذ سالف الأجيال قبائل العرب سواء كانوا من أهل الحَضَر أو من أهل المدر؛ إذ كانوا يجدون فيها ما يصلح لمعاشهم الساذج ولرعية مواشيهم فيتنقلون إذا شاءوا من الأرياف إلى البراري ليس مَن يتعرض لاستقلالهم أو يتداخل في أمورهم غير شيوخهم وأمراء عشائرهم.

وما يدل على انتشار القبائل العربية في الأنحاء المذكورة أَعلامُها المشيرة إلى قاطنيها كباعربايا، وجزيرة ابن عمر، وديار ربيعة، وديار بكر، وديار مُضر، وغير ذلك ممَّا ينوِّه اسمه بأصل سكانه، فباعربايا أو بيت عربايا اسم لثلاثة أماكن احتلَّها العرب أخصها مدينة كانت قريبة من نصيبين، وجزيرة ابن عمر وعلى الأصح «ابني عمر» هي مدينة موقعها على دجلة يدعوها الكلدان بازَبْدى ثم نُسِبَت إلى ابني عُمَر، وهما على ما روى ابن خلكان «أوس وكامل ابنا عُمَر بن أوس التغلبي».

أما ديار بكر، وديار ربيعة، وديار مُضر فقد أحسن في وصفها ياقوت في معجم البلدان (٢: ٦٣٦–٦٣٨) فقال عن ديار بكر:

«ديار بكر هي بلاد واسعة تُنْسَب إلى بكر بن وائل … بن ربيعة بن نزار بن مَعَد بن عدنان، وحدُّها ما غرَّب من دجلة من بلاد الجبل المطل على نَصِيبِين إلى دجلة، ومنه حصن كَيْفا وآمد ومَيَّافارِقِين، وقد يتجاوز دجلة إلى سعرت وحِيزَان وحِينِي، وما تخلل ذلك من البلاد ولا يتجاوز السهل.»

وقال عن ديار ربيعة:

«ديار ربيعة بين الموصل إلى رأس عين ودُنَيْسر والخابور جميعه، وما بين ذلك من المدن والقرى، وربما جُمِع بين ديار بكر وديار ربيعة وسُمِّيت كلها ربيعة فإنهم

كلهم ربيعة، وهذا اسم لهذه البلاد قديم كانت العرب تحلُّه قبل الإسلام في بواديه واسم الجزيرة يشكل الكل.»

وقال في ديار مُضَر:

«ديار مُضَر هي ما كان في السهل بقرب من شرقي الفرات نحو حرَّان، والرَّقَّة، وشِمْشاط، وسروج تل مَوْزَن.»

أما القبائل التي كانت تسكن في تلك الجهات، فكانت من ذرية نزار بن معد، كإياد بن نزار بعد فرارهم من تخوم العجم ومضر بن نزار منهم بنو النَّمِر بن قاسط، ولا سيما بني ربيعة منهم خصوصًا بني تغلب، وبني بكر، وبني شيبان، قال أبو محمد الحسن الهمداني في كتاب صفة جزيرة العرب (ص١٣٢، éd. D. H. Müller) يذكر مَنازل تلك القبائل:

«ثم تأتي الفرات من بلد الروم شاقًّا في طرف الشام على التواء إلى العراق فغربيُّه ديار كَلْب، وشرقيُّه ديار مُضَر «فيها» من المدن الرافقة وهي على شط الفرات يسكنها أخلاط مُضر، وحرَّان موضع آلة القياس مثل الأسطرلاب وغيرها ... لبني تميم، ومن يخالط بني سُليم، والرُّها لبني سُلَيم وكنيسة الرُّها التي يُضرب بها المثل، ومَرْبَعا والخابور لبني عُقَيْل أعلاه، ولبني مالك وبني حبيب وبطون تغلب الباقي، ثم آخر ديار مُضَر رأس العين للنمر بن قاسط.»

«ديار ربيعة، وما خلفها، أولها وآخر ديار مُضر رأس العين، ثم كفرتُوثا لجشم عن أياسرها مارة من موضع الجنات المضروب بها المثل، وهي تطل على دَارِين ثم نَصِيبِين ... وهي دار آل حمدان بن حمدون موالي تغلب، فمن نَصِيبِين إلى أَذْرَمة والسُّمَيعية مسيرة يوم، وعن أيمن ذاك جبل سنجار جبلُ شَراة بين تغلب والشَّراة منها بنو زهير، وبنو عمرو ثم من أيمن ذلك دُهُنًّا إلى رحبة مالك بن طوق وقرقيسيا ثم ترجع إلى أذرمة إلى برقعيد، وهي ديار بني عبد من تغلب ... ثم منها إلى بلَدَ وفيها شَراة وغير ذلك إلى حد الموصل، وإن أردتَ بعد أرض الموصل مررت بتكريت، وكان «نهر» الثرثار عن يمينك، وأكثر أهل الموصل مَذْحِج وهي رَبِعية فإن تياسرت منها وقعتَ إلى الجبل المسمَّى بالجُودِيِّ يسكنه ربيعة، وخلفه الأكراد، وخلف الأكراد الأرمن، وإن تيامنتَ من الموصل تريد بغداد لِقِيَتْك الحديثة وجبل بارمًّا يُسمَّى اليوم حُمْرين ... ثم السن والبوازيج بلاد الشَّراة من ربيعة ثم يقع في جبل الطور البَرِّي وهو أول حدود ديار بكر وهو لبني شيبان وذويها لا يُمازِجُهم إلى ناحية خراسان إلا الأكراد.»

فإذ عرفتَ حدود الجزيرة والقبائل العربية المنتشرة فيها[١٦٣] بقي علينا أن نُبيِّن ما كان للنصرانية من النفوذ بينها فنقول:

إن أوَّل برهان يُثْبِت دخول النصرانية بين عرب الجزيرة ما أصاب هذا الدين من الانتشار السريع الغريب فيما بين النهرين كما تُصرِّح به كل الآثار التاريخية والكتابية والبنائية كالكنائس الباقية إلى يومنا الراقية إلى القرن الرابع والخامس للمسيح، وكصوامع الرهبان ومغاورهم، فلا يقبل العقل أن عرب الجزيرة لم ينالوا من الدعوة المسيحية حظَّهم كما أصابه إخوتهم في بادية الشام، وفي اليمن والعراق ولهم في شظف عيشهم وسلامة طباعهم ما يُعِدُّ قلوبهم لقبول ذلك الزَّرع الإلهي الذي أتى به ابن الله إلى الأرض وبذره في التربة الجيدة، ولا سيما بعد أن عاين أهل الجزيرة مع العرب (أعمال ٢: ٩–١١) المعجزات التي جَرَت يوم حلول الروح القدس في أورشليم.

ولنا دليل ثانٍ على تديُّن عرب الجزيرة بالنصرانية بعد نَبْذِهم لشرك الوثنية ألا وهو الغيرة الملتهبة التي كانت في قلوب الرُّسل والدعاة الأولين للنصرانية، فإن بعضهم بلغوا إلى أقاصي الأرض كما رأيتَ فما قولك بالبلاد بالمجاورة لليهودية التي كثرت فيها المعامَلات مع فلسطين منبع الدين المسيحي.

ثالثًا: وإن استفتينا التواريخ القديمة، والتقاليد المحلية، والطقوس السريانية وَجدْنَاها كلها تَتفِق على ذِكْر دعوة العرب إلى الإيمان بالمسيح كدعوة بقية أهل الجزيرة، قال عبد يشوع الصوباوي في ذِكْر إدي رسول الجزيرة ما تعريبه: «قد اقْتبَلَت الرُّها ثم نَصِيبِين وسائر العرب وكل تخوم الجزيرة الكهنوت المُقدَّس من إدِّي أحد السبعين تلميذًا.» وقال إيليَّا الأسقف الدمشقي يذكر إِدِّي وتلميذه ماري: «وكان الداعي والمُنَصِّر والمُتلمِذ والمُدبِّر بالجزيرة والموصل وأرض بابل والسواد … ونواحي الأعراب من التلاميذ السبعين إدِّي وماري.»[١٦٤] وقال ماري بن سليمان (éd. Gismondi, p. 2): «وتوجَّه آحي

---

[١٦٣] القبائل المُتَنَصِّرة، قال الجاحظ في كتاب الحيوان (٧: ٦٦): «من العرب ممن كان لا يرى للحرم ولا لشهر الحرام حرمة (وهم المُطْبِقون على عداوة النبي ﷺ والكفر به والمُحِلُّون) طيئ كلها وخثعم كلها، وكثير من أحياء قُضاعة، ويشكر، والحارث بن كعب، هؤلاء كلهم أعداء الدين، والنسب هذا إلى ما كان في العرب والنصارى والذين يخالفون دين مشركي العرب كل الخلاف كتغلب وشيبان وعبد القيس وقُضاعة وغسان وسُليم والعباد وتنوخ وعاملة ولخم وجذام وكثير من بلحارث بن كعب وهم خلطاء وأعداء.»

[١٦٤] اطلب: المكتبة الشرقية للسمعاني، ٤: ٥–٢٥.

وماري (تلميذَا إدي) إلى نَصِيبِين وأَعْمدَا أهلها، وأنفذ ماري إلى المشرق وآحي إلى قَرْدَى وبَازَبْدَى، ثم توجه إدِّي إلى المشرق وبدأ بناحية حزَّة والموصل وباجَرْمَى، وعاد إلى مدينة الرُّهَا واستناح فيها بعد ١٢ سنة …»، وقال أيضًا: «وإدِّي قصد مع آحِي ومار ماري بلاد الرُّهَا، والموصل، وبابل، والشمال والجنوب، وبوادي المغرب (والصواب: العرب).» وجاء في أخبار فطاركة كرسي المشرق، لعمرو بن متَّى الطيرهاني (ص١ éd. Gismondi) مصرِّحًا: «ثم إنه (أي ماري) بادَر إلى تلماذ جميع نواحي أرض بابل والعراقين والأهواز واليمن والجزائر وبلاد العرب سكان الخيم ونجران وجزائر بحر اليمن».

ويُمكِنَّا أن نضيف إلى هذه الشهادات ما رويناه سابقًا عن تبشير عرب العراق، فإن الشواهد المروية هناك عن الرسل وتلاميذهم تصحُّ في عرب الجزيرة، ومثلها أقوال المؤرخين في بشارة الرسول برتلماوس للعرب، وكذلك ورد في السنكسارات القديمة وفي خطط المقريزي.[١٦٥] أن يهوذا الرسول المعروف بتداوس «كرز في سورية والجزيرة».

رابعًا: وإن تَخطَّيْنا عهد الرسل إلى القرن الثاني والثالث للمسيح رأينا بلاد الجزيرة زاهرة بالدين النصراني، ففي الرُّهَا كانت الترجمة الأولى للكُتُب المُقدَّسة إلى السريانية، وهي الترجمة المعروفة بالبسيطة في أواخر القرن الأول للمسيح أو أوائل الثاني.[١٦٦] وهناك تولى طاطيانوس تلميذ القديس يوستينوس الفيلسوف الشهيد في القسم الثاني من القرن الثاني تنسيق الأناجيل الأربعة برواية واحدة تُعْرَف بالدياطاسارون.[١٦٧] وهناك تنصَّر الأباجرة ملوك الرُّهَا سواء يُسلَّم بصحَّة المكاتبة بين السيد المسيح والأبجر المعروف بأوخاما كما تَعتقده الكنائس السريانية أو يُؤَجَّل تنصُّرهم إلى أيام كراكلَّا برجوع أبجر التاسع (١٧٩–٢١٤م) وهناك عُقِد مَجمعان واحد ذكره أوسابيوس في تاريخه (ك٥، ف٢٢) نحو سنة ١٥١ للمسيح الْتَأَم فيه ١٩ أسقفًا للنظر في أمر الفِصْح وتعيين يومه.[١٦٨] والآخر عُقِد بعده بزمن قليل للفحص عن أقوال بعض المبتدعين كتاودوطس، وأبيون، وأرتيمون حضره ١٤ أسقفًا.[١٦٩] فكفى بعدد هؤلاء الأساقفة دليلًا على انتشار

---

[١٦٥] اطلب: الخطط، طبعة بولاق، ٢: ٤٨٣.

[١٦٦] راجع: ويسمان (Wiseman: *Horæ syriacae*)؛ وتاريخ الآداب السريانية لرَيْت، ص٣.

[١٦٧] اطلب: المشرق، ٤: ١٠٠.

[١٦٨] اطلب: مجموع المجامع لمانسي (Mansi, *Collectio Conciliorum* I, 719 et 727).

[١٦٩] فيهِ Mansi ibid.

الدين المسيحي في زمن قريب من رُسل الرَّب يؤيد ما جاء في تقاليد كنائس الجزيرة عن أسماء عدة أساقفة رعوا المؤمنين قبل القرن الرابع في مدن عديدة كنَصِيبِين وبازَبْدَى (جزيرة بني عمر) وآمد والرَّقَّة وهلمَّ جرًّا.

أما كون العرب هناك كانوا من جملة المُتنصِّرِين فيشهد عليه ابن ديصان الذي عاش في الرُّهَا (١٥٤–٢٢٢) فيذكر أهل الرُّهَا وأهل حضر.[١٧٠] وكانوا من عرب قُضاعة عليهم ملك يمتد ملكه في أنحاء الجزيرة، فقال عنه عدي بن زيد:

وأخو الحَضْر إذ بناه وإذ دجـ ـلةُ تُجْبَى إليه والخابورُ

خامسًا: ثم جاء القرن الرابع والخامس فكانا زمن انتصار الدين المسيحي في العالم الروماني، فظهرت النصرانية في كل رونقها وجلالها في أنحاء الجزيرة فاسْتَقَت القبائل العربية هناك من مواردها العذبة، وكان ذلك على الأخص بواسطة الرُّهْبان والسُّيَّاح الذين اختاروا بلاد الجزيرة ليقدسوها بفضائلهم كما قَدَّس سيَّاح مصر بلاد الصعيد، وكان مُنشِئ العيشة الرهبانية في الجزيرة القديس أوكين من تلامذة القديس أنطونيوس الكبير، وقد أجمع المُؤرِّخُون الكلدان والسريان أنه قدم من مصر في العشر الثاني من القرن الرابع، وسكن في جبل نَصِيبِين المسمَّى جبل الإزْل وبشَّر بالإيمان في نَصِيبِين، وعمَّد عاملها وأولاده، وطاف بلاد قَرَدَى وبَازَبْدَى وجهات نَصِيبِين، حيث كانت قبائل العرب وتَلْمَذ الناس وبنى الأديرة، منها دير الزعفران مقام بطاركة اليعاقبة في يومنا وهو قرب مارِدِين، وتَتَلْمَذ له عدد من الرهبان، وكانت وفاة مار أوكين في نَصِيبِين.

ويؤيد شهادة السريان المُؤرِّخ اليوناني المعاصر سوزومان.[١٧١] في الكتاب السادس من تاريخه (الفصل ٣٤) فقال عنه: إن أوكين وهو دعاه أونس (Aónes) جارى القديس أنطونيوس بنشره المناسك الرهبانية في الجزيرة وفي تخوم العجم، وقال عنه: إنه سكن في نواحي نَصِيبِين في فادانا Phadana ثم انتقل المُؤرِّخ إلى ذكر تلاميذه أو المتشبهين بسيرته، فذكر في جبل سنجار: باتَّاوس، وأوسابيوس، وبرجس، وكالس، وآبا، ولعازر الذي سُقِّف بعد ذلك على نَصِيبِين، وعبد الله، وزينون، وهليودورس، وذكر في حرَّان: أوسابيوس الحبيس، وبروتوجان الذي تولَّى الأسقفية على حرَّان بعد بيتوس.

---

[١٧٠] اطلب: كتاب الشرائع، لابن ديصان (Bardesane: *le Livre des Lois des Pays*, p. 59).

[١٧١] اطلب: مجموع الآباء، مين (Migne, PP. GG. LXVII, 1391).

وذكر السريان من تلامذة مار أوكين القديس شليطا الراهب الذي بَشَّر بالإيمان في بَازَبْدَى ثم سابا الذي عمَّر هناك ديرًا، ويوحنا الذي كان يطوف القرى وينصِّر الناس، وآحا أخا يوحنا.[172] ثم تَبِعَهم آخرون كثيرون وعمَّروا الأديرة العديدة حتى صارت بعض أنحاء الجزيرة كمدن رهبانية، لا سيما الأمكنة المُقْفِرة والجبال كالجبل المعروف بطور عابدين في شمالي شرقي مارِدِين وجبل الإزْل السابق ذكره، وجبال الموصل والرُّهَا، وزعم بعض المُؤرِّخِين أن بين هذه الأديرة ما كان يبلغ عدد رُهْبانه عدة آلاف منها للرجال ومنها للعذارى.[173] وقد بَقِي من هذه الأديرة إلى يومنا آثار ظاهرة وبقايا مُعتَبَرة، فإن حضرة القس إسحاق أرملة وصف في مقالة نفيسة الأديرة التي تُرى آثارها بقرب مارِدِين فقط (اطلب: المشرق، ١٢: ٧٦٠).

واشتهر مع هؤلاء كثيرون من كبار المعلمين والأولياء كالقديس يعقوب النَّصِيبِيني، والقِدِّيس أفرام، والأساقفة القديسين برسيس وأولوجيوس، وربُّولا، والقديس بوليان سابا.

فهؤلاء كلهم أو أكثرهم اختلطوا بعرب الجزيرة ونصَّروهم ودَعَوْهم إلى الدين المسيحي، وكانت سيرتهم الملائكية تُؤثِّر في أهل البادية فكانوا يقصدونهم ويلتمسون صلواتهم ويطلبون منهم شفاء أمراضهم فينالون غالبًا مُلْتَمَسهم، ويقبلون دين المحسنين إليهم فيعتمدون، وذلك منذ القرن الرابع كما تشهد عليه نصوص المُؤرِّخِين حتى أمكن السمعاني أن يقول في مكتبته الشرقية (٤: ٥٩٨): إن العرب الذين كانوا يسكنون في الجزيرة ونواحي الكلدان والخليج العجمي عَدَلوا إلى الدين المسيحي قبل السنة ٣٢٠ للمسيح بهمة أساقفة الرُّهَا والمدائن والرُّهْبان المنتشرين بينهم.

وممن شهد على تَنصُّر العرب المؤرِّخ اليوناني سوزومان، فقال في تاريخه (ك٦، ف٣٤) عن الرهبان: «إن هؤلاء النُّسَّاك قد جذبوا إلى دين المسيح كل السُّرْيان تقريبًا وعددًا عظيمًا جدًّا من الفُرْس والعرب بعد أن أنقذوهم من عبادة الأصنام.»

وقد مر بك ما رواه تاودوريطس عن القديس سمعان العمودي وقبائل العرب التي تنصَّرت على يده، وكان كثير منها تَقاطَرَت إليه من العراق واليمن، فما قولك بالقبائل التي كانت قريبة منه كقبائل الجزيرة؟

---

[172] اطلب: تاريخ ماري بن سليمان، ص٢٦؛ والمكتبة الشرقية للسمعاني، ٤: ٨٦٥.

[173] اطلب: تاريخ العيشة الرهبانية، تاودوريطوس (Theodorete: *Hist. religiosa*. c. 30).

سادسًا: وكما شهد كَتَبة السريان واليونان على نصرانية قبائل الجزيرة، كذلك وافقهم كَتَبة العرب على هذا الأمر كما سترى.

اعلم أن مُؤرِّخي الإسلام مع قلة ما كتبوا عن عرب الجزيرة في الجاهلية ذكروا غير مرة نصرانيتهم، وصرحوا كما بَيَّنَّا سابقًا بنصرانية بني إياد بن نزار (المشرق، ١٤: ٨٨٩) سواء قيل: إنهم تنصَّروا قبل دخولهم في حكم الرومان أو بعد خروجهم من بلاد فارس إذ لحقوا بالجزيرة، وكذلك أثبتوا نصرانية ربيعة المُحَتَلِّين في ديار ربيعة وديار بكر، قال ابن قتيبة في كتاب المعارف (طبعة مصر، ص٣٠٥): «وكانت النصرانية في ربيعة.» وقال صاحب السيرة الحلبية (ج٣، ص٩٥): «ومن قبائل العرب المُتنَصِّرة بكر وتغلب ولخم وبَهْراء وجذام.» وبقيت بعض هذه القبائل على نصرانيتها زمنًا طويلًا بعد الإسلام كما ترى في الآثار الباقية وفي كُتُب العرب والسريان، بل ربما ذكروا أساقفة لبني مَعد وتَنُوخ وعقيل،[١٧٤] وجاء في ترجمة مَارُوثا أسقف تكريت أنه جعل تحت حكمه ثلاثة أساقفة كانوا يُدبِّرون قبائل العرب؛ وهم أسقف بيت رامان أو بيت رزيق، ثم أسقف بني جرم، وأسقف بني ثعلبة.[١٧٥]

وكان نصارى غَربِيِّ الجزيرة يترددون إلى مشهد القديس سرجيوس[١٧٦] أو سرجيس الشهيد في الرُّصَافة[١٧٧] (Sergiopolis) ويعظمونه، وكانت صورته مع الصليب على راياتهم الحربية، قال الأخطل (اطلب ديوانه، ٣٠٩):

---

[١٧٤] اطلب: الآثار السريانية، مجموعة لند (Land: *Anecdota Syriaca*, I, 47, 50)؛ وفي منتخبات لاجرد (Lagarde: *Analecta Syriaca*, p. 108).

[١٧٥] اطلب: السمعاني (المكتبة الشرقية، ٢: ٤١٠).

[١٧٦] وكان على اسم مارسرجيوس أو ماسرجيوس (ويقال: ماسرجيس) دير ذكره عبد الله بن العباس الربعي في الأغاني (١٧: ١٢٩):

بيـنَ وَرْدٍ وبيـنَ آسٍ جَنـيٍّ وسط بستان ديرِ ماسرجيسِ

[١٧٧] هي التي تعرف برصافة هشام غربي مدينة الرَّقَّة، وكان أهلها العرب عريقين بالنصرانية وبقوا على دينهم بعد الإسلام بزمن طويل كما يشهد على ذلك ابن بطلان في رحلته سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٨م حيث قال (معجم البلدان، ٢: ٧٨٥) يصف قصر الرصافة: «وهذا القصر حِصْن دون دار الخلافة ببغداد مبني بالحجارة وفيه بيعة عظيمة ظاهرها بالفص المذهب أنشأها قسطنطين بن هيلانة، وسكان هذا الحصن بادية أكثرهم نصارى.» أما الدير فيقول عنه ياقوت: إنه «من عجائب الدنيا حسنًا وعمارة.»

لمَّا رَأَونا والصليب طالعا   ومار سرجيسٍ وموتًا ناقعا
وأبْصَروا راياتنا لوامعا   خَلَّوا لنا راذان والمزارعا

وقال جرير:

أفبالصَّليب ومار سرجس تتقي   شهباءُ ذات مناكبٍ جمهورا

وقال أيضًا:

يستنصرون بمار سرجسَ وابنِهِ   بعد الصليب وما لهم من ناصرِ

ثامنًا: ويؤيد شهادة العرب عن النصرانية في الجزيرة ما رَوَوْه عن أديرتها هناك، فمما ذكره ياقوت (في معجم البلدان، ٢: ٦٤١–٧١٠) دير الأبيض قرب الرُّهَا، وهو مُشْرِف على حرَّان، ودير أَحويشا بسعرت (قال: فيه ٤٠٠ راهب)، ودير باثاوا بقرب جزيرة ابن عُمَر، ودير باعربا بين الموصل والحديثة، ودير باغوث بين الموصل وجزيرة ابن عُمَر، ودير باطًّا بين الموصل وتكريت، ودير بانخايال (أو مخائيل) في أعلى الموصل، ودير الرُّصافة قرب الرَّقَّة، ودير الرمَّان بين الرَّقَّة والخابور، ودير الزُّرْنُوق على فرسخين من جزيرة ابن عُمَر، ودير الزَّعْفَران (مرَّ ذكره)، ودير زَكَّى على باب الرُّهَا، ودير صَلُوبا من قرى الموصل، ودير عَبْدُون قرب جزيرة ابن عمر، ودير العذارى من أعمال الرَّقَّة بين الموصل وبَاجَرمَى، ودير قِنِّسْري على شاطي الفرات في نواحي ديار مُضَر على أربعة فراسخ من مَنْبِج، كان يسكنه ٣٧٠ راهبًا، ودير الكلب بين الموصل وجزيرة ابن عمر كان الناس يلتجئون إلى رهبانه إذا أُصِيبوا بداء الكَلَب فيبرَءُون، ودير لُبَّى على الفرات من منازل بني تغلب، ودير مار سَرْجِيس على الفرات، ودير مَتَّى بشرقي الموصل شهير، ودير مَرْتُوما بمَيَّافارِقِين، ودير مر جرجيس فوق بلدَ بينها وبين جزيرة ابن عمر، ودير مَرْماعُوث على شاطئ الفرات، ودير مر يُوحَنًّا إلى جانب تكريت على دجلة، ودير منصور مُطل على نهر الخابور، ودير يونس في جانب دجلة مقابل الموصل.

غير أن النصرانية في الجزيرة منذ أواسط القرن الخامس تشوَّهت بأضاليل البدع، ولا سيما البدعة اليعقوبية التي انتشرت في تلك الجهات انتشار العدوى القاتلة، ففصلتها عن مركز الوحدة وأوقعتها في لُجَّة الضلال.

قال يوحنا الأفسسي في تاريخه السرياني: إن ما جرى بين قبائل العرب المُتنصِّرة من الجدال بسبب المجمع الخلقيدوني شَتَّت شمل كثيرين منهم حتى أصبحوا خمس عشرة

فرقة، ومثله قال ميخائيل الكبير وابن العبري في تاريخهما الكنسي.[١٧٨] على أن الكَتَبة اليعاقبة يلقون التَّبِعَة على الكاثوليك، وكان الأحرى بهم أن يلقوها على سوء تصرُّفهم وعصيانهم على المجمع المسكوني.

وكان رهبان النَّساطرة واليَعَاقبة يتسابقون إلى عرب البادية ليبثُّوا بينهم زؤان أضاليلهم. كأحُودمه (٥٥٩–٥٧٥م) تلميذ يعقوب البردعي الذي أخبر عنه ابن العبري في تاريخه الكنسي:[١٧٩] «أنه لمَّا صار مفريانًا على المشرق ذهب ليدعو إلى النصرانية القبائل العربية الساكنة في الخِيَم، ورَدَّ منهم كثيرين وجعل عليهم كَهنَة ورهبانًا، وابتنى لهم ديرين يُدعى الواحد دير عين قنًّا، والآخر دير جثان بقرب تكريت.»

واشتهر بين اليعاقبة بعد ذلك «جرجس أسقف العرب» فإن هذا كان من علماء عصره نقل إلى السريانية عدة تآليف لليونان منها كتاب الأورغانون لأرسطو، وألف التآليف العديدة في شرح الكتاب المقدس وأسرار الكنيسة وغير ذلك، وكان كرسيه في عاقولاء بين قبائل العرب، ومَيامِرُه بالسريانية شهيرة، كانت وفاته سنة ٧٢٤م.

وفي أخبار الأخطل وقومه وحروبهم مع زُفَر بن الحارث وقبائله القيسية شواهد لامعة تبين أن النصرانية بقيت بين عرب الفرات زمنًا طويلًا بعد الإسلام في عهد بني أمية.

(٩) الباب التاسع: النصرانية بين عرب شمالي سورية

إن في شمالي سوريًّا مَفاوز متسعة تمتد من نواحي دمشق إلى تَدمُر شرقي جبل الشيخ، ثم حمص وحماة وتبلغ إلى جهات حلب وتتناول البوادي الفسيحة التي تنبسط في تلك الأنحاء شرقًا حتى نهر الفرات، فهذه الصحاري الرحبة كانت أيضًا من قديم الزمان محطًّا لقبائل العرب تجول في بسطتها دون أن يضايقها سكان المدن، وهناك تسرح مواشيها وترعى إبلها في أيام الربيع، فإذا اشتد عليها القيظ تقرَّبت من الأرياف أو جاورت ضفاف الفرات.

---

[١٧٨] اطلب: كِتاب العلَّامة نولدك في أمراء غَسَّان (T. Noeldeke: *Die Ghassâniscben Fürsten,* p. 31–32).

[١٧٩] اطلب: طبعة أبِّلوس (Abbelos: *Greg. Barhebraei Chron. Ecclesiasticum*, II, 100).

فتلك البلاد الواسعة كانت في القرون السابقة للإسلام ديارًا قبائل عربية جليلة، أَخصُّها بنو كلب كانوا يسكنون منها القسم المتصل بالفرات شرقًا في البيداء المعروفة بالسماوة،[180] قال الهمداني في صفة جزيرة العرب (ص١٢٩): «أما كلب فمساكنها السماوة، ولا يخالط بطونها في السماوة أحد، ومن كلب بأرض الغوطة عامر بن الحصين وابن رباب المعقلي.»

وقال في موضع آخر عن قبائل الجهات التي نحن في صددها:

«وإن جُزْتَ جَبَل عاملة تريد قَصْد دمشق وحمص وما يليها فهي ديار غسَّان من آل جَفْنَة وغيرهم، فإن تَياسَرتَ من حمص عن البحر الكبير وهو بحر الروم وقعتَ في أرض بَهْراء ... ثم من أيسرهم مما يصل البحر تَنُوخ ... ثم تقع في نصارى وغير ذلك إلى حد الفرات إلى بالس في برية خُساف فهي من الدَّهْناء، ومنها مخرج إلى تدمر ذات اليمين وهي تَدْمُر القديمة وهي جانب السماوة.

وما وقع في ديار كلب من القرى تَدْمُر وسلميَّة والعاصميَّة وحمص، وهي حميرية وخلفها مما يلي العراق حَمَاة وشَيْزَر وكَفَرْطاب لِكِنَانة من كلب، ثم ترجع بكنانة كلب من ديارها هذه إلى ناحية السماوة والفرات من المدن تل منَّس وحَرَص وزعرايا ومَنْبِج، ومَنْبِج بينهم وبين بني كلاب إلى حدِّ وادي بُطْنان.»

لا شك أن كل هذه النواحي التي كان عرب البادية يقيمون فيها لم تُحرَم من الدعوة النصرانية، ولو لم يكن لنا حجة لتأييد قولنا غير موقع ديارها لكفى به دليلًا؛ لأنها واقعة كما ترى بين فلسطين والشام وجهات أنطاكية وحلب وأنحاء الرُّهَا، وكلها بلاد أصابت سهمًا معلًّى من الدعوة المسيحية لقربها من ينابيع الخلاص فلا غَروَ أن تكون جرت إليها منها جداول قبل بقية الأقطار بعد صعود الرَّب بزمن قليل.

وفي هذه الأنحاء، «بل في القرى أيضًا، تَعدَّدَت في القرون النصرانية الأولى الكراسي الأسقفية ليس في المدن فقط» بل في القرى أيضًا حتى الصغيرة (μιϰροϰομίαι)، كما يشهد على ذلك القديس باسيليوس في رسالته ١٩٠ إلى أمفيلوخيوس.[181]

[180] هي البادية الواقعة بين الكوفة والشام، كان يسكنها بنو كلب.

[181] اطلب: مجموعة مين (Migne, P. G. t. 32, col. 697).

وورد في الآثار الكتابية أو التواريخ القديمة أسماء عدة أساقفة كانوا يَسُوسون الرعايا المتفرقة في المقاطعات التي نحن في صددها، وقد وقَّع كثيرون منهم على أعمال المجامع النيقاوي والقسطنطيني والأفسسي والخلقيدوني.

وقد أثبت حضرة الأب سبستيان رنزفال في مَقالته عن زينب (المشرق، السنة الأولى، ص٩٨٧–٩٩٠) ما كان للنصرانية من النفوذ في تَدْمُر[١٨٢] والبلاد المجاورة لها في القرن الثالث للمسيح بفضل السلام السائد على تلك الأنحاء. كما ظهر ذلك النفوذ أيضًا في المجمع المنعقد سنة ٢٦٩م في أنطاكية للحكم على بولس السميساطي فحضره ثمانون أسقفًا وحرموه.

وقد صرح في ذلك القرن ديونيسيوس الإسكندري بنصرانية تلك الأصقاع، حيث كتب للبابا القديس إسطفانس:[١٨٣] «إن أقاليم سوريًّا كلها مع بلاد العرب التي تمدُّها بصدقاتك وبلاد ما بين النهرين تصادق على تعاليمك.»

ويؤيد ذلك أخبار السُّيَّاح الذين سكنوا في تلك الأقفار فاجتذبوا إليهم القبائل المُجاوِرة لهم كالقديس ملكوس أو مالك الذي روى قِصَّته العجيبة القديس إيرونيموس،[١٨٤] وكالقديس إليان الواسع الشهرة في القريتين (المشرق، ٩: ٦٥٨)، والقديس سمعان العمودي الذي مر ذكره وكان مقامه في شمالي سوريا في الجبل المنسوب إليه، وقد أفاد تاودوريطس[١٨٥] في تاريخه أن الإسماعيليين؛ أي العرب كانوا يتقاطرون إلى عموده، وأنه نصَّر منهم ألوفًا مؤلفة (Ismaelitarum millia innumerabilia)، وفي حياة القديس نونُّوس أنه لما كان في بعلبك عمَّد ثلاثين ألفًا من العرب.[١٨٦]

ويُضاف إلى ما تَقدَّم ما وجده الأثريون في شمالي سوريًّا من الآثار النصرانية العديدة كبقايا أديرة، وأخربة كنائس ونقوش نصرانية بديعة غنيت بها متاحف أوربا، وقد رأينا بعض تلك الأبنية في سياحتنا إلى بادية تدمر (في المشرق، ٩: ٩٥٣).

---

[١٨٢] روى السمعاني في المكتبة الشرقية (XIV: 4) لعمرو بن مَتَّى أن يهوذا بن يعقوب المُلقَّب لبي؛ ذَهَب إلى تدمر ليبشر فيها بالمسيح.

[١٨٣] راجع: التاريخ الكنسي، لأوسابيوس، الكتاب السابع، الفصل الخامس.

[١٨٤] اطلب: أعمال الآباء اللاتين (Migne P. L. XXIII, 55).

[١٨٥] أعمال الآباء اليونان (Id., P. G. vol. 74 col. 1041).

[١٨٦] فيها (Id., P. G. vol. 83 col. 668).

ومن ذلك أثر فريد اكتشفه رحالة أوربي قبل ١٢ سنة في زبَد[١٨٧] ليس بعيدًا عن حلب فيه كتابة بثلاث لغات يونانية وسريانية وعربية، تاريخه باليونانية سنة ٨٢٣ للإسكندر الموافِقة لسنة ٥١٢ للمسيح، وهو أول أثر يُعْرَف بالقلم العربي كُتب ١١٠ سنوات قبل الهجرة، وهذا الأثر نصراني مَحْض نُقِرَ في حجر ليوضع على مشهد أُقيم هناك لتذكار الشهيد القديس سرجيوس، وهذا يثبت ما قلناه سابقًا عن تعبُّد العرب لذلك الشهيد، وأخبر ساويرس البطريرك الدخيل وزعيم البدعة اليعقوبية أن عرب البادية كانوا إذا تنصَّروا يطلبون المعمودية في كنيسة القديس سرجيوس في الرُّصَافة، حيث قتل شهيدًا (روى ذلك في ميمره السابع والخمسين الذي قاله في ٧ تشرين الأول سنة ٥١٤م، أعني سنتين بعد تاريخ الأثر المذكور).[١٨٨]

ومن الشواهد التاريخية المثبتة تنصُّر العرب في شمالي سوريًّا ما رواه ميخائيل الكبير وابن العبري عن يوحنَّا أسقف أفسس من كتبة القرن السادس أنه لمَّا حصل الانقسام بين الملكيين وأعداء المجمع الخلقيدوني تَفرَّق العرب النصارى وسَكَن منهم قسم في بادية تدمر في النبك والقريتين وحُوَّارين، وبقي هؤلاء العرب على نصرانيتهم زمنًا طويلًا بعد الفتح الإسلامي، كما يشهد عليه ياقوت الحموي (٤: ٧٧) حيث قال عن القريتين في زمانه: «إن أهلها كلهم نصارى.»

ولنا في كتب العرب ما يزيل كل ريب عن القبائل المُتَنَصِّرة في شمالي سوريَّة، وقد رأيت فيما نقلناه عن وصف الجزيرة للهَمْداني أن السهول الواقعة بين الشام وحلب والفرات كان معظم سكانها من غَسَّان وتَغْلِب وتَنُوخ، وعلى الأخص من بني كلب الذين تَفرَّدوا بسكنى السماوة الممتدة من الشام إلى نواحي الموصل، وكانوا يسكنون خصوصًا في جهات تدمر وسلمية حتى سُمِّيت تلك الجهات بادية كَلْب، فهذه القبائل كلها كانت نصرانية، فأما غسَّان وتغلب وتنوخ فقد مرت الشواهد على نصرانيتها، فبقيت قبيل بني كلب، ودونك الأدلة على تديُّنها بالدين المسيحي.

---

[١٨٧] هذه الكتابة أوسع باليونانية، وخطها العربي قليل الوضوح لم يتفق المستشرقون في تفسيره، ويؤخذ من اليونانية أن الذين أقاموا هذا الأثر لذكرى القديس سرجيوس البرديوت يوحنا بن بركة، وسركيس بن سركيس وغيرهما وأن الذي عني بهندسته سمعان بن عمرو ولانديوس، وفي صدر الكتابة السريانية البسملة النصرانية «المجد للآب وللابن وللروح القدس.»

[١٨٨] اطلب: مجلة الأبحاث الشرقية (Riv. d. Studi Orientali, I, p. 577–587).

إن بني كلب بطن من قُضاعة، وهي القبيلة اليمنية الأصل التي أجمع الكتبة على تنصُّرها عمومًا كابن قتيبة واليعقوبي والنويري، وخصُّوا بالذكر بعض بطونها كبني سليح وبني جرم، ثم ليس في كتب المؤرخين إشارة إلى شرك كلب، بل كثيرًا ما يصرِّحون بنصرانية أعيانهم كبحدل بن عُنَيف من سادتهم، وهو أبو ميسون زوجة معاوية، وكفرافصة الكلبي أبي نائلة زوجة الخليفة عثمان بن عفان.

وذُكر في المقتضب لياقوت (ص٣٦) وفي تاريخ ابن عساكر في ترجمة نائلة «أن بني كلب كانوا نصارى»، وكذلك ذكر ابن خلدون في تاريخه (٢: ٢١٩) أنهم دخلوا في دين النصرانية.



الأثر المُكتَشَف في زَبَد قريبًا من حلب وفيه كتابة بثلاث لغات؛ يونانية وسريانية وعربية تاريخها سنة ٥١٢ للمسيح، والكتابة العربية طُبعت منفردة.

ولمَّا ظهر الإسلام كان بنو كندة وبنو كلب من جملة الذين لم يُنكِروا دينهم، كما أخبر بذلك ابن هشام في سيرة الرسول (éd. Wüstenfeld, p. 282) وكذا روى ياقوت في المُقتَضَب عن مُدَر كلب أي أهل البادية فقال: «أسلمت كَلْب غير مُدَرها كانوا نصارى.» وبقي الذين أسلموا منهم على عاداتهم النصرانية كما روى في كتاب البلدان لابن الفقيه (ص٣١٥) فقال عنهم: «إنهم مسلمون في أخلاق النصارى.» وأخبر ابن قتيبة في عيون الأخبار (ص١٧٤) والجاحظ في البيان والتبيين (٢: ٦٢) أن بعض من أسلم منهم كانوا يضربون الناقوس ويترددون إلى الكنيسة التي تَعمَّدوا فيها.

وكان من جملة أمرائهم الذين يتولَّون تدبيرهم أبو كرب الذي عُرف بنصرانيته فمنحه يستنيانوس الملك تدبير قبائل السماوة كما روى المؤرخ بروكوبيوس.[١٨٩]

[١٨٩] اطلب: Procope, de B. p., I, 19.

وربما دعا المؤرخون هذه القبائل المتنصِّرة بالمستعربة وإليهم التجأ الروم عند ظهور الإسلام لمحاربة خالد بن الوليد، قال ابن البطريق في تاريخه عن هرقل: إنه «استجلب المُستعْرِبة من غسان وجذام وكلب ولخم، وكل من قدر عليه من الأعراب وأمر عليهم قائدًا من قوَّاده يقال له: ماهان.»[١٩٠]

فترى من هذه النصوص أن كتبة العرب أيضًا يوافقون اليونان والسريان في نسبة النصرانية إلى القبائل المتفرقة في شمالي سوريَّة.

ونختم هذا الفصل بأثر جميل وُجد في بعض مخطوطات لندن السريانية التي وصفها العلَّامة رَيْت في قائمة المتحف البريطاني تحت العدد ٧٥٤، وهو مجموع رسائل قديمة راقية إلى أواخر القرن السادس للمسيح، من جملتها رسالة مضمونها دستور الإيمان كتبها رؤساء أديرة إقليم البلاد العربية ܡܕܝܢܬܐ ܕܐܪܒܝܐ ووجهوها إلى يعقوب البرادعي لِيُرَذِّلُوا فيها بدعة يحيى النحوي في تثليث الجوهر الإلهي (Trithéisme) وذلك بين السنتين ٥٧٠ و٥٧٨م، وهذه الرسالة قد نشرها المنسنيور لامي M^{gr} Lamy رئيس كلية لوفان في مؤتمر المستشرقين في باريس سنة ١٨٩٨م (ص١١٨–١٣٨)، وهي موقعة بإمضاء ١٣٧ رئيسًا على ١٣٧ ديرًا موقعها كلُّها في إقليم العربية الممتد شرقي بلاد الشام إلى جهات الفرات.[١٩١] فناهيك بهذا العدد العديد شاهدًا جليلًا على انتشار النصرانية بين عرب الشام وسوريَّة، على أن هؤلاء العرب كانوا جنحوا إلى البدعة اليعقوبية كما ترى. وأيَّد ذلك ابن العبري في تاريخه الكنسي، حيث قال (ج١، ص٢١٧): «إن كل قبائل العرب التي كانت في البادية (يريد بادية الشام والفرات) كانوا مُعارِضِين للجمع الخلقيدوني ولا يرضون بمشاركة الخلقيدونيين.» فهذا القول مع ما فيه من المبالغة لا يخلو من الصحة، وعلى كل حال يثبت قولنا في شمول النصرانية لعرب بلاد الشام والفرات إلى حدود العراق.

والمستشرقون في عهدنا يرتَئُون هذا الرأي، قال الهولندي دوزي (B. Dozy) في مقدمات كتابه عن الإسلام (الترجمة الفرنسوية لشوفان V. Chauvin, p. 13): «كان عرب سورية يدينون بالنصرانية» (Les Arabes de Syrie professaient le Christianisme)، ويشاركه في هذا الرأي غيره من العلماء كنولدك، وغولدتسير

[١٩٠] اطلب: الصفحة ١٦، من الجزء الثاني من طبعتنا.

[١٩١] اطلب: مقالة العلَّامة نولدك في بحثه الجغرافي عن مواقع هذه الأديرة في المجلة الآسيوية الألمانية (ZDMG, XXIX, 441–449).

J. Goldziher، ولونرمان Lenormand بل كل من له بعض إلمام بتاريخ العرب في الجاهلية.

(١٠) الباب العاشر: النصرانية في الحجاز ونجد

تتبعنا كما رأيت آثار النصرانية في أطراف بلاد العرب على كل جوانبها، فلم يبقَ علينا إلا ذِكْر أواسطها لنرى ما كان للدين المسيحي من التأثير في القبائل الساكنة في الحجاز ونَجْد، وبذلك تتم أبحاثنا عن تاريخ النصرانية في كل أنحاء جزيرة العرب.

الحجاز على مقتضى تعريف العرب ممتد من تخوم صنعاء في اليمن إلى تخوم الشام، من جنوب جزيرة العرب الشرقي إلى شمالها الغربي، وقد دُعِي حجازًا؛ لأنه يحجز غَوْر تِهامة على سواحل خليج العرب عن بلاد نَجْد في أواسط الجزيرة، ويُدْعَى الحجاز أيضًا بجبل السَّراة وهو أعظم جبال العرب وفيه أشهر مدنهم؛ أي مكة والمدينة، وتدخل فيه دَوْمة الجندل حتى أَيْلة على بحر القلزم التي نعتها ياقوت بآخر بلاد الحجاز.

فتلك البلاد كانت قديمًا عريقة في الوثنية، ولا سيما في عبادة قُوَّات الطبيعة وأخصها النَّيِّران العظيمان الشمس والقمر ثم الزُّهَرة، على أن دعاة الدين المسيحي لم يحجموا عن دعوة أهلها إلى النصرانية، كما تشهد عليه شواهد ثابتة نقَلها قدماء الكتبة من يونان وسريان وعرب، وقد أثبتنا سابقًا شهادة ابن خلدون (ج٢، ص١٥٠، من تاريخه) في بعثة الرسول برتلماوس «إلى أرض العرب والحجاز»، وسبقه إلى مثل ذلك الطبري في تاريخه (طبعة ليدن، ج١، ص٧٣٨) حيث قال: «وكان مِمَّن تَوجَّه من الحواريين … ابن تلما (أي برتلماوس) إلى العربية، وهي أرض الحجاز.» وكذلك ورد في سيرة الرسول لابن هشام (ص١٧٢، ed. Wüstenfeld): «وبُعث من الحواريين … ابن تلما إلى الأعرابية وهي أرض الحجاز.» وجاء في ترجمة القديس يعقوب أسقف أورشليم (ص١٧) أنه «نَصَّر أرض فلسطين وما يليها من ناحية حِمْص وقَيْسارِيَّة والسامرة وبادية الحجاز.»

ثم في تاريخ الطبري قصة ظريفة عن رسول السيد المسيح إلى العرب نرويها بحرفها دون القطع بصحتها قال (١: ٧٣٨–٧٣٩):

«حدثنا ابن حميد … عن أبي سليم الأنصاري ثم الزُّرقي قال: كان على امرأة مِنَّا نَذْر لتظهرنَّ على رأس الجمَّاء جبل بالعقيق من ناحية المدينة (قال) فظهرتُ معها حتى إذا استوينا على رأس الجبل إذا قبر عظيم عليه حَجَران عظيمان، حجر عند رأسه وحجر عند رجليه، فيهما كتاب بالمُسْنَد لا أدري ما هو، فاحتملتُ الحجرين معي حتى

إذا كنتُ ببعض الجبل منهبطًا ثَقلَا عليَّ، فألقيتُ أحدهما وهَبطت بالآخر، فعرضتُه على أهل السريانية هل يعرفون كتابته فلم يعرفوه، وعرضته على من يكتب بالزبور (أي العبرانية) من أهل اليمن ومن يكتب بالمُسْنَد فلم يعرفوه، فلمَّا لم أجد أحدًا ممن يعرفهُ ألقيته تحت تابوت لنا فمكث سنين، ثم دخل علينا ناس من أهل ماه من الفرس يبتغون (ويروى: يبيعون) الخرز، فقلت لهم: هل لكم من كتاب؟ فقالوا: نعم، فأخرجتُ إليهم الحجر فإذا هم يقرءونه فإذا هو بكتابهم: «هذا قبر رسول الله عيسى بن مريم — عليه السلام — إلى أهل هذه البلاد.» فإذا هم كانوا أهلها في ذلك الزمان مات عندهم فدفنوه على رأس الجبل.»

فهذه شهادة جليلة تشير إلى مجيء أحد رسل السيد المسيح إلى الحجاز قريبًا من المدينة، ومن عجيب أمر كاتبها أنه يَعتَبِر كالنصارى «عيسى بن مريم» إلهًا إذ قرينة الكتابة تُبَيِّن أن الرسول المذكور ليس هو عيسى، بل هو مُرْسَل من «الله عيسى».

(١٠-١) أَيْلة

كما مَرَّ في طرف الحجاز من جهة الغرب كان أهلها قبل الإسلام نصارى ويهودًا، ولا يبعد أن النصرانية دخلت فيها بعد المسيح بزمن قليل لقربها من بلاد الشام وفلسطين، وما لا يُنْكَر أن صاحبها كان نصرانيًّا لَمَّا ظهر رسول العرب واسمه يُوحَنَّا بن رَؤْبة[١٩٢] صالَحه نبي الإسلام على جزية كانت تبلغ ٣٠٠ دينار، وفي كتاب وفادات العرب على محمَّد، لابن سعد (éd. Wellhausen, *Skizze*. IV, 27) ما حرفه:

«قال: وقدم يُحَنَّه بن رؤبة على النبي وكان ملك أَيْلَة ... وأقبل ومعه أهل جَرْباء وأَذْرَح، فأَتَوه فصالَحَهم وقَطَع عليهم جزية معلومة ... أخبر عبد الرحمن بن جابر عن أبيه قال: رأيتُ على يُحَنَّه بن رؤبة يوم أتى النبي صليبًا من ذَهَب وهو معقود الناصية،

[١٩٢] أَيْلة اليوم خراب وقامت عقبة مقامها على بعد كيلومترين منها، وكانت قبل الهجرة فرضة حافلة تقصدها سفن اليمن والهند والصين، وتأتيها من البر قوافل الشام (Cfr. Itinerarium Antonini, pp. 42 et 44)، وأما صاحبها يوحنا أو يحنة بن رؤبة فقد دعاه المسعودي في كتاب التنبيه والإشراف (ص٢٧٢) أسقف أَيْلة، وقد جاء في أحد كتب المجامع الدينية ذكر «أسقف أَيْلة والشراة».

وقد ذكر البلاذري في فتوح البلدان (ص٥٩) قبل أَيْلة تَبالة وجُرَش ثم ذكر معها أَذْرَع ومَقْنا والجَرْباء، وكلها كانت حافلة بالنصارى.

فلمَّا رأى رسول الله كفَّر وأومأ برأسه، فأومأ إليه النبي أن ارفع رأسك، وصالَحه يومئذٍ وكساه رسول الله بُرْد يمنة ...»

وجاء في كتاب التنبيه والإشراف للمسعودي (طبعة ليدن، ص٢٧٣) أن «يحنَّة بن رؤبة كان أسقف أَيْلة، وأنه قدم على محمد سنة ٩ للهجرة وهو في تَبوكَ فصالَحه على أن لكل حالمٍ بها دينارًا في السنة.»

(١٠-٢) دَوْمة الجندل

حِصْن يقع بين المدينة ودمشق على سبع مراحل من دمشق، وقيل: على خمس ليالٍ ويَبعُد عن المدينة ١٥ ليلة، وقيل: ١٣، كان مبنيًّا بالجندل أي الصخر، وكان حوله مدينة واسعة يحيط بها سُور، وكان صاحب دَوْمة الجندل أُكَيدر الملك ابن عبد الملك السكوني،[١٩٣] وكانت دَوْمة الجندل عند ظهور نبي الإسلام كلها نصرانية عليها أسقف تابع لمدينة دمشق، كما ورد في كتاب «مدينة الله أنطاكية» من مخطوطات مكتبتنا الشرقية. وكان ملكها أُكَيدر نصرانيًّا فبعث إليه محمدٌ رسول الإسلام خالدَ بن الوليد في ربيع الأول من السنة الخامسة للهجرة (٦٢٦م) فأَسَره.

والعرب يذكرون عدة غزوات لدَوْمة الجندل عند ظهور الإسلام، قال في تاريخ الخميس (٢: ١١): «إن دَوْمة الجندل كان عليها قبل الأُكيدر المسمَّى أصبع بن عمرو الكلبي وكان نصرانيًّا، وأن عبد الرحمن بن عوف غزا دَوْمة الجندل ففتحها وتزوَّج ابنة

[١٩٣] جاء في معجم البلدان لياقوت (٢: ٦٢٦) أن بني كنانة من كلب كانوا في دَوْمة الجندل وأن فيها «كان حصن مارد وهو حصن أكيدر»، وفي تهذيب الأسماء للنووي (ص١٦٣) «قال الخطيب في كتابة الأسماء المبهمة «كان أُكَيدر نصرانيًّا ثم أسلم، وقيل: بل مات نصرانيًّا.» هذا كلام الخطيب، وقال أبو عبد الله بن منده، وأبو نعيم الأصبهاني في كتابهما في معرفة الصحابة: إن أُكَيدر هذا أسلم وأهدى إلى رسول الله ﷺ حُلَّة سِيراء فوهَبها لعمر بن الخطاب — رضي الله عنه —، قال ابن الأثير: «أما الهدية والمُصالَحة فصحيحان، وأما الإسلام فغَلطَا فيه، فإنه لم يُسلِم بلا خلاف بين أهل السِّيَر، ومن قال: إنه أسلم فقد أخطأ خطًا فاحشًا» (قال): «وكان أُكَيدر نصرانيًّا، فلما صالحه رسول الله ﷺ عاد إلى وطنه وبقي فيه، ثم إن خالدًا حاصره في زمن أبي بكر الصديق وقتَلَه مشركًا نصرانيًّا، وكان قبله على أَيْلة أصبغ بن عمرو الكلبي وكان نصرانيًّا.»

الأصبع تماضر.» وكان الروم عادوا فملكوها، قال المسعودي في كتابه التنبيه والإشراف (ص٦٤٨) يذكر غزوة غزاها رسول الإسلام لدَوْمة:

«وفيها (أي السنة الخامسة للهجرة) كانت غزوة دَوْمة الجندل، وهي أول غزوة النبي للروم، وكان صاحبها؛ أي دَوْمة أُكَيدر بن عبد الملك الكندي يدين بالنصرانية، وهو في طاعة هرقل ملك الروم، وكان يعترض سفر المدينة وتجارهم، (قال) فبلغ أُكَيدرًا سَيْرُه فهرب وتفرق أهل دَوْمة وصار إليها فلم يجد بها أحدًا، فأقام أيامًا وعاد إلى المدينة، ثم بعث إليه خالدًا السنة التاسعة للهجرة فأخذه أسيرًا وفتح الله عليه دَوْمة.»»

وقال ابن سعد في كتاب وفادات العرب (ص٢٧) بعد ذكره يُحَنَّه بن رؤبة صاحب أَيْلة: «قال: ورأيت أُكيدر حين قَدِم به خالد وعليه صليب من ذهب وعليه الديباج ظاهرًا.» وفي معجم البلدان لياقوت (٢: ٦٢٦) أن خالدًا حارَبه سنة تسع للهجرة، وافتتح دَوْمة الجندل عُنْوة وقَتَل أخاه حسان. قال: «ثم إن النبي صالَح أُكَيدر على دَوْمة وأمَّنه وقرَّر عليه وعلى أهله الجزية وكان نصرانيًّا.» وفي فتوح البلدان للبلاذري (ص٦١–٦٣) أنه أسْلَم ثم ارْتَدَّ بعد وفاة محمد فأجلاه عمر من دَوْمة الجندل فيمن أَجْلَى من مُخالِفي دين الإسلام إلى الحيرة، فنزل في موضع منها قرب عين التمر، وبنى به منازل سماها دَوْمة باسم حصنه، فغزاها خالد سنة ١٢ للهجرة وقَتَل أُكَيدر.

أما أهل دَوْمة الجندل فكانوا من بني السكون، وهم فرع من بني كندة وكانوا نصارى كما ورد في سيرة الرسول، لابن هشام، وكذلك كان يسكن دَوْمة الجندل قوم من بني كلب الذين سبق بيان نصرانِيَّتهم.[١٩٤]

(١٠–٣) وادي القرى

هو وادٍ بين الشام والمدينة يُعَد من الحجاز ومنه كانت دَوْمة الجندل ودُعِي هذا الوادي بوادي القرى لكثرة القرى الواقعة فيه لوفرة مياهه وخصبه منها الحِجْر، وكان اليهود يسكنون هذا الوادي ثم نزلته قُضاعة وهي من أثبت القبائل في النصرانية، ومنهم

[١٩٤] اطلب: تاريخ العرب في الجاهلية لكوسان دي برسفال (Caussin de Perceval: *Eesai sur t'Hist. des Arabes*, I, 214: II, 232, 269).

بنو سليح الذين ذكر المؤرخون تَنصُّرَهم في الشام،[195] وفي وادي القرى كان يسكن قوم من الرهبان ذَكرَهم شعراء العرب، قال جعفر بن سراقة (الأغاني، ٧: ١٦١):

ونحن مَنَعْنَا ذا القرى من عدوِّنا — وعُذرةَ إذ نَلْقى يهودًا وبَعثرا
مَنَعْنَاه من عُليا مَعَدٍّ وأنتمُ — سفاسيفُ روح بين قُرْحٍ وخيبرا
فريقان رهبانٌ بأسفل ذي القرى — وبالشام عرَّافون فيمنٍ تنصَّرا

(١٠-٤) تيماء

هي بلدة في الحجاز بين الشام ووادي القرى، وفيها كان الأبلق حِصْن السَّمَوْأل، والشائع أن السَّمَوْأل كان يهوديًّا إلا أننا لمَّا طبعنا لأول مرة ديوانه أتينا في المقدمة ببعض الشواهد المثبتة نصرانيته.[196] كأصله الغساني، وكذكره في شعره لبعض تلامذة المسيح، بل تصريحه باسم السيد المسيح في قصيدة لامية وجدت في الموصل حيث يقول:

وفي آخِر الأزمان جاء مَسيحُنا — فأهدى بني الدنيا سلام التكاملِ

ولعل الصواب أنه كان من إحدى الشِّيَع اليهودية المُتَنَصِّرة (Judéo–chrétien)، وقد ذكر العرب أن قومًا من نصارى طيئ كانوا أيضًا يسكنون تيماء.[197]

(١٠-٥) تبوك

مكان حصين بين وادي القُرى والشام على أربع مراحل من الحِجر كان به عَيْن ونخلٌ، ملكه المسلمون سنة ٩ للهجرة بعد أن حاربوا فيه الروم ومعهم نصارى العرب من عامِلةَ ولَخْم وجذام. وكان أهل تبوك من نصارى قُضاعة، قال ابن خلدون نقلًا عن ابن سعيد (٢: ٢٤٩): «وكان لقُضاعة ملكٌ آخر في كلب ابن وَبَرة بن تغلب يتداولونه مع السَّكون من كندة فكانت لكلب دَوْمة الجندل وتَبُوك ودخلوا في دين النصرانية.» ثم ذكر

---

[195] في التاريخ المذكور (Id. I, 212, 231).

[196] راجع: المشرق، السنة ١٢، ١٩٠٩م، ص١٦٢.

[197] اطلب أيضًا: Arnold Mulheisen: *Islam: History and relations to Christianity*, p. 34.

مُهاجرة كلب بعد الإسلام فقال: «وبقيت بنو كلب في خلق عظيم على خليج القسطنطينية منهم مسلمون ومنهم مُتَنَصِّرون.»

(١٠–٦) مَعَان

قال ياقوت (٤: ٥٧١): «هي مدينة في طرف بادية الشام تلقاء الحجاز من نواحي البلقاء.» وكان أهلها نصارى تحت حكم الروم والمالك عليها عند ظهور الإسلام فروة بن أبي عامر شيخ بني جذام النصارى، وبقُرْب مَعَان عند مؤتة التي دعاها تاوفانوس المؤرخ (Théophane. I. 515. éd. Bonn) باسم MoΘoUς حدثت وقعة سنة ٨ للهجرة بين جيوش المسلمين تحت إمرة زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة و(بين) جيوش الروم تحت قيادة تاودورس المعروف بالنائب، وقد روى مُؤرِّخو العرب أن عدد الروم كان مائة ألف ومعهم من عرب النصارى مائة ألف آخرون.[١٩٨] فكان الانتصار للروم وهُزم المسلمون وقُتل قادتهم، لكنهم عادوا بعد ذلك بسنة فغلبوا الروم وفتحوا مَعَان واسْتَولَوا على جهات البلقاء، وقيل: إن فروة صاحب مَعَان أسلم.

(١٠–٧) المدينة

كان اسمها في الجاهلية يَثْرِب[١٩٩] دُعِيَت بذلك على ما قيل باسم بانيها أحد أبناء آرام، وفي تقاليد العرب أن أول من سكنها العمالقة، ثم هاجر إليها اليهود في أزمنة مختلفة قبل المسيح على عهد موسى ويشوع بن نون وداود، ثم في زمن خراب أورشليم وهيكلها على يد الآشوريين ثم بعد المسيح عند فتح الرومان للقدس الشريف، فخرج منهم إلى

---

[١٩٨] هكذا روى العرب ومثلهم روى السريان كإلياس النصيبيني اطلب تاريخ اليعقوبي (٢: ٦٦) ومعجم البلدان لياقوت (٤: ٦٨٨ و٥٧١) ثم de Goeje: *Mémoires d'Hist. et de Géogr. Orientales, 2 éd.*, 1900, p. 6–9.

[١٩٩] ومن الآثار المنبئة بوجود النصرانية في المدينة دَيْر كان على جبل قريب من المدينة، يدعى بسَلْع فنُسب إليه دير سَلْع، وقد ذكره الطبري في تاريخه وكان هذا الدير صار بعد ذلك في أيدي اليهود فجعلوه مقبرة وفيه دُفِن الخليفة عثمان بعد قَتْلِه (راجع: الطبري، ج١، ص٣٠٤٧).

يثرب بنو قريظة والنَّضير وبَهدل ونزلوا واديين اسمهما بطحان ومهزور.[٢٠٠] وبَنَوا هناك الآطام؛ أي المنازل المحصَّنة.

وكانت ديانة هذه القبائل اليهودية كما هو بديهي، غير أنهم اختلطوا بقبائل أخرى عربية كان البعض يسكن في جوار يثرب والبعض الآخر هاجر إليها من اليمن بعد تفرُّق أهله سواء كان بسبب سيل العرم كما روى العرب أو لعلل أخرى.

وما لا سبيل إلى إنكاره أن النصرانية دخلت يثرب بعد السيد المسيح بقليل، كما رأيت فيما نقلناه عن دعوة الرسل في الحجاز ووجود قبر واحد منهم في جبل العقيق من ناحية المدينة على ما نقله الطبري (ص١٠٧).

وليس من المستبعد أن بين القبائل اليهودية المهاجرة من أورشليم قوم عرفوا النصرانية ودانوا بها، ولا سيما أولئك المتنصِّرين الذين سبق خروجهم فتح حاضرة بلادهم فالتجَئُوا إلى المُدن الواقعة ما وراء الأردن، فإنهم إذ رأوا ما حلَّ بالمدينة المقدَّسة من الدمار توغلوا في بلاد العرب، وسكنوا في جهاتها الداخلية.

والظاهر أن بعض تلك البدع المعروفة بالبدع اليهودية النصرانية sectes judéo-chrétiennes شاعت خصوصًا في نواحي العرب كشيع الناصريين (Nazaréens)، والإبيونيين Ebionites، والكسائيين (Elkésaïtes)، وقد ذكرهم الكتبة الكنسيون في القرون الأولى كأوسابيوس المؤرخ،[٢٠١] وأوريجانس المعلم،[٢٠٢] ويوستينوس الشهيد،[٢٠٣] والقديس إبيفانيوس[٢٠٤] في تاريخ الهرطقات، والقديس هيرونيموس في كتاب الأعلام،[٢٠٥] وتاودوريطس،[٢٠٦] وصاحب الفلسفيات[٢٠٧] وذكروا علاقاتهم مع المسيحيين.

---

[٢٠٠] راجع: كتاب الأغاني، ١٩: ٩٥؛ وروايات الأغاني، ٢: ١–٥؛ راجع أيضًا: مجلة الدروس اليهودية (Revue des Etudes Juives VII, 167 et X, 10).

[٢٠١] اطلب تاريخه (Eusébe, H. E., IV, 17 et 22).

[٢٠٢] اطلب رده على قلسوس (Origenes c. Celsum, II, 3 et Hom. III, in Gen. n 5).

[٢٠٣] اطلب مذكراته (Justini Dialog., c. IV, LXIII et LXXX).

[٢٠٤] كتاب الهرطقات (Epiphan., *Hæres*, XXIX, 7, 9, 15, et XXX, 15–19).

[٢٠٥] اطلب: Hieron: *De situ et nominibus*, Migne, XXIII, p. 888.

[٢٠٦] كتابه في خرافات الأمم (Theodore, *fobul.* I, et II, 18).

[٢٠٧] اطلب: Philosophoumena, VII, 12, IX, 13, X, 17 et 29.

واستشهدوا بما كان لديهم من الآثار النصرانية، وقد وجد الأثريون في زماننا بعض تلك الآثار المكتوبة بالحرف السرياني الفلسطيني ونشروها بينها فصول إنجليلية وطقوس ورُتَب بِيعيَّة.

وبعض هذه البدع التي انتشرت في جهات العرب بالَغ أصحابها في أضاليلهم فنَبَذ النصارى مزاعمهم وقَبَّحُوها «كالفطائريين Collyridiens» الذين كانوا يبالغون في عبادة مريم العذراء فيقدمون لها نوعًا من القرابين أخصها أقراص العجين والفطائر، وقد ذكرهم القديس إبيفانيوس في كتاب الهرطقات.[٢٠٨] ولعلَّ هؤلاء المبتدعين هم الذين دعاهم ابن بطريق[٢٠٩] بالمريمية والبربرانية، فأفادنا أنهم كانوا يقولون: «إن المسيح وأمه إلهان من دون الله»، وقد وصفهم بذلك ابن تيمية في كتابه الجواب الصحيح، ودعاهم بالمريمانيين أو المريمانية، وعلى هذا البناء شرح مفسرو القرآن قوله في سورة المائدة: ﴿اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ﴾ وقالوا في شرح قوله في سورة النساء: ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾؛ أي لا تقولوا الآلهة ثلاثة: الله والمسيح ومريم (كذا ورد في شرح البيضاوي والزمخشري وغيرهما).

وقام غيرهم في أنحاء العرب وتَطرَّفوا على عكس ذلك، فأنكروا على العذراء مريم دوامَها في البتولية فسمَّوهم لذلك بالمُعادين لمريم (Antidicomarianites) وذكرهم القديس إبيفانيوس في كتاب البدع.[٢١٠]

وروى القديس إيلاريوس في رسالته إلى قسطنطين الملك[٢١١] أن فرعًا من أشياع آريوس ظهروا في جهات العرب وهو يدعوهم أقاقيين باسم أقاقيوس زعيمهم كانوا يذهبون إلى أن السيد المسيح ليس هو ابن الله لزعمهم أن مَن قال ذلك جعل لله زوجة فخَلَطوا بين الولادة الجسدية والولادة الإلهية الروحية الأزلية المثبتة في الكتب المنزلة.

وقد ذكر حضرة الأب أنستاس الكرملي في إحدى المقالات المنشورة في المشرق (٦: ٦٠) بدعة أخرى وجد منها بقايا في العراق تُعرف بالداؤدة أو الداوُدِيِّين يعظِّم أصحابها داود النبي، ويُكَرِّمون السيد المسيح لكنهم يجعلونه دُون رُتبة داود.

---

[٢٠٨] اطلب: Epiphan., *Hæres.* 10.

[٢٠٩] راجع طبعتنا، ١٢٦.

[٢١٠] اطلب: Epiph., *Hæres.* 78.

[٢١١] اطلب: مجموعة مين (Migne, pp. LL., X).

فكل هذه البدع وغيرها التي شاعت خصوصًا بين القبائل اليهودية المُتَنَصِّرة الساكنة في حدود الشام والحجاز شوَّهت المعتقدات النصرانية الصحيحة في تلك البلاد.

وبقي الأمر على ذلك حتى قدمت إلى يثرب بطون من عرب اليمن كبني الحرث بن بهثة، وبني شَظِيَّة من غسان، ولا سيما بني الأوس والخزرج من الأزد الذين لحقوا بها بعد سَيْل العَرِم، لكنهم أقاموا فيها كما روى صاحب الأغاني (١٩: ٩٥) في جهد وضيق المعاش يرتزقون من الزراعة، وكانت الأموال لليهود حتى قام بينهم في أواسط القرن السادس للمسيح أحد شيوخهم وهو مالك بن عجلان، فأوفد إلى ملك في الشام من ملوك غسان يُدعى أبا جُبَيْلة، فاستنجده على يهود يثرب فأنجده، وأوقعَا بأشراف اليهود حتى ذلوا وصار الأمر إلى الأوس والخزرج مذ ذاك الحين إلى ظهور الإسلام، ومنهم كان الأنصار، وقد وقعت بين الأوس والخزرج حروب رواها صاحب الأغاني (٢: ١٦٧–١٧٠) لا حاجة إلى ذكرها.

أما دين الأوس والخزرج وبقية القبائل غير اليهودية التي كانت في يثرب وجهاتها، فيظهر أنه كان في أول أمرها الشرك، وأنها كانت تعبد المناة كما روى الشهرستاني في كتاب المِلَل والنِّحَل (ص٤٣٤، من طبعة لندن) لكنها عدلت بعد ذلك إلى النصرانية، ولنا على الأمر أدلة نرويها هنا عن مصادر موثوق بها.

قد رأيت في أول هذا الباب أن دعاة الدين المسيحي دخلوا بلاد الحجاز منذ قرون النصرانية الأولى، بل روى أول مؤرخي الإسلام أبو جرير الطبري تقليدًا عن أهل المدينة ذكروا فيه وجود قبر لأحد رسل السيد المسيح في جبل العقيق المجاور لبلدهم (راجع: ص١٠٧).

ومن الأدلة على نصرانية عرب المدينة أن الأوس والخزرج ينتسبون إلى الحارث بن ثعلبة، فيرتقي نسبهم إلى بني غَسَّان، ونصرانية غَسَّان ثابتة لا يشك فيها إلا من كابَر الحق كما رأيت، أفليس من الصواب أن يقال: إن الأوس والخزرج دانوا بديانة غسَّان، وزد على ذلك أن أبا جُبَيْلة الغساني ملك الشام المعروف بنصرانيته ما كان لينصر الأوس والخزرج على يهود المدينة كما مر بك لولا علمه أنهم يدينون بدينه.

ولنا على ذلك برهان آخر أقرب وأدل وهو الاسم المُطلق على أهل مدينة يثرب الذين كانوا يُدعون بأهل الكتاب. قال الشهرستاني في المِلَل والنِّحَل (ص١٦٢، من طبعة لندن): «الفرقتان المتقابلتان قبل المبعث هم أهل الكتاب والأميون والأمي من لا يعرف الكتابة، فكانت اليهود والنصارى بالمدينة والأميون بمكة.» فينتج عن قوله هذا أن أهل

المدينة كانوا منقسمين قسمين قسم يهودي كقريظة والنضير وقسم نصراني، وهم عرب الأوس والخزرج وقُضَاعة الذين كانوا يسكنون المدينة، بل ربما غلب اسم أهل الكتاب على النصارى كما أفاد القسطلاني، ويؤيد ذلك أن أحد زعماء الأوس يوم مُهاجَرة محمد إلى المدينة كان يُدعى «أبا عامر الرَّاهب»[٢١٢] وفي اسمه دليل على دينه، فهذا حارَب محمدًا وأنصاره[٢١٣] في أُحُد ثم خرج مع آله إلى ثقيف وهو الذي سماه رسول الإسلام بالفاسق.[٢١٤]

وجاء في التقويم القديم للكنيسة الكلدانية الذي نشره الخوري بطرس عزيز سنة ١٩٠٩م (ص٨) أن النساطرة «أقاموا مطروبوليطًا في يثرب، وأنه كان فيها ثلاث كنائس على اسم إبراهيم الخليل، وأيوب الصِّدِّيق، وموسى الكليم.» وهي رواية وجدناها في تقويم آخر مخطوط لأحد أهل الموصل والله أعلم بصحتها.

على أن وجود النصارى في المدينة قبل الإسلام[٢١٥] وفي أوائل ظهوره لمن الأمور التي لا يمكن نكرانها؛ لأن النصارى كانوا بلغوا أقاصي تخوم العرب، فما قولك بالبلاد المجاورة

---

[٢١٢] هو أبو عامر عبد عمرو بن صيفي بن زيد بن أمية، من بني عمرو بن عوف، ذَكَره ابن الأثير في أسد الغابة (٤: ٤٨٨)، وذكر في تاج العروس (٤: ١٧٣، له ابنة تُدْعَى شموسًا).

[٢١٣] خرَج أبو عامر بن صيفي، في أُحُد لمقاتلة محمد رسول الإسلام ومعه الأحابيش وعُبْدان أهل مكة (اطلب: الأغاني، ١٤: ١٧؛ وسيرة الرسول، لابن هشام، ٥٦١)، وجاء في مواسم الأدب للسيد جعفر البيتي (٢: ٢٠٢): «أبو عامر الأوسي (وابنه هو حنظلة غسيل الملائكة) تَرَهَّب في الجاهلية ولبس المسوح، فلما قدم ﷺ المدينة كان له معه خطب، وخرج في ٥٠ غلامًا إلى الشام ومات على النصرانية.»

ومن الأوس النصارى أبو قيس صيفي بن الأسلت (أُسْد الغابة، لابن الأثير، ٥: ٢٧٨): «وهو أحد بني وائل بن زيد، هرب إلى مكة وكان فيها مع قريش، وقيل: إن اسمه الحارث، وقيل: عبد الله ... والصحيح أنه لم يسلم، وقد كان قبل الهجرة يتأله.»

[٢١٤] راجع: سيرة الرسول، لابن هشام، ص٥٦١–٥٦٢؛ ثم (Sprenger: *Leben D. Mohammad* III, 32).

[٢١٥] ومما يدل على ذلك ما ذكره البخاري في صحيحه (٣: ٤١–٤٢) حيث روى أن نبيط الشام كانوا يأتون إلى المدينة ويتاجرون مع محمد بالحنطة والشعير والزيت والزبيب، وذكر عبد القادر البغدادي في خزانة الأدب (٢: ١٥٥) أن عمر بن الخطاب استعمل أبا زبيد الشاعر النصراني على صدقات قومه وأن عثمان بن عفان كان يقربه ويدني مجلسه، وكل ذلك في المدينة، ولما ماتت في المدينة أم الحارث بن عبد الله أحد سادات قريش، وكانت نصرانية، وجدوا الصليب في عنقها بعد موتها (الأغاني، ١: ٣٢؛ وتاريخ ابن عساكر، ٣: ٤٤٨) فوكلوا إلى أهل دينها القيام بجنازتها، ففعلوا.

لمالك الروم، وهذا ما أقر به المستشرقون في كتبهم الحديثة. قال أحد أئمتهم العلَّامة فِلْهاوزن:[٢١٦] «إن محمدًا وجد الطريق ممهدة في المدينة بواسطة اليهودية والنصرانية؛ لأن هناك كان يهود كثيرون ثم لوقوع المدينة على حدود الرومان واليونان وتحت نفوذ النصارى الآراميين.» ومثله قال هرتويغ درنبورغ الموسوي من أساتذة اللغات الشرقية في باريس المتوفي سنة ١٩١٠م: «كان للنصرانية تبعة متعددون في جزيرة العرب، فكانت مالكة على شمالها بدولتي الحيرة وغسان وعلى وسطها في المدينة وعلى جنوبها بأسقفيات اليمن.»[٢١٧]

وبقي النصارى في يثرب حتى بعد وفاة نبي الإسلام كما يدل عليه قول حسان بن ثابت في داليته التي رثى بها محمدًا (طبعة ليدن، Hirschfeld, p. 59):

فَرِحتْ نصارى يثربٍ ويهودُها ... لمَّا توارى في الضريح المُلْحَدِ

ولعل النصارى واليهود بقوا في المدينة إلى عهد عمر بن الخطاب الذي أخرج الفريقين من جزيرة العرب استنادًا إلى ما رُوي في الحديث: «لأُخْرِجَن النصارى واليهود من جزيرة العرب.»[٢١٨]

ولما أراد الوليد بن عبد الملك سنة ٨٨هـ (٧٠٧م) أن يجدِّد عمارة المسجد الكبير المعروف بمسجد النبي في المدينة كان بُناته من نصارى الروم والقبط كما روى المُؤرِّخون، وأخبر الطبري (٢: ١١٧) «أن ملك الروم بعث إليه بمائة عامل ومائة ألف مثقال ذهب وأربعين حملًا من الفسيفساء فبنوا المسجد وجعلوا طوله مائَتَيْ ذراع في مثلها.» وقيل: إن بعض المَدَنِيِّين لم يستحسنوا العمل؛ إذ رأوه شبيهًا بكنيسة.

---

[٢١٦] هذا قوله بالحرف في كتابه عن ملك العرب WELLHAUSEN: *Das arabische Reich und sein Sturz* (p, 4): “In Medina war der Boden für Mohammad vorbereitet durch das Judentum und Christentum; es gab dort viele Juden und die Stadt lag an der Grenze desienigen Teils von Arabien, der under griechisch–roemischem und christlich–aramaïschem Einfluss stand”.

[٢١٧] ودونك قوله: H. DERENBOURG: *Opuscules d’un Arabisant* (p. 16) “Le Christianisme comptait en Arabie de nombreux adherents; il dominait le Nord par les rois de Hira et de Ghassan, le Centre par Médine, le Sud par les évêchés du Yémen”.

[٢١٨] هو حديث مصنوع كما ترى ممَّا تقدم وممَّا أثبتناه في هذا الفصل عن النصرانية في المدينة، وما لا شك فيه أن النصارى في أيام بني أمية كانوا يسكنون المدينة ومكة، وجاء في الأغاني (٤: ١٥٦) أن

(١٠-٨) مكة

كما عُرفت النصرانية في يثرب في عهد الجاهلية كذلك نالت مكة نصيبًا من ذلك الدين، وها نحن ننقل ما رواه قدماء الكتبة إثباتًا لهذا الرأي.

قدَّمْنا في أول هذا الفصل ما أثبته المؤرخون اليونان والسريان والعرب عن الدعوة النصرانية في الحجاز إجمالًا، ومكة في الحجاز بل حاضرة الحجاز، فبديهي أن يقال: إن الدين المسيحي دخل أيضًا مكة كسواها من الجهات الحجازية، وإن قيل: إن مكة واقعة في أقاصي الحجاز، أجَبْنا أن كلام الكتبة يشمل كل جهات العرب حتى أقصاها. قال تاودوريطوس المؤرخ الكنسي[٢١٩] في القرن الخامس للمسيح عن القيصر فالنس: إنه لما اضطهد الكاثوليك فرَّقهم في كل البلاد حتى نَفَى منهم كثيرين في أقاصي تخوم العرب (per ultimos fines Arabiæ).

وأقدم ما رواه كتبة العرب صريحًا عن النصرانية في مكة ما ورد في أثناء تاريخ جُرْهم الثانية قالوا: إن جُرْهم استولوا بعد بني إسماعيل على الحجاز، وصارت إليهم سدانة بيت الحرم في مكة ومفاتيح الكعبة، أما زمن دولة بني جُرْهم فلم يتفق الكتبة في تعريفه، والعلماء الأوربيون مجمعون على أن جُرْهُم الثانية قامت قبل تاريخ الميلاد بقليل، ومن عجيب ما رواه مُؤَرِّخو العرب كابن الأثير، وابن خلدون، وأبي الفداء[٢٢٠] وغيرهم أن سادس ملوك جُرْهُم يُدْعى بِاسم نصراني وهو عبد المسيح بن باقية بن جُرْهُم.[٢٢١] فمنه يَتعيَّن أن النصرانية دخلت مكة قبل بني الأزد وتَغلُّب بني خزاعة أعني

مروان بن الحكم اتخذ كشُرَط لأهل المدينة مائتين من أهل أَيْلة النصارى، وروى أيضًا (٢: ١٢١ و١٢٧) دخول حنين الحيري المغني النصراني إلى مكة والمدينة وغناءه فيهما، وقد جاء في كتاب المقدسي أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (ص٩٥) قوله عن جزيرة العرب: «إن اليهود بها أكثر من النصارى.» وفيه دليل على وجود الملتين فيها حتى القرن الرابع للهجرة والعاشر للمسيح.

[٢١٩] راجع تاريخه في: أعمال آباء اليونان (Théodoret, H. E. I. IV, c. 15 P. G., t. 82 col. 1158).

[٢٢٠] اطلب: تاريخ عرب الجاهلية لكوسان دي برسفال (C. de Perceval: *Essai sur. l'Hist. des Arabes avant l'Islamisme* I, 199).

[٢٢١] في بعض روايات العرب ما يشير إلى ذلك كقول هشام في معجم البلدان لياقوت (٣: ٦٣٥): «جُرْهُم بن فائج وبنوه أنطقهم الله بالزبور فهم الثاني ممن تكلم بالعربية ولسانهم الزبور وكتابهم الزبور.» وروى الأزرقي في تاريخ مكة (ص٣٦٦) عن ابن عباس ما يشير إلى التبشير بالنصرانية في مكة منذ

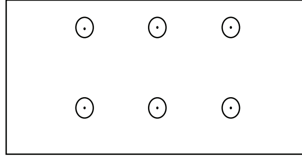
بعد موت السيد المسيح بزمن قليل، وهذا يوافق نصوص الكتبة المروية سابقًا عن تبشير رسل المسيح في الحجاز.

وفي كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني (١٣: ١٠٩) أن بيت الحرام كان له في عهد بني جرهم «خزانة، وهي بئر في بطنه فيه الحُلِي والمتاع الذي يُهدَى له، وهو يومئذ لأسقف عليه.» فقوله: «أسقف» يريد به حَبْر النصارى المعروف، وهو إثبات لما روى مُؤرِّخُو العرب عن نصرانية الملك الجُرْهُمي عبد المسيح بن باقية.

ولنا في كتب العرب دليل أعظم يثبت انتشار النصرانية في مكة قبل الإسلام وذلك في أقدم تواريخ مكة الذي عنوانه «كتاب أخبار مكة شرَّفها الله تعالى وما جاء فيها من الآثار تأليف «ابن الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقي» المطبوع في ليبسيك (éd. Wüstenfeld, 110–112) أنه كانت في دعائم الكعبة «صور الأنبياء وصور الشَّجَر وصور الملائكة، وصورة إبراهيم خليل الرحمن، وصورة عيسى ابن مريم.» ثم قال ما حرفه (ص١١١):

«فلما كان يوم فتح مكة دخل رسول الله ﷺ البيت فأرسل الفضلَ بن العباس بن عبد المطلب، فجاء بماء زمزم ثم أمر بثوب فبُلَّ بالماء وأمر بطمس تلك الصور فطُمست، قال: ووَضَع كفيه على صورة عيسى بن مريم وأمه عليهما السلام، وقال: امحوا جميع الصور إلا ما تحت يديَّ، فرفع يديه عن عيسى بن مريم وأُمِّه ... وحدَّثَني جدي قال: حدثنا دواد بن عبد الرحمن عن ابن جريج قال: سأل سليمان بن موسى الشامي عطاءَ بن أبي رباح وأنا أسمع: أدركتَ في البيت تمثال مريم وعيسى؟ قال: نعم أدركتُ فيها (كذا) تمثال (ص١١٢) مريم مزوَّقًا في حِجْرِها عيسى ابنها قاعدًا مزوَّقًا. وكانت في البيت أعمدة ست سواري وصَفَها كما نقطت في هذا التربيع.»

عهد رسل المسيح بقوله: «حج الحواريون فلما دخلوا الحرم مشوا تعظيمًا للحرم.» وفي التاريخ المذكور (ص٤٢–٤٣) أنه «لما هدموا الكعبة وجدوا في ركنها كتابة سريانية فسألوا عنها رجلًا من أهل اليمن وآخر من الرهبان.» ثم روى مضمونها بروايات مختلفة منها ما هو حرفه: «من يزرع خيرًا يحصد غبطة، ومن يزرع شرًّا يحصد ندامة، تعملون السيئات فلا تجزون الحسنات، أجل كما لا يجتنى من الشوك العنب.» وهذا كما ترى مأخوذ من كلام الإنجيل، وجاء هناك «أن هذه الكتابة وجدت أربعين عامًا قبل مبعث النبي في عام الفيل.»



«قال: وكان تمثال عيسى بن مريم، ومريم عليهما السلام في العمود الذي يلي الباب. قال ابن جُرَيج فقلتُ لعطاء: متى هلك؟ قال: في الحريق في عصر ابن الزُّبَير ... قال ابن جريج: ثم عاودتُ عطاء بعد حين فخطَّ لي ست سَوارٍ كما خططتُ ثم قال: تمثال عيسى وأمه عليهما السلام في الوسطى من اللاتي تلين الباب الذي يلينا إذا دخلنا ... (ص١١٣). أخبرني محمد بن يحيى عن الثقة عنده عن ابن إسحاق عن حكيم بن عَبَّاد بن حنيف وغيره من أهل العلم أن قريشًا كانت قد جعلَتْ في الكعبة صورًا فيها عيسى بن مريم ومريم عليهما السلام، قال ابن شهاب قالت أسماء بنت شقر: إن امرأة من غسان حجَّت في حاج العرب، فلمَّا رأت صورة مريم في الكعبة قالت: بأبي أنتِ وأمي إنك لعربية، فأمر رسول الله ﷺ أن يَمحُوا تلك الصور إلا ما كان من صورة عيسى ومريم.»

وما رواه هنا الأزرقي ذكره كَتبَة آخرون كالهَرَوي والبيهقي وابن العربي، وفيه شاهد جليل على تنصُّر قسم من قريش[٢٢٢] في مكة، ويؤيد ذلك أحمد بن واضح المعروف باليعقوبي في تاريخه (طبعة ليدن، ١: ٢٩٨) حيث قال: «أما من تنصَّر من أحياء العرب فقوم من قُرَيْش من بني أسد بن عبد العزى؛ منهم: عثمان بن الحويرث بن أسد، وورقة بن نوفل بن أسد.»

ولذلك ترى الشعراء النصارى في الجاهلية لم يأنفوا إذا حلفوا أن يجمعوا بين الصليب والكعبة قال عدي بن زيد (الأغاني، ٢: ٢٤):

سعى الأعداءُ لا يَأْلُون شرًّا　　عليك وربِّ مكةَ والصَّليبِ

---

[٢٢٢] منهم الخِرِّيت بن راشد الناجي، قال المسعودي في مروج الذهب (٤: ٤١٨) يذكر محاربة الخِرِّيت لعلي بن أبي طالب سنة ٣٨ للهجرة: «ومضى الحارث (والصواب الخريت) بن راشد الناجي في ثلاثمائة من الناس فارتدوا إلى دين النصرانية وهم من ولد سامة بن لؤي بن غالب عند أنفسهم.» فقوله: «ارتدوا إلى دين النصرانية» يدل على أنهم كانوا سابقًا نصارى (اطلب في الكتاب الصفحة ١٤٠، ما قال الطبري في ناجية، وهو ينسبهم إلى تميم، لكن أبا سعيد السمعاني في الأنساب (ص٢: ٥٥٠) والسيوطي في لب الألباب (ص٢٥٨) وغيرهما يجعلونهم من بني سامة القريشيين).

وقال الأعشى:

حلفتُ بثوبَيْ راهب الدير والتي　　بناها قُصَيٌّ والمضاضُ بن جُرهمِ

ولعلك ذلك أيضًا ما حمل نصارى العرب على أن يعظموا الكعبة في الجاهلية لما كانوا يَرَوْن فيها من الآثار النصرانية، فضلًا عن ذِكْر إبراهيم الخليل الذي كان يُكْرَم هناك مع ابنه إسماعيل، حيث جعل التقليد العربي ظهور ملاك الرَّب لأمه هاجر (تكوين، ٢١: ١٧) في هذا المكان، قال ياقوت في معجم البلدان (٤: ٦٢٢) «وليست أمَّة في الأرض إلا وهم يعظمون البيت ... وإنه من بناء إبراهيم حتى اليهود والنصارى.»[٢٢٣]

وممَّا يَدلُّ على آثار النصرانية في مكة أو قربها المكان المعروف بموقف النصراني[٢٢٤] ذكره في تاج العروس، وكذلك مقبرة النصارى، قال الأزرقي في أخبار مكة (ص٥٠١): «مقبرة النصارى دُبر المقلع على طريق بئر عنبسة بذي طُوى.» والمقلع «الجبل الذي بأسفل مكة على يمين الخارج إلى المدينة». ونظن أن «مسجد مريم» الذي ذكره المقدسي في جغرافيته (ص٧٧) بجوار مكة دعي باسم مريم العذراء لأثر ديني كان هناك في عهد الجاهلية.

ومما يثبت نفوذ النصرانية في مكة على عهد الجاهلية نهضة الحنيفية هناك، فإن العلماء الذين درسوا تعاليم تلك الشيعة وما بقي من أخبار أصحابها في تواريخ العرب

[٢٢٣] زد على ما روينا ما ذكره ياقوت في معجم البلدان في وصف مكة قال: «من سائر البلدان تحج إليها ملوك حمير وكندة وغسان ولخم.» وذكر ابن فقيه في مختصر كتاب البلدان (ص١٩) أن أحد ملوك الحيرة بعد تَنصُّره حج إلى الكعبة.

[٢٢٤] قاله في التاج (٣: ١٤٠) في كلامه عن بطن مُحسِّر قال: «هو واد قُرْب مزدلفة بين عرفات ومنى، وفي كتب المناسك هو وادي النار؛ وقيل لأنه موقف النصارى، وأنشد عمر رضي الله عنه حين أفاض من عرفة إلى مزدلفة وكان في بطن مُحَسِّر:

إليك يعدو قلقًا وضِينا　　مخالفًا دين النصارى دِينَا

أما «مقبرة النصارى» المذكورة هناك فهي التي دعاها عبد الله بن الزبير (الأغاني، ١٣: ٤٠) «بمقابر المشركين»، وقرب مكة أيضًا «ذات حبيس» اسم مكان جاء ذكره في الحديث (تاج العروس، ٤: ١٣٥)، ولعله سمي بذلك لحبيس من رهبان النصارى نسك هناك.

كـ «سبرنغر Sprenger»،[٢٢٥] و«وِلْهَوْزن (Wellhausen)»،[٢٢٦] و«كوسان دي برسفال (C. de Perceval)»،[٢٢٧] وغيرهم، فكانت نتيجة أبحاثهم أن الحنيفية في الجاهلية كانت شيعة نصرانية[٢٢٨] خالطتها بعض تعاليم من غيرها، وربما أراد بها شعراء الجاهلية والكتبة القدماء النصرانية بعينها، قال شاعر هذيل (Hudheil 18: 11):

كـأن تَـوالـيَـه بـالـمـلا نصارى يُساقُون لاقَوا حنيفا

أراد بالحنيف[٢٢٩] الرَّاهب يذهب النصارى لملاقاته، وروى صاحب الأغاني (ك١٦، ص٤٥) وياقوت في معجم البلدان (٢: ٥١) لأيمن بن خريم[٢٣٠] قوله في وصف الخمرة:

وصَـهْبـاءَ جرجانيةٍ لم يَطُفْ بها حنيفٌ ولم تَنغر[٢٣١] بها ساعةً قِدْرُ
ولم يشهد القسُّ المُهَيْمن نارَها طَرُوفًا ولا صلَّى[٢٣٢] على طَبْخها حَبرُ

أراد بالخمر قُرْبان النصارى، والحَنيف هنا بلا شك الراهب بدليل ذِكْره في البيت الثاني القس والحَبْر، ولعلَّ أبا ذؤيب قصد أيضًا الراهب حيث قال مشيرًا إلى أصوام الرُّهْبان (تاج العروس، ٣: ٣٣٩):

أقـامَـتْ بـه كـمُـقَـام الـحَـنـيـــ ـفِ شهرَي جُمادى وشهرَي صَفَرْ

---

[٢٢٥] اطلب كتابه: Sprenger: *Das Leben U. D. Lehre des Mohammad*.

[٢٢٦] اطلب: Wellhausen: *Skizze u. Vorarbeiten*, III, 87 seq..

[٢٢٧] كتابه: Essai sur l'Hist. des Arabes, I, 321.

[٢٢٨] ورد في شعر جرير ما يؤيد ذلك، حيث يهجو بني دِرْهم أصهار الفرزدق (اطلب: نقائض جرير والفرزدق، ص٥٩٥):

وحـالـفـتُـمُ لِـلُّـؤمِ يـا آلَ درهـمٍ حِلَافَ النَّصارى دِين من يَتحَنَّفَا

[٢٢٩] وقد جاء الحنيف بمعنى النصراني، جاء في العقد الفريد لابن عبد ربه في وصف الغبيط (٣: ٨٨)، «أنَ عتيبة قال لبسطام بن قيس سيد بني بكر: استأسر لي … فناداه بسطام: إن كَرَّرتَ فأنا حنيف، وكان بسطام نصرانيًّا.»

[٢٣٠] هو من الصحابيين، ذكره ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣: ١٨٦–١٨٩)، وروى بيته الأول مُصحَّفًا «لم يَطُفْ بها جَنيفٌ ولم يُسفِر بها ساعد قدر.»

[٢٣١] روى ياقوت: ولم ينفر.

[٢٣٢] في ياقوت: ولم يحصر (يحضر!)

ويُؤيِّد رأي هؤلاء الكتبة في نصرانية الحُنَفاء أن معظم الذين ورد ذكرهم في التاريخ يقال عنهم: إنهم تنصَّروا، وأشهرهم ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزَّى، وكان ابن عم خديجة زوجة رسول الإسلام الأولى، وقيل: بل كان عمَّها أخا أبيها، قال ابن هشام في سيرة الرسول (éd. Wüstenfeld, p. 153): «وكان ورقة قد تنصَّر، وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والإنجيل.»[٢٣٣] وقال الإسحاقي في تاريخه الأكبر:[٢٣٤] «كان ورقة امرأ قد تنصَّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العربي فكتب بالعربية من الإنجيل ما شاء أن يكتب.»

ومنهم عُبَيد الله بن جَحش بن رئاب،[٢٣٥] قال ابن هشام (ص١٤٣-١٤٤): «هاجَر عُبَيد الله مع المسلمين إلى الحبشة ومعه امرأته أم حبيبة ابنة أبي سفيان.» مسلمة فلمَّا قَدِمَاها تنصرَّ وفارَق الإسلام حتى هلك هنالك نصرانيًّا، قال ابن إسحاق: فحدثني محمد بن جعفر بن الزبير قال: كان عبيد الله بن جحش حين تَنصَّر يمرُّ بأصحاب رسول الله ﷺ وهم هنالك في أرض الحبشة فيقول: فقَّحْنَا وصَأْصَأْتُم؛ أي أَبْصَرْنَا وأنتم تَلتمسون البصر ولم تُبْصِروا بعدُ.»

ومنهم عثمان بن الحويرث[٢٣٦] الذي ذكر نصرانيته اليعقوبي، وروى ابن هشام (ص١٤٤) عن ابن إسحاق قوله:[٢٣٧] «وأما عثمان بن الحويرث فقدم على قيصر وتنصَّر وحَسُنَت منزلته عنده.» كانت وفاته في الشام.

ومنهم زيد بن عمرو بن نُفَيْل الذي ذَكر ابن هشام (ص١٤٨) وصاحب الأغاني تَردُّدَه في دينه واجتماعه بأحبار النصارى ورهبانهم بعد اعتزاله الأوثان.

---

[٢٣٣] اطلب كتابنا: شعراء النصرانية، ص٦١٦.

[٢٣٤] في نسخة مكتبة باريس (Mss. Arab. de Paris, n° 735 ff. 88).

[٢٣٥] قال الطبري في تاريخه (٣: ٢٤٤٥): «كان عُبَيد الله بن جحش هاجَر بأم حبيبة معه (وهي ابنة أبي سفيان) إلى أرض الحبشة في الهجرة الثانية فتَنصَّر وارتد عن الإسلام.» وابنته زينت بنت جحش كانت زوجة زيد بن حارثة مولى محمد نبي الإسلام وكان نصرانيًّا ثم تزوجها محمد في حياة زوجها.

[٢٣٦] كان من قريش، وذكر الفاكهي في كتابه المنتقى في أخبار أم القرى (ص١٤٣-١٤٤) أن قيصرًا ملك الروم ملكه على قريش بمكة بكتاب مختوم في أسفله بالذهب، وقال ياقوت في معجم البلدان (١: ١٢٨)، وكان عثمان بن الحويرث هَجَّاءً لقريش عالمًا بمثالبها.

[٢٣٧] اطلب: مقالتنا المعنونة «الأحداث الكنعانية في شعراء الجاهلية»، ص٢٠-٢١.

ومنهم أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت الذي ترى ديوانه مشحونًا بتعاليم النصارى مع منقولات متعددة عن الأسفار المُقدَّسَة كسِفْر الخليقة، وخلقة آدم، وسقوط الأبوين الأولين بإغراء الحَيَّة والطوفان، وذِكْر الأنبياء والملائكة والسيد المسيح ومريم العذراء.[٢٣٨]

وكان في مكة من النصارى غير هؤلاء الحُنَفاء منهم أبو قيس صرمة بن أبي أنس[٢٣٩] الذي روى عنه ابن الأثير في أُسْد الغابة (٣: ١٨) أنه «كان ترَّهب في الجاهلية ولَبِس المسوح.»

ومنهم زيد بن حارثة[٢٤٠] مولى رسول المسلمين كان نصرانيًّا ثم أسلم.

---

[٢٣٨] اطلب مقالتنا: «الأحداث الكتابية والتشابيه النصرانية في شعراء الجاهلية»، ص٢٠-٢١.

[٢٣٩] كان من بني النجار، اختلفوا في اسمه، فقالوا: صرمة بن أنس وصرمة بن قيس وصرمة بن أبي أنس، ومن أقواله الدالة على نصرانيته:

أقولُ إذا صَلَّيتُ في كل بِيعةٍ　　حَنانَيكَ لا تُظْهِر عليَّ الأعادِيَا

ومن حِكَمه قوله:

يقولُ أبو قيس وأصبَحَ ناصحًا　　ألا ما استطعتم مِن وصاتي فافْعَلُوا
أوصيكمُ بالله والبِرِّ والتُّقَى　　وأعراضِكم والبرُّ بالله أوَّلُ
وإنْ قومُكم سادوا فلا تَحسدُنَّهم　　وإن كنتمُ أهلَ الرئاسة فاعْدِلوا

وقال في نصرانيته عنه تعالى:

ولهُ شمَّسَ النصارى وقامَوا　　كل عيد له وكل احتفال

[٢٤٠] كان هذا نصرانيًّا من بني كلب أسره غزاة من العرب فباعوه في عكاظ واشترته خديجة وأهدته زوجها محمدًا رسول الإسلام فأخذ زوجته زينب.

ومن موالي محمد النصارى شُقْران وكان عبدًا حبشيًّا لعبد الرحمن بن عوف فأهداه نبيَّ المسلمين (أُسْد الغابة، لابن الأثير، ٣: ٢) حضَر موت محمد ومات بالمدينة.

ومنهم عداس، قال ابن الأثير (٣: ٢٨٩): «كان مولى شيبة بن ربيعة بن عبد شمس من أهل نينوى الموصل، كان نصرانيًّا.»

وكذلك ذكر صاحب الأغاني (١٥: ٢) نصرانية عُتْبَة بن أبي لهب صهر نبي الإسلام.[٢٤١]

وكان أبو سفيان زعيم مكة صهرًا لبِشْر أخي أُكَيْدر صاحب دَوْمة الجندل، وكان كِلاهما نصرانيًّا، وبِشْر هو الذي علَّم أهل مكة الخط العربي.

وممَّا يفيد تاريخ النصرانية في مكة ذكر المُعامَلات التجارية التي كانت متواصلة بين أهلها ونصارى قبائل العرب الوَارِدِين إليها، ونصارى الحبشة وغيرهم، فإن اختلاط أولئك النصارى بأهل مكة أثَّر فيهم تأثيرًا عظيمًا واجتذب كثيرين منهم إلى الدين المسيحي، ومما يُؤيِّد ذلك أن أبا عامر الراهب الذي حارَب رسول الإسلام في مكة وأُحُد قد لَقي المسلمين «في الأحابيش وعُبْدان أهل مكة» كما روى ابن هشام في سيرة الرسول (ص٥٦١-٥٦٢).

وفي كتاب[٢٤٢] الخراج (ed. Th. Juynboll, 1896, p. 53) ما نقله الكاتب عن أبي الحويرث قال: «ضرب الرسول ﷺ على نصرانِي بمكة دينارًا كل سنة.» وفي هذا دليل على بقاء النصرانية في مكة في أيام نبي الإسلام.

ولم تَخْلُ بقية مدن الحجاز من آثار النصرانية كالطائف على مسيرة يوم من مكة،[٢٤٣] ومنها كان أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت الشاعر النصراني ينتسب إلى ثقيف أهل

ومن موالي محمد النصارى أيضًا أبو لقيط، قال ابن الأثير (٥: ٢٨٦): «كان حبشيًّا، وقيل: كان نوبيًّا من موالي النبي ﷺ بقي إلى أيام عمر بن الخطاب.»

[٢٤١] قال أبو الفرج في الأغاني (١٥: ٢): «كان النبي ﷺ زَوَّج عُتْبَةَ إحدى بناته، فلما بعثه الله تعالى نبيًّا أقسمَتْ عليه أم جميل أن يطلقها، فجاء إلى النبي ﷺ فوقف عليه فقال: يا محمد، اشْهَد أني نصراني قد كفرتُ بربك وطلَّقتُ ابنتك، فدعا عليه رسول الله ﷺ ... فبعث الله عز وجل عليه أسدًا فافترسه» (كذا).

وذكر السيد جعفر البيتي في مواسم الأدب (٢: ٢٠٢) عُتْبة آخر نصرانيًّا وهو عتبة بن أبي ربيعة قال «لقي النبي ﷺ بالطائف لما خرج يدعوهم، قُتِل يوم بدر على النصرانية.»

ومن نصارى قريش النضر بن الحارث بن كلدة الذي أمر بقتله محمد، وكان النَّضر ابنَ خالَتِه معاديًا له، ثم ندم على قتله بعد أن سمع عتاب أخته قتيلة (راجع الأغاني، ١: ١٠)، وأبوه الحارث هو المعروف بطبيب العرب، وكان كلاهما نصرانيًّا، وكان في مكة في عهده طبيب نصراني آخر، وهو أبو داود عبد الرحمن، مات نصرانيًّا.

[٢٤٢] كتاب الخراج، هو كتاب الإمام أبي يوسف يعقوب وضعه لهارون الرشيد.

[٢٤٣] وكانت ثقيف تسكن الطائف ومنها كان أبو رِغَال الذي تَقدَّم الحبش وصار دليلهم لمحاربة مكة.

الطائف.[٢٤٤] وكعكاظ التي كان يجتمع في سُوقها العرب فيتناشدون ويَتفاخرون، وهناك خَطَب قس بن ساعدة أسقف نجران كما رَوَوْا، وفي التقويم النسطوري (ص٨) الذي أَشرْنَا إليه سابقًا فطبعه حضرة الخوري بطرس عزيز سنة ١٩٠٩م أن النساطرة كان لهم كنيسة في عكاظ مع جماعة من أهل دينهم والله أعلم.

وإن تَوغَّلتَ في قلب جزيرة العرب ورَقَيتَ ما يرتفع في أوساطها من التلال والمشارف لقيتَ بلاد نجد التي أفاض شعراء العرب في مدحها لطيب هوائها وجودة تربتها كقول بعضهم:

فيا حبَّذا نجدٌ وطِيب ترابه إذا هَضَبَتْه بالعشيِّ هواضبُهْ
وريحُ صَبا نجدٍ إذا ما تنسَّمت ضُحًى أو سَرَتْ جنْحَ الظلام جنائبُهْ
بأَجْرعَ ممراعٍ كأنَّ رياحَهُ سحابٌ من الكافور، والمسكُ شائبُهْ
وأشهد لا أنساه ما عشتُ ساعةً وما انجاب ليلٌ عن نهار يعاقِبُهْ

ففي نجد وجِهَاته وَجَدَت النصرانية لدعوتها قلوبًا تَقبَّلَتْها بالترحاب، فهناك كانت عدة قبائل عُرفت بتَدَيُّنها بدين السيد المسيح كطيِّئ والسكون والسكاسك وكندة.

وقد مرَّ بك أن ثمَّ كانت أديرة لرهبان النصارى كدَيْر سَعْد في بلاد غَطَفان، ودَيْر عمرو في جبال طيئ قرب جو من ديارهم.

أما نصرانية قبائل نَجْد فلنا عليها عدة شواهد، قال السائح الإنجليزي بَلْغراف في كتاب رحلته إلى جزيرة العرب (ج١، ص٦١) عن بلاد الجَوْف: «إن أهل الجَوْف لا يعرفون عن أصلهم وتاريخهم إلا القليل لكن التقاليد المحلية تزعم أن تلك البلاد كانت قبلًا تَدِين بالنصرانية، وأن أنصار النبي؛ كعَلِي وخالد بن الوليد اضطرُّوا إلى استعمال أقطع الأدلة أي السيف لِيُدْخِلوا أهلها في الإسلام.»[٢٤٥]

---

[٢٤٤] راجع ترجمته في: شعراء النصرانية، ٢١٩–٢٢٩.

[٢٤٥] هذا نصُّه بالحرف: "Les Djawfites savent peu de chose sur leur origine et leur histoire; les anciennes traditions locales prétendent pourtant que le pays était chrétien, et que pour le convertir à l'islamisme, les sectateurs du prophéte, Ali et Khalid–ebn–Walid durent employer le plus tranchant de tous les arguments, le glaive." (Palgrave: *Voyage dans l'Arabie Centrale.* I, p. 61).

وقال في محل آخر (ص١١١): «قبل الإسلام كانت قبائل العرب في وسط الجزيرة راتعة في بحبوحة السلام الذي فقدته بعد بذلك، وكان أكثرُها يدين بالنصرانية، بل يرجح أنها حَفِظَت دينها بعد الإسلام إلى خروج بني أمية عليها.»[٢٤٦]

وخصَّ بالذكر تلك القبائل المُتنَصِّرة فقال (ص٨٤): إن عرب نجد قبل الإسلام كانوا من تغلب وتنوخ وكندة وطيئ، وقد لقي ذاك السائح هناك عدة آثار وأبنية سمع الأهلين ينسبونها إلى قدماء النصارى من جملتها بِير شقيق الذي نزل بقربه.

وليس كلام هذا الرَّحَّالة حديث خرافة، بل تؤيد روايته الآثار القديمة وتاريخ قبائل نَجْد، وكانت أعظم تلك القبائل كندة ومنها السكون والسكاسك الذين ذكر تَنصُّرَهم ابن خلدون في تاريخه (٢: ٢٤٩)، وكان لكندة بيت ملك فتولَّوا على بني معد في أنحاء نجد وأوَّلُهم حُجر آكل المُرار ثم خلف حُجرًا بَنُوه من بعده ومنهم كان امرؤ القيس الشاعر.

أما نصرانية كندة فلا شك فيها، وقد أثبتنا ذلك في مقالة خصوصية، حيث رَدَدْنا على مزاعم حضرة الأب أنستاس الكرملي في مُزْدِكِيَّة امرئ القيس (راجع: المشرق، ٨، ١٩٠٥م، ص٩٩٨–١٠٠٦)، وقد ذكرنا الكتابة التي وضعتها على صدر ديرها هند الكبرى بنت الحارث الكندية حيث تفتخر بكونها «أَمَة المسيح وأم عبده (أي عمرو بن هند) وبنت عبَيده» (أي الحارث بن عمرو بن حجر ملوك كندة)، وروينا أيضًا النصوص اليونانية التي نقلها فوتيوس في مكتبته (Migne, P. G. III, 46–47) عن المعاهدات التي أبرمها ملوك الروم مع ملوك كندة في أيام أنسطاس، ويوستينوس، ويستنيان ولولا نصرانية كندة لما تسامحوا بذلك على الإطلاق، ويؤيد قولنا في دين كندة عبد المسيح الكندي في رسالته إلى الهاشمي في أيام المأمون، وقد ذكر هذه الرسالة أبو الريحان البيروني في الآثار الباقية (ص٢٠٥، من طبعة ليبسيك)، قال الكندي (ص١٢٤، من طبعة لندن، سنة ١٨٨٠م):

«ولسنا نحب أن نفتخر بما لنا من السبق والنسق في العربية وشرف الآباء فيها إذ كان ذلك معروفًا غير مجهول لآبائنا وأجدادنا، فقد علم كل ذي علم ولب كيف كانت

[٢٤٦] وهذا قوله: “Les tribus du centre de la Péninsule jouissaient d’un calme et d’une prospérité qui plus tard leurs furent étrangéres. La plupart avaient embrassé la foi chré-tienne et probablement la professaient encore à l’époque ou ells repoussérent l’invasion des Ommiades” (Id. I, 111).

ملوك كندة الذين هم ولدونا، وما كان لهم من الشرف على سائر العرب لكننا نقول ما قاله رسول الحق بولس: ألا من يفتخر فليفتخر بالله والعمل الصالح فإنه غاية الفخر والشرف، فليس لنا اليوم فخر نفتخر به إلا دين النصرانية الذي هو المعرفة بالله وبه نهتدي إلى العمل الصالح، ونعرف الله حق معرفته ونتقرب إليه وهو الباب المؤدي إلى الحياة والنجاة من نار جهنم.»

وقال في محل آخر (ص١٠٣) يشير إلى دين كندة أجداده:

«ولولا أن الديانة عندي أشرف من الحسب الجسداني الزائل لكان يسعني السكوت ... لكني رجل نصراني ولي في هذه الديانة سابقة هي حسبي ونسبي وشرفي الذي أتشرف به وأفتخر بمكاني منه، وأرغب إلى الله في إماتتي على هذه الديانة وحشري عليها، فإنه غاية أملي ورجائي الذي أرجو به الخلاص من العذاب في نار جهنم والدخول إلى ملكوت السماء والخلود فيها بفضله وإحسانه وسعة رحمته.»

فصحَّ إذن أن بلاد نجد لم تَشذَّ عن سواها في قبول الدين النصراني فشاع فيها كما شاع في بقية أنحاء العرب، وبه نختم هذا الفصل الذي تَحرَّيْنا فيه تاريخ النصرانية في جميع جهات العرب.

الفصل الثاني

في قبائل العرب المُتَنَصِّرة

هذا فصل نجعله كتتمَّة الفصل السابق فنسرد فيه على سياق حروف المعجم أسماء القبائل المُتَنَصِّرة[1] في عهد الجاهليَّة مع الأدلَة على نصرانيَتها.

(١) «الأزد» اسم عام يشمل القبائل الحِمْيَرِيَة نسبة إلى الأَزْد بن غوث بن نبت بن مالك بن كهلان بن سبأ، ونَصرانِيَّتهم مُثْبتة بنصرانيَّة القبائل المتفرعة منهم، وهي القبائل التي خرجت بعد انفجار سد مأرب فسكنت في أنحاء الجزيرة وسيأتي ذكرها.

(٢) «امرؤ القيس» بنو امرئ القيس من بني زيد مناة بن تميم، وممن صرَح بنصرانيَتهم ابن واضح المعروف باليعقوبي في تاريخه (ج١، ص٢٩٨ ed. Houtsma)، قال: «وتنصَّر من بني تميم بنو امرئ القيس بن زيد مناة.» وإلى نصرانية بني امرئ القيس يشير ذو الرمة الشاعر حيث يقول:

ولكنَّ أهلَ امرئ القيس مَعْشرٌ   يحلُّ لهم أكلُ الخنازير والخمرُ

[1] مما لا يُنْكَر أن النصرانية كانت غلبت على الحيرة ملوك المناذرة منذ القرن الرابع، وقد أثرت نصرانيتها في كثير من قبائل العرب التي كانت تسكنها أو تتردد إليها، قال ياقوت في معجم البلدان (٢: ٢٧٨): «صار في الحيرة من جميع القبائل من مَذْحِج وحمير وطيئ وكلب وتميم، ونزل كثير من تنوخ الأنبار والحيرة إلى طف الفرات وغربيه … ثم كره كثير من تنوخ المقام في العراق وأن يدينوا لأردشير فلحقوا بالشام وانضموا إلى ما هناك من قُضاعة، وأهل الحيرة ثلاثة أصناف: فثلث تنوخ وهم أصحاب المظال ينزلون غربي الفرات فيما بين الحيرة والأنبار فما فوقه، والثلث الثاني العباد وهم الذين سكنوا الحيرة وتعبدوا لملكها، والثلث الثالث الأحلاف الذين لحقوا بالحيرة.»

(٣) «الأوس» روينا في الباب العاشر من فصلنا الأوَّل «ص١٠٨» أقوال الكتبة في نصرانية الأوس[٢] بعد احتلالهم في مدينة يثرب وأنهم المشار إليهم بأهل الكتاب أي النصارى.

(٤) «إياد»[٣] من أقدم القبائل العربية المُتَنَصِّرة، نقل السيوطي في المُزْهِر (١: ١٠٥) قول أبي نصر الفارابي في القبائل العربية التي لم يؤخذ عنها اللسان العربي لفساد لحق بلغتها: «ولم يُؤْخَذ — اللسان العربي — لا من قُضاعة وغسَّان وإياد لمجاورتهم أهل الشام وأكثرهم نصارى يقرَءُون بالعبرانية»، يريد اللغة الآرامية التي شاعت بين العبرانيين بعد جلاء بابل، وقال البكري في معجم ما استعجم (ص٤٨ ed. Wüstenfeld):

---

[٢] من زعماء بني أوس النصارى عبد الحرث بن عبد المسيح الأوسي الذي قتل يوم مرج راهط (الأغاني، ٢٠: ١٢٨)، وقد ذكر ياقوت في معجم البلدان (٤: ٤٦٣) الأوس والخزرج وحلولهم المدينة بعد مقاتلتهم لليهود فيها بمساعدة مالك بن عجلان وأبي جبلة الغساني، وفي هذا الخبر ما يشعر بنصرانية القبيلتين ولولا دينهما لما قدم أبو جبلة للدفاع عنهما.

[٣] مما يثبت أيضًا نصرانية إياد عدة أديرة بنوها في ديارهم، وذكرها ياقوت في معجم البلدان كدير السَّوَا (٢: ٦٧٢)، ودير قرة (٢: ٦٧٥) وغيرهما، وقد ذكر الفاسي في شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام (ص١٣٤ و١٣٧ éd. Wustenfeld) ولاية إياد بن نزار للكعبة بعد جُرْهُم، وقبل قريش، وذكر هناك أحد أمرائهم دعاه وكيع بن سلمة (قال): كان من الصالحين بنى صرحًا وجعل فيه سلمًا كان يرقاه ليناجي الله تبارك وتعالى، وإليه أشار شاعر من بني إياد بشر بن الحجر قال:

ونحن إيادٌ عُبَّادُ الإلهِ ورهطُ مُناجيه في السُّلَّمِ
ونحن ولاةُ حِجابِ العتيقِ زمان النُّخاع على جُرْهُمِ

(قال) وقامت نائحة وكيع على أبي قبيس فقالت:

لا هلكَ الوكيعُ أخو إيادٍ سلامُ المُرسَلينَ على وكيعِ
مُناجِي اللهِ ماتَ فلا خلودٌ وكلُّ شريفِ قومٍ في وضوعِ

ففي هذا الخبر ما يشعر بنصرانية إياد، ولعل وكيعًا أحد الرهبان المتنسكين في الصوامع، ومن ظريف ما رواه ياقوت في معجم البلدان (١: ٨٦٩) عن أحد بني إياد الذي وقع أسيرًا في أيدي المسلمين، فعرض عليه هشام الخليفة الأموي أن يجحد النصرانية فأبى قائلًا: ما كنت لأرجع عن ديني، فأقبل به هشام وأدبر وهو يأبى فأمر بضرب عنقه، وكان في طريقه دخل كنيستي الرُّهَا فصلى فيهما.

«دانت إياد لغسان وتَنصَّرُوا.» وقال ابن دريد في الاشتقاق (ص١٠٥، id): «إياد قدم خروجهم من اليمن، فصاروا إلى السواد فألَحَت عليهم الفرس في الغارة فدخلوا الروم فَتنَصَّروا.»

(٥) «بكر» بن وائل قبيلة كبيرة أخت تغلب وقرينتها في القوة والدين كانت ساكنة في الجزيرة وإليها نُسبت ديار بكر، أمَا نصرانِيَّتها فثابتة من كل الوجوه لا يُشك فيها، قال صاحب سيرة الرسول المعروفة بالحلبية (٣: ٩٥): «من قبائل العرب المُتنَصِّرة؛ بكر، وتغلب، ولخم، وبَهْراء، وجذام.»

(٦) «بَلِي» بَلِيُّ بن عمرو إخوة بَهْراء قُضاعة مثلهم، كانوا نصارى وحارَبوا مع بَهْراء ونصارى العرب جيوش المسلمين كما ذكر الطبري (١: ٢٤٧٤).

(٧) «بَهْراء»[٤] فرع من قُضاعة اشتهروا بالنصرانيَة كما رأيت آنفًا بنص السيرة الحلبية،[٥] وقال اليعقوبي في تاريخه (١: ٢٩٨): «تَنصَّر ... من ربيعة تغلب ومن اليمن طيئ، ومَذْحِج، والبَهْراء، وسليح، وتنوخ، وغسَّان، ولخم.» وجاء في كتاب البلدان للإصطخري (طبعة ليدن، ص١٤، ed. de Goeje): «أن بعض العرب تَنصَّر ودان بدين الروم؛ مثل تغلب من ربيعة بأرض الجزيرة، وغَسَّان وبَهْراء وتنوخ من اليمن بأرض الشام.» وجاء في ترجمة أبي العلاء المَعَرِّي لابن خلكان: «تَنُوخ إحدى القبائل الثلاث التي هي نصارى العرب؛ وهم بَهْراء وتنوخ وتغلب.» ومثله الفيروزآبادي حيث قال: «كانت النصرانية في ربيعة وقُضاعة وبَهْراء وتنوخ وتغلب وبعض طيئ»، وسبق الطبري (ج١، ٢٠٨١) كل هؤلاء، فجعل بَهْراء في عداد نصارى العرب أنصار الروم، فترى أن نصرانية بَهْراء شائعة في التاريخ.

---

[٤] شهد على نصرانيتها أيضًا ابن حوقل في المسالك والممالك (ص١٨)، قال: «إنَ بعضهم؛ (أي بعض العرب) تنصَّر ودان بدين النصرانية مثل تَغْلِب من ربيعة بأرض الجزيرة وغَسَّان وبَهْراء وتَنُوخ من اليمن بأرض الشام.»

[٥] اطلب ما ورد عن نصرانية قبيلة بَهْراء في مجموعة مكتبنا الشرقي، ج١، ص٢٧٢ (MFO, I. 272)؛ وكتاب العلامة رينيه دوسو عن النصيريين (Dussaud: Hist. *et Religion des Nosairis*, p. 68, 95 etc)، ومما ورد في المسالك والممالك لابن حوقل (ص١٨): «وبعض العرب تَنصَّر ودانَ بدين النصرانية مثل تَغلب في ربيعة بأرض الجزيرة، وغسان، وبَهْراء، وتنوخ بأرض الشام.»

(٨) «تغلب» بن وائل[٦] هي القبيلة المعدية الشهيرة وشقيقة بكر، كانت بلغت في الجاهلية مقامًا قَلَّما أدركَتْه قبيلة عربية أخرى، قال عمرو الشيباني يصف شرف تغلب: «كانت تغلب بن وائل من أشد الناس في الجاهلية، وقالوا: لو أبطأ الإسلام قليلًا لأكَلَت بنو تغلب الناس.»[٧] وكانت تغلب مع شدتها عريقة في الدين، قال عمرو بن كلثوم التغلبي في معلقته يفتخر بشرف ودين نساء قومه:

ظَعائنُ من بني جُشم بن بكر   جَمَعْنَ بميسم شرفًا ودينًا

أمَا هذا الدين فكان دين النصرانيَة كما هو مشهور، والشواهد على ذلك لا تُحصى كما رأيت آنفًا من نصوص اليعقوبي والإصطخري والفيروزآبادي وابن خلكان، وزِدْ عليها قول ابن حوقل في المسالك والممالك (ص١٨): «نزلوا — أي العرب — على خفارة فارس والروم حتى إن بعضهم تَنصَّر ودان بدين النصرانية؛ مثل تغلب من ربيعة بأرض الجزيرة، وغَسَّان، وبَهْراء، وتنوخ من اليمن بأرض الشام.» وتجد في الباب الثامن من الفصل السابق شواهد أخرى تؤيد الأمر ولا تدع ريبًا لمستريب، قال جابر بن حُنَيٍّ يَرُدُّ على بَهْراء (اطلب: شعراء النصرانية، ص١٩٠):

وقد زَعمتْ بَهْراءُ أَنَّ رِماحَنا   رماحُ نصارى لا تَخوضُ إلى الدمِ

---

[٦] قال ابن خلدون في تاريخه (٢: ٣٠١): «وبنو وائل بطن عظيم متسع أشهرهم بنو تغلب، وبنو بكر بن وائل ... فلِبَنِي تغلب شهرة وكثرة، وكانت بلادهم بالجزيرة الفراتية بجهات سنجار ونَصِيبِين وتُعْرَف بديار ربيعة، وكانت النصرانية غالبة عليهم لمجاورة الروم.» ومما روى في الأغاني (١٦: ٥٣) قتل محمد نبي الإسلام لأحد رؤساء تغلب لثباته على دينه، جاء هناك: «قال أبو عمرو: وكان لتغلب رئيس يقال له: الجَرَّار، وأدرك النبي ﷺ وأبى الإسلام وامتنع منه، فيقال: إن رسول الله ﷺ بعث إليه زيد الخيل وأمره بقتاله، فمضى زيد فقاتله فقَتَله لما أبى الإسلام.» ومما أنشد الفرزدق في مديح تغلب قوله (النقائض، ص٨٨٨):

لولا فوارسُ تغلبَ ابنةِ وائلٍ   نزلَ العدوُ عليك كلَّ مكانِ
حبَسُوا ابنَ قيصرَ وابْتَنَوا برماحهم   يومَ الكُلابِ كأكرمِ البنيانِ
قومٌ إذا وُزِنوا بقومٍ فُضِّلوا   مِثلَي موازنهم على الميزانِ

ويدل على ثبات تغلب في نصرانيتها أنهم تقربوا إلى الفرنج في زحفاتهم على الأراضي المقدسة، وقد ذكر المقريزي في الخطط أنهم كانوا مع جذام سنة ٥٧٧هـ يرسلون لهم الغلات.

[٧] اطلب: شرح التبريزي لمعلقة عمرو بن كلثوم (ed. Lyall, p. 108).

بل لدينا أدلَّة واضحة على ثبوت النصرانية في تَغْلِب حتى القرن الثالث والرابع بعد الإسلام، وجاء في سراج الملوك للطرطوشي (ص٣٦، من طبعة مصر، ١٢٩٩هـ)، أن بني تغلب دخلوا على عمر بن عبد العزيز فأعلنوا بنصرانيتهم.

(٩) «تميم»[٨] وهو ابن مُرَّة بن أد من بني مُضَر العدنانيين وكانوا عدة قبائل ودَخلَت النصرانية في كثير منها كبني امرئ القيس، وبني شيبان، وبني أيوب بن قَلَّام الذي منهم كان الشاعر النصراني الشهير عدي بن زيد، وجاء في التذكرة الحمدونية (ص١٧ و١٨، من نسخة برلين) في وصاة الحرث بن كعب لبنيه أنه «بقي على دين عيسى بن مريم مع تميم بن مُر وأسد بن خزيمة» فجعل النصرانية في قبائل تميم بنسبتها إلى رأسهم وشيخهم تميم بن مُر.

ولَّما وفد بنو تميم على محمد كان أحد زعمائهم الزِّبْرِقان بن بدر، وممَّا افتخر به البِيَعُ التي كان يُشَيِّدُها قومه، كما روى ابن هشام في سيرة الرسول (ص٩٣٥):

نحن الكرامُ ولا حيٌّ يُعادلنا　　　منَّا الملوك وفينا تُنْصَب البِيَعُ

ومن تميم في الجاهلية كان أسقف نصراني يُدعى محمدًا وهو محمد بن سفيان بن مجاشع بن دارم التميمي.[٩]

---

[٨] جاء في الأغاني (٨: ١٨٩) عن تميم ما حرفه: «إن بني تميم كانوا وثبوا على البيت قبل الإسلام بمائة وخمسين سنة، فاستلبوه وأجمعَتِ العرب عليها لما انتهكت ما لم ينتهكه أحد قط، فأجْلَتْها من أرض تهامة.» وقد افتخر جرير في شعره بأن تميمًا أجداده كانوا ينتسبون إلى إسحاق بن إبراهيم الخليل وليس لإسماعيل (نقائض جرير، ص٩٩٤) قال:

أبونا أبو إسحاقَ يَجمعُ بيننا　　　أبٌ كان مهديًّا نبيًّا مُطهَّرا
فيجمعُنا والغُرَّ أبناءَ سارةٍ　　　أبٌ لا نبالي بَعْدَه مَن تَغدَّرا

[٩] اطلب: حياة محمد، لسبر نغر (Sprenger: *Das Leben d. Mohammad*, 1, 161)، وفيهِ تفنيد لقول بعض الزاعمين أنَّ اسم محمَّد لم يُعْرَف في الجاهليَّة قبل نبيِّ الإسلام، قال ابنُ بري (في تاج العروس، ٢: ٣٣٩)، «ومن سُمِّي بمحمَّد في الجاهليَّة سبعة؛ محمد بن سفيان بن مجاشع التميمي، ومحمَّد بن عتوارة الليثي الكناني، ومحمَّد بن أُحيحة بن الجلاح الأوسيُّ، ومحمَّد بن حمران بن مالك الجعفي المعروف بالشويعر، ومحمَّد بن مسلمة الأنصاري، ومحمَّد بن خُزاعيٍّ بن علقمة،* ومحمَّد بن حرماز بن مالك التميمي.

(١٠) «تنوخ»[١٠] إحدى قبائل اليمن ونصرانيتها مُجمع عليها فإن الطبري (١: ٢٠٦٥ و٢٠٨١) واليعقوبي (١: ٢٩٨) في تاريخهما، والإصطخري في كتاب مسالك الممالك (ص٢٤)، وابن خلكان (ج١، ص٤٢) والفيروزآبادي في معجمه يجعلون كلهم تنوخ من جملة القبائل المُتنصِّرة، بل ورد في كتب السريان ذكر لأسقف التنوخيين.[١١]

(١١) «ثعلبة» بنو ثعلبة ثلاثة أَبطن من طيئ، وهم: ثعلبة بن ذُهل، وثعلبة بن رومان، وثعلبة بن جدعاء، يقال لهم: ثعالب طيئ، ورد في الباب الثامن من الفصل السابق ذِكْر أساقفتهم، وقد عَرَف كتبة اليونان والرومان والسريان نصرانيتهم فذكروهم غير مرة ويجعلونهم من الطائعين الخاضعين للروم «ܛܝܝܐ ܕܥܡܐ ܪ̈ܗܘܡܝܐ ܕܡܫܠܡܢ ܕܥܡܐ ܐܚܪܢܐ».[١٢] وأخبر الأبشيهي صاحب كتاب المُستَطْرَف (ج١، ص ١٣٥)، قال: «رُوي أن بني ثعلبة دخلوا على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنهُ فقالوا: يا أمير المؤمنين إنَّا قوم من العرب افرض لنا، قال: نصارى؟ قالوا: نصارى، قال: ادعوا إليَّ حجَّامًا، ففعلوا فجزَّ نواصيهم.» ويوجد غير هؤلاء أيضًا عُرِفُوا ببني ثعلبة أشهرهم بنو ثعلبة بن شيبان من بطون تميم.

---

* وكان محمد بن حمران من نصارى مَذْحِج وكان معاصرًا لامرئ القيس، وهو الذي سمَّاه امرُؤُ القيس بالشويعر، أمَا محمد بن خزاعي فكان من بني ذكوان بطن من سُلَيم قَدم على أبرهة ملك اليمن فَتنصَّر ومات على دينه (Sprenger: *Mohammad*, I, 161).

وقد أحصى ابن بري منهم كما ترى سبعة، وقد جعلهم غيره ثلاثة فقط كابن قتيبة في المعارف، وابن خلكان في تراجم الأعيان، والسهيلي في الروض، وابن فورك في الأصول (مواسم الأدب للبيتي، ٢: ١٠٨)، وهم محمد بن سفيان جد الفرزدق التميمي، ومحمد بن أحيحة بن الجلاح أخو عبد المطلب بن هاشم لأمه، ومحمد بن عمران بن ربيعة، وجاء في كتاب أنساب الأشراف للبلاذري (Ms de Gotha, ff. 355, ZDMG, 1884, p. 389) أنهم ستة: «محمد بن سفيان، ومحمد بن الحرماز، ومحمد الشويعر بن حمران الجعفي، ومحمد بن عقبة بن أحيحة بن جلاح الأوسي، ومحمد بن مالك التميمي، ومحمد بن مسلمة الأنصاري»، أما سبرنغر في سيرة محمد (A. Sprenger I, 161)، فإنه بلغ عدد المُسَمَّيْن بمحمد في الجاهلية عشرة، أولهم محمد الخزاعي السلمي الذي رحل إلى أبرهة ملك الحبشة في اليمن وتنصَّر، ثم محمد بن سفيان أسقف بني تميم، ثم محمد الهمداني، ومحمد الأسيدي، ومحمد العكيمي، ومحمد بن أسامة السعدي، ومحمد بن لجلج، ومحمد بن حارث، ومحمد بن عمر بن مغفل، ومحمد بن أحيحة بن الجلاح.

[١٠] اطلب أيضًا لنصرانية تنوخ: مجلة الإسلام الألمانية (Der Islam, IV, p. 387)، ومن تنوخ كان حي بني ساطع، ذكرهم البكري في معجم ما استعجم (ص٣٧٢)، ونسب إليهم مستندًا إلى أبي الفرج بناء دير قديم في الحيرة يُعْرَف بدير حَنَّة، قال: «تُحاذيه منارة عالية كالمرقب تسمى القائمة لبني أوس بن عمرو.»

[١١] اطلب: النخب السريانية (Lagarde: *Analecta Syriaca,* p. 128).

[١٢] اطلب: G. Rothstein: *Die Dynastie der Lahmiden in al-Hira*.

(١٢) «جُذام» بن مالك بن نصر قبيلة يمنيَة من الأَزْد، كانت تَدين بالنصرانيَة قال صاحب السيرة الحلبية (٣: ٩٥): «من قبائل العرب المُتَنَصِّرة؛ بكر، ولخم، وجُذام»، وكذلك الفارابي في المُزْهِر (١: ١٠٥)، يجعل جُذام من النصارى الذين «يقرَءُون بالعبرانية»، وفي الفتوحات الإسلامية للبلاذري (٥٩ و١٣٥) وفي الطبري (١: ١٧٠٢) وفي تاريخ ابن بطريق (طبعتنا، ج٢، ص١٣)، ترى جذامًا في جملة قبائل العرب المُتَنَصِّرة التي تُحارِب جيوش المسلمين مع غسان وكلب ولخم.

(١٣) «جَرْم»[١٣] بن ريان هم من قبائل قُضاعة ونصرانيتهم ثابتة كنصرانية قُضاعة، وقد مر بك في الباب الثامن من الفصل الأول، ذِكْر أسقف لبني جَرْم، وكانت النصرانيَة في جَرْم منذ زمن قديم؛ فإن السريان ذكروا ديرًا ابتناه الرُّهْبان في ديار جَرْم منذ أواسط القرن الرابع،[١٤] وقد روى قزما الرَّحَّالة الهندي في سَفَره إلى الهند أن بين الدائنين بالنصرانيَة في زمانه؛ أي القرن السادس للمسيح كان النبط وبنو جرم.[١٥]

(١٤) «جُرْهم» نقلنا في جملة آثار النصرانية في مكة ما رواه كَتبَة العرب عن دين بني جُرْهم وعن مَلِكهم عبد المسيح وأسقفهم في مكة، فَلْيُراجع.

(١٥) «الحَدَّاء والسِّمْط»[١٦] فروع من بني امرئ القيس بن زيد مناة بن تميم، كانوا

[١٣] ذكرها أيضًا الجاحظ في كتاب الحيوان (٧: ٦٦)؛ اطلب كذلك مجموع مكتبنا الشرقي (MFO, v^2, 619–855).

ابتَنَى سنة ٣٢٠م يوحنا الكشكراني ديرًا في ديار بني جَرْم (اطلب: أخبار فطاركة كرسي المشرق، لماري بن سليمان، ص٣٦)، وقد بقيت آثار النصرانية في جَرْم بعد الإسلام، ومما أخبره المقريزي أن بني طيئ وجَرْم وثعلبة حالَفوا الفرنج لما قَدِموا إلى الشام وفتحوا القدس وسواحل الشام (Mémoires de Quatremére II, 190-1).

[١٤] اطلب: المكتبة الشرقية، للسمعاني (Assemani: BO, II, 41).

[١٥] اطلب: مجموعة مين (Migne, PG., t. 88 col. et 446).

[١٦] روى البيتين في معجم البلدان في وصف زورة مع غيرهما (٢: ٩٥٧)، ونسبهما الجاحظ في كتاب الحيوان (٥: ٥٢) لأبي الطمحان الأسدي وهو يروي: «بنو الصلب والحداء»، وفي كتاب البيان للجاحظ (٢: ٧١)، ويروى لبشر بن أبي الخازم في مدح بني حدَّاء قوله:

لـلـهِ دَرُّ بـنـي حـدَّاءَ مـن نَـفَـرٍ   وكلُّ جارٍ على جيرانه كَلِبُ
إذا غَدَوْا وعِصِيُّ الطَّلْحِ أَرجُلُهم   كما تُنَصَّبُ وسْطَ البِيعَة الصُّلُبُ

يسكنون الحيرة ويدينون بدين أهلها، قال طُخَيم بن أبي الطَّخماء الأسدي يمدحهم (الكامل للمبرَد، ص٢٦، ed. Wright):

بنو السِّمْط والحَدَّاء كلُّ سَمَيْدعٍ   لهُ في العروق الصالحات عروقُ
وإني وإن كانوا نصارى أُحِبُّهم   ويرتاحُ قلبي نحوهم ويتوقُ

(١٦) «الحارث بن كعب» قبيلة يمنيَّة كبيرة تنتسب إلى مَذْحِج إلى كهلان احتلَّت نَجران ونواحيها وتَنصَّرَت وحَسُنت نصرانيتها، ويظهر أن الحارث بن كعب جد هذه القبيلة مات نصرانيًّا، فإننا قد وجدنا في النسخة الخَطِّيَّة من التذكرة الحمدونية (Ms. Berlin, Ahlwardt, n^os 8359 et 60 ff. 17) ما حرفهُ:[١٧]

«أوصى[١٨] الحرث بن كعب بنيه فقال: يا بَنِيَّ قد أتت عليَّ مائة وستون سنة ما صافحَتْ يميني يمينَ غادِر، ولا قَنعَت نفسي بخلَّة فاجر، ولا بُحتُ لصديق بسرٍّ، ولا طرحتُ عندي مومسة قناعًا، ولا بَقِي على دِين عيسى ابن مريم أحد غيري، وغير تميم بن مُرٍّ، وأسد بن خزيمة، فموتوا على شريعتي واحفظوا وصيتي، وإلَهَكم فاتَّقُوا يكفكم المهمَّ من أموركم ويصلح لكم أعمالكم وإياكم والمعصية، لِئلَّا يحل بكم الدمار وتوحش منكم الديار ... فإن لزوم الخَطِيَّة تُعْقِب البَلِيَّة.»»

وهناك حاشية رواها ابن حمدون: «إن النصارى في العرب كثير، وبني الحرث بن كعب كلهم نصارى.»

وكانت نجران تحت حكم بني الحارث لَمَا قصدَها ذو نُوَاس مَلِك حِمْيَر اليهودي فافتتحها وامتحن أهلها بأخاديد النار، فمات منهم عدد دَثْر مُفضِّلِين الموت الأحمر على جُحود الدِّين، وبعد ظَفَر الحبش بذي نؤاس عاد بنو الحارث بن كعب إلى إمرة نجران، وكان من أشرافهم بنو عبد المدان بن الديان الذين شادُوا كعبة نجران وكنيستها المعروفة بالقُلَيْس التي أفاض الكتبة في وصف محاسنها كما رأيت في الباب المختص بنصرانية

[١٧] ثم وجَدْنَا هذه الوصاة في كتابين من مخطوطات باريس، ومخطوطات مكتبتنا.

[١٨] وصية الحرث بن كعب، قد وَجَدْنا هذه الوصية في كتب أخرى منها خطية ومنها مطبوعة كما رويناها، ثم وقفنا على رواية مختلفة أثبتها العَلَّامة «غولتسير Goldziehr» في كتابه Abhandl. z. arab. Philologie, XLIII، وفيها يقول الحارث: «إنه على دِين شُعَيب.» وروايتنا هي الأصح كما يَلُوح من القرائن، وقد روى أيضًا غولتسير «أسيد بن خزيمة» بدلًا من «أسد».

أهل اليمن، وبقي بنو الحارث بن كعب على نصرانيتهم بعد ظهور الإسلام كما يؤخذ من كتاب الوفادات لابن سعد (Wellhausen *Skízzen*, IV, 8)، حيث صالحهم نبي المسلمين على شروط عدَدها هناك ولم ينبذوا دينهم، وممَّا رأيناه في أحد مخطوطات مكتبة قديمة في حَلَب منسوبًا إلى شاعر من بني الحارث الأبيات الآتية المشيرة إلى دينهم القويم:

ألا إنَّنا من مَعْشَر سَبقتْ لهم — أيادي من الحسنى فعُوفوا من الجهل
ولم ينظروا يومًا إلى ذات مَحْرمِ — ولا عرفوا إلَّا التَّقيَّة في الفِعلِ
وفينا من التوحيد والعقل شاهدٌ — عرفناهُ والتوحيدُ يُعْرَف بالعقلِ
نُعايِن من فوق السموات كلها — مُعايَنة الأشخاص بالجَوْهر المجلي
ونعلمُ ما كنَا ومن أين بَدْؤُنا — وما نحن بالتصوير في عالم الشَّكْلِ
وإنَا وإن كنَّا على مَرْكَبة الثَّرَى — فأرماحنا في عالم النور تَستَعْلِي
وما صعدتْ لم تَخْتبِرْه وإنما — رأت ذاتها بالنور في العالِم العَقْلي
فلم تَرْضَ بالدنيا مُقامًا فآثرت — حقيقةَ مَمثولٍ وجلَّت عن المثلِ

(١٧) «حْمْيَر» أخبار تنصُّرها مرت في باب النصرانية في اليمن فعليك بها، وزِدْ على نصوصنا قول الفيروزآبادي: «إن كثيرًا من ملوك اليمن والحيرة تَنصَّرُوا.»

(١٨) «حَنيفة»[١٩] بنو حَنيفة[٢٠] بطن كبير من بكر بن وائل كانوا يسكنون اليمامة، وقد مر ذِكْر تَنصُّرِهم في أثناء ذكر «النصرانية في حضرموت وعُمان واليمامة والبحرين»،

---

[١٩] هو حنيفة بن لجيم بن صعب بن علي بن بكر بن وائل، وحنيفة أخو عجل بن لجيم، وإليهم أشار الأخنس بن شهاب بقوله عن بني بكر:

وبكرٌ لها ظَهْرُ العراقِ وإن تشأْ — يَحُلْ دونَها مِنَ اليمامةِ حاجبُ

راجع: المفضليات، ص٤١٥، وكانت حنيفة تسكن أيضًا الرُّصَافة، وكانوا أقاموا عليها صليبًا في أيام النعمان؛ لأنه كان نصرانيًّا (معجم البلدان، ٢: ١٥٥)، ولما ظَهَر الإسلام ردوا دعوة رسوله، وقد جاء في سيرة النبي لابن هشام (ص٢٨٣): «قال ابن إسحاق، وحدثني بعض أصحابنا عن عبد الله بن كعب بن مالك أن رسول الله ﷺ أتى بني حنيفة في منازلهم فدعاهم إلى الله، وعرَض عليهم نفسه، فلم يكن أحد من العرب أقبح ردًّا عليه منهم.»

[٢٠] ومن المُحْدَثِين الذين صرَحوا بنصرانية بني حنيفة أرنلد (Arnold Mulheisen: Islam and its Relations to Xʸ, p. 34)، وكذلك حضرة الأب لامنس في كتابه عن معاوية (ص٤٣١).

وفَنَّدْنا هناك ما روي عن عبادتهم لصنم من عَجين، بل وجدنا في ذلك الهجو دليلًا على نصرانيتهم لإشارته إلى القربان الأقدس، ومثلُهُ قول الآخر:

أكلَت ربَّها حنيفةُ من جُو ع قـديـمٍ ومـن إعـوازِ

ومن حَنيفة كان هَوْذَة بن علي المعروف بذي التاج ملك اليمامة الذي مر ذِكْره، ومنهم كان مُسْيلمة بن حبيب الذي ناصَب محمدًا وتَبِعَهُ أهل اليمامة واسْتَفْحَل أمره وكاد يَظْهَر على الإسلام لولا خالد بن الوليد الذي غلبه وقتله، وممَّا يدل على نصرانية بني حنيفة ما ذكره ابن سعد في كتاب الوفادات (Wellhausen, p. 46). حيث روى خبر وفودهم على محمد إلى أن قال: «أعطاهم رسول الله إداوة من ماء فيه فَضْل طَهُوره فقال: إذا قدمتم بلدكم اكسروا بِيعَتكم وانْضَحُوا مكانها بهذا الماء واتَّخِذُوا مكانها مسجدًا ففعلوا.» ثم يذكر أن «راهب البِيعَة هرَب فكان آخر العهد به.» فذِكْرُه لبِيعَة بني حنيفة وراهبها دليل ساطع على نصرانيتهم.

(١٩) «الخَزْرَج» بنو الخزرج[٢١] كبَنِي الأوس كانوا يسكنون المدينة ويُعَدُّون من أهل الكتاب؛ أي النصارى (يُراجَع ما سبق عن النصرانية في المدينة).

(٢٠) «ربيعة» هو اسم يُطْلَق على القبائل العديدة المنتسبة إلى رَبيعة بن نِزَار، وهي أكبر قِسْم من القبائل العدنانية الأربع، أعني أَنْمَار وإياد ورَبِيعَة ومُضَر، وقد انتشرت النصرانية في ربيعة حتى أوشكت تشمل كل بطونها وفروعها، فترى من ثم كتبة العرب إذا ذكروا النصرانية في الجاهلية، جعلوها خصوصًا في ربيعة، قال الفيروزآبادي: «وكانت النصرانية في ربيعة.» وشهد بذلك قبله ابن قتيبة في المعارف (ص٣٠٥، من طبعة مصر)، وابن رسته في الأعلاق النفيسة (ص٢١٧)، والقاضي ابن صاعد في كتاب طبقات الأمم

---

[٢١] قد ذهلنا عن ذكر نصرانية قبيلة خثعم، وقد شهد على الأمر ياقوت في معجم البلدان (٢: ٧٠٣)، حيث قال عن دير نجران في اليمن وهو المسمَى كعبة نجران أو الكعبة اليمانية (راجع: صفحة ١٤٣):

«وكان بنو عبد المَدَان بَنَوْه مُربَّعًا مستوي الأضلاع والأقطار مرتفعًا عن الأرض يُصعد إليه بدرجة على مثال بناء الكعبة فكانوا يحجونه هم وطوائف من العرب ممن يحل الأشهر الحرم ولا يحج الكعبة ويحجه خثعم قاطبة.»

فبقوله: إن بني خثعم كانوا يحجون دير نجران أوضح بنوع صريح نصرانيتهم، وبنو خثعم كانوا ينتسبون إلى خثعم بن أنمار بن نزار بن معد بن عدنان، وكانوا يسكنون في البحرين وفي اليمن مع عبد القيس، وبَجِيلة وحارَبوا سابور ملك الفرس مع إياد (C. De Perceval: *Hist. des Arabes*, II, 48–49).

(ص٤٣، من طبعتنا) وغيرهم كثيرون، فقولهم: «إن النصرانية كانت في ربيعة.» بإطلاقه يدل على أن هذا الدين كان الغالب عليهم على اختلاف قبائلهم، ويؤيد ذلك ما رويناه عن نصرانية أعظم قبائل ربيعة؛ كبكر، وتغلب، وامرئ القيس، وحنيفة، وشيبان إلخ، فناهيك بذلك شاهدًا على شيوع النصرانية بين العرب.

(٢١) «السَّكاسِك والسَّكون» قال ابن دريد في الاشتقاق (ص ٢٢١): «ومن قبائلهم السَّكاسِك والسَّكُون قبيلتان عظيمتان، وهما ابنا أشرس بن ثور بن كندي.»[٢٢] ومما يؤيد تَنصُّرَهما أنهما كانتَا في دَوْمة الجندل التي مرَ ذكر نصرانيتها ونصرانية صاحبها أُكَيدر السَّكوني، وقد صرح ابن خلدون في تاريخهِ (٢: ٢٤٩) بنصرانية السَّكُون قال: «وكان لقُضاعة مُلْك آخر في كلب بن وَبرة يتداولونه مع السَّكُون من كندة، فكانت لكلب دَوْمة الجندل وتَبوك ودخلوا في دين النصرانية وجاء الإسلام والدولة في دَوْمة الجندل لأُكَيدر بن عبد الملك بن السَّكون.» وكان السَّكون والسَّكاسِك يسكنون أيضًا في حضرموت مُحالِفين لبني الحرث بن كعب أهل نجران كما أخبر الطبري، ولَمَا ظهر الأسود العَنْسي محارِبًا لمحمد نبي الإسلام كان السَّكُون والسَّكاسك من أنصاره.[٢٣] وكذلك نراهم يحاربون خالدًا مع بني كلب وغسَّان وبَهْراء وكلهم من نصارى العرب.

(٢٢) «سَلِيح»[٢٤] هي القبيلة العربية التي سبَقَت الغَسَّانيين في الشام ودانَت بالنصرانية، قال المُطهَّر المَقْدِسي في كتاب البدء المنسوب لأبي زيد البلخي (éd. Huart, III, p. 208): «وأول مَن دخل الشام سَلِيح وهم من غَسَّان، ويقال: من قُضاعة فدانت بالنصرانية، وملَّك عليها مِلِكُ الروم رجلًا، يقال له: النعمان بن عمرو بن مالك.» وقال المسعودي في مروج الذهب (طبعة باريس، ٣: ٢١٦): «ورَدَتْ سَلِيح الشام فتغلبت على تَنُوخ وتَنصَّرَت فمَلَّكَها الروم على العرب الذين بالشام.» وكذلك ابن واضح اليعقوبي في

[٢٢] والصواب ما قالهُ ابن دريد في الاشتقاق (ص٢١٨)، «كندة هو كِندي واسمهُ ثَوْر».

[٢٣] تاريخ الطبري، ج١، ص٢٠٠٢–٢٠٠٤.

[٢٤] ذكر ياقوت في معجم البلدان (٢: ١٨٥) حاضر قنسرين ومن يقيم به من العرب قال: «قال أحمد بن يحيى بن جابر كان حاضر قنسرين لتنوخ منذ أول ما تنخوا بالشام، ونزلوه وهم في خيم الشعر ثم ابتنوا به المنازل، ولما فتح أبو عبيدة قنسرين دعا أهل حاضرها إلى الإسلام فأسلم بعضهم وأقام بعضهم على النصرانية، فصالحهم على الجزية، وكان أكثرُ من أقام على النصرانية بني سليح بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قُضاعة، وأسلم من أهل ذلك الحاضر جماعة في خلافة المهدي.»

تاريخه (١: ٢٩٨): «تَنصَّر ... من اليمن طيئ ومَذْحِج وبَهْراء وسَلِيح وتَنُوخ وغَسَّان ولَخْم.» وسبقهم الطبري في تاريخه (١: ٢٠٨١) فجعل سَلِيحًا مع قبائل نصارى العرب المحاربين مع الروم، وبنو سَلِيح يُدْعَون أيضًا بالضَّجَاعم أو الضَّجَاعِمة، نسبة إلى أحد أجدادهم قال في التاج (٨: ٣٧٣): «ضَجْعَم أبو بطن من العرب وهو ضَجْعَم بن سعد بن عمرو المُلقَّب بسَلِيح بن حلوان بن عمران.» وقد ذكر الطبري (١: ٢٠٦٥) الضَّجاعِم مع قبائل النصارى المحارِبَة لخالد بن الوليد، ومن ملوك الضَّجاعِم في الشام داود بن هَبُّولة المعروف باللَّثِق وكان نصرانيًّا،[٢٥] وقال ابن دريد في الاشتقاق (ص٣١٩): «يضاف إليهِ دَيْر داود في الشام.»

(٢٣) «شَيْبان»[٢٦] حي من بكر بن وائل ... قال في التاج (١: ٣٢٨): «هما شَيْبانان: أحدهما شَيْبان بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل، والآخَر شَيْبان بن ذُهْل بن ثعلبة بن عكابة إلخ، وهما قبيلتان عظيمتان على بطون وأفخاذ.» ونصرانية القبيلتين شائعة كنصرانية جذرهما بكر بن وائل، وكان مُقام بني شيبان في بلاد الجزيرة المعروفة بديار بكر قريبًا من دجلة حيث انتشرت النصرانية انتشارًا تامًّا، وبنو شيبان يُعْرَفون غالبًا ببني ثعلبة في تواريخ الروم والسريان (راجع ما قلناه عن ثعلبة)، ومن شيبان كان حارث بن عَبَّاد سيد شيبان في حرب البَسوس وقِرْن المُهَلْهِل، ومنهم بِسْطام بن قيس أحد فرسان العرب المشهورين وسيد شيبان في يومَي غَبيط ومحطط اللذين ذكرهما ابن عبد ربه في العقد الفريد «٣: ٨٨–٨٩»، وابن الأثير في تاريخه «١: ٢٥٠»، وقد صرَّح ابن عبد ربه هناك بنصرانِيَّة بِسْطام ويدعوه أيضًا حنيفًا، فيثبت ما قلناه عن نصرانية الحُنَفاء، ومنهم أيضًا نابغة بني شيبان الشاعر الأموي الشهير له ديوان لم يُطْبَع حتى الآن، وقد ذكر أبو الفرج في الأغاني (٦: ١٥١) نصرانيتهُ، وكذلك هانئ بن قبيصة[٢٧] قال ابن دريد في الاشتقاق (ص٢١٦): «كان شريفًا عظيم القدر وكان نصرانيًّا وأدرك الإسلام فلم يُسلم ومات بالكوفة.»

---

[٢٥] اطلب: Caussin de Perceval: *Hist. des Arabes*, II, 201–202.

[٢٦] من نصاراها الأشراف عمير بن السليل ابن أخي بسطام بن قيس، ومنهم مفروق، وكان من رجالهم لسانًا وبيانًا (ابن دريد في الاشتقاق).

[٢٧] تجد شيئًا من أخباره في معجم البلدان لياقوت في مادة «الغبيطان» (٣: ٧٧٤) وفي مادة «قار» (٤: ١٠).

(٢٤) «ضُبَيْعة»[٢٨] كانوا إخوة بني شيبان ويُعْرَفون مثلهم بالثَّعالِب يشاركونهم بكل أحوالهم، وهم نازلون في ديارهم ويدينون بدينهم، ومنهم كان الشاعر الجاهلي الشهير طرفة بن العبد صاحب المُعلَّقة.

(٢٥) «طيئ»[٢٩] من أكبر قبائل العرب وأطولها باعًا وأرقاها حضارةً وأثبتها على خطوب الزمان،[٣٠] أصْلُهم من اليمن يُنْسَبون إلى طَيِّئ بن أُدَد بن كَهْلان، وكانت ديارهم في نجد حيث الجَبَلان المعروفان بجَبَلَي طَيِّئ وهُما أَجَا وسَلْمَى، وكانوا يسكنون في أطراف اليمامة في نواحي تَيْماء، وكانوا يَدِينون أولًا بالوثنية، وقد ذكروا لهم صنمًا كانوا يعبدونه يُسمَّى الفُلُس أو الفَلْس لم يتفقوا في تعريفه، وما لا يُنكر أن النصرانية كانت كثيرة الانتشار بينهم، قال ابن واضح اليعقوبي (١: ٢٩٨): «تنصَّر من أحياء العرب ... من اليمن طَيِّئ ومَذْحِج وبَهْراء وسَليح وتَنُوخ وغَسَّان ولَخْم»، فجعل طيئًا في مقدمة القبائل المُتَنَصِّرة، وقد أخبر ابن العبري في تاريخه الكنسي (Barhebræi Chronicon Eccl., III, 100) أن «أحودما» المفريان سنة ٨٧٠ لليونان (أي ٥٥٩ للمسيح) تَنقَّل بين العرب الطائيين ورَدَّ كثيرًا منهم، وكان اسم الطائيين عند السريان يَعُم كل العرب لكنهم يُخصِّصون بهِ بني طيئ أيضًا ويذكرون نصرانيتهم، ومن آثار النصرانيَة في طيئ أديرة للرُّهْبان في أنحائهم، مَرَّ لنا ذِكْرُها، كدَيْر عمرو في جبال طيئ (ياقوت، ٢: ٦٨٢)، وكدَيْر الثَّعالِب لبطون من طيئ قريبًا من بغداد (٢: ٦٥٠)، ومن مآثر النصارى الطائيين أن قومًا منهم وضعوا الخَطَّ العربي، كما شهد على ذلك قدماء الكتبة (راجع: المشرق، ٤: ١٩٠١، ص٢٧٨)، وقد صرَح مؤَلِّفو العرب بنصرانية كثيرين من الطائيين كحنظلة الطائي باني دَيْر حنظلة (ياقوت، ٢: ٦٥٥) الذي بسببه تَنصَّر النعمان صاحب الغريين،

---

[٢٨] ذكر الطبري في تاريخه (١: ٢٠٣٢) ضبيعة في جملة نصارى العرب مع بني عِجْل وتَيْم اللات.

[٢٩] كانت طيئ تسكن في نجد شرقي مدائن صالح في جَبَلَي أجأ وسلمى، ومن جبالهم مَلَكان كان يقال له: مَلَكان الروم. قال ياقوت (٤: ٢٧٢): «دُعِي بذلك لأن الروم كانت تسكنه في الجاهلية.» وكان قسم من بني طيئ يسكنون الحيرة ذَكرَهم في الأعلاق النفيسة لابن رستم مع نصارى تميم وسُلَيم، قال (ص٣٠٩): «وعلية أهل الحيرة نصارى فمنهم من قبائل العرب على دين النصرانية من بني تيم آل عدي بن زيد العبادي الشاعر، ومن سُلَيم ومن طيئ ومن غيرهم.»

[٣٠] وإلى طيئ يُنسب دير سلسلة الذي كان في جهات الكوفة قبل الإسلام وهو سلسلة بن غنم بطن من طيئ (اطلب: تاريخ الطبري، ج١، ص٢٤٠٣)، وهناك كان دير حرقة ودير أم عمرو.

وكإياس بن قبيصة بن أبي عَفْراء الذي ملك مدة بالحيرة، وكأبي زُبيد الشاعر النصراني وكعَدِي بن حاتم الطائي سيد بَنِي طيِّئ، قال ابن سعد في وفادات العرب (Skizzen, IV, 51): «عدي بن حاتم كان على النصرانية.» ومثله ياقوت (٣: ٩١٣)، والمستشرقون اليوم مجمعون على نصرانية طَيِّئ، وقد مر بك قول الرَّحَّالة بلغراف (ص١٢٢)، وكذلك العلَامة فلهوسن[٣١] خصَ طَيِّئًا بالعلائق القديمة مع النصرانية، وختم قوله بهذه الألفاظ: «لو لم يظهر الإسلام لأَضْحَت بعد زمن قليل بلاد شمالي العرب من البحر الأحمر إلى خليج العَجَم كلها نصرانيَة.»[٣٢]

(٢٦) «عَامِلة» قبيلة ينتسبون إلى عَامِلة بن سبأ من بَنِي قحطان، وقد سَكنوا العراق ثم انتقلوا إلى جهات الشام وإليهم تنتسب جبال عَامِلة، وكانوا يدينون بالنصرانية كجميع عرب الشام، وقد ذكر البلاذري بني عاملة في فتوح البلدان (ص٥٩) في جملة العرب المُتَنَصِّرين الذين حارَبوا في تبوك رسول الإسلام سنة ٩ للهجرة مع الروم ولخم وجُذام، وكذلك الطبري في تاريخه (ج١، ص٢٣٤٦)، نظَم عاملة في جملة أحلاف الروم، قال في تاريخ سنة ١٤: «لمَّا أصافت الروم سار هِرَقل في الروم حتى نزل أنطاكية ومعه من المُستعرِبة؛ لخم وجذام وبلقين وبَلِيٌّ وعامِلة، وتلك القبائل من قُضَاعة وغَسَّان بشر كثير.»

(٢٧) «العباد» قال ابن خلكان (éd. de Slane, 98): «العباد عدة بطون من قبائل شتى، نزلوا الحيرة وكانوا نصارى يُنسب إليهم خلق كثير منهم، عدي بن زيد العبادي الشاعر.» وقد روى هشام بن الكلبي (اطلب: تاريخ ابن خلدون، ٢: ١٦٩–١٧٠) عن نصارى العرب في العراق ما نصهُ:

«وكانت بيوتهم على ريف العراق ينزلون الحيرة وكانوا ثلاث فرق: الأولى تنوخ ومنهم قُضاعة ... وكانوا يسكنون بيوت الشعر والوبر ويضعونها غَرْبِيَّ الفرات بين الأنبار والحيرة وما فوقها، فأَنِفُوا من الإقامة في مملكة أردشير وخرجوا إلى البَرِّيَّة، والثانية العباد الذين كانوا يسكنون الحيرة وأوطنوها، والثالثة الأجلاف الذين نزلوا بهم

---

[٣١] اطلب كتابه عن أديان العرب: ٢٣١ (Wellhausen: *Reste arab. Heidentums*, p. 231).

[٣٢] وهذا نصه الأصلي: “In der Mitte zwischen den Qudâa und der kabi’a Tamîm hatten die TaiJi, vielleicht von Mesopotamien her, alte Beziehungen zum Christentum. Wære nicht der Islam dazwischen gekommen, so wære voraussichtlich binnen kurzem das ganze noerdlich Arabien, vom Roten bis zum Persischen Meerbusen, christlich gewesen”.

من غير نسبهم ولم يكونوا من تَنوخ النَّاكثين من طاعة الفرس ولا من العباد الذين دانوا بهم، فمَلَك هؤلاء الأحلاف الحيرة والأنبار وكان منهم عمرو بن عَدِي وقومه.»

أمَا تسميتهم بالعباد[٣٣] فإنَ أبا الفرج في الأغاني (١١: ١٦٢) علَلها بكونهم قاتلوا سابور ملك العجم واتَخذوا كشعارهم «يا آل عباد الله فسُمُّوا العباد.»

(٢٨) «عَبْد الدَّار» كانوا فرعًا من لَخْم وسكنوا مدة مكة وكانت لهم فيها الرِّفَادة والسِّقاية، ثم لحقوا بعرب العراق وتَنصَّروا وسكنوا الشام وجبال فلسطين.[٣٤]

(٢٩) «عَبْد القَيْس»[٣٥] هي قبيلة من ربيعة كانت ساكنة في تيماء وبُصْرى وبلاد البحرين، وكانت النصرانية غالبة عليها ووفدَتْ على محمد سنة ٨ للهجرة مع سيدها بشر بن عمرو المعروف بالجارود وكان نصرانيًّا،[٣٦] ومن هذه القبيلة كان بَحِيرا الراهب[٣٧] النسطوري.[٣٨] قال الخفاجي في نسيم الرياض وشرحه على الشفاء (ج٢، ص٢٣): «بَحِيرا اسمه جرجس، ويقال: جرجيس بياء كان من عبد القيس نصارى تيماء أو بُصْرى»، ومنهم الرئاب بن البراء الشَّنِّي،[٣٩] قال ابن دريد في الاشتقاق (ص١٩٧): «وكان «الرئاب» على دين عيسى — عليه السلام — وكانوا سمعوا في الجاهلية مناديًا ينادي: ألا إن خير الناس رئاب الشَّنِّي.»

[٣٣] ذكر البكري في معجم ما استعجم (ص١٨) سببًا آخر لتسميتهم بالعباد قال: «قال أحمد بن أبي يعقوب إنما سُمِّي نصارى الحيرة العُبَّاد؛ لأنه وفد على كسرى خمسة منهم فقال لأحدهم: ما اسمك؟ قال عبد المسيح، وقال للثاني: ما اسمك؟ قال: عبد يَالِيل، وقال للثالث: ما اسمك؟ قال: عبد يسوع، وقال للرابع: ما اسمك؟ قال: عبد الله، وقال للخامس: ما اسمك؟ قال: عبد عمرو، فقال كسرى: أنتم عباد كُلُّكم فسُمُّوا العباد.»

[٣٤] اطلب: سيرة محمد (Wellhausen, Skizzen, IV, 108)؛ ثم (Sprenger III, 432).

[٣٥] راجع ما كتبه عنهم ركندورف، في دائرة علوم الإسلام (Encycl. de l'Islam I, 46–47).

[٣٦] اطلب: تاريخ ابن خلدون (٢: ٣٠١)؛ ثم Wellhausen, Sprenger III, 372 ibid. 155.

[٣٧] ذكره الطبري في تاريخه (١: ١١٢٤–١١٢٥) وروى ما يتناقله المسلمون عنه وعن اجتماع نبي المسلمين به عند رحلته إلى الشام إذ كان ابن اثنتي عشرة سنة، وقال السيد أبو جعفر البيتي في مواسم الأدب (٢: ٢٠٢): إنه كان يُسمَّى جرجس، وأما النصارى فيدعونه نسطوريوس ويروون قصته مع نبي المسلمين على خلاف ما يذكرها مؤرخو الإسلام، راجع الرسالة عبد المسيح الكندي إلى الهاشمي، طبعة لندن، سنة ١٨٨٥م، ص١٢٨–١٣٠.

[٣٨] اطلب: مروج الذهب، طبعة باريس، ٣: ٢٥٧.

[٣٩] اطلب: كتاب الأغاني، ١٥: ٧٦.

(٣٠) «عَبْس وذُبْيان» هما ابنا بَغيض بن غَطَفان من قبائل مُضَر.[٤٠] ليس لدينا شواهد صريحة على نصرانيتهما، وإنما يُسْتدَل عليها ببعض الدلائل فمن ذلك تنصُّر قيس بن زهير بن جذيمة العبسي سيد بني عبس في أيام داحس والغبراء، قال ابن الأثير في تاريخه (١: ٢٤٢-٢٤٣) إنه تاب إلى ربه «فَتنصَّر وساح في الأرض حتى انتهى إلى عمان فترَّهب به.» وكذلك الربيع بن زياد أحد أعيان بني عبس كان منادمًا لملك الحيرة النعمان بن المنذر مع سرجون بن توفيل «ويروى نوفل» وكان النعمان نصرانيًّا، وسرجون أيضًا نصراني رومي[٤١] فلا يُحْتَمل أن يكون الربيع بن زياد من عبدة الأصنام، وأدل من ذلك على النصرانيَة في عبس ظهور رجل بينهم من بني مَخْزُوم بن عبس يدعونه خالد بن سنان[٤٢] ويذكرون أنه كان نبيًّا، قال ابن دريد في الاشتقاق (ص١٧٠): «ذُكِر عن النبي ﷺ أنه قال «عن خالد بن سنان»: ذاك نبي ضَيَّعه قومه.» قال العصامي في كتاب سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي:[٤٣] «رُوِي أن خالد بن سنان كان في زمن كسرى أنوشروان وأنه كان يدعو الناس إلى دين عِيسى وكان بأرض بني عبس، وأطفأ النار التي كانت تخرج من بئر هناك وتَحْرِق من لقِيَتْه من عابر سبيل.» وذكر العصامي في الكتاب عينِه نبيًّا آخر لبني عبس اسمه حنظلة بن صفوان (ص٦٩)، قال: إنه دعا قومه إلى الله تعالى وصنع المعجزات ثم قتله قومه.

أمَّا ذُبْيان فشَقِيقة عبس ولا يبعد أنها دانت بالنصرانية، وما لا يُنْكَر أن شاعرها الكبير النابغة الذُّبْياني كان نصرانيًّا بشهادة تاج العروس (١: ٣٣٧) نقلًا عن الصغاني والأصمعي، قال في بيان معاني الصليب: «والصَّلِيب العلَم، قال النابغة:

ظَلَّت أقاطيع أنعامٍ مُؤبَّلةٍ   لدى صليبٍ على الزَّوْراء مَنصوبِ

... وقيل: سَمَّى النابغةُ العَلم صليبًا لأنه كان نصرانيًّا.»

---

[٤٠] اطلب: تاريخ ابن خلدون، ٢: ٣٠٥-٣٠٦.

[٤١] اطلب: الأغاني، ١٤: ٩٤؛ و١٦: ٢٢؛ ثمَّ شعراء النصرانيَّة، ٧٨٩.

[٤٢] قرأنا في أحد مخطوطات باريس (Msm 2455m ff. 2) أنه كان من ولد إسماعيل، وعاش بعد المسيح بثلاثمائة سنة، وفي هذا نظر فإن ابن العربي في محاضراته (١: ٩٥) يزعم أن ابنته جاءت محمدًا فقال لها: «مرحبًا بابنة نبي أضاعه قومه.»

[٤٣] من مخطوطات مكتبتنا الشرقيَّة، ص٦٩.

(٣١) «عِجل» قبيلة كبيرة من بكر بن وائل وهم عِجل بن لُجيم بن صعب بن علي بن بكر بن وائل وهم إخوة بني حَنيفة وكلهم نصارى كما سبق فتبعتهم عِجْل في دينهم، وعِجْل إحدى قبائل النصارى التي ظفرت بالعجم يوم ذي قار[٤٤] وكان سيدهم حنظلة بن ثعلبة بن سيَّار العِجْلي، وكان على شيبان هانئ بن قَبيصة النصراني (الاشتقاق، لابن دريد، ص٢١٦)، وقد روى أبو الريحان البيروني في كتاب الآثار الباقية (ed. Sachau, p. 314) «أن العَذارى النصرانيات من العرب صُمن شكرًا لله، حيث انتصرت العرب من العجم يوم ذي قار فنُصِروا عليهم.» ثم نُسِب إليه صوم العذارى الواقع يوم الاثنين بعد عيد الدِّنْح ويدوم ثلاثة أيام، وبَقِيَت عِجْل على نصرانيتها حتى بعد ظهور الإسلام فحارَبَت خالد بن الوليد وجيوش المسلمين تحت قيادة جابر بن بُجير، وعبد الأسود النصرانيين، كما روى الطبري (ج١، ص٢٠٣٢–٢٠٣٣)؛ وابن خلدون (ج٢، «تتمة» ٨٠) وقال كلاهما هناك: إن عبد الأسود وجابر كانَا سائرَين في نصارى العرب «من عِجْل وتيم اللات وضبيعة»، ولم يَعْدِل بنو عِجْل عن نصرانيتهم إلى أيام بنى أمية والدليل على ذلك أن الطبري صرَّح بنصرانية سيد بني عِجْل أبجر بن جابر (الطبري ج١، ص٣٤٦٠)، وبقي ابنه حجَّار على دينه، كما يشهد عليه هجاء قاله فيه الشاعر عبد الله بن الزبير وكان حجَّار من أشراف أهل الكوفة ودونك الشعر (الأغاني، ١٣: ٤٦–٤٧):

سليلَ النَّصارى سُدتَ عجلًا ومَن يَكُن ... كذلك أهلٌ أن يَسود بني عِجْل
ولكنهم كانوا لئامًا فَسُدْتَهم ... ومِثْلُك مَن سَاد اللئامَ بلا عَقلِ
وكيفَ بِعْجِلٍ إن دنَا الفِصْح واغتدَتْ ... عليك بنو عِجْل ومِرْجَلُكم يغلي
وعندك قسيس النصارى وصُلْبُها ... وغانية صهباء مثل جَنَى النَّحلِ

فغاظ هذا الشاعر بني عِجل لَمَا تهدَّدوه بالقتل لهجوه سيدهم فقال:

تُهَدِّدُني عِجلٌ وما خِلْتُ أنَّني ... خلاةٌ لِعِجْل والصَّلِيب لها بعلُ

يريد إكرام بَنِي عِجْل للصليب على مألوف عادة النصارى.

ومما يثبت نصرانية بني عجل، قول الأبيرد الشاعر (الأغاني، ١٢: ١٣):

تُحيَّا المسلمون إذا تَلاقَوا ... وعِجْل ما تُحَيَّا بالسلامِ

[٤٤] اطلب: الأغاني، ج٢٠، ص١٢٢–١٤٠.

ومثله تعييره لهم شرب الخمر:

ولكنها هانتْ وحُرِّم شُربُها   فمالَت بنو عِجْل لما هو أكْفَرَا

راجع أيضًا: كتاب معاوية (Lammens: Mo'awia, pp. 436–438).

(٣٢) «عُقيل» بَطْن من كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة من غَطَفان، كان يسكنون اليمامة وكان أهل اليمامة — كما سبق — من أتباع النصرانية، وقد خَصُّوا بالذِّكْر عقيلًا وذَكَروا لهم أساقفة، ولمَّا ظهر الإسلام دانوا به مدة حتى وفاة محمد ثم ارتدُّوا إلى دينهم فاضطر أبو بكر الصِّدِّيق إلى أن يرسل إليهم بعثة لمحاربتهم وكان قسم من بني عقيل يسكنون أيضًا في الجزيرة عند نهر خابور مع نصارى تغلب وبكر (راجع [الباب الثامن من الفصل الأول]).

(٣٣) «غَسَّان» لا حاجة إلى الإطالة في ذكر نصرانية غَسَّان، وقد مر لنا كلام مُسهَب في ذلك، وليس بين كتبة العرب من يعدد القبائل المُتَنَصِّرة إلَّا ذكر في مقدمتها، أو في جملتها قبيلة غَسَّان كالإصطخري في مسالك الممالك (ص١٤)، واليعقوبي في تاريخه (١: ٢٩٨)، وابن سعد في كتاب الوفادات (ed. Wellhausen, *Skizzen*, IV, 7)، والسيوطي في المُزْهِر، والفيروزآبادي في مقدمة المحيط.[٤٥] واشتهر منهم بنو جَفْنة ملوكهم الذين امتدحهم النابغة الذبياني بحُسْن الدِّين فقال:

مَحَلَّتُهُم ذات الإله ودينهم   قويمٌ فما يرجون غير العواقبِ

ومن شواهدنا على نصرانية غسان قول ابن رسته في كتاب الأعلاق النفيسة، ص١٢٧، وقد ذكر النابغة الذبياني في شعره (شعراء النصرانية، ص٦٥٥) ثلاثة أحياء من غسان فقال:

مُستشعِرين قدْ ألْفَوا في دِيارهمُ   دُعاءَ سُوعٍ ودُعْمِيٍّ وأَيُّوبِ

[٤٥] وممن اتسعوا في تاريخ غسَّان العلَّامة نُلدك في كتابه Die Ghassanischen Fürsten aus dem Hause Gafnas، وكذلك الرحَّالة دوسو وصفهم بالتَّحمُّس الديني في النصرانية Dussaud: Les *Arabes en Syrie avant l'Islam*. فقال عنهم: "Les Ghassanides … fervents chrétiens et fondateurs de monastéres" (p. 52).

قال الشارح: «هم أحياء من اليمن من غسان وهم نصارى، وقيل: هم رهبان.» راجع أيضًا في نصرانية غسان Duchesne: Églises séparées, pp. 340–342.

(٣٤) «فَرَسان» هي قبيلة من تغلب وإليهم نُسبت جزائر فَرَسان، قال ابن الحائك في كتاب الإكليل:[٤٦] «من جزائر اليمن جزائر فَرَسان، وفرَسان قبيلة من تغلب كانوا قديمًا نصارى ولهم في جزائر فرسان كنائس قد خربت وفيهم بأس ... ويحملون التجار إلى بلد الحبش ولهم في السَّنَة سفرة وينضم إليهم كثير من الناس، ونُسَّاب حِمْيَر يقولون: إنَّهم من حِمْيَر.» وفي تاج العروس (٤: ٣٠٦)، «أن فَرَسان لقب عمران بن عمرو ... بن تغلب قيل: لُقِّب به لجبل بالشام اجتاز فيه وسكن ولده به ثم ارتحلوا باليمن ونزلوا هذه الجزيرة فعُرِفَت بهم فلَمَّا أَجدبَت نزلوا إلى وادي مَوْزَع فَغَلَبوا عليهم وسكنوا هنالك، ومن الفَرَسانيين جماعة يقال لهم: التَّغالب يسكنون الربع اليماني من زَبِيد.»

(٣٥) «قُرَيْش» أتَيْنا في مَطاوي كلامنا عن مكة بذكر آثار النصرانية في مكّة بين قريش مع الشواهد على ذلك، فَلْيُراجَع.

(٣٦) «قُضَاعة»[٤٧] أشَرْنا مرارًا إلى نصرانية هذه القبيلة التي كانت تُعَد من أمهات القبائل وإلى نصرانية بطونها كجَرم بن ريَّان، وسَلِيح، وكَلْب بن وَبْرَة، وتَيْم اللات، وممن صرَّحوا بدينها النصراني ابن واضح اليعقوبي في تاريخه، قال (١: ٢٣٤): «كانت قُضاعة أول من قدم الشام من العرب ... فدخلوا في دين النصرانية فملَّكهم ملك الروم على من ببلاد الشام من العرب.» وقد مر قول الفارابي (اطلب: المُزْهر، ١: ١٠٥) عن نصرانية قُضاعة، ومثلهما الفيروزآبادي حيث قال: «كانت النصرانية في ربيعة وقُضاعة وبَهْراء

---

[٤٦] اطلب: معجم البلدان، لياقوت، ٣: ٨٧٣–٨٧٤.

[٤٧] كانت من أعظم قبائل العرب عددًا وأكثرها بطونًا وفروعًا، وجاء في معجم ما استعجم للبكري (ص١٧) أن شعارهم يوم حاربهم سابور كان «يا لعباد الله فسُمُّوا العباد.» والنصرانية المنسوبة لقُضاعة إجمالًا ربما نُسِبتْ أيضًا إلى فروعها، كبني عامر بن ثعلبة بطن من قُضاعة وهم رهط هدبة بن الخشرم الشاعر النصراني، وكبَنِي رقاش بطن آخر من قُضاعة يدعوهم هدية (راجع حماسة أبي تمام، ص٢٣٤) بأُمَّة المسيح، وكبني تَيْمِ اللات الذين عَدَّهم الطبري في تاريخه (١: ٢٠٣٢) في جملة نصارى العرب من بني عِجْل وضبيعة.

وتَنُوخ وبعض طيئ.» وقد أفادنا ياقوت في معجم البلدان (٢: ٦٥٨) أنَ دَير خِنْدف في نواحي خوزستان قد بَنَتْه ليلى القُضَاعية المعروفة بخِنْدِف أم ولد إلياس بن مُضَر.[٤٨]

(٣٧) «الْقَيْن»[٤٩] أو بَلْقَين هم بطن من قُضاعة بنو الْقَيْن بن جسر بن الأسد بن وبرة، ومن الشواهد على نصرانيتهم ما رواه الطبري في تاريخه (١: ٢٣٤٧) عن هِرَقْل أنَّه سنة ١٤ للهجرة سار لمُقاتَلة المسلمين في اليرموك وكان معه من القبائل النصرانية المُستعرِبة «لخم وجُذام وبَلقين وبَلِي وعامِلَة وتلك القبائل من قُضاعة.» وكانت هذه القبائل حارَبَت مع الروم سابقًا في تبوك سنة ٧ للهجرة.[٥٠]

(٣٨) «كَلْب»[٥١] بن وبرة قَبيلٌ عظيم من قُضاعة يقسم إلى عدة بطون، وهم من أعرق

---

[٤٨] وقد أقرَّ بنصرانية قُضاعة العلَّامة فلهوزن فقال: «كل قبيلة قُضاعة كانت مُتَنَصِّرة في القرن السابق للإسلام.» “In dem Jahrhundert vor dem Islam hatten alle Quda’astaemme es (das Christentum) angenommen. Wellhausen: Reste arab. Heidentums, p. 231”.

[٤٩] فاتنا أن نذكر هنا قيس عيلان والمُتَنَصِّرين منها، ومن الشواهد على ذلك ما ورد في نقائض جرير والأخطل (éd. Salhani, p. 17) لأبي ثُمامة الكلبي يذكر مرج راهط:

وعَهْدِي بهم في المَرْج حين تَنصَّرَت مشايخُ قيسٍ غيرَ شيخِ مُحارِبِ

وقال جواس الكلبي من بني عدي بن جناب في ذلك اليوم:

فلو كنتُ من قيسِ بن عيلانَ لم أَجِدْ فخارًا ولم أَعدِل بأَنْ أَتنصَّرَا

وقد روى في الحماسة أبياتًا من هذا الشعر ونسبها ص٦٥٦ إلى عمرو بن مخلاة الحمار الكلبي.

ومن قيس عيلان كانت بنو سليم بن منصور بن عكرمة، وقد سبق أن ابن رسته في الأعلاق النفيسة (ص٣٠٩) ينظمهم بين نصارى العرب مع طيئ وتميم، ومثلهم بنو عامر بن صعصعة (Cfr. Journ. As., 5e S., v. 1855[1], p. 371).

[٥٠] اطلب: Sprenger: *Das Leben d. Mohammad*,. III. 292, 295؛ راجع أيضًا: تاريخ الطبري، ١: ١٨٧٣.

[٥١] كان بنو كلب قبل تَنصُّرِهم يعبدون صنمًا اسمه وَد، ثم دانُوا بالنصرانية ورسخ قدمهم فيها، وقد ورد في سيرة الرسول لابن هشام (ص٢٨٢) «أن محمدًا أتى كلبًا في منازلهم إلى بطن منهم يقال لهم: بنو عبد الله فدعاهم إلى الله وعَرَض عليهم نفسه … فلم يقبلوا منه ما عرض عليهم.» ومما رواه ابن خلدون في تاريخه عن ابن سعيد (٢: ٢٤٩):

«وكان لقُضاعة مُلْك آخر في كلب بن وبرة يتداولونه مع السَّكُون من كندة، فكانت لكلب دَوْمة

العرب في النصرانية وأقدَمهم عهدًا فيها، كما رأيت في تاريخ الشام والجزيرة،[٥٢] وقد عُرِفَت قبيلة كلب بشَرَفِها وعِزِّها، ومن أمرائها النصارى زهير بن جناب أحد المعمرين، ومنهم بَحْدَل بن أنيف النصراني حمو معاوية بن سفيان كان له كنيسة في دمشق، ومنهم دَحية بن خليفة قال ابن دريد (في الاشتقاق، ٣١٦): «هو الذي كان جبريل — عليه السلام — ينزل في صورته (كذا).» ومنهم نائلة بنت الفرافصة النصرانية زوجة عثمان، وقد دعت ابنةً لها بمريم، وبقيت كَلْب مدة على نصرانيتها بعد الإسلام إلَا بعضهم وفي المُقْتَضَب لياقوت:[٥٣] أسلَمَت كلب غير مُدَرِه كانوا نصارى.» وفي سيرة الرسول، لابن هشام (ص٢٨٢)، «أن محمدًا دعا إلى الإسلام قومًا من كلب يُعْرَفون ببني عبد الله فلم يَقْبَلوا منه، وكانت كلب تسكن بقاع الشام حتى نُسِبَت إليها.» قال ياقوت في معجم البلدان (١: ٦٩٩):

«البقاع … يقال له: بقاع كلب قريب من دمشق وهو أرض واسعة بين بعلبك وحمص ودمشق فيها قرًى كثيرة ومياه غزيرة نَميرة، وأكثر شُرْب هذه الضِّيَاع من عين تخرج من جبل، يقال لهذه العين: عين الجر، وبالبِقَاع هذه قبر إلياس النبي — عليه السلام.»[٥٤]

(٣٩) «كندة»[٥٥] سبق الكلام عن كندة ونصرانية أهلها في أثناء كلامنا عن النصرانية في الحجاز ونَجْد، وقد روى ابن هشام عن ابن اسحاق في سيرة الرسول ثباتهم على دينهم بعد ظهور نبي المسلمين، قال (ص٢٨٢): «أتى «النبي» كندة في منازلهم وفيهم سيد لهم يقال له: مُليح فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه فأبوا عليه.» ومن رِجَال كندة عبد المسيح عَاقِبُ نجران في أول الإسلام والعَاقِب عندهم دون السَّيِّد، ومنهم أيضًا حُجَيَّة بن المضرب الشاعر، الذي أدرك الإسلام ومات على نصرانيته كما روى في الأغاني (٢١: ١٦).

الجندل وتَبوك ودخلوا في دين النصرانية، وجاء الإسلام والدولة في دَوْمة الجندل لأُكَيدر بن عبد الله بن السَّكُون، ويقال: إنه كندي من ذرية الملوك الذين ولَّاهم التبابعة على كلب فأسرَه خالد بن الوليد … وبقيت بنو كلب الآن في خلق عظيم على خليج القسطنطينية منهم مسلمون ومنهم مُتَنَصِّرون.»

ومن نصارى كلب امرؤ القيس بن أصبغ، كان زعيم قومه عند ظهور الإسلام، وثبت على دينه عند دعوة محمد (اطلب: أُسْد الغابة، لابن الأثير، ١: ١١٥).

[٥٢] اطلب: الباب التاسع من الفصل الأول؛ ثم راجع: تاريخ ابن خلدون، ٢: ٢٤٩.

[٥٣] اطلب: Lammens: Etudes sur Mo‘awia, 287–289.

[٥٤] لعلَّه يشير بذلك إلى «قبر إلياس» لكن قبر إلياس النبي لا يُعْرَف مكانه.

[٥٥] اطلب أيضًا شاهدًا على نصرانيتها (Max Miller *Sacred Books of East*, p. XVI).

(٤٠) «لَخْم» أحد أحياء اليمن الكبرى الشهيرة بنصرانيتها، قال صاحب السيرة الحلبية (٣: ٩٥): «ومن القبائل المُتَنَصِّرة بكر ولَخْم وجُذام»، وكذلك اليعقوبي (١: ٢٩٨) جعل لخمًا من جملة القبائل النصرانية في اليمن، ومثلهما السيوطي في المزهر (١: ١٠٥)، وبقيت لَخْم على دينها زمنًا بعد الإسلام، فتراها محارِبة لجيوش المسلمين مع جُذام وعاملة وغسَّان (اطلب: فتوح البلدان، للبلاذري، ص٥٩؛ وتاريخ الطبري، ج١، ص٢٠٨١) ومن لَخْم كان ملوك الحيرة الذين روينا أخبارهم وذكرنا تَنَصُّر كثيرين منهم، ومن لخم كان بنو عدي بن الذميل النصارى الأشراف الذين ذكر ابن دريد في الاشتقاق (ص٢٢٦) بِيعَتهم في الحيرة.

ومن اللَّخْمِيِّين بنو صالح الذين اختارهم يوستنيان ملك الرُّوم لحراسة دَيْر طُور سينا، كما ذكر ابن بطريق في تاريخه (راجع طبعتنا، ص٢٠٤)، وذكر كتبة العرب عدة أديرة وبيعًا بناها اللخميون كدَيْر عَلْقمة، ودَيْر حنظلة اللخمي، وبِيعَة عَدِي بن الدُّميك «لعلَها الذميل» اللخمي (ياقوت، ١: ٧٩٦).[٥٦]

(٤١) «مازن» بطن من الأزد كانوا في العراق يدينون بالنصرانية، وقد ذكر لهم البلاذري في فتوحاته (ص٢٨١) بِيعَة فقال: «وبِيعَة بني مازن بالحيرة لقوم من الأزد من بني عمرو بن مازن وهم من غَسَّان.»

(٤٢) «مَذْحِج»[٥٧] قبيلة يمنية تنتسب إلى مَذْحِج وهو مالك بن أَزْد بن أُدَد بن كهلان ذكرها ابن واضح اليعقوبي في تاريخه (١: ٢٩٨)، مع القبائل المُتَنَصِّرة، فقال: «تَنصَّر من اليمن طيئ ومَذْحِج، إلخ.» وكانت مَذْحِج تسكن في جهات الموصل (ص٩٤) ومن مَذْحِج كان بنو الحارث بن كعب أهل نجران المشهورون برسوخ قدمهم في الدين النصراني.

(٤٣) «مَعَدٌّ» أبو القبائل العدنانية، ورد ذكر نصارى مَعَدٍّ وأساقفة مَعَدٍّ في تواريخ السريان كما سبق، وكثيرًا ما كانوا يطلقون اسم المَعَدِّيين على العرب المُتَنَصِّرين

[٥٦] كان حقنا أن نذكر في جملة القبائل المُتَنَصِّرة قبل الإسلام قبيلة «لحيان بن هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر» وإلى نصرانيتها أشار حاتم الطائي في قوله:

وما زِلتُ أسعى بين ناب ودارة   بلحيان حتى خِفْتُ أن أَتَنصَّرَا

[٥٧] كان سيد مَذْحِج يزيد بن عبد المَدَان من أشراف النصارى في نجران (الأغاني، ١٠: ١٤٩).

كقولهم: جرجس أسقف المَعَدِّيِّين[٥٨] وكذلك كانوا يَدْعُون بني كلب النصارى بالمَعَدِّيين ܡܥܕ̈ܝܐ ܗܘܘ ܟܠܒ̈ܝܐ ومثلهم بنو عقيل ܡܥܕ̈ܝܐ ܒܢܝ ܥܩܝܠ.[٥٩]

(٤٤) «مَهَرة» حي عظيم من قُضاعة ونصارى مثلهم ينتسبون إلى مهرة بن حيدان وكانوا يسكنون اليمن مع الحِمْيَريين وكان أميرهم عند ظهور الإسلام الحارث بن عبد كُلَال وفد على نبي المسلمين كما روى الطبري (ج١، ص١٧١٧) مع ملوك حمير.

(٤٥) «ناجية» هم بنو ناجية بن عِقال قوم الفرزدق ينتهي نَسبُهم إلى تميم، ولنا على نصرانيتهم في الجاهلية شاهد باهر فيما رواه الطبري في تاريخ سنة ٣٨ (ج١، ص ٣٤٣٤-٣٤٣٥) حيث حدث عن ابن الطفيل ما حرفه:

«قال: كنتُ في الجيش الذي بعثهم علي بن أبي طالب إلى بنى ناجية فقال: فانتهينا إليهم فوجدناهم على ثلاث فِرَق، فقال أميرنا لفرقة منهم: ما أنتم؟ قالوا: نحن قوم نصارى لم نَرَ ديناً أفضل من ديننا فثبتنا عليه، فقال لهم: اعْتَزِلوا، وقال للفرقة الأخرى: ما أنتم؟ قالوا: كنَا نصارى فاسلمنا فثبتنا على إسلامنا فقال لهم: اعتزلوا، ثم قالوا للفرقة الأخرى الثالثة: ما أنتم؟ قالوا: نحن قوم كنا نصارى فأسلمنا فلم نر ديناً هو أفضل من ديننا الأول فقال لهم: أَسْلِموا، فأَبَوا فقال لأصحابه إذا مَسحتُ رأسي ثلاث مرات فشدوا عليهم فاقْتُلوا المُقاتِلة واسْبُوا الذرية فجيء بالذرية إلى علي، فجاء مصقلة بن هبيرة فاشتراهم بمائتي ألف، فجاء بمائة ألف فلم يقبلها علي فانطلق بالدراهم وعمد إليهم فأعتقهم ولحق بمعاوية فقيل لعلي: ألا تأخذ الذرية؟ فقال: لا، فلم يعرض لهم.»

(٤٦) «النَّبَط»[٦٠] سواء عُدَّ النبط من العرب أو من عنصر آخر، لا شك أنهم اختلطوا بالعرب في أنحاء شتى من بادية الشام وأرياف العراق وتخوم مصر ... وتَدَيُّنُهم بالنصرانية قديم تشهد عليه عدة شواهد لكتبة السريان واليونان والعرب رويناها في الفصل الأول الباب الثالث، وقد صرح بذلك قزمَا الرَّحَّالة الهندي في القرن السادس

---

[٥٨] اطلب: Land: *Anecdota Syrirca*, I, 47.

[٥٩] ܡܥܕܝ Smith: *Thesaurus Syr. s. v.*.

[٦٠] ومن الدلائل على نصرانية النبط أنهم لم يختتنوا، قال الشاعر (تاج العروس، ٣: ٥٦٥):

كأنَّ على أكتافهم نَشْرَ غَرقَدٍ   وقد جاوَزُوا نيَّانَ كالنَّبَط الغُلْفِ

وقد جاء في كتب السريان عن عبد يشوع السائح أنه بَشَّر النبط في المدينة وفي جهات عمان كما بَشَّر عبد يشوع الجاثليق بعضًا من بلادهم (J. As, 1835^1, p. 129).

للمسيح وغيره كثيرون، وكان لهم كنائس يطيفون بها في مناسكهم، وإليها أشار متمم النويري يصف ناقته:

بمُجِدَّة عَنسٍ كأن سَراتَها   فدَنٌ تُطيف به النَّبِيط مُرفَّع

(٤٧) «النَّخَع» بطن من مَذْحِج السابق ذِكْرُهم، كانوا نصارى يَسكُنون نواحي نجران، ومنهم كان بنو عبد المَدَان بن عُلة بن سعد العَشِيرة وهو مَذْحِج من سادة اليمن، وكان زُرارة النَّخَعي من أشرافهم وفرسانهم، قال ابن سعد في الوفادات (ed. Wellhausen, *Skizzen*, IV, 69): «هو زُرارة بن قيس بن الحرث بن عدَّاء وكان نصرانيًّا.» وجاء مثل ذلك في أُسْد الغابة لابن الأثير (ج٢، ص٢٠٢).

(٤٨) «النَّمِر بن قاسط» حي من ربيعة نزلوا في الجزيرة مع بني تغلب وبني بكر، وقد سبق في ذكر تاريخ عرب الجزيرة أنَهم دانوا كلهم بالنصرانية وفي المعارف لابن قتيبة «أن تَنَوخ ونَمِر وكَلْب ثلاثتهم إخوة.» وفي فتوح البلدان للبلاذري (ص٢٤٧) أن بني النَّمِر بن قاسط حارَبوا خالد بن الوليد في عين تمر مع تغلب وإياد والقبائل العربية المُتَنَصِّرة، وكانوا سنة ١١ للهجرة حارَبوا المسلمين في البحرين مع شيبان وتغلب (الطبري، ج١، ص١٩٧٣).

(٤٩) «يَشكُر» فرع من بني بكر كانوا يدينون بالنصرانية كإخوتهم من بكر، وكانوا من جملة العرب الذين حاربوا العجم يوم ذي قار، وكانوا محالِفين للخميين ويحاربون معهم وكفى بذلك دليلًا على دينهم.

هذا ما أمكنَّا جمعه من آثار النصرانية في قبائل العرب ولو سمح لنا الوقت بمراجعة كثير ممَا لدينا من المطبوعات والمخطوطات لوجدنا أدلَة غير التي ذكرنا، ولا بد هنا من تنبيه القراء إلى أمر مهم وهو أن قدماء الكتبة، ما كانوا غالبًا لِيَكتَرِثوا بذكر أديان قبائل العرب لا سيما قبل الإسلام، فيطلقون عليهم اسم الجاهلية أو اسم المشركين دون الإفراز بين النصارى وغيرهم، وكانوا لا يرون في نصرانيتهم أمرًا غريبًا على خلاف اليهود فإنهم إذا ذكروا قبيلة يهودية عرفوا دينها سواء أرادوا بذلك تعييرها، أو قصدوا بيان أصلها الأجنبي.

«تم الجزء الأول، ويليه الجزء الثاني في الآداب النصرانية بين عرب الجاهلية.»

القسم الثاني

في الآداب النصرانية في عهد الجاهلية

أتينا في قسمنا الأول بما وقَفْنا عليه من النصوص التاريخية والشواهد الثابتة العيانية عن نفوذ النصرانية في كل أنحاء العرب، حتى أقصاها بُعدًا وأنحاها حدًّا، ثم عدَّدْنا القبائل التي نَسَب الكَتَبة إليها عمومًا أو إلى بعض بُطونها التَّديُّن بالدِّين المسيحي.

وها نحن اليوم نُباشر بالقسم الثاني من كتابنا نَجْمَع فيه ما يَنوط بآداب نصارى العرب في الجاهلية، ونريد بالآداب كل ما خلَّفوه لنا من مآثرهم في الكتابة واللغة والأمثال والحكم والإنشاء والشعر والخطب ممَا رواه عنهم أئمة الأدباء الذين جمعوا شوارد اللغة العربية وآثارها في القرن الثاني بعد الإسلام، فإن هذه البقايا مع ما تَضَعْضَع منها بتوالي الزمان تُنبِئ بَترقِّي النصرانية بين أهل الجاهلية وتُثبِت من وجه آخَر سعة نفوذها في جزيرة العرب، ويضاف إلى هذه المآثر الأدبية عادات أَلِفَها عرب الجاهلية قبل الإسلام واستعاروها من النصارى فتَجِدُهم في أطوار حياتهم الدينية والمدنية يَتقلَّدونهم، ويأخذون مآخذهم حتى لا نكاد نرى في بعض الأنحاء أثرًا من وثنيتهم السابقة، فكل هذه الظواهر يشهد عليها الشعراء القدماء والرواة الذين نَقَل الكتبة المسلمون عنهم أخبار الجاهلية، فنُثْبِتها على عِلَّاتها مع الإشارة إلى مواضعها كما فعلنا سابقًا.

الفصل الأول

النصارى والكتابة العربية

أول خدمة أدَّاها نصارى العرب لقومهم تعليمهم الكتابة، وهي قضية يشهد عليها تاريخ الكتابة العربية وأصولها.

لَمَّا ظهر الإسلام في العشر الثاني من القرن السابع للمسيح لم تكن جزيرة العرب كما زعم البعض حديثة العهد بالكتابة، وإنما كانت الكِتَابة شائعة في بعض الأنحاء دون غيرها، فكان لأهل اليمن كتابة يسمونها المُسْنَد[1] شاعت في بني حِمْيَر بينها وبين الكتابة الحبشية في كثير من الحروف شبه ظاهر، وكانت حروفها مُنْفصِلة، وقد وجد سُيَّاح الفرنج كأرنو وهالوي وجلازر من آثارها في هذه السنين الأخيرة ألوفًا من الكتابات يَرقَى عهد أَوَّلها إلى ما قبل المسيح بنحو ٤٠٠ أو ٥٠٠ سنة، ومنها ما كُتِب في القرون التابعة للميلاد حتى القرن السادس، وهذه الكتابة التي حَلُّوا أسرارها ونشروها في عدة تآليف صابئية، ليست عربية كما ظن البعض منهم كابن خلدون في مقدمته (٢: ٣٤١، من طبعة باريس) حيث قال: «وكان لحِمْيَر كتابة تُسمَّى المُسْنَد ... ومن حِمْيَر تَعلَّمَت مُضَر الكتابة العربية إلَّا أنهم لم يكونوا مُجِيدين لها.»

وكان في جزيرة العرب كِتابة أخرى شاعَت في شمالي بلاد العرب وفي غربيها وهي الكتابة النَّبطية، وقد ظَهرَت على صورتين صورة منها مَربَّعة الحروف مُحْكَمة الصُّنْع مع صلابة في شكلها شاعت خصوصًا في شمالي العرب واستعمَلُوها في النقود والأبنية لها علاقة مع الخط الآرامي المعروف بالإسطرنجلي وصورة أخرى مُستديرة الشكل خشبية الصُّنْع، جرى استعمالها غالبًا في نُسَخ المعاملات والصكوك وما شاكلها.

---

[1] إلى هذه الكتابة يشير أبو ذؤيب بقوله (لسان العرب، ١٨: ٣٠٦):

عرفتُ الديارَ كخَطِّ الدَّويِّ　　　حَبَّره الكاتبُ الحِمْيرِي

فهذه الكتابة النَّبطية على صورتيها هي أصل الكتابة العربية، ويدعوها العرب بالجزم، أخذوها عن الأمم المجاورة لهم، وكان النصارى هم الذين علَّموها العرب سواء قيل: إنهم وضعوها أو إنهم نَقلُوها كقوم وسط، ولنا على ذلك شواهد تثبت قولنا، فإن العرب الذين بَحثُوا عن أصل الكتابة العربية نسبوها إلى رجال من بولان من قبيلة طيئ كانوا على دين المسيح يسكنون الأنبار فقاسوها على شكل السريانية، قال السيوطي في المزهر (١: ٣٩٠).

«إن أوَّل مَن كتب بِخَطِّنا[٢] هذا وهو الجزم مُرَامِر بن مُرَّة، وأسلم بن سِدرة، وعامر بن جدرة وهم من عرب طيئ ... عَلَّموه أهل الأنبار، ومنهم انتشرت الكتابة في العراق

---

[٢] لا يُعْرَف تمامًا أول من كتب بالعربي، وأقدَمُ خطٍّ عربي يُعْرَف اليوم كتابة زبد النصرانية الراقية إلى ١١٠ سنوات قبل الهجرة، يليها كتابة حَرَّان في بلاد حوران تقدَّمَت ٥٤ سنة على الهجرة، وهي أيضًا كتابة نصرانية، ثم نرى الكتابة العربية شائعة في العراق ولا سيما في الحيرة، وممن يذكر أنهم عرفوا الكتابة العربية عدي بن زيد، ورد في الأغاني (٢: ١١٩) أن عدي بن زيد وزير النعمان أبي قابوس كان تعلم مع أولاد المرازبة الكتابة الفارسية، ثم كتب لكسرى بالعربية قال أبو الفرج: «كان عدي أول من كتب بالعربية في ديوان كسرى.» ولعله تعلم ذلك من جده حمار وأبيه زيد، وقد روى صاحب الأغاني عن حمار (٢: ١٩) أنه «خرج من أكتب الناس وصار كاتب النعمان الكبير.» وقال عن زيد: إنه «حذق الكتابة والعربية.» وممن تعلم الخطَّ من قريش بعد ذلك بزمان أبو سفيان بن أمية، وأخوه حرب بن أمية، قال الطبري في تاريخه (٢: ٨٣٦): أول من كتبَ بالعربية من العرب حرب بن أمية، وجاء في شرح العقيلة وفي الاشتقاق لابن دريد وفي أماليه أن بِشْر بن عبد الله الكندي تَعلَّم الخط العربي وهو الجَزْم في الأنبار من مرامر وأَسْلَم الطائيين، وخرج إلى مكة فتزوج الصهباء ابنة حرب بن أمية، وقيل: الصفية بنت الحارث بن حرب، فعلم الخط سفيان بن حرب وتعَلَّمَه معاويةُ من عمه سفيان، وكثر من يكتب بمكة من قريش.

وقال في كتاب لطائف المعارف للثعالبي (Ms de Leide p. 39): كتاب الإسلام: جاء الإسلام وفيهم (أي العرب) بضعة عشر رجلًا يكتبون بالعربية: عمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، وعثمان وأبَان ابنا سعيد، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وأبو سفيان بن حرب، وابناه يزيد ومعاوية، وحاطب بن عمرو بن عبد شمس، والعلاء بن الحضرمي، وأبو سلمة بن عبد الأشهل، وعبد الله بن أبي سرح، وحُويطِب بن عبد العزى، «وكان عبد الله بن أبي سَرْح يكتب للنبي ﷺ ثم ارتدَّ ولحق بالمشركين، وقال: إن محمدًا يكتب ما شئتُ، فلما كان يوم فتح مكة جاء به عثمان وكان بينهما رضاع فاستوهبه النبي فوهبه له.»

ومما يدخل في هذا الباب ما رواه ياقوت في باب نُقَيْرة (٤: ٨٠٧): «قال إن خالد بن الوليد لما خرج إلى عين تَمْر وجدوا في كنيسة صبيانًا يتعلمون الكتابة في قرية يقال: عنها عين تمر، وكان فيهم حُمْران مولى عثمان بن عفان رضي الله عنه.»

والحيرة وغيرها فتعلمها بِشْر بن عبد الملك،[٣] وكان له صحبة بحرب بن أمية لتجارته عندهم فَتعلَّم حرب منه الكتابة، ثم سافر معه بشر إلى مكَّة فتعلَّم منه جماعة من قريش قبل الإسلام، وسُمِّي هذا الخط بالجَزْم؛ لأنه جُزم أي قُطع من الخط الحِمْيَري وتعلَّمه شرذمة قليلة منهم.»

وكذلك نقل صاحب الفهرست (ص٤) عن ابن عباس قوله:

«أول مَن كتب بالعربية ثلاثة رجال من بَولان وهي قبيلة سكنوا الأنبار وأنهم اجتمعوا فوضعوا حروفًا مُقطَّعة وموصولة وهم مُرامِر بن مرة (ويقال: مروة)، وأسلم بن سدرة، وعامر بن جدرة (ويقال: جدلة)، فأما مُرامِر فوضَع الصور وأمَا أسلم ففَصَل ووصَل، وأما عامر فوضع الإعجام، وسُئِل أهل الحيرة: ممن أخذتم الخط العربي؟ فقالوا: من أهل الأنبار.»

ومثلهما ابن عبد ربه في العقد الفريد (٢: ٢٠٥):

«وحَكَوا أن ثلاثة نَفَر من طيئ اجتمعوا ببقعة؛ وهم: مُرامِر بن مرة، وأسلم بن سِدرة، وعامر بن جدرة، فوضعوا الخط وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية فتعلَّمه قوم من الأنبار، وجاء الإسلام وليس أحد يكتب بالعربية غير بضعة عشر إنسانًا.»

وروى البلاذري في فتوح البلدان (ص٤٧١) مثل هذا القول لكنه روى «ببقَّة» بدلًا من «البقعة» وبقة مدينة قرب الأنبار، ثم زاد إيضاحًا بقوله عن بشر:

«وكان بِشْرُ بن عبد الملك أخو أُكَيْدر بن عبد الملك بن عبد الجن الكندي ثم السَّكوني صاحب دَوْمة الجندل يأتي الحيرة فيقيم بها الحين وكان نصرانيًّا فتعلم بشر الخط العربي من أهل الحيرة، ثم أتى مكة في بعض شأنه فرآه سفين بن أمية بن عبد شمس، وأبو قيس بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب يكتب فسألاه أن يُعلِّمَهما الخط فعَلَّمَهما الهجاء، ثم أراهما الخط، فكتبَا، ثم إن بشرًا وسفينًا وأبا قيس أتوا الطائف في تجارة فصحبهم غيلان بن سَلَمة الثقفي، فتعلم الخط منهم وفارَقَهم بشر ومضى إلى ديار مُضَر فتعلم الخط منه عمرو بن زُرارة بن عُدَس فسُمِّي عمرو الكاتب، ثم أتى بِشْر الشام، فتعلم الخط منه أناس هناك، وتعلم الخط من الثلاثة الطائيين أيضًا رجل من طانجة كلب، فعلَّمه رجلًا من أهل وادي القرى، فأتى الوادي يتردَّد فأقام بها وعلَّم الخط قومًا من أهلها.»

[٣] هو أخو صاحب دَوْمة الجندل النصراني (راجع [القسم الأول، الفصل الثاني]).

قال الشاعر كندي من أصل دَوْمة الجندل يخاطب بني قريش:

لا تَجْحَدوا نَعماءَ بِشْر عليكم ... فقد كان ميمونَ النَّقيبة أزهرَا
أتاكم بخَطٍّ الجَزْم حتى حفظتمُ ... من المال ما قد كان شتى مُبعثَرا
وأتقنتم ما كان بالمال مهملًا ... وطامنتم ما كان منه مُنفَّرا
فأجريتم الأقلام عَودًا وبَدْأَة ... وضاهيتم كُتَّاب كسرى وقيصرا
وأُغْنِيتم عن مُسْنَد[٤] القوم حِمْيَرٍ ... وما دَبَّرت في الكُتْب أقيال حِمْيَرا

فهذا الخط هو الذي بعدئذٍ نُسِب إلى الكوفة لَمَّا عُنِيَ أساتذة الكوفة بتحسينه في أوائل الإسلام، أَمَّا الخط الثاني النَّسْخي، فالظاهر أن العرب أخذوه من نصارى النَّبَط المجاورين لجهات الحجاز، ومن رهبان مَدْيَن ووادي القرى الذين ذكرهم شعراء العرب، ويؤيد ذلك قول بعض الكتبة إن واضعي الكتابة العربية كانوا من طسم وجَديس، وقال ابن النديم في الفهرست (ص٤)، والحاج خليفة في كشف الظنون (٣: ١٤٥): «كانوا من ملوك مدين»، وذكرَا رأي من ادعى أنهم وضعوا الخط العربي على أسمائهم وهي «أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت»، فذِكْرُهما لَمَدْين وذِكْر البلاذري لوادي القُرى يُؤيِّد قولنا (راجع ما ورد في القسم الأول عن النصرانية فيهما).

وقد وجَد العلماء من هذا الخط النسخي أمثلة عديدة يرتقي عهدها إلى عهد الخط الآخر، ومن ثم لم يَعُد يجوز القول كما ورد في كتاب القلقشندي عن الخط (المشرق، ٤: ٢٨٠) بأن «الخط الكوفي هو العربي، وأن الخط النسخي وضعه ابن مُقْلَة في القرن الثالث للهجرة.» وعلى كل حال لا بد من الاعتراف بفضل النصارى لتشييع الخط في جهات العرب.

وما عدا هذه الشواهد التي تنسب الكتابة إلى قوم من النصارى قد ورد في تراجم الشعراء وقصائدهم ما يشير إلى شيوع الكتابة بين النصارى قبل الهجرة، فمن ذلك ما روى صاحب الأغاني (٢١: ١٩٥)، وغيره من قدماء الكتبة عن طَرَفة والمُتَلَمِّس وعن الرسالتين اللتين كَتبَهما عمرو بن هند لعامله المكعبر في البحرين موهمًا بأنه يوصي لهما بخير وهو يُضْمِر لهما الشر، ففَضَّ المتلمس صحيفته وأعطاها غلامًا عباديًّا من غلمان

[٤] وهو خط بني حِمْير، ويروى الشطر الثاني من البيت: «وما زَبَّرَتْ في الصُّحف أقلامُ حِميرَا.»

الحيرة فقرأها له: «باسمك اللهم من عمرو بن هند إلى المكعبر، أما بعد إذا جاءك كتابي هذا من المتلمس فاقطع يديه ورجليه وادفنه حيًّا.»[٥] فلمَّا عرف مضمونها فرَّ هاربًا، أما طرفة فلم يشأ أن يقف على محتويات صحيفته فمات قتلًا وضُرب المثل بصحيفة المتلمس للمُتهوِّر في التهلكة، وفي هذا دليل على أن العباديين وهم قوم من النصارى في جهات الحيرة كانوا يعرفون الكتابة، ويعلمونها غلمانهم، وفي الأغاني (٥: ١٩١) أن المُرَقَّش الأكبر وأخاه حرملة «دفعهما أبوهما إلى نصراني من أهل الحيرة فعلمهما الخط.»

ولنا دليل آخر في المُعلَّقات التي زعموا أنها كُتِبَت على الحرير وعُلِّقَت على أستار الكعبة وأخص المُعلَّقات لشعراء من قبائل نصرانية كتغلب وبكر وكندة، ففي كتابتها برهان على شيوع فن الخط بين النصارى.

ومن الأدلة على ذلك ما جاء في شعراء النصرانية من الإشارة إلى الكتابة كقول حاتم الطائي (الأغاني، ٧: ١٣٢):

أَتَعْرِف آثار الديار تَوَهُّما　　كخَطِّك في رَقٍّ كتابًا مُنَمنَما؟

وقال المُرار بن منقذ يصف أخربة دار:

وترى منها رسومًا قد عَلَتْ　　مثل خَطِّ اللام في وَحْي الزُّبُر

ومثلهما لبيد حيث قال:

وجَلا السيولَ عن الطِّلال كأنها　　زُبُر تَحدُّ مُتونَها أقلامُها

وسبقهم امرؤ القيس، فشبه طلل الدَّار بوحي الزَّبُور في عسيب يماني:

لمن طَلَلٌ أَبْصَرْتُه فشَجَاني　　كخَطِّ زَبُور في عَسيبٍ يماني

وقال أيضًا مُخصِّصًا زبور الرهبان:

قِفَا نَبكِ مِن ذِكْرى حبيبٍ وعِرْفَان　　ورسم عَفَتْ آياتُه منذُ أزمان
أَتَتْ حِجَج بعدي عليها فأَصْبَحتْ　　كخَطِّ زَبُور في مَصاحفِ رُهْبان

---

[٥] راجع في: المشرق، ٥: ١٠١٦–١٠٦٢ تفاصيل هذه القصة.

وقد افتخر أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت بقومه إياد لعلمهم بالكتابة، فقال:

قَوْمِي إياد لَوْ أنَّهم أَمَمُ أو لَوْ أقَاموا فَتَهْزَل النَّعَم
قَوْم لهم ساحةُ الْعِراق إذا سارُوا جميعًا والقطُّ والقَلَمُ

القِط هو الكتاب، وقد بِيَّنَّا سابقًا أن بني إياد من أول القبائل المُتَنَصِّرة، ومنهم كان لقيط الإيادي (راجع [القسم الأول، الباب السابع]) الذي أرسل لقومه صحيفة يُنذِرُهم فيها بما يتهددهم من الأخطار من جانب كسرى[٦] أولها:

سلامٌ في الصَّحِيفة من لقيط إلى مَن بالجزيرة مِن إيادِ

هذا ومما ينفي كلَّ شك فيما نَقوله، أن الكتابتين العربيتين اللتين وُجِدَتا حتى اليوم من عهد الجاهلية هما لقوم من النصارى، فأقدَمُهما الكتابة التي رسمنا صورتها في القسم الأول الباب التاسع وهي الكتابة المُكتَشفَة في زَبَد في جوار الفرات يَرقَى عهدها إلى السنة ٥١٢ للمسيح أي قبل الهجرة بمائة وعشر سنين وهي ثلاث لغات أي اليونانية والسريانية والعربية تُصَرِّح بأن المشهد الذي أُقِيم هناك إنما شُيِّد تذكارًا للقديس سرجيوس الشهيد وفي أولها الاسم الكريم أو دعاء له تعالى.[٧]

والأثر الثاني وُجِد في حَرَّان من أعمال بلاد حوران مكتوبًا باليونانية والعربية تاريخه ٥٤ قبل الهجرة أي السنة ٤٦٣ لبُصرى و٥٦٨ للمسيح وَرَد فيه أن هناك «مرطول (Martyrium)» أي مشهد لتذكار القديس يوحنا المعمدان هذا، أوله بالعربية:

أنا شرحبل بر «بن» طلمو «ظالم» بَنَيتُ ذا المرطول سنة ٤٦٣م.

وقد رسمنا مع هذه الكتابة كتابتين أخريين عربيتين، الواحدة بالحرف النبطي وَجدها في نَمَّارة في الصَّفا الرَّحَّالة الفرنسوي رينه دوسو، وهي مكتوبة على ضريح أحد ملوك الحيرة يدعى امرأ القيس بن عمرو، تاريخ وفاته ٧ كسلول من السنة ٢٢٣ لبصرى الموافق لسبعة كانون الأول من السنة ٣٢٨ للمسيح، والأخرى عن صفيحة

[٦] راجع: تاريخ ابن الأثير، ١: ١٥٧، طبعة مصر.

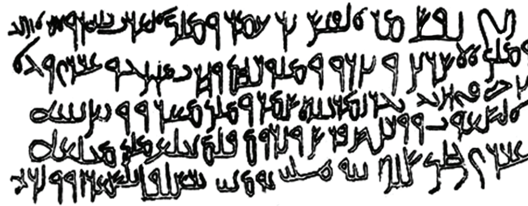
[٧] اطلب: رحلة المسيو دوسو (R. Dussaud) إلى بادية الشام، ص٣١٦–٣٣٤؛ وكتاب لزبرسكي (Lidzbarski) في الكتابات الآرامية، ص٤٨٤.

قرآن كُتِبَت على الرَّقِّ من القرن الثالث للهجرة وهي خاصة مكتبتنا الشرقية، فكل هذه الحُجَج والبينات دَعَت بالعلماء المستشرقين إلى أن ينسبوا الكتابة العربية أو على الأقل انتشارها بين العرب إلى النصارى وأولهم إمامهم دي ساسي (Bon S. de Sacy)، الذي كتب في هذا الصدد مقالة واسعة أثبت فيها استعارة العرب فن الكتابة من نصارى العراق وما بين النهرين قال في المجلة الآسيوية (J. A., Ire Série, X. 210–211) مشيرًا إليها:

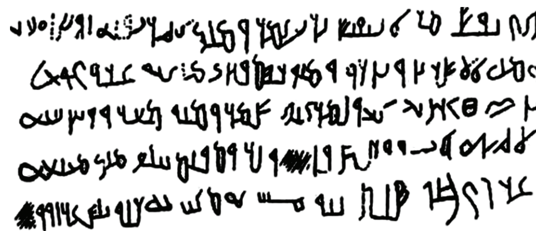
J'établissais par des preuves de toute espéce que l'écriture … fut apportée dans le Hedjaz de la Mésopotamie, où les Syrieus l'avaient propagée parmi les tribus arabes qui avaient, du moins en partie, reçu la religion chrétienne, ce culte auquel la mauvaise foi a si souvent reproché de favoriser l'ignoance, et qui, comme l'histoire en fait foi, a toujours amené á sa suite l'art d'écrire et le goût pour l'étude.

جدول أقدم الكِتَابات العربية.

(١) كتابة عربية بخط نَبَطي تاريخها سنة ٢٢٣ لبُصرى ٣٢٨ للمسيح وجدَها في نمارة من أعمال حوران المستشرق دوسو.



صورة الكتابة مأخوذة عن الحجر



رسم الكتابة بالخط

تي نفس امرء القيس بر عمرو ملك العرب كلّه ذو أسر التاج
ومَلكَ الاسدين ونزارو وملوكهم وهرّب محجو عكدى وجاء
بزجاي (؟) في حَبج نجران مدينت شمّر ومَلكَ معدو وبيَّن بنيه
الشعوب ووكّلهن فارسو لروم فلم يبلغ ملكٌ مبلغهُ
عكدي هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ بكسلول بالسعد ذو ولدَهُ

رسم الكتابة بخط عربي (نقلًا عن كتاب دوسو)

صورة القلم الحميري

صور ونصب سعداوم دمدموم

(٢) كتابة زَبَد في ثلاث لغات يونانية وسريانية وعربية.

على مشهد أقيم ذكرًا لمارسرجيوس تاريخها ٨٢٣ للإسكندر ٥١٢ للمسيح اطلب صورها فى القسم الاول صفحه ١٠٤.

(٣) كتابة عربية يونانية وُجِدَت في حَرَّان من أعمال حُورَان.

تاريخها سنة ٤٦٣ لبُصرى و٥٦٨ للمسيح.

(٤) مثال خَطٍّ عربي نَسْخِي على البَرْدِي تاريخه السنة ٢٤ للهجرة (٦٤٦م).

(٥) قطعة من سورة البقرة عن رَقٍّ من القرن الثالث للهجرة في مكتبتنا الشرقية.



ودونك رسمها بالحرف الإسطرنجلي للمقابلة بين الخطين

ܘܟܨܝܒ ܡܢ ܐܠܣܡܐ ܦܝܗ ܛܠܡܐܬ ܘܪܥܕ ܘܒܪܩ

او كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق

ܝܓܥܠܘܢ ܐܨܐܒܥܗܡ ܦ ܐܕܐܢܗܡ ܡܢ ܐܠܨܘܐܥܩ

يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق

ܚܕܪ ܐܠܡܘܬ ܘܐܠܠܗ ܡܚܝܛ ܒܐܠܟܦܪܝܢ ܝܟܐܕ ܐܠܒܪܩ...

حذر الموت والله محيط بالكفرين (كذا) يكاد البرق ...

وقال الأثري الشهير فيليب برجه في كتابه عن أصول الكتابة: (Ph. Berger: *Histoire de l'Ecriture dans l'Antiquité*, 2de éd., 287) «إن الكتابة العربية وُجِدَت قبل محمد وكانت نصرانية قبل أن تتحول إلى إسلامية.»

(L'écriture arabe existait avant Mahomet, elle a été chrétienne avant d'être musulmane.)

ومثلهما المستشرق العلامة ولهوزن (J. Wellhausen: *Reste arab, Heidentums*, p. 232)، أكد بأن الكتابة العربية شاعت أولًا بين النصارى ولا سيما العباديين في الحيرة والأنبار فقال:

"Die Christen haben das Arabische wol zuerst als Sprichtsprache gebraucht. Namentlich die Ibaedier von Hira und Anbar scheinen sich in dieser Beziehung Verdienste erworben zu haben."

ويوافق هؤلاء الكَتَبة الدكتور الألماني روشتين (G. Rothstein: *Die Dynastie d. Labmiden in al Hira*, p. 26)، والأستاذ المجري الشهير غولدسير (J. Goldziher: *Muhammedanische Studien*, I, 110).

فهذه الشواهد كافيه لتثبت حقيقة قولنا بأن الفضل الكبير في تعليم الكتابة العربية للمسلمين يرجع لنصارى العرب وإن لم ننكر أن لليهود أيضًا حِصَّة في ذلك، لا سيما في المدينة كما ذكر البلاذري، وكذلك رووا أن بعض العرب كتبوا في الجاهلية بالعبرانية، إلا أن عبرانية ذلك العهد هي الآرامية أو السريانية كقول صاحب الأغاني (٣: ١٤) عن ورقة بن نوفل «إنه كان يكتب بالعبرانية من الإنجيل ما شاء.» والله أعلم.

الفصل الثاني

الألفاظ النصرانية في لغة عرب الجاهلية

كثيرًا ما كنا نسمع في حداثَة سِنِّنَا بأن اللغة العربية لغة القرآن، وأنها كلها إسلامية، وقد قرأنا ذلك في بعض كُتب الأوربيين الذين لم يفقهوا الأمر ورموا الكلام على عواهنه ولعلهم قالوا ذلك؛ لأن القرآن أول كتاب دونه العرب على الرَّق أو الجِلْد أو البردي أو رِقَاق العظام، على أن اللغة العربية سبقت الإسلام كما هو معروف ونطق بها قبائل شتى منها قبائل نصرانية كشفنا القناع عن دينها المسيحي، ثم أَثْبَتْنَا فضل النصارى في سبقهم إلى الكتابة العربية.

وليست غايتنا هنا أن نتتبع كل مفردات لغتنا الشريفة فنروي ما جاء منها على ألسنة النصارى، فإن ذلك مستحيل؛ إذ كانت العربية مع وفرة لهجاتها واحدة في القبائل النصرانية وغيرها، كما أن لغة النصراني في عهدنا لا تختلف عن لغة المسلم، ومع إقرارنا بذلك يمكننا أن نجمع عدة مفردات وردت في المعجمات العربية القديمة، دخلت في اللغة بواسطة نصارى العرب لا سيما شعراؤهم، ومجموعها دليل واضح على تأثير النصرانية في لغة أهل الجاهلية.

وتسهيلًا لبيان الأمر نروي هذه الألفاظ على حسب معانيها مباشرة، بالألفاظ الدَّالَّة عَلَيْه تعالى وكمالاته وأسمائه الحسنى.

(١) الاسم الكريم وأسماؤه الحسنى في الجاهلية

إن الوثنية كانت عَمَّت قبل المسيح كل جهات جزيرة العرب، كما سبق لنا بيانه وشَهِدَت عليه المآثر المتعددة، فإن وَجَدْنا فيها ديانة التوحيد ووصف كمالاته تعالى وألفاظًا دالة على ذلك بعد المسيح، فلا بد من القول: إن العرب الذين فاهُوا بها كانوا مُوحِّدِين، فَهُم

إما يهود وإما نصارى، وعلى الأقل أنهم استعاروها من أولئك المُوَحِّدِين، على أننا نعرف الجهات التي كان يسكنها اليهود في جزيرة العرب، أما النصارى فكانوا مُنبَثِّين في كل أنحائها فيجب القول بأن هذه الألفاظ هي غالبًا للمسيحيين دون اليهود.

«الله تعالى» لا مراء بأن اسمه عز وجل كالإله الحق سبحانه وتعالى قد سبق عهد الإسلام وشاع في كل أنحاء العرب، وقد وجده صاحب الشريعة الإسلامية مُكرَّمًا مُعظَّمًا بين أبناء جنسه المكيين فهو يكرر اسمه في القرآن كالإله العظيم الذي ليس فوقه إله، وإن كان بعض منهم يشركون به آلهة غيره دونه رتبة.

أما اشتقاق هذا الاسم فلم يتفق عليه كتبة العرب، وقد زعموا غالبًا أنه عربي الأصل وأنه مركب من لفظة إله مسبوقة بال التعريف كأنه «الإله» اختصروه بالله، أما علماء اللغات السامِيَّة فيجمعون على أن هذا الاسم مشتق من أصل آرامي «إيل (אל)» مُفخَّم بزيادة الهاء فجاء في الكلدانية والسريانية على صورة «آلَهَا אלהא» ܐܠܗܐ، فقالوا بالعربية الله بلام أصلية مفخمة، وقد جاء الاسم الكريم في الكتابات النبطية والصفوية، فالنبطية ذكرته منسوبًا إليه كزيد الله، وعبد الله، وتَيْم الله، وورد في الكتابات الصفوية منفردًا. ولما كانت النصرانية دخلت إلى بلاد العرب خصوصًا من جهات الشام، وتَمكَّنَت بين أحياء النَّبَط، أطلقوا اسم الله في لهجتهم على الإله الحق كما شاع بين طوائف السريان ونقلوه في أسفار العهدين القديم والحديث منذ اوائل القرن الثاني للمسيح، وخُلاصَة القول أن اسم الله دخل في جزيرة العرب بنفوذ النصرانية خصوصًا، وعليه قد تكرر هذا الاسم الكريم في الشعر الجاهلي، الذي كان معظمه لشعراء نصارى من قبائل نصرانية كربيعة وبكر وإياد وغيرهم ... ولا نرى حاجة إلى ذكر أمثلة عديدة لهذه الحقيقة لثباتها وكثرة استعمال اسم الله في الشعر الجاهلي، أما بقية آلهة العرب فقل ما ورد ذكرها، إذ كانت الديانة الوثنية قد تقلص ظلها قبل ظهور الإسلام، وكفى بإيراد أقوال بعضهم في الاسم الكريم على صورتيه «الله» أو «إله»، قال زيد بن عمرو (عن رواية ابن هشام):

إلى الله أُهْدِي مِدْحَتِي وثَنائِيَا	وقولًا رَصِينًا لا يَنِي الدَّهرَ باقيا
إلى المَلِك الأعلى الذي ليس فوقه	إلـه ولا رَبٌّ يـكـون مُـدَانِـيـا
رضيتُ بك اللهم ربًّا فلن أُرَى	أديـن إلـهًـا غَـيـرَك الـلـه ثـانِـيـا

وقال الأعشى (شعر النصرانية، ص٣٦٥):

وذا النُّصُب المَنصوب لا تَسْكُنَنَّه   ولا تَعْبدِ الأوثان واللهَ فاعْبُدا

وقال بعض الإياديين (كتاب البيان، للجاحظ، ١: ١٩٠):

ونحن إيادٌ عبيدُ الإله   ورهطُ مُناجيه في السُّلَّم

وقال أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت:

إلهُ العالمين وكلِّ أرضٍ   وربُّ الرَّاسيات من الجبال

ويَقْرُب من اسم الإله اسم الرب كقول بن أوس بن حجر:

أَطَعْنَا ربَّنا وعصاه قوم   فذُقْنا طَعْم طاعتنا وذاقوا

(الأسماء الحسنى) يريد العرب المسلمون بالأسماء الحسنى صفات له تعالى تدل على أخص كمالاته عز وجل، استخرجوها من بعض أقوال القرآن وعدُّوها ٩٩ اسمًا، وأسماء الله لا عداد لها كما هو معروف لأن كمالاته تعالى لا يضم بها إحصاء، ومهما وُصفت به الذات الإلهية فما تلك الأوصاف إلا نقطة من بحر، ولا نتتبع كل اسم من هذه الأسماء، وإنما نكتفي بما هو أدل على جلاله تعالى وعظمته وقدرته وعلمه ورحمته فنجدها كلها سبقت على ألسنة أهل الجاهلية، وإذ كان الله الواحد الصمد قد عرفه العرب كما قلنا بواسطة المُوحِّدِين ولا سيما النصارى، وجب القول بأن هذه الصفات استعارها أيضًا كَتبَة العرب وشعراؤهم عن الدين النصراني، والأسفار المُقدَّسة التي كان يتداولها أرباب هذا الدين.

وكمالاته تعالى على صنفين، صنف منها يعرف الذات الإلهية في نفسها بقطع النظر عن المخلوقات كلها، والصنف الآخر يُشْعِر بصفات العِزَّة الإلهية بالنسبة إلى الكائنات الخارجة عنه.

فمن الصنف الأول ما دل على وجوده تعالى الواجب وقيامته بذاته وجلاله وعلمه وحكمته وقدرته وغناه وأبديته، وكل هذه الصفات قد عرفها أهل الجاهلية من نصارى العرب واستعاروها من الأسفار المُقدَّسة من العهدين القديم والحديث، فمن ذلك قول

أمية بن أبي الصلت يصف عظمته وجلاله وفي كلامه كثير مما ورد في القرآن من الأسماء الحسنى، فقال (شعراء النصرانية، ص٢٢٧):

لكَ الحمدُ[1] والنَّعْماء والمُلْك ربَّنا فلا شيء أعلى منك مجدًا وأَمْجدُ
مليكٌ على عرش السماء مُهَيْمِن لعزته تَعْنُو الوجوه وتَسجدُ
عليه حجاب النور والنُّورُ حَوْلَه وأنهارُ نُورٍ حوله تَتوَقَّد
فلا بَشَرٌ يَسمُو إليه بِطَرْفِه ودون حِجاب النُّور خَلْق مُؤيَّد

ومنها في وحدانيته وصمدانيته وملكه المتعالي:

فَسُبحان مَن لا يَعرِف الخلقُ قَدْرَه ومَن هو فوق العرش فَردٌ مَوحَّدُ
ومن لم تُنازِعْه الخلائق مُلْكَه وإن لم تُفَرِّدْه العبادُ فَمُفْرَدُ
مليكُ السَّموات الشِّدَاد وأرضها وليس لشيء عن قَضَاه تَأَوُّد

وفي وحدانيته وقدرته وبقائه قال ورقة بن نوفل (الأغاني، ٣: ١٤):

سُبحان ذي العرش سبحانًا يُعادِلُه ربُّ البَرِيَّة فَرْد واحدٌ صَمَدُ
مُسَخَّر كل ما تحت السماء له لا ينبغي أن يُناوِي مُلْكَه أَحدُ
لا شيء مما نرى تَبقى بَشاشتُه يَبقى الإله ويُودِي المالُ والولدُ

ولزيد بن عمرو في ربوبيته وولائه وأبديته قوله (كتاب البدء والتاريخ، ١: ٦٢؛ وسيرة الرسول، لابن هشام، ص١٤٦):

أَلَا كلُّ شيء هالِكٌ غيرَ ربِّنَا ولله ميراثُ الذي كان فانيا
وليٌّ له من دون كلِّ ولاية إذا شاء لم يُمْسوا جميعًا تواليا
وإن يَكُ شيء خالدًا ومُعمَّرًا تأمَّلْ تَجِدْ مِن فَوقه اللهَ باقيا
له ما رأتْ عينُ الْبصيرِ وفوقَه سماءُ الإله فوق سَبع سمائِيا

---

[1] وردتْ هذه الأبيات في كتاب الحيوان للدميري (٢: ١٩٥) وروى هناك: «والنعماء والفضل ... حمدًا وأمجد.» وذكر أيضًا قول محمد نبي الإسلام لما سمع هذه الأبيات.

وروى الصغاني: «فوق سِت سمائيا»، وسماه أُمَيَّة مُقدَّسًا[٢] وذا الجلال فضلًا عن بقائه فقال:

فـكـلُّ مُـعـمَّـر لا بُـدَّ يـومًـا وذي الدنيا يَصير إلى الزَّوالِ
ويَـفْـنَـى بَـعـد جِـدَّتـه ويَـبْـلَـى سوى الباقي المُقَدَّس ذي الجلالِ

ودعاه زيدُ بن عمرو (الإتقان، للسيوطي، ص١٥٤) بالعزيز والواسع فقال:

إن الإلهَ عزيزٌ واسِعٌ حَكَمُ بِكَفِّه الضرُّ والبأساءُ والنِّعَمُ

فترى في كل هذه الأبيات عددًا عديدًا من أسمائه — عز وجل — كالواحد والأحد والفرد والصمد والأول والآخر والباقي والعزيز والعظيم والكبير والعَلِي والمُتعالي والمحتجب والماجد والمجيد والقادر والقوي والقهار والمقتدر والملك ومالك الملك وذي الجلال والمُقدَّس والحق والعليم والحكيم والغني، وكلها من أوصافه الدَّالَّة على كمالاته الذاتية، أما الصفات الإلهية المنبئة بالعلاقة بين الخالق والمخلوق، فوَرَد منها كثير في الشِّعر الجاهلي ومصدرها كما في الصفات السابقة التعاليم النصرانية الشائعة في جزيرة العرب، فِمن جميل أبيات أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت قوله يصف خالق البرية (شعراء النصرانية، ص٢٢٨):

هو اللهُ باري الخَلْق والخَلْقُ كلهم إمـاءٌ لـه طوعًـا جميعًـا وأَعْبُـدُ
وأنَّى يكونُ الخَلْق كالخالق الذي يدومُ ويَبْقَـى والـخـليـقـةُ تَـنْـفَـدُ

ووصَفَه هناك بالمحيي المميت:

ونَفْنَى ولا يَبقى سوى الواحد الذي يُمِيت ويُحْيِي دائبًا ليس يَهمُد

[٢] وكذلك دعَوه قدوسًا، قال العجاج (لسان العرب، ٨: ٥١): «علم القُدُّوس مولى القُدسِ»، ومثله للأخطل (أغاني، ٨: ٨٥): «قُدُّوس قُدُّوس».

وله في وصف تكوين العالَم أقوال كثيرة كقوله في السماء (شعراء النصرانية، ص٢٢٦).

بَناها وابْتَنَى سبعًا شدادًا ... بِلا عَمَد يُرَيْن ولا رجالِ
وسَوَّاها وزَيَّنها بِنُورٍ ... من الشمس المُضيئة والهلالِ
ومِن شُهُب تَلألأ في دُجَاها ... مَراميها أشدُّ مِنَ النِّصال
وشَقَّ الأرضَ فانْبَجسَت عيونًا ... وأنهارًا من العذب الزُّلالِ
وبارَك في نواحيها وزَكَّى ... بها ما كان مِن حَرْثٍ ومالِ

ولقس بن ساعدة في الخالق وغايته من الخلق (شعراء النصرانية، ص٢١٦):

الحمدُ لله الذي ... لم يَخلقِ الخلقَ عَبَثْ

ومثله لِعَدِي بن زيد وسماه مُسبَّحًا وخلَّاقًا (شعراء النصرانية، ص٤٥٤):

ليس شيءٌ على المنونِ بِباق ... غيرُ وجه المسبَّح الخَلَّاقِ

ومما يضاف إلى صِفَته بالخالق قولُ أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت (العرائس، للثعلبي، ص١١):

إذا قِيلَ مَن رَبُّ هذي السما ... فليس سواه له يُضْطَربْ
ولو قِيلَ رَبٌّ سوى ربنا ... لقال العِبَاد جميعًا كَذِبْ

وسمَّاه أُمَيَّة كبيرًا ومنشئًا ومُحييًا وقديرًا فقال:

مَجِّدُوا اللهَ وَهْوَ لِلمَجْد أهلُ ... رَبُّنا في السماء أَمْسى كبيرا
ذلك المُنشئُ الحجارةَ والمَو ... تَى وأحياهُمُ وكان قديرا

ووصَفَه قس بن ساعدة بالمهيمن (شعراء النصرانية، ٢١٧):

فأعوذ بالله المهيمن مما ... غالَه بالبأساءِ والنَّحْس

ونعَتَه أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت بالسَّلِيطَط والمقتدر فقال:

إنَّ الأنام رعايا الله كُلهم ... إنَّ السَّلِيطَط فوق الأرض مُقْتدِر

وسماه الكريم فقال:

ثم يَجْلُو النهار ربٌّ كريمٌ   بمهاة شُعاعُها مُنثورُ

وقال أعشى قيس:

رَبِّي كريمٌ لا يُكَدِّر نِعْمةً   فإذا تُنُوشِد في المَهارق أَنْشَدَا

وخصَّه زُهَيْر بن أبي سُلْمَى بمراقبة الأعمال والانتقام لها في مُعلَّقته:

فلا تَكْتُمُنَّ اللهَ ما في صدوركم   لِيَخْفَى ومَهْمَا يُكْتَمِ اللهُ يعلمِ
يُؤَخَّر فَيُوضَع في كتاب فيُدَّخَر   ليوم الحساب أو يُعَجَّل فَيُنْقَمِ

ودعاه أمية حكَمًا فقال:

لكَ الحمدُ والمَنُّ ربَّ العبا   دِ أنتَ المليكُ وأنتَ الحَكَم

وسمَّاه عليًّا ومتعاليًا (المرتضى، ص٣١٣):

وأشهدُ أن اللهَ لا شيء بعده   عليًّا وأمسى ذِكْرُه مُتعالِيا

ووصَفُوه بالرحمن والرحيم، قال الأعشى (شعر النصرانية، ص٣٩١):

فَلَئِنْ ربُّك من رحمته   كَشَف الضِّيقَة عَنَّا وفَسَح

وقال المُثقَّب العبدي (شعر النصرانية، ص٤١٥):

لَحَا الرحمنُ أقوامًا أَضاعوا   على الْوَعْوَاع أَفْراسِي وعِيسِي

وقال سلامة بن جندل يصفه بالرحمن والجَابِر والجامع (اطلب طبعتنا، ص١٩):

عَجلتم عَلينا حِجَّتَيْن عليكُم   وما يَشأِ الرحمنُ يَعْقِدْ ويُطْلِق
هو الجابِر العَظْمِ الكسيرِ وما يشَا   من الأمر يَجْمَعْ بَيْنَه ويُفَرِّقِ

ويُرْوَى: «هو الكاسر العَظْمِ الأمين»، ووصفه زيد بن عمرو بالرحمن والغفور، فقال (الأغاني، ١٣: ١٦):

أربًّا واحدًا أمْ أَلْف رَبٍّ أَدِينُ إذا تَقسَّمَت الأمورُ
ولكنْ أعبدُ الرحمنَ ربي لِيَغْفِر ذنبي الرَّبُّ الغفور

وقال أُمَيَّة في الرحيم (كتاب الألفاظ، لابن السِّكِّيت، ٤٩٠):

ثم يَجْلُو الظَّلام ربٌّ رحيم بمَهاة شُعاعُها مَنشُورُ

ودعاه الورقةُ بن نوفل بالسَّميع المُجيب فقال (الأغاني، ٣: ١٦):

أَدِينُ لربٍّ يستجيب ولا أرى أَدِين لِمَن لا يسمع الدَّهرَ واعيا
أقول إذا صَلَّيْتُ في كل بِيعَة تَباركْتَ قد أَكثرْتَ باسمك داعيا

فهذه الأسماء كلها من صفات الله تبارك وتعالى تثبت جليًّا بأن أهل الجاهلية المُتَنَصِّرين لم يَفُتْهم شيء من معرفة الإله الحق.

(٢) السماء والجحيم وما فيهما

كما اقتبس عرَب الجاهلية مَعارِفهم عن الحق سبحانه وتعالى من نور النصرانية ودُعاتها خصوصًا، كذلك يجب القول: إنهم عرفوا الآخرة بِفَضْلهم وإن أمكنهم أن يَستعِيروا شيئًا منها من اليهود، إلا أن اليهود — كما سبق لنا القول — كانوا مُنْزَوِين في بعض أنحاء جزيرة العرب ولم يَخْتَلِطوا مع أهلها إلا اختلاطًا يسيرًا على خلاف النصارى الذين رأيناهم فيما مر، ساكنين في كل أقطار العرب لا يخلو منهم حي واحد، فلا عَجَب أن يكونوا بَثُّوا تعاليمهم عن دار الخُلود بين أهل البادية والحَضَر كما نَشَروا تعريفهم للخالِق — عز وجل.

«السماء» معلوم أن السماء مقام الله حيث يَتجلَّى للأبرار وحيث يسعى في خدمته ملائكةٌ مُنزَّهون عن الهَيُولَى … وقد مَرَّت لنا أبيات لأُمَيَّة بن أبي الصَّلْت وصَفَ فيها تلك السماء العليا، فلا حاجة إلى تكرارها وإنما نضيف إليها قوله في الدَّارَيْن:

دَارٌ دَحاها ثُمَّ أَعْمرَنَا بها وأقام بالأُخْرى الَّتِي هِي أَمْجَدُ

وفي هذه السماء العليا قال أيضًا:

فأَتَمَّ ستًّا فاسْتَوَت أَطْبَاقُها وأتى بِسابِعَة فأنَّى تُورَدُ

وتُدعَى السماء أيضًا بِجَنَّة الخُلْد وبالفردوس وجنان عَدْن، قال أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت:

رَبِّي لا تَحْرِمْنَني جَنَّة الـ ـخُلْدِ وكُنْ ربي بي رَءُوفًا حفيا

وقال حكيم بين قبيصة يخاطب ابنه بشرًا (في الحماسة: ٧٩٢، ed. Freytag).

فما جَنَّةُ الفردوس هاجرتَ تَبتَغِي ولكنْ دَعاك الخبزُ والتمرُ أَحْسَبُ

ومثله لحسان بن ثابت (تاج العروس، ٤: ٤٠٥):

وإنَّ ثوابَ الله كُلَّ مُوَحِّد جِنانٌ مِنَ الفِردوس فيها يُخَلَّدُ

وقال النابغة (المخصص، لابن سيده، ٩: ٥٦):

فسَلام الإله يَغْدُو عليهم وفيُوء الفردوسِ ذات الظلال

وللسماء في الشعر القديم أسماء غيرها منها بِرْقِع وعدن ونعيم، قال أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت (المخصص، ٩: ٦):

وكأَنَّ بِرْقِعَ والمَلائِكَ حَوْلَها سِدَرٌ تَواكَلَهُ القَوائِمُ أَجْرَد

وجاء في عدن له أيضًا:

جَهنَّمُ تلك لا تُبْقِي بَغِيًّا وعَدْنٌ لا يُطالِعُها رَجِيمُ

وقال في النعيم:

لَم يُخْلَق السَّماءُ والنُّجومُ والشَّمسُ معها قَمَرٌ يقومُ
قَدَّره المهيمنُ القَيُّومُ والحشُّ والجَنَّةُ والنعيمُ
إلا لأمرٍ شَأْنُه عَظيمُ

وسمَّاها أيضًا دارَ صِدْقٍ قال:

وحَلَّ المتقونَ بِدارِ صِدْق   وَعَيْش ناعِمٍ تَحتَ الظِّلال
لهم ما يَشْتَهون ومَا تَمَنَّوا   مِنَ الأفراحِ فيها والكَمالِ

«الملائكة» وأَخصُّ ما في السماء الملائكة، ومعلوم أن ذِكْر الملائكة لم يمكنه أن يَتَّصل إلى العرب إلا بطريقة وَحْي سابق ودِين شاع فيه المُعْتَقَد بوجود الملائكة كالنصرانية، وقد أحسن أُمَيَّة في وصفهم فقال:

يَنتابُه المُتنَصِّفُون بسَجْرة   في ألفِ ألفٍ من مَلائكَ تُحْشَدُ
رُسْلٌ يَجوبون السماء بأمره   لا ينظرون ثَواء من يَتَقصَّدُ
فَهُم كَأَوْب الرِّيح بَيْنَا أَدبرَت   رَجَعتْ بَوادِي وَجْهِها لا تُكرَد
حذٌّ مَناكبهم على أكتافهم   زفٌّ يُزَفُّ بهم إذا ما اسْتَنجَدوا
وإذا تلاميذُ الإله تَعاوَنوا   غَلَبوا ونَشَّطَهم جَناحٌ معتدُ
نهضوا بأجنحة فلم يتواكلوا   لا مُبْطِئ منهم ولا مُسْتَوغِدُ

وله من قصيدة أخرى:

ملائكةٌ أقدامُهم تحت عرشه   بِكفَّيْه لولا الله كَلُّوا وأَبْلَدوا
قيام على الأقدام عانِين تَحْتَه   فَرائِصُهم مِن شدة الخوف تُرْعَدُ
وسبطٌ صفوفٌ ينظرون قضاءَه   يُصِيخُون بالأسماع للوحي رُكَّدُ

وهناك قد مَيَّز طبقات الملائكة، وأشار إلى عددهم ومختلف أعمالهم ورُتَبهم كالكروبيم والحُرَّاس وصَرَّح بأسماء بعضهم كجبرئيل وميخائيل قال:

أَمِين لِوحي القُدسِ جبريلُ فِيهم   ومِيكالُ ذو الرُّوح القَوِي المُسدَّدُ
وحُرَّاس أبواب السَّمواتِ دُونَهم   قيامٌ عليها بالمقاليد رُصَّدُ
فنِعْم العِبادُ الْمُصطَفَون لأمْرِه   ومِنْ دونهم جُنْد كَثيف مُجنَّدُ
ملائكة لا يفترون عبادة   كرُوبِيَّة منهم رُكوعٌ وسُجَّدُ

فساجِدُهم لا يَرْفَع الدَّهرَ رأسَه　　يُعظِّم ربًّا فَوقَه ويُمجِّد
وراكِعُهم يَحْنُو له الدَّهرَ خاشعًا　　يُردِّد آلاءَ الإله ويَحْمَدُ
ومنهم مُلِفٌّ في الجَناحَين رأسهُ　　يَكادُ لِذكْرَى رَبِّه يَتفَصَّدُ
من الخوف لا ذُو سَأْمَةٍ بِعِبَادةٍ　　ولا هُوَ من طُول التَّعبُّدِ يُجْهَدُ
ودون كَثيفِ الماء في غامِضِ الهوا　　ملائكةٌ تَنْحطُّ فيه وتَصْعَدُ
وبَيْن طِبَاق الأرضِ تحت بُطونِها　　ملائكةٌ بالأمر فيها تَردَّدُ

وأنشد الكسائي لعلقمة بن عبدة، ويُعْرَف بالفحل، يمدح الحارث بن جبلة، وتُرْوَى لشاعر من عَبد القيس يَمدَح النُّعمانَ وفيها ذِكْر الملائكة (راجع: التاج في مادة ملك؛ وشرح «بانت سعاد» لابن هشام ed. Guidi, p. 42):

تَعالَيتَ إنْ تُعْزَى إلى الإنْسِ خلَّة　　وللإنس مَن يَعْزُوك فَهو كَذوبُ
فلستَ لإنْسِي ولكنْ لِمَلْأَكٍ　　تَنزَّلَ مِن جوِّ السماء يُصَوِّبُ

وروى في المفضليات (ص٧٨٠) قوله: فلستَ لإنسي: «فلستَ بِجِنِّي».
ولأمية أيضًا في الملائكة المُوَكَّلِين بالمخلوقات السفلى قوله (أساس البلاغة، ٢: ١٩٦):

وتَحتَ كَثيفِ الماء في باطِنِ الثَّرَى　　ملائكةٌ تَنْحطُّ فيه وتَسمعُ

وقد كَثُر ذِكْر الملاك جبرائيل في الشعر القديم، قال عمران بن حِطَّان:

والرُّوح جِبريلُ فيهم لا كفاءَ لَه　　وكان جبريلُ عند الله مأمونَا

وقال حسان بن ثابت (ديوانه، طبعة ليدن، ed. Hirschfeld, p. 42):

يا حارِ في سِنَةٍ من نَوْمِ أَوَّلِكم　　أم كُنتَ وَيْحَك مُغترًّا بِجبرِيل

وقال أيضًا (ib. 15):

برجالٍ لَستُم أمثالَهم　　أُيِّدُوا جبريلَ نصرًا فَنَزَلْ

وقد لقَّبَه حسان في محل آخر بالرُّوح القُدُس (ib. p. 2):

وجِبريلٌ أَمينُ الله فينا　　ورُوح القُدْس لَيْس له كِفَاءُ

ويُرْوَى: «رَسول الله»، وكذلك ذكَروا المَلاك ميخائيل ودَعَوه ميكال، قال ورقة بن نوفل:

وجِبْريلُ يأتيه وميكالُ مَعهُما   مِنَ الله وَحْيٌ يَشْرَح الصَّدْرَ مُنْزَلُ

وذكروا من طغمات الملائكةِ الكروبية وهم الكروبيم، وَصفَهم في تاج العروس «بسادة الملائكة والمُقرَّبِين إلى حملة العرش»، كقول أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت السابق ذكره (التاج، ٢: ٤٥٤):

ملائكةٌ لا يَفْتُرونَ عِبادةً   كَرُوبِيَّة منهم رُكوعٌ وسُجَّدُ

وقال في الساروفيم ودَعاهم بالسرافيل (كتاب البَدْء، للمقدسي، ١: ١٦٨، ed. Huart)؛ وعجائب المخلوقات، للقزويني (ص٥٦، ed. Wüstenfeld):

حُبِسَ السَّرافيلُ الصَّوَافِي تَحتَه   لا واهِنٌ منهم ولا مُسْتَوغِدُ

ومما وصفه شعراء الجاهلية في السماء، عَرشُ الله الذي تَكرَّر ذِكرُه في الأسفار المُقدَّسة من العهدين العتيق والحديث، ومن البديهي أن عرش الله ليس شيئًا هَيُوليًّا مَجسَّمًا، وإنما المراد به عِزَّتُه تعالى وثَباتُه، قال أُمَيَّة وهو غير ما سبق له (الأضداد، لابن الأنباري، ص٥١):

مَلِكٌ على عَرْش السماء مُهيمنٌ   تَعنُو لِعِزَّته الوجوهُ وتَسجدُ

وقال ورقة بن نوفل (الأغاني، ٣: ١٤):

سُبحانَ ذي العرش سبحانًا يُعادِلهُ   ربُّ البرية فَرْدٌ واحدٌ صَمدُ

ويُرْوى: «سبحانًا يَدومُ له، وسبحانًا يعودُ له»، ومثل العرش السرير، قال أُمَيَّة (كِتاب البدء والتاريخ، للمَقْدِسي، ١: ١٦٥):

مَجِّدُوا اللهَ فَهْوَ للمَجْد أهلُ   رَبُّنا في السماء أَمسَى كَبيرا
بِالبِناء الأعلى الذي سَبَق الخلق   وسَوَّى فوق السماء سَريرَا
شَرْجَعًا ما يَنالُه بَصَر   الْعَين تَرى دُونه الملائِكَ صُورًا

فالشَّرْجَع الخشبة المُربَّعة الطويلة وهي أيضًا العرش والسرير.

«جَهنَّم»[٣] ليست معرفة شعراء الجاهلية بجهنم وعذابات الهالكين ووجود الشياطين دون معرفتهم بالسماء وأهلها، قال كَعْبُ بن مالك في وَصْف جَهنَّم (إتقان علوم القرآن للسيوطي، ١: ١٥٨):

تَلظَّى عليهم حين أن شَدَّ حَمْيها   بزُبَر الحديد والحجارة ساجرُ

وقال أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت (فيه، ١: ١٥٩):

فأُرْكِسوا في حَميم النار أنهم   كانوا عُتاةً يَقولون الكَذِب والزُّورَا

[٣] ورد في تاريخ دمشق لابن عساكر (٣: ١٢٤): قال عبد الله بن مسلم الدينوري: سُئلتُ هل وجدتَ لجهنم ذكرًا في الشِّعر القديم؟ ونقلت: هذا يحتاج إلى تَتبُّعٍ وطلَبٍ، وقد أتذكر فلم أذكر إلا شيئًا وجدتُه في شعر أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت فإنه قال:

فلا تَدنو جَهنَّمُ من بريءٍ   ولا عَدْنٌ يُطالعها أثيمُ
إذا شبَّت جهنمُ ثَم وارتْ   وأَعرضَ عن قوانسها الجحيمُ

وروى البيت في المخصص (٩: ٦):

جهنمٌّ تلك لا تُبقِي بغيًّا   وعَدْنٌ لا يُطالعها رجيمُ

وذكر للعُدَيل بن الفرخ (ياقوت، ٤: ١٠١٧) قوله في نار جهنم وجنة الخلد:

أما تَرْهَبان النارَ في ابني أبيكما   ولا تَرجُوان الله في جنة الخُلدِ؟

وقد ورد اسم جَهنَّام في شعر الأعشى قال (التاج، ٧: ٣٧٢):

دعوتُ خَليلي مِسْحَلًا ودَعَوا لهم   جَهنَّامَ جدعًا للهجينِ المُذمَّمِ

(قال) مِسْحَل شيطان الأعشى، وكذلك قال الفرزدق (نقائض جرير والفرزدق، ٧٦٨-٧٦٩):

لقد قَلَّدتُ حِلفَ بني كُلَيبٍ   قلائدَ في السَّوالفِ باقياتِ
قلائدَ ليس مِن ذهبٍ ولكنْ   مواسمُ مِن جَهنَّمَ مُنْضَجاتِ

ويروى: «في جهنم أنهم كانوا عصاة»، وقال، وقد أجاد في بيان حال الهالكين (شعراء النصرانية، ١: ٢٢):

وَسِيقَ المجرمون وَهُم عُرَاة إلى ذاتِ المَقامِع والنَّكَالِ
فنادَوا وَيْلَنا ويلًا طويلًا وعَجُّوا في سَلاسِلِها الطوال
فَلَيْسوا مُيِّتين فَيَستَريحوا وكُلُّهم ببحر النارِ صال

وقال فيهم (خزانة الأدب، ٢: ٣٤٦):

فَهُم يَطْفُون كالأقذاء فيها لَئِن لم يَغفِر الرَّبُّ الرحيمُ

وقال النابغة الجَعْدي مستغفرًا وطالبًا النجاة من جهنم (خزانة الأدب، ٤: ٤):

يا مالكَ الأرض والسماء ومَن يَفْرَقْ مِنَ الله لا يَخَفْ إثمَا
إنِّي امْرُؤ قد ظلمتُ نفسي وإلَّا تَعْفُ عَنِّي أُغْلَى دمًا كثما
أُطْرَح بالكافرين في الدَّرك الْـ أسفلِ يا رب أَصْطَلِي الضَّرمَا

وقال أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت يذكر الأبرار ونعيمهم والأشرار وجحيمهم:

هُمَا فَريقان فِرقَةٌ تدخل الجَنَّة حفَّتْ بهم حَدائِقُها
وفِرقَة منهمُ قد أُدخِلَت النَّارَ فَسَاءتهم مَرافِقُها
لا يستوي المنزلان ثَمَّ ولا الـ أعمالُ لا تستوي طرائقها

وكما جعلوا الملائكة في السماء كذلك عينوا جهنم لإبليس وفرقته من الشياطين والجن الذين هبطوا من السماء بخطيئتهم فأخذهم الله بعصيانهم، قال أُمَيَّة (لسان العرب، ١٥: ٤٠٩):

وفِيها مِن عِبَاد الله قومٌ مَلائِكُ ذُلِّلوا وَهُم صِعابُ

وقال أُمَيَّة أيضًا ودَعا الشيطان شاطنًا (اللسان؛ والتاج؛ والصحاح، في مادة عكا):

أَيَّما شاطنٌ عَصاهُ عكاه ثُم يُلْقَى في السجْن والأغلال

ودعاه عَدي بن زَيد إبليسًا (تاريخ العصامي سمط النجوم العوالي، ص١٩):

وأهبطَ اللهُ إبليسًا وأوعَدَه　　　نارًا تَلَهَّب بالإسعار والشَّرَر

وقال أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت:

وترى شياطينًا تَرُوغُ مُضاعةً　　　ورواغها صَبْر إذا ما يُطْرَدُ
تُلْقَى عليها في السماء مَذلَّة　　　وكَواكِب تُرمَى بها فتُعَرِّدُ

وفي هذه السماء العليا قال أيضًا:

فأتمَّ سِتًّا فاسْتَوَت أطباقها　　　وأتى بسابعة فأنَّى تُورَد

وقد كَثُر في الشعر الجاهلي ذِكْر الدَّيْنُونة والحساب وما يتبعهما من ثواب أو عقاب، قال زُهَيْر بن أبي سُلْمَى في معلقته يتهدد المنافقين بالدَّيْنُونة:

فَلا تَكتُمُنَّ اللهَ ما في صدوركم　　　لِيَخْفَى ومَهْمَا يُكْتَمِ اللهُ يَعْلَمِ
يُؤَخَّر فيُوضَع في كتاب فَيُدَّخَرْ　　　لِيومِ الحسابِ أو يُعَجَّلْ فَيُنْقمِ

وقال أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت:

يُوقَف الناسُ للحساب جميعًا　　　فَشَقِيٌّ مُعذَّبٌ وسعيدُ

وقال النابغة الذبياني يذكر مُعْتقَد بني غَسَّان بالدَّيْنُونة:

فَلا يَحْسَبون الْخَير لا شَرَّ بَعدَه　　　ولا يَحْسَبوَن الشرَّ ضَرْبَةَ لازبِ

وقال لبيد (ديوانه، ص٢٨، ed. Huber):

وكلُّ امرئ يومًا سَيعْلَم سَعْيَه　　　إذا كُشِفَت عند الإله المَحاصلُ

ويُرْوَى في المخصص (١٢: ٧١): «إذا حُصلت عند الإله الحصائِلُ.» وروى السيوطي لأُمَيَّة بن أبي الصَّلْت (في إتقان علوم القرآن، ١: ١٥٨):

ولا يومَ الحسابِ وكان يومًا　　　عبوسًا في الشدائد قَمْطَريرا

وقال أُمَيَّة أيضًا (فيه؛ وفي الأغاني، ٣: ١٩٠):

إنَّ يوم الحساب يومٌ عظيم   شابَ فيه الصَّغِير شَيبًا طويلا
لَيْتَني كنتُ قبل ما قد بَدَا لي   في قِلالِ الجبال أرعى الْوُعولا
كلُّ عَيش وإنْ تَطاوَل دهرا   مُنتَهَى أَمْره إلى أن يَزُولا
وَاجْعَلِ الموتَ نُصْب عَينَيكَ وَاحْذَر   غَولَة الدَّهر إنَّ للموت غُولا

وقال أيضًا (خزانة الأدب، ٤: ٧):

لا تَخْلِطنَّ خَبيثاتٍ بِطَيِّبَة   واخْلَع ثيابَك منها وانْجُ عُريانا
كلُّ امرئ سوف يُجْزَى قَرضه حسنًا   أو سيئًا ومَدينًا كالذي دانَا

وهم يذكرون مع الدَّيْنُونة والحساب يوم الحشر وبعث الأجساد وقيامتها من قبورها وجزاء العالمين الأخير، قال أُمَيَّة ووصفه تعالى بالباعث للموتى:

الوارثُ الباعثُ الأمواتِ قد ضَمِنتْ   إيَّاهم الأرضُ في دَهْر الدَّهارِير

وقال قس بن ساعدة (الشربيني، ٢: ٢٧٥؛ ومحاضرات ابن العربي، ٢: ٦٧٠؛ وكتاب المعمرين لأبي حاتم السجستاني، ص٧٦):

يا نَاعِيَ الموتِ والأمواتُ في جَدَث   عليهم من بَقايا خَزِّهم خِرقُ
دَعْهُم فإنَّ لهم يومًا يُصاحُ بهم   فهم إذا انْتَبَهوا مِن نَومِهم فرقُ[٤]
حتَّى يَعُودوا بحالٍ غيرِ حالهم   خلقًا جديدًا كما مِنْ قَبْلِها خُلِقُوا
مِنْهم عُراة وموتى في ثِيابِهم   منها الجَديد ومنها الأورق الخَلَقُ

وقال عَبيد بن الأبرص يذكر القيامة (خزانة الأدب، ١: ١٦٠):

أنتَ المليكُ عَليهِم   وهُمُ العبيدُ إلى القيامَةْ

---

[٤] وروى الباقِلّاني في إعجاز القرآن (ص٧٢): كما يُنَبَّه من نَوماتِه الصَّعِقُ.

وقال أُمَيَّة وله السَّهم الأفوز في وَصْف الدَّيْنُونة وذَكَر أيضًا العرش وميزان الحساب والزُّبُر؛ أي الأسفار المُقَدَّسة التي أوحى بها الله لهداية العالمين (كتاب البدء، ٢: ١٤٦):

ويومُ مَوعِدهم أن يُحْشَروا زُمَرًا — يومُ التَّغابُن إذْ لا يَنفَعُ الحَذرُ
مُسْتَوسِقِين مع الداعي كأنهم — رِجْل الْجَرادِ رَقَتْه الريحُ تَنتَشِر
وأُبْرِزُوا بِصَعيد مُستَوٍ حَرزٍ[٥] — وأُنْزِل العرشُ والميزانُ والزُّبُر
وحوسبوا بالذي لم يُحْصِه أحدٌ — منهم وفي مثل ذاك اليوم مُعْتَبرُ
فمِنْهم فَرِحٌ راضٍ بمبعثه — وآخرون عَصَوا مَأواهم السَّقَرُ
يقول خُزَّانُها: ما كان عندكم؟ — ألم يكن جاءكم من ربكم نُذُر؟
قالوا: بلى فَتَبِعْنا فِتية بَطروا — وغَرَّنا طولُ هذا العيش والعُمُرُ
قالوا: امْكُثوا في عذاب الله ما لكمُ — إلا السلاسلُ والأغلالُ والسَّعرُ
فذاك عيشهم لا يَبْرَحون به — طُول المقام وإنْ صحُّوا وإنْ ضَجِرُوا
وآخَرُون على الأعراف قد طَمِعوا — بِجنَّة حفَّها الرُّمَّان والخَضَرُ
إن الأنامَ رعايا الله كلهم — هو السَّلِيطَط فوقَ الأرض مُقتَدِرُ

وهو القائل أيضًا في وصف الجحيم والنعيم (المقاصد النحوية في هامش خزانة الأدب، ٢: ٣٤٦؛ ومنتخب ربيع الأبرار، $Ms\ Wien, ff\ 16^{v}$):

سَلامَك رَبَّنَا في كل فَجْرٍ — بريئًا ما تَلِيق بك الذُّمُوم
عِبادُك يُخطِئون وأنتَ ربٌّ — بِكفَّيْك المنايا والحُتُوم
غَداةَ يقول بعضُهمُ لِبعضٍ — ألا يا ليتَ أُمَّكُم عَقيمُ
فلا تَدنو جهنَّمُ مِن بريءٍ — ولا عَدَن يَحِلُّ بها الأثيمُ
فَهُم يَطْفُونَ كالأقذاء فيها — لَئِنْ لم يَغْفرِ الرَّبُّ الرحيم
جهنمُ تِلك لا تُبْقِي بغيًّا — وَعَدْنٌ لا يُطالِعُها الرَّجِيم
فلا لغوٌ ولا تأثيمَ فيها — ولا حَيْنٌ ولا فيها مُليمُ
إذا بَلَغوا التي أُجْرُوا إليها — تَقَبَّلَهم وحُلِّل مَن يَصوم
وخُفِّفتِ النُّذورُ وَأَردَفَتْهُم — فضولُ الله وانْتَهتِ القُسومُ

---

[٥] كذا في الأصل، والصواب جَرز، يقال: أرض جَرْز وجَرَز وجُرَز؛ أي مُجدِبَة.

فهذه الأوصاف كلها لا تُرى في غير الأسفار المُقدَّسة التي كانت في أيدي النصارى فأخذَها عنهم شعراء العرب قبل الإسلام، ولأُمَيَّة المذكور أبيات، ذَكَر فيها انتظار البشر ليوم الدَّيْنُونة وظهور المسيح ليدين العالم (كتاب البدء، ٢: ١٤٥):

والنَّاسُ راثَ عليهم أمرُ ساعَتِهم　　فكُلُّهم قائلٌ للدين أَيَّانَا؟[٦]
أيَّام يَلقى نَصارَاهم مَسيحَهم　　والكائِنِينَ له وُدًّا وقُربانَا[٧]
هم ساعَدُوه كما قالوا إِلَهُهم　　وأَرْسَلُوه يُريدُ الغيث دُسْفانَا[٨]

ومعلوم في مُعتَقَد المسلمين أن السيد المسيح «عيسى» هو الذي ينزل في آخِر العالَم لِيدين العالمين، فكفى بهذه الشواهد دليلًا على أن كل الألفاظ الواردة في القرآن والحديث عن الدَّيْنُونة وأحوالها قد سبق إليها أهل الكتاب في الجاهلية كما سبقوا إلى أسماء الله الحسنى.

(٣) الدين ومَقاماته ومناسكه

كان لعرب الجاهلية شِرْكُهم كما سبق، إلا أن الآثار العربية الباقية من العهد السابق للإسلام قَلَّما تشعر بالتَّوثُّن لنِفُوذ التوحيد بينهم بِفَضْل الدين المسيحي، وها نَحْنُ ذا نُدوِّن الألفاظ النصرانية الواردة في شعرهم المُثْبِتَة لقولنا.

«الدِّين» إنَّ لفظة الدِّين بمعناها الخاص؛ أي العبادة لله قد سَبَقتِ الإسلام، وأولُ ما نَجد لَفْظَها في الشعر العربي مدلولها الدين النصراني، قال النابغة يمدح ملوك غَسَّان النصارى بدينهم:

مَجلَّتُهم ذاتُ الإلِه ودِينُهم　　قَويمٌ فما يَرجُون غير العواقبِ

[٦] راثَ؛ أي تأخَّر، يريد أن الناس يكونون في انتظار الساعة فيقول بعضهم لبعض أَيَّانَا؛ أي متى يحل يوم الدين؟

[٧] كذا في الأصل، ونظن أن الصواب «الكانتين» أي الخاضعين.

[٨] الدُّسفان المرسل، يريد أن المسيح تقدمهم كالرائد الذي ينتجع الكلأ، ولعل في هذا إشارة إلى قول السيد المسيح في إنجيل يوحنا (١٤: ٣): «إني ذاهب لأعد لكم المكان»، وفي كتاب البدء: وأرسلوه كسوف الغيب، وفي اللسان: يسوف الغيث.

وروى اللِّسان مَحِلَّتهم؛ أي الأرض المُقدَّسة، ومثله ما أنشده نبي الإسلام عن شاعر جاهلي «لما أفاض من عرفة إلى مزدلفة وكان في بَطْن مُحَسِّر الذي كان مَوْقِفَ النَّصارى.» (تاج العروس، ٣: ١٤٠؛ و٩: ٣٦٢)، وفي الأبيات إشارة إلى الناقة التي كان راكبها في مسيره إلى الحرم:

إليكَ تَعدُو قَلِقًا وَضِينُها　　مُعْتَرِضًا في بَطْنِها جَنِينُها
مخالفًا دِين النَّصَارى دِينُها

وكذلك روينا لورقة بن نوفل النصراني قوله (الأغاني، ٣: ١٦):

أَدينُ لِرَبٍّ يستجيب ولا أُرَى　　أَدِين لِمَن لا يَسمَع الدَّهرَ واعيًا
أقول إذا صَلَّيتُ في كل بِيعَة　　تباركتَ قد أكثرتَ باسمك داعيًا

ولأمية في معناه قوله:

رَضيتُ بكَ اللهم ربًّا فلن أُرَى　　أدين إلـهًا غيرَك الله ثانيا

ومن حِكَم عدي بن زيد قوله:

نَرقَع دُنيانا بتَمزيق دِينِنا　　فلا دِينُنا يبقى ولا ما نَرقَعُ

والدِّين أيضًا بمعنى الحُكْم والقضاء والحِساب، قال السيد المسيح (متَّى، ٧: ٢-١): «لا تَدينوا لِئلَّا تُدانوا فإنكم بالدَّيْنُونة التي بها تَدينون تُدانون»، فجاءت اللفظة في الشعر الجاهلي مُقتبَسة عن الآية السابقة، قال خويلد بن نوفل الكلابي يخاطب الحارث بن أبي شمر (التاج، ٩: ٢٠٧):

يا حارِ أَيقِنْ أنَّ مُلكَك زائلُ　　واعلمْ بأنْ كمَا تَدين تُدانُ

وإلى هذا المعنى يَعود اسمه تعالى بالدَّيَّان،[٩] وردَ في الشعر الجاهلي، وبه دُعي آل عبد المَدَان بن الدَّيَّان سادة بني الحارث بن كعب النصاري «الذين كانوا يَتبارَون في البِيَع وزِيِّها» (البكري، في معجم ما استعجم، ص٣٦٧).

[٩] جاء في حماسة البحتري لعتاهية بن سفيان الكلبي (ع٣٩١):

فأَضْحَوا أحاديثًا لغادٍ ورائحِ　　يَدِينُهم بالخيرِ والشَّرِّ ديَّانُ

(العبد ... المتعبد ... العباد ... العبادة) هي أيضًا مفردات سبقَتِ الإسلام ودلُّوا بها على مَن يعبد اللهَ من النصارى، قال النابغة:

لو أنها عَرضَتْ لأشمطَ راهبٍ عبدَ الإلـهَ صَـرورةٍ مُـتـعـبِّـدِ

وقال أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت في الملائكة:

فنِعْم العِباد المُصْطَفَون لأمْرِه ومِن دُونِهم جُند كثيف مُجنَّد
مـلائكـة لا يَـفـتـرون عِـبـادة كَرُوبِيَّة منهم رُكوعٌ وسُجَّدُ

والعِباد قبائِل شتى من بطون العرب اجتمعوا على دين النصرانية فدُعوا بالعِباد لزُهْدِهم، ويُقال لنُسَّاك النصارى: الأعابِد أيضًا قال أبو دؤاد الإيادي يصف مصابيح الرهبان في مشارف الجبال (التاج، ٢: ٤١٠):

لهن كنَارِ الرَّأس بالعلياء تُـذْكِـيـهـا الأعـابـد

وكثيرًا ما يُطلِقُون اسم العِباد على كل البشر ولا سيما الذين يَعبُدون الإله الحق، قال أُمَيَّة:

لك الحمدُ والمَنُّ رَبَّ العِبا دِ أنتَ المليكُ وأنتَ الحكَمْ

وقال أيضًا:

ولو قِيلَ رَبٌّ سِوى رَبِّنا لقالَ العِباد جميعًا كَذِبْ

ومثله العِبادة مطلقًا خصُّوها بِعِزَّتِه تعالى، قال زيد بن عمرو:

ولكنْ أعبُد الرحمن ربي لِيغْفِر ذَنْبِي الرَّبُّ الغفورُ

وقال ورقة بن نوفل:

لا تَعبُدنَّ إلهًا غَيرَ خالقكم فإنْ دَعَوكُم فقولوا بَينَنا حَدَدُ

(آمن ... إيمان ... المؤمن) كل هذه الألفاظ سبقَتْ أيضًا الإسلام، فاتَّخذَها النصارى لاعتقادهم، ولعَلَّهم استعاروها من السُّرْيان، وقد وردت في أخبار المُتَنَصِّرين في الجاهلية كرواية أصحاب الكهف (مجاني الأدب، ٢: ٢٣٢–٢٤٠).

ورواية تَنصُّر أهل نجران (معجم البلدان، لياقوت، ٤: ٧٥٥)، لا بل ذكَرها في القرآن (سورة البقرة، ع٢٨٥) وأطلقها على النصارى أيضًا فقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾، ومثلها في سورة آل عمران: «ومنهم المؤمنون ... مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴿أُمَّة يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ...﴾»

«العيد» هي من الألفاظ الدينية التي استعارها النصارى في الجاهلية عن الآراميين وهي بالسريانية ܥܐܕܐ، وقد نطق بها امرؤ القيس فقال يصف سربًا مَن الْمَهَا؛ أي بقر الوحش:

فآنَسْتُ سِربًا مِن بعيد كأنه رَوَاهِب عيدٍ في مُلاءٍ مُهدَّب

أشار إلى لُبْس الراهبات في أعياد النصارى للملاءِ والأنسجة الطويلة الأذيال، ومثله تصريحًا قول العَجَّاج في ثور وحش، اعتاد الأرباض كاعتياد النصارى أعيادهم. (الألفاظ لابن السكيت؛ ص٤٤٦):

واعتاد أَرباضًا لها آريُّ كما يعودُ العيدَ نصرانيُّ

«النَّذْر»[١٠] ومن عادات النصارى أن يوجبوا على نفوسهم نوافل تقوية حُبًّا بالله، وذلك النذر من السريانية ܢܕܪܐ، و«النذير נזיר» عند بني إسرائيل المقطوع لخدمة الله، وجاء في قصة مريم (سورة آل عمران، ع٣١): ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي﴾، وسبق أمية بن الأشكر الكناني (راجع: حماسة البحتري، ع٥٢٠) فقال:

كم من أسير من قريش وغيرها تَدارَكه مِن سَعْيِنا نَذْرُ ناذِر
فلما قَدَرْنَا أَنقَذَتْه رماحُنا فآبَ إلى آلائه غَيرَ شاكر

[١٠] ويروى لثعلبة بن عمرو (المفضليات، ٥١٣):

أَقْسَم يَنذُرُ نَذرًا دمي وأقسمتُ إنْ نِلتُهُ لا يَئوبُ

وورد لأُمَيَّة بن أبي الصَّلْت يذكر نَذْر إبراهيم لابنه إسحاق وفيه ذكر «الاحتساب» وهي أيضًا من ألفاظهم الدينية بمعنى الثواب والأجر قال (تاريخ الطبري، ١: ٣٠٨):

ولإبراهيمَ المُوَفِّي بِنذرٍ   احتسابًا وحامل الإجذالِ

إلى أن قال:

أَبُــــنَـــيَّ إنـــي نَـــذَرتُـــك   لله شَحيطًا فاصْبِر فِدًى لك حالي

ثم للدين مقامات وأبنية مخصصة بالعبادة، شاع عند العرب المسجد والمعبد والمصلى والمنسك والكعبة ... وكل هذه الألفاظ قد سبقت الإسلام واستعملها أهل الجاهلية ولا سيما النصارى للدلالة على دينهم.

«المسجد» قال الزجاج في تعريفه (لسان العرب، ٤: ١٨٨): «كل موضع يُتعَبَّد فيه فهو مسجد.» وقد أطلقوها على هيكل أورشليم كقول الطبري في تاريخه (١: ٧٢٩) عن يوسف خطيب مريم: «تولَّى يوسف خدمة المسجد.» وقال ابن خلدون في تاريخه عن العذراء مريم (٢: ١٤٤) إن حنة أمها «جاءت بها إلى المسجد فدفعَتْها إلى عباده.» وقد مر أيضًا ذكر «مسجد مريم»، كما ورد في معرفة البلدان للمقدسي (ص٧٧)، ولا نشك أنها وردت أيضًا في الشعر القديم، ومما رواه سيبويه عن بعض الشيوخ (تاج العروس، ٥: ٤١٩) قوله:

أوصـاكَ ربُّك بـالـتـقـى   وأولو النهى أوصوا معه
فاختر لنفسك مسجدًا   تـخـلـو بـه أو صـومـعـه

«قال» الصَّومَعة بَيت النصارى، فذكر المسجد معها إشارة إلى أنها في معناها شائعة أيضًا عند النصارى، وقد ورد اسم المسجد في القرآن (سورة الإسراء، ع١) دلالة على ﴿الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ في القدس الشريف.

وما قلناه عن المسجد يصح أيضًا في المعبد والمصلى، أي مقام العبادة ومحل الصلاة ومكان النسك فإن هذه الألفاظ كلها يرتقي عهدها إلى الزمن السابق للإسلام.

«الكعبة» أصلها الغرفة المُكعَّبة اتخذوها للكعبة الحرام في مكة، وقد استعملها أيضًا النصارى للدلالة على كنائسهم في الجاهلية كما أشرنا إليه في القسم الأول من

كتابنا (ص٦٤) عند ذكرنا كعبة نجران وكعبة اليمن دلُّوا بها إلى كنيسة في نجران قال الأعشى:

وكَعبةُ نَجْران حَتمٌ عليـ ـكِ حتى تُناخِي بأبوابِها

إلخ، وكان لكنائسهم حَرَم لا يجوز انتهاك حرمته إن دَخلَه جانٍ أمن على حياته (راجع في: المشرق، سنة ١٩١٠م، ١٣: ٧١، مقالة قنصل الشام المسيو ن. جيرون) في حمى كنيسة دمشق قبل الإسلام وعلى مثاله كان حرم مكة، وفي مساجدهم أمكنة خاصة تُعْرَف بأسمائها كالمحراب والقبلة.

«فالمِحراب» يُراد بها مُطْلَق المسجد، قال صاحب تاج العروس (١: ٢٠٧): «محاريب بني إسرائيل مساجدهم التي كانوا يُصلُّون فيها.» وكذلك النصارى قد سَمُّوا صدر كنائسهم المحراب كما دل بها المسلمون بعد ذلك على صدر مساجدهم، قال في القرآن في سورة آل عمران عن زكريا (ع٣٢) إنه كان «يدخل المحراب على مريم». وتكرَّرت في الشعر القديم، قال الأعشى (لسان العرب، ٧: ١٧):

كدُمية صُوِّر محرابُها بمذهبِ ذي مَرمَرٍ مائر

وقال المُسيَّب بن عَلَس (التاج، ١: ٢٠٧):

أو دمية صُوِّر محرابها أو دُرَّة شِيفَت إلى تاجر

وقال امرؤ القيس (ديوانه، ص١٥٣):

كغزلانِ رملٍ في محاريب أقوال

وقال عدي بن زيد (شعر النصرانية، ص٤٥٥):

كدُمَى العاج في المحارب أو كَالْـ ـبَيْض في الروض زَهْرُه مُستنيرُ

وقال وضَّاح اليمن:

رَبَّة مِحْراب إذا جِئتُها لم أَلْقَها أو أرتقي سُلَّما

ومثل المحراب القِبْلة وهي وجهة المسجد جاءت في الشعر الجاهلي، روى صاحب اللسان، ١٤: ٣١٤؛ والجواليقي في المعرب (ed. Sachau, p. 9) لعبد المطلب قوله:

عُذتُ بما عاذ به إبراهِمُ مُستقبِل القِبْلة وهو قائمُ

«وممَّا يلحق بالمساجد المنارة» وهي من النُّور كالمسرجة، وقيل: من النار، وقد اشتقها العلماء من السريانية (ܡܢܪܬܐ) بهذا المعنى والمُسلمون يريدون بها المئذنة، والمَنارة سبقَت عهد الإسلام، فاستعملها امرؤ القيس في مُعلَّقَته بمعنى المصباح كان الرهبان يوقدونه لمناسكهم في قِمَم الجبال ليلًا قال:

تُضِيء الظَّلام بالعشاء كأنها مَنارةُ مَمْسى راهب مُتبتِّل

وكانت المَناور تُسْرَج في الكنائس، ثم اتخذوها بمعنى المَجاز فأطلقوها على الصومعة ومقام الرهبان ومحل عبادتهم، وفي الأغاني (٢٠: ٨٥) وردت المنارة والصومعة بمعنى واحد، وكثيرًا ما كانت صوامع الرهبان مرتفعة مُشيَّدة على شبه الأبراج، بل اكتشف الأثريون في كنائس ما بين النهرين وشمالي سورية عدة كنائس، كانوا شيدوا في أعلاها أبراجًا مستديرة أو مربعة يؤذنون فيها بمناسكهم أو يقرعون فيها النواقيس فلما جاء الإسلام اتخذوا المناور على مثال الصوامع وتلك البروج، وقد أثبت العلامة غوتيل (Gottheil) من أساتذة كلية كولومبيا،[١١] أن المسلمين في أول عهدهم كانوا يجتمعون لصلاتهم دون أذان، قال ابن هشام في سيرة الرسول (ed. Wüselfenld, p. 347): «وقد كان رسول الله حين قدموا إنما يجتمع الناس للصلاة بغير دعوة.» وكذلك قال القسطلاني في إرشاد الساري (ج٢، ص٣): «كان المسلمون حين قدموا المدينة يجتمعون فيحيون الصلاة ليس يُنادَى لها.» ثم «ذكروا أن يُعَلِّموا وقت الصلاة بشيء يعرفونه فذكروا أن يَنَوِّروا نارًا، أو يضربوا ناقوسًا وأُمِر بلال «المؤذن» أن يشفع الأذان.» ثم سُنَّ الأذان بعد ذلك في موضع بارز وموضع عالٍ، وربما صعد المؤذن سور المدينة ليدعو إلى الصلاة، أنشد ابن البري للفرزدق (لسان العرب، ١: ١٥٠):

وحتى علا في سور كل مدينة مـنـادٍ يُـنـادي فـوقَـهـا بـأذان

[١١] اطلب مقالته في: المجلة الآسيوية الأميركية (The Origin and History of the Minaret, JAOS, XXX, (1910) p. 132–154).

وأثبت غوتيل أن أقدم مساجد المسلمين كمساجد بلد الحرام، والمدينة، والكوفة، والبصرة، ومسجد عمرو بن العاص في الفسطاط، لم تُجَهَّز لها المناور، وأن أول ما ورد ذكر المنارة في خلافة معاوية، أقامها زياد بن أبي سفيان في مسجد البصرة، قال البلاذري في فتوح البلدان (ص٣٤٧-٣٤٨): «لما استعمل معاوية زيادَ بنَ أبي سفيان على البصرة زاد في المسجد زيادة كثيرة ... وبنى منارته بالحجارة وهو أول من عمل المقصورة.»

«والمئذنة» محل التأذين؛ أي النداء إلى الصلاة، وَرَدَت بمعنى المنارة والصومعة، قال في تاج العروس (٩: ١٢١): «المئذنة موضع الأذان للصلاة أو المنارة كما في الصحاح، قال أبو زيد: المِئْذَنة والمُؤْذِنة، وقال اللحياني: هي المنارة يعني الصومعة على التشبيه، والمؤذن المنادي للصلاة.» وقد جاءت في الشعر القديم، قال عدي بن زيد النصراني (في معجم ما استعجم، للبكري، ص٢٣٣):

بِتَلِّ جَحْوَش ما يدعو مؤذِّنُهم لأمرِ رُشدٍ ولا يَحْتثُّ أَنفارا

ومن مرادفات المنارة عندهم أيضًا «المِصباح» وأصله السراج، وقد استعمله أوس بن حجر في شعره بمعنى المشعل الذي يوقده رؤساء النصارى في ليلة الفِصْح قال يصف سنانًا (راجع: شعراء النصرانية، ص٤٩٤؛ وديوانه، ص٢٠، ed. Geyer):

عَليه كمصباحِ العزيزِ يشُبُّه لِفصْح ويَحْشُوه الذُّبَال المُفَتَّلا

قال الشارح: «أراد السنان الشديد الائتلاق، وهو مثل مشعل الجليل العظيم الشأن من بطارقة الروم لا سيما إذا ألهبه في ليلة فِصْح وإذا كان في مثل هذه الليلة كان أنور وأكثر ضوءًا.»

وأول الفرائض المقامة في المساجد «الصلاة»، وقد تَكرَّر ذكرها في شعر النصارى قبل عهد الإسلام، قال منظور الأسدي يصف بعيرًا شَبَّه موقع ثَفِناته إذا برَك بموقع كَفِّي راهب على الأرض إذا صلَّى عند الفجر (الألفاظ، لابن السكيت، ص٤١٢):

كأنَّ مَهواه على الكلكل مَوقع كَفَّي راهبٍ يُصَلِّي
في غَبَش الصُّبح أو التَّتلِّي

وقال البُعَيْث يذكر صلاة الرهبان وهم قيام (التاج، ١٠: ٥٣؛ واللسان، ١٨: ١١١):

على ظَهْر عاديٍّ كأنَّ أُرومَه   رجالٌ يُتَلُّون الصلاةَ قيامُ

«قال»: «تَلَّى فلانٌ صلاته؛ أي أتبعَ الصلاة أو أتبع المكتوبة التطوع.» ثم كانوا يُصَلُّون على الخمر في التقديس قال الأعشى يصف خمرًا:

لها حارِس لا يَبرَحُ الدَّهر بَيتَها   وإن ذُبِحَت صَلَّى عليها وزَمْزَما
بِبابِل لم تُعْصَر فَسالَت سُلافَةٌ   تُخالِط قِنْديدًا ومِسكًا مُخَتَّما

ومثله ما رويناه عن أيمن بن خزيم في خمر جرجان (الأغاني، ١٦: ٤٥):

وصَهْباءَ جرجانيَّةٍ لم يَطُفْ بها   حَنيفٌ ولم يَنغرْ بها ساعةً قِدرُ
ولم يَشْهَدِ القسُّ المُهَيْنِمُ نارَها   طَروقًا ولا صَلَّى على طَبْخِها حَبْرُ

والصلاة أكثر ما تتم بالسجود والركوع والتسبيح، وكل ذلك قد تَكرَّر ذكره عن نصارى العرب في الجاهلية، قال المضرس الأسدي (معجم البلدان، ٤: ٣٧٥):

وسِخالِ ساجيةِ العيونِ خَواذلٍ   بجمادِ لِينةَ كالنَّصارى السُّجَّد

«قال»: «لينة ماء لبني غاضرة»، وكذلك ورد في شعر لَبِيد مما قاله في الجاهلية (اطلب ديوانه، في طبعة فينا، ص١١٣)، وقد وصف الثَّور فشبهه عند إكْبابه بالمُصَلِّي الذي يَقْضي نذْرًا قال:

فباتَ كأنَّه يَقْضِي نُذورًا   يَلوذُ بِغَرقَدٍ خَضلٍ وضَالِ

«قال الشارح»: ويُرْوى: يُطيف بغرقد، وبات أي الثور؛ أي بات مكبًّا كأنه يُصلِّي صلاة يَقضي بها نذرًا، والغرقد والضالُ نباتان، قال آخَر يصف راهبًا (المفضليات، ed. Lyall, p. 411):

وأشعثَ عُنوانٌ به من سُجودِه   كرُكْبة عَنْزٍ من عُنوز بني صخر

وأنشد في هذا الباب عن المرأة النصرانية الساجدة (كتاب سيبويه، طبعة بولاق، ٢: ٩٢):

فكلتاهما خَرَّت وأَسْجَدَ رَأْسَها   كما سَجَدتْ نَصرانةٌ لم تُحَنَّفِ

ومن عادة النصارى أن يَحْنُوا رءوسهم إكرامًا لرؤسائهم، قال حُمَيد بن ثور (المخصص، لابن سيده، ١٢: ٨٧):

فُضولُ أَزِمَّتِها أَسْجدَتْ   سُجودَ النَّصارى لأربابها

ومن قبيل السجود «الركوع» وهو إخفاض المُصَلِّي لرأسه وانكبابه لوجهه، وقد ورد في شعر أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت عن الملائكة قوله:

ملائكةٌ لا يَفترُونَ عِبادةً   كَروبِيَّةٌ منهم ركوعٌ وسُجَّدُ
فساجدُهم لا يرفع الدَّهرَ رأسَه   يُعظِّم ربًّا فوقه ويُمجِّدُ
وراكعُهم يحنو له الدهر خاشعًا   يُردِّد آلاء الإله ويَحمَدُ

وكان الراهب لكثرة صلاته يُدْعَى راكعًا، ومثله الحَنيف مُرادِف الراهب كما مر، قال في تاج العروس (٥: ٣٦٣): «وكانت العرب في الجاهلية تُسمِّي الحنيف راكعًا إذا لم يَعْبِدِ الأوثان ويقولون: ركَع إلى الله، قال الزمخشري: أي اطمأن، قال النابغة الذبياني:

سَيبْلُغ عذرًا أو نجاحًا من امرئ   إلى رَبِّه رَبِّ البَرِيَّة راكع»

ومن آداب الصلاة «التسبيح»؛[١٢] أي شكر الله وتقديس اسمه وتعظيم آلائه، جاءت في الشعر الجاهلي، قال أُمَيَّة (تاج العروس، ٢: ١٥٧):

سُبحانَه ثم سُبحانًا يعود له   وقَبْلَنا سبَّح الجوديُّ والجَمَدُ

---

[١٢] قال جرير (نقائض جرير والفرزدق):

أَنخْنَا فَسبَّحْنا ونُوَّرتِ السُّرى   بأعرافِ وردِ اللونِ بُلْقٍ شَواكِلُه

قال الشارح: فسَبَّحْنَا يريد فصَلَّيْنا الغداة، والسُّبْحَة الصلاة، ويقال: السُّبْحَة النافلة.

وقال الأعشى (لسان العرب، ٣: ٢١٠):

وسَبِّحْ على حِين العَشِيَّات والضحى ولا تَعبدِ الشيطانَ واللهَ فاعْبُدا

ورُوِي بيتُ عمرو بن عبد الحق للأخطل على هذه الصورة (ياقوت، ٤: ٧٨١):

وما سَبَّح الرُّهْبانُ في كل بِيعَة أَبِيلَ الأَبِيلِينَ المسيحَ بن مَرْيمَا

ومن الآداب الدينية «الصوم»، والنصارى قد اشتهروا به، قال النَّمِر بن تَوْلَب (كتاب سيبويه، طبعة بولاق، ٢: ٢٩):

صَدَّت كما صدَّ عَمَّا لا يَحِلُّ له ساقي نصارى قُبَيلَ الفِصح صَوَّامُ

وقال أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت عن الأبرار في النعيم:

إذا بَلَغوا التي أَجْرَوا إليها تَقبَّلَهم وحُلِّلَ مَن يَصومُ

ومن الفرائض الدينية «الحج»، ويراد به اصطلاحًا قصدُ مكة للنُّسك، لكن اللفظة في الأصل يراد به مُطلق النسك، وهي مشتقة من العبرانية חג وتكررت في الأسفار المُقدَّسة بمعنى العيد والاحتشاد، وقد استعملها المقريزي في الخطط (ج٢، ص٤٧٤) لليهود، قال في ذكر أعيادهم في آيار: «وفيه عِيد الموقف وهو حج الأسابيع … ويقال لهذا العيد في زماننا: عيد العَنْصَرة»، وكذلك استعملها الكتبة المسلمون لغير قصد مكة، قال الإدريسي في وصف المغرب (ed. Dozy et de Goeje, p. 64) عن قبر ابن تُومَرت: إن المصامدة جعلوه «حجًّا يقصدون إليه من جميع بلادهم.» ومثلهم نصارى العرب، فإنهم استعاروا اللَّفْظَة من السريانية وهي عندهم كثيرة الاستعمال للدلالة على كل الحفلات الدينية، فاتخذوها بهذا المعنى، وبمعنى زيارة الأمكنة المُقَدَّسة، فقد وردت في ذكرهم للكعبة اليَمَنِية؛ أي كنيسة نجران وفي زيارة بيت المُقدَّس، وقد استعملها ابن القلانسي في كتابه ذيل تاريخ دمشق (ص٦٩) لزيارة بِيعَة القيامة: «هذه بِيعَة … تُعظِّمها النصارى أفضل تعظيم وتحج إليها عند فِصْحهم.» وقال ياقوت عن دير نجران (معجم البلدان، ٢: ٧٠٣): إن «بني عبد المَدَان بَنَوْه مربعًا … فكانوا يَحجُّونه هم وطوائف من العرب ممن يُحِلُّ الأشهر الحُرُم ولا يحج الكعبة، ويحجه خثعم قاطبة.»

(٤) الوحي وكُتُبه وأئمته

ليس الدين طبيعيًّا فقط يُدرِك حقائقه العقل البشري ويُقرِّرُها بالأدلة العقلية. لكنه وَضْعِي أيضًا وهو الذي أوحى به الله إلى عِبَاده وأرشدهم إليه على يد بعض أصفيائه المعروفين بالأنبياء، كموسى كليمه تعالى، ولا سيما السيد المسيح كلمة الله، فَطَوْرًا أوحى بمناسك وفرائض معلومة كالختان والذبائح، وطَوْرًا أنبأ بأسرار تَفُوق إدراك البشر كأسرار العالَم الآخَر وبعض الحقائق الإلهية، ولا يخفى أن العرب في الجاهلية لم يَعرِفوا وحيًا ولم يَدينوا بدين وضْعِي، بل أفسدوا الدين الطبيعي ولحقوا بالشِّرْك وعبادة الأصنام، كما تدلُّ عليه الآثار المتعددة المكتشفَة في عهدنا.

على أن جهلهم بالوحي إنما سبق عهد المسيح، وقد بَيَّنَّا في القسم الأول من مقالاتنا نفوذ النصرانية بين العرب، ولنا في لغتهم العربية قبل الإسلام ما يثبت هذا القول، وذلك في استعمالهم للألفاظ الدالة على الوحي وكتبه وأئمته كما سترى.

«الوحي»[١٣] هي أول لفظة تدل على قولنا، فإنها وردت في الشعر الجاهلي قبل القرآن بمعنى تبليغ الله كلمته إلى أنبيائه، قال ورقة بن نوفل الراهب النصراني:

وجِبريلُ يأتِيه ومِيكالُ مَعْهُما   مِن الله وحيٌ يَشرَح الصَّدْر مُنْزَل

فبقوله: «الوحي المُنْزَل» بيَّن كونه يريد دينًا وضعيًّا بلَّغ به الله أنبياءه، ومثله قول أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت في الملائكة وإصاخَتِهم لوحي الله:

وسبطٌ صُفوفٌ يَنظُرون قَضاءَه   يُصِيخُون بالأسماع للوحي رُكَّد
أمينٌ لوحي القُدس جبريل فيهم   وميكال ذو الروح القوي المُسدَّد

---

[١٣] ومما قيل في الوحي قول أبي قُصاص لاحق النصري في وصف دار (ياقوت، ٢: ١٤٣):

عَفَتْ وخَلَتْ حتَّى كأنَّ رسومَها   وُحِيُّ كِتابٍ في صحائفِ مُنْصِحُ

وقال جرير (ياقوت، ٣: ٦٦٨):

بَيْنَ المُحصرِ والعزَّافِ مَنزِلةٌ   كالوَحْي من عهدِ موسى في القراطيسِ

وقد انتقلوا من معنى اللفظة الأصلي إلى مَعْناها المجازي، فجعلوا الأسفار الإلهية وحيًا والمكتوب فيها وحيًا، قال جرير بهذا المعنى (معجم ما استعجم للبكري، ص١٠٦):

لِمَن الديارُ بعاقلٍ فالأنْعَمِ　　　كالوحي في وَرَق الزَّبُور المُعْجَمِ

وإذ كانوا يحفرون بعض آيات الوحي في الصخور، أشاروا إلى ذلك في أشعارهم، قال زهير يشبه آثار الدار بكتابة الوحي (شعراء النصرانية، ص٥٧٥):

لِمَن طَلَل كالوحي عافٍ مَنازِلُه

وعلى مثاله قال حسان بن ثابت (سيرة الرسول، ص٤٥٤، ed. Wüstenfeld):

عَرفتُ ديار زينب بالكَثيب　　　كخطِّ الوحي في الوَرَق القَشِيب

وقد جاءت على لفظ الجَمْع في مُعلَّقة لبيد، قال يُشَبِّه مَسايل جبل ريان ببقاء كتابة الوحي في الحجارة:

فمَدافِعُ الرَّيَّان عُرِّي رَسْمُها　　　خلقًا كما ضَمِنَ الوُحِيَّ سِلامُها

وقد دَعَوا كُتُب الوحي بألفاظٍ أخرى تدلُّ على احتوائها لكلام الله، فمنها «السِّفْر»، وأصلها من العبرانية ספר، والسريانية ܣܦܪܐ، ومعناها الكتاب، وقد خَصُّوا بها الكُتُب الإلهية، قال ابن دُرَيد في الاشتقاق (ص١٠٣): «السِّفر الكِتَاب من التوراة والإنجيل وما أشبههما.» وقد وَردَت في القرآن في سورة الجمعة، وفي الحديث بالمعنى ذاته، وروى البكري في مُعجَم ما استعجم (ص٣٦٩) دخول الحسين بن ضحاك إلى أحد أَدْيِرَة النصارى بينما كان الراهب يقرأ «سِفْرًا من أسفارهم»؛ أي كتبهم المقدسة وكانوا يَدْعُون كُلًّا من تلك الأسفار «بكتاب الله»، قال عدي بن زيد (شعراء النصرانية):

نَاشدْتَنا بكتابِ الله حُرْمَتَنا　　　ولم تَكُنْ بكتابِ الله تَرتَفِعُ

وقد دعوا أيضًا كتب الوحي «مجَلَّة» وعلى هذا رُوِي بيت النابغة في بني غَسَّان:

مجَلَّتُهم ذاتُ الإله ودِينُهم　　　قويمٌ فما يَرْجُون غير العواقبِ

قال ابن دريد في الاشتقاق (ص١٩١): «المجلة الصحيفة يُكتب فيها شيء من الحكمة.» وأصل الكلمة من العبرانية מגלה؛ أي الوحي والتبيان، وقد وردت في سيرة الرسول، لابن هشام (ص٢٨٥، ed. Wüstenfeld)، حيث ذكر «مجلة لقمان يعني حكمة لقمان»، وفي حديث أنس «أَلْقَى إلينا مَجالَّ، أي صُفحًا»، وربما دَعَوا كتاب الوحي «بالصحيفة»، جمعها صحائف وصحف، وأصلها من الحِمْيَرية والحَبَشية بمعنى الكتاب والرسالة مطلقًا، قال لقيط الأيادي في أول قصيدة يحذر فيها قومه من كسرى (الأغاني، ٢٠: ٣٤):

كِتابٌ في الصحيفة من لَقِيط إلى مَن بالجزيرةِ من إيادِ

ومثلها «صُحُف إبراهيم وموسى» في القرآن يُراد بها كُتب منسوبة إلى موسى وإبراهيم، ومثلها «المصحف» بتثليث الميم؛ أي الكتاب، والمسلمون يخصُّونها بالقرآن. وقد سَبقَ شعراءُ الجاهلية فنطقوا بها وأطلقوها على أسفار النصارى، قال امرؤ القيس (راجع: ديوانه في العقد الثمين، ص١٦١)، وورد في قوله اسم (الآية) إشارة إلى مضامين تلك الأسفار:

قِفَا نبكِ من ذكرى حبيب وعِرفانِ ورسمٍ عَفَتْ آياتُه منذ أزمان
أَتَتْ حِجَج بَعْدي عليه فأصبَحتْ كَخطِّ زَبُور في مصاحف رُهبانِ

وأصل الكلمة من الحبشية መጽሐፍ «مَصْحَف» من ጸሐፈ «صَحَفَ»؛ أي كَتَبَ.

وقد استعملوا لفظة «القرآن» ولم يتفقوا على أصلها، فمنهم من هَمَزَها وجعلها مصدرًا لقرأَ بمعنى القراءة، ومنهم مَن رجَّح عدم همزها، فقال: قُران واستشهدوا ببيت حسان بن ثابت في هجوه لبني جمح (سيرة الرسول، ص٥٢٦)، قال:

جَحَدُوا القُرَانَ وكذَّبوا بمُحمَّدِ واللهُ يُظْهِرُ دِينَ كل رسول

وعليه تكون القُران من قرن، أي جمع بمعنى مجموع الآيات، وعلى رأينا أن الهمز أفضل، وهو الشائع، وعلى هذا اللفظ ورَدَت في لامِيَّة كَعْب بن زُهَير قال:

مهلًا هداكَ الذي أعطاكَ نافلةَ الـ ـقُرآن فيه مواعيظٌ وتفصيلُ

وعندنا أن أصل الكلمة من السريانية ܩܪܝܢܐ وهي مصدر ܩܪܐ ومعناها القراءة وقطعة من الكِتاب لا سيما الكِتاب المُقدَّس، ويقال بهذا المعنى «رأس القِريان» (ܪܫ ܩܪܝܢܐ).

وقد استَعْمَلوا «الفُرْقان» بمعنى القرآن، قالوا: دُعِي بذلك لأنه يَفْرِق الحق من الباطل، وجاءت الكلمة في القرآن في سورة البقرة بمعنى التوراة، حيث قال: ﴿آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ﴾ (راجع: تاج العروس، في مادة فرق)، وأصل هذه الكلمة على ما نرى من السريانية وهي ܦܘܪܩܢܐ بمعنى النجاة والخَلاص مع الإشارة إلى الفصل والتفريق، وقد ورَدَت بمعنى الخلاص في القرآن في سورة الأنفال، حيث قال: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ فشرحه ابن سعيد بقوله: «الفُرقان النَّصر على الأعداء»، وكذلك شرح ابن دريد قول القرآن «يومَ الفُرْقَان» بيوم النصر، ثم دعوا فصول القرآن «سورة» فهمزَها بعضُهم وأهْمَل هَمْزَها غيرهم فقالوا: هي البقية من الشيء والقطعة منه، وقال غيرهم: هي من السُّورة[١٤] بمعنى الرُّتْبة والشَّرف كما قال النابغة يمدح النعمان:

ألم تَرَ أن الله أعطاك سُورةً   تَرى كلَّ مَلْكٍ دُونَها يَتذَبْذَبُ

والمُرَجَّح ما ارتآه في ذلك العلامة نولدك (Gesch. d. Qorans, p. 24)، أن أصلها من العبرانية שורה معناها المِدْمَاك والساف من البناء ومجازًا هي سطور الكتابة والقطعة منها.

ثم إن وسيط الوحي بين الله والبشر «النَّبِيء» شرحه في تاج العروس (١: ١٣٣) بقوله: «النَّبِيء على فَعِيل؛ الطريق الواضِح يُهْمَز ولا يُهْمَز ... ومنه أُخذ الرسول لأنه الطريق المُوضح المُوصل إلى الله تعالى.» وعلى رأي العلماء هذا شرح بعيد واللفظة من العبرانية נביא، والسريانية **ܢܒܝܐ**: أي الناظر والرائي سلفًا لما يوحي إليه الله من الأمور

[١٤] ورَدَت السورة أيضًا في كتاب الشجر والنبات (البلغة، ٢٢: ٢٣) لجندل بن المثنى:

يا رَبُّ ربَّ المُرسَلِين بالسُّوَرْ   بِحُكم الفُرقانِ يُتلَى والزُّبُرْ

وقال جرير يهجو البُعَيث الشاعر وكان الفرزدق من بني مجاشع النصارى (نقائض جرير والفرزدق):

إن البَعَيْث وعبدَ آل مُقاعِسٍ   لا يَقْرَءُون سورةَ الأحبارِ

(قال): عبد آل مُقاعِس هو الفرزدق، وأراد بسورة الأحبار ما ورد فيها: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾.

المستقبلية.[15] وقد جاءت في الشعر الجاهلي، قال أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت عن مريم العذراء (كتاب البدء، للمقدسي، ٣: ١٢٣):

فأدْرَكَها مِن ربِّها ثَمَّ رحمةٌ   بصِدْقِ حديثٍ من نَبِيٍّ مُكَلَّم

وقال آخر:

كلُّ أهلِ السماء يَدعُو عليكم   من نَبِيٍّ ومَلْأَكٍ ورَسول

ومثل النبي «الرَّسول»؛ أي المُرْسَل من الله إلى الناس، قال أُمَيَّة في بعثة الله لموسى الكليم (سيرة الرسول، لابن هشام، ص١٤٥):

وأنتَ الَّذي مِن فَضْلِ مَنٍّ[16] ورحمةٍ   بَعثتَ إلى موسى رسولًا مُنادِيا

وقال أيضًا عن لسان الملاك جبرئيل إلى مريم يبشرها بالمسيح (كتاب البدء، ٣: ١٢٣):

أَنِيبِي وأَعْطِي ما سُئِلْتِ فإنَّنِي   رسولٌ من الرَّحمنِ يأتيكِ بِابْنِم[17]

وقد استعمَلُوا بمعنى الرسول «النَّذير»، قال أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت (كتاب البدء، ٢: ١٤٦) عن لسان إبليس:

يَقولُ خُزَّانها ما كان عندكم   ألم يكن جاءكم من ربكم نُذُرُ

وأَخَصُّ ما عرفه العرب في الجاهلية من الكُتُب المنزلة «التوراة والزَّبُور والإنجيل»، فقالوا في التوراة «تورية» أيضًا وهي كُتُب موسى الخمسة؛ أي التكوين والخروج والعدد وسفر الأحبار وتثنية الاشتراع. ثم أطلقوها على أسفار العهد القديم إجمالًا، ومن غريب ما قاله بعض اللغويين في أصل هذه الكلمة أنها مصدر ورَّى الزِّنَاد تَورِية، إذا أخرَج ناره وأن التَّوراة لغة طيئ في التورية، وكِلاهما بمعنى الإضاءة، وفي شرح المفضليات (ص٤٤٧، ed. Lyall)، أن توراة أصلها وَوْراة بِقَلْب الواو تاء، وأصحُّ من هذا ما رواه صاحب التاج عن الزَّجَّاج حيث قال: «هو لفظ غير عربي، بل عبراني اتفاقًا.» وهو

[15] راجع: كتاب نولدك (Noeldeke: *Gesch. d. Qorans*, pp. 25–27).

[16] وفي خزانة الأدب (١: ١١٩): من فضل سَيْبٍ.

[17] أي ارْضَي يا مريم بما يَطلُب الله منكِ فأُبشِّرُكِ بمولد ابنٍ؛ أي المسيح، وابْنِم كابن والميم للتفخيم.

في العبرانية חרות ومعناها التعليم والحكمة، وقد وَرِدَت الكلمة في الشعر القديم، قال السموءل (راجع: طبعتنا لديوانه، ص١٢):

وبقايَا الأسباط أسباط يَعقو بَ دِراس التَّوارةِ والتابوت

وقد ذكروا «موسى» صاحب التوراة كما رأيت في باب (الرسول)، وقال السموءل (ص١٢):

وانْفِلاقُ الأمواجِ طَوْرَين عن مو سى وبَعْدُ المُمَلَّكُ الطالوتُ

وقال المضرس بن ربعي (ياقوت، ٣: ٨٧) من أبيات:

فلمَّا لَحِقناهم قَرَأْنا عليهم تَحيَّة موسى ربه إذ يجاوره

وقد أكثر العرب من ذِكْر «الزَّبُور»[18] قال المُرَقَّش الأكبر (لسان العرب، ١٦: ٣):

وكذاكَ لا خيرٌ ولا شرٌّ عـلـى أحـدٍ بِـدائِـمْ
قد خُطَّ ذلك في الزُّبُو رِ الأُولَـيَـات الـقَـدائِـمْ

---

[18] وممن ذكروا الزبور منصور النمري من شعراء ربيعة (أغاني، ١٢: ١٨):

وما لِبَني بناتٍ من تراثٍ مع الأعمام في وَرَق الزَّبُورِ

وقال مجنون ليلى يصف صلاة الراهب بالزبور:

كأنَّه راهبٌ في رأس صومعةٍ يتلو الزَّبُور ونَجْمُ الصُّبحِ ما طلعَا

ومثله الفرزدق (نقائض جرير والفرزدق، ٧٨٧):

عرفتُ المنازلَ مِن مَهْدَدِ كوَحْي الزَّبُور في الغرقدِ

وكذلك جرير (ياقوت، ١: ٣٩٠):

حيَّ الديارَ بعاقلٍ والأنعُمِ كالوحي في رقِّ الزَّبُور المُعجَمِ

وقال أيضًا في رثاء أم حرزة بجُلاجل (نقائض، ٨٥٠):

وكأنَّ منزِلةً لها بجُلاجلٍ وحْيُ الزَّبور تَخطُّه الأحبارُ

وروى البكري لحسين بن الضحاك (ص٣٧٩):

لمَّا حكاها زنامُ في تَفنُّنها فافتنَّ يتبعُ مزمورًا بِمِزْمارِ

وقال امرؤ القيس (شعراء النصرانية، ص٦٥):

لِمَن طَلَلٌ أبصرتُه فَشجَاني   كخَطِّ زَبُور في عَسيبٍ يَمانِي

قال ابن الكلبي في كتاب أنساب العرب (Ms de Paris, ff. 160): «إن امْرَأ القيس أوَّل من شَبَّه الطَّلَل بوَحْي الزَّبُور في عَسِيب يماني.» وقد مر بك قوله:

أَتَتْ حِجَج بَعدِي عليها فأصبَحتْ   كخطِّ زَبورٍ في مصاحف رُهبانِ

وجمعوا الزَّبُور «الزُّبُر» قال المرار بن منقذ في المُفضَّلِيَّات يصف دارًا:

وتَرَى منها رُسومًا قد عَلَت   مِثلَ خَطِّ اللَّام في وَحْيِ الزُّبُرْ

ويُشبهه قول الآخر:

أَو زُبر حِمْيَر بَينَها أحبارُها   بالحِمْيَرِيَّة في عَسيبٍ ذابلِ

وقال كذلك أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت (كتاب البدء، ٢: ١٤٦) في يوم الدِّين:

وأُبرِزوا بصَعيد مُستوٍ جَرَزٍ[١٩]   وأُنْزِلَ العرشُ والمِيزانُ والزُّبُرُ

أما أصل الكلمة فقد اشتقُّوه من قولهم: زَبَر الكتابَ زبْرًا كتبه، قال صاحب التاج (في مادة زبر): «قال الأزهري: وأعرفه النقش في الحجارة وقال بعضهم: زبرتُ الكتابَ إذا أتْقَنْت كِتابَته»، وجعلوا الذَّبْر كالزَّبْر كما قال صخر الغي:

أَبْلِغْ كبيرًا عَنِّي مُخلَّفَة   تبرقُ فيها صحائفٌ جُدُدُ
فيها كِتابٌ ذَبْرٌ لِمُقتَرِئ   يَعرِفُه أَلْبُهم وَمَن حَشَدُوا

[١٩] الجَرَز الأرض المجدبة، وفي الأصل: حَرز.

وروي في حديث لابن الكلبي (ياقوت، معجم البلدان، ٤: ٩١) دَبَر بالدال قال في وصف صنم وَدٍّ: «قدَ دُبِر عليه حُلَّتَان؛ أي نُقِش»، «قلنا»: والصواب عندنا أن الزَّبْر من الزَّمْر والزَّبُور كالمَزْمُور وإنما أُبدلت الميم باء كما جرى في لفظة «زَمَن» بالعربية وهي في السريانية ܙܒܢܐ بالباء، فكذلك الزبور أو المزبور من العبرانية מזמור وفي السريانية ܡܙܡܘܪܐ، وܬܫܒܘܚܬܐ وهو التسبيح.

ومثل التوراة والزبور «الإنجيل»، أخذَها العرب من اليونان εὐαγγέλιον بوساطة السريانية ܐܘܢܓܠܝܘܢ أو أَخذُوها توًّا من الحبشية ወንጌል على هذه الصورة، وعلى كل حال إن اللفظة سبقت الإسلام، قال عَدِي بن زيد (كتاب الحيوان، للجاحظ، طبعة مصر، ٤: ٦٦ Ms de Vienne. ff. 213r):

وأُوتِيَا المُلْكَ والإنجيلَ نَقرؤُه نشفِي بحِكمَته أحلامنا علَلا
من غير ما حاجة إلا لِيجعَلنا فوق البرية أربابًا كما فَعلَا

وروى البكريُّ في معجم ما استعجم (ص٣٦١) لشاعر لم يذكر اسمه بيتًا هجَا فيه راهبًا هَجَر الرهبانية:

هَجَر الإنجيل حُبًّا للصَّبَا ورأى الدُّنيا غُرورًا فَركَنْ

وقال في محل آخر عن غلام يتغنَّى بتلاوة الإنجيل:

إذا رَجَّع الإنجيل واهتز مائدًا تَذكَّرَ مَحزُونُ الفؤادِ غريبُ

والمُرجَّح أن النابغة أراد الإنجيل في ذِكْرِه لَمَجَلَّة غَسَّان لما قال:

مَجَلَّتُهم ذاتُ الإلِه ودِينُهم قويمٌ فما يَرجُون غَيرَ العواقبِ

وكذلك من المُحتَمل أن أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت، أراد الإنجيل في البيت التالي حيث وَردتْ لفظة الرَّق ومعناها السِّفر (راجع: الأضداد لابن الأنباري، ص٨١؛ ولسان العرب، ٩: ٢٥٨) وهو يمدح بني إياد قومه النصارى:

قومٌ لهم ساحةُ العراقِ إذا ساروُا جميعًا والقِطُّ والقَلَمُ

وكما ذكروا موسى وداوُود صاحِبَي التوراة والزَّبُور، كذلك ذكروا السيد المسيح مع ذكرهم لإنجيله الشريف وهم يدعونه «عيسى»، روى ابن العربي في محاضرة الأبرار

(٢: ٥٠) عن لسان قس بن ساعدة أسقف نجران: «الحمد لله الذي لم يخلق الخلق عَبثْ، ولم يَخلقِ الناس سُدًى من بعد عيسى واكتَرِثْ.» وفي اسم عيسى هذا سر من أسرار الاشتقاق الغريبة، قال في التاج «٤: ٢٠٠»: «قال الجوهري: عيسى عبراني أو سرياني، قال الليث: هو مَعدُول عن إيشوع كذا يقول أهل السريانية.» على أن عدولهم هذا من باب الغرائب، ولا نجد عَلَمًا قد تَبدَّل في العربية على هذا المنوال، وعندنا أن هذا التبديل جرى على يد اليهود الذين أدخلوه في العرب بغضًا بالنصارى فدَعَوا يسوعَ[٢٠] باسم عيسى أو عِيسو وهو أخو يعقوب الذي نَفاه الله من شعبه وكان هو وقومه الأدوميون يُعَدُّون رجسًا في بني إسرائيل فقَلَبوا اسم يسوع ونقَلُوا عَينَه إلى أوله فجعلوا الرأس ذنَبًا، وزعم بعضهم أن أصل عيسى «عِوْسى» قَلبوا الواو ياء فصارت «عيسى»، قال أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت (كتاب البدء، ٣: ١٢٣):

وفي دِينكم مِن رِبِّ مَريمَ آيةٌ مُنَبِّئَة بالعبد[٢١] عيسى بنِ مريمَ

وللسيد يسوع اسم آخر أَشْيَع منه عند العرب وهو «المسيح» من العبرانية משוח، والسريانية ܡܫܝܚܐ وهما كالعربية مسيح واليونانية χριστός أي الممسوح بدهن الكهنوت والمُلْك كما كانوا يفعلون بأحبار بني إسرائيل وملوكهم وقال العرب غير ذلك، روي في تاج العروس عن شمر «أن المسيح دُعي بذلك لبركته؛ أي لأنه مسح بالبركة، وقال الراغب: سُمي عيسى بالمسيح لأنه مُسِحَت عنه القُوَّة الذميمة من الجهل والشَّرَه والحِرْص وسائر الأخلاق الذميمة ... وفي بعض الأقاويل المسيح من السَّيْح؛ لأنه كان يَسِيح في البراري ويذهب في الأرض فأينما أدركه الليل صف قدميه وصلَّى حتى الصباح.» وكل هذه آراء ضعيفة والصواب ما قلناه أنه من المسح، وقد تكرر اسم المسيح في الشعر القديم، قال عمرو بن عبد الحق ويُرْوَى لغيره (اطلب: المعاجم في مادة أبل):

---

[٢٠] لعل اسم «سوع» في شعر النابغة (اطلب [القسم الثاني، الجزء الأول، مفردات جاهلية لوصف ملابس النصارى]) هو مرادف ليسوع، ويؤيد فكرنا ما جاء في تاج العروس (٥: ٣٩٠) الذي ذكر البيت ثم قال: «ويروى: دَعوى يسوع».

[٢١] في الأصل: والعبد ونَظُنُّها تصحيفًا، وقد دعا المسيح عبدًا لله من حيث ناسوته.

وما قَدَّس الرُّهْبان في كل هَيْكل أَبِيلَ الأَبِيلِينَ المسيحَ[٢٢] بنَ مَرْيَما

وروي للسموءل (راجع: ديوانه، صفحة ٣٢)، قوله:

وفي آخِر الأيامِ جاء مَسيحُنا فأهْدَى بني الدنيا سلامَ التكامل

وقال أُمَيَّة يَذْكُر مَجِيء المسيحِ في آخِر الأزمنة لِيدين البشر:

أيَّامَ يَلقى نصاراهم مَسِيحَهم والكائِنِين له وُدًّا وقُربانَا

وذكر آخر مُحاربةَ السيد المسيحِ للمسيح الدَّجَّال وانتصاره عليه (راجع: اللسان، في مادة مسح، ٣: ٤٣٠):

إذ المسيحُ يقتلُ الْمَسيحَا

وكانُوا يُسَمُّون المسيح «بِالأَبِيل» ومعناه النَّاسك والزَّاهد بالدنيا، ودعوه بأَبِيل الآبِيلِينَ؛ لأنه كان بزهده قدوة الرُّهبان كما مر بك.

وقد عَظَّمُوا ليلة مَولِد المسيح فدعوها ليل التمام، قال في اللسان (في مادة تم، ١٤: ٣٣٤): «قال عمرو بن شميل: ليلُ التَّمَام أطولُ ما يكون من الليْل ... قال الأصمعي: ويَطُول ليلُ التَّمام حتى تطلع فيه النجومُ كُلُّها وهي ليلة ميلاد عيسى ... والنصارى تُعظِّمُها وتقوم فيها.»

ولم يذكروا فقط السيد المسيح، بل ذَكُروا أمه مريم العذراء كما رأيت، وذكروا القديس يُوحَنَّا الصابغ الْمُتقَدِّم أمام وجهه وذكروا تلامذته، ومما رووا عن «مريم العذراء» بُتُولِيَّتَها وبشارة الملاك إليها بابنها الإلهي وحَبَلَها الطاهر بابنها من الروح القُدُس، ورد ذلك في القرآن، وسبقه أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت فقال، وفي قوله نظر لما أدخله فيه من المزاعم المنقولة عن الأناجيل غير القانونية (راجع: كتاب البدء للمقدسي، ٣: ١٢٣):

---

[٢٢] ومثله لجرير يهجو بني مجاشع، وفي قوله ما يثبت محبة النصارى للمسيح قال (النقائض، ص٨٣):

لقد وَجدَتْ بالقين خُورُ مُجاشعٍ كوَجْدِ النصارى بالمسيح ابن مَريمَا

وفي دِينكُم من ربِّ مَريمَ آيةٌ ... مُنَبِّئَة بالعبدِ عيسى بنِ مريمَ
أنابَتْ لوجه الله ثم تَبَتَّلتْ ... فسَبح عنها[٢٣] لَومَة المُتَلَوِّم
فلا هي هَمَّت بالنِّكَاح ولا دنت ... إلى بَشَر منها بِفَرْجٍ ولا فَمِ
ولَطَّتْ حِجاب البيتِ من دون أهلها ... تَغِيبُ عنهم في صَحاري رِمرمِ[٢٤]
يَحارُ بها الساري إذا جَنَّ ليلُه ... وليس وإنْ كانَ النَّهارُ بِمَعْلَم
تَدلَّى عليها بعد ما نام أَهْلُها ... رسولٌ فلم يَحْصَر ولم يَتَرمْرَم[٢٥]
فقال: أَلَّا تَجْزَعِي وتُكَذِّبِي[٢٦] ... ملائكةً مِن ربِّ عادٍ وجُرْهُمِ
أَنِيبِي وأَعْطي ما سُئِلتِ فإنني ... رسولٌ من الرحمنِ يأتيكِ بِابْنمِ[٢٧]
فقالتْ له أنَّى يكون ولم أَكُن ... بغيًّا ولا حُبْلى ولا ذاتَ قَيِّمِ[٢٨]
أَأَحرَجُ بالرحمنِ إن كنتَ مؤمنًا ... كلامي فَاقْعُدْ ما بدَا لكَ أو قُمِ[٢٩]
فَسبَّحَ ثم اعترَّها[٣٠] فَالتَقتْ به غلامًا ... سوى الخَلْق ليس بِتوأَم
بِنفْخَتِه في الصدر من جَيب دِرْعِها ... وما يَصرمِ الرحمنُ مِلْ أمرِ يُصْرَمِ[٣١]

---

[٢٣] سبَّح عنها؛ أي أبعد عنها ونزَّهها.

[٢٤] يقال: لطَّ الباب إذا أَغْلَقه، ورِمرم علم مكان، والرِّمْرم أيضًا الحشيشة المشوكة المعروفة بالرَّمْرام، فنسب الصحاري إليها، يريد الشاعر أن مريم خرجتْ إلى الصحراء وهناك بَشَّرَها الملاك بمولد ابنها، وهو قول استعاره الشاعر من مزاعم الكَتَبَة غير القانونيين.

[٢٥] حصَر؛ قَصر عن الكلام، وتَرَمْرَم؛ حرَّك شفتيه بالكلام، يريد أن كلامه لم يكن كمثل كلام البشر.

[٢٦] أي لا تُخَيِّبي ظنهم فيك.

[٢٧] أعطي ما سُئلتِ؛ أي ارضي بما يَطلُبه منك الرب، وابْنَم تفخيم ابن.

[٢٨] ذات قَيِّم؛ أي ذات زوج، والبيت ترجمة قول العذراء (لوقا، ١: ٥): «وكيف يكون ذلك وأنا لا أعرف رجلًا؟»

[٢٩] حرج بالرحمن؛ أي كفر، والأصل مُصَحَّف بأخرج، والمعنى كيف آثم أمام الرحمن، فإن صَدَّقْتَ قولي فيه وإلَّا فافعل ما بدَا لك من إقامة أو ذهاب.

[٣٠] اعترَّها؛ أي اعترض لها، يُشيرُ إلى قول الإنجيل: إن الروح القدس ظلَّلها، فحَبَلَت بنعمَتِه وقُوَّته بابنها المسيح دون زرع بشري، فالنفخة في صدرها مَجَاز.

[٣١] صَرَمه بَتَّه وفصله، وقوله: «مِل أمر»؛ أي من الأمر.

فلَّمَا أَتَمَّتْه وجاءت لِوضْعِه فآوى لَهُم من لَوْمِهم والتَّنَدُّمِ[٣٢]
وقالَ لها مَن حَولَها: جئتِ مُنكَرًا فحقٌّ بأن تُلْحَيْ عليه وتُرْجَمِي[٣٣]
فأدْرَكَها مِن رَبِّها ثَمَّ رحمةٌ بِصدْق حديثٍ من نبي مُكَلَّم
فقال لها: إني من الله آية وعَلَّمَنِي واللهُ خَيْرُ مُعَلِّمِ
وأُرْسِلتُ لم أُرْسَل غويًّا ولم أَكُن شقيًّا ولم أُبْعَث بِفُحْش ومَأْثَمِ

أما «يوحنَّا المعمدان» السابق أمام وجه المسيح فقد شاع ذِكْرُه بين عرَب الجاهلية، وقد رأيتُ أن إحدى الكتابتين العربيتين السابقتين لعهد الإسلام كانت على باب كنيسة في حوران مُشَيَّدة على اسم القديس يوحنا (راجع [الباب السادس من الفصل الأول]، مع رسم هذه الكتابة في الجدول ٦٨–٦٩)، وقد ذكر القرآن في سورة عمران (ع٣٣ و٣٤) ما روى عنه القديس لوقا في الإنجيل من بشارة الملاك لأبيه زكريا ومن مَولده العجيب ووصفه هناك بكونه «مُصدِّقًا بكلمة من الله وسيدًا وحصورًا ونبيًّا من الصالحين»، فَاطْرَأَ إيمانَه ورِفْعَة مَقامه وعِفَّتَه ونُبُوَّته.

والعرب يَدْعُون يوحنَّا المعمدان[٣٤] باسم «يحيى»، وهو أيضًا مع اسم عيسى أحد ألغاز التبديل التي لم يذكر اللغويون سببها، ومن المعلوم أن يُوحَنَّا اسم عبراني مركب من كلمتين «يوحنن יהחנן» أو «يهوحنن יהוחנן»؛ أي حنَّ الله وترَحَّم، ومنه السريانية ܝܘܚܢܢ فكيف إذن قُلب بيحيا؟ على رأينا أن الاسم قد تَصحَّف في العربية، وذلك أنه كان في الأصل «يُحَنَّا» فكتبوه قبل وضع النقط والحركات «يحيا» فقرءُوه «يحيًا أو يحيى»، ولا نرى وجهًا آخر لتعليل هذا التغيير الذي حدث كما نظن قبل الإسلام، فجرى عليه المسلمون وهم يدعونه بيحيى بن زكريا النبي أو يحيى الحصور لعفافه عن النساء، وقد ورد اسم يحيى في الشعر الجاهلي كما سترى.

---

[٣٢] في البيت تصحيف، والمعنى أن اليهود لَمَّا رأوا ابنها شَكُّوا في بَرارَتِها، وهو زَعْم مِن مزاعمِ أناجيل الزُّور، ومثله قوله عن المسيح: إنه تَكلَّم في المهد ليُبرِّر والدته الطاهرة، ورَدَ ذلك في إنجيل الطفولية المصنوع.

[٣٣] لحاه بكَّته وعَابَه وفي الأصل: بأن تُلجي وهو تصحيف.

[٣٤] قال فيه حسان بن ثابت وفي أبيه زكريا (الأغاني، ٤: ١١):

وإن أبا يحيى ويحيى كِلاهُما له عَملٌ في دينه مُتقبَّلُ

«والحواريون» تلاميذ السيد المسيح عند العرب، وقد اختلفوا أيضًا في أصل هذه اللفظة فقال البعض: إن معناها القصَّار لأن رُسل المسيح كانوا يُقَصِّرون الثياب، وهو قول لا سَنَدَ له؛ إذ لم يُعْرَف أحد من الرسل بمُزاوَلة القِصَارة، وقال غيرهم: هو مِنَ الحَوَر؛ أي شدة بياض العين في شدة سوادها، قالوا: دُعُوا بذلك لصفاء نِيَّاتهم، وقيل: بل لأنهم كانوا صفوة الأنبياء (راجع: لسان العرب، في مادة حور)، وإن صح ذلك يكون اشتقاق الكلمة من السريانية ܚܘܪܐ أولى ومعناها الأبيض والصافي البياض والنَّقِي، والصواب أن اللفظة حبشية ሐዋርያ «حواري» ومعناها الرَّسُول، وما لا ريب فيه أن اللفظة سبقت الإسلام، وقد جاءت في القصائد المعروفة بالأَصْمَعِيَّات (ص٧٥، Ahlwardt) في بيت للضابئ بن الحارث بن أرطأة البرجمي يشير إلى رغبة رُسُل المسيح في الموت لأجل سيدهم استشهادًا:

وكرَّ كما كَرَّ الحواري يَبتَغِي إلى الله زُلْفى أن يَكُرَّ فيُقْتَلا[٣٥]

وقال السموءل يَذْكُر الحواري (راجع: طبعتنا لديوانه، ص١٢):

وسليمانُ والحَوارِيُّ يحيى ومتى يُوسف كأَنِّي وَلِيتُ

يريد بالحواري يحيى على ما نظن يوحنا الحبيب وكذلك ذَكَر متَّى الرسول فخفف، أما «يوسف» فلعله يوسف المعروف بأخي الرب (متَّى، ١٣: ٥٥) أو يكون يوسف اسم أبي متى كأنه أراد مَتَى بن يوسف.

ومؤنث الحواريين «الحواريات» قالوا: هن نساء الأمصار لبياضهن، قال أبو جلدة وهو مسهر بن النعمان اليشكري (لسان العرب، ٥: ٢٩٩):

فَقُل لِلحَوارِيَّات يَبْكِينَ غَيرَنا ولا تبكِنَا إلا الكلابُ النوابحُ
بَكَيْن إلينا خيفةً أن تُبيحها رماحُ النصارى والسيوفُ الجوارحُ

«قال»: «جعل أهلَ الشام نصارى لأنها تلي الروم وهي بلادها.»

[٣٥] ويُرْوَى: فيُقْبَلا.

(٥) مفردات نصارى العرب الدالة على رؤسائهم ورهبانهم

وكان للنصارى في جزيرة العرب كما في بقية البلاد نظامهم الديني ورُتبهم من رؤساء ومرءوسين يسوسهم الرُّعَاة وزعماء الدين، ويَمتاز بينهم العُبَّاد والمنقطعون لخدمة الله في الرهبانية، والدليل على ذلك ألفاظ متعددة وردت في آثار عرب الجاهلية تشهد على قولنا شهادة واضحة.

فمن ألفاظهم التي استعملوها للدلالة على رئيس النصارى «الأَبِيل»، وقد اتخذوه للدلالة على السيد المسيح كما ورد في البيت المنسوب للأعشى، وللأخطل، ولعمرو بن عبد الحق:

وما سَبَّح الرهبان في كل بِيعَة　　　أَبِيل الأَبِيلِينَ المسيح بن مريما

قال في لسان العرب (١٣: ٦): «وكانوا يُعظِّمون الأبيل فيحلفون به كما يحلفون بالله.» وهذه اللفظة سريانية ܐܒܝܠܐ — من فعل ܐܒܠ؛ أي ناح وبكى على خطاياه — ومعناها في السريانية الزاهد والناسك والراهب وكانوا يتخذون عادة رؤساءهم من الرهبان المُتَبتِّلِين.

ومن ألفاظهم الخاصة برئيس النصرانية «البَطْرَك» «والبِطرَك» على ما جاء في التاج (٧: ١١١) قال: «هو مُقَدَّم النصارى، وقال: البطرك هو البطريق، ومنهم من جَعَل البطريق مُقدَّم جيش الروم.» والصواب أن البطرك كلمة يونانية Πατριάρχης معناها أبو الآباء، أما البطريق فلفظة لاتينية Patricius، وقد جاء اللفظان في الشعر القديم، قال الراعي يصف ثورًا (لسان العرب، ٧٢: ٢٨١):

يَعلو الظَّوَاهِر فردًا لا أليف له　　　مَشْيَ البِطرْك عَليه رَبْطُ كِتَّانِ

وقال أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت في البطريق (التاج، ٦: ٢٩٦):

مِن كلِّ بِطْريق لِبِطْرِيق　　　نَـقِـيِّ الـوجـه واضـحِ

وكذلك أنشد ابن بري (اللسان، ١١: ٢٠٣):

فلا تُنكِرُوني أن قومي أَعِزَّة　　　بَطارقةٌ بيض الوجوه كِرامُ

ومن ألفاظهم «الجاثَليق» وهو دُونَ البطرك، وأصل الكلمة من اليونانية ومعناها المسكوني (Καθολικος)، وقد استعملوه لرؤساء النَّساطرة والأرمن، قال صاحب القاموس: «هو رئيس للنصارى في بلاد الإسلام بمدينة السلام ... ويكون تحت يد بطريق أنطاكية ثم المُطران تحت يده، ثم الأسقف يكون في كل بلد من تحت المُطْران، ثم القِسِّيس، ثم الشَّمَّاس»، وقد ورد اسم الجَاثَليق في شعر بكر بن خارجة (معجم البكري، ص٣٧١):

بِمارَة مَرْيمٍ وبِدَير زَكَّى ومر توما ودَيْر الجاثَلِيقِ

أما «المطران» فأصلها على هذه الصورة من السريانية ܡܛܪܢ، أو ܡܝܛܪܢ والسريان اخْتَصرُوها من ܡܝܛܪܘܦܘܠܝܛܐ اليونانية μετροπολίτης، ولم نجدها في الشعر القديم.

وأشيع من المطران عند العرب «الأُسْقُف» زعم ابن السكيت أنه مُشْتَق من السَّقَف؛ أي طول في انحناء، وهو تأويل غريب، والصواب أنه مشتق من اليونانية ἐπίσκοπος بواسطة السريانية ܐܦܣܩܦܐ، وقد وردت اللفظة في الكلام القديم، روى ابن سعد في كتاب الوفود في شروط محمد إلى أهل نجران: «لا يُغَيَّر أُسقف عن أُسْقُفِيَّته، ولا راهب عن رهبانِيَّته ولا واقف عن وقفانِيَّته»، وكذلك روى البكري في معجم ما استعجم للحسين بن الضحاك يَصِف دير العمر (ص٧٦٩):

عَجَّت أساقفُها في بيت مَذْبَحِها وعَجَّ رُهبانُها في عَرْصَة الدار

ومن ألْفاظِهم الدَّالَّة على رؤساء النصارى «الحَبْر»[٣٦] ويقال: الحِبْر وأصْلُها العالِم، ثم خَصُّوها بكبير النصارى واستَعمَلُوها أيضًا لغيرهم، قال أيمن بن خُرَيم: يذكر خمر التقديس (الأغاني، ١٦: ٤٥):

ولم يَشْهَد القِسُّ المُهَيْنِم نارَها طروقًا ولا صلَّى على طَبْخِها حَبْرُ

---

[٣٦] ورد اسم الحَبْر في أرجاز رؤبة (Ahlwardt, 149):

إنجيلُ أحبارٍ وَحَى مُنَمْنِمُهْ ما خَطَّ فيه بالمدادِ قَلمُهْ

وقد روى القالي في أماليه بيت أيمن بن خريم: «ولم يحضر القسُّ ... ولم يشهد على طَبخِهَا الحَبْرُ».

وجاء في الجمهرة:

أو زُبُر حِمْيَر بَيْنَها أحْبارُها بالحِمْيَرِيَّة في عِسيبٍ ذابلِ

وروى ابن هشام في سيرة الرسول (ص٣٨٥) قول الشاعر:

لو كنتُ مرُتهنًا في القوس أَفْتَنَني منها الكلام ورَبَّاني أحبار

قال ابن هشام: القوس صومعة الراهب، والرَّبَّاني مشتق من الرَّب؛ أي السيد، ومثله الحَبْر بمعنى «السيد العالم»، وجاءت الحَبْر بمعنى العالم من اليهود أو كبيرهم ومنه كَعْب الأحبار، ويشبهه قول الشماخ (اللسان، ٥: ٢٢٩):

كمَا خَطَّ عِبرانِيَّةً بيمينه بتيماء حَبْر ثُم عَرَّض أَسْطُرًا

وكما دُعي رؤساء النصارى بالأحبار دعوهم أيضًا «بالأرباب»، قال حُمَيد بن ثور (المخصص، ١٢: ٨٧) يصف بعيرًا يطأطئ برأسه لِيُرْكَب:

فُضولَ أَزمَّتِها أَسْجدَت سُجودَ النصارى لأربابها

وروى في التاج (٢: ٣٧١): «لأحبارها».

ومن الألفاظ المُخْتَصَّة برئيس النصارى عند العرب «الساعي»، قال في التاج (١٠: ١٨٧): «الساعي لليهود والنصارى رئيسهم الذي يَصْدُرون عن رأيه ولا يَقْضُون أمرًا دونه، وبِالمَعْنَيَين فُسِّر حديث حذيفة في الأمانة: إن كان يهوديًّا أو نصرانيًّا لَيَرُدَّنَّه عليَّ ساعيه.»

ومما ذكره اللغويون «العَسَطُوس» قال في التاج (٤: ١٩٢): «هو رأس النصارى واللفظة رومية.» لم يُمكِنَّا ردها إلى أصلها ولعلها مُصحَّفة.

ومنها «القَسُّ»[٣٧] شرحه أصحاب المعاجم برئيس من رؤساء النصارى في الدين

---

[٣٧] كان العرب يعرفون القسوس بالعبادة والورع، والدليل عليه ما قال الزبير بن بكار عن عبد الرحمن بن أبي عمار: «إنه كان من عُبَّاد أهل مكة، فسُمِّي القس من عبادته (أخبار النساء، لابن الجوزية، ص١٨–١٩).» وقد ورد اسم القس في رثاء حاجب بن ذبيان لأخيه معاوية قال:

تَطاوَلَ بالبيضاءِ لَيلي فلم أَنَمْ وقد نامَ قسَّاها وصاحَ رجالُها

أراد بيضاء بني عقيل، ثم بني معاوية بن عقيل وهو المنتفق (معجم البلدان، ١: ٧٩٤).

والعلم واللفظة سريانية ܩܫܐ؛ أي شيخ وتأتي على وزن فعيل ܩܫܝܫܐ ومنها القِسِّيس في العربية، قال جرير في القس (المعرب، للجواليقي، ص٣٩):

صَبَّحْن تُوماءَ والناقوسُ يَقْرعُه　　قَسُّ النَّصارى حراجيجًا بنا تَجِفُ

قالوا: تُوماء من أعمال دمشق، ورواية معجم المستعجم للبكري (١: ٢١٥): ثَرْماء، قال: ثَرْماء ماء لكندة، وروي في لسان العرب (١٤: ٣٤٣): «صبحن تيماء»، ومن الشواهد في القس قول الراجز (اللسان، ٨: ٥٨):

لَوْ عَرَضَتْ لأَيْبليٍّ قَسِّ　　حَنَّ إِلَيْهَا كحَنِينِ الطَّسِّ

ومنه اسم قس بن ساعدة خطيب العرب وأسقف نجران، ومما وَرَد في القسيس قول عبد الله بن زبير لحَجَّار بن أبجر العجلي (الأغاني، ١٣: ٤٧) يُقَرِّعه في نصرانيته:

وعندكَ قِسِّيس النصارى وصُلبُها　　وغانِيةٌ صهباءُ مثل جَنَى النَّحْلِ

وجمعوه على قَساقِسَة،[٣٨] قال أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت (التاج، ٤: ٢٠٧):

لو كان مُنْفَلتٌ كانت قَساقِسةٌ　　يُحَيِّيهم الله في أيديهم الزُّبُرُ

والاسم من القس «القَسِّيسِيَّة والقُسُوسة»، وفي الحديث «لا يُغَيِّر قِسِّيس من قِسِّيسِيَّته»، واللفظة مشتقة من السريانية ܩܫܝܫܘܬܐ وبنى منها العرب فعل قسس.

ودون القَس «الشَّمَّاس»،[٣٩] عرَّفه ابن سيده في المخصص بقوله (١٣: ١٠٠): «من رءوس النصارى يَحْلِق وسَطَ رأسه ويلزم البِيعَة»، واللفظة سريانية ܡܫܡܫܢܐ؛ أي خادم البِيعَة، وقد تَسمَّى بعض العرب بالشَّمَّاس، كما ورد في الاشتقاق لابن دريد (٢٦٨)، وفي

---

[٣٨] وجمع أيضًا على قساقس وقساوسة وعلى قسيسون.

[٣٩] وذكره أيضًا عبد الله بن العباس الربعي (أغاني، ١٧: ١٢٩) قال:

رُبَّ صهباءَ من شرابِ المجوسِ　　قـهـوةٍ بـابـلـيَّـة خَـنـدريـسِ
قـد تَـحـلَّـيْـتُـهـا بـنـأيٍ وُعـودٍ　　قَبلَ ضَربِ الشَّمَّاس بالناقوسِ

حماسة أبي تمام (ص٢٥٥)، وجمَعَها خلَفُ بن خليفة (كتاب الشعر والشعراء، لابن قتيبة، ص٤٤٨، ed. Goeje) على شماميس فقال:

كأنَّا شَمامِيس في بِيعَة تُقَسِّسُ في بعض عِيدانِها

وجمعها البُحتري على شَمامِس حيث قال (معجم البلدان، لياقوت، ٢: ٨٣):

بَيْنَ شَمامِسَ وقُسوسِ

ومن الألفاظ التي وردت في المعاجم لرُتَب النصارى؛ الواقف والوافِه والواهِف، «فالواقِف» على ما ورد في لسان العرب والقاموس والتاج خادِم البِيعَة، مشتقة من وَقَف النصرانيُّ وِقِّيفَى إذا خدم البِيعَة، ونقل في التاج (٦: ٢٦٩) الحديث في كتاب محمد لأهل نجران: «أن لا يُغَيَّر واقِف من وِقِّيفَاه»، قال: «الواقف خادم البِيعة لأنه وقَفَ نفسه على خدمتها.» وروى ابن سعد (٧٧، ed. Wellhausen) «من وِقِّفانِيَّته». و«الوَافِهُ» قد عَرَّفوه «بقَيِّم البِيعَة التي فيها صَليب النصارى بلغة أهل الجزيرة.» (التاج، ٩: ٤٢١). وروى الحديث السابق: «لا يُغَيَّر وافِهٌ مِن وَفْهِيَّته»، والوَفاهة كالوَفْهِيَّة. والواقِه بالقاف كالوافِه وروى الحديث أيضًا: «ولا واقِهٌ من وَقاهِيَّته»، ومثلهما «الواهِف»، قال في التاج (٦: ٣٧٣): «الواهِف سادِنُ البيعة التي فيها صليبهم وقَيِّمُها كالوافه، وعمَلُها الوهافة بالكسر والفتح والوُهْفِيَّة والهفية، وقد وَهَف يَهِف وهْفًا ووهافة.» وقال ابن دريد في المخصص (١٣: ١٠٠): «الوَافِه مقلوب عن الواهِف».

ومثل الوافِه «السَّاعُور» شرحها في التاج (٣: ٣٦٨): «مُقدَّم النصارى في معرفة علم الطب وأدواته وأصله بالسريانية سَاعورا ومَعْناه مُتفَقِّد المرضى»، والساعور (ܣܥܘܪܐ) في عهدنا تُقال في الجزيرة لقَيِّم البيعة وفي مُصطَلح السريان يُراد بها المُدبِّر والزائر مطلقًا.

وأكثر ما تَعدَّد عند العرب من المفردات النصرانية الألفاظ الدَّالَّة على الرُّهبان ومساكنهم، فمنها «الأَبِيل»[٤٠] التي مَرَّ ذِكْرُها ومعناها الزاهد والراهب، وقد ذكرنا أصلها

[٤٠] قد بَنَو من هذه اللفظة فعلًا قال في التاج (٧: ٢٠١): «أَبل الرجل إذا تَرهَّب وتَنسَّك.» وفي شروح الشنتمري على أبيات الإيضاح (من مخطوطات مكتبتنا الشرقية، ص١٦٦): «التأبُّل التَّعزُّب عن المرأة.»

السرياني، ومن غريب التأويل ما ذكره في التاج (٧: ١٩٩): «الأَبِيل الراهب سُمِّي به لتأبُّله عن النساء وتَرْك غشيانهن.» قال عدي بن زيد:

إِنَّني واقِهٌ فاقْبَل حِلفتي   بِأَبِيلٍ كُلَّما صلَّى جأَرْ

وقال ابن دريد: هو ضارِبُ الناقوس وأنشد:

«وما صَكَّ ناقوسَ الصلاة أَبيلُها.»

ومثل الأَبِيل «الأَيْبَلِيُّ والأَيبُلِيُّ والهَيبُلِيُّ» وكلُّها بمعنى واحد؛ أي الراهب، ولعلها مقلوبة عن الأَبِيل، قال الأعشى:

وما أَيْبَليٌّ على هيكل   بناه وصَلَّبَ فيه وصارا

وأشهر من الأَبيل والأَيبلي «الرَّاهب» فأكثر من ذكره شعراء العرب، قال الأعشى (تاج العروس، ١: ٢٨٠) يَحلِف بمسوح الرُّهبان والكعبة:

حلفتُ بِثَوبَي راهبِ الدير والتي   بناها قُصَيٌّ والمُضَاض بنُ جُرْهُمِ

أراد بثوبيه مِسحَيْه كما قال جرير (التاج، ٨: ٦٩؛ وسيرة الرسول، ٣٨٥):

لا وَصْلٌ إذْ صَرَمتْ هندُ ولو وَقَفتْ   لاسْتَفتَنَتْني وذا المِسْحَين في القَوسِ

وروى البكري في معجم ما استعجم (ص٤٨٩) بيت الأعشى: «بِثَوبَي راهبِ الطُّور»، وروى أيضًا «وثَوْبَي راهبِ اللُّج» (راجع: المفضليات، ص٤٨، ed. Lyall)، وأردف البكري قائلًا: «قيل: إنه أراد المسيح — عليه السلام — بقوله: راهب اللُّج ... والتي بَناها قُصَيٌّ؛ يعني مكة.»

وكان رهبان جزيرة العرب يسكنون في التلال وأعالي الجبال كما يشهد عليه بيت أنشده ابن الأعرابي (التاج، ١: ٢٨١):

لو كَلَّمتْ رُهبانَ دَير في القُلَلْ   لَانْحدَر الرُّهبان يَسعى فَنَزَلْ

قالوا: الرُّهبان هنا مُفرد كالراهب، وقال ربيعة بن مقروم الضَّبِّي يصف مَقام الراهب ونسكه (الأغاني، ١٩: ٩٢):

لو أنها عَرَضتْ لأشْمَط راهبٍ   في رأسِ مُشرفةِ الذُّري مُتبَتِّلِ
جَئَّارِ ساعات النِّيام لربِّه   حتَّى تَخدَّد لحمُه مُتَشَمعِلِ
لَصَبا لبَهجتها وحُسْن حديثها   ولَهَمَّ مِن نَاقوسِه بِتَنزُّلِ

والمُتَشَمْعِل المُتغَنِّي في تلاوة الزَّبُور، قال الراعي (معجم البلدان، ٤: ٥٠١):

وسِربِ نساءٍ لو رآهن راهبٌ   له ظُلَّةٌ في قُلَّة ظَلَّ رانيا

يقال: رنَا إليه؛ أي طَرِب لحديثه، ومما وَصَفوه وأَفاضوا في ذكره مِصباح الراهب الذي يُوقِده ليلًا لصلاته فيُرى عن بُعْد ويَستَهدِي به طارقُ الليل، قال امرُؤ القيس في معلقته، يصف لَمعانَ البَرْق ويشبهه بسراج الراهب عند صبِهِ الزيت على الفتيلة ليذكيه:

أَصاحِ تَرى برقًا أُريك وَميضَهُ   كَلمْعِ اليدين في حَبِيٍّ مَكلَّلِ
يُضيء سَنَاه أو مصابيحُ راهبٍ   أمالَ السَّليطَ بالذُّبال المُفتَّلِ

ومثله قول كُثَيِّر (اللسان، ١٥: ١٧٩):

أو مصابيحَ راهبٍ في يفاعٍ   سَغَّمَ الزَّيتَ ساطعاتِ الذُّبالِ

وقال امرؤ القيس (راجع: ديوانه في العقد الثمين، ص٢١):

نظرتُ إليها والنجومُ كأنَّها   مصابيحُ رُهبان تُشَبُّ لقُفَّال

قال الشُّرَّاح: القُفَّال عُبَّاد النصارى؛ لأنهم قَفلتْ جلودهم؛ أي يَبِستْ من العبادة، وقال المُزرَّد أخو الشماخ (عن ديوانه المخطوط):

كأن شعاع الشمس في حُجُراتها   مصابيحُ رُهبان زَهَتْها القَنادلُ

وذكروا لِبْس الرهبان للسواد، قال الأعلم (في الهُذَيليات، ص٥٧) يصف قتمة جلد الضباع:

سُودٌ سَحاليل كأَنَّ جلودَهن ثيابُ راهب

وقد وصفوا الرُّهبان بالتَّبتُّل، قال امرؤ القيس (ديوانه، ص١٤٨):

تُضيءُ الظَّلام بالعشاء كأنها منارة مُمْسَى راهبٍ مُتبتِّلِ

والصَّرُورة مثل التَّبَتُّل،[٤١] قال النابغة الذبياني (ديوانه في العقد الفريد، ص١١):

لو أنَّها عَرَضتْ لأشمطَ راهبٍ عَبدَ الإلهَ صرورةٍ مَتعبِّدِ
لرنَا لرؤيتها وحُسْن حديثِها ولَخالَه رُشْدًا وإن لم يَرشُدِ

كذلك وصفوا صلاة الرُّهبان في ليلهم وتشعُّث لُمَّتهم زهدًا وأصوامهم، قال منظور الأسدي (راجع: تهذيب الألفاظ، لابن السكيت، ص٤١٢؛ ولسان العرب، ١٣: ٦):

كأن مَهواهُ على الكَلْكَلِّ موقع كَفَّي راهبٍ يُصلِّي
ببازلٍ وجْناءَ أو عَيْهلِّ في غبَشِ الصُّبح أو التَّتلِّي

وقال الآخِر (اللسان، ١٤: ٨٩):

عن راهبٍ مُتَبتِّل مُتَقَهِّلِ صادِي النَّهارَ لِلَيله مُتَهَجِّدِ

القَهَل يُبْس الجلد من العبادة، والتَّهجُّد السَّهر للصلاة، وكانوا يَتلُون الزَّبُور خصوصًا في صلاتهم كما قال امرُؤ القيس يَصِف رسوم الدار (ديوانه في العقد الثمين، ص١٦١):

أَتتْ حِجَج بَعدي عليه فأصبحَت كخَطِّ زَبور في مَصاحفِ رُهبانِ

[٤١] وفي الحديث. «لا صرورةَ في الإسلام.» قال الزجاجي معناه التَّبتُّل وتَرْك النكاح.

وكما أفاضُوا في ذكر الرُّهبان كذلك بَيَّنوا منازلهم في بلاد العرب فخَصُّوا منها بلاد مَدْينَ قال كُثَيِّر عزة (معجم البلدان، لياقوت، ٤: ٤٥١):

رُهبانُ مَدْينَ والذين عَهِدتُهم يَبكُون من حَذَر العِقاب قُعودَا
لو يَسمعُون كما سمعتُ كلامَها خرُّوا لِعزِّه رُكَّعًا وسُجودَا

وقال جرير (ياقوت، ٤: ٤٥١):

رُهبانُ مَدينَ لو رَأوكِ تَنزَّلُوا والعُصْمُ من شَعَفِ الجبال الفادرِ

وكذلك خَصَّصوا وادي القُرى كمناسك للرُّهبان قال جعفر بن سُراقة، أحد بني قرة (الأغاني، ٧: ١٠١):

فنحنُ مَنَعنَا ذا القرى من عَدوِّنا وعُذرةَ إذ نَلْقى يَهودًا وبَعْثَرا
مَنعناه من عُليا مَعَدٍّ وأنتمُ سفاسيفُ رَوحٍ بَيْن قرحٍ وخَيبرَا
فَريقان رُهبانٌ بأسفلَ ذي القرى وبالشام عرَّافون فِيمَن تَنصَّرا

وكذلك عَيَّنوا مَوْزَن وهو بلد بالجزيرة في ديار مُضَر كأحد مناسك الرهبان، قال كُثَيِّر (راجع: التاج، ٣: ٤٩٩؛ وياقوت، ٤: ٦٨٠):

كأنَّهمُ قَصْرًا[٤٢] مصابيحُ راهبٍ بِمَوْزَنَ رَوَّى بالسَّليط ذُبالَها
همُ أهلُ ألواحِ السَّرير ويَمنِه قَرابينُ أردافٌ لها وشِمالُها

قَصْرًا؛ أي عَشِيًّا، والسَّليط الزيتُ كما مرَّ. وعدَّد صَخْر الغي (لسان العرب، ٩: ٢٧؛ والتاج، ٥: ٢٨٣؛ والهذيليات، ص١٣) أمكنةً أخرى يَسكُنها الرهبان كبلاد الروم، ومنازل تَنوخ وصوران، وزَبَد،[٤٣] قال:

واللهِ لو أَسمعَتْ مَقالَتَها شيخًا من الشُّعْث رأسُه لَبِدُ
مآبُهُ الرومُ أو تَنوخُ أوِ الـ آطام من صَوَّران أو زَبَدُ
لَفاتَحَ البيعَ يَومُ رُؤيَتها وكان من قَبلُ بَيعُه لَكدُ

[٤٢] ورد قبله في اللسان، ١٧: ٣٤٠:

بالخَير أبلجُ مِن سقايةِ راهبٍ تَجلَّى بِمَوزَنَ مُشرقًا تمثالُها

[٤٣] جاء في التاج (٣: ٣٤٤) أن صوران كورة بحمص، وقال ياقوت (٢: ٩١٤): زبد قرية بقنسرين.

فذِكْرهم للرُّهبان في كل هذه الأمكنة يؤيد قولنا في القسم الأول عن شيوع النصرانية في أنحاء جزيرة العرب.

وكانوا يَدْعون الرُّهبان بالحُبَساء، و«الحَبيس» في المعاجم المحبوس في سبيل الله؛ أي المُفْرَز لذلك فيقولون: حبيس الله.[٤٤]

وكذلك دعوا الرُّهبان «بالحُنفاء»، وقد مرَّ لنا كلام في الحنيف في القسم الأول من كتابنا (ص١١٩) حيث أثبتنا أن الحنيف جاءت بمعنى الراهب، كفى شاهدًا على ذلك قول صخر الغي في الهُذيليَّات (ص٤٥، ed. Kosegarten):

كـأنَّ تَـوالِـيَـه بـالـمـلا نَصارى يُساقُون لاقَوْا حَنيفا

ومن أسماء الراهب عند العرب «الدَّيْراني»، قالوا: إنه صاحب الدَّيْر نِسبة إليه على شذوذ، والصواب أنه من السريانية ܕܝܪܝܐ، ومنها أيضًا «الرَّبِيط»،[٤٥] قال الزجاجي: هو الراهب، وفي التاج (٥: ١٤٣): «الربيط الراهب والزاهد والحكيم الذي ظَلَفَ؛ أي ربط نفسه عن الدنيا؛ أي سدَّها ومنعها.» ومنها «الجُلاذي» و«الجُلَذِي».

قال في التاج (٢: ٥٥٧) هو خادم البيعة والراهب والجمع الجَلَاذيُّ بفتح الأول، وقد ورد في الشعر القديم، قال تميم بن مُقبل:

صوتُ النَّواقيس فيه ما يُفرِّطُه أَيدي الجَلاذِيِّ جَونٌ ما يُعَفِّينَا
كأنَّ أصواتها من حيث تَسمعُها صوتُ المَحارثِ يَخْلِجن المَحارِينا

ورُوِي البيت الأول: «الجلاذي وجون ما يُغَفِّينا»، والثاني: «صوتُ المَحابِض يَنزِعْنَ المحارينا».

ومن أسماء الراهب أيضًا «النُّهاميُّ» جاء في المُخصَّص لابن سيده (١٣: ١٠٠): «النُّهاميُّ، في قول ابن الأعرابي الراهب لأنه يَنْهَم؛ أي يدعو، ومن المُحتَمَل أنها مُستعارة من السريانية ܢܗܡܐ؛ أي الباكي والزاهد كما قالوا الأَبِيل، أو هي مشتقة من الحبشية كما

---

[٤٤] اطلب: كتاب المُعَمَّرين، للسجستاني (Goldziher. *Abhandlungen*, XXXII).

[٤٥] ومثله المربوط؛ أي الراهب، وفي التاج (٤: ١٤٢) أن الرَّبِيط لقب الغَوْث بن مر من مُضَر.

ارتأى العلامة نولدك (Beitraege, p. 56)، وجاءت اللفظة في الشعر القديم، قال الأسود بن يعفر (لسان العرب، ٢٠: ٦٦):

وقالوا شريسٌ قلتُ يَكفِي شَريسَكم سِنانٌ كنِبْراسِ النُّهامِيِّ مُفتَّقُ
نَمَتْه الْعَصا ثَمَّ استمر كأنَّه شهابٌ بِكفَّيْ فارسٍ يَتحرَّقُ

وقد رأيتُ أنهم دَعوا الراهب «بالأشْعَث»؛[٤٦] لتَشعُّث لُمَّتِه، قال الشاعر (لسان العرب، ١٩: ٣٤١)، راجع أيضًا: (المُفضَّليات، ص٤١١):

وأشعثَ عُنوان بِه من سُجودِه كرُكْبَة عَنزٍ من عُنوزِ بني نَصْرِ

وقال صخر الغي:

شيخًا من الشُّعْث رأسُه لبدُ

وقد سَمَّوا الراهب «الْمُقدِّس» إذا زارَ بيت المَقْدِس كما قال امرؤ القيس يصف ثورًا أدركَتْه الكلاب فَقطعَتْ جِلدَه:

فأَدْركْنَه يَأخُذن بالسَّاق والنَّسَا كما شَبْرقَ الوُلدانُ ثَوب المُقَدِّسِ

قال في اللسان (٨: ٥٠): شَبْرَق جِلْدَه؛ أي قَطَّعه، يقول: قطَّعه الكلاب كما شَبْرَق وُلدان النَّصارى الراهب الذي يَجِيء من بيت المَقدِس، فقَطَّعوا ثيابه تبرُّكًا، وكانوا يَتبرَّكُون به وبمِسْحِه الذي هو لابِسُه وأخذ خيوط منه حتى يَتمزَّق ثَوبُه وقيل: المُقدِّس الحَبْر».

ومن أسماء الراهب عندهم «المُتعبِّد»،[٤٧] قال ابن سيده (١٣: ١٠٠): «هو المُنقَطِع في الصَّومعة»، وقد مر في الشعر.

---

[٤٦] ولعل الرهبان كانوا يُرَبُّون شعرهم على مثال النذير عند بني إسرائيل كما جاء في شعر عدي بن زيد في وصف راهب (أغاني، ٢: ٢٥):

مرعدًا أحشاؤه في هيكلٍ حسنٌ لُمَّتُه وافي الشَّعَرْ

[٤٧] ومثله العابد يجمعونه العُبَّاد والأعابِد، قال أبو دؤاد الإيادي يصف مصابيح الرهبان (التاج، ٢: ٤١٠):

لهُنَّ كَنارِ الرأس في الـ ـعَلياءِ تُذْكِيها الأعابدْ

وقد ابْتَنَوا من الراهب اسمًا، فقالوا: «الرهبانية» ومنه ما ورد في سورة الحديد (ع٢٧): ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ﴾.

وكما ذكَروا الراهب ذكروا «الرَّاهِبة»، وجمَعُوها الرواهب، قال امرؤ القيس (العقد الثمين، ص١١٨؛ والتاج، ٤: ٤٣):

فآنَستُ سربًا من بَعيد كأنَّه رواهبُ عِيد في مُلاءٍ مُهدَّب

ودَعَوا الرَّاهبة أيضًا «بالدَّيْرانِيَّة» وردت اللفظة في كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة (ص٢٢٩)؛ وفي معجم البكري (٣٧٧)، ودعوا الرواهب أيضًا «بالعذارى»، ومنه عدة أديرة وصفها العرب وسمَّوها أديرة العذارى (راجع: البكري، ص٣٧٦؛ وياقوت، في معجم البلدان، ٣: ٦٧٨) ومنه صوم العذارى «للعذارى النصرانيات من العرب شكرًا لله، حيث انتصرت العرب من العجم يوم ذي قار» (الآثار الباقية، للبيروني، ص٣١٤).

وعلى ظَنِّنا أن «الحَوارِيَّات»، أرادوا بها أيضًا العَذارى الرَّواهِب قال مُسْهِر اليشكري (اللسان، ٥: ٢٩٩):

فقُل للحَوارِيَّات يَبكينَ غَيرَنا ولا تَبْكِينَا إلا الكلابُ النوابحُ

ويلحق باسم الراهب «المُحرَّر والنَّذِيرة» ورد ذِكرُهما في المخصص (١٣: ١٠١)، في باب الرهبانية ونحوها قال: «هما الابن أو الابنة يَجعلُه أبواه قَيِّمًا وخادمًا للكنيسة وإنما كان يفعل ذلك بنو إسرائيل، كان رُبَّما وُلِد لأحدهم ولد فحرَّره؛ أي جعله نذيرةً في خدمة الكنيسة ما عاش لا يسعُه تركها.» وقد وردت لفظة المُحرَّر في القرآن عن لسان والدة العذراء مريم فقال (سورة آل عمران، ٣: ٣١): ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾، والنَّذِيرة من العبرانية נזור؛ أي المَنذُور للرب.

وهذه ألفاظ أُخْرَى نُردِفُها بأسماء الرُّهْبان وردَت أيضًا في لغة أهل الجاهلية منها «السائح» بمعنى الراهب المُتفَرِّد في الإقفار ذكرها ابن هشام في سيرته (ص٢٠) عن أول داعٍ للنصرانية في نجران، وذكرَها المؤرِّخون عن نعمان ملك الحيرة لما ساح في الأرض بعد تَنصُّره وزُهْده، والاسم السياحة، قال في التاج (٢: ١٦٨): «السياحة والسُّيوح والسَّيَحان والسَّيْح؛ الذَّهاب في الأرض للعبادة والترُّهب، «قال»: ومنه المسيح عيسى ابن مريم

— عليه السلام — في بعض الأقاويل؛ لأنه كان يذهب في الأرض فأينما أدركه الليل صفَّ قدميه وصلَّى حتى الصباح.» وقد مر بك أن هذا الاشتقاق ليس بصواب.

ومنها «الناسك»، وهو المُتعبِّد المُتقرِّب إلى الله بالصوم والصلاة وأعمال البر، أطلقها العرب على الراهب، والاسم النُّسك بتثليث أولها.

وكان الرُّهبان يَحلِقون وسط رأسهم وهي «القُوقة»، والرجل مُقوَّق، جاء في (كتاب الأضداد، ص١٣٢؛ وفي اللسان، ١٢: ٢٠٠):

أيها القَسُّ الذي قد حلَق القُوقَة حَلْقَهْ
لو رأيتَ الدُّفَّ منها لنَسقتَ الدُّفَّ نَسْقَهْ

ومنها «الحازي[٤٨] والعَرَّاف والكاهن»، وهي ألفاظ الْتبسَت عليهم فتردَّدُوا في معانيها، ولا شك أنها أُطلقت أيضًا على نصارى الجاهلية، فالحازِي عندهم «الكاهن، والعائِف، والعالِم بالأمور.» (راجع: التاج في المادة) واللفظة مُعرَّبة من العبرانية חזה؛ أي الناظر والنَّبي، أو مأخوذة من السريانية ܚܙܝܐ، أو ܚܙܘܝܐ أي المُتفَقِّد والناظر والحكيم أرادوا بها رئيس الدِّين لِحكْمَته ولعلها ترجمة اليونانية ἐπίσκοπος بمعنى الناظر؛ أي الأسقف والراعي الديني.

وكذلك «العَرَّاف» أرادوا بها الساحر والمُنْبِئ بالمستقبل عمومًا، وقد خصُّوا بها النصارى، قال جعفر بن سُراقة في شعر مر ذكره (ص٥٩٨):

فَريقانِ رُهبان بأسفلِ ذي القُرَى وبالشَّام عَرَّافون فِيمَن تَنصَّرَا

ومثلهما «الكاهن»، فإنها وَردتْ بمعنى مُدَّعي مَعرفة الأسرار والمُتعاطِي أخبار الكائنات في الماضي والمستقبل، والاسم الكهانة، لكن للكاهن مَعنًى آخَر لم يجهله العرب في الجاهلية نريد به معنى خادم الدين ومُقرِّب الأقداس للإله وهو معناها في العبرانية

[٤٨] وردت في شعر أفنون (المفضليات، ٥٢٣) قال:

ألا لستُ في شيء فَروحًا مُعاديًا ولا المُشفِقاتُ إذ تَبِعْنَ الحَوازيا

(قال) الحوازي: الكواهن، وقد جَمَع الطبري (١: ١٠١٠) الحازي حزاة قال: الحُزاةُ: العلماءُ.

כהן، وفي الآرامية ܟܗܢܐ فلا بد من القول: إن العرب استعاروه منهما للدلالة على كهنة اليهود والنصارى، وقد رأيتَ في فصولنا السابقة عن تاريخ النصرانية في جزيرة العرب شيوعَ هذا الدين في كل أنحاء العربية، والدين المسيحي لا يقوم إلا بالنظام الكَنَسي؛ أي بوجود أساقفة وكَهَنة ومنه يَتَّضح أنهم لم يريدوا بلفظة الكاهن السَّحَرة والمشعوذين فقط، بل أَخذُوها أيضًا بمعناها الخاص؛ أي راعي الدِّين القويم، وخادم الأسرار المقدَّسة وإن لم يَنصُّوا عليه، وقريب منه قول صاحب لسان العرب (١٧: ٢٤٥): «العرب تُسمِّي كل من يتعاطى علمًا دقيقًا كاهنًا، ومنهم من كان يُسمِّي المُنجِّم والطبيب كاهنًا»، فطبيب الأرواح أحق به مِن سواه، وفي تاريخ عرب الجاهلية أخبار بعض الكُهَّان الذين دَعَوا إلى الله وردُّوا عن المُنْكَر وأرشدوا إلى الخير ما يدلُّ على أنهم كانوا أرفعَ مقامًا من السَّحَرة.

(٦) مُفرَدات نصارى الجاهلية الخاصة بكنائسهم وأقداسها

سبق لنا عدة ألفاظ مُشتركة استعملها نصارى العرب لمناسكهم وعباداتهم كما سبقوا غيرهم إلى استعمالها؛ كالمسجد، والكعبة، والمِحراب، والمَنارة، والمِئْذَنة، ولهم ألفاظ أخرى خاصَّة بهم تجري عندهم حتى اليوم، وكانت شائعة قبل الإسلام، كما سترى منها «الكنيسة»[٤٩] وهي لفظة سامِيَّة معناها المجمع عبرانِيَّتُها כנשתא وسريانِيَّتُها ܟܢܘܫܬܐ فأتتْ بمعنى محل صلاة اليهود والنصارى ومنهم مَن يجعل الكنيسة للنصارى والكَنِيس لليهود، ومن الشواهد على استعمال اللفظة قديمًا لمعبد النصارى قول جرير يهجو بني تغلب النصارى (الكامل، للمبرد، ص٤٨٥، ed. Wright):

ما في مَقام ديارِ تَغلِب مَسجِدٌ　　　وبها كنائسُ حَنْتمٍ ودِنان

[٤٩] قال عدي بن زيد يشبه تشعشع زجاجة الخمر بقنديل راهبٍ في كنيسته (أغاني، ٢: ١٧٢):

بزجاجةٍ ملء اليدين كأنها　　　قنديلُ صُبحٍ في كنيسةِ راهبِ

وقال عباس بن مرداس (الأغاني، ١٣: ٦٤):

يَدورونَ بي في ظلِّ كلِّ كنيسةٍ　　　فيُنسونَنِي قومي وأهوى الكنائسا

«قالوا»: الحَنْتَم الخَزَف الأخضر.

وأَشْيَع منها لفظة «البِيعَة»[٥٠] وهي سريانية ܒܥܬܐ ومعناها البيضة والقُبَّة إشارة إلى شكل بناء الكنائس قديمًا وذِكْرُها مُكرَّر في الشعر الجاهلي، قال ورقة ابن نوفل (الأغاني، ٣: ١٦):

أقول إذا صَليتُ في كل بِيعَة   تباركتَ قد أكثرتَ باسمك داعِيا

ومثله للزِّبْرقان بن بَدْر التميمي لَمَّا وفد على نبي المسلمين (سيرة الرسول، لابن هشام، ص٩٣٥):

نحن الكرامُ فلا حيٌّ يُعادِلُنا   منَّا المُلوك وفينا تُنْصَب البِيَع

وأقدم منهما قول لقيط بن مَعْبد في عينيته التي وجَّهها إلى قومه لِيُحذِّرَهم من كسرى ذي الأوتاد (مختارات شعراء العرب، لهبة الله العلوي، ص٢؛ وتاج العروس، ٥: ٢٨٥):

تامَتْ فؤادي بذات الخالِ خَرْعَبَةٌ   مَرَّتْ تريد بذاتِ العَذْبَة البِيَعا

«قال»: ذات الخال وذات العَذْبَة مكانان، ويروى: بذات الجذع، وروى في التاج «نامَت ... خزعته،» وهو تصحيف، ومثله قدمًا قول عبد المسيح بن بقيلة (معجم البلدان، لياقوت، ٢: ٦٥١):

كم تَجرَّعتُ بِدَير الجَرَعَةْ   غَصصًا كَبِدي بها مُنصَدِعَةْ
مِن بدورٍ فوق أغصان على   كَثْبٍ زُرْنَ احتسابًا بِيَعَهْ

---

[٥٠] جاءت أيضًا في شعر عمر بن أبي ربيعة (أغاني، ٣: ٨٧):

فقلتُ أشمسٌ أم مصابيح بِيعَةٍ   بدَتْ لك خلفَ السُّجفِ أم أنتَ حالمُ

وجاء في نقائض جرير والفرزدق (ص٥٨) وكانوا يدعون كنائسهم بيت الصلاة، قال الفرزدق يمدح جبيرة بنت أبي بذال من بني قطن من نهشل اسمه بشر بن صبيح:

تَهادَى إلى بيتِ الصلاة كأنها   على الوَعْتِ ذُو ساقٍ مَهيضٍ كُسورُها

ومنها «القُلَّيْس»، قال في المخصص (١٣: ١٠٣): «القُلَّيْس بِيعَة كانت بصنعاء للحبشة هدَمَتْها حِمْير.» واللفظة دخيلة أصلها من اليونانية Ἐκκλησία، وقد وصف قدماء الكتبة هذه الكنيسة بأوصاف تدل على حسنها وفخامة بنائها، وكان بانيها الملك أبرهة (راجع: ما نقلناه من أقوالهم في مجاني الأدب، ج٣، ع٤٠١؛ وج٧، ص١٢٩٦)، ومنها «السعيدة»، جعلها ابن سيدة (١٣: ١٠٣) وياقوت (٤: ٧٥٦) في جملة مَناسك النصارى وقالَا عنها: أنها «بيتٌ كانت تَحجُّه ربيعة في الجاهلية.» وقد مر بك ذِكْر تَنصُّر ربيعة.

وأجلُّ ما في البيعة «هيكَلُها»، وهو صدرها حيث تُقام الصلوات والرُّتَب، واللفظة عبرانية חוכל، وآرامية ܗܝܟܠܐ وهي فيهما بناء العبادة الكبير، والهيكل في العربية البناء العظيم واسْتُعمِل لكل كبير الجسم، قال التبريزي في شرح الحماسة (ص٢٩): «الهيكل أصلُه في البناء.» وقال في الأغاني: «الهيكل العظيم من الخيل والشجر، ومنه. «?» سُمِّي بيت النصارى الهيكل.» وقد ورد بهذا المعنى في الشعر الجاهلي، قال عَنْتَرة[٥١] (راجع: العقد الثمين، ص١٨١):

تَمْشِي النَّعَام به خَلَاء حوله ‏ ‏ ‏ ‏ مَشْي النَّصارى حول بيت الْهَيكل

قال في المُخصَّص (١٣: ١٠٤): «الهيكل بيتُ النصارى فيه صورة مريم عليها السلام ... وربما سُمِّي به دَيْرهم.» وفي لسان العرب (١٤: ٢٢٥):
«الهيكل بيت النصارى فيه صورة مريم وعيسى.» وقال الأعشى (الأضداد، ص٢٤؛ ولسان العرب، ٦: ١٤٤) يُذْكَر الهيكل:

وما أَيْبلِيٌّ على هيكل ‏ ‏ ‏ ‏ بناهُ وصَلَّبَ فيه وصارا

ومثله قول الآخر، وقد مر:

وما قَدَّس الرُّهْبان في كل هيكل ‏ ‏ ‏ ‏ أَبيلُ الأبِيلِينَ المسيحَ بن مَريمَا

---

[٥١] يروى هذا البيت لعبد قيس بن خفاف البرجمي (أغاني، ٧: ١٤٨).

وفي الهيكل «المَذْبَح»، وهو مَحل التَّقدِيس والقُرْبان، وأصله محل الذَّبْح وتقدمة الذبيحة فاستعْمَلوه مجازًا قال في التاج (٢: ١٣٨): «ومن المَجاز المَذابح للمَحاريب والمَقاصير في الكنائس وبيوت كُتُب النصارى، سُمِّيَت بالمَذابح للقرابين.» وقال في أساس البلاغة (١: ١٩٢): «مررتُ بمَذابح النصارى وهي محاريبهم وموضع كُتُبهم ونحوها المناسك للمعتقدات.»

قال الحسين بن الضحاك (راجع: معجم البكري، ص٣٦٩):

عَجَّتْ أساقفُها في بيت مَذبَحها وعجَّ رهبانُها في عَرْصة الدار

وكان للكنائس «مَحاريبُها»، وقد مرَّت، وأخصُّ ما كانوا يُزيِّنون به هياكلهم «الصَّلِيب»[٥٢] تَنويهًا بموت السيد المسيح مصلوبًا، وقد تَكرَّر ذِكْرُه في الشعر الجاهلي، وجَمَعوه على صُلُب وصُلْبان، وصَرَّحوا بعبادة النَّصارى للصليب، وباتخاذهم له كَقِبْلة وكرأية، وقد أقْسَم به عدي بن زيد فقال (الأغاني، ٢: ٢٤):

سَعى الأعداءُ لا يَأْلُون شرًّا عليكَ وربِّ مِكَّةَ والصَّليبِ

---

[٥٢] الصليب وممن ذكر الصليب بشر بن أبي خازم في مدحه لبني الحداء النصارى (البيان، للجاحظ، ٢: ٧١):

إذا غَدَوْا وعَصيُّ الطَّلح أرجُلُهم كما تُنْصبُ وسْطَ البِيعَة الصُّلُبُ

وكانوا يلثمون الصليب ويمسحون أيديهم به، قال جرير (النقائض، ص٤٠٢) في بني تغلب:

رُويدَكم مَسْحَ الصليب إذا دَنا هلالُ الجَزَى واستَعْمَلوا بالدراهمِ

يشير إلى ما وُضع عليهم من الجزية والخراج، وذكر أيضًا في محل آخَر العابدين للصليب (نقائض، ٥٠٦)، وجاء للخالدي (ياقوت، ٢: ٦٤٤) بيت في لثم النصارى للصليب، وقال جرير أيضًا (نقائض، ص٥١٠) في تغلب:

ولم تَمسحِ البيتَ العتيقَ أكُفُّها ولكنْ بقُربانِ الصليبِ تَمسَّحُ

وكذلك كانوا يزينون صدورهم بالصليب، قال عبد الله بن العباس الربعي في فتاة (الأغاني، ١٧: ١٢٩):

كمْ لثمتُ الصليبَ في الجِيدِ منها كـهـلالٍ مُـكـلَّـلٍ بـشُـمـوسِ

راجع أيضًا: ما قِيل في القسم الأول عن إكرام النَّصارى لمكة في الجاهلية (ص١١٨)، ومِمَّن ذَكَروا الصليب النابغة الذبياني (تاج العروس، ١: ٣٣٧) قال:

ظلَّتْ أَقاطيع أنعامٍ مُؤَبَّلةٍ   لدى صليب على الزَّوْراءِ مَنصوبِ

قال الصغَّاني (Lane s.v): «سَمَّى النابغةُ العلم صَليبًا؛ لأنه كان على صليب لأنه كان نصرانيًّا.» وقال شارح ديوان النابغة (شعراء النصرانية، ص٦٥٥):
«أراد النابغة صَليب النصارى، وكان النعمان نصرانيًّا.» وقد ذكر الأخطل خروج النصارى لحروبهم والصليب يتقدمهم (ديوانه، ص٣٠٩):

لمَّا رَأَوْنا والصَّلِيبُ طالعًا   خَلَّوا لنا رازانَ والمَزارعا

ومِمَّن صرَّحوا بعبادة العرب للصليب حَجَّار بن أبجر، قال يهجو بني عِجْل النصارى (الأغاني، ١٣: ٤٧):

تُهدِّدُني عِجْل وما خِلتُ أنَّنِي   خلاةٌ لعجلٍ والصَّليبُ لها بَعْلُ

أي تَعبُد المصلوب، وروي في التاج (١٠: ٩٠) للأقيشر:

في فِتيةٍ جَعلوا الصليب إلِهَهم   حاشايَ إنِّي مسلم مَعذورُ

وكانوا يَسِمُون جِباههم بالصليب، قال حُجَّة الدين الصقلي في كتاب أنباء نُجَباء الأنباء لخالد بن يزيد في امرأته رَمْلَة الزبيرية (ص٩٤):

أُحبُّ بَني العَوَّام طُرا لأَجْلِها   ومِنْ أجْلِها أَحبَبتُ أخوالَها كَلبا
فإن تُسْلِمي أُسْلِم وإنْ تَتنَصَّرِي   يَخطُّ رجال بين أعينهم صُلُبا

وبَنَوا من الصليب فِعلًا فقالوا: صلَّب؛ أي رسمَ الصَّليب، كما رأيت في شعر الأعشى:

فما أَيْبلِيٌّ على هيكلٍ   بناه وصَلَّب فيه وصارا

وكان نصارى العرب كما غيرهم يُزَيِّنون كنائِسَهم بِنقْش الصُّور ونُصُب التماثيل فيُكرمونها نِسبةً إلى ما تُمثِّلُه لهم من أولياء الله وفضائلهم، ولنا في شِعْر أهل الجاهلية عدة شواهد على ذلك، فذكَرُوا «الصورة»، وهي هيئة الشيء وشَكْلُه، لا سيما هَيئة أولياء الله، وقد سبق في باب تاريخ النصرانية بين عرب الحجاز (ص١١٦-١١٧)، أن العرب كانوا وَضَعوا في الكعبة صورة «الملائكة والأنبياء كموسى ومريم وعيسى»: وممن ذكروا الصورة النصرانية الأعشى، كما سبق فبنى من الصورة فعل «صَارَ»:

وصَلَّبَ فيه وصارَا

يريد الرَّاهبَ الذي نَصَب الصليب في الهيكل وزَانَه بالصور، وتُسمَّى الصورة «تمثالًا»، قال في التاج (٨: ١١١): «التمثال الشيء المصنوع مُشبَّهًا بخلق من خلق الله عز وجل، «قال»: والتماثيل هي صور الأنبياء وكان التمثيل مباحًا في ذلك الوقت.» وكانت تلك الصور تُتْقَن بالفنِّ وينقشونها بالألوان ويطلونها بالذَّهَب، قال عبد الله بن عجلان[٥٣] (الأغاني، ١٩: ١٠٢):

غَرَّاءُ مثلُ الهلال صُورتُها ... ومثل تمثالِ صُورةِ الذَّهبِ

«قال» ويُرْوَى: بِيعَة الذَّهَب، وروى ياقوت لشاعر قديم (٣: ٥٢٥):

حتى إذا كُنَّ دَوَيْنَ الطِّرْبَالْ ... بَشَّرَ منه بصهيلٍ صَلْصالْ
مُطهَّر الصورةِ مثل التمثالْ

ومثله للأخطل (ديوانه، ص١٢):

حَلْيٌ يشبُّ بياض النَّحْر واقدُه ... كما تُصَوَّر في الدَّيْر التماثيل

وكانوا يَطوفون حول الصور، لا سيما في أعيادهم، قال الحارث بن خالد المخزومي (الأغاني، ١٥: ١٣٣):

وبشرةُ خُودٌ مِثلُ تِمثالِ بِيعَة ... تظلُّ النصارى حوله يومَ عيدِها

---

[٥٣] يُرْوى بيتُه في الأغاني (٧: ١٣٨) مع بعض اختلاف في الرواية.

ومثل الصورة والتمثال «الدُّمية»، جَمْعُها الدُّمى وأصلها من السريانية ܕܘܡܝܐ ومعناها الشبه، قال في التاج (١٠: ١٣١): «الدُّمْية الصورة المنقَّشة من الرخام «عن الليث»، وفي الصحاح: الصورة من العاج ونحوه أو عام من كل شيء مُستحسَن في البياض أو الصورة عامة «وهو قول كراع»، قال ابن الأثير: هي الصورة المُصوَّرة؛ لأنها يُتَنَوَّق في صنعها ويُبالَغ في تَحسينِها ... والدمية أيضًا الصَّنَم ... لتزيينها وتنقيشها كالدُّمَى المُصوَّرة.» ولذلك ضربوا المثل في حُسْنِها فقالوا: «أحسنُ من دمية.» (أمثال الميداني، ١: ٣٠٠)، وقد شَبَّهُوا بها نساءهم، قال الأعشى (التاج، ٦: ٣٤٤):

وحُورٍ كأمثالِ الدُّمَى ومَناصِفٌ

وكان سبقهم داود النبي إلى هذا التشبيه فوصف في المزامير (مز ١٤٣: ١٢): بنات المنافقين «المُتزَيِّنَات كدُمى الهياكل»، ومعظم الشعراء القدماء الذين ذَكَروا الدُّمى خَصُّوا بها بِيَع النصارى ومَحاريبهم دلالة إلى عادتهم المألوفة بتزيين كنائسهم بالصور ليكرموها، لا ليعبدوها كالأصنام، قال عدي بن زيد (في الكامل، للمبرد ,ed. Wright 460):

كدُمَى العاجِ في المحاريبِ أو كالْـ ـبَيْضِ في الرَّوْضِ زَهرُه مُستَنيرُ

ومثله للأحوص في الإسلام (الأغاني، ٤: ١٤٢):

كأنَّ لُبْنَى صَبيرُ غَاديةٍ أو دميةٌ زُيِّنَت بها البِيَع

وقال عمر بن أبي ربيعة (الكامل، ص٣٧٠):

دميةٌ عند راهب ذي اجتهاد صَوَّرُوها في جانبِ المِحْراب

وقال أُمَيَّة بن أبي عائذٍ (ديوان الهُذَلِيِّين، ص١٧٧):

أو دمية المحراب قد لَعبتْ بها أيدي البُناة بزخرفِ الإتراصِ

وتَبِعَه أبو العتاهية فقال (الأغاني، ٣: ١٥١):

كأنَّ عَتَّابَةَ مِن حُسْنِها دُميةُ قَسٍّ فَتَنتْ قَسَّها

وممن وصفوا الدُّمى امرؤ القيس حيث قال (ديوانه في العقد الثمين، ص١٢٨):

كأنَّ دُمَى سُقْفٍ على ظهر مَرمرٍ كسا مُزبَدَ الساجوم وَشْيًا مُصوَّرًا

ومثله النابغة الذبياني (العقد الفريد، ص١٠):

أو دميةٍ مِن مَرْمرٍ مرفوعةٍ بُنِيَتْ بآجُرٍّ تُشادُ وقَرْمَدِ

وكذلك قال عَبيد بن الأبرص (الأغاني، ١٩: ٨٦):

وأَوانس مثل الدُّمى حورُ العيونِ قد اسْتُبِينَا

وقال سُلْمى بن ربيعة (الحماسة، ص٥٠٦، ed. Freytag):

والْبِيضُ يَرْفُلْنَ كالدُّمى في الرَّيْط والمُذْهبِ الْمَصونِ

وقال زياد بن حَمَل (الحماسة، ٦١٤):

فيها عَقائلُ أَمثالُ الدُّمَى خُرُدٌ لم يَغذُهنَّ شَقَا عَيشٍ ولا يَتَمُ

ويظهر من شعرهم أن هذه الدُّمَى كانت تُصطَنع في بعض أنحاء العرب كَهَكِر قيل: إنه موضع في اليمن، قال امرؤ القيس (ديوانه، ص١٢٤، في العقد الثمين):

كَناعِمَتَيْن مِنْ ظِباءِ تَبالةٍ على جُؤْذَرَيْنِ أو كَبَعْضِ دُمَى هَكِرْ

وكذلك ميسنان وقيل: إنها مَيْسان بين الواسط وبصرة، قال سحيم:

وما دُمْيةٌ من دُمى مَيْسَنا نِ مُعجبةٌ نظرًا واتِّصافَا

ولعلهم أطلقوا أيضًا على الصورة اسم «النُّصْب»، وهو في الأصل كل ما كان يُنصب فيُعبد من دون الله تعالى والجمع أَنْصَاب ويقال: نُصُب بضمتين والجمع نَصائِب، وقد

خصوها بعبادة الأوثان فأرادوا بها حجارة كانت حول الكعبة كانوا يصبون عليها دماء الذبائح، ولعل النصارى أرادوا بها معنى الصورة عمومًا دون الوثن لوُرُود اللفظة في شعر البعض منهم.

وأَعْجَب من هذا أنهم استعملوا لفظة «الوثن»، للدلالة على صورهم والكلمة حبشية ወሐን بهذا المعنى، وقد استعملها الأعشى بمعنى الصَّليب، قال (المفضليات، ص٥٤٩، ed. Lyall ولسان العرب، ١٧: ٣٣٤):

يَطوفُ العُفاةُ بِأبوابه   كطَوْف النَّصارى بِبَيتِ الْوثَن

«قال»: أرادَ بِالوثَن الصَّلِيب.

وقد امتازتْ كنائسُ النَّصارى «بالناقوس»[٥٤] وكان قديمًا خشبة طويلة يَقْرَعون عليها بخشبة قصيرة اسمها «الوَبِيل» أو «الأَبِيل»، يقال: نَقَس بالوَبيلِ النَّاقوسَ نَقْسًا إذا ضرَبَه، ثم جعلوا بدلًا من الخشبة لوحًا من نحاس كانوا يقرعون عليه، وهو اليوم «الجَرَس» على صورة نصف المخروط وهو عربي أيضًا، ذكره في التاج قال (٤: ١١٨): «والجَرَس الجُلْجُل ... والذي يُضْرَب به.» وتَكرَّر في الشعر الجاهلي ذِكْر النَّواقيس، قال المُتلَمِّس يَذكُر خروجه إلى بلاد غَسَّان حيث كثرت الكنائس والنواقيس (راجع: طبعتنا لديوانه):

حَنَّت قَلُوصِي بها والليلُ مُطرِق   بعدَ الهُدوِّ وشَاقَتْها النَّواقيسُ

قوله: «بَعد الهُدُوِّ»؛ أي عند السَّحَر لأن عادةَ الرُّهبان أن يَقرَعوا نواقيسهم للصلاة قبل الفجر، ومثله قال المُرَقَّش الأكبر (المفضليات، ص٤٦٥):

وتَسمعُ تزقَاءَ من الْبُوم حَولَنا   كما ضُرِبَت بعد الهُدوِّ النواقِسُ

ومثلهما للأعشى (راجع: الجوهري، في مادة حد)، ويُرْوَى لعنترة (العقد الثمين، ص١٧٩):

وكأسٍ كَعَيْن الدِّيكِ بَاكرْتُ حَدَّهَا   بِفِتْيان صِدْقٍ والنَّواقِيس تُضْرَبُ

---

[٥٤] راجع ما جاء في ذكر النواقيس في ليتورجية ديونيسيوس برصليبي (BO. II, 178–179).

وقال الأسودُ بن يَعفر، وجمع الناقوس على نُقُس (التاج، ٤: ٢٦٣):

وقد سَبأْتُ لِفتيانٍ ذَوي كرم قبل الصَّباح ولما تُقْرَع النُّقُسُ

وأكثرُ ما كانت النواقيس في الدَّساكِر والقُرَى قال لبيد (ديوانه، ص١٣٧):

فَصدَّهُم منطق الدَّجاجِ عن العَهْدِ وَضَـربُ الـناقُـوس فـاجْـتُـنِـبَـا

قال الشارح: «والناقوس إنما يكون في القُرى فلما مَرُّوا بالقرى كَرِهوا دخولها فعَدَلوا عنها واجتنبوها وكانت قصدًا على الطريق.» ومثله للجعدي:

ودَسْـكَـرةٍ صـوتُ أبوابِـهـا كصوتِ المَوائِح بالْحَوأَبِ
سبقتُ صِياح فَراريجِها وصَوتَ نَواقِيسَ لم تُضْرَبِ

وكان ضارِب الناقوس الراهب والراهبة والقَس، قال ربيعة بن مَقروم من أبيات مرَّت ذكر فيها الراهب (الأغاني، ١٩: ٩٢):

لَصَبا لِبَهجَتِها وحُسْن حَديثِها وَلَـهُـم مـن نَـاقـوسِـه يَـتَـنـزَّل

وروى في الأغاني لبعض الأغفال عن راهبة:

تَضْرِب بالناقُوس وَسْطَ الدَّيْرِ قَبْل الدَّجـاجِ وزُقـاءِ الطَّـيْـرِ

ومثله لجرير في القس (البكري، ٢١٥):

صَبَّحْنَ ثَرْمَاء والنَّاقوسُ يَقرعُه قَسُّ النصارى حَراجِيجًا بِنَا تَجِفُ

وقال جرير أيضًا (البكري، ٣٦٨):

لما تَذكَّرْت بالدَّيْرين أرَّقَني صوتُ الدَّجاج وقَرْعٌ بالنَّواقِيس

وقال الأعشى ودعَا ضاربُ الناقوس بالأَبِيل وهو أيضًا الحَبْر كما مر (راجع: حماسة البحتري، ص٥٦):

فإنِّي ورَبِّ الساجِدِينَ عَشِيَّة وما صَكَّ ناقوسَ الصلاة أَبيلُها
أُصالِحُكم حتى تَبوءُوا بِمثلِها كَصَرْخَةِ حُبْلَى بَشَّرَتْهَا قَبولُهَا

ويؤيد ذلك قول المثل في القاموس: «رأيتُ أَبيلًا على وَبِيل»؛ أي حبرًا على عصا رِعايَتِه، وقيل: بل الأَبِيل هو عصا الناقوس كالوَبِيل.

أما «الجَرَس» فلم نجده في شعر قديم، وإنما ورد ذِكْرُه في الحديث، قال في أُسد الغابة لابن الأثير (١: ٣٥١) عن لسان محمد في الوحي: «أحيانًا يأتيني — أي الوحي — في مِثال صَلصلة الجَرَس.» وفي حديث آخَر رواه مسلم (٤: ٤٥٠):

«الجَرَس مَزاميرُ الشيطان.»[٥٥]

وكانوا يُنِيرون كنائسهم بالأنوار ويُسرِجُون فيها السُّرُج ويُضِيئونها بالمصابيح،[٥٦] قال عمر بن أبي ربيعة (الأغاني، ١٥: ٧):

نظرتُ إليها بِالمُحصَّبِ من مِنى ولِـي نـظرةٌ لـولا الـتَّـحـرُّجُ عـارمُ
فقلتُ أَشمسٌ أم مَصابيحُ بِيعَة بدَتْ لكَ خَلْف السُّجْفِ أم أنتَ حالِمُ

وكانوا على الأخصِّ يُقيمون فيها الرُّتَب الدينية، مَرَّ ذِكْر صلاتهم وسجودهم وتسبيحهم في كنائسهم، وكانوا يُقرِّبُون القرابين في القُدَّاس، ومنه قول الأعشى:

وما قَدَّس الرُّهبان في كل هَيكلِ …

[٥٥] اطلب: Goldziher: *Abhhandl, z. arab. Philologie*, p. 189.

[٥٦] ومن ذلك قول عدي بن زيد المذكور آنفًا، ومثله لجرير (نقائض، ٩٥٦):

قناديلُ صُبحٍ في كنيسةِ راهبٍ

وقال جواس بن حِياضٍ وهو القعطل بن الحارث الكلبي، وله شعر في وقائع مرج راهط، قال (تاريخ ابن عساكر، ٣: ٤١٤):

وأعرضتُ للشِّعْرى العبورِ كأنها مُعلَّق قنديل بوسط الكنائسِ

وقال ابن عساكر في تاريخ دمشق عن زين الكنائس ما نصه (٣: ٢٣٤): «وكانوا يزينون الكنائس بالرخام والفسيفساء، قال الحارث بن النمر وشهد يوم اليرموك»:

وتَعطَّلَتْ منهم كنائسُ زُخْرِفتْ بالشام ذاتُ فسافسٍ ورُخامِ

وقال في إرشاد الطالبين (ص٣): «وكانوا يعلقون في كنائسهم بيض النعام كما روى ميمون بن مهران عن نصارى نجران»، قلنا: وهي عادة جارية في كنائس الشرق إلى يومنا يشيرون بالبيضة إلى موت المسيح ودفنه في القبر وقيامته، وبالنعام إلى عناية الكنيسة بأبنائها (راجع: المشرق، ٩، ١٩٠٦م، ٣٤٥).

ومثله قول البكري في معجم ما استعجم (ص٣٦٩) يصف رُتْبَة قُدَّاس النصارى «وضَجَّ الرُّهبان بالتقديس.»

ومن مناسكهم «القُرْبَان»[٥٧] هو في الأصل كل ما يُتَقرَّب به إلى الله، وقد خُصَّت بقربان النصارى، قال أُمَيَّة (كتاب البدء، ٢: ١٤٥):

أيَّام يَلْقَى نَصاراهم مَسِيحَهم والْكائِنِينَ له وُدًّا وقُرْبانا

وروى في اللسان لجرير (١٥: ١٢٥):

أو تَتركُون إلى القَسَّيْنِ هِجرَتكم ومَسْحَكُم صُلْبُهم رخْمَان قُرْبانا

وقد بَنَوا منه فعلًا فقالوا: «تَقرَّب» إذا أخذ القربان، قال الأعشى يمدح هوذة بن علي النصراني الذي أَعتقَ مائة من أسرى تميم يوم الفِصح (تاريخ الطبري، ١: ٩٨٧):

بهم تَقرَّب يومَ الفِصْح ضاحيةً يَرجو الإلهَ بما أسدى وما صَنعَا

ومثله ما أَخْبَر صاحب الأغاني (٢: ٣٢) عن عدي بن زيد، وهند بنت النعمان، كيف دَخلَا يوم خَميس الفِصْح كنيسة الحيرة «ليتقرَّبَا» يريد تَناوُلَهما الفِصْحِيَّ.

وكانوا يَدْعُون القربان «الشَّبَر»، ولعل اللفظة سريانية ܣܒܪܐ وهي الطعام والغذاء أرادوا بها قُوت النفوس، وقد ورَدَت في الشعر القديم، قال عدي بن زيد يحلف بالقربان (شعراء النصرانية، ٤٥٢؛ ولسان العرب، ٦: ٥٨):

إذْ أتانِي نبأٌ من مُنعِمٍ لم أَخُنه والذي أَعطى الشَّبَرْ

---

[٥٧] قال تميم بن مقبل العامري يصف كنيسة النبط النصارى (جمهرة أشعار العرب، ١٦١):

من مُشْرفٍ لَيطُ أنياطِ البلاط بهِ كانتْ لساسته تُهدَى القرابينا

صوتُ النواقيس فيه ما يفرطُه أَيدِي الجُلاذي وجونٌ ما يُغَضِّينا

راجع أيضًا: معجم البكري (ص٣٧١)، وعلى رأينا أن ما يُرْوى في كتب الحديث عن إكرام الخُبز إنما أريد به سابقًا القُربان، فمن ذلك في صحيحي مسلم والبخاري وفي جامع الصغير للسيوطي: (١) أَكْرِموا الخبزَ فإن الله أكرَمه فمن أكرم الخُبز أكرمه الله. (٢) أكرِمُوا الخُبزَ فإن الله أنزله في بركات السماء وأخرجه من بركات الأرض. (٣) أكرِمُوا الخبز فإنه من بركات السماء والأرض، من أكل ما يسقط من السُّفْرة غُفِر له.

قال الشارح: «الشَّبَر هو الإنجيل والقُرْبان»، وقد وردت الكلمة في شعر العجاج فافتتح إحدى أراجيزه بقوله:

الحمدُ لله الذي أعطى الشَّبَر

فشَرَحوا الشَّبَر بالعَطِيَّة والموهبة، وكأنها تعريب اللفظة اليونانية أفخارستيا (Ἑυχαριστία) ومعناها الموهبة الصالحة فأطلقوها على القربان، وورد لابن السِّكِّيت في إصلاح المنطق (طبعة مصر، ص١٥٩) في شرح بيت عَدِي: «قيل في الشَّبَر ههنا: إنه القُربان.»

وقد خَصُّوا بالذكر «خمر القربان» ورووا صلاة النصارى عليها وتقديسهم لها، وقد مَرَّت في ذلك أبيات أيمن بن خُرَيم[٥٨] (الأغاني، ١٦: ٤٥):

وصهباءَ جرجانيةٍ لم يَطُفْ بها   حَنيفٌ ولم تَنْغَرْ بها ساعةً قِدْرُ
ولم يَشْهَد القَسُّ المُهَيْنِمُ نارَها   طروقًا ولا صَلَّى على طَبْخِها حَبْرُ

ومثله فيها للأعشى (شعراء النصرانية، ص٣٧٨):

لها حارِسٌ لا يبرحُ الدَّهرَ بَيْنَها   وإن ذُبِحَت صلَّى عليها وزمزمَا
ببابلَ لم تُعْصَر فَسالتْ سُلافةٌ   تُخالِط قِنديدًا ومِسْكًا مُختَّما

فبذكره للصلاة عليها خَصَّ الخمر المُقدَّسة، وقال الأعشى أيضًا:

وصَهباءَ طافَ نهاميُّها   وأَبْرزَها وعليها خَتَمْ
وقابَلَها مُستَهامًا لها   وصَلَّى على دَنِّها وارْتَسَمْ
تَمزَّرْتُها غَيرَ مُستكبرٍ   على الشرْبِ أو مُنكرٍ ما عُلِمْ

[٥٨] قال ياقوت في معجم البلدان (٢: ٥١١): إن هذه الأبيات تُرْوَى للأقيشر اليربوعي.

النهامي صاحب الدير، وقد مرَّت ورُوِي (قطب السرور، Ms ed Paris ff. 67): «طافَ يهوديها.» ولعله تصحيف؛ لأن اليهودي لا يُصلِّي على الخمر ولا يُطِيف بها، وكذلك قال علقمة وذكر «الكأس» وخص خمرها بصفات أقرب إلى الخَمْر المُقدَّسة:

كأسُ عزيزٍ[٥٩] من الأعناب عَتَّقَها　　لبعض أربابها حانِيةٌ حُومُ
تُشفِّي الصُّداع ولا يُؤذِيكَ طالِبُها　　ولا يُخالِطُها في الرأس تَدويمُ
ظَلَّت تَرقرَقُ في النَّاجُود يَصفُقُها　　وليدُ أَعجَمَ بالكتَّان مَفدومُ

قالوا: أراد بالعزيز الملك، وقالوا: بل أراد كبيرَ النَّصارى كقول أوس بن حجر يذكر فصح النصارى:

عَليه كمصباحِ العزيز يَشُبُّهُ　　لِفصحٍ ويحشوه الذُّبال المُفتَّلَا

وكما شربوا خَمْر القربان أَكَلوا خُبْزه المُقدَّس، وقد بَيَّنَّا (ص٧٢ و١٣٩)، أن هجو بعض الشعراء لبني حنيفة النصارى على «أكلهم لرَبِّهم»، إنما أرادوا به تَقرُّبَهم من القربان الأقدس فقَرَّعُوهم بما لم يَدْرِكوا معناه فقالوا:

أَكلَتْ حنيفةُ رَبَّها　　زَمَن التَّقحُّم والمَجاعهْ
لم يَحْذَروا من ربهم　　سوءَ العُقوبةِ والتباعَهْ

ومثله قول الآخر:

أكلَتْ رَبَّها حَنيفةُ مِن جو　　عٍ قديمٍ ومِن إعوازِ

والنصارى يشيرون إلى القربان «بمائدة الرَّب»، كما دعاها بولس في رسالته الأولى إلى أهل كورنتس (١٠: ٢١)، واللفظة شاعت عند عرب الجاهلية أخذوها أيضًا من

[٥٩] قال شارح ديوان علقمة (وهو يروي: عَتَّقَها لبعضِ أحيانها حاشيةٌ حُومُ) «أي أعدَّها لِفصْح أو عيدٍ يريد خمر القُربان.»

نصارى الحبش وهي عندهم ማእድ، وقد وردت في القرآن بهذا المعنى (في سورة المائدة، ع١١٢ و١١٤)، حيث يذكر أن الحواريين طلبوا من المسيح أن يُنزل عليهم مائدة من السماء فأنزلها، وأراد بها العشاء السري.

ولا شك أنه كان لهم في كنائسهم «منبر»[٦٠] للكرازة وأعظم شاهد على قولنا ان اللفظة ليست عربية، بل مستعارة من نصارى الحبش መንበር أي مجلس وكرسي الخطابة ثم أخذها المسلمون،[٦١] قال الفرزدق في آل أبي العاصي (راجع: ديوانه، ed. Boucher, p. 19):

ولـنْ يـزالَ إمـامٌ مـنـهـمُ مِـلـكٌ　　　إليه يَشخَصُ فوق المِنْبر البصرُ

(٧) مفردات نصارى الجاهلية الخاصة بمساكن الرُّهبان

قد تَوفَّرت المفردات العربية التي ورد ذِكْرُها في المعاجم والشعر القديم دلالة على مساكن الرهبان فجمعنا منها ما تَيسَّر لنا على تَرتيب حروف المعجم، وفي وَفْرَتِها شاهد ناطق على شيوع العيشة الرهبانية في أنحاء العرب.

فمن ذلك «الأسطوانة» وهي السارية وفقًا لمعناها الأصلي في اليونانية ίστώνι، وقد اتخذها العرب بمعنى العمود الذي كان يَتعبَّد فوقه بعض الرهبان المَدْعُوِّين لذلك بالعَمُودِيِّين (Stylites)، قال ذو الجدن (سيرة الرسول، لابن هشام، ص٢٦، ed. Wüstenfeld):

فـإن الـموتَ لا يـنـهـاه نـاهٍ　　　ولو شَربَ الشفاءَ مع النَّشُوقِ
ولا مُـترهِّـب فـي أُسـطـوانٍ　　　يُـناطحُ جُدْرَه بيضُ الأَنوقِ

قال الشارح: الأسطوان والأسطوانة ها هنا موضع الراهب المُرتَفِع، وقال في التاج: الفرق بين الأسطوانة والعمود أن العمود حَجَر واحد، والأسطوانة بناء.

---

[٦٠] روى الجاحظ في البيان والتبيين (٢: ٧٢) لوائلة السدوسي قوله:

لقد صَبرَتْ للذُّلِّ أعوادُ مِنبَرٍ　　　تقومُ عليها في يديك قَضيبُ

[٦١] راجع: مقالة للمستشرق بكر (C. H. Becker) عنوانها المِنْبر عند قدماء العرب (Orient. Stud. Theod. Noeldeke. t. 1, 331–351).

ومنها «الأُكَيْراح»، وهي قلَّاية الراهب، ومثلها الكِرْح، وأصل الكلمة من السريانية ܟܘܪܚܐ، قال في المخصص لابن سيده (١٣: ١٠): «الأُكَيْراح بيوت ومواضع تخرج إليها النصارى في بعض أعيادهم وهو معروف.» وقال في معجم البلدان (١: ٣٤٥): «الأُكَيراح بيوت صغار تسكنها الرهبان الذين لا قَلالِي لهم.» وهي أيضًا موضع بعينه وأنشد لبكر بن خارجة:

دَعِ البساتينَ من آسٍ وتفَّاحِ ... واقصد إلى الشَّيخِ من ذات الأُكَيراح
إلى الدَّساكر فالدَّيْرِ المُقابلها ... لدى الأُكَيْراح أو دَيرِ ابن وضَّاحِ

ومنها «التامور» ويُروى بالهمز تَأْمور، قال في التاج (١: ٢٠): «التأمور صومعة الراهب وناموسه ... وقال ابن دريد: إن أصل هذه الكلمة سريانية.» ولم نجدها في المعاجم السريانية بهذا اللفظ، ولعلها من ܛܡܪ بالطاء فتكون كالمطمورة في العربية شبهوا بها مسكن الراهب، أو كالطَّمار أي المحل المرتفع، والله أعلم، وقيل: إن أصلها من ታቦር «تَبُر» الحبشية فأبدلوا الباء من الميم،[٦٢] ووردت الكلمة في الشعر الجاهلي في قول الشاعر عن الراهب:

ولَهَمَّ مِن تامُورِه يَتنزَّلُ

ومن ألفاظهم الشهيرة «الدَّيْر» وهي لفظة سريانية الأصل (ܕܝܪܐ)، ومعناها المسكن عمومًا لا سيما المُحَصَّن، ثم خَصُّوا بها مسكن الرهبان، قال ياقوت في معجم البلدان (٦: ٦٣٩): «الدَّيْر بيت يتعبد فيه الرهبان ولا يكاد يكون في المصر الأعظم، إنما يكون في الصحارى ورءوس الجبال.» وقال في اللسان (٥: ٢٨٧) عن ابن سيده:

«الدير خان النصارى والذي يسكنه ويعمره دَيَّار ودَيْراني.» وقال ابن الأعرابي: «يقال للرجل إذا رأس أصحابه: هو رأس الدَّيْر.»، وقد شاع استعمال الكلمة في الشعر القديم، قال عدي بن زيد (معجم البلدان، ٢: ٦٨٠):

نادمتُ في الدَّير بني عَلْقمَا ... عاطَيتُهم مشمولةً عندما
كأنَّ رِيحَ المِسْك من كَأسِها ... إذا مَزجناهُما بماء السَّما

[٦٢] راجع: المعرب للجواليقي، ٣٧، ed. Sachau؛ وكتاب فرنكل (Fraenkel: *Aram. Fremdw. in arabischen*, p. 269).

وقد عدَّد ياقوت والبكري وغيرهما في معاجم البلدان نيفًا ومائة دَيْر مما ورد ذِكْره في الشعر القديم، بل ذُكر لأبي الفرج الأصفهاني كتاب في الدِّيَارات خَصَّه بذكر الأديرة القديمة بين العرب.

ومنها الرُّكخ، قال في المخصص (١٣: ١٠٢): «من أبيات النصارى، قال: ولستُ من هذه الكلمة على ثقة.» «قلنا»: ولعل الكلمة تصحيف «الكِرْح» الآتية.

ومنها «الصَّرْح»، وهو في الأصل البناء العالي، وقيل: إن الصرح في النَّبطية القصر، ولعل الأصح أنها حبشية ጸርሕ ومعناها الحُجرة والقلَّاية.[٦٣]

ومنها «الصومعة» ومثلها الصومع بناء للراهب محدد الطرف، قال في التاج (٧: ٤١١): «الصومعة كجوهرة بيت النصارى ومَنار الراهب سُميت لدقة في رأسها.» وقال زين العابدين: «الصومعة المنارة.» وهي في الأصل مُتعبَّد للراهب، وقد مر ذكرها في الفصول السابقة (راجع [القسم الثاني، الجزء الأول، الدين ومقاماته ومناسكه])، وأصل الكلمة من الحبشية ጸማዕት ومعناها الدير والقلاية، وقد وردت بهذا المعنى في القرآن (سورة الحج، ع٤١)، ونطق بهذا الشعراء القدماء، روى سيبويه لأحدهم:

أوصـاكَ ربُّك بـالـتُّـقـى   وأولو النُّهى أَوْصَوا معه
فاخْتَر لنفسك مسجدًا   تَـخـلُـو بـه أو صـومَـعـهْ

ومنها «الطِّرْبال» وهو كل بناء عالٍ مرتفع، وقال أبو عبيدة: هو شبيه بالمنظرة من مناظر العجم كهيئة الصومعة وأنشدوا لدُكين (راجع ياقوت، ٣: ٥٢٥؛ والتاج، ٧: ٤١٦):

حتى إذا كان دُوَين الطِّرْبالْ   رجعن منه بصَهيل صلصالْ
مُطهَّرَ الصُّورة مثل التمثالْ

وقد وردت الكلمة بمعنى البِيعَة ومَعْبَد النصارى ولعلها أعجمية.

---

[٦٣] اطلب: كتاب نولدك: Neue Beitræge z. Semit. Sprachwissenschaft.

ومنها «العُمْر»، قال في التاج (٣: ٣٢٠): «العُمر المسجد والبِيعَة والكنيسة سُمِّيت باسم المصدر لأنه يُعْمَر.» والصواب أن الكلمة سريانية ܥܘܡܪܐ وهي الدير، قال المتلمس (راجع: معجم ما استعجم للبكري، ص٦٩٦):

ألَـكَ الـسَّـديـرُ وبـارقٌ ومَبايضٌ ولك الـخَورنَقْ
والعُمْر ذو الإحساء واللَّذَّات مِـن صـاعٍ ودَيْـسَـقْ

«قالوا» العُمر في شعر المُتلَمِّس الدَّيْر أو البِيعَة والكنيسة.

ومنها «القلَّاية»، أصلها من السريانية ܩܠܝܬܐ اشتقها السريان من اليونانية κελλίον، وقال البكري (في معجمه، ص٣٦٩): «إن كانت القلاية مضافة إلى المواضع فإنما هو العمر، والعمر عندهم اسم الدير، قال الثرواني:

وإن أنتما حَيَّيتُماني تحية فلا تَعْدُوا ريحان قلَّايةِ القَسِّ»

ومنها أيضًا «القُوس»، وهو الدير وأصل الكلمة من الفارسية، قال صاحب اللسان (٨: ٦٩): «القوس الصومعة أو موضع الراهب، وقال ياقوت (٤: ٢٠٠): «هو مَعبد الراهب» وأنشد في اللسان:

لا وَصْل إذ صُرِفَت هندٌ ولو وَقفتْ لَاستَفْتَنَتْني وذا المِسْحَين في القوسِ»

وأنشد الأصمعي لذي الرمة:

على أمرِ مُنقدِّ العِفاءِ كأنه عصا قَسِّ قُوسٍ لِينُها واعتدالُها

قال: القَس القِسِّيس، والقُوس صومعته.

ومنها «الكِرْح»، وهو مقام الراهب من السريانية ܟܘܪܚܐ بمعناه، وقد مر مع الأُكَيْراح.

ومنها «المَنْهمة» وهو مسكن النُّهام أو النُّهامي؛ أي الراهب، قال ذو الجدن (سيرة الرسول، ٢٦-٢٧):

وَعمْدان الذي حُدِّثتَ عنه بَنَوْه مُسمَّكًا في رأس نِيقِ
بَمنْهَمةٍ وأسفلُهُ جروبٌ وحُرُّ المَوْحَل اللَّثقِ الزَّليقِ

بـمَـرمَـرةٍ وأعـلاهُ رُخـامٌ   تحامٌ لا يُغيَّب في الشقوقِ
مَصابيحُ السَّليط تَلوحُ فيه   إذا يُمْسَي كتَوْماضِ البُرُوقِ

قال الشارح: المنهمة موضع الراهب.

ومنها «الناموس»[٦٤] قال في اللسان (٩: ١٣٠): «الناموس بيت الراهب.» ولعله «أراد الناووس من اليونانية ναςó وهو الهيكل.» وجاء في التاج: «الناؤوس مقبرة النصارى.»

(٨) مفردات لنصارى الجاهلية في أعيادهم ومواسمهم السنوية

نَذكُر هنا الأعياد النصرانية الثابتة والمنتقلة التي شاعت عند عرب النصارى كما عرَفَها غيرهم.

أولها عيد «السُّبَّار»، يريدون به ما ندعوه عيد البشارة واللفظة سريانية الأصل ܣܘܒܪܐ، قال البيروني في الآثار الباقية عن القرون الخالية (ص٢٩٤): «السُّبَّار دخول جبرائيل — عليه السلام — على مريم مُبشِّرًا بالمسيح.» ولم نجد اللفظة في الشعر الجاهلي، وإنما وصف أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت البشارة بآيات رويناها سابقًا.

ومنها عيد «الميلاد»، وقد سماه البيروني (ص٢٩٣) عيد يَلْدا من السريانية ܝܠܕܐ أي ميلاد المسيح.

ومنها «القَلَنْدس» ذكرَه المسعودي في مروج الذهب (٣: ٤٠٦) ودعاه البيروني القَلَنداس (ص٢٩٢)، قال: وهو رأس السَّنة وتمام الأسبوع من ولادة مريم، واللفظة لاتينية Kalendæ قال المسعودي:

«يكون فيه بالشام لأهله عيد يُوقِدون في ليلته النيران ويُظهِرون «الأفراح» لا سيما بمدينة أنطاكية، وما يكون في كنيسة القسيان بها من القداس عندهم وكذلك سائر الشام، وبيت المَقدِس ومصر وأرض النصرانية كلها، وما يظهر أهل دين النصرانية بأنطاكية من الفرح والسرور وإيقاد النيران، ويساعدهم على ذلك كثير من عوام الناس وكثير من خواصهم.»

---

[٦٤] لعلهم أرادوا به مَقام الراهب تحت ظُلَّة الشجر كما قال الراعي (ياقوت ٤: ٥٠١):

وسربِ نساءٍ لو رآهن راهبٌ   له ظُلَّة في قُلَّةٍ ظَلَّ رَانِيا

ومنها «الدِّنْح» ذكَره ابن سيده في المخصص (١٣: ١٠٣) عن ابن دريد قال: «الدِّنْح عيد من أعياد النصارى ولا أحسبها عربية، وقد تَكلَّمتْ بها العرب.» والكلمة سريانية ܕܢܚܐ ومعناها الظهور؛ أي ظهور السيد المسيح لبني إسرائيل يوم معموديته، قال البيروني (٢٩٣):

«وفي السادس من كانون الآخَر دِنْحا وهو عيد الدِّنْح نفسه ويوم المعمودية الذي صَبَغ فيه يحيى بنُ زكريا المسيحَ وغَمَسه في ماء المعمودية بنهر الأردن عند بلوغ ثلاثين سنة من عمره واتصل به روح القدس شبه حمامة نزلت من السماء على ما ذُكر في الإنجيل.»

ويعرف عيد الدِّنْح بالغطاس أيضًا، وعلى هذا اللفظ وصفه المقريزي في الخطط (١: ٤٤٩٤)، ويُسمَّى أيضًا بيوم العماد.

ومنها «السَّباسب»، قال في المخصص (١٣: ١٠٢)؛ وفي التاج (٤: ٢٩٤): «يوم السَّباسِب عيد للنصارى ويسمونه يوم السَّعَانِين.»[٦٥] ويقال: شَعانين بالشين، والسَّباسِب الأغصان يريدون بها سَعف النخل، الذي قَطَعه اليهود يوم استقبلوا المسيح في دخوله أورشليم، وقد دَعَوا أيضًا هذا العيد بعيد الزَّيْتونة، أما السعانين فمُشتقَّة من العبرانية הושענא «هوشعنا» التي كان يتهلل بها اليهود أمام المسيح، وقد وردت لفظة سباسب في الشعر القديم، قال النابغة يذكر عيد السَّعانين بين بني غَسَّان:

رِقَاقُ النِّعال طَيِّبٌ حُجُزاتُهم ... يُحَيَّونَ بالرَّيْحانِ يوم السَّباسِبِ

ومنها «خميس العهد»، قال المقريزي (١: ٤٩٥): ويسميه أهل مصر من العامة خميس العدس ويعمله نصارى مصر قبل الفِصْح بثلاثة أيام ويَتهادَون فيه، وقد عرفه العرب أيضًا بخميس الفِصح، ورد على هذا اللفظ في ترجمة عدي بن زيد الشاعر

[٦٥] وممَّن ذكر السعانين ابن رامين يصف سكارى متفكهًا (أغاني، ١٣: ١٣٠):

إذا ذَكرْنَا صلاةً بعدما فُرِضتْ ... قُمنا إليها بلا عقلٍ ولا دينِ
نَمشِي إليها بِطاءً لا حِراكَ بنا ... كأنَّ أرجُلَنا تقلعنَ مِن طينِ
نَمشي وأرجُلُنا عُوجٌ مَطارِحُها ... مَشْي الإوَزِّ التي تأتِي من الصِّينِ
أو مشي عميانِ ديرٍ لا دليلَ لهم ... إلا العصيَّ إلى عيدِ السَّعانينِ

الجاهلي في كتاب الأغاني (٣: ٣٢)، حيث ذكر دخول هند بنت النعمان كنيسة الحيرة، قال: «خرجت في خَميس الفِصح وهو بعد السعانين بثلاثة أيام تَتقرَّب في البِيعَة.»

ومنها «الفِصْح»،[٦٦] كانوا يَقدِّمون عليه الصوم الأربعيني، وقد ذكره العرب، أنشد سيبويه لبعضهم (في كتابه، ٢: ٢٧):

صَدَّت كما صَدَّ عمَّا لا يحلُّ له ساقي نصارى قُبَيل الفِصْح صَوَّامُ

ومن كلامهم في ذلك «تَنَخَّس النصارى»،[٦٧] إذا تركوا أكل اللحم، وقال ابن دريد: «تَنخَّس النصارى» إذا تركوا أكْل الحيوان، وهو كلام عربي صحيح، ولا أدري ما أصله (التاج، ٤: ٢٥٥)، ولعله من «تَنخَّس الرجل» إذا جاع، ويقول البعض: تَنهَّس بالهاء، وهو من تصحيف العامة، أما الفِصح فمن السريانية ܦܨܚܐ وأصلها פסח العبرانية وتكرَّر ذكر الفِصْح في الشعر العربي الجاهلي، قال الأعشى يمدح هوذة بن علي النصراني الذي كان أطلق أسرى بني تميم يوم عيد الفِصح تقرُّبًا لله:

فَفكَّ عن مائةٍ منهم إسارَهم وأصبحوا كلُّهم من غُلِّه خُلَعَا
بهم تَقرَّب يومَ الفِصْح ضاحيةً يَرجُو الإلهَ بما أَسدَى وما صَنعَا

وكانوا في الفِصْح يُوقدون المشاعل، قال أوس بن حجر، يصف رمحه، وقد شبه سنانه بمصباح يوقده رئيس النصارى يوم الفِصْح (شعراء النصرانية، ص٤٩٤):

عَليه كَمِصباح العزيزِ يَشُبُّه لِفِصْح ويَحشُوه الذُّبالَ المُفتَّلَا

---

[٦٦] وقد أجاد حسان بن ثابت بمدحه ملوك غسان النصارى وبوصفه حفلات فصحهم قال (الأغاني، ١٣: ١٧٠):

قد دَنا الفِصْحُ فالولائدُ يَنظِمْـ ـنَ سِراعًا أَكِلَّةَ المَرْجانِ
يَتبارَينَ في الدعاء إلى الله وكلُّ الدُّعاءِ للشيطانِ
ذاكَ مغنًى لآلِ جَفنةَ في الديـ ـرِ وحقٌّ تَطرُّفُ الأزمانِ
صلواتُ المسيحِ في ذلك الديـ ـرِ دعاءُ القِسِّيس والرُّهبانِ
قد أراني هناك حق مَكينٌ عند ذي التاج مَقعدي ومكاني

[٦٧] وفي فصيح ثعلب (ص١٠٥) «تَنهَّس النصراني وتَنحَّس.»

قال الشارح: «أراد السنان الشديد الائتلاق وهو مثل مِشعل الجليل العظيم الشأن من بطارقة الروم، لا سيما إذا ألهبه في ليلةَ الفِصح، وإذا كان في مثل هذه الليلة كان أنور وأكثر ضوءًا.» وقال عدي بن زيد يشير إلى تعمير قنديل الفِصْح (الأغاني، ٩: ٥٣):

بَكروا عليَّ بَسحرةٍ فَصَبحتُهم   بإناءِ ذي كَرمٍ كقُعْبِ الحَالبِ
بزجاجةٍ ملءِ اليدين كأنَّها   قِنديلُ فِصْحٍ في كنيسة راهبِ

وممن أشاروا إلى أفراح النصارى في عيد الفِصْح عبد الله بن زبير قال (الأغاني، ١٣: ٤٦)، يهجو حَجَّار بن أبجر أمير بني عِجْل:

فكيفَ بِعِجلٍ إنْ دنَا الفِصحُ واغْتدتْ   عليكَ بَنو عِجْل ومِرجلُكم يغلي
وعندَك قِسِّيس النصارى وصُلبُها   وغانِيَة صَهباءُ مِثلُ جَنَى النَّحْلِ

ويدعون أيضًا الفِصح بالقيامة لتذكار قيامة السَّيِّد المسيح من الموت يوم الفِصْح، ومن الألفاظ العربية في ذلك «الباعوث» ودعاها في المخصص (١٣: ١٠٢) الباغوت بالغين قال: أعجمي مُعرَّب عيد النصارى، وفي تاج العروس (١: ٦٠٢): «الباعوث استسقاء النصارى وهو اسم سرياني، قيل: هو بالغين المعجمة والتاء المنقوطة.» وهو بالسريانية ܒܥܘܬܐ ومعناها الصلاة والدعاء، وقد خصوا بها رتبة تُقام ثاني يوم عيد الفصح، وقد وردت اللفظة في حديث عمر لَمَّا صالَح نصارى الشام شَرَط عليهم «أن لا يُحْدِثوا كنيسة ولا قلية ولا يُخْرِجوا سعانين ولا باعوثًا.»

ومنها «السُّلَّاق»،[68] قال البيروني في الآثار الباقية (ص٣٠٨): «وبعد الفِطْر — يريد الفِصح — بأربعين يومًا عيد السُّلَّاق ويتفق أبدًا يوم الخميس، وفيه تَسَلَّق المسيحُ

[68] ومما ورد أيضًا من أسماء أعياد النصارى في كتب اللغة (اللسان، ٣: ١٢٥) السِّمِلَّاج، قالوا: إنه عيد من أعياد النصارى ولم يزيدوا، وذكر في الأغاني (١٧: ١٣٤) لعبد الله بن العباس الربعي أبياتًا ورَد فيها ذكر عدة أسماء لأعياد النصارى:

يا ليلةً ليس لها صبحُ   وموعدًا ليس له نُجحُ
مِن شادنٍ مَرَّ على وَعْدِه   الميلادُ والسُّلَّاقُ والدِّنحُ
وفي السَّعَانِينِ لو حَماني بِهِ   وكان أقصى الموعدِ الفِصْحُ

مصعدًا إلى السماء من طورزيتا وأمر التلاميذ بلزوم الغرفة التي كان أَفْصَح فيها ببيت المَقدِس إلى أن يُبْعَث لهم الفارقليط وهو روح القدس.» وأصل الكلمة من السريانية ܦܨܚܐ ومعناها الصعود، وروى البكري (٣٧٠) لشاعر إسلامي:

بِحُرْمةِ الفِصْح وسُلَّاقِكم　　يا عاقدَ الزُّنَّار في الخَصْرِ

ومما ذكروا من أعياد النصارى «الهِنْزَمْن» وروى ثعلب الهِنْزَمْر، قالوا: عيد للنصارى (المخصص، ١٣: ١٠٢)، ولم يَزيدوا إيضاحًا، وقد ورَدَت اللفظة في شعر الأعشى:

إذا كان هِنْزَمْنٌ ورُحتُ مُخَتَّما

قال صاحب التاج (٩: ٣٦٨): «الهِنْزَمْن الجماعة مُعرَّب هَنْجُمَن أو أَنْجُمَن عند الفُرس ويُطْلَق على مجلس الشرب، أو لَمْجْمَع الناس مطلقًا، أو لعيد من أعياد النصارى.» وقد دخلت اللفظة في السريانية ܗܢܙܡܢ ويراد بها الحفلة.

ونُضِيف إلى ما سبق لفظة «الشَّمْعَلة»،[٦٩] قالوا: هي قراءة النصارى واليهود في أعيادهم، وذكروا عن الخليفة المتوكل أنه حَرَّم على النصارى «أن يُظْهِروا في شعانينهم صَليبًا، وأن يُشَمْعِلوا في الطريق.»[٧٠] وقال جحظة يصف دير العذارى (ياقوت، ٢: ٦٩٧):

وقد نَطَق الناقوسُ بعدَ سُكونه　　وشَمْعَلَ قِسِّيس ولاحَ فَتيلُ

وقال مُدْرِك الشيباني (تزيين الأسواق، ص٣٣٠):

بِحَقِّ قومٍ حَلَقوا الرُّءوسا　　وعالَجوا طُول الحياةِ بُؤسًا
وقَرَعوا في البِيعَة النَّاقوسا　　مُشَمْعِلين يَعبدونَ عيسى

---

[٦٩] قال في التاج في مادة «شمعل» الشَّمْعلة قراءة اليهود في فِهْرِهم إذا اجتمعوا، والمُرجَّح أن أصل هذه اللفظة من السريانية سمعل ܫܡܥܠ بمعنى زَهدَ وتَنسَّك، فيكون المُشْمَعِلُّ الراهب في قول أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت يمدحُ عبد الله بن العجلان (ياقوت، ٢: ٥٢٦):

له داعٍ بمكةَ مشمعلٌ　　وآخَرُ فوقَ دَارته يُنادي

[٧٠] اطلب: المجلة الآسيوية الألمانية (ZDMG. XXIX, 639 et XLVI, 44).

(٩) مفردات جاهلية لوصف ملابس[٧١] النصارى

كان نصارى العرب يَلبَسون الثياب كغيرهم من أهل البادية، لا يَمتازون بها غالبًا عن سواهم، غير أن في المعاجم وبعض الشعر الجاهلي مفرَدات ورَدتْ في وصفهم النصارى أو شرحوها بقولهم: إنها من ثياب النصارى، نَذكُر هنا ما عَثرْنَا عليه منها في مُطالَعاتنا.

فمنها «الآخنيُّ»، قال في التاج (٩: ١١٩): الآخِني الثوب المُخطَّط، وقال أبو سعيد: الآخِنِي أَكسِيَة سُود لِيِّنَة يلبسها النصارى، قال البُعَيْث:

فَكرَّ علينا ثم ظَلَّ يَجُرُّه   كما جرَّ ثَوبَ الآخِنيِّ المُقَدِّسُ

(يريد بالمُقَدِّس الراهب الذي رحل إلى زيارة القُدس)، وقال العجاج (ed. Ahlwardt, p. 67):

كأنَّه مُتوَّج رُوميُّ   عليه كَتَّانٌ وآخِنِيُّ
أو مِقْوَلٌ تُوِّجَ حِمْيَرِيُّ

وقال أبو الخراش:

كأنَّ المُلاءَ الْمَحضَ خَلْف كُراعِه   إذا ما تَمطَّى الآخِنِيُّ المُخَدَّمُ

ومنها «الإضريج» كساء أحمر من الخَزِّ، ويقال أيضًا للخَزِّ الأصفر، وقيل: بل هو كساء يُتَّخَذ من المِرعِزَّى من أجود صوفها، وقد ذكره النابغة في ديوانه (العقد الثمين، ص٤) حيث قال يصف أعياد النصارى الغَسَّانيين:

رِقاقُ النِّعالِ طَيِّبٌ حُجُزاتُهم   يُحَيَّونَ بالريحانِ يَوم السَّباسِبِ
تُحيِّيهم بِيضُ الولائد بَينَهم   وأَكْسِيَةَ الإضريجِ فوق المَشاجِبِ

[٧١] من ملابسهم البُرْنُس، قال في تاج العروس (٤: ١٠٨): «البُرْنُس قَلَنْسوة طويلة، أو هو كل ثوب رأسه منه ملتزق به، دراعة كان أو جبة أو منظرًا، وكان رهبانهم يَلبَسون البرنُس.» قال جرير في نقائضه يهجو الأخطل (ص٩٠٣):

لَعنَ الإلهُ مَن الصليبُ إلهُه   واللَّابِسينَ بَرانسَ الرُّهبانِ

وقال الفرزدقُ يهجو جريرًا (ص٢٧٧):

وابنُ المراغةِ قد تَحوَّل راهبًا   مُتبرْنسًا بتَمسكُنٍ وسُؤالِ

أي صار يلبس البُرْنُس كما يلبسه الرهبان؛ أي قد تَنصَّر ليأخذ منهم شيئًا.

ومنها «الأَرَندَج واليَرَنْدَج»، قال أبو عبيد في المخصص (٤: ١٠٣): «هو بالفارسية رنده، قالوا: هو ضرب من الأدم أسود.» وجاء في اللسان (١٨: ٣٠٤)؛ والتاج (٢: ٥٠) أن اليَرَنْدَج جِلد أَسْوَد، تُعمل منه الخِفاف يَحْتَذُون بها، وقد خَصَّها الشَّمَّاخ بالنصارى، فقال يصف نَعامًا في بَرِّيَّة:

وَدَوِيَّـة قَـفـرٍ تَـمـشِـي نَـعـامُـهـا كمَشْي النَّصارى في خِفاف اليَرَنْدَجِ

ومنها «الرَّيْط» وهي الملاءة المنسوجة قطعة واحدة، وقد ذكرها الراعي في وَصْف بَطْرَك النَّصارى (التاج، ٧: ١١١)، فقال يصف ثورًا وحشيًّا:

يَعلُو الظَّواهر فردًا لا أَلِيفَ له مَشْي الْبطرك عليه رَيْطُ كَتَّانِ

ومنها «الزُّنَّار» قالوا: هو ما على وسط النصارى، وقال في التهذيب: ما يلبسه الذميُّ يشدُّه على وسطه، وقد اشتقوا منه فعلًا فقالوا: زَنَّره إذا ألبسه الزُّنَّار، وقد جاء الزنار في الشعر الجاهلي، قال عدي بن زيد وكان معاوية يعجب به:

يا لَرهْطِي أَوقَدوا نارًا إن الذي تَهْوُون قد حارَا
رُبَّ نـارٍ بِتُّ أَرمُـقُـهـا تَقْضِم الهِنْدِيَّ والْغَارَا
ولـهـا ظَـبْـي يُـؤَجِّـجُـهـا عاقِد في الخَصْر زُنَّارَا

ويُرْوى:

عِـنْدَهـا خِـلٌّ يُـثَـوِّرُهـا عاقدٌ في الجِيد تِقصارَا

التِّقْصار القِلادة، ومثله لابن الضحاك (البكري، ص٣٧٠):

بِحُرمَة الفِصْح وسُلَّاقِكم يا عاقِدَ الزُّنَّار بالخَصْرِ

ومنها «الكتَّان» كما رأيتَ في شعر الراعي والعَجَّاج، ومنها «الْمُوق» جمعها أَمْواق قال ابن سيده: «هو ضَرْب من الخِفَاف وقيل: خُفٌّ غليظ يُلْبَس فوق الخُفِّ، وهو عربي صحيح.» وكان العبادِيُّون يَنْتَعِلون بالأمواق، قال النمر بن تولب (التاج، ٧: ٧٣؛ واللسان، ١٢: ٢٢٧)، ويُرْوَى لسلامة بن جندل:

فترَى النِّعَاج بها تَمْشِي خَلْفَه مَـشْـي الـعِـبـادِيِّين بـالأمواقِ

وكانت هذه الخِفَاف تُتَّخذُ من الجلد المَدبوغ بالقُرَظ فيَدْعُونه السِّبت ويَنتَعِل به السادة، قال عَنتر في مُعلَّقته:

بَطلٌ كأن ثيابه في سَرْحةٍ   يُحْذَى نِعالَ السِّبْتِ ليس بِتوأَمِ

ومن لبس زُهَّادهم «المِسْح»، وهو ثوب الرهبان من شعر، قال جرير وسَمَّى الرَّاهِبَ ذا المِسْحَين (التاج، ٨: ٦٩):

لا وَصْل إذ صرمت هند ولو وقفت   لَاستَفْتَنَتْنِي وذَا المِسْحَين في القُوسِ

هذه بعض ألفاظ نقلناها، وقد صَرَّحوا فيها بذكر النصارى، ولا شك أن ألفاظًا أخرى، دخلَت في العربية بواسطة النَّصارى من الحَبَش والروم والسريان، كما يدل عليها أصلها الأعجمي؛ كالبُرْجد، والإكليل، والتاج، والبُرنس، وأبي قلمون، والقَلَنْسوة، والجِلْبَاب، والسُّنْدُس وغيرها، وإن لم يَخُصَّها الكتبة بالنصارى وَحْدَهم.

(١٠) ألفاظهم في الكتابة وأدواتها

رأيت في فصل سابق أن الكتابة دخلت بين العرب بفضل النصرانية، فلا عجب أن تكون الألفاظُ الدَّالة على هذه الصناعة قد وردت خصوصًا في آثارهم ولذلك ترى أدوات الكتابة مَقرونة في أشعارهم بذكر الزَّبُور وكُتُب الوحي التي كان الرُّهْبان يَتناقلونها في جزيرة العرب ويَتأنَّقُون في كتابتها.

فأول ما ذكروه «القلم» قال معاوية الجعفري (معجم البكري، ص٥٨٢)، يصف منازل دارسة:

فإن لها منازلَ خاويات   على نَملى وقفتُ بها الرِّكابَا
مِنَ الأجزاع أسفل من نُمَيلٍ   كما رَجعَتْ بالقَلِم الكتابَا

ومثله لكعب بن زهير (البكري، ص٤٤١):

أتعرف رسمًا بين زُهمان فالرقم   إلى ذي مَراهيط كما خُطَّ بالقلم

وقال لبيد في معلقته:

وجلَا السيولُ عن الطِّلَال كأنها   زُبُرٌ تُجِدُّ مُتونَها أقلامُها

وكانوا يكتبون على الجلود وجريد النخل والعظام وألواح الرصاص، ومن أشهر ألفاظهم «القِرطاس»،[٧٢] وهي فارسية كالكاعِد، ويقال: قرطس أيضًا، وقد وردَت في الشعر الجاهلي، قال المِخش العُقيلي، يصف رسوم دار شبهها بخط الزَّبُور على القرطاس، قال (التاج، ٤: ٢١٥):

كأنَّ بحَيثُ استُودِعَ الدَّارُ أَهْلَها   مَخطَّ زَبورٍ مِن دواةٍ وقَرْطَسِ

ومنها «الأديم»؛ أي الجِلْد كانوا يَصقلُونه ويُرقِّقُونه، فيَكتُبون عليه، قال المُرقَّش:

الدارُ قَفْرٌ والرُّسوم كما   رَقَّش في ظَهْر الأديمِ قَلَمْ

وكانوا يَدْعُون الأَدَم الرِّقَاق «ورَقًا»[٧٣] قبل أن يَصطَنِعوه من القطن تشبيهًا بورق الشجر في تصفيحه، قال جرير (البكري، ص١٠٦):

لِمَن الدِّيَار بعاقِلٍ فالأَنْعم   كَالوَحْي في وَرَق الزَّبُور المُعْجَمِ

وهو «الرَّق»[٧٤] أيضًا، جمعه الرُّقُوق للجلد وللصحيفة البيضاء والكلمة حبشية الأصل، كما يُظنُّ، قال الخالد بن الوليد المخزومي (الأغاني، ٣: ١١٢):

هل تَعرِفُ الدَّارَ أَضحَتْ آيُها عَجبًا   كالرَّقِّ أَجْرَى عليها حاذقٌ قَلمَا

[٧٢] ومنه قول جرير (نقائض، ٥٣٧):

كأنَّ دِيارَ الحي مِن قِدَم البِلَى   قراطيسُ رُهبانٍ أحالَتْ سُطورها

أحالت؛ أي أتى عليها حَوْل فتَغيَّرت، وقال المرار الفقعسي (المفضليات، ص٧٤٣):

عَفَتِ الدِّيارُ غيرَ مثلِ الأنقُسِ   بعدَ الزَّمانِ عرفتُه بالقَرْطَسِ

[٧٣] وورد في شعر جرير (نقائض، ١٠٣):

أَجدَّك ما تَذكَّرُ أهلَ وادٍ   كأنَّ رسومَها ورَقُ الكتابِ

[٧٤] روى ياقوت (٤: ٤٢٢) لعَبَّاد بن عوف المالكي قوله:

لِمَن ديارٌ عَفتْ بالجزع من رقم   كما يُخَطُّ بَياضُ الرَّقِّ بالقلمِ

وفي القرآن: «رَق مَنشور»، وقد دعوا الأديم والصحيفة البيضاء والحَصِير المَنسوج خيوطه سيور «قَضِيمًا»، قال النابغة (التاج، ٩: ٦٩)، وفي وصف الرسوم:

كأنَّ مَجرَّ الرَّامساتِ ذُيولَها عليه قَضِيم نَمَّقَتْه الصوانعُ

وقد دَعَوا القرطاس والصُّحُف البِيض «بالمُهْرَق»، وهي لفظة فارسية مُهْرَه، قال الصغاني: المُهْرَق ثوب حرير أبيض يُسقى الصِّمغ ويُصْقل، ثم يُكْتَب فيه والكلمة قديمة، قال الحارث بن حِلِّزَة في معلقته:

واذْكُروا حِلْفَ ذِي المَجازِ ومَا قُـ ـدِّمَ فِيه العهودُ والْكُفلاءُ
حَذَر الجَوْرِ والتَّعَدِّي وهل يَنْـ ـقُضُ ما في المَهارِق الأهواءُ

وقال أيضًا (التاج، ٧: ٩٦) في الأطلال شَبَّهها بكتابة الحَبَش:

آياتُها كمَهارقِ الحُبْشِ

وقال الأعشى يذكر الأدعية المرقومة في المَهارق (اللسان، ١٢: ٢٤٧):

رَبِّي كريمٌ لا يُكَدِّر نِعْمةً فإذا تُنوشِد في المَهارق أنشدَا

وكذلك كتبوا على «العَسيب»؛ أي جريد النخل، قال امرؤ القيس:

لِمَن طَللٌ أَبصرْتُه فَشَجانِي كَخَطِّ زَبورٍ في عَسيبٍ يمانِي

وفي الهُذَلِيَّات قوله:

أو زُبر حِمْيَرَ بينها أحبارُها بالحِمْيَرِيَّة في عَسيبٍ ذابلِ

وكَتَبوا أيضًا على الألواح «واللوح»، كل صَفِيحة عَريضة من خشب أو عَظْم كالكتف كانوا يكتبون عليها، وقد ورد في القرآن: ﴿فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾.

«والرَّقِيم» اللَّوْح من الرصاص، قال أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت يذكر اللوح الذي كان مع أصحاب الكهف حيث رُقِم نَسَبُهم وأسماؤهم ودينهم (البيضاوي، طبعة ليدن، ص٥٥٥):

وليسَ بها الا الرقيم مُجاوِرًا وصَيْدُهم والقومُ في الكَهْفِ هُجَّدُ

وسَمَّوا مجموع الأوراق المكتوبة «كتابًا»، قال زُهَير في معلقته عَمَّا يَخفَى في قلوب البشر فيدينه الله في الآخرة:

يُؤَخَّر فَيُوضَع في كتاب فيُدَّخَر ليومِ الحسابِ أو يُعَجَّل فيُنْقَمِ

وقال عدي بن زيد الشاعر النصراني في الإنجيل (شعراء النصرانية):

نَاشَدْتَنا بكتابِ الله حُرمَتَنا ولم تَكُن بِكتابِ الله تَرتَفِعُ

ودَعَوا الكتاب «بالقِطِّ» جمعه القُطوط، وهو في الأصل الجِلد الذي يُكتب عليه، وقال أُمَيَّة يذكر قومه بني إياد (التاج، ٥: ٢٠٩):

قَومٌ لهم ساحةُ العِراق إذا ساروُا جميعًا والقِطُّ والقلمُ

وقيل: أراد بالقِط هنا الإنجيل، وقال مثله الأعشى:

ولا المَلكُ النعمان يوم لَقِيتُه بغبطته يُعطِي القُطوط ويَأْفقُ

أي يمنح الصكوك للجوائز، وكذلك «الصحيفة» فهي الكتاب أيضًا، قال لقيط الإيادي (تاريخ ابن الأثير، ١: ١٥٧):

سَلامٌ في الصحيفة من لقيطٍ إلى مَن بالجزيرة مِن إيادِ

ويُروَى: «كتاب في الصحيفة»، وسَمَّوا الصحيفة «بالُمغَلْغَلة» قالوا: إنها الرسالة المنقولة من بلد إلى بلد، قال صَخْر الغي في الهُذَلِيَّات (ed. Kosegarten, p. 13):

أَبلِغْ كبيرًا عَنِّي مُغَلْغَلة تَبْرُق فيها صحائِفٌ جُدُدُ
فيها كِتَاب ذَبْر لِمُقترئ يَعرفُه البُهْم ومَن حَشَدوا

ومن أسماء الكتاب عندهم «المصْحَف» وردَت في شعر امرئ القيس للدلالة على كُتب الرهبان قال:

قِفا نبكِ مِن ذِكرى حبيبٍ وعرفانِ   ورسمٍ عَفَتْ آياتُه منذ أزمانِ
أتَتْ حِججٌ بعدي عليها فأَصبحتْ   كخَطِّ زَبور في مَصاحفِ رُهبانِ

ومن أسماء الكتب «المِجَلَّة» قال ابن دُرَيْد في الاشتقاق (ص١٩٢):
«المِجَلَّة الصحيفة يُكتَب فيها شيء من الحكمة.» واللفظة آرامية، قال النابغة يَذكُر الكتب المُقدَّسة التي كانت في أيدي بني غسان (التاج، ٧: ٢٦١):

مَجَلَّتُهم ذاتُ الإله ودِينُهم   قَويمٌ فما يَرجُون غيرَ العَواقبِ

ومثلها «السِّفر» للكتاب من التوراة والإنجيل، وقد مَرَّت، وكذلك سمَّوا الكتاب «سِجلًّا» كما ذكر في المخصص (١٣: ٨) وفي التاج (٧: ٣٧) والكلمة لاتينية sigillum بمعنى الخاتم والكتاب المختوم، قد عَرَفوا «القِمَطْر» وهو ما يُصانُ فيه الكتاب فأنشدوا (التاج، ٣: ٥٠٦):

ليس بعلمٍ ما يعي قِمَطْرُ   ما العلمُ إلا ما وَعاه الصَّدرُ

وكما ذَكروا الكتاب كذلك ذكروا «الخط»، قال حسان بن ثابت (سيرة الرسول، ص٤٥٤، ed. Wüstenfeld) في رسوم الدار:

عَرفتُ دِيارَ زينب بالكثيب   كخطِّ الْوَحي في الورقِ القَشيبِ

وكذلك قالوا في «السَّطر»: إنه الخط والكتابة، وأصل الكلمة من الآرامية، وروي في تاج العروس لبعضهم (٣: ٦٧٢):

إني وأَسْطارٍ سُطِرْنَ سَطرًا   لَقائلٌ يا نَصْرُ نَصْرًا نَصْرا

وقال الشماخ (اللسان، ٥: ٢٢٩):

كما خَطَّ عِبرانيَّةً بيمينه   بتيماء حَبْرٌ ثم عَرَّضَ أَسْطُرا

وكانوا يَتَّخذون للكتاب سِمة وديباجة حسنة وهو «العنوان»، قال أبو دؤاد الإيادي (التاج، ٩: ٢٧٢):

«لِمَن طَلَلٌ كعنوانِ الكتابِ؟»

وكانوا يُعْنَون بَوَشْي الخط وتَنمِيقه،[٧٥] قال علقمة بن عَبْدَة (معجم ما استعجم، للبكري، ص٥٠٥):

وذَكَّرَنِيها بعدَ ما قد نَسيتُها دِيارٌ علاها وابلٌ مَتَبعِّقُ
بأكنافِ شمَّاتٍ كأن رسُومَها قَضِيمُ صَنَاعٍ في أَديمٍ مُنَمَّقِ

وقال المُرقَّش الأكبر وبه لُقِّب مرقَّشًا:

الدار قَفْر والرسوم كما رَقَش في ظَهْر الأديم قَلَمُ

وقال حاتم الطائي (الأغاني، ٧: ١٣٢):

أَتعرف آثارَ الديار تَوهُّما كخَطِّك في رق كتابًا مُنَمْنَما

وخص رُؤْبَة الإنجيل بالتَّوشِيَة فقال (ed. Ahlwardt, p. 149):

إنجيلُ أَحبارٍ وحَى مُنَمْنِمُه ما خَطَّ فيه بالمداد قَلَمُهْ

وأشاروا إلى بعض حروف الكتابة كقول مرار بن منقذ في وصف رسوم الدار يشبه بحرف اللام ما مثل منها:

وتَرى منها رسومًا قد عَلتْ مثلَ خطِّ اللَّامِ في وَحْيِ الزُّبُرْ

[٧٥] من هذا الباب ما روى في المفضليات (ص٦٩٨):

كتابُ مُحبِّرٍ هاجٍ بَصيرٌ يُنمِّقُه وحاذَر أن يُعابَا

وروى ياقوت للقَتَّال الكلابي (٢: ٣٦٤):

تُنيرُ ونسْدِي الريحَ في عرصاتها كما نَمنمَ القرطاسَ بالقلم الحَبْرُ

وكان الكتبة يضاعفون العناية في كتابة صورة العنوان، قال الأخنس بن شهاب (المفضليات، ed. Lyall, p. 410):

لابنةِ حِطَّانِ بنِ عوفٍ مَنازلُ   كما رَقَّشَ العنوانَ في الرَّقِّ كاتِبُ

وقال أبو الأسود على خلاف ذلك (الأغاني، ١١: ١١١):

نظرتُ إلى عُنوانِه فنَبذْتُه   كَنَبذِكَ نَعلًا أُخلِقَت من نِعالكا

ومما ذكروه أيضًا من أدوات الكتابة «الدَّواة»،[٧٦] قال سلامة بن جندل (ديوانه، ص١٥، من طبعتنا):

لمن طَلَلٌ مِثلُ الكِتابِ المُنَمَّقِ   خلَا عهدُه بَيْنَ الصَّلِيبِ فمُطرِقِ
أَكبَّ عليه كاتِبٌ بِدواته   وحادِثُه في العين جِدَّةُ مُهرَقِ

وكذلك صَرَّحوا بذكر «المِداد»؛[٧٧] أي الحِبْر، قال المُتلَمِّس يذكر الكِتَاب الذي أعطاه عمرو بن هند لعامله في البحرين يُسِرُّ إليه بقتله (ياقوت، ٤: ٢٢٨):

وأَلقيْتُهُ بالثَّنِيِّ مِن بطن كافرٍ   كذلكَ أُقْنيَ كلُّ قِطٍّ مُضلَّلِ
رَضِيتُ بها لما رأيتُ مِدادَها   يَجولُ بها التَّيارُ في كل جَدْوَلِ

---

[٧٦] جمعها دوًى ودوي، قال أبو ذؤيب (اللسان، ١٨: ٣٠٦):

عرفتُ الديارَ كخَط الدَّويِّ   حَبَّرَه الكاتبُ الحِمْيري

[٧٧] منه قول عبد الله بن غنمة (المفضليات، ٧٤٣):

فلم يَبقَ إلا دِمنةٌ ومنازلٌ   كما رُدَّ في خطِّ الدَّواةِ مِدادُها

وروى هناك لعدي بن الرَّقَّاع قوله يصف ثورًا:

تُزْجِي أغنَّ كأنَّ إبْرَةَ رَوْقِه   قلمٌ أصابَ مِن الدَّواة مِدادَها

ومثله «النِّقْس» جمعه أَنقاس،[٧٨] قال زهير بن عاصم (البكري، ص٥٢٤):

إن بلادي لم تكن أملاسا　　بِهِنَّ خَطَّ القلمُ الأَنقاسَا
مِن السَّبِيِّ حيثُ أَعْطى الناسَا　　فلم يَدَع لُبسًا ولا الْتِبَاسَا

وفي الأصل: الأنفاسَا بالفاء، وهو تصحيف.

(١١) بعض ألفاظ أخرى مُتفرِّقة لنصارى العرب

نذكر هنا بعض ألفاظ ورَدتْ في آثار الجاهلية بخصوص النصارى وأولها اسم «النصراني»، وجمعها النصارى، قال العَجَّاج في مفردها (ديوانه، ص٦٩):

كما يَعودُ العيدَ نَصرانيٌّ　　وبِيعةً لِسُورها عَلِيُّ

وقال جابر بن حُني في جمعها (شعراء النصرانية، ص١٩٠):

وقد زَعَمتْ بَهْراء أنَّ رماحَنا　　رماحُ نَصارى لا تَخوضُ إلى دمِ

وقال طُخَيم بن الطخمة الأسدي يمدح قومًا من أهل الحيرة من بني امْرِئ القيس بن زيد مناة بن تميم رهط عَدِي بن زيد (ياقوت، معجم البلدان، ٢: ٩٥٧):

بَنُو السِّمْط والجَدَّاء كلُّ سَمَيْدعٍ　　له في العُروقِ الصَّالحات عُروقُ
وإنِّي وإنْ كانوا نصارى أُحِبُّهم　　ويَرتَاح قلبي نَحْوَهم ويَتُوقُ

---

[٧٨] روى ياقوت لمنظور بن فروة في وصف آثار دارٍ:

كأنَّها بعدَ سِنين خَمسِ　　خطُّ كتابٍ مُعجَمٍ بِنَقْسِ

وروى لأبي زياد الكلابي (٤: ٩٧٥):

أشاقَتْك الديارُ بِهَضْب حَرْسٍ　　كخطِّ مُعَلِّم ورقًا بِنقْسِ

وقال القطاميُّ يَذكُر نساءَ النصارى في صَومِهن (التاج، ٨: ٩٩):

يَلُذْنَ بأعقارِ الحِياضِ كأنَّها نِساء النَّصَارى أَصبحتْ وَهْيَ كُفَّلُ

ومثله لحسان (ص٢٤، من طبعة تونس):

فَرِحتْ نَصارى يثرب ويهودُها لما توارَى في الضَّرِيح المُلحَدُ

ولعبد الله بن الزبير في حجَّار بن أبجر العجلي (الأغاني، ١٣: ٤٦):

سَليلَ النَّصارى سُدتَ عِجلًا ومَنْ يَكنْ كذلك أهلٌ أن يَسودَ بني عِجْلِ

وقال في التهذيب: وجاءت أنصار، جمع نَصْران؛ «أي النَّصْراني» وأنشد:

لما رأيتُ نَبطًا أَنصارا

يُريد نَصارى مِنَ النَّبَط (اللسان، ٧: ٦٨؛ والتاج، ٣: ٥٦٩).

وكذلك قالوا في مؤنث نَصْران «نَصْرانة» قال أبو الأخزر يصف ناقتين طأطأتا رَأْسَيْهما من الإعياء، فشبههما بالنصرانية تُطأطِئ رأسها بصلاتها:

فَكلتاهما خَرَّت وأَسْجَدَ رأْسَها كما أَسْجدَتْ نَصرانةٌ لم تَحنَّفِ

وبَنَوا منه فعلًا فقالوا «تَنصَّر»؛ أي دخل في دين النصرانية، قال حاتم الطائي، يذكر ديار لحيان وكانوا نصارى (الأغاني، ١٦: ١٠٤):

وما زلتُ أسعى بين نابٍ ودَارةٍ بِلِحيان حتى خِفْتُ أن أتَنصَّرا

وقال جعفر بن سراقة أحد بني قُرَّة يهجو جميل بن معمر وقومه (الأغاني، ٦: ١٥):

نَحنُ مَنعنا ذا القرَى مِن عَدُوِّنا وعُذرةَ إذ نَلْقى يهودًا وبُعثُرا
مَنعنَاهُ مِن عُلْيا مَعَدٍّ وأنتمُ سَفاسيفُ رَوحٍ بين قرحٍ وخَيْبرَا
فَريقانِ رُهبانٌ بِأسفلَ ذي القرَى وبالشَّام عرَّافون فيمنْ تَنصَّرَا

ومما خصوه بالنصارى «الإِرَان»[79] وهو سرير المَيِّت أو تابوتٌ من خشب كانوا يحملون عليه موتاهم، هكذا رواه شارح ديوان طرفة (شعراء النصرانية، ٣٠٠)، حيث قال في مُعلَّقته يصف ناقته:

أَمونٍ كألواحِ الإرانِ نَشأْتُها على لاحبٍ كأنَّه ظَهرُ بُرْجدِ

قال التبريزي في شرح المعلقات (ed. Lyall, 33): الإرانُ تابوتٌ كانوا يحملون فيه ساداتِهم وكُبراءهم دون غيرهم، وقال امرؤ القيس (ed. de Slane, p. 30):

وعَنْسٍ كألواح الإرانِ نَشأتُها على لاحبٍ كالبُرْدِ ذِي الحِبراتِ

قال الشارح (id., p. 99): الإران سرير موتى النصارى.

ومنها «الناؤوس» جمعها نواويس،[80] قال في التاج (٤: ٢٥٦) النواويس مقابر النصارى، والمُرجَّح أن أصل الكلمة من اليونانية ναός ومعناها الهَيْكَل والمَدْفَن، ومما ذكروه للنصارى «البُوق»[81] وهو النَّفِير الذي يُنفخ فيه، أنشد الأصمعي (التاج، ٦: ٣٠١) للعلبكم «كذا» الكندي:

زَمْر النَّصارى زَمَّرتْ في البُوقِ

---

[79] هذه اللفظةُ أصلها من العبراني ארון معناها الصندوق (J. As. 1836^{b}, 282).

[80] وقد مر معها ذكر الناموس (ص٢١٤) وهي يونانية νομός، ومعناها الشرع، وقد ورَد ذِكرُها في الشعر العربي بمعنى الشرع المسيحي، جاء في حديث ورقة بن نوفل (في الأغاني، ٣: ١٥): «لَيأتِيه الناموسُ الأكبرُ ناموسُ عيسى ابن مريم.»

ومن الألفاظ القرآنية التي سبَقتِ الإسلامَ لفظةُ الأبابيل، جاء في سيرة الرسول، لابن هشام (ص٥٩٨)، لأُمَيَّة بن أبي الصَّلْت:

حـولَ شَـيـاطـيـنِـهـم أبـابـيـلُ رِبِّيُّون شَدُّوا سنَّورًا مَدسُورَا (كذا)

[81] جاء في نقائض جرير والفرزدق (ص١٠٤١) في رثاء جرير للأخطل:

وتبكي بناتُ أبي مالكٍ بِبوقِ النَّصارى ومِزمَارِها

يريد هنا الروم الذين كانوا ينفخون الأبواق في حفلاتهم.

ومن غريب ما نَسبوا إلى النصارى إكرام «الْوَثَن»، كما مر سابقًا وقالوا: «الوَثَن الصَّلِيب»، وكذلك دَعَوا الصليب والتماثيل التَّقَويَّة عند النصارى «أصنامًا»، كما دعاها جرير «بالزُّون» بمعنى الصنم أيضًا، حيث قال (تاج العروس، ٩: ٢٢٩):

مَشْيَ الهَرابذِ حَجُّوا بِيعَة الزُّون

وفي هذه الأقوال غلطٌ فاحش؛ لأن النصارى لم يعبدوا قطُّ الوثن أو الصَّنم أو الزُّون، فضلًا عن كون الهَرابذة هم المَجُوس، وإنما يُكَرِّمون الصَّلِيب والصُّور لِمَا تُمثِّل لهم من شَخْص السيد المسيحِ المصلوب وأولياء الله، وشتَّانَ بين هذا وعبادة الأصنام.

الفصل الثالث

في الأعلام[1] النصرانية

إن أعلام الأشخاص في الأمم القديمة من أصدق الشواهد على معتقداتها، فلذلك أَرَدْنا أن نُفرِد بابًا خاصًّا للأعلام النصرانية التي نَجِد آثارها في جهات العرب قبل الإسلام، فلعلها تزيدنا علمًا بما كان للدِّين المسيحي من النُّفوذ في الجزيرة العربية.

ومما يَنبَغِي التَّنبيه إليه بادئَ بَدْء أن الأعلام التي ذكرها قدماء الكتبة قبل المسيح للعرب، والتي ورد ذكرها لهم في آثار الآشوريين ثم اليونان ثم الرومان لا تفيدنا شيئًا بالإطلاق على توحيدهم، بل كثيرٌ منها على خلاف ذلك يُوقِفُنا على عبادتهم للأوثان، وخصوصًا للشمس والقمر والكواكب، كما أثبتنا ذلك في مقدمة القسم الأول من كتابنا هذا، وكذلك يُسْتدَل من تلك الأسماء أن العرب كانوا يُعظِّمون مواليد الطبيعة من جماد ونبات وحيوان، فكثرة الأعلام الدالَّة على هذه المواليد لا يمكن تعليلها إلا بالقول: إن العرب أَلَّهُوا الطبيعة في مَظاهِرها من القُوَّة والجمال والحياة فرأَوا فيها تَجلِّيَّات معبوداتهم.

ومما يولي العجب أننا لا نجد بين هذه الأعلام القديمة السابقة لعهد المسيح اسمًا واحدًا يثبت لنا ما زعمه بعض كتبة العرب بعد الإسلام حيث قالوا بلا سند: إن العرب كانوا مُوحِّدِين وإنهم أخذوا التوحيد عن إبراهيم الخليل وعن إسماعيل ابنه ثم تَوارثوه بتوالي الأعصار، فالأعلام الواردة في الآثار القديمة تنفي هذا الزعم حتى إن اسم

---

[1] وممن صرَّحوا بذكر الأعلام النصرانية بين عرب الجاهلية المستشرق رينان في المجلة الآسيوية قال: "L'Arabie antéislamique offer aussi beaucoup de noms chrétiens". (*Journ As.*, 1850, p. 248).

إسماعيل أبي العرب عينه لم يرو لأحد منهم في تلك الكتابات وعلى خلاف ذلك أننا نجد في تلك الأعلام ما لا يدع شُبهًا في شرك العرب كبقية الأمم.

هذا إلى عهد المسيح، وليس الأمر كذلك بعد ظهور النصرانية، فإننا إذا اسْتَقْرَيْنا الأعلام العربية التي رواها أقدم كتبة العرب عن تاريخهم المتوسط بين عهد السيد المسيح إلى ظهور الإسلام أمكننا أن نبين من تعدادها أن النصرانية كانت نفذت في بلاد العرب، وأن تلك الأسماء إنما دخلَتْ بينهم بانتشار الدين المسيحي.

ولعل البعضَ يَرون أن عدد هذه الأعلام قليل بالنسبة إلى ما ذكرناه عن شيوع الدين النصراني بين العرب في الجاهلية، فجوابنا على ذلك: أولًا أن العَرب النصارى تَبِعوا غالبًا في أسمائهم عادات قبائلهم القديمة دون أن يَمتازوا بأسماء جديدة لم يألفوها في سابق الأجيال.

ثانيًا: أن منهم مَن كان له أكثر من اسم واحد كما هي عادة كثيرين من نصارى الشرق في بلادنا، فكانوا بالمعمودية يُسَمُّون أولادهم باسم يدل على نصرانيتهم، وأما في المعاملات العادية فكانوا يُطلِقون عليهم اسمًا آخَر مألوفًا كمالك وصالح وحبيب وسعد.

ثالثًا: لا بل نعرف من شهادة تاريخهم أن بعض النصارى في جزيرة العرب تَسمَّوا بأسماء وثنية كانت جرت في الاستعمال ونُسِيَ معناها الأصلي كعبد المَدَان، ومنهم بَنُو عبد المَدَان النصارى في نجران، وكعبد القَيْس الذي ينتسب إليه بنو عَبْد القيس النصارى الذين ذَكرنَاهم قبلًا، وهكذا جَرى أيضًا لنصارى اليونان والرومان والسريان فإنهم بعد تَنصُّرهم تَسمَّوا بأسماء كان أصلها وثنيًّا مشيرًا إلى مُعبوداتهم؛ كمر كوريوس، وديونوسيوس، وباخوس، ومرطيوس، لكن تلك الأسماء كانت فَقدَت بالاستعمال مَعانِيَها الوثنية.

فإذا أدركتَ ما سبق فنقول: إن الأعلام نصرانية بين العرب على خمسة أشكال، فمنها ما استعاروه من الأسفار المُقدَّسة، ومنها ما أشاروا فيه إلى الاسم الكريم، ومنها ما خُصَّ بالنصارى دون غيرهم، ومنها ما كان تعريبًا لأسماء نصرانية، ومنها أخيرًا ما دل على بعض الصفات الموافقة لأحوال النصارى:

(١) الأعلام النصرانية المستعارة من الأسفار المقدَّسة

هذه الأعلام مُشترَكة في بلاد العرب بين النصارى واليهود، ونحن نَضْرِب الصَّفْح عن أسماء اليهود لخروج ذلك عن غَرضِنا، فنذكرُ أسماء سواهم ممن ينتمون غالبًا إلى القبائل التي أثبتنا نصرانيتها وذلك على ترتيب حروف المعجم:

«آدَمُ»[٢] تَسمَّى بعضهم في الجاهلية باسم أبي البشر، منهم «آدم بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب». قال ابن دريد في الاشتقاق (ص٤٤): «قُتِل في الجاهلية وهو الذي وَضَع النبي ﷺ دمه يوم فتح مكة». ومنهم آدَم مولى بَلْعَنبر، ذكره أبو تمام في الحماسة، ولعله آدَم بن شدقم العنبري الذي روى له ياقوت شعرًا في معجم البلدان (٣: ٣٧٣).

«إبراهيم» قال التبريزي في شرح الحماسة (١: ١٧٥ ed. Freytag): قال أبو العلاء: إبراهيمُ اسم قديم ليس بعربي، وقد تَكلَّمتْ به العرب على وجوه، فقالوا: إبراهيم، وهو المشهور، وإبراهام، وقد قُرِئ به، وإبْراهِم على حذف الياء، وإبْرَهَم، وذكر هناك اسم شاعر قديم دعاه «إبراهيم بن كُنَيف النَّبْهاني»، وممن تسمى بإبراهيم: إبراهيم بن أيوب بن محروف[٣] عم الشاعر النصراني عدي بن زيد (التاج، ١: ١٥١)، ومنهم قوم من الصحابة ذكرهم ابن الأثير في أُسْد الغابة في معرفة الصحابة (ج١، ص٤٠–٤٤) عُرِفوا باسم إبراهيم تَسمَّوا به في الجاهلية كإبراهيم الأشهلي، وإبراهيم بن الحارث بن خالد التَّيْمي القرشي المهاجر، وكأبي رافع إبراهيم القبطي، قال: إنه «كان مولى رسول الله ﷺ»، وإبراهيم بن عباد الأوسي الذي شهد موقعة أحد، وإبراهيم بن قيس بن مَعدِي كَرِب الكندي ممن وفَدوا على نبي المسلمين، وإبراهيم النجار قال: «إنه صَنَع المنبر لرسول الله.» وقد جاء اسم إبراهيم على صورة أخرى، وهو اسم أَبْرَهة، ذكره العرب للحبشة وأشهر من دُعِي به أبرهة الذي حارَب ذا نُؤاس وتمَلَّك على اليمن، وبه سُمِّي قَبْلُه أَبرهة ذُو المَنار أحد ملوك اليمن ابن الرائش الذي أشار إليه الشاعر في وصف نوب الدهر (حماسة البحتري، ٨٣):

وأَصَبْنَ أبرهة الذي سَجدَتْ له   صُمُّ الفُيول صَوامتًا لم تَنطقِ

«إدريس» ليس هذا الاسم على لفظه في الأسفار المُقدَّسة، والعرب يزعمون أنه أحد الآباء الأولين، قال في تاج العروس (٤: ١٤٩): «هو خنوخ أو أحنوح المذكور في التوراة.»

---

[٢] وفي البيان والتبيين للجاحظ (١: ٧٥) رجز لآدم مولى العنبر، وكان اسم امرأته أم أيوب.

[٣] ويروى ابن مجروف، قال ابن الكلبي (ياقوت، ٤: ٢٢٢): «لا أعرف في الجاهلية مَن اسمه إبراهيم بن أيوب غيرهما، وإنما سُمِّيَا بذلك للنصرانية.» فقوله: «للنصرانية» فصواب، أما قوله: «إنه لم يعرف غيرهما» فيرده ذكر الذين عددناهم هنا، وإبراهيم بن أيوب هذا ينتهي نسبه إلى تميم، ومن نسله مقاتل بن حسان الذي يُنسب إليه قصر مقاتل الذي كان بين عين تمر والشام.

وقد تَسمَّى به أحد النصارى الوافدين على محمد رسول الإسلام كما رواه ابن الأثير في أُسْد الغابة (١: ٤٤ و٥٧).

«أرميا» راهب في طور سيناء، مات شهيدًا قتله البلاميون سنة ٤٧٣، وتذكاره في ١٤ كانون الأول.

«إسحاق» دُعِيَ باسم إسحاق أحد شعراء الحماسة في أبي تمام (ص١٤٠)، وهو إسحاق بن خَلَف، وذكر ابن الأثير من الصحابيين (١: ٦٨) إسحاق الغَنَوي، وممن اشتهر باسم إسحاق بين نصارى العرب راهب استشهد في طور سينا قُتِل مع رهبان آخرين في سنة ٤٧٣، وتذكاره واقع في السِّنْكِسارين الغربي والشرقي في ١٤ كانون الثاني، ويدعونُه إسحاق سلائيل.

«إسرائيل» لم نجده بين الأعلام السابقة للإسلام، وسُمِّي به بعد الإسلام قَليلون كإسرائيل بن يونس الراوي، ذكره الطبري غير مرة في تاريخه، وإسرائيل بن السَّمَيْدع، ذكره ياقوت في معجمه (١: ٤٨٢)، وإسرائيل بن روح (٢: ٣٣).

«إسماعيل» أقدم ما نعرف ممن تسموا بهذا الاسم شهيد نصراني كان أرسله ملك العجم سنة ٣٦٢ للمسيح سفيرًا إلى يليانوس الجاحِد القيصر الروماني ليبرم معه عهد الصلح، وكان إسماعيل هذا مع اثنين آخَرَين نصرانيين مثله اسمهما مانويل (أو عَمانويل) وسابيل، فعَرَض عليهم يليانوس جحود دينهم فأبوا فأمر بقتلهم فماتوا شهداء إيمانهم، وعيدُهم واقع في الكنيسة في ١٨ حزيران (راجع: أعمال البولنديين، Acta Sanctorum, vol., IV Jun., pp. 231–246)، وسمي بهذا الاسم أيضًا رجلان من الصحابة إسماعيل الزَّبَدي ورجل آخر، ذكرهما ابن الأثير في أُسْد الغابة (ج١، ص٧٩–٨٠).

«أشعيا» هو اسم أحد الرهبان في طور سيناء المستشهدين سنة ٤٧٣م.

«إلياس» ورد هذا الاسم لأحد أجداد نبي المسلمين، وهو إلياس بن مُضَر بن نِزار بن مَعَدِّ بن عدنان، راجع كتاب الاشتقاق لابن دريد (ص٢٠)، وقد زعموا أن الاسم مُشتَق من يئس، والصواب أن الاسم عبراني الأصل، وبه سمي النبي إلياس الشهير، وبه سمي بعد الإسلام إلياس بن حبيب الفهري عامل إفريقية (اطلب: تاريخ اليعقوبي، ٢: ٤٦٤)، ومن المحتمل أن اسم «إياس» الشائع عند العرب هو صورة مختلفة لاسم إلياس، وبهذا الاسم عرف أحد النصارى، وهو إياس بن قَبِيصة النصراني، وقد ذكرنا في شعراء النصرانية (ص٩٣) شيئًا من شعره. وكان أحد سادة قومه، وابنه إياس كان عاملًا لكسرى أنوشروان على الحيرة، وممن عرف بين عرب النصارى باسم إلياس راهب

استشهد في طور سينا سنة ٣٨٠م تذكاره في ٢٠ تشرين الثاني، وكذلك إلياس بطريرك أورشليم (٤٨٠–٥١٨) القديس كان مولده في جزيرة العرب.

«أيوب» هو اسم بعض العرب في الجاهلية منهم أيوب بن محروف، وهو جد الشاعر النصراني عدي بن زيد، قال أبو الفرج الأصبهاني في الأغاني (٢: ١٨): «كان أيوب هذا فيما زعم ابن الأعرابي أول من سُمِّي من العرب أيوب»، وذكره في تاج العروس (١: ١٥١) مع ابنه إبراهيم عَمِّ الشاعر عدي بن زيد، وروى قول ابن الكلبي فيهما قال: «ولا أعرف في الجاهلية من العرب أيوب وإبراهيم غير هذين، وإنما سُمِّيَا بهذين الاسمين للنصرانية.» وقد ذكر ابن الأثير في أسد الغابة (١: ١٦٢) رجلين من الأنصار دُعِيَا بأيوب، ولا شك أن هذا الاسم كان اسمهما في الجاهلية، وهما «أيوب بن بشير الأنصاري، وأيوب بن مكرز»، وقد ذكر البحتري في حماسته (اطلب: طبعتنا، ص٢٦٠ و٢٦١) مقاطيع من الشعر لشاعر دعاه عبيد بن أيوب، وكذلك ورد اسم أيوب في شعر النابغة حيث قال (شعراء النصرانية، ص٦٥٥):

مُستَشْعِرينَ قَد أَلفَوَا في دِيارهمُ   دُعـاءَ سُـوعٍ ودعـمـيٍّ وأيـوبِ

يريد أن بني قُعَيْن دَعوا إلى الحرب هذه الأحياء الثلاثة، قال الشارح: «وهم أحياءٌ من اليمن من غَسَّان وهم نصارى وقيل: هم رهبان.»

«بنيامين» هو أحد شهداء طور سينا سنة ٤٧٣م.

«حَنَّة»[٤] هذا الاسم ورد للذكور والإناث فهو كحَنَّان ويُوحَنَّا، أما للإناث فهو كاسم حَنَّة أم صموئيل، ومن الأول حَنَّة والد عَمْرو الصحابي الأنصاري وأبو حَنَّة البدري، ذكرهما في تاج العروس (٩: ١٨٥)، وأما من الثاني فحَنَّة بنت هاشم بن عبد مناف القرشي عم محمد، ذكرها اليعقوبي في تاريخه (١: ٢٨١ و٢٨٣).

«حوَّاء» ذكر ابن الأثير في أُسْد الغابة (٥: ٤٢٩) أربع نسوة من الأنصاريات عُرِفن باسم حواء فتسَمَّيْن به في عهد الجاهلية؛ وهن: حوَّاء بنت السَّكَن أم بجيد الحارثية زوجة قيس بن الخَطِيم الشاعر الذي قُتل قبل الهجرة، وحَوَّاء بنتُ رافع بن امرئ القيس،

[٤] وذكر في نقائض جرير (ص٩٤٣) «حنة بنت نَهْشَل بن دارم كانت أُمها ماوية بنت حُوَيٍّ بن سفيان بن مجاشع، وأم قيس بن حسان بن عمرو بن مرثد.»

وحوَّاء بنت زيد بن السَّكن، وكُلُّهن من بني عَبْد الأشهل، والرابعة حواءُ بنت زيد بن سنان زوجة قيس بن شَمَّاس، وقد اختلفوا في نسبتهن وعددهن.

«حَيقار» هو من الأسماء الكتابية ورد في سفر طوبيا في الترجمة اليونانية (١: ٢٣)، وفي تاريخ الطبري (١: ٧٤٥) أن أحد بني مَعَدٍّ بن عدنان الذين خرجوا مع اليمنيين إلى الريف كان يدعى بالحَيْقار بن الحيق.

«داوُد»[٥] هو أحد أعلام النصرانية المتواترة في الجاهلية، وأقدم مَن عُرِف به أحد ملوك الضَّجاعِمَة الذين سبقوا غَسَّان وتَنصَّرُوا مع بني سَلِيح واسمه «داود اللثق»، قال ابن دريد في الاشتقاق (ص٣١٩): «هو الذي يضاف إليه دَيْر داود بالشام، وقد ملك زمانًا.» وقد روى الكلبي في الجمهرة نسبه فقال: «هو داود بن هبولة أخي هبالة بن عمرو بن عوف بن ضجعم.» ويروى اسم داؤود على صورة دؤاد، قال الأسود بن يعفر (حماسة البحتري، ص٨٣) يصف منازل آل محرق:

أرضٌ تَخيَّرها لِطيبِ مَقِيلها　　　كعبُ بنُ مامةَ وابنُ أُمِّ دؤادِ

ومِن مشاهير شُعراء بني إيادٍ النَّصارى في الجاهلية «أبو دؤاد الإيادي» اطْلبْ شعره في حماسة البحتري (ص٨٧)، وقد ذُكِر هناك (ص١٤٤) شاعرٌ آخَر دُعِي داؤد وهو داؤد بن حَمَل الهمذاني، ومن موالي الأنصار داود بن بلاد (ذكره في أُسْد الغابة، ٢: ١٢٩).

«زكريا» دُعِي بهذا الاسم أحد بني خزاعة، وهو زكريا بن علقمة الخزاعي، ذكره ابن الأثير في أُسْد الغابة (٢: ٢٠٥) وقال: إنه دُعِي أيضًا كرزًا، وذكر في الأغاني (١٩: ١٢) زكريا بن ثباة الثَّقِيفي.

---

[٥] وممن عرف باسم داؤد في الجاهلية داؤد بن عروة بن مسعود الذي تزوج حبيبة ابنة عبيد الله بن جحش الذي ارتد عن الإسلام وتَنصَّر (الطبري، ٢: ٢٤٤٥)، وورد في نقائض جرير في حديث يوم تياس (ص١٠٢١) ذكر داؤد أحد بني ذؤيب، أما داؤد بن هبولة فهو الذي قتله ثعلبة بن عامر الأكبر المعروف بالفاتك قتله يوم القَرنتَيْن فقال:

نحن الألى أَوْدتْ ظُباتُ سيوفِنا　　　داؤدَ بَيْن القرنَتَيْن بحاربِ

ثم راجع: أخبار أبي دؤاد الإيادي في الأغاني (١٥: ٩٦).

«سليمان» ذكر اليعقوبي في تاريخه (١: ٢٩٩) بين حُكَّام العرب في الجاهلية سليمان بن نوفل ممن حكموهم لشرفهم وصدقهم ورئاستهم، وذكر البحتري بين قدماء الشعراء (في حماسته، ص٢٢٦) سليمان بن المهاجر العدوي، وروى أبو تمام (ص٤٣٥) شعرًا لسليمان بن قَتَّة، وذكروا بين الأنصار عِدَّة رجال دُعُوا باسم سُليمان كسليمان الليثي بن أكيمة، وسليمان بن أبي حثمة القرشي، وسُلَيمان بن صُرَد الخزاعي، وسُلَيمان بن عمرو بن حديدة الذي قُتِل يوم أحد، وسُلَيمان بن مسهر، وسُلَيمان بن هاشم بن عُتْبة القرشي (اطلب: أُسْد الغابة، ٢: ٣٥٠–٣٥٢)، ولعل الذين تَسمَّوا في الجاهلية بسليم وسلَّام وسَلمان[٦] وسالم أشاروا بأسمائهم إلى سليمان، والدليل عليه ما ورد من الشعر في سُليمان الحكيم بتَغيير صورة اسمه فدعاه الأسود بن يعفر سلَّامًا، قال (التاج، ٨: ٣٤٤):

ودعا بِمحكمةٍ أمينٌ سَكُّها مِن نَسْج داود أبِي سلَّامِ

ومثله للحطيئة:

فيه الرِّماح وفيه كل سَابِغة جلَّاء مُحْكَمَة من نسج سلَّامِ

ودعاه النابغة سُليمًا فقال ناسبًا إليه نسج الدروع (ديوانه، ص٩٩):

وكلُّ صَموتٍ نَثلةٍ تُبَّعِيَّةٍ ونسجُ سُلَيمٍ كلَّ قَضَّاءَ ذائلِ

«سِمْعان» من المحتمل أن يكون هذا الاسم كتابيًّا أو نصرانيًّا محضًا، وقد دُعِي به قوم في الجاهلية منهم سِمعان بن عمرو بن قريط سيد بني كلاب الذي كتب إليه رسول

---

[٦] اشتهر بهذا الاسم في الجاهلية وفي أوائل الإسلام سلمان الفارسي، قال الشيخ أبو الحسن النيسابوري في كتاب أسباب النزول «إن سلمان كان من أهل جنديسابور ومن رهبان النساطرة، وإن في أصحابه نزلت الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى ... فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (سورة البقرة، عدد ٦٢)»، وكذلك سلمان العجلي من نصارى عجل (أغاني، ١٢: ١٢).

ومما فاتنا من الأعلام الكتابية اسم «سارة»، وهي زوجة إبراهيم الخليل، دُعِيَت باسمها سارة مولاة قريش (الفاسي، أخبار البلد الحرام، ص١٤٦)، وقد جاء اسم سارة في شعر جرير كما سبق (النقائض، ص٩٩٤).

ومما ورد من الأسماء الكتابية عند العرب اسم أليشع راهب عربي الأصل، ذكره ابن ماري في المجدل (ص٤٩).

المسلمين يدعوه إلى الإسلام فرَقَع دَلْوَه بالكتاب كما ذكر ابن سعد (ص١٩-٢٠، ed. Wellhausen)، ثم خافَ وأَسْلَم، وذكر أبو حاتم سهل السجستاني في كتاب المُعَمَّرين (ص٥٤، ed. Goldziher) سمعان بن هُبَيرة قال: «هو أبو السَّمَّال الأسدي، عاش ١٦٧ سنة»، وقالوا: إنه كان في الرِّدَّة، وفي أُسْد الغابة لابن الأثير (٢: ٣٥٥) صحابيان كان اسمهما سمعان، وهما سمعان بن خالد الكلابي، وسمعان بن عمرو بن حجر، ولعل الأول منهما هو الذي ذكره ابن سعد، واسم سمعان ورَدَ أيضًا على صورة شمْعُون كما سترى (راجع ياقوت، معجم البلدان، ٢: ٦٧٢).

«السموءل» وهو سموئيل وصموئيل وشموئيل أيضًا، وقد أثبتنا في ديوان السموءل ما يرجح كون السموءل بن عادياء نصرانيًّا، وعليه يكون الاسمُ شاع أيضًا بين النصارى، وقد ذكر ابن هشام في سيرة الرسول حَبرًا من اليهود يدعى سموئيل بن زيد (ص٣٥٢ و٣٩٨، ed. Wüstenfeld).

«عِمْران» ومثله «عَمْرو» اسمان شائعان بين عرب الجاهلية ولعلهم استعاروهما من عَمْرام وعُمري الواردين في التوراة فعَمْرام هو أبو موسى وهارون ومريم (عدد ٣: ١٧)، وروي في القرآن عمران فجعله كأبي العذراء مريم (٣: ٣١؛ و٦٦: ١٢)، وعُمْري اسم لأحد ملوك إسرائيل ولبعض أبناء إسرائيل. وممن اشتهروا باسم عمرو في الجاهلية عمرو بن كلثوم التغلبي الشاعر النصراني الشهير، وعمرو بن قميئة، وعمرو بن الأهتم التميمي وغيرهم، واشتهر باسم عمران عمران بن مُرَّة بن الحارث، وعمران بن الحصين الصحابي.

«مريم» تَعدَّدت نساء العرب المدعوات بمريم نذكرهن في الباب الثالث.

«موسى» دُعِي به بعض العرب قبل الإسلام كموسى بن الحارث (سيرة الرسول، ص٢١١)، وأبي موسى الأشعري (ابن سعد، ٧٠)، وموسى بن جابر الحنفي أحد شعراء الحماسة، قال في خزانة الأدب ولُب لباب لسان العرب (١: ١٤٦): «هو أحد شعراء بني حنيفة المكثرين، يقال له: ابن الفريعة، وهي أمه، ويقال: كان نصرانيًّا.» وكان اسم رسول الغَسَّانيين موسى وهو مُنَصِّرُهم في القرن الرابع كما مر في القسم الأول، وكذلك أحد المُستشهِدين من نُسَّاك العرب في جبل سينا سنة ٤٧٣م كان يدعى موسى.

«لُوط» ذكر ابن سعد في الوفادات (ص١٩، ed. Wellhausen) في جُمْلة الرواة المعاصرين لنبي المسلمين «لوط بن يحيى الأزدي».

«النعمان» أقدم مَن ذكره التاريخ بهذا الاسم النعمان بن بنيامين بن يعقوب (تكوين ٤٦: ٢١) وبه عرف قائد ملك سورية الذي أبرأه إليا النبي، وقد شاع بعد ذلك بين العرب ولعلهم استعاروه من الأسفار المُقدَّسة.

«نوح» سمي باسم نوح أحد نصارى ربيعة، وهو نوح بن مجلد، وَرَد ذكره في أُسْد الغابة (٥: ٤٥)، وذكر في الأغاني (٢١: ٩٠) رجلًا دعاه بابن نوح كان في أوائل الإسلام.

«هارون» لم يَحضُرنا اسم أحد من الجاهلية دُعِي بهارون، ولعل هارون بن النعمان بن الأسلت الأوسي (الأغاني ١٥: ١٦١) الذي كان في أوائل الإسلام سُمِّي به قبل الإسلام.

«يعقوب» كان من شهداء طور سينا سنة ٤٧٣م المُسمَّى يعقوب، وذكر ابن الأثير (أُسْد الغابة، ٥: ١٢٧) بهذا الاسم من أهل الجاهلية الذين أسلموا: يعقوب بن أوس، ويعقوب بن الحصين، ويعقوب بن زَمْعة، ويعقوب القبطي، وذكر في الأغاني (٤: ٦٤) من جملة المُغَنِّين في أول عهد الإسلام يعقوب بن الهَبَّار.

«يوسف» عرف بهذا الاسم أحد شهداء المدائن سنة ٣٥٠م (Acta Sanctorm, III Apr., p. 19)، ومن المدعوين به يوسف بن الحكم الثقفي، وكان في أول ظهور الإسلام، وذكر ابن الأثير (٥: ١٣٢) يوسف الفهري من جملة الصحابة.

«يونس» هو اسم يونان النبي، وذكروا بين الأنصار يونس بن شداد الأزدي، ويونس المظفري الأوسي (أُسْد الغابة، ٥: ١٣٢)، فالاسم سبق الإسلام، والدليل عليه أيضًا أسماء رهبان كانوا في جزيرة العرب وعرفوا باسم يونس (Jonas). ثم إن هذا الاسم إذا شددت النون يُراد به اسم يُوحَنَّا النصراني على لفظ اليونانية Ἰωκννης كما سنبين.

(٢) الأعلام المتضمنة للاسم الكريم أو لبعض صفاته

هو الصنف الثاني من الأعلام النصرانية وما تختص به هذه الأعلام أنها تحتوي على الاسم الكريم بلفظه أو ببعض صفاته الإلهية.

فمن ذلك الأسماء التي تختم بإيل، ورد في تاج العروس (٧: ٢١٨): «قال الأصمعي في معنى جبريل وميكائيل: معنى إيل الربوبية فأضيف جبر وميكا إليه، فكأن معناه عبد إيل ورجل إيل، وقال الليث: هو بالعبرانية وهو اسم من أسماء الله تعالى.» وقد مر في ذكرنا للملائكة ما ورد في الشعر الجاهلي من ذكر جبريل وميكائيل وإسرافيل وما أشبهها، وأما هل دعي أحد في الجاهلية بهذه الأسماء فلم يحضرنا من ذلك شيء إلا جبريل بن ناشرة المعافري أحد رُفْقَة عمرو بن العاص (اطلب: معجم البلدان، لياقوت، ٣: ٨٩٦).

ولا يبعد أن اسم «جَبْر» الشائع في الجاهلية كان مقتصرًا عن «جبريل» كجبر بن عتيك، وجبر بن عبد الله القبطي، وجبر الكندي، كانوا في أول الإسلام، وقد سبقت أسماؤهم الإسلام (اطلب: أسد الغابة، لابن الأثير، ١: ٢٦٥–٢٦٧)، ويدخل في هذا الباب أسماء عبرانية ورد ذكرها في الفصل السابق في جملة الأعلام المنقولة عن الأسفار المُقدَّسة كإسرائيل وإسماعيل.

ومنها «شراحيل»[٧] أحد الأسماء الشائعة في الجاهلية كشراحيل بن مالك بن ذبيان من أشراف العرب، وشراحيل بن مُرَّة الهمداني، وشراحيل بن زرعة الحضرمي (تاج العروس، ٧: ٣٨٩)، وشراحيل بن عبد قيس البلوي (حماسة البحتري، ص١٩٦)، وبني شراحيل بن الشيطان بن حارث (اشتقاق ابن دريد، ص٢٣٤)، وغيرهم أيضًا، والاسم آرامي معناه «أطلق الإله».

ومنها «شرحبيل» شاع أيضًا في الجاهلية كشرحبيل بن السمط (اشتقاق ابن دريد، ص٢١٨)، وشرحبيل ذي رعين الحميري (ص٣٠٧)، وشرحبيل بن حسنة، وشرحبيل بن عبد الله من الصحابة المهاجرين إلى الحبشة (سيرة الرسول، ص٢١٣)، وشرحبيل بن غيلان (ص٩١٥) وغيرهم، ولعل هذا الاسم هو كالاسم الآرامي شمربل (ܫܪܒܝܠ) عرف به أحد شهداء النصرانية في مدينة الرُّهَا، ودعي به أحد جَثالقة الكلدان.

ومنها «شَمْويل»، ولا نعرف نصرانيًّا دعي به في الجاهلية، وقد ذكر ابن هشام من يهود قريظة الذين أسلموا (ص٣٥٢) شمويل بن زيد، وعزال بن شمويل، والاسم عبراني معناه عظم الله، وقد سبق أن اسم «السموءل» هو كشموئيل أو صموئيل.

ومنها «شَمْعَلة»، وهو اسم بعض شعراء النصارى أخَصُّهم شَمْعَلة بن فائد، وشَمْعَلة بن الأخضر الضبي (تاج العروس، ٧: ٣٩٩، وحماسة أبي تمام، ٢٨٢ و٦٤٠)،[٨] وذكر ابن سعد بين الوافدين على محمد المُسمَّى شمعلة، وفي الأغاني (١٠: ٩٩) شمعلة بن عامر شاعر نصراني حمله بعض خلفاء بني أمية على الإسلام، فلم يسلم «فغضب

---

[٧] ومن النصارى الذين دعوا بهذا الاسم شراحيل شيخ حَرَّان الذي أقام في تلك المدينة مشهدًا لإكرام القديس يوحنا المعمدان (راجع المتن، [الباب الثاني من الفصل الأول]).

[٨] ورد ذكره في نقائض جرير والفرزدق (ص٢٣٦) قال: إنه ابن هبيرة بن المنذر بن ضرار، كان شاعرًا رُوِيتْ له أبيات في يوم الشقائق يوم قُتل بسطام بن قيس، راجع أيضًا كتاب البيان والتبيين للجاحظ (٢: ٧٩).

فأَمَر به فقطعت بضعة من فخذه وشويت بالنار وأُطْعِمَها.» ويقال: شَمْعل أيضًا (كامل المبرد، ed. Wright, p. 524)، وعلى رَأْينا أن الاسم تَعِريب إسماعيل ومعناه «سَمِع الرَّب».

ومنها «شَهْمِيل»، وقيل: شَهْمِيل أبو بطن من العرب، وهو أخو العَتِيك بن الأسد بن عمران بن عمرو مزيقيا، ولعل معناه «عزَّ الرب وجلَّ».

ومن هذه الأسماء ما أضيف إلى اسم الله، وقد مر الكلام في هذا الاسم وأصله، فمن ذلك «أحسن الله»، ورد في كتاب الوفادات لابن سعد (ص٦٩، Wellhausen Skizzen)، «وأنس الله» (ص٦٦، Ibid؛ وتاريخ الطبري، ج١، ص٢٢١٩)، «وأوس الله» بمعنى عطاء الله (تاج العروس، ٤: ١٠٢–١٠٣)، و«تَيْم الله» بطن من بني بكر بن وائل وبطن من النمر بن القاسط (التاج، ٨: ٢١٦)، و«وَهْب الله» في الكتابات الحورانية وغيرها (Journ. As., 1882, pp. 8–10).

فهذه الأسماء بإضافتها إلى الاسم الكريم تدل على توحيده تعالى الذي دخل كما سبق إلى بلاد العرب على يد دعاة النصرانية خصوصًا.

وأشهر منها اسم «عبد الله» الذي كان يعم كل أنحاء جزيرة العرب، وهذا الاسم ورَد على صورتين، إما بإضمار الاسم الكريم وإما بالتصريح به، وكلاهما قد تسمى به نصارى كثيرون في الجاهلية.

فأمَّا الصورة الأولى فقد جاء على صورة «عَبْد» كعبد بن حنيف أحد بني لِحْيان من لَخْم باني دَيْر الأكَيْراح (معجم المستعجم، ص٣٧٣)، وكطَرَفة بن العبد الشاعر الشهير، وعلى صورة «عَبْدَة وعَبَدَة» كعَبْدَة بن الطبيب (الأغاني، ١٨: ١٦٣)، وعلقمة بن عَبَدَة، وكلاهما من فحول الشعراء.

وعلى صورة «عَبْدان» اسم رجل من أهل البحرين (التاج، ٢: ٤١١)، وعلى صورة «عُبَيد وعَبِيد» كعُبَيد بن الأبرص الشاعر الشهير (الأغاني، ١٩: ٨٤)، وعُبَيد بن عُوَيْج القرشي (الأغاني، ٦: ٦٠)، وعُبَيد بن أوس الظفري، وعُبَيد بن رفاعة الزرقي (أُسْد الغابة، لابن الأثير، ٣: ٣٤٦–٣٤٨)، وعلى صورة «عُبَيدة» كعُبَيدة بن عبد المطلب (اشتقاق ابن دريد، ص٥٤)، وعلى صورة «عابد» كعابد بن عبد الله بن مخزوم (تاج العروس، ٢: ٤١٤)، وقد مر أن «العباد قبائل شتى من العرب اجتمعوا بالحيرة على النصرانية» (ابن دريد، ص٧)، وقد وردت أيضًا على صورة «عُبَادة» كعُبادة بن عقيل (ابن دريد، ص١٨٢)، وصورة «عَبُّود»، روي في التاج (٢: ٤١٣) اسم رجل يُدعَى عَبُّودًا آمن بالأنبياء، وعلى صورة «عبَّاد» كعَبَّاد بن عمرو بن كلثوم الشاعر النصراني (الأغاني، ٩: ١٨٣)،

وكالحارث بن عَبَّاد سيد بني بكر في حرب البسوس (شعراء النصرانية، ص٢٧٠)، وعلى صورة «عُبَادى»، قال في التاج (٨: ٤١٤) إنه «اسم نصراني»، وعلى صورة «عَبْدُون» المنسوب إليه دَيْر عَبْدُون (مستعجم البكري، ٤٧٤).

أما المضاف إلى الاسم الكريم «فعبد الله»،[٩] وهو اسم كثر من تسمى به من أهل الجاهلية حتى بلغوا المئين كعبد الله بن جدعان سيد قريش وممدوح أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت (الأغاني، ٨: ٢–٦)، وعبد الله أبي رسول الإسلام، وكالشَّاعِرَين عبد الله بن رواحة (الأغاني، ٤: ٤–٧)، وعبد الله بن الزِّبَعْرى (أُسْد الغابة، ٣: ١٥٩)، وعبد الله بن غَطفان (التاج، ٧: ٢٣٩) … إلخ، وقد جاء على صورة التصغير (عُبَيد الله)، كعُبَيد الله بن الحُر الجُعْفي الفارس الشاعر (ابن دُريد، ٢٤٣، وحماسة البحتري، ص١٠٣)، وعبيد الله بن عبد المدان (حماسة البحتري، ص١٣٧)، وكذلك اختصروه «بعَبْدَل» كعبدل بن حارِث العِجلي، وعَبْدَل بن حنظلة أحد شرفاء العرب (التاج، ٢: ٤١٤).

وقد أضافوا العبد إلى الأسماء الحسنى الدالة على الإله الحق فقالوا: «عبد الواحد»، كعبد الواحد بن مَنيع السعدي (حماسة أبي تمام، ص٣٠٣، ed. Freytag).

وقالوا: «عبد الرحمن»[١٠] كعبد الرحمن بن رَواحة من الصحابة (ابن دريد، ٢٦٨)، وعبد الرحمن بن كعب (فيه ٢٧١)، وعبد الرحمن بن ربعي (حماسة البحتري، ص٣٣)،

---

[٩] ومن النصارى الذين دُعوا بهذا الاسم في الجاهلية عبد الله بن دارم، وهو جد حاجب بن زرارة بن عدس بن زيد بن عبد الله بن دارم (نقائض جرير، ص٨٠٩)، وكان اسم والد الشاعر حاتم الطائي عبد الله، وقد جاء في أعمال مجمع أفسس سنة ٤٣١م اسم عبد الله أحد أساقفة العرب الذين وَقَّعوا على تلك الأعمال، كان أسقفًا على خلصة (Elusa)، وإنما تصحف اسمه باللاتينية Ampela، أما في اليونانية Θεόδουλος فيبين صحة اسمه عبد الله، وممَّن سُمِّي بهذا الاسم مصغرًا عُبَيد الله بن سمعان التغلبي، ذكره القالي في أماليه (٣: ٦٥) وروى له قوله:

وَعدتَ وَلم تُنجزِ وقِدْمًا وعدْتَنِي فأخلفْتَنِي وتلكَ إحدى الأزامعِ

(قال): الأزامع الواحد أَزْمَع، وهي الدواهي.

[١٠] ومثله «عبد الحَنَّان»، وهو اسم ابن المُتلَمِّس الشاعر النصراني كما ورد في إحدى نُسَخ الشعر والشعراء لابن قتيبة، ودعاه في الأغاني (٢١: ١٨٧) «عبد المَنَّان» قال: «وكان للمتلمس ابن يقال له: عبد المَنَّان أدرك الإسلام، وكان شاعرًا وهلك في بُصرى ولا عقب له.»

وغيرهم كثيرون، روى ابن دريد في الاشتقاق عن ابن الكلبي (ص٣٦) أن «الرحمن صفة منفردة لله تبارك وتعالى اسمه لا يوصف بها غيره … وقال ابن الكلبي: وقد سمَّت العرب في الجاهلية عبد الرحمن» وروي للشَّنْفَرى في الرحمن:

لقد لطَمتْ تلك الفتاة هَجِينها   ألا بَترَ الرحمنُ ربي يمينَها

وأقدم الآثار التي ورد فيها اسم الرحمن الكتابة الحِمْيَرية التي رُقِمتْ على سد مأرب سنة ٥٤٢-٥٤٣ للمسيح بأمر أَبرهَة ملك الحبش، ففي أولها ما تعريبه «بقوة ونعمة ورحمة الرحمن ومسيحه وروحه القدوس.» (راجع [الباب الخامس، من الجزء الأول])، وعليه قد ثبت أن اسم الرحمن اسم نصراني وإليه انتسب الذين دعوا باسم عبد الرحمن، ومثله «الرحيم»، كعبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي (حماسة أبي تمام، ص٤٩ و٥٤).

وقد أضافوا العبد إلى أسماء حسنى غيرها كالأعلى من صفاته تعالى فقالوا: «عبد الأعلى» كعبد الأعلى بن صامتٍ العبدي (حماسة البحتري، ص٢٠٣)، وكذلك أضافوا إلى المَلِك فقالوا: «عبد الملك»، كعبد الملك المذكور آنفًا، وعبد الملك بن أُكَيدر صاحب دَوْمة الجندل النصراني السابق ذكره، وعبد الملك بن علقمة الثقفي (أُسْد الغابة، ٣: ٣٣٢)، وأضافوا إلى المَنَّان فقالوا: «عبد المَنَّان»، منهم عبد المَنَّان بن عبد المسيح المُتلَمِّس الشاعر النصراني (الأغاني، ١١: ١٨٧)، وإلى الحَميد فقالوا: «عبد الحميد»، منهم عبد الحميد بن حفص بن المغيرة المخزومي (أُسْد الغابة، ٣: ٢٧٦).

فهذه الأسماء كلها تشير إلى توحيد أصحابها في الجاهلية، وقد سبق القول: إن اعتقاد الإله الواحد في الجاهلية دخل خصوصًا بواسطة الدين المسيحي.

ويوجد أسماء أخرى لنصارى من العرب يشير ظاهرها إلى الوثنية، وإنما سقطت عن معناها الأول كما حدث عند اليونان والرومان بعد تَنَصُّرهم، فمن ذلك «عبد قيس»، و«امرؤ القيس» تَسمَّى بها النصارى كما مر وإن كان اسم قيس يدل على بعض أوثانهم القديمة، وكذلك «المَدان» من أوثان حمير كما قالوا، وكان بنو عبد المَدَان في اليمن من أشراف نصارى نجران، ومثله «كلال»، وإليه نُسِب عبد كلال أحد ملوك حِمْيَر المُتَنَصِّرين كما سبق، ومثله أيضًا «العَزيز» كان من أصنام بعض قبائل العرب، وبه عُرِف عبد العزيز بن سيف بن ذي يزن الحِمْيَري، وذكر في تاج العروس (٢: ٤١٢) خمسة من نصارى الحيرة في جملتهم عبد عمرو، وعبد ياليل، وقالوا: إن ياليل اسم صنم.[١١]

[١١] راجع: كتاب فلهوزن (Welhausen: *Reste arabischen Heidentums*, 2 ed., p. 4).

ومثله «يغوث» تسمى به عبد يغوث الحارثي سيد بَنِي مَذْحِج (الأغاني، ١٢: ١٥٣).

هذا ما حضر لنا من أسماء أهل الجاهلية الدالَّة على دين التوحيد والمحتوية لصفاته تعالى، ولا شك أنها دخلتْ بينهم بتأثير النصرانية.

(٣) الأعلام النصرانية المحضة

هو الصنف الثالث من الأعلام النصرانية التي شاعت بين عرب الجاهلية، وهذه الأعلام يُستدَلُّ من مجرد منطوقها أنها لنصارى ليست لسواهم، وها نحن نروي ما لقينا منها على ترتيب حروف المعجم:

«أَبْجَر» قد دُعِي بعض نصارى العرب بهذا الاسم كأبجر بن جابر سيد بني عِجْل النصارى (الأغاني، ١٠: ٢٧)، والعرب يشتقونه من «بجر»، أي عظم بطنه، ولعل الأصلح اشتقاقه من السريانية، ومعناه فيها الأعرج وبه عرف ملوك الرُّهَا الأباجرة.

«إسطفانوس» قال ياقوت في معجم البلدان (٣: ١٠٨) في وصف سكة إصطفانوس: إنها موضع في البصرة، وإنها «أضيفت إلى كاتبٍ نَصراني من أهل البحرين.»

«أَفريم» هو اسم نصراني يشار به إلى ملفان السريان القديس أفرام الكبير، وقد عرف به أفريم أسقف الحيرة الذي ذكرَتْه هند الكبرى في كتابتها التي أوردناها في الجزء الأول (ص٩١).

«إيشوع» و«يشوع» ورد في الاسم الإضافي عبد يشوع كما سترى … وجاء مفردًا أيضًا لبعض أساقفة العراق كإيشوع برنون (كتاب المجدل، لماري بن سليمان، ص٧٥).

«إيليا» هو اسم إلياس الذي مر ذكره، ولعله على هذه الصورة شاع بين النصارى خصوصًا، وممن تسمى به إيليا أسقف نجران الذي ذكره ياقوت في معجم البلدان (٢: ٣٨)، وإيليا الكشكراني (المجدل، ٣٨).

«بولس» جاء في أعمال شهداء نجران أن ذا نؤاس لما دخل نجران غِيلةً وقَتَل أهلها نبش قبر أسقفها «بولس» المتوفَّى قبل ذلك بسنتين فأحرق رممه.

«جرجس» شهيد النصرانية المعروف، وبهذا الاسم عُرِف جرجس أسقف العرب الكاتب السرياني الشهير، وكان أسقفًا على بني طي في أواسط القرن السابع (Duval: *Littérature Syriaque*, p. 377).

«جُرَيْج»[١٢] وقيل: «جَرِيج» عُرِف به جريج الراهب (الطبري، ١: ٣٨٣؛ وسيرة الرسول، ٤٠٧)، وعبد الملك بن جُرَيْج، وشَبَث بن قيس بن جُرَيج (تاج العروس، ٢: ١٥)، وورد جُرَيْج بين أعلام اليمنيين (الاشتقاق، لابن دريد، ٣٢٩)، والاسم على رأينا شبيه بجرجس أو مُشتَقٌّ منه (اطلب: المُلحقات بتاريخ الطبري، Add. DLXXXIII)، وقد ورَد عند العرب على صورة جُرْجُه، قال في التاج (٢: ١٥): «بنو جُرْجَه المكيون.» ولعل بعض هذه الأسماء العربية مُشتقَّة عن اسم القديس جرجنسيوس رسول عَرَب اليمن وأسقف الحِمْيَريين (راجع [القسم الأول، الباب الخامس]).

«رُومان» عُرِف بهذا الاسم عند العرب بنو رُومان بطن من بني طي (ابن دريد في الاشتقاق، ٢٢٨)، وكان لنبي المسلمين مَولًى يُدْعَى رومان الرومي، ذكره في التاج (٨: ٣٢٠)، وذكر معه صحابيًّا يُدْعى رومان بن نعجة من الصحابة، وأم رومان بنت عَوَيمِر الكنانية هي والدة عائشة زوجة نبي الإسلام، وكذلك ذكر ابن سعد (ص١٩) في كتاب الوفود يزيد بن رومان، ولا نشك في أن هذا الاسم تعريب رومانوس أحد مشاهير القديسين في حدود العرب، وقد جاء على لفظه الأعجمي في تاريخ الطبري (١: ٢٢٠٢) حيث ذكر حروب المسلمين لنصارى الأنبار، فقال: إن قُضاعة كان عليها رئيسًا «رومانوس بن وَبَرة»، وكذلك ياقوت في معجم البلدان (٢: ٣٧٩)، ذكر «ابن رومانوس الكلبي»،[١٣] وقال هناك: إنه «كان أخا النعمان».

«سَرْجِس»[١٤] اسم شهيد عظيم استشهد مع القديس بكُّس أو باخوس على عهد مكسيميانوس المغتصب في أوائل القرن الرابع، وقد عرف العرب النصارى أمره، وكان على اسمه عدة أديرة (راجع: معجم البلدان، ٢: ٦٦٧، ومعجم ما استعجم، للبكري، ص٣٧٤). لا بل تسمى باسمه بعض نصارى العرب، فقد ذكر الطبري (١: ١٨١٢)

---

[١٢] ورد في صحيح البخاري (٣: ١٠٠) قصة رواها محمد عن جريج ناسكٍ من بني إسرائيل كان في صومعة اتهمته امرأة بالزِّنَا فبَرَّره طفلها الصغير وهو في المهد، ودل على الزاني بها.

[١٣] قال ياقوت (٢: ٣٧٩): إنه أخو النعمان لأمه، أمهما رومانوس، وروى له قوله:

مـا فَلاحِـي بعـد الأُلَـى عَمَّرُوا   الحيرةَ ما إن أرى لهم مِن باق
ولهم كان كلُّ مَن ضرب العيـ   ـن بنجدٍ إلى تخوم العراقِ

[١٤] جاء في نقائض جرير والفرزدق (ص٨١٩–٨٢٠) ذكر أبي كعب المسمى سرجس كان خازنًا للحجاج، وكذلك الأزرقي في تاريخ مكة (ص٤٣٥) ذكر خبرًا عن المهاجرين رفَعَه إلى نافع بن سرجس.

راويًا كان في بدء الإسلام دعاه موسى بن سرجس، وكذلك ذكر للزبير غلامًا باسم سرجس (١: ٣١٨٥)، وقد روى عبد المسيح بن إسحاق الكِنْدي في رده على الهاشمي (طبعة لندن، سنة ١٨٨٠م، ص٧٢) أن الذي تردَّد على محمد نبي الإسلام كان اسمه سرجيوس، ولقبه بُحيرا معناه العالم، وهو الذي أشار إليه في القرآن في سورة النحل (عدد ١٠٥) حيث قال عن المكيين: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾، ولعل اسم سرجون صورة أخرى من هذا العَلَم، وقد عُرِف في دمشق يوم فتح العرب «سرجون بن منصور الرومي»[١٥] الذي دعاه الطبري (٢: ٢٠٥ و٢٢٨) «كاتب معاوية وصاحب أَمْره»، وهو أبو القديس يُوحنًّا الدمشقي الذي عُرِف بابن سرجون أو سُمِّي بِجَدِّه ابن منصور وعنده كان ينزل الأخطل (الأغاني، ٧: ١٧٤)، وقد ذُكِرَ في الأغاني (١٤: ٩٤؛ و١٦: ٢٢) كَنَدِيم النعمان بن المنذر المُسمَّى «سرجون بن نوفل».

«سمعان»[١٦] و«شمعون» قلنا سابقًا (راجع [القسم الثاني، الفصل الثالث، الأعلام النصرانية المستعارة من الأسفار المقدسة]) إنه من المحتمل أن يكون أيضًا هذا الاسم نصرانيًّا محضًا، وذلك إما إشارة إلى القديس سمعان بطرس ويقال: شمعون الصفا هامة الرسل أو إلى سمعان العمودي الشهير بين العرب، وممن يضاف إلى مَن ذكرنا سابقًا «أوس بن سمعان» الصحابي (أُسْد الغابة، ٢: ١٤٦)، وأبو ريحانة شمعون بن يزيد الأزدي (التاج، ٥: ٤٠٣؛ وأُسْد الغابة، ٣: ٤)، وشمعون اسم لأساقفة وحُبَساء، اشتهروا قبل الإسلام في العراق وجهات العرب؛ كشمعون أسقف الأنبار في أيام الملك أنو شروان (تاريخ ماري بن سليمان، ed. Gismondi, 53)، وشمعون أسقف الحيرة (فيه، ص٥٦)، وشمعون بن صباعي الشهيد أسقف المدائن (ص١٦).[١٧]

[١٥] قال الطبري في تاريخه (٢: ٨٣٦): «كان يكتب لمعاوية على ديوان الخراج سرجون بن منصور الرومي.»

[١٦] وقد ورد هذا الاسم على صورة أخرى، ذكر ابن الأثير في أُسْد الغابة (٢: ٣٨٢) رجلًا اسمه سيمونه البلقاوي من أهل بلقاء نصراني وشماس، كان في أيام نبي المسلمين، قال عنه: إنه أسلم وعاش ١٢٠ سنة، وإنه حمَل قمحًا للمدينة وابتاع منها تمرًا، وممن عُرف بسمعان عبد الله بن سمعان التغلبي، ذكره صاحب اللسان (١٥: ٢١٩)، ولعله عبيد الله بن سمعان السابق، ذكره (ص٤٧٣).

[١٧] وهنا يجوز إقحام اسم آخَر لأحد شهداء النصارى بين العرب، نريد به القديس عبدون، كان أرسله ملك العجم سفيرًا إلى القيصر يوليانوس الجاحد مع رفيق له يدعى سنانًا، وكانا نصرانيين فعَرَض عليهما يوليانوس جحود دينهما فأَبَيَا؛ فقتلهما، وعِيدُهما في الكلندار الروماني في ٣٠ تموز.

«شمَّاس»[١٨] قد كثر هذا الاسم في الجاهلية وبه عُرِف بطن من تميم «بنو شَمَّاس»، ومنهم قيس بن شماس، ذكره في الحماسة، وشمَّاس بن عثمان بن الشريد الذي قُتل يوم أحد (الاشتقاق، لابن دريد، ص٦٤) وغيرهم أيضًا، والبعض يشتَقُّون هذا الاسم من شِماس الفَرَس؛ أي جموحه، ومن المحتَمل أن أصل هذا الاسم من السريانية **ܫܡܫܐ** بمعنى خادم الدين، والله أعلم.[١٩]

«عبد المسيح»[٢٠] هو أدل الأسماء العربية على نصرانية الذين تَسمَّوا به وعددهم بين العرب ليس بقليل، وأقدمهم عبد المسيح بن باقية بن جُرْهُم سادس ملوك جُرْهُم على مكة الذي ذكرناه في القسم الأول من كتابنا [الفصل الأول، الباب العاشر]، ومنهم عبد المسيح بن عسلة الذي روينا شعره في شعراء النصرانية (ص٢٥٤) نقلًا عن المفضليات، ومنهم عبد المسيح بن عمرو بن بقيلة الغساني، كان سيد أهل الحيرة وأحد المُعمَّرين، قال أبو حاتم السجستاني في كتاب المُعمَّرين (ص٣٨، ed. Goldziher): إنه «أدرك الإسلام فلم يُسلِم وكان منزله في الحيرة وكان شريفًا في الجاهلية.» وذكر له ياقوت في معجم البلدان (٢: ٦٧٧) دَيرًا بناه عرف باسمه كان بظاهر الحيرة وفيه وجد قبره وكان عليه مكتوبًا:

حَلبْتُ الدَّهر أشطُرُه حَياتي وَنِلتُ من المُنَى فوق المزيد
فكافحتُ الأمور وكافَحَتْني فلم أَخضَع لمعضلة كَئودِ
وكدتُ أنال في الشرف الثُّريَّا ولكنْ لا سبيل إلى الخلودِ

ولعبد المسيح هذا شعر روي في كتب الأدب سنجمعه إن شاء الله، وممن دُعوا باسم عبد المسيح الشاعر الجاهلي الشهير بالمُتَلَمِّس واسمه عبد المسيح بن جرير (راجع:

---

[١٨] قال ياقوت (٢: ٣١٧): إن محلة ببغداد المعروفة بالشَّماسِيَّة منسوبة إلى أحد شَمَّاسي النصارى، ولعل شَمَّاسِيَّة دمشق (التاج، ٤: ٤٢١) منسوبة إليه أيضًا.

[١٩] ممَّن فاتَنا ذكره هنا اسم «صلوبا»، وهو اسم نصراني محض، جاء في معجم البلدان في باب بانقيا من نواحي الكوفة (١: ٤٨٤) أن صاحبها «بصبهرى بن صلوبا، صالَح العرب عند ظهورهم في العراق على ألف درهم وطيلسان.»

[٢٠] وممن عُرِف بالجاهلية باسم عبد المسيح رجل ورد اسمه في عهد مَلِكهم عبد كلال، وذكر في الأغاني (٢٠: ١٢٨) عبد الحرث بن عبد المسيح الأوسي، قُتِل في مرج راهط في حرب قيس وتغلب.

شعراء النصرانية، ص٣٣٠)، ومنهم عبد المسيح بن الدَّيَّان من سادة نجران، قال الأعشى يمدحه وآله (شعراء النصرانية، ٣٨٢):

وكعبةُ نَجران حَتمٌ عليك   حتى تُناخِي بأبوابها
نَزورُ يزيدًا وعبدَ المسيح   وقيسًا وهم خير أربابها

وذكر ياقوت (٤: ٧٥٦) بين سادة نجران عبد المسيح بن دارس بن عدي بن معقل، وقال هناك: إن كعبة نجران كانت له وهي قُبَّة من أَدَم وثلاثمائة جلد يؤمن فيها الخلق ويرفد المسترفد وتُقْضَى حاجة كل طالب (قال): وكانت على نهر بنجران، ومن وفود نجران على نبي المسلمين أحد أساقفتهم يدعى العاقب، قال ابن سعد في كتاب الوفود (ص٧٦): إنه كان من كندة، وإن اسمه عبد المسيح، ومنهم أيضًا «عبد المسيح بن المؤهب» الذي روى له البحتري شعرًا في حماسته (اطلب: الصفحة ١٩٦، من طبعتنا)، هذا فضلًا عن أساقفة بهذا الاسم تَولَّوا رعية كنائس العراق، ورَدَ ذِكرُهم في تواريخ النصرانية وكان بينهم رجال من أصل عربي.

«عبد ياسوع»[٢١] ذكر صاحب التاج (٢: ٤١٢) هذا الاسم لأحد عرب الحيرة المعروفين بالعباد، وأشهر منه «عبد يشوع» أو «عبد إيشوع» على اللفظ السرياني، وبه عُرِف في جهات العراق قبل الإسلام عدة أساقفة ورهبان كعبد إيشوع الحبيس، ذكره ابن ماري في المجدل (ص٢١)، وعبد إيشوع الميشاني صاحب العمر (ص٢٨)، وعبد يشوع القناني رسول العرب «فيه».

«عدي» هو اسم شاع في الجاهلية وتَسمَّى به كثير من نصارى العرب كعدي بن زيد الشاعر النصراني الشهير (شعراء النصرانية، ص٤٣٩)، وعدي بن حنظلة (تاريخ الطبري، ٢: ١٠١٦)، وعدي بن أوس بن مارينا (فيه أيضًا ١: ١٠١٨)، وعدي بن حاتم الطائي (١: ١٧٠٦–١٧١٠)، وعلى ظَنِّنَا أن هذا الاسم أعجمي أصله أدي أو عدي كان أحد تلامذة المسيح ومُبشِّرًا لإيمانه بين الكلدان والعرب، وقد أفاض المُؤرِّخُون في ذِكْره.

[٢١] وممن عُرِف بهذا الاسم عبد ياسوع بن كرب بن سعد التغلبي، جاء ذكره في شعر القطامي (ص٧٦، من ديوانه):

وقد كنتَ تُدعَى عبد ياسوع مَرَّةً   وأخلفتَ والإخلافُ من سيئ الذِّكْرِ

ورد في الأغاني في ترجمة القطامي (٢٠: ١٢٨) اسمه سعدان بن عبد المسيح الذي قُتل في مرج راهط (ص٢٥٠).

«عيسى» هو اسم السيد المسيح في القرآن، ومن العجب العجاب أننا لم نجد ذكرًا لهذا الاسم بين أعلام العرب في الجاهلية، ولعل رسول الإسلام أخذه على هذه الصورة من يهود يثرب الذين رَوَوْه كذلك بغضًا بالنصارى وإشارة إلى عيسو.

«فراسية» ورد هذا العلم في مروج الذهب للمسعودي (ed, Barbier de Meynard, III, 200)، فقال هناك: إن المنذر بن امرئ القيس ملك الحيرة كانت أمه «الفراسيَّة» بنت مالك بن المنذر من آل نصر، وهذا الاسم نصراني بَحْت كما نَبَّه إليه الطابع (ص٤٥٠)، وهو تصحيف «أوفراسية (Euphrasie)» اسم عدة شهيدات نصرانيات.

«فيليبُّس» اسم أحد رسل السيد المسيح، وهو اسم فيليبُّس العربي أول القياصرة المُتَنَصِّرين (راجع [القسم الأول، الباب الثاني]).

«فيميون» هو اسم الراهب السائح الذي دخل نجران ونصَّرَها كما روينا في القسم الأول [الباب الخامس]، والاسم أعجمي لا محالة لعله مُعرَّب من اليونان Εὔφημος، أي البليغ والحسن النطق.

«قس» اسم معرب من السريانية وهو فيها ܩܫܝܫܐ أي الشيخ يدل خصوصًا على الكاهن النصراني وبه دُعي خطيب العرب أسقف نجران «قس بن ساعدة الإيادي» (اطلب: شعراء النصرانية، ص٢١١)، ومن إياد أيضًا كان المسمى الخس بن حابس أبو هند بنت الخس الإيادية (التاج، ٤: ١٣٧) الشهيرة بفصاحتها، وعلى ظننا أن «الخُس» هنا كالقُس.

«ماري» هو اسم التلميذ الذي دعا إلى الإيمان بالمسيح في جهات العراق وأنشأ على ما يقال كرسي المدائن، وبهذا الاسم عُرِف قبل الإسلام ماري الفارسي أسقف بيت أردشير (اطلب: المكتبة الشرقية، للسمعاني، ج٣، ص١٧١).

«مارية» هو اسم مَرْيَم على لفظه اليوناني، واختصت به نساء النصارى على هذه الصورة مشيرات به إلى العذراء الطاهرة، منهن «مارية بنت الحارث» الكندية قرينة المنذر ملك الحيرة ووالدة ابنه الأسود (الأغاني، ٢: ٣٢)، ومنهن مارية بنت الأرقم بن ثعلبة من ملوك بني جَفْنة الغسانيين (التاج، ١٠: ٣٤١)، وابنها الحارث الأعرج الذي فيه قال حسان:

أولادُ جَفنةَ حول قَبْرِ أبيهم　　قَبر ابن ماريةَ الكريمِ المفضلِ

ومنهن مارية بنت ظالم بن وهب أخت هند الهنود امرأة حجر الكندي، وأم عمرو بن الحارث صاحبة القرطين اللذين بحسنهما يُضْرَب المثل: «خذ ولو بقرطي مارية.» (أمثال الميداني ١: ٢٠٤)، ومنهن «مارية ابنة حنظلة»[٢٢] أم جابر بن أبجر سيد بني عِجْل النصاري (الطبري، ١: ١٠٣٣)، و«مارية بنت الصباح الشيبانية» من بني هند (الأغاني، ٦: ١٧٨–١٧٩) وابنها قيس بن شراحيل الذي فيه قال الحارث بن حلزة يشير إلى الصلح بين بكر وتغلب بعد حرب البسوس:

فَهلَّا سعيتَ لصُلْح الصديق كصلحِ ابن مارية الأقصمِ

ومنهن «مارية أمة هند ابنة النعمان» (الأغاني، ٢: ٣٢)، ومنهن أيضًا «مارية القبطية» ابنة شمعون التي أهداها صاحب مصر المقوقس إلى نبي المسلمين فَولدَت له ابنه إبراهيم (تهذيب الأسماء، للنووي، ص٨٥٣)، وذكر ابن عبد البر النَّمري القرطبي في كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب (ج٢، ص٧٨٣) أَمَتَيْن لمحمد اسمهما «مارية».

وممن دُعِينَ بهذا الاسم مارية الدارمية أم بني زرارة (فرائد اللآل، ٢: ٣١٤).

«مرقس»[٢٣] هو اسم أحد الإنجيليين وتلميذ بطرس زعيم الرُّسل، وبه عُرف أحد شعراء الحماسة (حماسة أبي تمام، ص٢٩٧، ed. Freytag)، وقد ضبط هناك بفتح القاف مرقس، (قال): واسمه عبد الرحمن المعني أحد بني مَعْن بن عتود.

«مريم» هذه صورة أخرى لاسم مريم العذراء، وفيه إشارة أيضًا إلى مريم أخت موسى، وممن تَسمَّى بمريم بين العرب مريم ابنة عثمان من زوجته نائلة ابنة الفرافصة النصرانية (الطبري، ١: ٣٠٥٦)، وله ابنة أخرى بهذا الاسم من أم عمرو (فيه)، كذلك ذكروا «مريم ابنة إياس الأنصارية» (الاستيعاب، ٢: ٧٨٢)، وقد تَكنَّى بأبي مريم[٢٤] عدة من العرب منهم أحد بني حنيفة «أبو مريم الذي قَتلَ زيدَ بن الخطاب.»

[٢٢] هي ابنة حنظلة بن ثعلبة بن سيار أم عشرة أحدهم جابر العِجْلي، حضرت واقعة ذي قار، وقطع أبوها وضينَها (نقائض جرير، ص٦٤٣).

[٢٣] ذكره المبرد في الكامل (ص٥٦٣)، وقال: إنه في طيئ، وإن اسمه عبد الرحمن، وقد روى له أبو تمام في حماسته شعرًا من الرجز (ص٦٩٧–٢٩٨)، ولعل اسم المُرقَّش الشاعر تصحيف اسم مرقس.

[٢٤] وقد روى في الأغاني (٢٠: ١١٧) أن الشاعر عبد الله بن أبي معقل الخزرجي في أيام بني أمية دعَا ابنة ابنته بِاسم مريم، وكذلك دعا بهذا الاسم ابنة ابنه مسكين. أما كُنْيَة أبي مريم فعُرِف بها كثيرون

(الاشتقاق، ٢٠٩)، و(أبو مريم البلوي) (تاريخ الطبري، ١: ٢٣٨٥)، وقد ورد الاسم على صورة مريام كأبي مريام الأسقف (الطبري، ١: ٢٥٨٤-٢٥٨٥).

«مَرينة» أو «مَرينا» اسم نصراني لإحدى الصالحات، وكان في الحيرة «قوم من أهل الحيرة يقال لهم: بنو مرينا ينتسبون إلى لخم وكانوا أشرافًا.» (الأغاني، ٢: ١٢)، وقد عدَّهم في محل آخر (٨: ٦٤) من «العباديين».

«ميكال» هو اسم ميخائيل الملاك الذي مر، وقد ورد في تاج العروس (٩: ١١٩) اسم جد البيت الميكالي بنيسابور فدعاه «ميكال بن عبد الواحد»، ورقَّى نسبه إلى ملوك الفُرس.[٢٥]

«هِرْمز»[٢٦] أو «هرمزد» أحد شهداء النصرانية في العراق، وبه تَسمَّى بعض نصارى العرب كهرمز أسقف مدينة عَمَّان الذي حضر المجمع الخلقيدوني وأثبت أعماله بإمضائه.

«هُود» أحد الأنبياء على ما يقال أُرْسِل إلى العرب، ومن المُحتمَل أنه اسم نصراني، وأنه صحف عن يهوذا أحد رسل السيد المسيح الذي يذكره القدماء كداعي العرب إلى النصرانية، ولعل اسم «هوذة» صورة أخرى لهذا الاسم عُرف به هوذة بن علي ذو التاج أحد بني حنيفة النصارى الذي ذكرناه سابقًا.

«الهَيجُمانة» كذا دعاها المسعودي في مروج الذهب (٣: ١٩٩ و٤٥١)، وسماها الطبري (١: ٨٨٢) الحَيْجُمانة، وهي أم ملك الحيرة النعمان بن امرئ القيس، وقال

منهم مَن ذكرهم ابن الأثير في أُسْد الغابة (٥: ٢٩٥) كأبي مريم الجُهَني عمرو بن مرة، وكأبي مريم الخَصِيِّ يُعَد في الشاميين، وأبي مريم السَّكُوني، وأبي مريم السَّلُولي مالك بن ربيعة، وأبي مريم الغَسَّاني، وأبي مريم الكندي، وذكر أبو بشر محمد الدولابي في كتابه الكنى والأسماء (١: ٥٣) أبا مريم الأزدي، وأبا مريم الحنفي الذي كان مع مسيلمة، وأبا مريم إياس بن صبيح، وأبا مريم إياس بن جعفر بن الصَّلْت وغيرهم أيضًا.

[٢٥] وفي باب النون يجوز أن نذكر اسمًا آخر نصرانيًّا وهو اسم نَسطاس أو أَنسطاس، وجاء في التاج «نَسطاس قال (٤: ٢٥٨) نسطاس بالكسر أهمله الجوهري، وهو علم، ونسطاس بالرومية العالم بالطب (كذا) نقله الصاغاني، وعبيد بن نسطاس العامري البكائي الكوفي مُحدِّث.» وذكر في الأغاني (٤: ٤٢؛ و٦: ١٠٣) نسطاس مولى صفوان بن أمية، وكذلك ذكر (٧: ١٧٥) «أبا نسطوس والأخطل».

[٢٦] ممن عُرِف بهذا الاسم النصراني رجلان من الصحابة هُرْمز القبطي (أُسْد الغابة، لابن الأثير، ١: ٤١) كان مولى لنبي المسلمين، تُوفِّي سنة ٤٠ للهجرة، ثم هُرْمُز الفارسي (٥٨٥م)، ومثلهما هرماس وهو أبو جدير هرماس بن زياد الباهلي (٥: ٥٧).

الطبري: إنها كانت ابنة عمرو بن أبي ربيعة بن ذهل، واسمها أعجمي يوافق اليونانية Ἡ'Ὑουμένη، ومعناها الرئيسة والسيدة.

«يُحنَّه» اسم نصراني شهير، وقد اشتهر به ملك أَيْلة «يُحنَّه بن رؤبة» الذي كتب إليه رسول الإسلام يدعوه إلى طاعته (راجع: كتاب الوفود، لابن سعد، ٢٧: ١٧، ed. Wellhausen,)، وكتبه الطبري (١: ٢٣٧٤) «يَوحَنَّه بن رؤبة»، وورد في التاج (٩: ١٨٥) اسم «حَنَّة» كوالد عمرو الصحابي، وهي صورة أخرى للاسم ذاته.

«يونس» مر بك أنه تعريب اسم يونان النبي، ولا شك في أنه اسم يوحَنَّا على لفظه اليوناني فشأنه أن يُحرَّك يُونِّس Ἰωάννης، لا سيما إذا كان المتسمون به من النصارى، وتجد في تاريخ نصارى العراق ممن دعوا بهذا الاسم وهم يكتبونه يُوانيس (راجع: تاريخ ماري بن سليمان، ص٧٦ و٨٣ و٩٩)، وقد ذكر ياقوت (٢: ٧١٠) بين أديار مصر «دير يُحَنِّس» وهو أقرب إلى الأصل.

(٤) الأعلام النصرانية الوصفية والمعدول بها والمُعرَّبة

هو الضرب الأخير من الأسماء التي تَسمَّى بها بعض نصارى العرب في الجاهلية، فمنها ما هو صفة مَحْضَة كصفات شائعة في زماننا، مثل نجيب وأنيس إلا أنها أدل على أحوال النصارى ومعتقداتهم، ومنها ما عدل به عن منعوت نصراني أو نُقِل معناه إلى العربية، ولا نطرق هذا الباب إلا بكل حذر لئلَّا ينسبنا القارئ إلى المُبالَغة، ولعل غيرنا يتسع فيه.

«امرؤ القيس» لا بِدْعَ أن بعض نصارى الجاهلية دُعُوا بهذا الاسم، ولعل أقدمهم هو امرؤ القيس المعروف بالبدء الذي ذكر ابن الكلبي وابن خلدون (راجع [الجزء الأول، الفصل الأول، الباب السابع]) أنه أول مَن تَنصَّر من ملوك آل نصر في العراق، ومنهم امرؤ القيس الشاعر الكِندي الذي أثبتنا نصرانيته في مقالة سابقة ردًّا على حضرة الأب أنستاس (المشرق، ٨، ١٩٠٥م، ٩٩–١٠٠٦)، ولعل سائلًا يسأل: وما أصل هذا الاسم؟ قد أجاب الكاتب المُتفنِّن جُرجِي أفندي زيدان في «كتاب العرب قبل الإسلام» (ص١٦٦) أن هذا العَلم أحد الأسماء «التي اقتبسها العرب من الأمم المجاورة لهم كاليونان والسريان، وقد حَرَّفوها»، (قال): «فامرؤ القيس مثلًا نظنه تحريف ماركوس (مرقس)، وربما تعمدوا تحريفه ليكون له صبغة عربية ... ويؤيد ذلك أن هذا الاسم (امرؤ القيس) لم يكن معروفًا عند العرب قبل النصرانية أو قبل مُجاورَتِهم اليونان.» هذا رأي رصيفنا جُرجِي أفندي ويا ليته صحيح، لكنه لا يقنعنا، والمُرجَّح ما يقوله المستشرقون أن الاسم

مركب من «امرؤ» و«قيس»، أي رَجُل قيس أو عابد قيس من معبودات العرب القديمة، وقد بقي الاسم مع سقوط معناه الوثني، والله أعلم.

«بَحير أو بَحيرا» على رأينا أن هذين الاسمين بمعنى واحد، وأنهما من السريانية «ܒܚܝܪܐ» ومعناه الرجل الحاذق والعالم، والأغلب أنه لقب، وقد عرف بهذا الاسم بحيرا الراهب الذي اجتمع بمحمد صاحب الشريعة الإسلامية، وكان اسمه سرجيوس كما قلنا، وذكر في أُسْد الغابة لابن الأثير (١: ١٦٧) رجلًا آخر شآميًّا بهذا الاسم قدم على رسول المسلمين مع سبعة آخرين، وكذلك اسم بَحير كان شائعًا في الجاهلية، ذكر في تاج العروس (٣: ٢٩) أربعة من الصحابيين بهذا الاسم أشهرهم بَحير بن أبي ربيعة المُسمَّى عبد الله، وبحير الأنماري.

«بشر وبشير» كلا الاسمين كان شائعًا في الجاهلية، وكثر في القبائل التي مر بيان نصرانيتها كبشر بن الحارث الصحابي، وبشر بن المُعلَّى سيد بني عبد القيس النصارى المعروف بجارود (الاشتقاق، لابن دريد، ١٨٦)، وبشر بن أبي خازم الأسدي الشاعر، وبشير الكعبي أحد بني الحارث بن كعب أصحاب نجران النصارى (أُسْد الغابة، ١: ٢٩٣)، وعلى رأينا أن في هذا الاسم إشارة إلى اسم البشارة أو أنه استعير من الآرامية بهذا المعنى فاتخذه النصارى في الجاهلية كما يدعون اليوم باسم بشارة وبشير.

«البَعِيث» هو اسم بعض أهل الجاهلية النصارى، أخصهم بعيث بن حريث الحنفي، وبعيث بن رزام التغلبي، وأشهر منها بعيث اليشكري الشاعر، واسمه خداش بن بشير من بني مجاشع، واسم أمه وردة، قالوا: إنه دُعِي بعيثًا لقوله:

تَبعَّث مِنِّي ما تَبعَّث بعد ما أُمِرَّتْ قواي واستمرَّ عزيمي

وعندنا أن لهذا الاسم علاقة مع البَعث؛ أي المنبعث من الموت كما دعا نصارى الغرب بهذا المعنى Anastase، ونذكر أن الأب أنستاس الكرملي أَتحفَنا في المشرق بمقالة تحت إمضاء «البَعيث الخضري»، وهو تَعْريب اسم حضرته الكريم.

«توبة» هو اسم يشعر بزهد النصارى تسمى به في الجاهلية أو في أوائل الإسلام توبة بن عمران الأسدي (ياقوت، ٣: ١٠٥)، وتوبة السلولي واسمه عبد الملك (فيه، ١: ٥٨٧)، وتوبة بن الحمير الخفاجي الشاعر (الأغاني، ١٠: ٦٧).

«ثابت» شاع هذا الاسم في أواخر عهد الجاهلية، ولا سيما بين القبائل المُتَنَصِّرة من تَنوخ، وعَبْد قيس، وتميم، وثعلبة وغيرها، ولعله أحد الأسماء المنقولة عن الأعلام النصرانية الأجنبية كمثل Constans اللاتينية، أو Firmus.

«جابر» مما دُعِي به بعض النصارى في الجاهلية كالشاعر التغلبي جابر بن حُنَي (شعراء النصرانية، ص١٨٨)، وجابر بن شمعون[٢٧] أسقف الحيرة في أيام النعمان بن المنذر (الأغاني، ٢: ٢٦)، لعله من الأسماء المستعارة من أوصاف اللاهوت كجبر وجبار وجبرئيل كما مر.

«الحارث»[٢٨] أحد الأعلام التي استحبها النصارى في الجاهلية فتَسمَّى به مُلوكهم الغسانيون وكثيرون من أساقفتهم الذين وقعوا على أعمال المجامع بهذا الاسم منقولًا إلى اللاتينية Aretas، ومن رؤساء قبائلهم كالحارث بن كعب الذي ذَكَرْنا وصيته إلى أبنائه (ص١٢٨) أو كصاحب نجران المستشهد على عهد ذي نواس (ص٦٠)، واشتهر أيضًا الحارث بن عَبَّاد شاعر بني بكر وسيدهم (شعراء النصرانية، ص٢٧٠)، والحارث بن حِلِّزَة البكري (شعراء النصرانية، ص٤١٦)، وأبو الحارث الأسقف أحد وفود اليمنيين على محمد في السنة ٩ للهجرة (الطبري)، أما أصل هذا الاسم فليس بثابت، وقد زعم الكاتب الأديب جُرجِي أفندي زيدان في كتابه «العرب قبل الإسلام» (ص١٦٦) أنه مُعرَّب من اليونانية (قال): «فالحارث يجوز أن يكون ترجمة جيورجيوس اليونانية، ومعناها العامل بالأرض.» وفي قوله نظر لأن هذا الاسم سبق عهد النصرانية وبه عُرِف ملوك من النَّبَط.

«حَبيب» هو عند النصارى لقب للرسول يُوحَنَّا بن زبدي؛ لأن السيد المسيح خصَّه بمحبته بين تلاميذه.[٢٩] وعلى ظننا أن النصارى الذين سُمُّوا به أشاروا إلى ذاك الرسول، ومنهم مَن ذكروا في جملة الصحابة (راجع: أُسْد الغابة، لابن الأثير، ١: ٣٦٨–٣٧٥)، ومن شهداء النصارى في مدينة الرُّهَا على عهد ديوقلطيانوس المُسمَّى بحبيب استشهد مع كورياس وشامونا (BHO, p. 84)، وعُرِف به شهيدان آخَران في صور وفي العراق في أيام سابور، وبينهم واحد نُسِبَ إليه دير حبيب (ياقوت، ٢: ٦٥٣).

[٢٧] كان أسقفًا على الحيرة، وهو من أسرة أوس بن قلَّام الذي كان حاكمًا على تلك المدينة.

[٢٨] ومن النصارى المعروفين بهذا الاسم الحارث بن عبد الملك بن ربيعة ذو الرمحين المخزومي القرشي، وكان اسمه بُجَيرًا، فلما أسلم سماه رسول الإسلام عبد الله، وكانت أمه نصرانية وهي ابنة أبرهة الحبشي، ماتت على نصرانيتها والصليب في رقبتها فجَنَّزها أهل دينها (راجع: تاريخ دمشق، لابن عساكر، ٣: ٤٤٨).

[٢٩] وفي شرح المفسرين للقرآن يدعونه «حبيبًا النجَّار»، وقالوا: إن ما ورد في سورة يس ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ يراد به حَبيب النجار (أي يُوحَنَّا الحبيب) ويعقوب وسمعان بطرس.

«حكيم» من المحتمل أن الذين دعوا في الجاهلية باسم حكيم كحَكيم بن حزام بن خُوَيْلد (اشتقاق ابن دريد، ٥٨)، وحكيم بن قَبيصة بن ضرار التغلبي (حماسة أبي تمام، ص٧٩٢؛ وحماسة البحتري، ص٦١)، وحَكيم بن جبلة العبدي من بني عبد القيس (أُسْد الغابة، ١: ٣٩)، وغيرهم إنما أُشِير بأسمائهم إلى سليمان الحكيم.

«خالد» هو أيضًا أحد الأسماء التي تُشْعِر باعتقاد النصرانية بالآخَرة وخلودها، فلا عجب أن يكون النصارى دعوا به أولادهم في الجاهلية كخالد بن سنان العبسي النبي الذي كان يدعو قومه إلى النصرانية (راجع [الفصل الثاني: في قبائل العرب المنتصرة])، وخالد بن عمرو الشيباني (حماسة البحتري، ص٣٦)، وخالد بن حِق الشيباني (سيرة الرسول، ٤٦)، ومن المحتمل أيضًا أنهم عربوا ذلك من أعلام نصرانية يونانية ἀΐδιος، أو رومانية Perennis, Perpetuus, f. Perpetua، ومثل خالد تسميتهم بخالدة وخُلدة وخُوَيْلد وخليدة وخَلَّاد (أُسْد الغابة، ١: ١١٩–١٢٢ و١٢٧).

«الخِضْر» هذا الاسم الذي اختلف فيه المسلمون أيَّ اختلاف فقالوا: إنه النبي إلياس أو النبي اليشاع أو النبي إدريس أو القديس جرجس وجعلوه من غلمان موسى في شرحهم على سورة الكهف لم نَجِدْ له أثرًا بين أعلام الجاهلية، ولو كان قديمًا لدُعِي به أحد النصارى أو اليهود قبل الإسلام، وقد زعم البعض أنه تعريب Horus.

«الخليل» اسم إبراهيم أبي المؤمنين الذي اصطفاه الله وأحبه، ورَدَ هذا الاسم في شعر ورقة بن نوفل الراهب النصراني (اطلب: شعراء النصرانية، ص٦١٨):

تُلاقِي خليلَ الله فيها ولم تَكُن   من الناس جبَّارًا إلى النار هاويا
فأصبحتَ في دارٍ كريمٍ مقامُها   تُعَلَّل فيها بالكرامة لاهيا

وجاء في القرآن في سورة النساء (٤: ١٢٤): ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾. وسبقه السموءل فقال (راجع: ديوانه الذي طبعناه، ص٣٠):

فهذا خَليلٌ صَيَّر الناس حوله   رياحين جَنَّات الغُصونِ الذَّوابلِ

«سَعد وسَعيد وأَسْعَد» دُعِي بهذه الأسماء بعض نصارى العرب في الجاهلية كسَعد بن مالك أبي المُرقَّش الذي دفع ابنه إلى أحد نصارى الحيرة ليعلمه الخط (الأغاني، ٥: ١٩١)، وسعد بن الضباب صاحب امرئ القيس (٨: ٧١)، وسعد الذي نُسِب إليه دَيْر

سعد (ياقوت، ٢: ٦٦٩)، وأسعد بن زرارة (أُسْد الغابة، ١: ٧١)، فلا يبعد أن النصارى اتَّخَذُوا هذه الأسماء مُعرَّبة عن لغات الشعوب المُجاوِرة كاسم الشهيد Felix مثلًا، وإلى هذا الباب يَعُود اسم سعدان وبه سُمِّي «سعدان بن عبد يسوع» المذكور في الأغاني (٢٠: ١٢٨) في حروب قيس وتغلب.

«سالم» نجد هذا الاسم لأحد أساقفة بلاد العرب الذي حضر المجمع الخلقيدوني، ووقَّع على أعماله في اليونانية Σωλήμος (راجع: الشرق المسيحي، Lequien: *Oriens Christanus*, II, 866).

«سنان» أحد أعلام نصارى العرب، وقد عرف به الشهيد القديس سنان رفيق القديس عبدون في استشهاده على عهد يوليانوس الجاحد.

«صالح» هذا الاسم سَبَق الإسلام، ومُؤرِّخُو العرب يَزعُمون أن نبيًّا بهذا الاسم أُرْسِل إلى قوم ثمود يدعوهم إلى الله وإلى نَبْذِ عِبادة الأصنام واجترح الآيات تأييدًا لدعوته فأبى أكثرهم أن يَرْعَوُوا عن غَيِّهم فضَرَبَهم ضربة عظيمة وأهلكهم إلا الذين آمنوا فتوَجَّه بهم إلى مكة، وليس بالمستبعد أن النبي المذكور أحد دعاة النصرانية الذين سبق لنا ذكرهم، وما يؤكده كتبة العرب (راجع: سيرة الرسول، لابن هشام، ص٢١، ed. Wüstenfeld) أن فيميون الذي دعا أهل نجران إلى النصرانية صحبه في دعوته ولزمه رجل اسمه صالح من عرب الشام، وذكر في أُسْد الغابة (٣: ٩) مولًى لرسول المسلمين يدعى صالحًا كان أصله من نصارى الحبش، وكذلك ذكر ابن دريد في الاشتقاق (ص٥٨) صالح بن عبد الله قال: «قتل بقُدَيد وكان صالحًا دَيِّنًا.» فهذا الاسم على ما نرى مستعار من اعتقاد نصراني أو هو مُعرَّب عن اسم أجنبي نحو Justus، أو Innocens، أو Pius.

«صَخْر» أحد أعلام الجاهلية المستفيضة فهو بمثابة كيفا ܟܐܦܐ السريانية، وPetrus اللاتينية، والصفا العربية، وهو الاسم الذي ميز به السيد المسيح هامة رسله؛ إذ جعله كصَفاة عليها تُبْنَى بِيعَتُه، وليس لدينا برهان قاطع على أن العرب أرادوا باسم صخر الإشارة إلى القديس بطرس كما زعم جرجي أفندي زيدان (في كتاب العرب قبل الإسلام، ص١٦٦)، حيث قال: إن العرب تَرْجَموا الأسماء اليونانية فتسموا بها، وضرب مثلًا على ذلك اسم الحارث كما مر، واسم «صخر»، فقال: إنه «ترجمة بطرس.»

«مالك» نظن أن هذا الاسم بين نصارى الجاهلية إما مُعَرَّب عن اليونانية، وإما مشير إلى أحد أولياء النصارى، والدليل على الأول ما رويناه سابقًا [الفصل الأول، الباب السابع] عن أحد أمراء العرب الوافدين على القديس سمعان العمودي سماه الكاتب

Basilicus؛ أي مالكًا، والدليل على الثاني اسم رجلين من نُسَّاك النصارى اشتهرا باسم Malchus فيما بين النهرين والعراق (BHO, pp. 131-132).

«مُحَمَّد»[٣٠] مر في الفصول السابقة [الفصل الأول، الباب العاشر، افادات وإصلاحات] أن اسم محمد من أعلام زمن الجاهلية، وأن النصارى عُرِفُوا به كمُحمَّد بن سفيان بن مجاشع أحد أساقفة تميم، وكذلك محمد بن حمران من نصارى مَذْحِج، ومحمد بن خُزاعِي من ذكوان، ومحمد أحد بني سليم (Sprenger I, 161)، وهذا الاسم يشبه بمعناه عدة أسماء يونانية لرجال اشتهروا في بلاد العرب أخصهم أوتيميوس رسول العرب، وأودوكسيوس أحد الشهداء الأولين، فمن المحتمل أن يكون عُرِّب من بعضها.

«منصور» نجد هذا الاسم بين أعلام الجاهلية، منهم في بني إياد النصارى؛ منصور بن يقدم بن أفصى بن دعمي بن إياد، ومن بني ربيعة منصور بن جعونة، قال ابن دريد في الاشتقاق (ص١٨٠): «كان شريفًا بالشام سيدًا.» ومن قُضاعة منصور بن جمهور من رجال كَلْب، واشتهر في دمشق ابن منصور في عهد بني أمية، وهو القِدِّيس العلامة يُوحَنًّا الدمشقي، وليس بالمستبعد أن يكون هذا الاسم مُعرَّبًا من اسم يوناني مثل Nicon, Nicolas، أو لاتيني مثل Vincent, Victor.

(٥) الأعلام النصرانية الجغرافية

نضيف إلى أعلام الأشخاص النصرانية الأعلام الجغرافية التي تدل على مَعرفة العرب لَمزارات النصارى وإكرامهم لها.

«أُوريشَلِم»[٣١] عاصمة اليهود قبل المسيح أَضحتْ بعده مدينة مُقدَّسة يكرمها النصارى ويَتبَرَّكون بزيارتها، والعرب لم يدعوها بعد الإسلام بهذا الاسم وإنما جاءت على هذا اللفظ القديم في شعر الأعشى، قال (معجم البلدان، ١: ٤٠٢؛ واللسان، ٥: ٩٦):

---

[٣٠] وكما دعي بعض النصارى في الجاهلية باسم محمد كذلك تَسمَّوا بأحمد، والدليل عليه أبيات رواها أبو تمام في الحماسة لوضاح بن إسماعيل بن عبد كُلَال بن داود بن أبي أحمد يخاطب بها العجاج، فعبد كُلَال، وداود اسمان نصرانيان فلا شك أن اسم أحمد نصراني أيضًا.

[٣١] روي في اللسان (١٥: ٢١٨) لابن خالويه «أنه جاء لبيت المقدس عدة أسماء منها شَلْم وشَلَم وشَلِم وشَلَّم وأوريشَلم (بيت الأعشى) ويقال: إيليا، وبيت المقدس، وبيت المكياش، وبيت الضرب، وصلمون (كذا).»

وطَوَّفتُ[٣٢] للمالِ آفاقَه عُمانَ فَحِمْصَ فأُريشَلِمْ
أتيتُ النجاشيَّ في داره وأرضَ النَّبيطِ وأرضَ العَجمْ

ورَوَوا: أُوريسَلِم وأُوراسَلَمْ، وذكروا حديثًا لعطاء (اللسان، ٥: ٩٦): «أَبْشِري أُورَى شَلَّم براكب الحمار.» قالوا: يريد بيت المقدس، وهذا الحديث منقول عن نُبوَّة زكريا في السيد المسيح ودخوله إلى أورشليم (مَتَّى، ٢١: ٥): «قولوا لابنة صهيون هو ذا ملك يأتيك وديعًا راكبًا على أتان وجحش ابن أتان.»

«إيلياء» هو اسم آخَر لبيت المقدس لكنه روماني الأصل، دعاه به أدريانوس الملك بعد محاربته لليهود في القرن الثاني للمسيح فخَرَّب بقايا المدينة اليهودية وشَيَّد هيكلًا للمُشْتَري ودعا المدينة لذلك Ælia Capitolina، وروى ياقوت أن معنى إيلياء: بيت الله، والصواب أنها مُشْتَقَّة من اسم أسرة القيصر أدريانس المدعوة إيليا، وأنشد في معجم البلدان (١: ٤٢٤) لبعض الأعراب يصف بَعِيرَه وسيره الحثيث في جهات فلسطين:[٣٣]

فلو أن طيرًا كُلِّفَت مثل سَيره إلى واسط من إيليا لكَلَّتِ
سمَى بالمهاري من فلسطين بعدما دنا الفيء من شمس النهار فَولَّتِ
فما غاب ذاك اليوم حتى أناخَها بميسان قد حُلَّت عُراها وكَلَّتِ

وكذلك دعاها الفرزدق بهذا الاسم فقال (ياقوت، ١: ٤٢٤):

وبَيتان بيتُ الله نحن وُلاتُه وقَصْر بأعلى إيلياء مشرفُ

«سدوم» مدينة ورَد ذِكْرُها في سفر التكوين عاقَب الله أهلها لمآثمهم، وقد عرف العرب في الجاهلية أمرها فقال عمرو بن دراك العبدي (في التاج، ٨: ٣٣٥؛ واللسان، ١٥: ١٧٧):

وإنِّي وإن قَطعتُ حبالَ قيس وخالفتُ المُرونَ على تميمِ
لَأعظمُ فَجْرةً من أبي رِغالٍ وأَجْوَرُ في الحكومة من سَدومِ[٣٤]

[٣٢] ويروى: وقَدْ طُفتُ.

[٣٣] ذكر في التاج (٥: ١٩٩) لعدي بن الرَّقَّاع قوله:

فكأنِّي مِن ذِكْرِهم خالَطَتْنِي من فلسطينَ جَلْسُ خَمرٍ عُقارُ

[٣٤] يريد بأبي رِغال أحد مُلوك الطائف الذي دلَّ الحبشة على الكعبة يوم أتوا ليخربوها، ويُروَى: لأعظم صفقة من شيخ مَهْو.

وقال أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت (صحاح الجوهري، ٢: ٢٩٧):

كذلك قومُ لوط حين أَمْسَوا[٣٥] كعَصْف في سَدُومِهمُ رَميمِ

«سِينا» قال ياقوت (٣: ٢٢٠): «موضع بالشام يضاف إليه الطور فيقال: طور سيناء، وهو الجبل الذي كَلَّم الله تعالى عليه موسى بن عمران عليه السلام ونُودِي فيه.» وورد هذا الاسم في القرآن قال في سورة المؤمنين (٢٣: ٢٠): ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ﴾ . وربما دُعِي بالطور دون إضافة كقوله (في سورة مريم، ١٩: ٥٣): ﴿وَنَادَيْنَاهُ﴾ (أي موسى) ﴿مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾، ومثله قوله عن رؤيا موسى للعوسجة (سورة القصص، ٢٨: ٢٩): ﴿آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾.

«صِهْيون»:[٣٦] إحدى تلال القدس الشريف التي احتلها الملك داود ويراد بها مجازًا مدينة القدس أو إحدى كنائسها، وقد ورد الاسم في شعر الأعشى، قال يمدح يزيد، وعبد المسيح ابني الديَّان، وقيل: يمدح السَّيدَ والعاقب أسقفي نجران (ياقوت، ٣: ٤٣٨):

ألا سَيِّدَي نجران لا يُوصَيْنكما بنجران فيما نابَها واعتراكما
فإنْ تَفعلَا خيرًا وتَرْتَديا به فإنكما أهل لذاك كِلاكُما
وإن تَكْفِيَا نجران أمْرَ عظيمةٍ فقَبْلَكما ما سادها أَبواكُما
وإن أحلَبتْ صهيون يومًا عليكما فإنَّ رَحا الحرب الدَّكُوك رَحاكُما

(القُدْس والمَقْدِس ويقال بيت المَقْدِس)[٣٧] من أسماء مدينة القدس الشريف، قال مروان بن الحكم يتهدد الفرزدق (الأغاني، ٢١: ١٩٧):

قُل لِلفَرَزْدَق والسَّفَاهةُ كَاسْمِها إنْ كنتَ تاركَ ما نَهيتُكَ فاجلِسِ
ودَعِ المدينةَ إنها مذمومةٌ واقْصِد لمكَّةَ أو لبيتِ المَقدسِ

---

[٣٥] روى ياقوت (٣: ٥٩): حين أَضْحَوا.

[٣٦] قال في التاج (١٠: ٢١٧): «صهيون يراد بها الروم.» ونسب هذا القول إلى ياقوت، والصواب أن ياقوت روى ذلك عن أبي عمرو وأصلحه بقوله: «قلت: هو موضع معروف بالبيت المقدس محلة فيها كنيسة صهيون.» (معجم البلدان، ٣: ٤٣٨).

[٣٧] ومما ورد في بيت المقدس قول المعلى بن المطرف (الأغاني، ٤: ٣٥٤):

روى في التاج (٤: ١٢٣) لشاعر يخاطب ناقته:

لا نومَ حتى تهبطي أرضَ العُدُسْ وتَشربي من خَير ماء بِقُدُسْ

وورد في شعر العجاج (ص٨٠، ed. Ahlwardt):

ضَراغمٌ تَنفي بأَخذ هَمْسِ عن باحةِ البطحاء كُلَّ جَرْسِ
حتى تَزولَ هَضباتُ قُدْسِ

وقد مر بك [القسم الثاني، الجزء الأول، مفردات نصارى العرب الدالة على رؤسائهم ورهبانهم] أنهم كانوا يدعون بالمُقَدِّس الزائر لبيت المَقْدِس ويتباركون بثوبه كما أشار إلى ذلك امرؤ القيس في وصف كلاب تنهش الثور:

فَأدرَكْنَه يأخذُنْ بالساق والنَّسا كَمَا شَبْرَقَ الوِلْدانُ ثَوبَ المُقَدِّسِ

يا صاحِ إني قد حَجِجتُ وزرتُ بيتَ المَقْدِس

ومن الأمكنة التي في لفظها إشارة نصرانية «أسقف» قال ياقوت (١: ٢٥٢) هو موضع بالبادية كان به يوم من أيامهم، وأنشد لعنترة:

فإن يكُ عِزٌّ في قُضاعة ثابتٌ فإن لنا في رَحْرَحَان وأسقُفِ

فلا يبعد أن يكون اسم هذا المكان مستعارًا من اسم أحد أساقفة العرب النصارى.

الفصل الرابع

الأحداث النصرانية بين عرب الجاهلية

ظهر من الفصول السابقة ما استمده عرب الجاهلية من النصارى في مُفرداتهم اللغوية وأعلامهم الشخصية، وفي هذا الفصل الجديد نبين ما أخذوه عنهم من معارفهم التاريخية، سواء جرت في العهد القديم من أول العالَم إلى السيد المسيح أو من ميلاد المسيح إلى الهجرة، فنُقَسِّم الفصل قسمين وفقًا لهذين الطَّوْرين:

(١) أحداث العهد العتيق

أَمكنَ العربُ أن ينقلوا أخبار العهد العتيق عن اليهود أو عن المسيحيين إلا أنَّنا نروي هنا ما قاله الشعراء النصارى أو مَن عاشوا في جِهات الجزيرة التي ازْدهرَت فيها النصرانية، واليهود كما لا يخفى قَلَّما يختلطون بأُمم غريبة عنهم، وزِدْ عليه أن الأسفار الإلهية والأناجيل المُقدَّسة كما يظهر من عدة شواهد تُؤيِّد ذلك كانت مُعرَّبة وإن كانت تلك الترجمة القديمة هي اليوم مفقودة، وها نحن نَتتبَّع تلك الأحداث مع ما يُنوَّه بها من أقوال العرب.

(١-١) التكوين

هو أول ما تُفتَتح به توراة موسى، حيث يذكر أولًا خلق الله عز وجل للسماء، ثم الأرض مباشرةً بالجماد ثم النبات ثم الحيوان، أما تكوين السماء فقد مَرَّ ذِكرُه فيما أوردناه من الألفاظ الدالَّة على الخالق — سبحانه وتعالى — ثم السماء وزينتها وعلى الأرواح الساكنة فيها (المشرق، ١٦، ١٩١٣م، ٢٢٩ و٢٩٢)، فبقي تكوين الأرض في سبعة أيام الخليقة. فمِمَّا جاء من ذلك ما رواه المَقْدِسي (كتاب البدء، ١: ١٥٠–١٥١)، فقال: «وقد

ذكَرَتْ حكماء العرب ومن كان يدين الله (كذا)، منهم بدين الأنبياء في أشعارها وخُطَبِها كيف كان مبدأ الخلق» فمنه قول عدي بن زيد،[1] وكان نصرانيًّا يقرأ الكتب:

اسمعْ حديثًا لكي يَومًا تُجاوِبُه … عن ظَهْرِ غيبٍ إذا ما سائلٌ سأَلَا
أنْ كيف أبدى إله الخَلْقِ نِعمته … فينا وعرَفْنا آياتِه الأُوَلا
كانتْ رياحًا وماءً ذا عُرانِيَةٍ … وظلمةً لم يَدعْ فَتقًا ولا خَلَلا
فآمر الظُّلمةَ السوداءَ فانكشفَتْ … وعزَّل الماءَ عمَّا كان قد شغلا
وبَسطَ الأرضَ بسطًا ثم قَدَّرها … تحتَ السماء سواء مثل ما فعلَا[2]
وجعَل الشمسَ مصرًا[3] لا خفاءَ به … بين النهار وبين الليل قد فَصلَا[4]
قَضى لِستَّةِ أيامٍ خلائقَه … وكان آخِرُ شيء صَوَّر الرَّجُلَا

روى في تاج العروس (٣: ٥٤٣) البيتين الخامس والسادس لأُمَيَّة بن أبي الصَّلْت، وكذلك ابن سيده في المخصص (١٣: ١٦٤)، روى البيت السادس لأمية إلا أن شهادة كتاب البدء، وكتاب الحيوان للجاحظ (٤: ٦٥) أقدمُ وأصحُّ، وكلاهما يروي الأبيات لعدي بن زيد.

وروى في كتاب البدء (١: ٦٥)، وفي سيرة الرسول (ابن هشام، ص١٤٨) لزيد بن عمرو بن نوفل في تكوين الأرض قوله:

وأسلمتُ وجهي لمن أسلمتْ … له الأرضُ تَحمِلُ صخرًا ثِقالا
دَحاها فلمَّا رآها اسْتَوَت … على الماء أَرْسى عليها الجبالَا

---

[1] هذه الأبيات وما يلحق بها في الصفحة ٢٥٧ ينسبها البعض إلى أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت، تجدها مع بعض روايات مختلفة في خطط المقريزي، طبعة بولاق، ١: ٢٢، وفي الطبعة الجديدة ١: ٣٤.

[2] رواه في تاج العروس (٣: ٥٤٣) على صورة أخرى:

والأرضَ سَوَّى بساطًا ثم قدَّرَها … تحتَ السماء سواء مثل ما ثَقَلا

قال ابن السكيت في شرحها في إصلاح المنطق (ص٤١): يقال: ثقلتُ الشيء إذا رفعتُه، ويقال: اثْقَل هذا الشيء؛ أي زِنْه وانْظُر ما فيه، والشيء مثقول ومنه المثقال.

[3] روى الجوهري (١: ٢٩٩): وجاعل الشمس، وورد في الأصل: «مصيرًا» وهو غلط كما يظهر في كتاب المخصص (١٣: ١٦٤)؛ وفي تاج العروس (٣: ٥٤٤): قالوا: «والمصر» الحاجز والحد بين الشيئين.

[4] في الأصل «فضلًا»، وهو تصحيف أصلحه في المُخصَّص، وفي تاج العروس.

وأسلمتُ وجهي لمن أَسلمَتْ   له المزنُ تَحملُ عذبًا زُلالَا
إذا هـي سِـيقَت[٥] إلى بلـدة   أطاعَتْ فصَبَّتْ عليها سِجالَا

ومثلهما لأُمَيَّة بن أبي الصَّلْت (شعراء النصرانية، ص٢٢٦):

وشقَّ الأرضَ فانبَجَستْ عيونًا   وأنـهـارًا مـن الـعذب الـزُّلالِ
وبـارَك فـي نـواحـيها وزكَّى   بها ما كان من حرثٍ ومالِ

وقال يذكر خلق الله للنَّيِّرَين الكبيرين (شعراء النصرانية، ٢٢٩؛ وسيرة الرسول، ٤٠):

إنَّ آيـاتِ ربِّـنـا بـاقـيـاتٌ   ما يُماري فيهن إلا الكفورُ
خلقَ الليلَ والنهارَ فكُلٌّ   مُستبينٌ[٦] حسابُه مَقدورُ
ثم يَجلو النَّهار[٧] ربٌّ كريمُ   بمَهاة شُعاعُها منشورُ

وله أيضًا (شعراء النصرانية، ٢٢٨):

هو الله باري الخلقِ والخلقُ كلهم   إماء له طوعًا جميعًا وأَعْبُدُ
تُسبِّحُه الطير الجوانحُ في الخِفَى   وإذ هي في جو السماء تَصعَّدُ
ومن خوفِ ربي سبَّحَ الرعدُ فوقنا   وسبَّحَه الأشجار والوحشُ أُبَّدُ
وسبَّحَه النِّينانُ والبحرُ زاخرًا   وما ضَمَّ من شيء وما هو مُقْلِدُ[٨]

وقال أُمَيَّة يصف تكوين الحيوانات (كتاب الحيوان، للجاحظ Ms de Vienne, ff. 397، طبعة مصر، ٢: ١١٨):

هـو أَبْدأَ[٩] كلَّ مـا يـأثِرُ الـنَّـا   سُ أمـاثـيلَ بـاقـيـاتٍ سـفـورَا
خلَق النَّخْل مُعصراتٍ تَراها   تقصفُ اليابساتِ والمَخضورَا[١٠]

---

[٥] وفي كتاب البدء روى: إذا هي سوقت، وهو غلط.

[٦] ويروى: يخلق ... فكل مستنير.

[٧] ويروى: ثم يجلو الظلام.

[٨] رواه في اللسان وفي أساس البلاغة والتاج في مادة «قلد»، قالوا: أَقْلَدَ البحر على الخلق؛ أي أرتج عليهم وغرقهم وجعلهم في جوفه، ويروى: والبحر زاخر.

[٩] في طبعة مصر (٢: ١١٨): «هو أبدى» فيختل الوزن.

[١٠] في طبعة مصر: خلق النخل مصعدات ... والخضورا.

والتماسيحَ والسَّنادِلَ[١١] والـ أيلَ شتى والرئمَ واليعفورا
وصوارًا من النواشط عينًا ونعامًا صواحِيا[١٢] وحَميرَا
وأُسودًا عواديًا وفيولا وسباعًا والنمل[١٣] والخنزيرَا
وديوكًا تدعو الغراب لصُلْح وإِوَزِّينَ أخرجت وصُقورَا

ثم ذكروا تكوين جسم الإنسان من طين الأرض ونفسه من نفخة خالقه، قال الجاحظ في كتاب الحيوان (Ms de Vienne, ff. 213 وطبعة مصر ٣: ٦٥): «سأنشدك لعدي بن زيد، وكان نصرانيًّا ديانًا وترجمانًا وصاحب كتاب، ومن دُهاة ذلك الدهر قال يذكر شأن آدم»:

قَضى لستَّةِ أيامٍ خلائِقَه[١٤] وكان آخِرَها أن صَوَّر الرجلَا
دَعاهُ آدمَ صوتًا فاستجاب[١٥] له بنفخةِ الرُّوح في الجسم الذي جَبلَا

وقال أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت (حياة الحيوان، ٢: ١١٣):

والأرضُ مَعقلُنا وكانت أمَّنَا فيها مقابرنا وفيها نُوأَدُ

وقال أيضًا في الأرض وخلقة الإنسان (فيه):

منها خُلِقْنَا وكانت أُمَّنَا خُلِقَت ونحن أبناؤها لو أننا شُكُرُ
والطُّوطُ[١٦] نَزرَعه فيها فنلبسه والصوفُ نَجتَزُّه ما أدفأ الوبرُ
هي القرار فما نَبْغِي لها بَدَلا ما أرحمَ الأرضَ إلا أننا كُفُرُ

---

[١١] السنادل طيور كبار، وفي طبعة مصر: «والتماثيل»، وهو غلط.
[١٢] في طبعة مصر: خواضبًا.
[١٣] وفي طبعة مصر: وذيابًا والوحش.
[١٤] وفي طبعة مصر: خليقة، والبيت مختل الوزن.
[١٥] في طبعة مصر: أسجاب، غلط.
[١٦] الطوط هو القطن.

وقال أيضًا (جمهرة شعراء العرب، ص١٨):

كيفَ الجُحودُ وإنما خُلِقَ الفتى   من طينِ صَلصالٍ له فخَّارُ

(١-٢) سكنى آدم في الفردوس وخطيئته

لعدي بن زيد وصف حلول آدم في الجنة وتكوين حواء من ضلعه وتجربة الشيطان لهما على صورة الحية ثم عقاب الأبوين الأولين وطردهما من الفردوس فقال عن آدم (طبعة مصر، ٤: ٦٦، Ms de Vienne, ff. 213):

ثُمَّتَ أَورَثَه[١٧] الفِرْدوسَ يَعْمُرُها   وزوجةً صنعةً من ضلعِهِ جَعَلَا
لم يَنْهَه ربُّه عن غير واحدة   من شجرٍ طَيِّبٍ إن شَمَّ أو أَكلَا
تَعَمَّدَا[١٨] للتي مِن أَكْلِها نُهْيَا   بأَمْرِ حوَّاءَ لم تَأخُذْ له الدَّغَلا
كلاهما خاطَ إذ برٌّ[١٩] لُبوسُهما   من ورق التين ثوبًا لم يكن غُزِلَا
فكانت الحيةُ الرَّقْشاءُ إذ خُلْقَتْ   كما ترى ناقة في الخلق أو جَملا[٢٠]
فلاطَها اللهُ إذ أغوت خَليقتَهُ[٢١]   طول اللَّياليَ لم يجعل لها أَجلَا
تمشي على بطنها في الدَّهْر ما عَمرتْ   والتربُ تَأكُلُه حَزنًا وإن سَهُلَا
فأُتْعِبَا[٢٢] أَبوانَا في حياتهما   ووَجَدَا[٢٣] الجوعَ والأوصابَ والعِللَا

[١٧] طبعة مصر بالغلط: أورثة.

[١٨] فيها: فعمدا.

[١٩] فيها: أذبرا (كذا).

[٢٠] هذا البيت في طبعة مصر مُقدَّم على الاثنين السابقين، أما قوله: إن الحية كانت كالناقة أو الجمل، فذلك من مزاعم العرب الذين ذَهبوا إلى أنها كانت مُجَنَّحة ذات أربعة قوائم فعوقبت بنقص جناحها وقطع أرجلها والمشي على بطنها، وبإعراء جلدها حتى يقال: «أعرى من حية» وبشق لسانها (راجع: كتاب الحيوان، للجاحظ، ٤: ٦٦).

[٢١] في طبعة مصر: خليفته بالفاء.

[٢٢] في طبعة مصر: فأبقيا.

[٢٣] فيها: وأوجدا.

ولعَديٍّ وصْفٌ آخَر لتجربة إبليس لحواء وعِقَاب الحية رواه العصامي في تاريخه «بسط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي» (نسخة مكتبتنا الشرقية، ص١٩) قال:

سعى الرجيمُ إلى حوَّا بوسوسةٍ غَوتْ بها وغوى معها أبو البَشرِ
خَلقانِ من مارجٍ أنشا خليقتَه وآخَرَ من تراب الأرض والـمَدَرِ
أنشاهما ليطيعاه فخالَفَه إبليسُ عن أمره للحَيْنِ والقَدرِ
فأبلس الله إبليسًا وأسكنَه[٢٤] دارًا من الخُلْدِ بين الروض والشَّجرِ
فاغتاظ إبليس من بَغيٍ ومن حَسدٍ فاحتال لِلحَيَّة الرَّقْطاءِ والطَّيرِ[٢٥]
فأَدْخلاه بأيمانٍ مُؤكَّدَة أعطاهما بيمين كاذب غَدِرِ
هناك سارَ إلى حوَّا بوسوسةٍ أَردَتْ بِغرَّاتها مَعها أبا البشر
فأُهْبِطوا من معاصيهم وكلُّهم نائي المَحل فقيدُ العينِ والأثَرِ
وأهبطَ الله إبليسًا وأَوعدَه نارًا تَلهَّب بالإسعار والشرر
وأنزل الله للطاووس رَخمتَه من صَوتِه ورمَى رجليه بالنُّكرِ
وأَعقبَ الحية الحسناء حين عَفتْ مَسْحَ القوائم بعد السعي كالبقرِ
وأَعقبَ اللهُ حوَّا بالذي فَعلتْ بالطَّمثِ والطَّلْقِ والأحزانِ والفِكَرِ

ورُوِي في كتاب البدء (١: ٦١)؛ وفي اللسان (١٣: ٤٥٧)؛ والتاج (٦: ٦٥) عن الحية قول أُمَيَّة:

والحيَّةُ الحَتْفةُ الرَّقْشاء أَخرَجَها من بَيْنِها أَمِناتُ اللهِ والَكلِمُ
إذا دعا باسمه الإنسانُ أو سَمِعَتْ ذاتَ الإلهِ يُرَى في سعيها زَرَمُ

ورواها الزمخشري في الأساس: «أخرجها من جُحْرِها أيمنات الله والقَسَم.» (قال): «ويقال: حية حتفة؛ أي قاتلة كما يقال امرأة عدلة.»

[٢٤] الضمير إلى الإنسان؛ أي أسكن الإنسان.

[٢٥] يريد بالطير الطاووس، والعرب يزعمون أن إبليس استعان به وبالحية ليدخل الفردوس ويخدع الإنسان فمسخه الله بتغيير صوته ودقة رجليه.

ونروي هنا أبياتًا من أرجوزة نقلها صاحب كتاب البدء (٢: ٨٥)؛ والمسعودي في مروج الذهب لعلي بن جَهْم عن بدء الخليقة كما رواها له النصارى وإن تأخَّر زمانه عن الجاهلية:

يا سَائِلي عن ابتداءِ الخلقِ   مسألةَ القاصد قَصْدَ الحقِّ
أخبَرني قوم من الثقات   أُولُو علوم وأُولُو هيئاتِ
تَضَرَّعوا في طَلَبِ الآثار   وعَرفُوا موارد الأخبارِ
ودَرَسوا التوراةَ والإنجيلا   وأحْكَمُوا التأويلَ والتنزيلا
إن الذي يفعلُ ما يشاءُ   ومن له القدرةُ والبقاءُ
أنشأ خَلْق آدم إنشاءً   وقَدَّ مِنْه زَوْجَه حواءَ
مُبتديًا وذاك يوم الجمعةْ   حتى إذا أكملَ فِيه الصُّنْعَهْ
أسكَنَه وزوجَه الجنانَا   فكان من أمرهما ما كانَا
غَرَّهما الشيطانُ واغتَرَّا به   كما أبانَ اللهُ في كتابِه
غَرَّهَما الشيطانُ فيما صَنعَا   فأُهبِطَا منها إلى الأرض معا
فوقع الشيخُ أبونَا آدمُ   بِجَبَل الهند ويُدَعى واسمُ
لبئس ما اعتاض من الجِنَانِ   والضَّعفُ من جِبِلَّةِ الإنسانِ
فشَقِيَا ووَرثَا الشقاءَ   نَسلهما والكَدَّ والعَناءَ
ولم يَزلْ مُفتقرًا[٢٦] من ذنبه   حتى تَلَقَّى كلماتِ رَبِّه
فأَمِنَ السُّخْطَةَ والعذابَا   واللهُ توابٌ على مَن تابَا

والعرب يضربون المثل بآدم في القِدَم، قال الأخطل بن ربيعة (الأغاني، ١٢: ١٦٥) يَهْجُو بني منقر:

يا مِنقرَ بنَ عُبَيدٍ إن لؤمكم   مذ عهد آدم في الديوانِ مكتوبُ
للضَّيفِ حق على مَن كان ذا كرم   والضيفُ في منقر عريانُ مسلوبُ

[٢٦] لعل الصواب: مغتفرًا.

(١-٣) بنو آدم

وقد عرف شعراءُ العرب في الجاهلية نَسْل آدم وقصة ولديه كما ورَد في قصيدة ابن جَهْم حيث قال عن آدم وحوَّا:

ثم تَنسَّلا أَحَبَّا[٢٧] النَّسلا   فحَبَلَتْ حواءُ منه[٢٨] حَملًا
واقتَنيَا الابنَ فسُمِّي قاينًا   وعايَنَا من نَشْئِه[٢٩] ما عايَنَا
فشَبَّ هابيلُ وشبَّ قاينُ   ولم يكن بَينهُما تبايُنُ

ومن الشِّعر المتضمن لأخبارِ بني آدم رثاء يرويه العرب على لسان آدم وحواء عند قَتل قاين (ويقولون قابيل) لأخيه هابيل، وهو لا محالة مصنوع إلا أنه قديم يُروَى في أقدم كُتب المسلمين كتاريخ الطبري (١: ١٤٦)؛ ومروج الذهب للمسعودي؛ (طبعة باريس، ١: ٦٥) وغيرهما كثيرون (راجع: المشرق، ٦، ١٩٠٣م، ٤٩٢)، وهم يَنسبون إنشاده إلى علي بن أبي طالب، ما يدل على أنَّ الشعر سبق الإسلام، قال آدم:

تَغيَّرتِ البلادُ ومَن عليها   فوجهُ الأرض مُغَبرٌّ قبيحُ
تَغيَّر كل ذِي حُسنٍ ولونٍ   وقلَّ بشاشةً وجهٌ صبيحُ[٣٠]
وجاوَرَنا عدوٌّ ليس يَفنَى   لِعينٌ لا يَموتُ فنَستريحُ
وقابيلٌ أذاق الموتَ هابيـ   ـلَ وا حُزنا لقد فُقِدَ المليحُ[٣١]
فما لي لا أجودُ بَسكبٍ دَمْعي   وهابيلُ تَضمَّنَه الضريحُ
أرى طول الحياةِ عليَّ غمًّا   وما أنا من حياتي مُستَرِيحُ

---

[٢٧] في الأصل «وأحب»، وهو غلط.

[٢٨] في الأصل «منه حواء» بكسر الوزن.

[٢٩] هكذا روى المسعودي (١: ٦٣)؛ وفي كتاب البدء: وولدت ابنًا … من أمره …

[٣٠] والبيت يُرْوى عادة بالإقواء: بشاشة الوجه الصبيح، وروى المسعودي: كل ذي طعم.

[٣١] رواية المسعودي:

وقَتَل قاينُ هابيلَ ظلمًا   فَوا أسفا على الوجه المَليحِ

ونسبوا إلى حواء قولها كجواب على قول آدم:

دَعِ الشكوى فقد هلكًا جميعًا ... بَهَلْكٍ ليس بالثَّمن الرَّبيحِ[٣٢]
وما يُغنِي البكاءَ عن البَواكي ... إذا ما المرءُ غُيِّبَ في الضَّريحِ
فَبكِّ النَّفْسَ منك ودَعْ هواها ... فلستَ مُخلَّدًا بعدَ الذَّبيحِ

وأضافوا إلى هذه الأبيات قولًا على لسان إبليس لآدم:

تَنحَّ عن البلادِ وساكِنِيها ... ففي الجَنَّاتِ ضاقَ بكَ الفسيحُ
وكنتَ بها وزوجُكَ في رَخاءٍ ... وقلبُكَ من أذى الدنيا مُريحُ
فما زالتْ مُكايَدتِي ومَكْرِي ... إلى أن فاتَكَ الثَّمنُ الرَّبيحُ
فلولا رحمةُ الجَبَّار أَضْحَى ... بِكفِّكَ في جنان الخُلدِ ريحُ

وممن أشاروا في الجاهلية إلى ولد آدم أفنونُ الشاعر التغلبي (المفضليات، ص٥٢٤، ed. Lyall) قال:

قد كنتُ أَسبِقُ مَن جارُوا على مَهَلٍ ... مِن ولدِ آدمَ ما لم يَخلَعوا رَسَنِي

(١-٤) نوح والطوفان[٣٣]

ليس في الكتاب الكريم بعد ذكر التكوين واقعٌ أخطر من الطوفان في عهد نوح، ولا شك أن عرب الجاهلية نَقَلُوا الخبر عن أهل الكِتَاب ولا سيما النصارى، منهم

[٣٢] رواه الطبري (١: ١٤٦):

أبا هابيلَ قد قُتِلا جميعًا ... وصار الحيُّ كالمَيْتِ الذَّبيحِ

[٣٣] وقد ذكره أيضًا أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت (لسان العرب، ١٠: ٤٥) حيث يذكر الخالق وملكوته:

ويُنَفِّد الطوفانَ نحنُ فداؤه ... واقتادَ شَرجَعَه بداحٌ بديدُ

قال شمر في شرحه: أي هو الباقي ونحن الهالكون، واقتاد؛ أي وسَّع، وشرجَعُه خُريرُه، وبدَّاح بديد؛ أي واسع.

الأعشى الكبير حيث قال يمدحُ إياسًا ويُشبِّهه بنوح في صنع سفينته (شعراء النصرانية، ص٣٨٩):

جزى الإله إياسًا خَيرَ نِعمَتِه كما جزَى المرءَ نوحًا بعدما شابَا
في فُلْكِه إذ تَبدَّاها لِيصنَعَها وظلَّ يجمع ألواحًا وأبوابَا

ومنهم أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت، روى له الجاحظُ في كتاب الحيوان (طبعة مصر، ٢: ١١٨ = 212^v Ms de Vienne,)، والمَقْدِسي في كتاب البدء (٣: ٢٤) أبياتًا منها قوله يذكر نجاة نوح وأهله وحلوله على جبل الجُودِيِّ الذي فوقَه نزلت سفينته على زعم العرب:

إلى أن يَفوتَ المرءُ رحمةَ ربِّه وإن كان تحت الأرض سَبعون[٣٤] وادِيا
كَرحمة نوحٍ يوم حل سَفِينة[٣٥] لِشيعَتِه كانوا جميعًا ثمانِيا
فلما استنار[٣٦] اللهُ تَنُّورَ أرضه ففار وكان الماء في الأرض سَاحِيا
تَرَفَّع في جَريٍ كأن أَطِيطَه صَريفُ مُحال يَستعيدُ الدواليا
على ظهر جونٍ لم يُعَدَّ لراكبٍ سَراهُ وغَيمٍ أُلْبِس الماء داجيا[٣٧]
فَصارتْ بها أيَّامُها ثم سَبعةٌ وستٌّ ليالٍ دائباتٍ عَواطِيَا
تَشقُّ بهم تَهوِي بأحسنِ إمرة[٣٨] كأنَّ عليها هاديًا وَنواتِيَا
وكان لها الجُودِيُّ نَهيًا وغاية وأصبحَ عنها مَوجُهُ متراخِيا

ومثلها قوله (كتاب البدء، ٣: ٢٤):

مُنجِي ذي الخَبْر مِن سفينة[٣٩] نوحٍ يومَ بادَتْ لبنان مِن أُخراها
فار تَنُّوره وجاشَ بماءٍ طَمٍّ فوق الجبال حتى عَلاهَا

[٣٤] في كتاب البدء (٣: ٢٤): سبعين.

[٣٥] كذا في كتاب البدء، ولعل الصواب: سفينه.

[٣٦] كذا فيه، ولعل الصواب: استثار أو استفار.

[٣٧] في طبعة مصر: «راجيًا»، وهو تصحيف.

[٣٨] في الأصل: أمره.

[٣٩] لعل الصواب: من سفينه.

قيلَ للعبد سِرْ فسار وباللهِ على الهول سَيْرُها وسُراها
قيلَ فاهبط فَقْد تَناهَتْ بك الفُلــ ــكُ على رأس شاهقٍ مُرساهَا

وله أيضًا (رواه صاحب خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، ٤: ٤):

عرفتُ أنْ لن يفوتَ الله ذو قِدَمٍ وأنَّه من أمير السوء يَنتَقِمُ
المُسْبَح الخُشْب فوق الماءِ سَخَّرَها خلال جِرْيَتِها كأنها عوم[٤٠]
تَجْري سفينةُ نوحٍ في جَوانِبِه بكلِّ موجٍ مع الأرواح تَقتحِمُ[٤١]
مَشحونةٌ ودخان الموجِ يَرفعُها مَلأى، وقد صُرِعَت من حَولِها الأمم[٤٢]
حتى تَسوَّت على الجُودِي راسيةً بكلِّ ما استُودِعَت كأنها أُطُمُ[٤٣]

ورُوِي له أيضًا في كتاب الحيوان للجاحظ (Ms de Vienne, ff. 396ᵛ) بيتان في البهائم التي كانت في سفينة نوح:

تَصرُخ الطَّيرُ والبرية فيها مع قَوِي السِّبَاع والأفيالِ
مَرَّ فيها مِن كل ما عاش زوجٌ بين ظَهْرَي غوارب كالجبالِ

ويحسن بنا أن نروي هنا ما قال القطامي الشاعر النصراني في عهد بني أمية عن نوح وسفينته (ديوانه، ص٨٤ ed. Barth؛ ولسان العرب، ٦: ٣٣٤):

وأُنذِرُكم مَصاير قومِ نوحٍ وكانت أُمَّةً فيها انتشارُ
وكان يُسبِّح الرحمنَ شكرًا ولِلهِ المحامدُ والوقارُ

[٤٠] وفي الأصل عن شارح ديوان أمية ما نصُّه: «يقال: سبح الرجل وأسبحه الله، والعُوَم جمع العُومة كأنها حية تكون بعمَّان، والعامَّة شبه الطَّوْف إلا أنها أصغر منه يركب فيه البحر.» وروى في لسان (١٥: ٢٣٨): في اليم جريتها.

[٤١] في الأصل: في جوانبه؛ أي جوانب الماء.

[٤٢] في الأصل: مَشحونة؛ أي مملوءة، يقال: اشحن سَفينَتك؛ أي املأها، وفي خزانة الأدب قبل هذا البيت بيت آخر أُقْحِم في القصيدة بالغلط، وهو من بحر المنسرح كما نبه عليه في الهامش والأبيات كلها من البسيط، وهو قوله:

نُودِي قُمْ واركَبن بأهلك إن الله موفٍ للناس ما زَعمُوا

[٤٣] الأطم، والجمع آطام.

فلما أن أراد الله أمرًا   مَضى والمشركون لهم جُؤَارُ[٤٤]
ونادَى صاحبُ التَّنُّورِ نوحًا   وصُبَّ عليهمُ منهُ البوارُ[٤٥]
وضَجُّوا عند جِيئَته وفَرُّوا[٤٦]   ولا يُنَجِّي من القَدَرِ الحِذارُ
وجاشَ الماء منهمرًا إليهم   كأن غُثاءَه خِرَقٌ نِشَارُ[٤٧]
وعامَتْ وَهْي قاصدةٌ بإذنٍ   ولولا اللهُ جارَ بها الجَوارُ[٤٨]
إلى الجُودِيِّ[٤٩] حتى صار حجرًا   وحان لتَالك الغَمْر انحسارُ[٥٠]
فهذا فيه موعظةٌ وحُكمٌ   ولكنِّي امرؤ فيَّ افْتِخارُ

وذكر أمية الجُودِي في محلٍّ آخر مشيرًا إلى حلول سفينة نوح عليه (كتاب سيبويه، ١: ١٣٦، ed. Derenbourg)، والبيت يُروَى لورقة بن نوفل في جملة أبيات (شعراء النصرانية، ص٦١٧):

سبحانَه ثم سبحانًا يَعود له   ومِثْلَنا سبَّح الجُوديُّ والجُمُدُ

ولأمية يذكر أمر الغراب والحمامة اللذين أرسلهما نوح ففر الغراب وعادت الحمامة بغصن الزيتون فقال (كتاب الحيوان، للجاحظ، طبعة مصر، ٤: ٦٥؛ ثم Ms de Vienne, ff. 212^{v}؛ ثم كتاب البدء، ٣: ٢٥):

---

[٤٤] قالوا: الجؤار الماء الكثير.

[٤٥] في لسان العرب: نوح، وفي الديوان: الوبار، ونظنها تصحيفًا.

[٤٦] رواية الديوان: جيئته إليهم، وجيئته؛ أي حين جاء الطوفان.

[٤٧] في الأصل: «يريد كأن زبده ملاءة منتشرة مبسوطة»، وفي اللسان: خرق قسار.

[٤٨] شرحه في الديوان: عامتْ: سبحت إلى الجُودِي، والجَوار الجَوْر؛ أي لولا الله لجار بالسفينة الحيرة فكانت تَجُور ولا تهتدي.

[٤٩] الجُودِي جبل في الجزيرة. وقال اللسان في «تَالِك»: إنها مثنى «تلك» كتَانِك، أما تاج العروس (١٠: ٤٣٣) فيزعم أنها لغة في تِلْكَ من أقبح اللغات.

[٥٠] قال في اللسان: الحِجْر الممنوع الذي له حاجز، وفي الديوان؛ أي منع الجودي السفينة أن تَبرحَ، الغمر والغمرات: الشيء الذي يغمر ويغرق، والانحسار الانكشاف، وتالك: مثنى تلك كتانك.

وإذ هم لا لُبوسَ لهم تَقِيهم وإذْ صُمُّ السِّلامِ[٥١] لَهُم رِطابُ[٥٢]
عَشيَّة أُرْسِل الطوفانُ يجري وطاف الماء ليس له جرابُ
على أمواجِ أخضرَ ذي حَبيكٍ كأنَّ سُعارَ زاخرِه الهضابُ
بآية قام يَنطقُ كلُّ شيءٍ وخانَ أمانةَ الدِّيكِ الغرابُ[٥٣]
وأُرْسِلَت الحمامةُ بعد سبعٍ تدل[٥٤] على المَهالِك لا تَهابُ
تَلَمَّسُ هل ترى في الأرض عيناً وعائنةً بها الماءُ العُبابُ[٥٥]
فجاءت بعدما رَكضَتْ بِقْطفٍ عليه الثَّأْطُ والطينُ الكُبابُ[٥٦]
فلما فرَّسوا الآيات صاغوا لها طوقًا كما عُقِد السِّخاب[٥٧]
إذا ماتت تُورثُه بنيها وإن تقتل فليس لها استلاب[٥٨]
جزى[٥٩] اللهُ الأجلُّ المرءَ نوحًا جزاء البِرِّ ليس له كِذَابُ
بما حَملتْ سفينتُه وأَنْجتْ غداةَ أتاهمُ الموتُ القُلابُ
وفيها من أُرومَتِه عِيالٌ لديه لا الظَّمَاءُ ولا السَّغَابُ

[٥١] قال المقريزي في الخطط (١: ١٦٠): «ذكر غير واحد أن الصخور في القديم من الدهر كانت تلين فعمل منها أعمدة ناعط ومأرب وبيتون ومآثر اليمن، وأعمدة دمشق ومصر ومدين وتَدْمُر، وأن كل شيء يتكلم.» (كذا).

[٥٢] رواه الآلوسي في بلوغ الأرب (٣: ٢٢١) عن الثعالبي «لهم عُراة ... صم الصلاب»؛ وفي كتاب البدء: «وإذ صخر السلام» وفي البيت إشارة إلى ما كان يزعمه العرب أن الحجارة كانت قبل الطوفان رطبة والطيور ناطقة، ومن أمثالهم «كان ذلك إذ كان كل شيء ينطق.» و«كان ذلك والحجارة رطبة.» ويدعون ذلك العهد «زمن الفِطَحْل».

[٥٣] روى في كتاب البدء: «بأنه قام» وروى الآلوسي: «وكان أمانة الديك» وكلاهما تصحيف.

[٥٤] في كتاب البدء: تزلُّ.

[٥٥] في كتاب البدء: وعائنه، وفي كتاب البدء: «به تيبس واضطراب» وهي رواية مصحفة.

[٥٦] القطف ما قطف من الأغصان، والثأط الحمأة، والكباب الطين اللازب، وفي كتاب البدء: «عليه الشلط والطين الكثاب» وهو تصحيف.

[٥٧] في كتاب البدء: فرشوا الآيات، ولعل المعنى: مَيَّزوا وفصلوا، والسخاب: القلادة، ويروى: السحاب، وهو تصحيف.

[٥٨] في كتاب البدء: «تورثها ... وإن قتلت.» وفي البيتين إشارة إلى زعم العرب بأن الطَّوقَ الذي يحلي عنق الحمامة إنما هو جَزاءُ أمانتها لما عادت إلى سفينة نوح.

[٥٩] في كتاب البدء: فجازى، والبيت مختل الوزن.

وقال أيضًا في حمامة نوح[٦٠] وطوقها (حياة الحيوان، للجاحظ، ٢: ١١٩):

وما كان أصحاب الحمامة جِيفةً غداة غدت منهم تضم الخوافيا
رسولًا لهم والله يُحْكِم أمره يبين لهم هل يُؤْنِس الثوبُ باديَا
فجاءت بِقِطْفٍ آيةً مُستبينَةً فأصبحَ منها موضع الطين جاريا
على خَطْمِها واستَوْهبَتْ ثَمَّ طَوْقَها وقالت ألا لا تَجْعَلِ الطوق حاليا
ولا ذهبًا إني أخاف نِبالَهم يَخالُونه مالي وليس بِمالِيَا
وزِدْنِي على طوقي من الحَلْي زينةً تُصِيبُ إذا أَتْبعتُ طوقي خِضَابيَا
وزِدْني لطَرْفِ العينِ منك بنعمةٍ ووَرِّثْ[٦١] إذا ما متُّ طَوقِي حَمامِيَا
يكون لأولادي جمالًا وزينة ويَهْوَينَ زَيني زينةً أن يَرانِيَا[٦٢]

وروى البحتري في حماسته (راجع: طبعتنا، ص١٢٤) لرجل الكندي في نوح وسفينته فقال في تَصرُّف الأيام:

وأَصبْنَ نوحًا بعدما بلغَتْ به أُفْقَ البلادِ سفينةٌ لم تغرَقِ

---

[٦٠] ورد في تاريخ العصامي من مخطوطات مكتبتنا (ff. 23v) أبيات أخرى في هذه الحمامة لم يذكر اسم قائلها:

فأرسلَها نبيُّ الله نوحٌ لِتنظُرَ هل عفَا رب السماءِ؟
فآبَتْ وهْيَ قد صُبِغَت بماء وفي أعناقها طِينُ البراءِ
وفي مِنقارِها ورَقٌ قليل أقامَتْه على صِدْق الوفاءِ
فأكرمَها رسولُ الله نوحٌ وأكثر في المقامةِ بالدُّعاءِ
وطوَّقَها وسَرْولَها أداءً تعالى ربُّنا ذو الكبرياءِ
فكنْ لله خالِقنا مطيعًا فجَنَّة ربنا للأتقياءِ

[٦١] في الأصل: وأرث.

[٦٢] وللشاعر بعد هذا أبيات ذكر فيها قصة يرويها العربُ جرتْ على زعمهم بين الديك والغراب، يقولون: إن الديك نادَمَ الغرابَ وشَربَا الخمر ولم يعطيا الخمَّار حقه فرهن الغرابُ الديكَ على حجة أن يذهب ويأتي بالثمن، فلما ذهب خاس بالديك وسَخِر به ولم يرجع فبقي الديك محبوسًا.

وممن ذكروا نوحًا وسفينته في الجاهلية النابغة الجعدي في مِيميَّته التي أولها:

الحمدُ لله لا شريكَ له   من لم يَقُلْها فنَفْسَه ظَلَمَا

ثم قال يذكر بأمر الله إلى نوح لِيُعِدَّ له فُلكًا (خزانة الأدب، ٤: ٤):

نُودِي قُمْ وارْكَبَنْ بِأهلكَ   إن الله مُوفٍ للناسِ ما زَعمَا[٦٣]

وفيها زعم الجَعديُّ أن سفينة نوح كانت من خشب الجوز لصلابته وجودته قال (لسان العرب، ٧: ١٩٥):

يَرفعُ بالقَار[٦٤] والحديدِ من الْجَوْ   زِ طِوالًا جُذوعُها عُمُما[٦٥]

ويضربون المثلَ في نوحٍ بطول العمر،[٦٦] ورَوَوا لرؤبة (ديوانه، ص١٢٨):

فقلتُ لو عُمِّرتُ سِنَّ الحِسْلِ   أو عُمرَ نوحٍ زَمنَ الفِطَحْلِ[٦٧]
والصَّخرُ مُبتلٌّ كطين الوحلِ   صرتُ رَهينَ هَرمٍ أو قَتْلِ

ومثله لأبي العتاهية (ديوانه، ص٦٧):

نُحْ على نفسِك يا مِسْـ   ـكينُ إن كنتَ تنوحُ
لستَ بالباقي ولو عُمِّـ   ـرتَ ما عُمِّرَ نُوحُ

---

[٦٣] وفي بعضِ الروايات: «ما زعموا». وهو غلط، وقد مرَّ أن هذا البيت قد رُوِي سهوًا في جملة أبيات أخرى لأُمَيَّة بن أبي الصَّلْت من بحر البسيط.

[٦٤] روى في التاج (٨: ٤١٠): يُرْفَع بالنار.

[٦٥] العُمُم: جمع عَميم، وهو المجتمع الكبير.

[٦٦] روي في الأغاني (١٥: ٦٨) لبعضهم:

تَعِش عُمْرَ نوحٍ في سرورٍ وغبطةٍ   وفي خفضِ عَيشٍ ليس في طوله إثمُ

[٦٧] الحسل: ولد الضب، ويروى: عُمْر الحسل، والفطحل السيل والطوفان. (راجع [القسم الثاني، الفصل الخامس]).

(١-٥) ابنا نوح

لم نجد في شعر عرب الجاهلية ذِكرًا لأبناء نوح إلا في قصيدة لصلاءَة بن عمرو الشهير بالأفوه الأودي (راجع: شعراء النصرانية، ص٧٠) ذَكَر فيها ملوك التبابعةِ والمَثامِنة، وقد ورد منها أبيات في كتاب وصايا ملوك العرب (ص٢٠) فقال:

فلو دامَ البقاءُ إذن جُدودي وأَسلافي بنو قَحْطان دَامُوا
ودامَ لهم تَبابِعُهم ملوكًا ولم تَمُتِ المَثامنةُ الكرامُ
وعاش المَلْكُ ذو الأذعار عمرو وعمرو حوله اللَّجِبُ اللُّهامُ
ملوكٌ أدَّتِ الدنيا إليها إتاوَتها ودانَ لها الأنامُ
ولمَّا يَعْصِها سامٌ وحامٌ ويافثُ حيثما حلَّتْ ولامُ[٦٨]

(١-٦) ذِكر إبرهيمَ الخليل وابنه إسحاق

ورد اسم إبرهيم في الشعر الجاهلي، ويقال: إبراهِم وإبراهَم، قال عبد المطلب (المعرب، للجواليقي، ص٩؛ واللسان، ١٤: ٣١٤) ينسب ابتناء الكعبة إلى إبراهيم:

عُذتُ بما عاذ به إبراهَمُ مُستقْبِلَ القِبلةَ وَهْو قائمُ
إنِّي لك اللهُمَّ عانٍ راغمُ

وله:

نحنُ آلُ الله في كَعبتِه لم يَزلْ ذاك على عهد إبراهَمِ[٦٩]

ودعاه ورقة بن نوفل باسم الخليل فقال (شعراء النصرانية، ٦١٨) يخاطب زيد بن عمرو:

فأصبحتَ في دارٍ كريمٍ مُقامُها تُعَلَّلُ فيها بالكرامةِ لاهِيا
تُلاقِي خليلَ الله فيها ولم تَكُن من الناس جبَّارًا إلى النار هَاويا

وكذلك قال جرير (الطبري، ١: ٤٣٣):

أَبونَا خليلُ اللهِ واللهُ ربُّنا رَضينا بما أعطى الإله وقَدَّرَا

---

[٦٨] جاء في كتب العرب أن لامَ بن لنوح كسام وحام ويافث.

[٦٩] رواه الأزرقي في تاريخ مكة (ص٩٦): نحن أهل الله في بلدته.

وفي شِعرهم إشارة إلى إسحاق ويدعونه الذَّبيح[٧٠] لِمَا وَرَد في التوراة من طاعة إبراهيم لما امتحنه الله وأمره بتقدمة ابنه، قال الأعشى يشبه لون الخمر بلون دم الذبيح:

ومُدامَةٍ مما تُعتِّقُ بابلٌ　　كَدمِ الذَّبيح سَلَبْتُها جِرْيَالَها

وقد وصف أُميَّة بن أبَي الصَّلْت تقدمة إبراهيم كما رُوِيَت في التوراة فقال (تاريخ الطبري، ١: ٣٠٨؛ وكتاب البدء، ٣: ٦٥؛ وقصص الأنبياء، ٩٣؛ وخزانة الأدب، ٢: ٥٤٣):

سَبِّحُوا لِلمليكِ كلَّ صباحٍ　　طلعَتْ شمسُه وكلَّ هِلالِ[٧١]
ولإبراهيمَ المُوَفِّي بالنَّذْ　　رِ[٧٢] احتسابًا وحامِلِ الأجذالِ[٧٣]

---

[٧٠] من غرائب مرويات ابن عباس ما نقله عنه الأزرقي في تاريخ مكة (ص٤٠١) قال: «إن الصخرة التي بأصل جبل ثبير هي الصخرة التي ذَبَح إبراهيم — عليه السلام — عليها فداءَ ابنه إسحاق فهبط عليه من ثَبير كبشٌ أعْيَن أقْرَن له ثُغاء فذبحه (قال) هو الكبش الذي قرَّبَه ابن آدم (هابيل) — عليه السلام —، فتُقُبِّل منه كان مخزونًا حتى فُدِي به إسحاق (كذا)! وكان ابن آدمَ الآخَر (قاين) قرَّب حرثًا فلم يُتَقَبَّل منه.»

وقد جاء لجرير في نقائضه ذكر إبراهيم وأولاده وبعض الأنبياء، وكانت تميم ومنها يربوع قبيلة جرير نصرانية قبل الإسلام، قال (نقائض، ٩٩٤–٩٩٥):

أَبونَا خليلُ اللهِ واللهُ ربُّنا　　رضِينَا بما أَعطَى المليكُ وقدَّرَا
بَنى قِبلَةَ اللهِ التي يُهتدَى بها　　فأَورَثَنا عزًّا وملكًا مُعمَّرا
أبونا أبو إسحاق يجمَع بيننا　　أبٌ كان مهديًّا نبيًّا مُطهَّرَا
فيَجمعُنا والغُرَّ أبناءَ سارةٍ　　أبٌ لا نبالي بعْدَه مَن تَغَدَّرا
ومنا سليمان النبي الذي دعا　　فَأُعطِي تِبيانًا وملكًا مُسخَّرَا
ويعقوبُ مِنَّا زادَه الله حكمةً　　وكان ابنُ يعقوبَ نبيًّا مُصدَّرَا
وعيسى وموسى والذي خَرَّ ساجدًا　　فنَبَّتَ زرعًا دمعُ عينيه أخْضرَا

[٧١] روي هذا البيت لابن صرمة الأنصاري (خزانة الأدب، ٢: ٥٤٣).

[٧٢] كذا روى الطبري، وروى صاحب كتاب البدء: الموفي بنذر، وروى في شواهد مغني اللبيب (ص٢٤١): «لإبراهيم الوافِي بالنَّذر.» والبيت مكسور.

[٧٣] الأجْذَال جمع جِذْل، وهو القطعة الكبيرة من الحطب، وروى الثعلبي في قصص الأنبياء (ص٨٢): «حامد الأجزال» وهو غلط، وكذلك روى في كتاب البدء «الأجزال» بالزاي.

بِكْرِه لـم يَكُنْ لِيَصبِرَ عنـه   لـو رآه فـي مَـعـشـرٍ أَقـتـالِ[٧٤]
ولـه مُدْيـةٌ تُخـايلُ فـي اللَّحْــ   ــمِ حُـذامٌ حَـنِيَّـةٌ كـالـهـلالِ[٧٥]
أَبُـنَـيَّ إنـي نَـذرتُـك لـلـه   شحيطًا فاصبر فدًى لك حالي[٧٦]
فـأجـابَ الـغـلامُ أن قـال فـيـه   كل شـيء لـلـهِ غـير انتحـالِ[٧٧]
أَبَـتِـي إِنَّـنـي جَـزَيـتُـكَ بـالـلـه   تـقـيًّـا بـه عـلـى كـل حـالِ[٧٨]
فاقضِ ما قد نَذرتُك للهِ واكْفُف   عـن دَمِـي أن يَـمَـسَّـه سِـربَـالـي
واشْدُد الصَّفدَ لا أَحيدُ عن السِّكِّيـ   ــنِ حَـيْدَ الأسـيرِ ذي الأغـلالِ[٧٩]
إنَّـنِـي آلَـمُ الـمـحـزَّ وإنِّـي   لا أَمسُّ الأذقـان ذات السِّـبـالِ[٨٠]
جـعـلَ الـلـه جِـيدَه مـن نـحـاس   إذ رآه زَولًا مــن الأَزْوالِ[٨١]

[٧٤] الأقتال جمع قِتْل، وهو القِرْن والنَّظير والمقاتل، وروى الطبري: أو يراه، ويروى في بعض نسخه: مَعشرٍ أقيال.

[٧٥] مُدْية حُذام وخُذام؛ أي قاطعة، وحَنِيَّة مستديرة، وتُخايل؛ أي تلوح، وروى في قصص الأنبياء: «تخايل في اللحم غلامًا جبينه كالهلال.» وهي رواية مُصحَّفة، ورواه في خزانة الأدب:

وله مُديةٌ تخيل في اللحم هذام جلية كالهلال

قال جامع ديوان أمية محمد بن حبيب: المُدْية السكين، تخيل في اللحم تمضي فيه من الخيلاء، وهذام القاطعة السريعة من الهذم، وهو القطع والأكل في سرعة، وجلية مجلوة.

[٧٦] الشحيط: الذي يشحط، أي يضطرب في دمه يريد نذرتُ أن أضحيك لله، وروى في كتاب البدء: سحيطًا، وفي قصص الأنبياء: فذلك حالي، وفي خزانة الأدب فدًا لك حالي، ولعلها مصحفة.

[٧٧] قال شارح الديوان: غير انتحال؛ أي غير كذب وادعاء، بل هو حق.

[٧٨] ورد هذا البيت وما يليه في خزانة الأدب، قال: جزيتك بالله أطعتك بالله.

[٧٩] قوله: «لا أحيد»؛ أي لئلا أحيد، ويروى: «أن أحيد.» قالوا: مَعناها خشية أن أحيد؛ أي أميل عنه، ويُروَى: من السكين، والصفد: الحبل الذي يربط به.

[٨٠] قال الشارح في خزانة الأدب: يقول: لَم أمسس ذقني؛ أي لا أجزع ولا أمنعك، وذقن الإنسان مجمع لحيته، وأصله في الجمل يحمل الثقيل فلا يقدر على النهوض فيعتمد بذقنه على الأرض، والسِّبَال جمع سَبَلَة، وهي عند العرب مُقدَّم اللحية.

[٨١] الزَّول: الشجاع والعجب، والجِيد: العُنق، ويروى: جعل الله حَيْدَه، والحَيْد المِثْل والنظير.

بينما يَخلعُ السَّرابيلَ عنه   فكَّه ربُّه بِكبشٍ جُلالِ[٨٢]
قال خُذْه وأَرسلِ ابنَكَ إني   للذي قد فَعَلتُما غيرُ قالِ[٨٣]
والدٌ يَتَّقي وآخرُ مَولُو   دٌ فطارَا عنه بسمعٍ مُعالِ[٨٤]
ربَّما تَجزَع النُّفوس من الأمـ   ـر له فُرْجَة كحَلِّ العِقالِ[٨٥]

وقد اختصر ذلك السموءل في ديوانه (راجع، طبعتنا، ص٣٠) فقال:

فهذا خليلٌ صَيَّر الناسَ حولَه   رياحينَ جَنَّاتِ الغصونِ الذَّوابلِ
وهذا ذبيحٌ قد فَداه بِكَبْشِه   براهُ بَديهًا لا نِتاجَ الثَّياتلِ

(١-٧) ذِكْر لوط وعِقاب سَدُوم

لوط أخو إبراهيم، ذكره العرب ورووا ما جرى لسدوم من العقاب في عهده، ورد في المعاجم (الصحاح؛ والتاج؛ واللسان، في مادة: سدم) لشاعر لم يذكروا اسمه، ولعله هو الشاعر الآتي ذكره:

كذلك قومُ لوطٍ حينَ أَمْسَوا[٨٦]   كَعصفٍ في سَدُومِهم الرَّمَيمِ

---

[٨٢] رُوِي في قصص الأنبياء وشواهد المغني: «بينما يخلع السراويل … بكبش حَلال.» والجُلال: الجليل والعظيم.

[٨٣] روي في شرح شواهد المغني: فَخُذْن ذا فداء ابنك إني؛ وروى الطبري: فخُذَا ذا؛ وفي قصص الأنبياء: فخذن ذا فدًى لابنك، ويروى: فأرسل ابنك عنه إني ما قد فعلتما، وقوله: «غير قالٍ»؛ أي غير مُبغِض له؛ أي راضٍ به.

[٨٤] قال الشارح: أي ذهب سمعه في الناس، والمُعال: المرتفع؛ أي صار لهما شرفًا يُذْكران به، ويروى: «بسمع فعال»، وهو تصحيف.

[٨٥] روي هذا البيت لشعراء كثيرين، والأرجح أنه من هذه القصيدة لأمية، قال في خزانة الأدب: «المشهور أنه لأمية من قصيدة طويلة عِدَّتُها تسعة وتسعون بيتًا ذكر فيها شيئًا من قصص الأنبياء؛ داؤد وسليمان ونوح وموسى، وذكر قصة إبراهيم وإسحاق وزعم أنه هو الذبيح وهو قول مشهور للعلماء.» وروي في كتاب البدء: «ربما تكره النفوس.» وفي الخزانة: «من الشر.»

[٨٦] وفي معجم البلدان، لياقوت (٣: ٥٩): حين أضحوا.

وجاء في التاج، واللسان لعمرو بن دراك العبدي يشير إلى مَثَل العرب: «أَجْوَر من قاضي سدوم» فقال:

وإني وإن قطعتُ حِبالَ قيسٍ وخالفتُ المُرونَ على تَميمِ
لأعظمُ فَجرةً منَ أبي رغالٍ وأَجْوَرُ في الحكومة من سَدومِ

وقال أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت يذكر قصة سدوم وفجور أهلها وعقابهم (سفر التكوين، ف١٩؛ ثم معجم البلدان، لياقوت، ٣: ٥٩؛ وكتاب البدء، ٣: ٥٨؛ وآثار البلاد للقزويني):

ثم لوطٌ أَخُو[٨٧] سدومٍ أتاهَا إذ أتاها برشدها وهداها
رَاودُوه عن ضَيفِه ثم قالُوا قد نَهَينَاكَ أن تُقِيمَ قُراها
عَرضَ الشيخُ عندَ ذاك بناتٍ كظِباءٍ بأَجْرَعٍ تَرعاهَا[٨٨]
غَضبَ القومُ عند ذاك وقالوا أيُّها الشيخُ خطبةٌ نَأبَاها
أجمعَ القومُ أَمْرهمُ وعجوزٌ خيَّبَ اللهُ سَعْيَها ولَحاهَا[٨٩]
أرسلَ اللهُ عند ذاك عذابًا جعلَ الأرضَ سُفْلَها أَعْلاها
ورَماها بحاصبٍ ثم طينٍ ذِي جُروف مُسَوَّمٍ إذ رماها[٩٠]

(١–٨) يعقوب وبنو إسرائيل

يعقوب أبو الأسباط الاثني عشر الذي دُعِيَ إسرائيل ويقول العرب إسرائين، قال بعض القدماء (اللسان، ١٧: ٣٥١):

قد جَرَت الطَّير أيامنينا قالتْ وكنتُ رجلًا فطينا
هذا لَعَمْرُ اللهِ إسرائينا

[٨٧] في كتاب البدء: ثم لوطًا أخا.

[٨٨] روى القزويني: «غرض الشيخ» وهو تصحيف، وفي كتاب البدء: فَرَعاها.

[٨٩] لحاها؛ أي لَعَنَها. روى القزويني: «عَزَم القومُ أمرهم بعجوز … ومحاها.» وفي ياقوت: سَعْيَها ورجَاها.

[٩٠] في معجم البلدان: ذي حروف، والمُسوَّم: المُكلَّف والمُسخَّر.

رواه في القلب والإبدال لابن سِكِّيت (ص٩، ed. Haffner): «هذا ورب البيت إسرائينا»، وسماه أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت إسرال (نقد الشعر، لقُدامة، ص٨٣):

ما أرى من يُغِيثُني في حَياتي　　غير نَفْسي إلا بَنِي إسرالِ

وروى الجاحظ (في البيان والتبيان، ١: ١٩٠) لبعض بني إياد النصارى قوله وفيه إشارة إلى رُؤيا يعقوب عند مَسيره إلى ما بين النهرين إذ رأى سُلَّمًا تَصْعَد عليه ملائكة الله وتنحدر (تكوين، ٢٨: ١٢) فقال:

ونحنُ إيادٌ عبيدُ الإله　　ورهطُ مُناجيه في السُّلَّم

ونَسبوا الأسباط إلى يعقوب، قال السموءل (اطلب: طبعتنا لديوانه، ص١٢):

وبقايا الأسباطِ أسباطَ يَعقو　　بَ دراسِ التوراةِ والتابوتِ

وذكَره في محلٍّ آخرَ وخَصَّ بالذِّكر يوسفَ[٩١] ابنه وقِصَّته في مصر (ص٣١):

وهذا رئيسٌ مُجتبًى ثم صَفْوُه　　وسمَّاه إسرائيلَ بكر الأوائلِ
ومِنْ نَسْلِه السامي أبو الفُضل يُو　　سفُ الذي أشبع الأسباط قَمْحَ السنابلِ
وصار بمصر بعد فرعونَ أَمْرُه　　بتَعبيرِ أحلامٍ لحلِّ المشاكلِ
ومِن بعدِ أحقابٍ نَسوا ما أتى لَهم　　من الخير والنَّصْرِ العظيم الفواضلِ

(١-٩) موسى الكليم

قد أكثر شعراء الجاهلية من ذكر موسى كليم الله،[٩٢] ورَووا ما جرى له مع فرعون ونجاة

---

[٩١] وفي شعر جرير ذكر يوسف وإخوته:

كونوا كيُوسفَ لما جاء إخوتُه　　فاستسلَمُوا قال ما في اليوم تَثريبُ

[٩٢] وقد ضربوا المثل في عصا موسى المُتحوِّلة حية، قال الشاعر:

إذا جاء موسى وألقى العَصا　　فقد بطَلَ السِّحرُ والساحرُ

وذُكر للأخطل في نقائضه (ص ٣٣ و٣٦٧):

فَقدْ نَهضتْ للتَّغلبيينَ حيةٌ　　كحَيَّةِ موسى يومَ أُيِّدَ بالنصرِ

ومن قوم موسى قورحُ الذي عصى على موسى مع داثان وأبيرون، فخُسِفتْ بهم الأرض (سفر العدد، ١٦: ٢٤) والعرب يدعونه قارون ويضربون المثل في غناه وكنوزه.

بني إسرائيل على يده من رِقِّ المصريين، فمن ذلك ما ورد في كتاب البدء (١: ٧٥)؛ وفي سيرة الرسول (ابن هشام، ص١٤٥–١٤٦)؛ وفي خزانة الأدب (١: ١١٩؛ و٤: ٢٤٣ في الهامش) لزيد بن عمرو، ورُوِيَت أيضًا لأُمَيَّة:

رضيتُ بكَ اللهم ربًّا فَلن أُرَى — أَدينُ إلهًا غيركَ الله ثانِيا[٩٣]
وأنتَ الذي من فِضْلِ مَنٍّ[٩٤] ورحمةٍ — بعثتَ إلى موسى رسولًا مناديا
وقلتَ له فاذهب وهارون فادْعُوَا — إلى الله فرعونَ الذي كان طاغِيَا[٩٥]
وقُولَا له أأنتَ سَوَّيتَ هذه — بلا وتدٍ حتى اطمأَنَّتْ[٩٦] كما هِيَا؟
وقُولَا له أأنت رفعتَ هذه — بلا عمد أَرْفِقْ إذًا بكَ بانيا[٩٧]
وقُولا له أأنتَ سَوَّيتَ وَسْطَها — منيرًا إذا ما جَنَّه الليلُ ساريا؟
وقُولا له مَن يرسلُ الشمس غدوةً — فيصبح[٩٨] ما مَسَّتْ من الأرض صاحيا؟
وقُولا له مَن أنبتَ الحَبَّ في الثرى — فأصبحَ منه البقلُ يَهتزُّ رابيا؟[٩٩]
ويُخرجُ منه حَبَّةً[١٠٠] في رُءوسه — وفي ذاكَ آياتٌ لمن كان واعيا

وروَى المَقدِسيُّ في كتاب البدء (٣: ٨٢) لأُمَيَّة بن أبي الصَّلْت يَذكُر صَلَف فرعون وعقابه:

ولِفرعونَ إذ تُساق له المَاءُ — فَهلَّا للهِ كان شَكورا
قال إني أنَا المُجِيرُ على النا — سِ ولا رَبَّ لي عَليَّ مُجِيرا

[٩٣] وفي خزانة الأدب (٤: ٢٤٣): راضيا.
[٩٤] فيها (١: ١١٩): من فضل سيب.
[٩٥] روي في كتاب البدء: فادعوا، وهو مكسور الوزن، وروي في الخزانة: «وقلت لهارون: اذهبا فتظاهرا على المرء ...» وهي رواية مغلوطة.
[٩٦] في كتاب البدء: أنت سَمَكْتَ هذه بلا عمد حتى استقرت؛ وفي بلوغ الأرب لشكري أفندي الآلوسي (٢: ٢٨٢): «أأنت الذي سويت.» ووزنه مختل.
[٩٧] في سيرة الرسول: بك هاديًا.
[٩٨] في كتاب الخزانة: «من أخرج الشمس بكرة فأصبح».
[٩٩] صَحَّفَه في كتاب البدء بروايته: «من يُنبتُ الحي والثَّرَى فتصبحُ ... راسيا.»
[١٠٠] في الخزانة: «فأصبح منه حبه».

فمحاه الإلهُ من درجاتٍ نامياتٍ ولم يكن مَقهورا[١٠١]
سُلِبَ الذِّكرَ في الحياة جَزاءً وأراه العذابَ والتَّغييرا
وتَداعَى عَليهمُ البحرُ حتَّى صار موجًا وراءَهُ مُستطيرا
فدعا الله دعوة لا تُهَنَّأ بعد طُغيانه فصارَ مُشيرا[١٠٢]

وممن ذكروا موسى وفرعون السموءل حيثُ قال (راجع: ديوانه، ص٣١):

أَلسنَا بني مصر المُنَكَّلَة التي لنا ضُرِبتْ مِصرٌ بِعَشر مَناكلِ؟
ألسنا بني البَحرِ المُغرِّقِ والتي لنا غُرِّق الفرعونُ يومَ التَّحامُلِ؟

ومثله للقطامي في غَرَق فرعون (ديوانه، ص٨٤، ed. Barth):

وشُقَّ البحرُ عن أصحابِ موسى وغُرِّقَتِ الفراعنةُ الكِفَارُ

وقال الأعشى مشيرًا إلى أكل بني إسرائيل المَن والسَّلوى في البرية (سيرة الرسول، لابن هشام، ٣٦٨؛ ولسان العرب، ١٩: ١١):

لو أُطْعِموا المَنَّ والسَّلوى مَكانَهم ما أَبْصَر الناسُ طُعْمًا فِيهمُ نَجَعا

وللسموءل يصف ما جرى في البرية لبني إسرائيل (ديوانه، ص٣١):

وأَخرجَه الباري إلى الشَّعْب كي يرى أعاجيبَه مع جُودِه المتواصلِ
وكيما يَفوزُوا بالغنيمةِ أهلُها من الذَّهبِ الإبريزِ فوق الحَمائلِ
أَلَسْنا بني القُدْس الذي نُصب لهم غمامٌ يَقيهم في جميع المراحلِ؟
من الشمس والأمطارِ كانتْ صيانةً تُجير نَوادِهيم نُزولَ الغوائلِ
أَلَسْنَا بني السلوى مع المَنِّ والذي لهم فَجَرَ الصَّوَّانُ عَذبَ المناهلِ؟
على عددِ الأسباطِ تَجري عيونُها فُراتًا زُلالًا طعمه غيرُ حائلِ
وقد مكثوا في البَرِّ عمرًا مُحدَّدًا[١٠٣] يغذيهم العالي[١٠٤] بخيرِ المآكلِ

[١٠١] كذا في الأصل، ولعل في البيت تصحيفًا، والمقهور المغلوب.
[١٠٢] نظن أن الرواية مصحفة.
[١٠٣] في الأصل: مجددًا.
[١٠٤] ويروى: البارئ.

فَلَم يَبْلُ ثوبٌ مِن لباسٍ عليهمُ ... ولم يُحْوَجُوا النَّعْلَ كلَّ المنازلِ
وأرسلَ نورًا[١٠٥] كالعمودِ أمامهم ... يُنيرُ الدُّجى كالصبح غير مُزايِلِ
أَلَسْنَا بني الطُّورِ المُقدَّسِ والذي ... تَدَخْدَخ[١٠٦] لِلجبَّارِ يومَ الزلازلِ؟
ومِن هَيْبةِ الرحمنِ دُكَّ تذللًا[١٠٧] ... فَشرَّفه الباري على كل طائلِ
وناجَى عليه عَبْدَه وكَلِيمَه ... فقَدَّسَنا لِلربِّ يَومَ التَّباهُلِ

(١-١٠) القُضاة إلى داوُد

كان خلَفَ موسى في قِيادة شَعب إسرائيل يشوعُ بن نون، ولم نجد اسْمَه في الشعر الجاهلي، وإنما ذَكَر الشَّريشي في شرح مقامات الحريري (١: ٨٠) بَيتين للرُّصَافي الشاعر يخاطب وجيهًا اسمه موسى فيهما إشارة إيقاف يشوع للشمس فقال:

وعَشيَّ أُنسِئَ للسرور، وقد بدَا ... من دون قُرْص الشمس ما يتوقَّعُ
سقطتْ ولم تَملكْ يَمينُك رَدَّها ... فَوددتُ يا موسى لو انَّكَ يُوشعُ

وقد ذكر المسعودي في مروج الذهب (طبعة باريس، ١: ٩٨) أبياتًا لشاعر جاهلي اسمه عوف بن سعد الجُرْهُمي يذكر فيها حرب يشوع للعمالقة وقَتْلَه لملكهم مَلِك أَيْلة الذي دعاه السَّمَيدَع بن هوبر فقال:

أَلَمْ تَرَ أن العِمْلِقيَّ بنَ هُوبرٍ ... بأَيْلةَ أمسى لَحمُه قد تَمزَّعَا
تَداعتْ عليه من يهودٍ جحافلٌ ... ثَمانينَ ألفًا حَاسرينَ ودُرَّعا
فَأمسَتْ عِدادُ للعَماليقِ بَعدَه ... على الأرض مشيًا مُصْعِدِين وفُرَّعا[١٠٨]
كأنْ لم يكونوا بين أجبالِ مكة ... ولم يَرَ راءٍ قَبْلَ ذاك سَمَيْدَعا

ثم ذكروا أول ملك بني إسرائيل المُسمَّى شاؤل وهم يَدْعُونه طالوت، قال السموءل (ديوانه، ص١٢):

وانفلاقُ الأمواجِ طُورَينِ عَن مو ... سى وبَعدُ المُملَّكُ الطالوتُ

[١٠٥] ويروى: وانصب نورًا.
[١٠٦] ويروى: تدكدك.
[١٠٧] ويروى: أليس تطأطأ بالجليل تذللًا.
[١٠٨] وفي طبعة مصر (١: ٢٢): «فُزَّعا» بالزاي.

وذكره صاحب القرآن في سورة البقرة (٤: ٢٤٨): ﴿إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾.

(١-١١) داؤود الملك

تكرَّر اسمه في الشعر الجاهلي، ولم يكد الشعراء يذكرون من أمره غير وَضْعِه للزبور وسَرْدِه للدروع، إلا أن السموءل أشار إلى قَتْله جُلْيَات وهو يدعوه جالوت، قال (ديوانه، ص١٣):

ومُصاب الأفْريس حِين عَصى اللهَ　　وإذ صـابَ حَـيْـنَـه الـجـالـوتُ

وفي القرآن (٢: ٢٥٢): ﴿وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ﴾.
وقد ذكره عبيد بن الأبرص (خزانة الأدب، ١: ٣٢٣) بيانًا لطول عمره:

وطلبتُ ذا القرنينِ حتى فاتَنِي　　ركْضًا وكدتُ أن أرَى دَاؤُودا

وقال الأعشى يذكر حوادث الدهر (حماسة البحتري، ص٩٠):

ومَرُّ الليالي كلَّ وقتٍ وساعةٍ　　يُزَعزِعْن مُلكًا أو يُباعِدْنَ دانِيا
وَرَدْنَ على دَاوُدَ حتى أَبَدْنَه　　وكان ينادي العيشَ أخضَرَ صافيا

وقد أكْثَروا من ذِكر داوُد ونَسْجِه للدروع ولا نَعلم على أي نص استَنَدوا في إثبات ذلك، قال طرفة (شعراء النصرانية، ٣٠٩؛ وديوانه، ص٥٨، ed. Seligson):

وهُمُ ما هُمْ إذا ما لَبِسوا　　نَسْجَ دَاوُودَ لبأسٍ مُحْتَضِرْ

وقال حصين بن الحمام المُرِّي (حماسة أبي تمام، ص١٨٩) يصف كتائب كان يقودها عمرو بن هند ملك الحيرة الملَقَّب بالمُحَرِّق:

عليهنَّ فِتيانٌ كساهم مُحرِّقٌ　　وكان إذا يَكسو أجادَ وأكْرَما
صَفائِح بُصْرَى أَخْلَصَتْها قُيونُها　　ومُطْرَدًا من نَسْجِ دَاوُودَ مُبْهَما[١٠٩]

[١٠٩] وفي المعرب للجواليقي (ص٢٥): مُحْكَما.

وكذلك جاء في حماسة أبي تمام (ص٢٨٤) لحُسَيل بن سُجَيع الضَّبِّي في وصف الدرع:

وبيضاءُ من نسجِ ابن دَاؤودَ نَثْرَة تَخيَّرتُها يومَ اللقاء مَلابِسا

ومثله للبيد (حماسة البحتري، ص٨٤؛ وديوانه، طبعة الخالدي، ٨٣) في كوارث الزمان:

ونَزَعْن من دَاوودَ أَحسنَ صُنْعِه ولقد يكونُ بقوَّةٍ ونَعيمِ
صنَعَ الحديدَ لحِفْظِه إسْرادُه لينالَ طُولَ العيشِ غَيْرَ مَرُومِ

ومثلهم قال الأعشى (شعراء النصرانية، ٣٨٨):

وأَعددتُ للحربِ أوزارَها رماحًا طوالًا وخيلًا ذُكُورا
ومِنْ نَسْجِ دَاوودَ يُحْدَى بها على أَثَر العِيس عِيرًا فَعِيرا

وكذا لسلامة بن جَنْدَل (الأصمعيات، ص٥١) في وصف درع:

مداخَلةٍ مِن نسجِ دَاوودَ شكُّها كَحبِّ الجَنا مِن أَبْلَمٍ مُتفرِّقِ

وله أيضًا (راجع: طبعتنا لديوانه، ص١٤):

لَبِسوا من المَاذيِّ كلَّ مَفاضةٍ كالنَّهْي يومَ رِياحِهِ الرَّقْراقِ
مِن نَسجِ دَاوودَ وآلِ مُحرِّقٍ غالٍ غرائبُهُنَّ في الآفاقِ

أما زَبُور داود فقد مرَّ لنا ما ورد فيه من شِعْر العرب (راجع ما سبق [القسم الثاني، الجزء الأول، الوحي وكُتُبه وأئمته]).

(١-١٢) سُليمان الحكيم

أطنبَ شعراء الجاهلية في حكمة سليمان وسَمُّو سلطانه وأبنيته العجيبة التي ذكرها الكتاب الكريم في سفر الملوك الثالث وأخبار الأيام الثاني، ويزيد العرب أن سليمان كان يَقْهَر الحيوان ويُسخِّر الجن للقيام بأعماله الجبارية، فمن ذلك قول النابغة من قصيدة مدَح فيها النعمان فجعله مقتفيًا لآثار سليمان في تسخيره الجن لبناء تَدمر (ديوانه في العقد الثمين، ص٧؛ وشعراء النصرانية، ٦٦٣):

ولا أرى فاعلًا في الناس يُشبِهُه ولا أُحاشي من الأقوامِ من أحدِ[١١٠]
إلا سليمانَ إذ قال الإلهُ له قُم في البَرِيَّة فاحدُدْها عن الفَنَدِ[١١١]
وخَيِّس الجنَّ إني قد أذنتُ لهم يَبنُون تَدمُر بالصفاح والعَمَدِ[١١٢]
فمَنْ أطاعكَ فانفعه بطاعته[١١٣] كما أطاعكَ وَادْلُلْهُ على الرَّشَدِ
ومن عصاكَ فعاقِبْه مُعاقبةً تَنهى الظَّلُوم ولا تَقعدْ على ضَمدِ[١١٤]

وكذلك قد نَسب أعشى قيس بِناء قصر الأبْلَق الفَرْد إلى سليمان بن داؤود حيث قال (معجم البلدان، ١: ٩٣؛ وشعراء النصرانية ص٣٧٥):

ولا عاديًا لم يمنع الموتَ مالُه ووِرْدٌ بتيماء اليهودي أَبلقُ
بَناه سليمانُ بنُ دَاوودَ حقبةً له أَزجٌ عالٍ وطيٌّ مُوثَّقُ
يُوازِي كُبَيْداءِ السماءَ ودونَه بلاطٌ ودَاراتٌ وكأسٌ وخَندقُ

وللأعشى أيضًا في سليمان وسعة ملكه وتَسخيره للجن (كتاب البدء، ٣: ١٠٨):

فلو كان حيًّا خالدًا ومُعمَّرًا لكان سليمانُ البريءُ مِن الدَّهرِ
بَراهُ إلهي واصطفاه عِبارةً ومَلَّكه ما بين سَرفَى إلى مِصرِ[١١٥]
وسَخَّر من جِنِّ الملائكِ شِيعةً[١١٦] قيامًا لديه يعملون بلا أَجرِ[١١٧]

---

[١١٠] ويروى: «وما أرى ... وما أحاشي.»

[١١١] ويروى: ولا سليمان إذ قال المليك له، ويروى: كن في البرية ... عن العند، ويروى: واردها عن الفند، ويروى: وازجرها عن الفند، والفند: الخطأ.

[١١٢] خَيَّسه: ذَلله، وتدمر: المدينة الشهيرة التي ذُكِر في سفر الملوك الثالث (٩: ١٨) أن سليمان بانيها، والصفاح الحجارة العِراض، وروى الثعلبي في قصص الأنبياء:

وجَيِّش الجَيْش إني قد أبحتُ لهم بناء تَدْمُر بالأحجار والعَمَدِ

[١١٣] ويروى: فأعقبه لطاعته؛ أي جازه.

[١١٤] الضمد: الذل والظلم.

[١١٥] قوله: «عبارة» لعله تصحيف «عباده» أما سرفى فلم نجد لها ذكرًا في كتب البلدان، وقد زعم المسيو هوارت Ch. Huart أنها صرفند، وأن الأعشى اشتقها من اليونانية Σαρεφθά.

[١١٦] روي في لسان العرب (١٦: ٢٥١)؛ والتاج (٩: ١٦٥): تسعة.

[١١٧] روي في التاج (٩: ١٦٥): «يعملون محاربًا». بتغيير القافية غلطًا.

وقال الأعشى (حماسة البحتري، ص٩٠) في تسخير الجن لسليمان:

فذاك سليمانُ الذي سَخَّرت له ‏‏ مع الإنسِ والجنِّ الرياح المَراخِيَا

ولأُمَيَّة بن أبي الصَّلْت في قهر سليمان للجن (اللسان، ١٩: ٢١٥):

أَيُّما شاطنٍ عَصاه عكاهُ ‏‏ ثم يُلْقى في السجن والأغلالِ

ومثله لشاعر حميري (حماسة البحتري، ص٨٧) في صروف الدهر:

خَطفنَ سليمانَ الذي سُخِّرَتْ له ‏‏ شياطينُ جِنٍّ من بريء وذي جُرْمِ

وكذا قال عدي بن زيد (حماسة البحتري، ص٨٦):

ومُلكَ سليمانَ بنِ دَاوُودَ زَلزلَتْ ‏‏ ورَيْدانَ قد أَلحقْنَه بالصَّعائدِ

وقد مر سابقًا أن اسم سليمان ورَد على صور أخرى كسالم وسلَّام وسُلَيْم (راجع [القسم الثاني، الفصل الثالث، الأعلام النصرانية المستعارة من الأسفار المقدسة]):

(١-١٣) يونان النبي

لم نجد في الشعر الجاهلي ذكرًا لأحد ملوك بني إسرائيل بعد سليمان، وكذلك الأنبياء إلا يونان النبي فإنهم يَدعُونه يونس ويشيرون إلى قصته وبعثته إلى أهل نينوى فيذكرون ابتلاع الحوت له، قال أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت (شعراء النصرانية، ص٢٣١؛ وسيرة الرسول، لابن هشام، ص١٤٦):

وأنتَ بفضلٍ منكَ نَجَّيتَ يُونسًا ‏‏ وقد باتَ في أضعافِ حوتٍ لَياليا
رسولًا لهم واللهُ يُحكِم أمْرَه ‏‏ يبين لهم هل يُؤْنِسُ التربُ بادِيا

وقد ضربوا المثل في حوته فقالوا: «آكَلُ مِن حوتِ يونس.» و«أَنْهَمُ مِن حوت يونُس» وكذلك ورد ذكره في القرآن في سورة الصافات حيث قال (ع١٣٩–١٤٨): ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ * فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ * فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ * وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ * وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ * فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾، وقد ورد للفرزدق أبيات في نجاة يونان من

بطن الحوت فقال في ابن هبيرة حين ثَقَب سجنَ خالدِ بن عبد الله القَسْرِي وعَبَر الفرات (محاضرات الأدباء، ٢: ١١٤؛ والفَرَج بعد الشدة للتنوخي، ١: ١٢٨):

ولما رأيتَ الأرضَ قد سُدَّ ظَهرُها ولم تَرَ إلا بطنها لك مَخرجا
دعوتَ الذي ناداه يونسُ بعدَما ثَوَى في ثلاثٍ مُظلِماتٍ فَفُرِّجَا

وروى في كتاب البدء (١: ٧٦) بيتًا لصرمة بن أنس المعروف بالراهب فيه إشارة إلى قصة يونس، ولعل البيت مُصَحَّف:

وله الراهبُ الحَبيسُ تراه رَهْنَ يُونَسَ[١١٨] وكان نَاعمَ بالِ

وقد وجدنا في بعض مخطوطات باريس العربية «كتاب تاريخ الحيوان والنبات والجماد» (Ms 687 de Paris, ff. 65) بيتًا لأمية يذكر فيه اليقطينة التي أَنْبتَها الله ليستظل تحتها وأيبستها الشمس (سفر يونان، ٤: ٣–٧):

فأنبتَ يقطينًا عليه برحمة من الله لولا اللهُ أَبَقِي[١١٩] صاحِيا؟

ونُضيفُ إلى ما سبق بيتًا رواه الجاحظ لأمية (كتاب الحيوان، ٧: ١٧) ذكر فيه نُبوَّة حِزْقِيال التي رآها حيث ظهر له رجل ثم أسد ثم ثور ونسر، وهي الحيوانات الرمزية المشار بها إلى الأربعة الإنجيليين؛ أعني مَتَّى الذي بدأ إنجيله بذكر ناسوت السيد المسيح ونَسبه، ثم مرقس الذي افتتح إنجيله ببشارة يُوحَنَّا المعمدان كزئير الأسد في البرية، ثم لوقا الذي ذَكَر في بدء إنجيله ضحية زكريا في الهيكل، وأخيرًا يُوحَنَّا الذي ارتفع كالنسر بوصف مَولِد ابن الله الكلمة الأزلية، وهذا هو البيت:

رجل[١٢٠] وثور تحتَ رِجْلِ يَمينه والنَّسرُ للأخرى ولَيثٌ مُوصَدُ[١٢١]

١١٨ كذا في الأصل، ولعل الصواب: «رهن يونا» بدلًا من يونان ليستقيم الوزن.

١١٩ كذا في الأصل ونظن الصواب: ما يقي صاحيا.

١٢٠ رواه الدميري في حياة الحيوان: «زحل» وهو تصحيف.

١٢١ وفي عجائب المخلوقات للقزويني (ص٥٦): وليث ملبد.

وكذلك ورد في الشعر الجاهلي اسم حَيقار أو حَيْقر المذكور في الترجمة اليونانية من سفر طوبيا (١: ٢٣)، وله قصة طويلة عند العرب نشرها حضرة الأب أنطون صالحاني في ملحقات ألف ليلة وليلة، قال عدي بن زيد (حماسة البحتري، ص٨٦) في بلايا الدهر:

عَصَفْنَ على الحَيْقارِ وَسْطَ جُنودِه ... وبَـيَّـتْـنَ فـي لـذَّاتـه رَبَّ مـاردِ

هذا ما وقفنا عليه في الشعر الجاهلي من منقولاتهم عن العهد القديم إلا أن في رواياتهم النثرية ما كان أوسع وأدل لولا أن معظمها قد فُقِد وإنما حُفِظ منها قسم في تاريخ المُؤرِّخِين الأقدمين كتاريخ الطبري أو كتبهم الأدبية ككتب الجاحظ، وكثير منها مُدوَّن في القرآن، ومن هذه الروايات ما هو موافق لنصوص الكُتب المُقدَّسة منقول عنها بحرفها أو بمعناها، ومنها ما تَجِدُه في كتب مصنوعة نُسِبَت زورًا إلى أنبياء أو رسل أو صالِحِين كبعض كتب الرؤى Apocalypses أو الوحي المَزعوم كوَصِيَّة آدمَ، وكتاب أحنوخ، وصعود أشعيا، ومناجاة موسى، وكتاب مغارة الكنوز المنسوب إلى مار أفرام، وكتب أخرى عديدة دخلتْ في بلاد العرب بواسطة النصارى، لا سيما الرهبان أو بواسطة أهل البدع واليهود، فشاعت مَضامينها الفَرِيَّة، ولم يُميِّزُوا بين صحيحها وكاذبها، وربما استند إليها بعض أعداء النصرانية في عهدنا لتخطئة الكُتب المنزلة، لكن سهامهم طائشة لا تصيب هدفًا.

(٢) أحداث العهد الجديد

كما عرف العرب في الجاهلية الأخبار المُدوَّنة في أسفار العهد العتيق كذلك عرفوا أحداث العهد الجديد وأشاروا إليها نظمًا ونثرًا.

ومعلوم أن مدار أخبار هذا العهد على ما رواه الإنجيليون الأربعة عن السيد المسيح وسيرة حياته وتعليمه وموته وقيامته، يُضاف إليها أمور ورَد ذِكرُها في التقليد الراقي إلى قرون النصرانية الأولى ودونت في تآليف عديدة بعضها صحيحة صادقة كمصنفات الآباء والكتبة القدماء، وبعضها امتزج فيها الغثُّ بالسَّمين، واختلط الباطل باليقين كبعض أناجيل الزُّور التي سبق لنا وصْفُها في المشرق سنة ١٩٠٨م (١١: ١٦٤–٢٠٥) وانتشر قسم منها في بلاد العرب بين أهل الجاهلية.

فمِمَّا عرفوه أن عيسى؛ أي يسوع الناصري هو المسيح، قال السموءل (راجع: طبعتنا لديوانه، ص٣٢):

وفي آخِرِ الأيام جاء مَسيحُنا   فأهدى بني الدنيا سلامَ التكامُلِ

والعرب لم يطلقوا هذا الاسم على غيره، بل صَرَّحوا أنه هو اسمه الخاص به، وكذلك نسبوه إلى أمه مريم[١٢٢] كما مر لعمرو بن عبد الحق:

وما سَبَّح الرُّهبانُ في كل هيكلٍ   أَبيلَ الأَبِيلِينَ المسيحَ ابنَ مريما

يؤيده قول القرآن في سورة آل عمران (ع٤٠): ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾.

وقد عرفوا من التقليد أن مريم العذراء مبارَكة بين النساء تَفُوق شرفًا على نساء العالمين فطهرها الله منذ حُبل بها بالبطن، وذلك بنعمة خاصة منه تعالى حتى إن الثعلبي روى في كتاب قصص الأنبياء المسمى بالعرائس (ص٣٣٧، من طبعة مصر) حديثًا رفعه بإسناده إلى أبي هريرة عن نبي المسلمين وهو قوله: «ما من مولود إلا والشيطان يمسه حين يُولَد فَيستهلُّ صارخًا من مس الشيطان إلا مريم وابنها.»[١٢٣] ولعل القرآن أشار إلى هذه النعمة الجلية حيث يقول (سورة آل عمران، ع٣٧): ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾.

وذكر الثعلبي أيضًا (ص٣٣٥–٣٣٨)، وروى قبله المقدسي ابن طاهر في كتاب البدء والتاريخ (ج٣: ١١٨–١٢٠، ed. Huart) خبر مولد مريم العجيب من حَنَّة العاقر بعد نذر والدتها ثم اعتزالها في هيكل أورشليم لخدمة الكهنة، ثم كفالة زكريا لها في الهيكل

---

[١٢٢] ومثله قول جرير (نقائض، ٨٣):

لَقد وجدَتْ بِالقَينِ خُور مُجاشعٍ   كوَجْدِ النَّصارَى بالمسيحِ بن مريما

[١٢٣] شرحه الزمخشري في الكشاف في سورة آل عمران قال: «ومعناه أن كل مولود يطمع الشيطان في إغوائه إلا مريم وابنها كانَا معصومَين.»

إلى حين اقترانها بالقديس يوسف وكل ذلك منقول عن التقليد المسيحي القديم وهو مروي في سورة آل عمران (ع٣١–٣٣):

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

ولم يُفْتَهم ذِكر يوحنا المعمدان السابق أمام وجْه المسيح[١٢٤] فرووا ما ورد مسطرًا في إنجيلَي لوقا ومرقس عنه أعني ميلاده العجيب على كِبَر سن والديه وبيَّنُوا مقامه بين الأنبياء وتقدمه أمام وجه المسيح وموته على يد هيرودوس أنتيباس إذ نَهاه عن الزواج بامرأة أَخِيه كما ورد في تاريخ الطبري (ج١، ص٧١١–٧٢٠)، وفي كتاب البدء والتاريخ (٣: ١١٦–١١٨).

ومما رووه بتفصيله بشارة الملاك للعذراء مريم بالمسيح وحَبَلها من الروح القُدُس وإن دخل في روايتهم منقولات ضعيفة عن كتب غير قانونية كما رأيتَ في القصيدة التي أثبتناها سابقًا (ص١٨٧–١٨٨) عن أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت التي أولها:

وفي دِينكم من رَبِّ مريمَ آيةٌ   مُنبِّئَة بالعبدِ عيسى ابن مَريما

ومثلها ما رَووهُ من المعجزات عن يسوع الطفل كتَكلُّمه في المهد، وكآياته في هربه إلى مصر من وجه هيرودوس، وفي حياته في الناصرة كانحناء أغصان النخل أمام أمه لتجني من تمرها، وكنَبات البلسان في المَطريَّة لما سقتْ أرضها بماء غُسْلِه وكإفحام

[١٢٤] روى الأزرقي في أخبار مكة (ص٨٢) لحسان بن ثابت قوله:

شهدتُ بإذنِ الله أنَّ محمدًا   رسولُ الله فوق السمواتِ من عَلُ
وأن أبا يحيى ويحيى كِلَيْهما   له عَمَلٌ في دِينه مُتقَبَّلُ
وأن الذي عادَى اليهودَ ابنَ مريم   رسولٌ أتى مِن عند ذي العرشِ مُرسَلُ

يسوع لأستاذه في الناصرة بما كان يعرضه عليه من المشاكل، وكنفخه في طير يصطنعه من طين فيحيا ويطير، وأخبار كثيرة مثلها رُوِيَت في الأناجيل الموضوعة التي شاعت في جزيرة العرب أخصها إنجيل الطفولية فتناقلها أهل الجاهلية، وروي بعضها في القرآن في السور الموسومة بآل عمران والنساء والمائدة ومريم.

وذكروا من حياة المسيح العَلنية جمعه لرسله وأنصاره الحواريين فنوَّهوا بهم في شعرهم (راجع [القسم الثاني، الجزء الأول، الوحي وكُتُبه وأئمته]) وكُرِّر ذكرهم في القرآن، وذكروا أيضًا الآيات التي اجترحها ورويت في الأناجيل كتطهير البَرَص، وفتح عيون العميان، ورَدِّ النطق للبكم والسمع للصم، وإحياء الموتى حتى ضُرِبَ المثلُ بطب عيسى، وشفاء عيسى، قال الثعالبي في كتاب «ثمار القلوب في المضاف والمنسوب» (طبعة مصر، ص٤٧):

طب عيسى يُضْرَب به المثل لأنه كان يبرئ الأكمه والأبرص ويُحيي الموتى بإذن الله، ومن أمثال العرب: فلان يَتطبَّب على عيسى ابن مريم، قال المتنبي:

فآجرَكَ الإلهُ على عَليل بَعثتَ إلى المسيح به طَبيبَا

وكثيرًا ما ذَكَروا الإنجيل الذي بَشَّر به السيد المسيح فأشاروا إلى ما فيه من الهدى والنور والموعظة للمتقين (سورة المائدة، العدد ٥٠)، قال عدي بن زيد (كتاب الحيوان، للجاحظ، ٤: ٦٦):

وأُوتِيا المُلكَ والإنجيل نقرؤُه نَشفِي بحكمته أحلامنا علَلا
من غير ما حاجةٍ إلا لِيجعلَنا فوقَ البَريَّة أربابًا كما فَعلَا

ومثله قول النابغة في بني غسَّان، وقد دعا الإنجيل بالمَجَلَّة:

مَجَلَّتُهم ذاتُ الإله ودينُهم قويمٌ فما يَرجُون غيرَ العواقبِ

وأَدرَكوا أسرارَ حياة المسيح في ختامها كدُخوله أورشليم يوم الشعانين (راجع [القسم الثاني، الفصل الأول، مفردات لنصارى الجاهلية في أعيادهم ومواسمهم السنوية]) وكعَشائه السِّرِّي في خميسِ العهد ورسمه لسِرِّ القربان الأقدس وآلامه وصليبه وموته، وإن اختلطت في أقوالهم شُبهات نقلوها عن الكتب المُزوَّرة التي رذَّلَتْها الكنيسة

منذ ظهورها، وقد سبق لنا [القسم الثاني، الفصل الأول، مُفرَدات نصارى الجاهلية الخاصة بكنائسهم وأقداسها] إيراد أقوالهم في القربان، وتَسميتهم له بالشَّبَر، وقلنا هناك: إنه ليس بمُستبعدٍ أن القرآن في سورة المائدة (ع١١٢–١١٦) بذكره للمائدة التي أنزلها السيد المسيح على الحواريين إنما أشار إلى المائدة السماويَّة؛ أي القربان الأقدس (راجع: تاريخ الطبري، ج١، ص٧٣٥)، وكذلك عرفوا في عهد الجاهلية أن النصارى يَعبدون المصلوب (راجع [القسم الثاني، الفصل الأول، مُفرَدات نصارى الجاهلية الخاصة بكنائسهم وأقداسها]) كقول حجَّار بن أبجر في بني عِجْلٍ النصارى:

يُهدِّدُني عِجلٌ وما خِلتُ أنني خلاةٌ لعِجْلٍ والصليبُ لها بَعْلُ

وكقول الأقيشر:

في فتيةٍ جعلوا الصليبَ إلَهَهُم

ومما أَلْمَعُوا إليه ذِكْر قيامة المسيح يوم الفِصح وابتهاج النصارى فيه بعد الصوم الأربعيني (راجع [القسم الثاني، الفصل الأول، مفردات لنصارى الجاهلية في أعيادهم ومواسمهم السنوية])، كما قال الأعشى في هوذة بن علي لما فكَّ أسارى تميم:

ففكَّ عن مائةٍ منهم إسارَهمُ وأصْبَحوا كلُّهم من غُلِّهِ خُلُعا
بِهم تَقرَّب يومَ الفِصح ضاحيةً يرجو الإلهَ بما أسدى وما صَنعَا

وآخِرُ ما رَوَوا من أعمال المسيح صعوده إلى السماء وهو عيد السُّلَّاق (راجع: ص٢١٧)، وقد دعا القرآن ذلك برفع عيسى (سورة آل عمران، ع٢٨) حيث قال: ﴿قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾.

ويضيفون إلى ذلك أن السيد المسيح هو الذي يدين البشر في آخِر العالم بعد انتصاره على المسيح الدجال كقول القائل: «إذ المسيحُ يَقتُل المسيحا» (لسان العرب، ٣: ٤٣٠)، وكما قال أُميَّة بن أبي الصَّلْت (راجع [القسم الثاني، الفصل الأول، الدين ومقاماته ومناسكه]):

أيَّام يَلْقى نَصاراهم مَسيحَهُمُ والكائِنينَ له ودًّا وقُربانَا

وهذا بلا شك أخذوه من قول السيد المسيح في إنجيل يوحنا (٥: ٢٢): «إن الآب لا يَدينُ أحدًا، بل أعطى الحكم كله للابن ليكرم الابن جميع الناس.» أو من قوله في إنجيل متَّى (١٦: ٢٧): «إن ابنَ البشر مُزمِع أن يأتي في مَجْد أبيه مع ملائكته ليجازي كل أحد بحسب أعماله.»

وكما وقَف العرب في الجاهلية على كثير من أخبار السيد المسيح المُدوَّنة في أسفار العهد الجديد اطلعوا أيضًا على بعض الأحداث التي جرت للنصارى في الفترة التي كانت بين السيد المسيح وظهور الإسلام، من ذلك بَعْثَة رسل المسيح إلى أقطار العالم ليدعوا الأمم إلى دينه، كما روَى ذلك أقدم كتبة العرب كالطبري في تاريخه (ج١، ص٧٣٧–٧٣٩)؛ وابن طاهر المقدسي في كتاب البدء والتاريخ (ج٣، ص١٢٧)، ويقول مُفسِّرُو القرآن: إن ما ورد في سورة يس عن مُرْسَلَين أُرْسِلا إلى قرية لَيدعُوَا أهلها إلى نَفْي عبادة الأصنام والإيمان بالله إنما يُشير إلى حوارِيَّيْن وهما شَمعون الصفا هامة الرسل، وبولس الرسول قَدِمَا إلى أنطاكية ليَرُدَّا أهلها فقَبِل دعوتهم رجلٌ يدعونه حبيبًا النجار قُتِل شهيدًا عن إيمانه وعاقب الله قاتليه (اطلب: تاريخ الطبري، ج١، ص٧٨٩–٧٩٣).

ومما رَوَوه من أخبار النصارى نقلًا عن كتبتهم قصة شهداء أفسس السبعة الذين أراد الملك دقيوس في أواسط القرن الثالث للمسيح أن يضطرهم على عبادة الأصنام، فهربوا من وجه الحكام واختفوا في مغارة حيث قيل: إن الله ضرب على آذانهم فناموا ولم يستيقظوا إلا بعد سنين طويلة مَرَّت عليهم كليلة فبعثهم الله ليكونوا آية لقيامة الموتى، فهذه القصة التي شاعت في عدة بلاد وروتها مجاميع أخبار القِدِّيسين تحت اسم «السبعة النوام» Les Sept Dormants بلغت عرب الجاهلية فدَعَوْهم أصحاب الكهف إشارة إلى الكهف الذي رَقَدوا فيه، وقد ذكرهم أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت في أبياتٍ لم يعرف منها غير بيت استشهد به البيضاوي في تفسير القرآن (طبعة ليدن، ص٥٥٥):

وليس بها إلا الرقيمُ مجاورًا وصَيدُهم والقومُ في الكهفِ هُجَّدُ

وكذلك ورَدتْ أخبارهم في القرآن في سورة الكهف، وقد اتسع كتَبة العرب في تفاصيلها كما نقَلْناها في كتابنا «مجاني الأدب» (٢: ٢٣٦) ملخصة عن الدميري وتجدها أيضًا مُفصَّلة في تاريخ الطبري (ج١: ٧٧٥–٧٨٢).

وقد عرفَ العرب في الجاهلية شهيدًا آخر للنصرانية وهو القديس جرجس المستشهد في عهد ديوقلسيانوس في أوائل القرن الرابع للمسيح نحو السنة ٣٠٢، وهم يدعونه بالخضر جعلوه من الأنبياء، وزعم الطبري (ج٧، ص٧٩٥) «أنه أدركَ بقايا من حواريي عيسى ابن مريم» ورووا في استشهاده العجائب الغرائب.[١٢٥] وقد وجدوا بين الكنائس المشيدة لإكرامه كنيسة تَرْقَى إلى القرن الرابع للمسيح في جهات العرب، وهي أقدم الكنائس على اسم ذاك الشهيد العظيم بُنِيَت سنة ٣٦٧م في مدينة شقة من أعمال حوران.[١٢٦]

وقد سبق لنا (اطلب [الجزء الأول، الباب التاسع]) أن عرب الجاهلية عرفوا أيضًا القديسين الشهيدين سرجيوس وباخوس، وأن أقدم أثر كُتِب بالعربية إنما كان لتذكارهما، وقد رسمنا هناك صورة ذاك الأثر الراقي إلى سنة ٥١٢ للمسيح، وروينا ما أثبته أحد مشاهير السريان عن تَعبُّد العرب في الجاهلية للقديس سرجيوس، كما أننا ذَكرْنا أقوال الشعراء في خروجهم إلى الحرب تحت راية ذاك الشهيد [الجزء الأول، الباب التاسع].

واشتهر بينهم شهداءُ نجران الذين ماتوا في سبيل دينهم في وسط العرب فعَرفُوهم بأصحاب الأخدود؛ لأن ذا نؤاس الطاغية الحميري اليهودي ألقاهم في أخاديد أضرم فيها النار فاستشهدوا لكرامة دين المسيح وإليهم أشار القرآن في سورة البروج حيث قال (ع١–٩):

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ * وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ * وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ * قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ * وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

---

[١٢٥] راجع في: المشرق، ٦، ١٩٠٣م، ٣٨٥–٣٩٥ مقالة جَمَعْنا فيها ما يعرف من آثار هذا الشهيد ثم أضفنا إليها أثرًا آخر أثبتناه في المجلة عينها (١٠، ١٩٠٧م، ٤١٤–٤٣٠)؛ اطلب أيضًا تاريخ الطبري (١، ص٧٩٥–٨١٢).

[١٢٦] راجع: مجموع الكتابات اليونانية (CIG nº 8609)؛ وكتابات وادنغتن (Wadington, nº8 1981, 2038, 2092, etc).

أما ذو نؤاس فحاربَه الحبش وغلبوه وانتزعوا بلاد اليمن من يده وفيه يقول عمرو بن معدي كرب (كتاب العرائس، للثعلبي، ص٣٨٦؛ وكتاب البدء والتاريخ، ٣: ١٨٣):

أَتُوعدُني كأنَّك ذو رُعينٍ بأنعمِ عيشةٍ أو ذو نُؤاسِ
وقدمًا كان قَبلَك في نعيمٍ[١٢٧] وملكٍ ثابتٍ في الناس راسي
فقدتُم عهده[١٢٨] من عَهدِ عادٍ عظيم قاهر الجبروت قاسي
فأمسى أهْلُه بادُوا وأمسى ينقل[١٢٩] في أُناسٍ من أُناسِ

ومما درَى به أيضًا عربُ الجاهلية من أمور النصارى نظام كنيستهم من رئيس ومرءوس؛ كالبطاركة والمطارنة والكهنة والمؤمنين مع ما لهم من الطقوس الدينية والأسرار المُقدَّسة والعادات التقوية، وقد أثبتنا ذلك في الفصول السابقة بيانًا لانتشار النصرانية في جزيرة العرب فَلْيُراجع.

[١٢٧] روى في كتاب البدء والتاريخ (٣: ١٨٣): وكائن كان قبلك من نعيم.
[١٢٨] وفيه: قديم عهده.
[١٢٩] وفيه: يحوَّل.

الفصل الخامس

في الأمثالِ العربيةِ المنقولة عن الأسفار المقدَّسة

يَعرف القُرَّاء ما كان للأمثال الدارجة من الشهرة والاعتبار بين عرب الجاهلية، فإنهم أودعوها أخبارهم وضمنوها حكمهم، وكانوا يحلون بها صدور محافلهم ويدرجونها في خطبهم، وينظمونها في أسلاك قصائدهم وينقلونها في أنحاء جزيرتهم حتى ضرب المثل في سيرها فقالوا: أسير من مثل، وإنما فَضَّلُوها لأربع فوائد وجدوها فيها كما قال أحدهم: اجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام إيجاز اللفظ وإصابة المعنى وحسن التشبيه وجودة الكناية، وهذه الخواص تنطبق كلها مع غرائز العرب وأطباعهم، إذ عَرفوا بالرزانة والتَّروِّي في الكلام وإيراد الحِكَم البليغة باللفظ الوجيز، وقد أشار صاحب سفر الملوك الثالث إلى حكمة العرب هذه عند كلامه عن حكمة سليمان، وقد سماهم هناك بأهل المشرق فقال (٤: ٣٠): «ففاقَتْ حكمةُ سليمان حكمةَ جميع أهل المشرق.» ثم ذكر بعض العرب المشهورين بذلك.

ولما ظهر الإسلام وأخذ اللغويون يجولون في أحياء العرب ليجمعوا شِعْرَهم ومآثرهم الأدبية جعلوا لأمثالهم شأنًا عظيمًا، وكان أول مَن أخذ يجمعها عُبَيد بن شَرِيَّة وصُحار العبدي كانَا في عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان، ولكليهما كتاب في الأمثال واشتهر بعدهما المُفضَّل الضبي في أوائل الدولة العباسية، وقد طُبِعَت أمثاله في الآستانة، ثم تبعه أبو عُبَيد القاسمُ بن سلام، وله كتاب الأمثال السائرة، ثم الأصمعي، وأبو زيد، وأبو عبيدة النحوي، ثم هشام الكلبي صاحب كتاب «أمثال حِمْيَر»، ثم ابن الأعرابي وله «تفسير الأمثال»، وابن قتيبة مؤلف «حكم الأمثال»، ثم العسكري مؤلف «جمهرة الأمثال»، حتى قام الميداني شهاب الدين أحمد النيسابوري (+٥٣٩هـ/١١٤٥م)، فوضع كتابه «مجمع

الأمثال» وضمَّنَه نيفًا وستة آلاف مَثَلٍ جمعها من أكثر من خمسين كتابًا ورتبها على حروف المعجم (ونحن نشير في كلامنا إلى طبعة بولاق، سنة ١٢٨٤م).

وقد راجعنا ما تَيَسَّر لنا من هذه المجاميع لعلنا نقف على أصول تلك الأمثال فوجدنا عددًا منها نقل بلفظه أو بمعناه عن أسفار العهدين القديم والحديث ما يدل على أن قائليها عرفوا كتب النصارى المنزلة وخالطوا النصارى ولعل قومًا منهم كانوا نصارى، فلم يصعب عليهم أن يضربوا الأمثال نقلًا عن كتب كانوا يسمعونها في مجتمعاتهم الدينية.

وها نحن نورد هنا هذه الأمثال إثباتًا لقولنا، ونشير إلى الآيات الكتابية المأخوذة عنها، ولم ننقل غير الأمثال الراقية إلى عهد الجاهلية أو أوائل الإسلام ما يدل على هذا النفوذ النصراني بين العرب، ونقسم هذا الفصل أربعة أقسام:

(١) إن بينَ الأمثال العربية قسمًا كبيرًا ورَد على صورة أفعل التفضيل، ذكره الميداني في آخر كل باب من حروف المعجم، وهذه الأمثال مبنية على ما خصت به المواليد الطبيعية من الصفات اللازمة لها كنور الشمس وحلاوة العسل وشجاعة الأسد، فهذه الأمثال التي نُقِلَت عن العرب ليست خاصة بهم، وقد سبقهم إلى استعمالها أصحاب الأسفار المنزلة في العهدين القديم والحديث، سواء قيل: إن العرب استعاروها من تلك الأسفار، أو إنهم أوردوها بمجرد نظرهم إلى الطبيعة.

فمنها أمثال مبنية على الطبيعة الجامدة كالفَلَك، وظواهر الجوِّ، والمعادن، نذكر هنا ما عثرنا عليه من ذلك، يقول العرب: أحسنُ من الشمس والقمر (الميداني، ١: ٢٠١)، وأبهى من القمرين (م١: ١٠١)، وأشهر من البدر (م١: ٣٤٣)، وأثقب من النجوم وأرفع من السماء (م١: ٢٧٨)، وأبين من فَلَق الصبح (م١: ١٠٣)، وأنور من وضح النهار (م٢: ٢٦٢)، فهذه الأمثال قد سبق إليها كلها الكتاب الكريم، مثال ذلك قول سفر الحكمة (٧: ٢٩) عن الحكمة: «إنها أبهى من الشمس وأسمى من كل مركز للنجوم، وإذا قيست بالنور تَقدَّمتْ عليه.» وكقول ابن سيراخ (١٧: ٣٠): «أي شيء أضوأ من الشمس؟!» وكقول سفر الأناشيد (٦: ٩): «من هذه المشرفة كالصبح الجميلة كالقمر المختارة كالشمس؟»

ويقول العرب: آكَلُ مِن النار! (م١: ٧٤)، وقال أشعيا النبي قبلهم (٣٠: ٢٧): «هو ذا اسم الرب يأتي من بعيد … وشَفتاه مملوءتان سخطًا ولسانه كنار آكلة.» وضربوا المثل في سرعة البرق (م١: ٣١٥)، وقال الرب قبلًا في الإنجيل عن سقوط إبليس من السماء (لوقا، ١٠: ١٨): «إني رأيت الشيطانَ ساقطًا من السماء كالبرق.»

ومن أمثالهم في الحُسْن: «أحسنُ من الدمية.» (م١: ٢٠٠)، وكان داؤد قال في مزاميره (١٤٣: ١٢): «إن بناتنا كأعمدة الزوايا مُزيَّنات كدمية هيكل.»

وقد ضربوا المثل بصلابة الصخر فقالوا: «أقسى من صخرة ومن حجر.» (م١: ٦٢)، وأيبس من صخر (م٢: ٣٢٢)، وأرسب من حجارة (١: ٢٧٨)، ومثله في أشعيا (٥٠: ٧) عن ثبات المسيح بإزاء أعدائه: «السيد الرب ينصرني لذلك لم أخجل، بل جعلت وجهي كالصوان.» وقال موسى في تثنية الاشتراع (٨: ١٣) لبني إسرائيل عن الرب: «إنه أخرج لك الماء من صخرة الصوان.» وقد أشار السيد المسيح إلى ثبات بيعته لما دَعا رسوله بطرس الهامة بالصخرة وأكَّد له أنه «يبني بِيعَته على تلك الصخرة فلا تقوى عليها أبواب الجحيم.» (مَتَّى، ١٦: ١٨)، ويشبهه مثل العرب في ثقل الرصاص فقالوا: أثقل من الرصاص (م١: ١٣٨)، وأرسى من الرصاص (م١: ٢٧٨)، وقد شَبَّه موسى قبلهم غرَق المصريين في البحر بالرصاص (خروج، ١٥: ٥ و١٠): «غطتهم اللجج فهبطوا في الأعماق كالحجارة … وغرقوا كالرصاص في غمر المياه.» وكذلك قولهم: «أثقل من طود.» (م١: ١٣٨)، وقد شبه الملك داود في الزبور (١٢٤: ١) المتكلين على الرب «بِجَبلِ صهيون الغير المتزعزع الثابت إلى الأبد.»

ومما ضربوا فيه الأمثال من الجمادات مُروق السهم ومَضاء السيف وحِدَّة الموسى وعَدْل الميزان، وسحابة الصيف، وحلاوة العسل، وشهوة الخمر، وحقارة الأرض، فقالوا: «أمرَقُ من السهم» (م٢: ٢٣٣)، وأمضى من السيف (م٢: ٢٣٦)، وأحَدُّ من موسى (م١: ٢١٢)، وأعدَلُ من ميزان، وأخْلَف من سحابة صيف، وأحلى من العسل (م١: ٢٠١)، وأشهى من الخمر (م١: ٣٤٢)، وأحقَرُ من التراب (م١: ٢٠٢)، وكل ذلك قد شبهت به الكتب المقدسة فقال أشعيا (٤٩: ٢): «جعل (الرب) فمي كسيف ماضٍ، وجعلني سهمًا مختارًا وفي جعبته سترني.» وقال بولس الرسول في رسالته إلى العبرانيين (٤: ١٢): «إن كلمة الله هو حي عامل أمضى من كل سيف ذي حَدَّين.» وقال داود النبي (مز، ٤٤: ٦): «نِبالك مسنونة … هي في قلوب أعدائك.» وقال أيضًا (مز، ٥١: ٤) في الرجل الظالم: «لسانك يخترع الظلم عاملًا بالغش كالموسى المسنونة.» وقال موسى في عدل الميزان (أخبار، ١٩: ٣٥–٣٦): «لا تَجُوروا في الوَزْن والكيلِ بل موازين عادلة وعيارات عادلة تكون لكم.» وقد شبه القديس يهوذا في رسالته (١: ١٢) المنافقين بالسحابة المخلفة فقال: «هؤلاء سحب بلا ماء تحملها الرياح.» أما حلاوة العسل فتكرر ذكرها في الكتاب المُقدَّس قال ابن سيراخ عن لسان الحكمة (٢٤: ٢٧): «إن روحي أحلى من

العسل وميراثي أَلَذُّ من شهد العسل.» وقال صاحب المزامير (١٨: ١١): «خشية الرَّبِّ أشهى من الذهب والإبريز الكثير، وأحلى من العسل وقطر الشهاد.» وقال في سفر نشيد الأناشيد في شهوة الخمر (١: ٣): «نفوحُ ذاكرين حُبَّك الذي هو أطيبُ من الخمر.» وقال في المزامير (١١٢: ٧) في حقارة التراب: «إن الرب يُنْهِض المسكين عن التراب ويقيم البائس من المزبلة ليجلسه مع عظماء شعبه.»

وكما سَبقت الكتبُ المقدسة العربَ في أمثالهم المنقولة عن الجماد كذلك تَقدَّمتْهم في استعارة الأمثال عن الحيوان ومميزاته، فمن ذلك ضربهم المثل بشجاعة الأسد فقالوا: «أجرأُ من قسورة ومِن ذي لُبَد.» (م١: ١٦٤)، وأشجعُ من أسامة وأشدُّ من أسد (م١: ٣٤٣)، وقال قبلهم بقرون عديدة صاحب سفر القضاة (١٤: ١٨): «أيُّ شيء أحلى من العسل؟ وأي شيء أشد من الأسد؟» وقال في سفر الأمثال (٢٨: ١): «الصِّدِّيقون كشِبْل يَطمَئِنُّون.» وقال يعقوب في نبوءته على يهوذا (تك، ٤٩: ٩): «يهوذا شِبْل أسد ... جثم وربض كأسد وكلبؤة فمَن ذا يقيمه؟!»

وضرَبوا المَثل في ظلم الذئب وعداوته وفي خبث الثعلب فقالوا: «أظلم من ذئب.» (م١: ٣٩٢)، وأعدى من ذئب (م١: ٤٣٠)، وأسْلَط مِن سِلقَة، وهي الذِّئْبَة (م١: ٣١١)، وأروغ من ثُعالة، قال طرفة: «كلهم أَروَغُ من ثَعلب.» (م١: ٢٧٩)، وتقدَّمَهم الكتاب الكريم فقال يعقوب (تك، ٤٩: ٢٧): «بنيامين ذئب يفترس.» وقال السيد المسيح لتلاميذه (لو، ١٠: ٣): «ها أنا مرسلكم مثل خراف بين ذئاب.» وقال أيضًا (متى، ٧: ١٥): «احذروا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بلباس الحملان وهم في الباطن ذئاب خاطفة.» وقد شبه لذكره المجد هيرودوس بالثعلب لخبثه (لو، ١٣: ٣٢)، وقالوا على خلاف ذلك: «أذل من النَّقَد»؛ أي الغنم، وقال أشعيا يصف وداعة المسيح بإزاء أعدائه (٥٣: ٧): «كشاةٍ سِيق إلى الذَّبح وكحَمَل صامتٍ أمام الذين يَجزُّونَه.»

وقد ضرب العرب الأمثال في الفرس وسرعته وشدته وكرم طباعه فقالوا: «أجود من الجوادِ المُبِرِّ» (م١: ١٦٧)، وأسرع من فريق الخيل (م١: ٣٠٧)، وأشأى من فرس، وأشد من فرس (م١: ٣٤١)، وقد وصف الكتاب الكريم الفرس بكل هذه الصفات في آيات شتى ولا سيما في وصف سفر أيوب (٣٩: ١٩–٢٥): «أأنتَ الذي يؤتي الفرس قوة ويُقلِّد عنقه رعدًا؟»

وكذلك ضربوا الأمثال في الكلب وفي السُّوس وفي النملة فقالوا: آلَفُ من كلب (م١: ٧٥)، وأطوعُ من كلب (م١: ٣٨٧)، وأحرصُ من كلب على جيفة (م١: ٢٠١)، وقالوا: آكَلُ

من السوس (م١: ٧٤)، ووصَفوا النملة بالحرص فقالوا: أجمَعُ من النملة (م١: ١٦٦)، وأكسب من نملة وذَرَّة (م٢: ٩٨)، وأحرص من نملة (م١: ٢٠٢)، وفي الكتب المنزلة أوصاف مثلها فجاء في سفر طوبيا (٦ و١١) وصف أُلْفَة الكلب، وقال أشعيا يصف رَقَباء إسرائيل وطَمَعَهم (٥٦: ١١): «كلاب نَهِمَة النفوس لا تعرف الشبع.» وقال في سفر الأمثال (٢٥: ٢٠) عن السُّوس والعُثِّ: «كالعُثِّ في الثوب والسوس في الخشب هكذا الكآبة في قلب الرجل.» وقال الرب لتلاميذه (متَّى، ٦: ١٩): «لا تكنزوا لكم كنوزًا على الأرض حيث يفسد السوس والآكلة وينقب السارقون فيسرقون.» وأما النملة وحرصها على جمع الطعام فقد ألمع إليها سفر الأمثال بقوله للكسلان (٦: ٦): «اذهب إلى النملة أيها الكسلان انظر طرقها وكن حكيمًا.»

ومن أمثالهم في الطيور ما قالوه في مَنَعَة العُقاب وسرعة طيرانه وحِدَّة بصره، وفي عمر النسر، وفي ألفة الحمام، ونهم الجراد: «أعز من عُقاب الجوِّ.» (م١: ٤٣٧)، وأبصر من عُقاب ملاع (م١: ١٠٠)، وأَعْمَر من نسر (م١: ٤٣٤)، وآلَف من حمام (م١: ٧٥)، وأَجْرَد من الجراد (م١: ١٦٧)، وكذلك ورد في الكتب المنزلة عن مَنَعَة النسر قول أيوب (٣٩: ٢٧): «أبأمرك يُحلِّق النسر ويجعل وَكْرَه في العلاء؟ مَسكنُه الصخر وفيه مَبيته، وعلى أنف الصخر معقله، من هناك يبحث عن قُوتِه وعيناه تنظران من بعيد.» وقال داود في رثائه لشاول وليوناتان (٢ ملوك، ١: ٢٣): «أسرعُ من النسور وأشد من الأسود.» وقال السيد المسيح ممثلًا بوداعة الحمام (مَتَّى، ١٠: ١٦): «كونوا وُدَعاء كالحمام.» ثم في تثنية الاشتراع (٢٨: ٣٩) يتهدد الرب شعبه «بالجراد القارض.»

وقد قالوا في الحية والأفعى: «أَظلمُ من حية وأظلم من أفعى.» (م١: ٣٩١)، وأعدى من الحية (م٢: ٤٢٩)، ومثل هذا في سفر أيوب يصف المنافق (٢٠: ١٦): «يَرضع سم الأصلال فقتله لسان الأفعى.» وفي الكتب المقدسة آيات كثيرة تشير إلى خُبْث الحية وسُمِّها القاتل، وفي الإنجيل الكريم (متَّى، ١٠: ١٦): «كونوا حُكماء كالحيات.» قال ذلك لأن الحية تحرص على رأسها لئلَّا تصاب بأذى فتصونه دون جسمها، ولعل العرب أرادوا أيضًا ذلك بقولهم: «أعدى من الحية.» يريدون العَدْو؛ أي السُّرْعة لتسرعها إلى جُحْرِها لتنجو من العدو، هكذا شرحها الدميري في حياة الحيوان (١: ٣٢٠) بخلاف الميداني الذي اشتقها من العداوة والظُّلم، وقد روى ابن قتيبة هذا المثل في عيون الأخبار (ed. Brockelmann, p. 459) على صورة أخرى فقال: «أحلمُ من الحية» ثم روى (ص٤٦٠) كلام الإنجيل هكذا: «إن المسيح (عم)» قال للحواريين: «كونوا حُكماءَ كالحيات وبُلْهًا كالحمام.»

(٢) ومن أمثال العرب الدالة على اختلاطهم بأهل الكتاب وعلى الأخص بالنصارى ما رَوَوه منسوبًا إلى الأنبياء أو إلى مشاهير رجال العهد القديم والجديد، وقد جاء أشياء كثيرة من ذلك في كتاب الأمثال للميداني (م)، وقد صنَّف أبو منصور الثعالبي كتابًا جليلًا في هذا المعنى دعاه «ثمار القلوب في المُضاف والمنسوب» في مكتبتنا الشرقية منه نسخة حسنة، وقد طُبِع في مصر طبعًا سقيمًا سنة ١٣٢٦هـ نشير إليه بحرفي «مض» ونتبع زمن التاريخ مباشرة بآدم.

«آدم» عرفوه بأبي البشر وضربوا به المثل بالشهرة (مض، ٢٩) وبالقِدَم (اطلب [القسم الثاني، الفصل الخامس]) = «أَنوش» هو ابن شيث ويُدْعَى أحنوخ ينسب إليه العرب الآثار القديمة والخط فقالوا: «إنما خَدَش الخدوش أَنوش (م١: ١٥)» = (نوح) ذكروا سفينة نوح، وغُراب نوح، وعُمْر نوح (مض، ٢٩–٣١، اطلب [القسم الثاني، الفصل الخامس]) = «إبراهيم الخليل» ذكروا (مض، ٣١–٣٤) «مقام إبراهيم» فضربوا به المثل لكل مكان شريف، ونار إبراهيم زعموا أنه نجَا منها بإذن الله، وصُحُف إبراهيم لحِكَم قالوا: إن الله أنزلها عليه، وضيف إبراهيم، وتحفة إبراهيم إشارة إلى الله تعالى الذي تراءى لإبراهيم على صورة ثلاثة رجال (سفر التكوين، ف١٨) فأضافهم وقدَّم لهم خبزًا ولحمًا (اطلب: القرآن، سورة الحِجْر، ٤٩): ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا ...﴾ = «إسماعيل» نسبوه إلى الصدق فقالوا: «صدق إسماعيل» (مض ٣٣–٤٣، وسورة مريم) = «يعقوب» قالوا: «أحزان يعقوب» مشيرين إلى حزنه على يوسف لَمَّا أخبره بنوه بموته (مض، ٤٤) = «يوسف الصِّدِّيق» ضربوا المثل (مض، ٣٤–٣٨) برؤيا يوسف إشارة إلى الرؤيا الصادقة، وبذنب يوسف لتهمة كاذبة، وبقميص يوسف المُضَرَّج بالدم، وبحُسْن يوسف، وسِني يوسف السبع المُخْصِبة ثم السبع المُجْدِبة (راجع: سفر التكوين، ف٣٧ وما يليه؛ ثم في القرآن، سورة يوسف) = «موسى» مما يذكرون له (مض، ٣٨)، عصاة موسى التي فلق بها بحر القلزم، ونار موسى التي تجلَّى له فيها الله، ويد موسى التي لاحت عليها آثار البَرَص، وصُحُف موسى المنزلة عليه ومناجاته لله (راجع: سِفر الخروج؛ وبعض سور القرآن كالبقرة والأعراف) = «فرعون» نَسبوا إليه الصَّلَف والنخوة فقالوا: «نخوة فرعون» (مض، ٦٣) = «قارون» هو قورح أحد الذين خُسِفَت بهم الأرض لمعارضتهم موسى، وقد زعموا أنه كان مُثْرِيًا فقالوا «كنوز قارون» (مض، ٦٤؛ والقرآن، سورة القصص، ٧٦) = «بنو إسرائيل» ضَربوا بهم المثل في التِّيه فقالوا (م١: ١٣١): «أَتْيَه من قوم موسى عم» = «أيوب» ضَربوا به المثل في الصبر «صبر

أيوب» (مض، ٤١) = «داود» ذَكَر العرب في أمثالهم مزامير داود ونغمته في تلاوتها وزعموا أنه بَرَع في نسج الدروع (مض، ٤٣-٤٤؛ واطلب فصولنا السابقة، [الجزء الثاني، الفصل التاسع]) = «سليمان» ضربوا به المثل في عزة الملك واتساعه فقالوا: «مُلك سليمان.» ونسبوا إلى خاتمه المعجزات فقالوا: «خاتم سليمان.» كما قالوا: «جن سليمان وسير سليمان.» لزعمهم بأن الله سخر لخِدْمَته الجن والشياطين وأنه كان يعلم منطق الطير والحشرات (راجع: سورة النمل في القرآن)، ويسير على بساط الريح (سورة سبأ في القرآن؛ اطلب: مض ٤٤–٤٦؛ وفصولنا السابقة [الجزء الثاني، الفصل التاسع]) = «الخضر» قيل: إنه إلياس النبي فقالوا: «فلان خليفة الخضر.» أي جوَّاب في الآفاق (مض، ٤٢) = «يونس» هو النبي يونان ضَربوا المثل في الحوت الذي ابتلعه فقالوا: «أتهم من حوت يونس» (مض، ٤٣) = «عُزَيْر» هو عَزْرا صاحب السِّفْرَين الوارِدَين باسمه في الكتاب المُقدَّس، ضربوا بحماره المثل فقالوا: «حمار عُزَيْر»؛ لأن الله على زعمهم أَمَدَّه به في نكبته (مض، ٤٦) = «هامان» وزير الملك أحشورش نسبوا إليه صرحًا فقالوا: «صرح هامان.» زعموا أنه بناه لفرعون (راجع القرآن، سورة القصص؛ ومض ٦٣) = «عيسى» أي السيد المسيح ضربوا المثل في نطقه بالمهد (مض، ٤٠) ثم في طِبِّه فقالوا: «طِب عيسى.» لكثرة معجزاته في إحياء الموتى وشفاء المرضى (مض، ٤٧) وفي حماره الذي ركبه يوم دخوله أورشليم في أحد الشعانين (مض، ٤٦)، ونسبوه إلى الله فقالوا: «روح الله» و«كلمة الله» (مض، ١٥) = «مريم العذراء» ضربوا المثل بعفتها فقالوا «عفة مريم» (مض، ٤٤؛ وسورة آل عمران)، وقالوا: «تحفة مريم» كما قالوا تحفة إبراهيم يريدون بها الرُّطَب؛ أي التمر (مض، ٣٣)، وكذلك قالوا «نخلة مريم»؛ لأنهم زعموا أنها كانت تنحني أمامها لتأكل من ثمرها (مض، ٢٤٤) = «يحيى» وهو يُوحَّنا المعمدان فقالوا: «دم يحيى بن زكريا» (مض، ٤٧) لقتله ظُلمًا على يد هيرودوس = «الحواريون» وهم رسل السيد المسيح ضربوا المثل في صفاء قلوبهم (قصص الأنبياء، للثعلبي، ص٣٤٣) = ومن أمثالهم النصرانية «كعبة نجران»، وهي كنيسة كان يحج إليها أهل اليمن لحُسْنها (مض، ٤١٢)، و«قس نجران»، وهو قس بن ساعدة المضروب به المثل في الخَطابة (مض، ١٨٥)، و«أبدال اللُّكام»، و«أبدال لبنان» وهم قوم من النُّسَّاك الصالحين زَهِدوا في الدنيا وعَبَدوا الله في جبل اللُّكام، وجبل لبنان (مض، ١٨٦–١٨٧)، و«نوم أصحاب الكهف» وهم شهداء النصرانية في أفسس، قيل: إنهم أَوَوْا إلى مغارة لِينجُوا من المغتصبين فباتوا فيها نائمين سنين عديدة (مض، ٦٥؛ وسورة الكهف في القرآن)، و«كنيسة الرُّهَا» قالوا:

إنها من عجائب الدنيا (مض، ٤١٦)، و«دير هرقل» كانوا يعالجون فيه المجانين (مض، ٤١٩).

(٣) وبين أمثال العرب في الجاهلية وأول الإسلام ما هو منقول بحرفه أو بمعناه من الكتب المُقدَّسة، فدونَك ما أخذوه عن أسفار العهد القديم.

بين الأمثال التي رواها الميداني في مجموعه (طبعة بولاق، ٢: ٢٢٩) قولهم: «المرأة من المرء، وكل أَدْماء من آدم.» وأردف: «ويقال: إن هذا أول مثل جرى للعرب.» وهو منقول عن سفر التكوين (٢: ٢٣) حيث روى موسى كيف خلق الله حواءَ من ضلع آدم فقال: «هذه تُسمَّى امرأة لأنها من امرئ أُخِذَت.»

ومنها مَثلُهم (م، ١: ٤٣): «إن لم يَكُن وفاقٌ ففراق.» ينظر إلى قول إبراهيم إلى لوط في السفر المذكور بعد نزاع حصل بين رعاتهما (١٣: ٨-٩): «لا تَكُن خصومة بيني وبينك إنما نحن أَخوان ... اعتزِل عَنِّي إما في الشمال فأَتَيامَنُ عنك، وإما إلى اليمين فأَتَياسَر.»

ومنها قولهم (م١: ٢١٣): «خير قليل وفضحتُ نفسي.» لا يبعد عن قول يوناتان لما أراد أبوه شاءول أن يقتله لقليل من عَسَل ذاقه وقت الحرب (١ ملوك، فقال، ١٤: ٤٣): «ذُقتُ ذوقًا برأس العصا قليلَ عسلٍ وها أنا ذا أموتُ»

ومن أمثالهم لمن يسهو عن الحديث (م١: ٤٠): «إليك يُساق الحديث.» فكأنه ترجمة قول ناتان النبي لداود (٢ مل، ١٢: ٧) بعد أن عرض عليه مثل الغني المُضَحِّي لشاة الفقير إشارة إلى خطيئته مع امرأة أوريا: «أنت هو الرجل.»

ومنها أيضًا (م٢: ٨٤): «كل امرئ فيه ما يُرمَى به.» هو كآية سفر الملوك الثالث (٨: ٤٦): «ليس إنسان لا يخطئ.» وكذلك ورد في سفر الجامعة (٧: ٢١): «ليس مِن صديق على الأرض يصنع الخير بغير أن يخطأ.» ويشبهه قول السيد المسيح في الإنجيل (مرقس، ١٠: ١٨): «لا صَالِح إلا الله وحْدَه.»

ومما رُوِي بين أمثال علي[١] (ص٨): «جُدْ بما تَجِد» فهو مثل قول طوبيًا (٤: ٨) يوصي ابنه: «تَصدَّق من مالك، إن كان لك كثير فابذل كثيرًا، وإن كان لك قليل فابذل عن نفس طيبة.»

[١] نشير إلى مجموع أمثاله الذي طُبِع في أوكسفورد سنة ١٨٠٦م: Corn. Van Waenen: *Sententioe Ali eben Abi Taleb*.

ومن أمثال العرب في الميداني (٢: ٢١٥): «المنية ولا الدَّنِيَّة» نظمه الحريري فقال:

المنايا ولا الدَّنَايا وخيرٌ من ركوب الخَنَى ركوب الجنازةْ

وقد سبق العازر الشيخ فقال في سفر المكابيين الثاني (٦: ٢٣–٢٧): «أسبقُ إلى الجحيم ... ولا أجلبُ على شيخوختي الرِّجْس والفضيحة.»

وقالوا (م، ١: ٩٢): «البِطْنة تَأْفُن الفِطْنَة» ومثله قول علي: «البِطْنة تَذهَب بالفطنة»، وقد قال النبي هوشع قبلًا (٤: ١١): «الزِّنى والخمر والسُّلاف تستهوي القلب.»

وروى الميداني (١: ٢٥) للعرب: «إن كنتَ ريحًا فقد لاقيتَ إعصارًا»، ومثله لهوشع أيضًا (٨: ٧): «إنهم يزرعون الريح ويحصدون الزوبعة.»

وله (م، ٢: ٢٠٣) عن لسان أحد الأعراب لكلبه: «ما لك لا تَنبحُ يا كلبَ الدَّوم قد كنتَ نبَّاحًا.» وجاء في نبوة أشعيا (٥٦: ١٠) إلى رُقباء بني إسرائيل: «إن رُقباءه كلهم كلاب بُكْم لا يستطيعون النباح.»

ومن أمثالهم فيمَن لا يُميِّز الخير من الشر (م، ٢: ١٨٦): «ما يعرف قبيلًا من دبير» أو «ما يعرف الحوَّ من اللو.» وجاء قبله عن لسانه عز وجل في سفر يونان (٤: ١١): «أفلا أشفق أنا على نِينَوى المدينة العظيمة التي فيها أكثر من اثنتي عشرة ربوة من أناس لا يعرفون يمينهم من شمالهم.»

ومما ورد بين أمثال علي (ص٨٦): «طَعْن اللسانِ أَمْضَى من جرح السنان.» سبق إليه النبي داؤد في مزاميره (٥٦: ٥) عن المنافقين: «أسنانهم أَسِنَّة وسهام وألسنتهم سيوف حادَّة.»

ومنها أيضًا قوله (ص١٦): «زينة الباطن خير من زينة الظاهر.» فكأنه نظر إلى قول صاحب المزامير في وصفه للملكة السِّرِّيَّة (مز، ٤٤: ١٤): «بنتُ الملكِ جميعُ مَجدِها في الداخل.»

وللعرب عدة أمثال في الإخاء والصداقة فيقولون (م، ١: ٦٣): «إن أخاك مَن آساك.» ويقولون (م، ١: ٤٢٢): «عند الامتحان يُكْرَم المرء أو يُهان.» ويقولون أيضًا: «عند النازلة تَعرِف أخاك.» ومثله قول علي (ص٢): «أخوك من واساك في الشدة.» وقول أكثم بن صيفي (العقد الفريد، لابن عبد ربه، ١: ٣٢٨): «أخوك مَن صدقك.» وقوله: «خير أهلك من كفاك.» وقول الشاعر:

فما أكثرَ الأصحابَ حِينَ تَعدُّهم ولكنهم في النائباتِ قليلُ

فهذه كلها كالآية الواردة في سفر أمثال سليمان (١٧: ١٧): «الخليل عند الضِّيق يضحي أخًا.» وكقوله (١٨: ٢٢): «رُبَّ صديق أقربُ علاقةً من الأخ.» وقوله (٢٧: ١٠): «جار قريب خير من أخٍ بعيد.» وقول ابن سيراخ (١٢: ٨): «لا يُعْرَف الصديق في السراء ولا يَخْفَى العدو في الضَّرَّاء.»

ومن أمثال العرب عن المشابهة بين الأقران والأخلاء قولهم (م، ٢: ١٩١): «المرءُ بخليله.» أي مَقيس بخليله، قال الميداني: «يُرْوَى عن النبي ﷺ» ومثله لعلي (ص٨): «جليس المرء مثله.» وله (ص١٠): «خليل المرء دليلُ عَقْلِه.» وله (ص٣٠): «قرينُ المرء دليلُ دينه.» ولِطَرَفة الشاعر في معلقته:

عنِ المرء لا تسأل وسَلْ عن قَرينِه فكلُّ قرينٍ بالمقارن يَقتدي

وكل ذلك في معنى قول سليمان (أمثال، ١٣: ٢٠): «مُسايِر الحكماء يصير حكيمًا، ومؤانِس الجهلاء يصير شريرًا.»

ومما قالوا في حفظ اللسان (م، ٢: ٢١١): «مَن أَكثرَ أَهْجرَ.» وقالوا (م، ١: ١٤): «إن البلاء موكَّلٌ بالمنطق.» وقالوا (م، ٢: ١٨١): «مَقتل الرجل بين فَكَّيهِ.» وقول علي: «بلاء الإنسان من اللسان.» وقوله (ص٢٠): «صلاح الإنسان في حفظ اللسان.» وقد قال قبلهم سليمان في أمثاله (١٠: ١٩): «كثرة الكلام لا تخلو من زَلَّة ومن ضبط شفتيه فهو عاقل.» وقال (١٣: ٣): «من ضبَط فاه صان نفسه ومن فتق شفتيه فحَظُّه الدَّمارُ.» وقال (١٨: ٧): «فَمُ الجاهل دمارُه وشفتاه شَرَكٌ لنَفْسِه.» وقال (٢١: ٣٢): «من يحفظ فاه ولسانه يحفظ من المضايق نَفْسَه.» وللقديس يعقوب في رسالته (٣: ٢): «إن كان أحد لا يَزِلُّ في الكلام فهو رجل كامل.» فكأن الشاعر عقد هذه الأمثال فقال:

احفظْ لسانَك أيها الإنسان لا يَلدغَنَّك إنه ثعبانُ
كم في المقابر من قَتيلِ لسانِه كانت تَهاب لقاءه الشجعانُ

ومن أمثال علي (ص١٨): «سُموُّ المرء التواضع.» فهو على شبه قول سليمان أمثال (١٥: ٣٣): «قبل المجد التواضع.»

ومن أمثال العرب: «كل طير يأوي إلى جنسه.» وقد سبق ابن سيراخ (١٣: ١٩) فقال: «كل إنسان يحب قريبه وكل حيوان يحب نظيره.»

وروي بين أمثال علي وغيره من العرب قولهم: «رأس الحكمة مخافة الله.» وأول من قال ذلك بلفظه داود في مزاميره (١١٠: ١٠) وابن سيراخ (١: ١٦)، وروى سليمان في أمثاله (١: ٧): «مخافة الرب رأس العلم.»

ومن أمثالهم (م، ١: ٩): «إن الحديد بالحديد يُفلَح.» أو (م، ٢: ١٥٢): «لا يفلُّ الحديد إلا الحديد.» نظمه الشاعر فقال:

قومُنا بعضُهم يقتلُ بعضًا　　لا يفلُّ الحديد إلا الحديدُ

وكان سليمان قد قال (أمثال، ٢٧: ١٧): «الحديد يصقل الحديد.» ويقول العرب (م، ١: ١٢٧): «تَضرَّع إلى الطبيب قبل أن تَمرض.» كأنهم أخذوه من قول ابن سيراخ (٣٨: ١): «أعطِ الطبيب كرامته لأجل فوائده (أي وقت المرض).»

ومن أمثال العرب (م، ٢: ٢٢): «في التجارب علم مستأنَف.» وكان ابن سيراخ قال (٣٤: ١٠): «الذي لم يختبر يعلم قليلًا.»

وكذلك قالوا في النظر إلى العواقب (م، ٢: ٢٢): «في العواقب شافٍ أو مُريح.» ومثله قولهم (م، ٢: ١٢٨): «ليس للأمور بصاحب مَن لم ينظر في العواقب.» سبق أيضًا إليه ابن سيراخ قائلًا (٧: ٤٠): «في جميع أعمالك اذكر عواقبك فلن تخطأ إلى الأبد.»

ومن أمثال العرب (م، ٢: ٢٠٤) في الاستشارة: «ما هلكَ امرؤ عن مشورة.» قاله ابن سيراخ (٣٢: ٢٤): «لا تعملْ شيئًا من غير مشورة فلا تندم على عملك.»

ويقول العرب في أمثالهم (م، ٢: ٢١١): «مَن حفر مغواة وقع فيها.» ومثله لحسان بن ثابت (حماسة البحتري، ص٧١):

وكمْ حافرِ حفرةٍ لامرئٍ　　سيصرعه البغْي فيما احتفَرْ

وكان داؤد قال في مزاميره (٧: ١٦) يصف الشرير: «كَرَى بئرًا وحفرها فسقط في الهُوَّة التي صنع.» ولسليمان ابنه (أمثال، ٢٦: ٢٧): «مَن يحفر هُوَّة يسقط فيها.» راجع أيضًا: سفر الجامعة (١٠: ٨)؛ وابن سيراخ (٢٧: ٢٩).

ولا يبعد أن يكون قول العرب في الخيبة (م، ٢: ٨٠): «كالقابض على الماء» منقولًا عن أمثال سليمان (٢٧: ١٦): «إنما يضبط على الريح ويقبض بيمينه على زيت.»

ومن أمثال العرب (أغاني، ١٥: ١٢١): «التوبة تُذهِب الحَوبة.» وقد تكرر هذا مرارًا في الأسفار المُقدَّسة على صور شتى (راجع: نبوة حزقيال، ف١٤ و١٨)، وفي أعمال الرسل (٣: ١٩): «تُوبوا وارجعوا تغفر خطاياكم.»

ومن أمثالهم أيضًا (م، ١: ١٧): «إن من لا يعرف الوحي أحمق.» ومثله ما ورد في سفر الحكمة «١٣: ١»: «إن جميع الذين لم يعرفوا الله حُمْق.»

(٤) وكما أخذ العرب كثيرًا من أمثالهم عن أسفار العهد القديم كذلك رووا عدة أمثال عن أسفار العهد الجديد، ولا سيما الإنجيل الطاهر.

فمن ذلك مثل لعلي (ص٢): «أَحْسِن إلى المسيء تَسُدْ.» فهو صدًى ضعيف لقول الرب في مَتَّى (٥: ٤٤): «أحْسِنوا إلى من يبغضكم لتكونوا بَني أبيكم الذي في السموات.»

ومثله المثل الذي رواه ابن قتيبة في عيون الأخبار (١: ٣٣٢): «احلم تَسُدْ» فإنه كقول الإنجيل (متَّى، ٥: ٤): «طُوبى للوُدَعاء فإنهم يرثون الأرض.»

وروى الميداني في أمثاله (م، ١: ٢٩٧): «اسْمَحْ يُسْمح لك.» وكذلك روى ابن عبد ربه (١: ٣٢٨): بين أمثال أكثم بن صيفي: «أَحْسِن يُحْسَن إليك» وكلاهما كقول الرب في لوقا (٦: ٣٨): «أَعْطُوا تُعْطَوا» ومثله قول أكثم أيضًا: «ارحمْ تُرحمْ» وقوله: «مَن بَرَّ يومًا بُرَّ به» نُقل عن تطوبيات الرب (متَّى، ٥: ٧): «طُوبى للرُّحماء فإنهم يُرْحَمون» وكان سليمان قال في أمثاله (١١: ١٧): «ذو الرحمة يُحْسِن إلى نَفْسِه.»

ومن أقوال الرب الشهيرة (متَّى، ٧: ٧–٨): «اسألوا تُعْطَوا اطْلُبوا تَجِدُوا، اقْرَعُوا يُفْتَح لكم؛ لأن كل مَن يسأل يُعطَى ومن يَطلُب يجد، ومن يَقْرَع يُفْتَح له.» أخذه العرب فقالوا في أمثالهم (م، ١: ٣٠٢): «سائِلُ الله لا يَخيب.» وقالوا (م، ١: ٣٨٣): «اطلبْ تَظفَر.» وقالوا (م، ٢: ٢٢٦): «مَن طلب شيئًا وجَده.» وقالوا (م، ٢: ٤٧): «اقصدي تصيدي.» وكذلك نَظَم صالحُ بن عبد القدوس هذا المثل فقال (حماسة البحتري، ص١٣٤):

مَن يَسَل يُعْطَ ومَن يَستَفْتِح   البابَ يَفْتحْه بطيءٌ أو سريعُ

ومن أقوال السيد المسيح أيضًا (متَّى، ٧: ١–٢؛ ولوقا ٦: ٢٧): «لا تَدينوا لئلَّا تُدانوا، فإنكم بالدَّيْنُونة التي بها تَدينون تُدانون، وبالكَيْل الذي به تَكِيلون يُكالُ لكم.» فقد أخذَه العرب بلفظه «كما تَدينُ تُدان.» هكذا رواه الميداني (٢: ٨٥)، وقد رواه

ابن عبد ربه (١: ٣٢٨) للأكثم بن صيفي، وروى في التاج (٩: ٢٠٧) لخويلد بن نَوفل الكلابي يخاطب الحرث بن شمر:

يا حارِ أَيقِنْ أنَّ مُلْكَك زائلُ   واعلم بأَنْ كما تَدينُ تُدانُ

ومَثَل الكيل رواه الميداني (١: ١٤٨) على هذه الصورة: «جَزَيتُه كيلَ الصاعِ بالصاع.»

وقال الرب (متى، ٧: ٣؛ ولوقا ٦: ٤١) لمن يُعيِّر غيرَه داء يكون في نفسه أعظم: «ما بالُك تنظرُ القذى الذي في عَين أخيك، ولا تَفطن للخشبة التي في عينك؟!» نقله العرب فقالوا (م، ٢: ٨٥): «كيف تُبصِر القذى الذي في عين أخيك وتَدعُ الجِذْع المُعترِض في عينك؟!».

وقال الرب أيضًا (متى، ٧: ١٦؛ ولوقا ٦: ٤٤): «هل يُجْتَنى من الشوكِ عِنَب أو من العَوسج تين؟!» أخذه العرب فقالوا (م٢: ١٥٢): «لا تَجْنِ من الشوكِ عِنبًا.» روي لأكثم بن صيفي، وقالوا (م، ١: ٤٣٦) في العَجْز: «أَعْجزُ من جانِي العنب من الشوكِ.» وقال الشاعر (م، ٢: ١٥٢):

إذا وَتَـرْتَ امـرأً فـاحْـذَرْ عَـداوتـه   مَن يزرعِ الشوكَ لا يَحصدِ به العِنبَا

ومن أقواله تعالى (متَّى، ١٩: ٢٤؛ ومر، ١٠: ٢٥): «إنه لأسهلُ أن يدخل الجَملُ في ثُقب الإبرة من أن يَدخل غَنِيٌّ ملكوت الله.» فأخذه العرب وضربوه مثلًا للضيق فقالوا (م، ١: ٣٧٤): «أَضْيقُ من خَرْت الإبرة وسَمِّ الخياط.» وضربوه مثلًا أيضًا لصعوبة الشيء فقالوا (م، ٢: ١٤٤): «لا أفعل كذا حتى يَلِجَ الجَمَل في سَمِّ الخِيَاط.» ومثله في القرآن في سورة الأعراف (٧: ٣٨): ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾.

وقال في الإنجيل (لو، ٦: ٣٩): «هل يستطيع أعمى أن يقود أعمى؟ أليس كلاهما يسقطان في حفرة؟!» فرووه بين أمثال علي (ص١٠٠) على هذه الصورة: «كيف يهدي غيره من يضل نفسه؟!»

وكذلك رووا لعلي (٦٦): «خير الصَّدقَة إخفاؤها.» وكان الرب أعلن في إنجيله (متَّى، ٦: ٣-٤): «إذا عملتَ صدقةً فلا تَعلم شمالُك ما تصنع يمينُك لتكون صدقَتُك في خفية، وأبوك الذي يرى في الخفية هو يجازيك.»

ومن أمثال الميداني (١: ٢٧٥): «رُبَّ زارعٍ لنفسه حاصدٌ سواه.» قاله الرب في إنجيله (يوحنا، ٤: ٣٧): «إن واحدًا يزرع وآخر يحصد.»

وللرب في الإنجيل أقوال كثيرة في الصبر كقوله تعالى: (لو، ٢١: ١٩): «بصبركم تَقْتَنون أنفسكم.» وقوله (متَّى، ١٠: ٢٢): «الذي يَصبِر إلى المنتهى فذلك يَخلُص.» وقال يعقوب في رسالته (١: ٤): «العمل الكامل للصبر.» وإلى ذلك تنظر أقوال العرب (م، ١: ١٣٥): «ثمرة الصَّبر نُجْحُ الظَّفَر.» وقولهم وهم يروُونه لأكثم بن صيفي (العقد الفريد، ١: ٣٢٩): «عواقبُ الصبر محمودة.» وقول علي (ص٨): «بَشِّر نفسك بالظفر بعد الصبر.» وقوله (ص٢٠): «صبرُك يُورث الظَّفر.»

وكذلك التواضع، فقد ورَدتْ فيه آيات عديدة في الإنجيل كقوله (لوقا، ١٤: ١١؛ و١٨: ١٤): «كل مَن رفع نفسه اتَّضَع.» وقال القديس بطرس في رسالته الأولى (٥: ٦): «اتَّضِعوا تحت يد الله القادرة لِيرفَعَكم.» فروى العرب لعلي قوله (ص٥٨) وهو كالآيات السابقة: «تواضعْ لربك يرفعك.» وقوله: «التواضعُ يَرفعُ والتَّكبُّرُ يضعُ.» وقوله (ص١٠٦): «من تَوَقَّر وُقِّر، ومن تَكَبَّر حُقِّر.» ويشبهه قول سويد بن أبي كاهل (شعراء النصرانية، ص٤٣١؛ والمفضليات، ص٣٩٩):

كَتبَ الرحمنُ والحمدُ له سعةَ الأخلاق فينا والضَّلَعْ
وبناءً للمعالي إنما يرفعُ اللهُ ومَن شاء وضَعْ

وعلى شبه هذا قول العرب (حماسة أبي تمام، ١٢٢): «سَيِّد القوم خادمهم.» وهو عين ما قاله الرب لتلاميذه (لوقا، ٢٢: ٢٦): «ليكن الأكبرُ فيكم كالأصغر والذي يَتقدَّم كالذي يخدم … وأنا في وسطكم كالذي يخدم.»

وكذلك يروى للعرب (م، ٢: ١٨٨): «ما جُعِل العبدُ كَرَبِّه.» وهو عين قول الرب (متَّى، ١٠: ٢٤): «ليس عبدٌ أفضلَ من سيده.» كما أن مثلهم (م، ٢: ١٣٥): «ليس عبدٌ بأخٍ لك». هو مثل قوله (يوحنا، ١٥: ١٥): «لا أُسمِّيكم عبيدًا بعد لأن العبد لا يعلم ما يصنعُ سَيِّدُه، ولكني سَمَّيتُكم أَحِبَّائي.»

وقال الرب لبطرس لما سَلَّ سيفه فقطع أذن عبد رئيس الكهنة (متَّى، ٢٦: ٥٢): «ارْدُد سيفك إلى غمده؛ لأن كل من يَأخذُ بالسيف بالسيف يَهلكُ». روي لعلي في نهج البلاغة على صورة: «مَن سَلَّ سيفَ البغي قُتل بهِ.»

ومن الأمثال التي استشهد بها المخلِّص في الناصرة (لو، ٤: ٢٣): «أيها الطبيبُ اشفِ نفسك.» وهو كمثل العرب (م، ٢: ٢٠٧): «يا طبيبَ طبَّ لِنفسك.»

ورووا بين أمثال علي بن أبي طالب قوله (ص١٠٦): «مَن أكرم نفسه أهانته.» وقوله (ص١٠٨): «مَن أطاع نفسه قتَلَها.» وهو من أقوال الرب (يوحَنَّا، ١٢: ٢٥): «مَن أحب نفسه فإنه يهلكها، ومَن أبغض نفسه في هذا العالم فإنه يحفظها للحياة الأبدية.»

ومن أمثال العرب (م، ٢: ٣٢١): «اليسير يجني الكثير.» يروى لأكثم بن صيفي، وقريب منه قولهم (م، ١: ٣٢١): «الشرُّ يبدؤه صغاره.» وقد قال الرب في معناه (لوقا، ١٦: ١٠): «الأمينُ في القليل يكون أمينًا في الكثير، والظالم في القليل يكون ظالمًا في الكثير.» وإلى هذا المعنى يعود قول ابن سيراخ (١٩: ١): «الذي يحتقر اليسير يسقط شيئًا فشيئًا.»

وقال الرَّبُّ في عدم الاهتمام بالغد (متَّى، ٦: ٣٤): «فلا تهتموا بشأن الغد، فالغد يهتم بشأنه يكفي كل يوم شره.» أخذه العرب فقالوا (م، ١: ٦١): «إن غدًا لناظره قريب.» وهو يُروَى لامرئ القيس الذي قال أيضًا (م، ٢: ٣١٣): «اليوم خمر وغدًا أمر.» وكذلك يقول العرب في أمثالهم (م، ٢: ١٢٩): «لكل غدٍ طعام.»

وقال الرب أيضًا في شر الأقارب (متَّى، ١٠: ٣٦): «أعداء الإنسان أهلُ بيته» (راجع: نبوة ميخا، ٧: ٦)، وهو شبه مثل العرب المروي لأكثم بن صيفي: «الأقارِبُ عَقارب.»

وقال العرب في الشُّهرة (م، ١: ٣٤٣): «أشْهَرُ من عَلَم.» و«أشهرُ من نارٍ على عَلَمٍ.» وعلى ظننا أنه مأخوذ من قول الرب (متَّى، ٥: ١٤–١٥): «لا يمكن أن تخفى مدينة مبنية على جبلٍ ولا يُوقَد سراج ويوضع تحت مكيالٍ ولكن على المنارة لينير على كل مَن في البيت.» (راجع أيضًا: نبوة ميخا، ٤: ١).

وكذلك في قول العرب (م، ١: ٣٣): «إن أردتَ المحاجزة فقَبْل المُناجَزة.» وفي قولهم (م، ٢: ٢٣٧): «مَن سَئِم الحرب اقتوى للسِّلْمِ.» تنويه إلى قول الرب في لوقا (١٤: ٣١–٣٣): «أيُّ ملكٍ يخرج ليحارب ملكًا آخر ولا يجلس أولًا ويُشاور نفسه هل يستطيع أن يلاقي بعشرة آلاف مَن يأتي إليه بعشرين ألفًا وإلا فيرسل سفارة وهو بعيد ويلتمس ما هو من أمر الصلح.»

ومن أمثالهم في التقريع (م، ١: ٢٣): «إنه لَصِلُّ أَصلالٍ.» وقد سبق يوحنا المعمدان (لوقا، ٣: ٧) فقرع بني إسرائيل فدعاهم «بأولاد الأفاعي».

وقد روى العرب بعض الأمثال التي ضربها السيد المسيح دون الإشارة إلى أصلها، فمن ذلك مثل رب البيت الذي شارَط العمَلة على دينار وأعطاهم أُجْرَتَهم على اختلاف ساعاتِ شغلهم (متَّى، ف٢٠)، فدونك هذا المثل كما رواه البخاري في صحيحه في كتاب الإجارة ونسبَه إلى محمد (طبعة ليدن، ٢: ٥٠):

«حدثنا إسماعيل بن أبي أويس … عن عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال: إنما مثَلُكم ومثل اليهود والنصارى كرجل استعملَ عُمَّالًا فقال: مَن يعمل لي إلى نصف نهار على قيراط قيراط؟ فعملَتِ اليهودُ على قيراط ثم عَملتِ النصارى على قيراط قيراط، ثم أنتم الذين تعملون من صلاة العصر إلى مغارب الشمس على قيراطين قيراطين، فغَضِبَت اليهود والنصارى وقالوا: نحن أكثر عملًا وأقل عطاءً، قال: هل ظلمتُكم من حقكم شيئًا؟ قالوا: لا، قال: فذلك فضلي أوتيه من أشاء.»

وكذلك أبو الحسن علي بن هذيل (ص٨٨-٨٩) روى مَثَل السيد المسيح للزَّرَّاع الذي وقع زرعه في الطريق وبين الأشواك وعلى الصخور وفي الأرض الجيدة (لوقا، ف٨) ونسبه إلى بعض الحكماء قال:

«وقد ضرب بعضُ الحكماء مَثَل الحِكْمة والحكيم الذي يُلْقِيها إلى القلوب قال: إن الباذِر خرجَ ببذره الطَّيِّب ليبذره فنَثَره فوقع بعضُه في أرض محجرة، بل في جَنَبات الطريق فلم يلبث أن اختطفه الطير فذهَب به، ووقع بعضُه في أرض محجرة إلا أن عليها ندًى وطينًا فرَسَخ البذر في ذلك الندى والطين ونبت شيئًا حتى إذا وصلت عروقه إلى الحجر لم يجد مساغًا ينفذ فيه فتَلفَ وفَسَد ويَبِس، ووقع بعضه في أرض رخوة إلا أن فيها شوكًا نابتًا فنبتَ حتى إذا كان عند الإثمار خنَقَه الشوكُ فلم يأتِ بثمره، ووقع بعضه في أرض طيبة نقية ليست على ظهر طريق ولا على حَجَر ولا فيها شوك، فنَما وطابَ وزكا ونَبَت وأثمر فجاءت الحبة بأضعاف مضاعفة، ثم فسَّره فقال: فالباذر هو الحكيمُ الزَّارع الحكمة في القلوب، وبذره الطَّيِّب هو حكمته وموعظته الحسنة التي يلقيها إلى القلوب وهي في تلقاء ذلك منقسمه إلى الأقسام الأربعة المذكورة، فمنها القاسي الذي إذا سمع الحكمة لم يَعْقِد عليها لقساوته فلم تلبث فيه، ومنها قلبٌ ظاهره رقة وباطنه قساوة، فهو في أول سماع الحكمة يَرِق لها ويَلَذُّ بسماعها ويَحِنُّ إلى ذلك بتلك الرِّقَّة الظاهرة على قلبه ولا يعقد عليها بعزم لقساوته، ومنها قلب يسمع الحكمة ويحبها ويحب العمل بها إلا أنه قلبٌ قد امتحن بلصوق الشهوات به حتى صارت له طباعًا، فإذا عزم على العمل بما سمع اعترضَتْ له تلك الشهوات فمَنعَتْه من إقامة وظائفها وأفسَدَت

عليه ما سمع فاختلط عليه أمره ولم يتم له مراده، ومنها القَلبُ النقي الصافي العالم بِفضْل الحكمة المُؤْثِر لها، الذي لا همَّةَ له غيرها ولا شغل له إلا بها، ولم تعلق به شهوة تناقضها ولا داء يقطع عنها، فهذا القلبُ الذي تُنمِّي فيه الحكمة إيمانًا وفهمًا وحفظًا وعلمًا وقولًا وعملًا، وتبلغ به أفضل العواقب وأعلى المراتب.»

فهذه كلها من الأناجيل يضاف إليها بعض أمثال من بقية أسفار العهد الجديد كقولهم (م، ١: ١٢٠): «اتْرُك الشر يَتركك.» وقولهم (م، ٢: ١١٩): «ليس أخو الشر مَن تَوقَّاه.» فمثله قول القديس يعقوب في رسالته (٤: ٧): «قاوِموا إبليس فيهرب منكم.» وكان ابن سيراخ قال قبلًا (٧: ١): «لا تعمل الشر فلا يلحقك الشر.»

ويقول العرب (م، ٢: ١٩٣): «كما تَزرع تحصد.» فهو كما قال بولس في رسالته إلى أهل غلاطية (٦: ٨): «الإنسان إنما يحصد ما زرع.» وفي أمثال سليمان (٢٢: ٨): «من زرع الظلم حصد السوء.»

وجاء في أمثال علي (ص٨): «جل من لا يموت.» وقال الرسول بولس في رسالته الأولى إلى تيموتاوس: «لله وحده الخُلودُ … له الكرامة والعِزَّة المُؤَبَّدة.»

ويضرب العرب المثل بالسحابة الفارغة من المطر المخيبة لآمال الزارع فقالوا (م، ٢: ٢٠٢): «ما هو إلَّا سحابة ناصحة.» وقالوا (م، ١: ٢٦٧): «أرى خالًا ولا أرى مطرًا»، وكان الرسول يهوذا سبق ووصف المنافقين بقوله (١: ١٢): «هؤلاء سُحُب بلا ماء تحملها الرياح.»

ولعل مثلهم (م، ٢: ١٩٧): «ما أنت بِخَلٍّ ولا خَمْرٍ»، له علاقة بقول صاحب الرؤيا (٣: ١٦): «إنك لستَ باردًا ولا حارًّا … فقد أوشكتُ أن أتقيأك من فمي.»

الفصل السادس

فيما ورد في الأسفار المُقدَّسَة من حِكَم العرب والحديث

كنا انتهينا في فصلنا السابق إلى ذكر الأمثال التي أخذها العرب في الجاهلية أو أوائل الإسلام عن الأسفار المُقدَّسة من العهد القديم والحديث، ويلحق بهذا الباب باب حِكَم العرب مع الحديث المروي عن نبي الإسلام، أَفْرَدْنا لذلك هذا الفصل بحيث يظهر من المقابَلة ما كان للنصرانية من النفوذ بين العرب في أواخر أيام الجاهلية وظهور الإسلام.

(١) الحِكَم

جاء في ديوان سلامة بن جندل (ص١٩):

عَجلتُم علينا حجَّتَيْن عليكمُ　　　ومَهْما يشَا الرحمنُ يَعْقِد ويُطلِقِ
هو الكاسرُ العظمِ الأمينُ وما يَشا　　　مِنَ الأمر يَجْمعْ بينه ويُفَرِّقِ

ومثله لسويد بن أبي كاهل (شعراء النصرانية، ٤٣١):

إنما يَرفعُ اللهُ ومَن شاء وَضعْ

فهو من قول الله — عز وجل — (١ ملوك، ١: ٦–٧): «الرَّبُّ يميت ويحيي يحدر إلى الجحيم ويصعد، الرب يفقر ويغني ويَحُطُّ ويرفع.»

وجاء في سفر الأمثال (١٣: ٢٠): «مُسايِر الحكماء يَصير حكيمًا، ومؤانِسُ الجُهَّال يَصير شريرًا.» يشبهه قول طرفة:

عن المرءِ لا تسألْ وسَلْ عن قَرينِه　　　فكلُّ قَرينٍ بالمقارِنِ يَقتدِي

وقال عبد القيس بن خفاف (المفضليات، ٧٥٠):

اللهَ فَاتَّقِيَنْ وأَوفِ بِنذْرِه   وإذا حلفتَ مُماريًا فتجَلَّلِ

اقتبسه من سفر الجامعة (١٢: ١٣): «اتَّقِ الله واحفظ وصاياه.» ومن المزامير (٤٩: ١٤): «أوفِ العليَّ نُذورَك.» ومن سفر الخروج (٢٠: ٧): «لا تحلف باسم الرَّب إلهك باطلًا فإن الرب لا يزكي من يحلف باسمه باطلًا.» وورد في شعر المرقَّش الأكبر (شعراء النصرانية، ص٢٨٦):

وكذاك لا خيرٌ ولا   شرٌّ على أحد بدائمْ
قد خُطَّ ذاك في الزبو   رِ الأوليات القدائمْ

يشير إلى المَزمور المائة والواحد حيث يقول داود للرب: «إن الأرض والسموات تزولُ وأنت تبقى، وكلها تبلى كالثوب وأنت أنت وسِنُوكَ لن تَفنَى»، ومثل هذا قول أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت (شعراء النصرانية، ٢٢٨):

ونَفْنى ولا يبقى سوى الواحد الذي   يُمِيت ويُحيي دائبًا ليس يَهمُدُ

ومما اقتبسه لبيد من سفر الجامعة قوله:

ألا كلُّ شيء ما خلا اللهَ باطلُ   وكلُّ نعيم لا محالةَ زائلُ

ومن مُقتبَسات لبيد من الأسفار[١] المُقدَّسة (دانيال، ٤: ٣٢؛ وخروج، ٣٣: ١٣) قوله:

إنَّ تقوى رَبِّنا خيرُ نَفَلْ   وبإذنِ اللهِ رَيْثِي وعَجَلْ
أحمدُ اللهَ ولا نِدَّ له   بيديه الخيرُ ما شاء فَعلْ
مَن هَداه سُبُلَ الخيرِ اهتدى   ناعِمَ البالِ ومَن شاء أَضَل

---

[١] تُنْظَر أبيات لبيد الواردة هنا إلى آية رسالة بولس إلى أهل رومية (٩: ١٨): الله يَرحمُ مَن يشاء ويُقسِّي من يشاء.

وقال أُفْنون (شعراء النصرانية، ١٩٣):

لَعمْرُك ما يَدري امرؤ كيف يَتَّقي　　　إذا هو لم يَجعلْ له اللهُ واقِيا

وقال الآخَر:

إذا لم يَكنْ عَونٌ من الله للفتى　　　فأوَّل ما يَجنِي عليه اجتهادُهُ

وقال عليٌّ في المعنى (ص٤): توكَّل على الله يَكفِك. وهذا كثير في الأسفار المُقدَّسة، قال في المزامير (٥٤: ٢٣): «أَلقِ على الربِّ هَمَّك وهو يَعولُك.»

وقال (١٢٦: ١): «وإنَّ لم يَبْنِ الربُّ البيتَ فباطلًا يَتعبُ البنَّاءون.» وقال بطرس في رسالته الأولى (٥: ٧): «أَلْقوا عليه همَّكم فهو يعتني بكم.»

وفي ديوان حاتم الطائي قوله (شعراء النصرانية، ص١٢١):

كُلوا الآن مِن رزق الإلهِ وأَيْسِروا　　　فإن على الرحمن رزقكمُ غدا

هو كقول المُخلِّص في إنجيل مَتَّى (٦: ٣٤): «لا تَهتمُّوا بشأن الغد فالغدُ يهتمُّ بشأنه.»

وقد اقتبس أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت تسابيحه من تسبحة الثلاثة الفتية (دانيال، ف٣) فقال (شعراء النصرانية، ٢٢٧):

تُسبِّحه الطيرُ الجوانحُ في الخفى　　　وإذْ هي في جوِّ السماء تُصَعِّدُ
ومِن خوفِ ربي سبَّحَ الرعدُ فوقنا　　　وسبَّحَه الأحجارُ والوحش أُبَّدُ
وسبَّحَه النِّينانُ والبحرُ زاخرًا　　　وما طمَّ من شيء وما هو مُقْلدُ

واستمد من سفر حزقيال (ف١٠) وصف الملائكة فقال:

ملائكةٌ لا يَفتُرون عبادةً　　　كَروبيَّةٌ منهم ركوعٌ وسُجَّدُ
ومنهم مُلِفٌّ في الجناحين رأسَه　　　يكادُ لذِكْرَى رَبِّه يَتفَصَّدُ

واقتبس الآخرُ قول أشعيا (٤٠: ١٨): «بِمَن تُشبِّهون الله وأي شيء تُعادِلون به.» فقال:

وليس كمِثْلِ الله شيء ولا له ... شبيهٌ تعالى ربُّنا أن يُحدَّدَا

وشَبَّه داودُ في المزامير (٣٢: ١٤)، وأشعيا في سفر نبوته (٤٠: ٢٤) زعماءَ الأرض بعصافة يتلاعب بها الريح فأخذ هذا التشبيه الحُريثُ بن عناب (الأغاني ١٤: ١٠٢) فقال:

كأنَّها ريشةٌ في أرضِ بلقعةٍ ... من حيثما وجَّهَتْها الريحُ تَنْصرفُ

وجاء في الأغاني (٢: ٥٠) أن كعب الأحبار سمع رجلًا ينشد بيت الحطيئة:

مَنْ يفعلِ الخيرَ لم يَعْدِم جَوازِيَه ... لا يذهبُ العُرْفُ بين الله والناسِ

فقال: والذي نفسي بيده إن هذا البيت لمكتوب في التوراة، قال العمري: والذي صح عندنا في التوراة: «لا يذهب العرف بين الله والعباد.» والشطر الأول ورد في رسالة القديس بولس إلى أهل أفسس (٦: ٨): «مهما عمل كل واحد من الخير فسَيَناله من الرب.»

واقتبس الحطيئة أيضًا من الكتاب المُقدَّس قوله:

ولستُ أرى السعادةَ جَمْعَ مالٍ ... ولكنَّ التَّقيَّ هو السعيدُ
وتَقْوى اللهِ خيرُ الزادِ ذُخرًا ... وعند الله لِلأتقى مَزِيدُ

ومثله لامرئ القيس:

واللهُ أنجعُ ما طَلبتَ به ... والبرُّ خيرُ حَقيبةِ الرَّحْلِ

فهو في المزامير (مز، ١١١: ١): وقال أيضًا بولس في رسالته الأولى إلى تيموتاوس (٤: ٧–٨): «رَوِّض نَفْسَك على التقوى فإن التقوى تنفع في كل شيء.»

وقد ذكر الرب في إنجيل لوقا (٤: ٢٢) المثل: «أيها الطَّبيبُ اشفِ نفسك.» وحذَّر عن المرائي الذي يَرى القَذَى في عَين أَخيه ويَغفل عن الخَشَبة التي في عينه (متَّى، ٧: ٢–٤) فأخذه ابن معاوية الجعفري فقال:

ولا تَقْربنَّ الصَّنيعَ الذي ... تلومُ أخاكَ على مثله

وقال الآخَر (الأغاني، ٢٠: ٥٧):

وعامل بالفُجور يأمرُ بالـ ـبِرِّ كَهادٍ يَخوضُ في الظُّلَمِ
أو طبيب قد شَفَّه سقمٌ وَهْوَ يُداوي مِن ذلك السَّقَمِ
يا واعظَ الناس غيرَ مُتَّعِظٍ نَفْسَك طَهِّر أو لا فلا تَلُمِ

ومثله لعلي: مَن أبصر عيب نفسه اشتغل عن عيب غيره.

وقد اقتبس يحيى بن زياد قول سليمان في أمثاله (١٠: ١٢): «البُغضُ يثير النزاع والحبُ يستر جميع المعاصي.» فقال:

وعينُ الرِّضا عن كل عيبٍ كَليلةٌ كما أن عين السُّخْط تُبدي المَساوِيَا

يقول العرب (الميداني، ١: ٢٩٥): ربما كان السكوتُ جوابًا، ومثله قول الشاعر:

إذا نَطقَ السفيهُ فلا تُجِبْهُ فخيرٌ من إجابتِه السُّكوتُ

وهذا قد ورد في أمثال سليمان الحكيم (٢٦: ٤): «لا تُجاوِب الجاهلَ بحسب سَفهه لِئلَّا تكونَ أنت نظيرَه.» وقال (٢٩: ٩): «الحكيم الذي يخاصم سفيهًا لا يجد راحة.»

وقال الرب (في متى، ١٠: ٢٨): «ليس خَفِي إلا سيظهر ولا مكتومٌ إلا سَيُعْلَنْ.» قال زهير بمعناه:

ومَهْما تَكنْ عند امرئٍ من خليقةٍ ولو خالها تَخفى على الناس تُعْلَمِ

ومن حكم العرب: الصِّدقُ مَنجاة والكذب مَهوَاةٌ، ومثله في سفر ابن سيراخ (٢٠: ٢٦): «الكذب عارٌ قبيحٌ في الإنسان.» وقال (٢٠: ٢٨): «شأن الإنسان الكذوب الهوان وخزيه معه على الدوام.»

من أقوال العرب الشائعة: «العاقلُ لسانه في قلبه.» وروي بين حكم علي بن أبي طالب (ص٩٨): قلب الأحمق في فيه، ولسان العاقل في قلبه، قاله ابن سيراخ (٢١: ٢٩): «قلوبُ الحمقى في أفواههم وأفواه الحكماءِ في قلوبهم.» وقال في أمثال سليمان (١٦: ٢٣): «قلبُ الحكيم يُفَقِّه فمَه ويزيد شفتيه فائدة.»

وروي أيضًا لعلي قوله (ص٣٢): لِين الكلامِ قيدُ القُلوبِ، ورَد مثله في ابن سيراخ (٦: ٥): «الفهمُ العذبُ يُكثِر الأصدقاءَ، واللسانُ اللطيفُ يُكثِر المُؤانساتِ.»

وبين حِكَم علي أيضًا (ص٧٢): ذِكْر الآخرةِ دواءٌ، وقال ابن سيراخ (٧: ٤٠): «في جميعِ أعمالكَ اذْكُر أواخِرَك فلن تَخطأ إلى الأبد.»

ومن حكم العرب (٢: ٦٧): كلامٌ كالعَسَل وفِعْل كالأَسَل، كأنه تعريب آية الزبور (٦١: ٥): «يُباركون بأفواههم وفي باطِنهم يَلعنون.» ولابن سيراخ (١٢: ١٥): «العدو يُظهِر حلاوة من شفتيه وفي قلبه يَأتَمِر أن يسقطك في حفرة.»

ومما رواه الميداني للعرب (٢: ١٧٩): ما على الأرض شيء أحق بطولِ سجنٍ من لسان. قال القديس يعقوب في رسالته (٣: ٨): «لا يستطيع أحد من الناس أن يقمع اللسان فهو شر لا يضبط.»

يقول العرب: إن شئتَ أن تُطاع فَسَلْ ما يُستطاع، ومثله في أمثال الميداني (٢: ١٩٩): المرءُ تَوَّاقٌ إلى ما لم يَنَلْ، وقد سبق ابن سيراخ فقال (٣: ٢٢): «لا تَطلب ما يُعْيِيك نَيلُه ولا تبحث عما يَتجاوَز قدرك.»

وورد بين الحكم المنسوبة إلى علي (ص٦): ثبات الملك بالعدل، وفي أمثال سليمان (١٤: ٣٤): «العدل يعلي الأمة.»

وروي له (ص١٠٨): من أضاع نفسه قتلها ومن عصى نفسه وصلها، وهو منقول عن كلام الرب (متَّى، ١٦: ٢٥): «من أراد أن يخلص نفسه يهلكها، ومن أهلك نفسه من أَجْلِي يُخلِّصها.»

وروي أيضًا بين حِكَم علي قوله (ص٧٠): دِرهمُ الفقير أزكى عند الله من دينار الفقير، وهو كمثل قول الرب عن فلس الأرملة (مرقس، ١٢: ٤٣): «إن هذه الأرملة الفقيرة أَلقَتْ أكثر من كل الذين ألقوا في الخزانة.»

ومنها (ص٣٢): كلام الله دواءُ القلوب، وقد سبق إليه في المزامير حيث قال (مز، ١٨: ٨): «شريعةُ الرب كاملة تَردُّ النفوسَ، أَمْرُ الرب مُستقيمٌ يُفرح القلبَ.»

ومنها أيضًا (ص١٤): ذليلُ الخلق عزيزٌ عند الله، وورد في رسائل بولس (١ كر، ١: ٢٥): «مُستجهَل الله أَحكمُ من الناس ومُستضعَفُ الله أقوى من الناس.»

(٢) الحديث والتوراة

رأيت في الفصل السابق كم للعرب من حِكَم اقتبسوا معانيَها في عهد الجاهلية وأوائل الإسلام من الأسفار المُقدَّسة، على أننا لم نَروِ منها إلا النزر القليل لما يستدعي جمعها في الكتب القديمة من الزمن الطويل ولا شك أن من ينتبه إلى ذلك ويُحْسِن معرفة الكتب

المقدسة لا سيما الأسفار الحكمية يجد مُقتبَسات عديدة غيرها، ولنا على ذلك شاهِد آخر في الأحاديث النبوية التي رواها أقدم المُحدِّثين عن نبي الإسلام ننقل بعض ما وقفنا عليه منها فيظهر للقراء الكرام كم كانت شائعة في ذلك الوقت التعاليم النصرانية، وفيه برهان جَليٌّ على كون التوراة وأسفار العهدين القديم والجديد كانت منذ زمن الجاهلية وأول الإسلام مُعرَّبة وإن لم نعرف ماذا جرى لتلك التعريبات القديمة (راجع في: المشرق، ٤: ٩٩–١٠٨) مقالتنا المعنونة «نسخ عربية قديمة في الشرق من الإنجيل الطاهر»، أما ما نرويه هنا من الحديث فقد وجدْنَاه في مجاميع المحدثين الأثبات كصحيح الإمام البخاري (+ ٢٥٦هـ = ٨٦٩م)، وصحيح مسلم بن الحجاج (+ ٢٠١هـ = ٨٧١م)، وفي مجاميع أبي عبد الرحمن النسائي (+ ٣٠٣هـ = ٩١٥م)، ومحمد بن ماجه القزويني (+ ٢٧٣هـ = ٨٨٧م)، وابن عيسى الترمذي (+ ٢٧٩ = ٨٩٢م) وقد وفر علينا السيوطي في كتاب كنوز الحقائق وفي الجامع الصغير (جس) وشرحه للمناوي (من) ذكر كل مُحدِّث بفرده وأشار إليهم بحروف اصطلح عليها بعد كل حديث البخاري (خ)، مسلم (م)، الترمذي (ت)، النسائي (ن)، ابن ماجه (ه)، ومِن هذه الكتب نُسَخ مخطوطة في مكتبتنا الشرقية، ثم إننا سنذكر كل حديث كما رواه أصحاب الحديث ونرسم بإزائه ما وافقه من آيات الكتب الكريمة مباشرة بالعهد العتيق ثم الكتب التاريخية ثم الحكمية ثم النبوات، ومِن بعدها العهد الجديد؛ أي الإنجيل، والرسائل، ورؤيا مار يوحنا.

سفر التكوين (تك)	الحديث
خلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه (تك، ١: ٢٧).	خلق الله آدم على صورته (جس، ٢٠٤، من نسختنا الخطية) = لا تُقبِّحوا الوجه فإن الله خلقه على صورة الرحمن (من، ١٩٣).
إن الله جَبلَ الإنسان ترابًا من الأرض (تك، ٢: ٧).	خلق الله آدم من تراب (جس، ٧٢).
غرَس الربُّ الإله جنة في عدن (تك، ٢: ٨).	إن الله بنى جنَّات عدن بيده (جس، ٣٢، من ٣١).
رأى الله أن جميع ما صنعه هو حَسَن جدًّا (تك، ١: ٣١).	كل خلق الله حسن (جس، ١١٣).
ولد نوح ساما وحاما ويافث (تك، ٥:٣٢)	ولدَ نوح ثلاثةً: سام وحام ويافث (جس، ١٧٨).

رُوي في الفصل ١٨، من سفر التكوين ذكر إضافة إبراهيم للرب المُتجلِّي له على صورة ثلاثة رجال.	كان أول من أضاف الضيف إبراهيم (جس، ١١٢).
سفر الخروج (خر)	الحديث
أَكرِمْ أباك وأمك لكي يطول عمرك في الأرض (خر، ٢٠: ١٠) = وفي تثنية الاشتراع (٥: ١٦): أَكرِمْ أباك وأمك لكي تطول أيامك = وفي سفر الأمثال (٢٢: ٢٣) اسْمَعْ لأبيك الذي وَلدَك.	إن الله تعالى يزيد في عُمْر الرجل يَبَرُّ والديه (جس، ١٠٠) = مَن بَرَّ والديه طوبى له زاد الله في عمره (جس، ١٥٠) = أَطِعْ أباك (جس، ١٨).
مَن ضربَ أباه أو أمه فليُقْتَل قتلًا (خر، ٢١: ١٥).	مَن ضرب والديه فاقتلوه (جس، ١٥٤).

سفر الأحبار (أح)	الحديث
لا تُبِتْ أجرة الأجير عندك إلى الغد (أح، ١٩: ١٣)، ومثله في طوبيا (٤: ١٥): أُجرة أجيرك لا تَبْقَ عندك أبدًا، كل مَن خَدَمك بشيء فَأَوْفِه أُجْرَته.	أَعطُوا الأجير أُجرَته قبل أن يَجفَّ عرَقُه (جس، ٦١، من ١٩) = أوفوا الأجير أجره (من، ٥٠).
إن غشي رجلٌ بهيمةً فَليُقْتَل قتلًا، والبهيمة أيضًا فاقتلوها (أح، ٢٠: ١٥)	من أتى بهيمة فاقتلوه واقتلوها معه (جس، ١٤٦).

سفر تثنية الاشتراع (تث)	الحديث
إن الرب هو الإله ليس إله سواه (تث، ٤: ٣٥ و٣٩) = ومثله في الملوك الثالث (٨: ٦١) ... إلخ.	لا إله إلا الله هي الموجبة (جس، ١٨٠) = السيد هو الله (من، ٨٧).
ملعون من يضل أعمى في الطريق (تث، ٢٧: ١٨).	لعن الله مَن أكمه الأعمى عن السبيل (جس، ١٣٠).
ملعون المُستخِفُّ بأبيه وأمه (تث، ٢٧: ١٦).	ملعون من سب أباه، ملعون من سب أمه (من، ٤٠٤).

سفر يشوع (يش)	الحديث
قال يشوع: يا شمس قِفِي ... وقفَتِ الشمس إلى أن انتقم الشعب من أعدائهم (يش ١٠: ١٢-١٣).	ما حُبِسَت الشمس على البشر قط إلا على يشوع بن نون (من، ٣٨٩).
سفر الملوك الأول (مل)	الحديث
إن الإنسان إنما ينظر إلى العينين وأما الرب فإنه ينظر إلى القلب (١ مل ١٦: ٧).	إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم (جس، ٩٧).
سفر أخبار الأيام (أخ)	الحديث
أنتَ وحْدَك تعرف قلوب بني البشر (٢، أخ، ٦: ٣٠).	علم الباطن سِرٌّ من أسراره — عَزَّ وجلَّ — وحُكْم من أحكامه (من، ٣٧٩).
إنك تُزكِّي البارَّ وتعطيه بحسب بِرِّه (٢، أخ، ٦: ٢٣).	إن الله لا يضيع أجر المحسنين (خ، ٣: ١٩٠).

سفر طوبيَّا (طب)	الحديث
الصَّدَقة تُنجِّي من كل خطيئة (طب، ٤: ١١). الصدقة تمحو الخطايا (طب، ١٢: ٩).	الزكاة طَهورٌ من الذنوب (جس، ٨٣).
الذين يعملون المعصية والإثم هم أعداء لأنفسهم (طب، ١٢: ١٠).	إنما المَجنون المقيم على معصية الله (من، ٤٥).

سفر أيوب	الحديث
الذين يَحرُثون الإثم ويزرعون المَشقَّة هم يحصدونها (أيوب، ٤: ٨)، ومثله في سفر الأمثال (٢٢: ٨): مَن زرع الظلم يحصد السوء، وفي أرميا (١٢: ١٣): زرعوا حِنْطَة فحصدوا شوكًا.	قال داود: يا زارعَ السيئات أنت تحصد شوكها وحَسَكَها (جس، ١٠٧) (قد نُسب هذا لداود وليس في مزامير داود آية كهذه).
المنافقُ لا يقوم أمام الله (أيوب، ١٣: ١٦).	ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهًا (في البخاري ومسلم).

سفر المزامير (مز)	الحديث
جانِبِ الشرَّ واصنع الخير (مز، ٣٣: ١٥؛ و٣٦: ٢٧).	إيتِ المعروف واجتنبِ المنكرَ (الجامع الصغير).
عَلِّمْني يا رب طريقك (مز، ٨٥: ١١) = ادللني يا رب على طريق رسومك ... أَسْلِكْني في سبيل وصاياك (مز، ١١٨: ٣٣–٣٥) = أَسْلِكْهم في سبيل مستقيمٍ (مز، ١٠٦: ٧).	ربِّ اغفرْ وارحمْ واهدني للسبيل القويم (من، ٨) ومثله في سورة الفاتحة: اهدنا الصراط المستقيم.
تلَذَّذْ بالرب فيعطيك سُؤل قلبك (مز، ٣٦: ٤).	اذكر اللهَ فإنه عَون لك على ما تَطلبُ (جس، ٤٨ من ١٤).
إن كنتَ للآثام راصدًا يا ربِّ فَمَن يَقِف (مز، ١٢٩: ٣).	مَن نُوقِش المحاسبةَ هَلك (جس، ١٦١).
إن ألفَ سنة في عينيك كيوم أمس الغابر (مز، ٨٩: ٤)، وفي رسالة بطرس الثانية (٣: ٨): إن يومًا واحدًا عند الرَّبِّ كألف سنةٍ.	﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ (سورة الحج، ٢٢: ٤٧).
إن يومًا في دِيارِك خير لي من ألف (مز، ٨٣: ١١).	رباطُ يوم في سبيلِ الله خير من ألفِ يوم فيما سواه (جس، ٢٢٧).
رأس الحكمة مَخافة الرَّب (مز، ١١٠: ١٠) = وكذا في الأمثال (٩: ١٠)، وفي ابن سيراخ (١: ١٦).	خشية الله رأسُ كل حِكْمة (جس، ٢٠٣) = رأسُ الحكمةِ مخافةُ الله (المسعودي، ٤: ١٦٨) = رأس الحكمة معرفةُ الله (جس، ٧٩).
الصِّدِّيقون يرثون الأرض ويسكنونها إلى الأبد (مز، ٣٦: ٢٩).	﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (سورة الأنبياء، ١٠٥).
يا رب مَن يحل في مَسكَنِك ... السالك بلا عيبٍ وفاعل البِرِّ والمتكلِّم بالحق في قلبه والذي لا يَغتاب بلسانِه (مز، ١٤: ١–٣).	قد أفلح مَن أخلص قلبه الإيمان وجعل قلبه سليمًا ولسانه صادقًا ونفسه مُطمئِنَّة (جس، ٣١١).

الربُّ رءوف كثير الرحمة لا على حسبِ خطايانا عامَلَنا ولا حسب آثامنا كافَأَنا (مز، ١٠٢: ٩–١٠).	عَفو اللهِ أكبرُ من ذنوبكم (جس، ٢٧٧).
أيام سنينا سبعون سنة ومع القوة فثمانون سنة ورغَدُها إنما هو ضرر (مز، ٨٩: ١٠).	أعمار أمتي بين الستين والسبعين (خ). قال الشَّعْبي: مكتوب في الزَّبور من بلغ السبعين اشتكى من غير علة (العقد الفريد، ١: ٣٢١)، ومثله قول التميمي (البيان للجاحظ، ٢: ١٠٨): وإنَّ امرأً قد سار سبعين حِجَّة إلى مَنْهلٍ من وِرْدِه لقريبُ إذا كانت السبعون سِنَّك لم يكن لِدَائِك إلا أن تَموت طبيبُ

سفر الأمثال (مث)	الحديث
مَن يَرحم الفقيرَ يُقْرِض الرَّب (مث، ١٩: ١٧).	إن الصدقة تَقَع في يد الله (جس، ٣٧).
اذهب أيها الكسلان إلى النَّملة، انظر إلى طُرُقها وكن حكيمًا، تُعِدُّ في الصيف طعامها للشتاء (مث، ٦: ٨٠٦).	مَثلُ المؤمن كمثل النملة تجمع في صيفها لشتائها (جس، ١٤٣).
مُسايِر الحكماء يصير حكيمًا ومُؤانِس الجُهَّال يصير شريرًا (مث، ١٣: ٢٠).	المرء على دين خليله فلينظر المرء من يخالُّ (من، ١٦٤) = إياك وقرين السوء فإنك به تُعْرَف (جس، ١٥٢).
الذي يسودُ على روحه أفضلُ مِمَّن يأخذ المُدُن (مث، ١٦: ٣٢).	ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد من يملك نفسه (خ، من) = أفضل الجهاد أن يجاهد الرجل نفسه وهواه (جس، ٦٥).
الموت والحياة في حكم اللسان (مث، ١٨: ٢١).	البلاء مُوكَّل بالمنطق (جس، ١٦٨).
الإنسان المطيع يَتكلَّم كلام المنتصر (مث، ٢١: ٢٨).	مَن أطاع الله فاز (من، ١٤٨).
الأخُ أمنعُ من مدينة مُحصَّنة (مث، ١٩: ١٩).	إن المرء كثير بأخيه (جس، ١١٠).

ككلبٍ عائدٍ على قَيْئِه هكذا الجاهِل المُكرِّر سَفهه (مث، ٢٦: ١١)، ومثله في رسالة بطرس الثانية (٢: ٢٢).	العائد في صَدقَتِه كالكلب يعود إلى قَيئه (البخاري، ٢: ١٢٣).
مَن يجد المرأة الفاضلة. إن قِيمتَها فوق اللآلئ (مث، ٣١: ١٠) = مَن وَجد زوجةً صالحة وَجد خيرًا (مث، ١٨: ٢٢).	زوجة صالحة خيرُ ما كنز الناسُ (جس، ٣١٣).

سفر الجامعة (جا)	الحديث
إن البَشر لا يعلمون أَحبًّا يَستوجبون أم بُغضًا؟ (جا ٩: ١).	عجبتُ لطالبِ دنيا ... وهو لا يدري أَرُضِيَ عنه أو سُخِطَ (جس، ٢٧٥).
إن الله سَيُحْضِر كل عمل ليدين على كل خفي خيرًا كان أو شرًّا (جا، ١٢: ١٤)، ومثله في رسالة بولس الرسول إلى أهل أفسس (٦: ٨).	مَن يعملْ مثقالَ ذرة خيرًا يَرَهُ ومن يعملْ مثقالَ ذرة شرًّا يَره (خ، ٣: ١٩٩).
لكل أمر أوان ولكل غَرَض تحت السماء وقت (جا، ٣: ١).	لكلِّ شَيء ميقاتُه (من، ١٥٨)، ومثله للشاعر: وللأمورِ مَواقيتٌ مُقدَّرَةٌ وكل أمر له حَدٌّ وميزانُ وقال أيضًا: فإذا الشيءُ أتَى في وَقْتِه زاد في العَينِ جمالًا لجمالِ

سفر الحكمة (حك)	الحديث
الربُّ يفحص أعمالكم فأَرباب القُوَّة بالقوة يفحصون وإن للأشداء امتحانًا شديدًا (حك، ٦: ٤–٧).	أشدُّ الناس عذابًا للناس في الدنيا؛ أشدُّ الناس عذابًا عند الله يوم القيامة (جس، ٥٥).
نفوسُ الصِّدّيقين بِيدِ الله لا يمسها عذاب وفي ظن الجهال أنهم ماتوا ... أمَّا هم ففي السلام (حك، ٣: ١–٣).	في سورة آل عمران (٣: ١٢٣): ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ ... وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ .

مَحص اللهُ الصِّدِّيقين كالذهب في البودقة ... فهُم في وقتِ افتقادهم يتلألَئُون (حك، ٣: ٦-٧).	مثل المؤمن حين يُصيبه البلاء كمثل الحديدةِ تدخلُ النار فيذهب خَبَثُها ويبقى طيبُها (جس، ١٣٥).
نشيد الأناشيد (نش)	الحديث
إني نائمةٌ وقلبي مُستيقِظ (نش، ٥: ٣).	تنامُ عَيناي ولا ينام قلبي (جس، ١٧٥) = إننا مَعْشرَ الأنبياء تنامُ أعيننا ولا تنام قلوبُنا (جس، ١٣٢؛ خ، ٢: ٤٤).
سفر يشوع بن سيراخ (سخ)	الحديث
يا بُنيَّ اتَّخِذ التأديب منذ شبابك ... تروَّ في أوامِر الرَّبِّ فهو يُنيلُك مما تتمناه (سخ، ٦: ١٨ و٣٢).	إن الله يُحِبُّ الشاب الذي يُفْنِي شبابَه في طاعة الله (جس، ٩٨).
لا تُسلِّم نفسك إلى المرأة لئلَّا تتسلط على قُدرتِك (سخ، ٩: ٢).	طاعة المرأة ندامة (جس، ٩٤).
لا تَشمَتْ بموت أحد. اذكر أنَّا بأجمعنا نموت (سخ، ، ٨: ٨).	لا تُظهِر الشماتةَ بأخيك فيرحمه الله ويبتليك (جس، ١٩١).
الماءُ يطفئ النارَ الملتهبة، والصَّدَقَةُ تُكفِّر الخطايا (سخ، ٣: ٣٣) = وفي لوقا (١١: ٤١): تَصدَّقوا مما في أيديكم فيظهر لكم كل شيء.	الصَّدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار (جس، ٩٢) = تَصدَّقوا فإن الصدقة فِكاكُكم من النار (جس، ٣٢).
في جميع أعمالك اذكر أواخرك فلن تخطأ إلى الأبد (سخ، ٧: ٤٠).	أَكْثِرْ ذِكْر الموت يُسَلِّكَ عمَّا سواه (جس، ٢١٣) = أَكْثِرُوا ذِكْر الموت فإنه يُمحِّص الذنوب ويُزهِّد في الدنيا (جس، ٧١).
أوصاهم (أي البشر) كل واحد في حق القريب (سخ، ، ١٧: ١٢).	كلُّكم راعٍ وكل راعٍ مسئولٌ عن رَعِيَّته (من، ١١٥؛ م، ٦: ٨؛ خ، ١١٥).
كل رِجسٍ مُبْغَض عند الرب (سخ، ١٥: ١٣).	إن الله يُبغضُ الفاحش البذيء (من، ٣٤).
الهدايا والرُّشَى تُعمي أعين الحكماءِ، وكلِجام في الفم تحجز توبيخاتهم (سخ، ٢٠: ٣١).	الهدية تُعَوِّر عَين الحكيم = الهدايا للأمراء غُلول = الهديةُ تَذْهَب بالسمع والقلب والبصر (جس، ١٧٦).

الإفراط مِن شُرْب الخمر خصومة ونزاع ومَرارة للنفس (سخ، ٣١: ٢٨)، وفي رسالة القديس بولس إلى أفسس (٥: ١٤): لا تَسْكَروا من الخمر التي فيها الدعارة.	اجتنِبُوا الخمر فإنها مفتاح كل شر (جس، ١٤) = الخمر جماعُ الإثم (جس، ٧٥).
عَجِّل الزمان واذْكُر الأجل (سخ، ٣٦: ١٠).	اغتنِمُوا العمل وبادِرُوا الأجلَ (جس، ٢٠).
الغُمَّة تأتي بالشيخوخة قبل الأوان (سخ، ٢٦: ٣) = كالعُثِّ في الثوب والسُّوس في الخَشَب هكذا الكآبة في قلب الرجل (سخ، ٢٥: ٢٠).	الهمُّ نِصفُ الهَرَم (جس، ١٧٦)، وقال المتنبي في هذا المعنى: والهمُّ يَخْتَرِم الجَسيمَ مخافةً وُيُشِيبُ ناصية الصَّبِي فَيهْرمُ

سفر أشعيا (شع)	الحديث
انْطَلِق وقل لهؤلاء الشَّعْب اسمعوا سماعًا ولا تَفهموا وانْظُروا نظرًا ولا تَعْرِفوا (شع، ٦: ٦).	يدعو اللهَ المنافقُ فلا يسمع، ينظر ولا يبصر (من، ٢٣٠) = وفي سورة الأعراف (٧: ١٩٧): ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾.
إن هذا الشعب يكرمني بشفتيه وأما قَلبُه فبعيد عني (شع، ٥٢: ١٢؛ مت، ١٥: ٨).	ويلٌ لمن يذكر الله بلسانه ويَعصي الله في عمله (جس، ١٧٨).
أنا الرب وهذا اسمي ولا أُعطي لآخَر مجدي (شع، ٤٢: ٨) = لَبِس الربُّ العِزَّةَ وتَمَنْطقَ بها (مز، ٩٢: ٢).	قال الله: الكبر ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدًا منهما قذفتُه في النار (جس، ٣٠٦).

سفر أرميا (أر)	الحديث
ملعونٌ الرجل الذي يَتوكَّل على البَشر وقلبه ينصرف عن الرَّب (أر، ١٧: ٥).	مَن سعى إلى الناس فهو لغير رشده (جس، ١٥٥)، ومثله لعلي بن أبي طالب (ص٢٢): ضلَّ سَعْي مَن رجا غير الله.

سفر حزقيال (حز)	الحديث
المنافق إذا تاب عن جميع خطاياه ... فإنه يَحيا حياة ولا يموت (حز، ١٨: ٢١)، وفي سفر الحكمة (١١: ٢٤): إنك تتغاضى عن خطايا الناس لكي يتوبوا.	التائبُ من الذَّنْب كَمَن لا ذنب له (جس، ١٧٧)، وفي الإيجاز والإعجاز (ص٦): من كلام النبي: التوبة تَهْدِم الحَوْبَة.
سفر دانيال (دا)	**الحديث**
يُضيء العقلاءُ كضِيَاء الجَلَد، والذين هدوا إلى البِرِّ كثيرين؛ كالكواكب إلى دَهْر الداهِرين (دا، ١٢: ٣).	إن مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم في السماء يُهتَدَى بها (جس، ١٢٧).
وفي دانيال تسبحة الثلاثة الفتية في أتون النار يدعون الخلائق إلى تسبحة خالِقِها.	ورد في الحديث وفي السور: الصف (٦١: ١)، والجمعة (٦٢: ٢)، والتغابن (٦٤: ١)، والملك (٦٧: ١) مثلها معنى ولفظًا.
سفر زكريا النبي (زك)	**الحديث**
ابتهجِي جدًّا يا بنتَ صهيون واهتفي يا ابنة أورشليم هو ذا ملكك يأتيك مُخلِّصًا وديعًا راكبًا على أتان (زك، ١١: ٩).	قال في لسان العرب (٥: ٩٦): في حديث عطاء: أَبْشِري، أُورَى شَلَّم براكبِ الحمار (قال: يريد بيت الله المُقدَّس.)
الإنجيل الشريف	**الحديث**
الإنجيل الشريف (متَّى: مت. لوقا: لو. مرقس: مر. يوحنا: يو). الرَّب معكِ، مباركَة أنتِ بين النساء (لو، ١: ٢).	كل بَني آدمَ يَمسُّه الشيطان يوم وَلدَتْه أمه إلا مريم وابنها (جس، ٣١٩) = ما من بني آدم مولود إلا يمسه الشيطان غير مريم وابنها (جس، ٣٩٨).
امتلأت اليصابات من رُوح القُدُس وارتكض الجنين في بطنها (لو، ١: ٤١).	خلق الله يحيى بن زكريا في بطن أمه مؤمنًا (جس، ٢٠٥).

كان قد أوحي إليه (إلى سمعان الشيخ) أنه لا يرى الموت حتى يعاين مسيح الرب (لو، ٢: ٢٦).	إن روح القدس نَفَث في روعي أن نفسًا لن تموت حتى تستكمل أَجلَها (جس، ١١٨).
ليس أمرٌ غير ممكن لدى الله (لو، ١: ٣٧) = كل شيء عند الله مستطاع (مر، ١٠: ٢٧).	إذا أراد الله خلق شيء لم يمنعه شيء (جس، ٢٥).
كونُوا كاملين كما أن أباكم السماوي كامل (مت، ٥: ٤٨).	إن الله تعالى مُحْسِن فأحْسِن (جس، ٩٥).
الذي يعملُ ويُعلِّم فهذا يُدْعَى عظيمًا في ملكوت السموات (مت، ٥: ١٩).	كل علمٍ وبالٌ على صاحِبِه إلا ما عُمِلَ به (جس، ١١٤) = تَعلَّموا من العلم ما شئتم فوالله لا تُؤْجَروا بجَمْع العلم حتى تَعمَلوا به (جس، ١٧٣).
الويل لكم أيها الأغنياء (لو، ٦: ٢٤) = طوبى للمساكين بالروح فإن لهم ملكوت السموات (مت، ٥: ٢).	ويل للأغنياء من الفقراء (جس، ٤٥٥) = نِعْمَ الشيء الفقر (جس، ١٦٦) = قمت على باب الجنة فإذا عامَّة من دخلها المساكين (جس، ٣١٤) = الفقر شَيْن عند الناس زَيْن عند الله يوم القيامة (جس، ٣٠٣).
أنتم نورُ العالم ... لا يُوقَد سراج ويوضع تحت المكيال لكن على المنارة ... فَلْيُضِئ نوركم قدام الناس (مت، ٥: ١٤–١٥).	اتبعوا العلماء فإنهم سُرُج الدنيا ومَصابيح الآخرة (جس، ١٠).
أنتم مِلْح الأرض فإذا فسد الملح فبِمَاذا يُملَّح (مت، ٥: ١٣).	مَثَلُ أصحابي كالمِلْح لا يَصْلُح الطعام إلى به (جس، ٤٠٢؛ الإيجاز والإعجاز، للثعالبي، ص٦) = قريشٌ صلاح الناس ولا يصلح الناس إلا بهم كما أن الطعام لا يصلح إلا بالملح (جس، ٣١٢)، ومثله للشاعر: بالملحِ تُصْلِح ما تخشى تَغيُّرُه فكيف بالمِلْح إن حَلَّتْ به الغِيَرُ؟!
كونوا وُدعاء كالحَمَام (مت، ١٠: ١٦).	كونوا بُلْهًا كالحمام (إحياء علوم الدين، للغزالي) = دخلتُ الجنة فإذا أكثرُ أهلها البُلْهُ (جس، ٢١٧).
لا تَدينوا لِئلَّا تُدانوا فإنكم بالدَّيْنُونة التي بها تَدِينون تُدَانون،* وبالكيل الذي تَكِيلُون يُكالُ لكم (مت، ٧: ١–٢).	مكتوب في الإنجيل كما تَدينُ تدان، وبالكيل الذي تَكيل تُكتال (جس، ٤٠٤) = البِرُّ لا يبلى والذَّنْب لا يُنْسى والدَّيَّان لا يَمُوت، اعمل ما شئتَ كما تَدِين تُدان (جس، ١٦٦).

طُوبَى للرُّحماء فإنهم يرحمون (مت، ٥: ٧) = كونوا رحماء كما أن أباكم هو رحيم (لو، ٦: ٢٦).	مَن يرحمِ الناسَ يَرحَمْه الله، ومن لا يرحم الناس لا يرحمه الله (جس، ١٦٢) = كونوا رحماء فإن الله رحيم يحب كل رحيم (من، ١١٥).
اغفروا يغفر لكم (لو، ٦: ٣٧) = هكذا أَبِي السماويُّ يَصنع بكم إن لم تغفروا من قلوبكم كل واحد لأخيه (مت، ١٨: ٣٥).	اسمحوا يُسْمَح لكم (جس، ٥٥) = من لا يَغْفِر لا يُغْفَر له، مَن لا يَرحَم مَن في الأرض لا يرحمه مَن في السماء (جس، ٤٣٦).
قال يسوع: يا أبتِ اغفر لهم لأنهم لا يَدرُون ما يعملون (لو، ٢٣: ٣٤).	اللهم اغفرْ لقومي فإنهم لا يعلمون (من، ٢٥) = ارحم يا رب أمتي لأنَّهم لا يَعلَمُون ما يصنعون (رواية إحياء علوم الدين، للغزالي).
لا يسقط عصفور على الأرض بدون أبيكم ... فلا تخافوا فإنكم أفضلُ من عصافير كثيرة (مت، ١٠: ٢٩–٣١).	الله أرحمُ بعباده من هذا العصفور بفرخه (جس، ٢٤).
كل ما تريدون أن يفعل الناس بكم فافعلوه أنتم بهم (مت، ٧: ١٢؛ لو ٦: ٣١)، ومثله في طوبيَّا (٤: ١٦): كل ما تكره أن يفعله غيرك بك فإياك أن تفعله أنتَ بغيرك.	أحبِبْ للناس ما تحبه لنفسك (جس، ١٦؛ الأغاني ١٩: ٥٥) = لا يؤمن أحدكم حتى يُحِبَّ لأخيه ما يحب لنفسه (من، ١٨٦)، ونظمه الشاعر فقال: واصْنَعْ إلى الناس كَمِثْل الذي تَختارُ أن يَصنعه الناسُ بِكْ
إن ابن البشر لم يأتِ لِيُهلِك نفوس الناس بل لِيخلِّصَها (لو، ٩: ٥٦).	إنما بُعثتُ رحمة ولم أُبعثْ عذابًا (جس، ١٣٥).
ما بالُك تنظر القَذى الذي في عَين أخيكَ ولا تفطن للخشبة التي في عينك؟ يا مرائي أَخْرِج أولًا الخشبة من عينك (مت، ٧: ٣؛ لو ٦: ٤٢) = أيها الطبيب اشْفِ نفسك (لو، ٤: ٢٣).	إذا أردتَ أن تَذكرَ عيوبَ غيرك فاذكر عيوب نفسِكَ (جس، ٢٦) = روي في الأغاني لسكينة بنت الحسين بن علي (١٤: ١٧): إني والله وإياك كالذي يرى الشَّعْرَة في عَين صاحبه ولا يرى الخشبة في عينه = يُبصِر أحدكم القَذى في عين أخيه وينسى الجذع في عينه (جس، ٤٦٧).

أنتم جميعًا إخوة (مت، ٢٣: ٨)، وفي رسالة بولس إلى أهل غلاطية (٣: ٢٨): ليس عبدٌ ولا حُرٌّ لأنكم جميعكم واحد في المسيح.	المسلم أخو المسلم (جس، ٤٤٠) = العبيد إخوانُكم فأطْعِمُوهم مما تأكلون (خ، ٣: ١١٣).
أَحِبُّوا أعداءكم وأحسنوا إلى من يبغضكم (مت، ٥: ٤٤؛ ولو ٦: ٢٧) = إن أحببتم مَن يُحِبُّكم فأيُّ أجر لكم؟ أليس العَشَّارون يفعلون ذلك؟ (مت، ٥: ٤٦).	صِلْ مَن قطعك وأَحسِنْ إلى مَن أساء إليك (جس، ٢٥٦) = الفضلُ في أن تَصلَ مَن قطعك وتَعفوَ عمَّنَ ظلمك = أفضلُ الفَضْل أن تَصِل مَن قطعكَ وتُعطِيَ مَن حرمك وتَصفَح عمَّن ظلمك (جس، ٦٦ و٣٠٣).
أعداءُ الإنسان أهل بيته (مت، ١٠: ٣٦) ومثله في نُبوَّة ميخا (٧: ٦).	أعدى عدوك زوجتُك وما ملكَت يمينُك (جس، ٦٠).
كم مَرَّة يخطأ إليَّ أخي فَأغفِرَ له أإلى سبع مرات؟ قال له يسوع: بل إلى سبعين مرة، سبع مرات (مت، ١٨: ٢١-٢٢).	اعفُ عن الخادمِ كلَّ يوم سبعين مرة (من، ١١٩) = إني لأتوب إلى الله في اليوم سبعين مرة (من، ٤٧).
ملكوتُ السموات يُغْصَب والغاصِبون يَختطفونه (مت، ١١: ١٢).	حُفَّت الجنة بالمَكاره (الثعالبي، المحاضرة والتمثيل، ص١٠، من نسختنا؛ وفي الإيجاز والإعجاز له، ص٦-٧، من ٦٩) = إنَّ أبواب الجنة تَحت ظلال السيوف (خ، ٣: ١٩١؛ جس ١١٣).
مَن يُنكرني أمام الناس يُنْكَر أمام ملائكة الله (لو، ١٢: ٩)؛ وفي مَتَّى (١٠: ٣٣) ... أُنكره أنا قُدَّام أبي الذي في السموات.	إذا سُئِل أحدُكم أمؤمن هو فلا يَشكَّ (جس، ٣٧).
لو كان لكم إيمان مثل حبة خردل لكنتم تقولون لهذا الجبل: انتقل من ها هنا إلى هناك فينتقل (مت، ١٧: ١٩).	لا يَدخل النار من كان في قلبه حبَّة خردل من الإيمان (رواه الغزالي، في إحياء علوم الدين) = يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ثم يقول الله: أَخرِجوا من كان في قلبه حبة خردل من الإيمان فيخرجون (خ، ١: ١٠).
قال الرُّسُل للرب: زِدْنا إيمانًا (لو، ١٧: ٥).	﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (سورة طه، ١١٣).

من أحب أبًا أو أمًّا أكثر مني فلن يستحقني ... ومن أهلكَ نفسه من أَجْلِي يجدها (مت، ١٠: ٣٧–٣٩).	لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين (خ، ١: ٩) = لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه (من، ١٨٦؛ وفي إحياء علوم الدين، للغزالي).
طوبى لعيونكم لأنها تنظر ولآذانكم لأنها تسمع ... إن كثيرين من الأنبياء والصديقين اشتهوا أن يروا ما أنتم راءُون ولم يروا وأن يسمعوا ما أنتم سامعون ولم يسمعوا (مت، ١٣: ١٦–١٧).	إن أناسًا من أمتي يأتون بعدي يود أحدهم لو اشترى رؤيتي بأهله وماله (جس، ١١٥).
قال يسوع: لأنك رأيتَني يا توما آمنت فطوبى للذين لم يروني وآمنوا (يو، ٢٠: ٢٩).	طوبى لمن رآني وآمن بي وطوبى لمن آمن بي ولم يرني (جس، ٢٧١)، وفيه: طوبى ثم طوبى ثم طوبى لمن آمن بي ولم يرني = رحم الله إخواني الذين آمنوا بي ولم يروني (من، ٨٨) = طوبى لمن رآني أو رأى من رآني (من، ٩٥).
مَن سَمِع منكم فقد سمع مِنِّي، ومن احتقركم فقد احتقرني، ومن احتقرني فقد احتقر الذي أرسلني (لو، ١٠: ١٦) = من قَبِلَكم فقد قَبِلَني ومن قَبِلَني فقد قَبِل الذي أرسلني (مت، ١٠: ٤٠) = الحق أقول لكم إن الذي يَقْبَل من أرسله يَقْبَلني والذي يَقْبَلني يَقْبَل الذي أرسلني (يو، ١٣: ٢٠).	تَسْمَعون ويُسْمَع منكم (جس، ١٧١) = أكرِموا العلماء ... فمن أكرمهم فقد أكرم الله ورسوله (جس، ٧٢) = من أحب الأنصار أحبه الله، ومن أبغض الأنصار أبغضه الله (جس، ٤٠٨) = من أحبني فقد أحب الله ومن أطاعني فقد أطاع الله (من، ١٤٦) = من أحب العرب فقد أحبني حقًّا (من، ١٤٧) = من أحب عليًّا فقد أحبني ومن أبغضه فقد أبغضني (جس، ٤٠٧) = من آذى عليًّا فقد آذاني (من، ٢٠٤) = من أحبَّ الحسن والحسين فقد أحبَّني ومن أبغضهما فقد أبغضني (جس، ٤٠٨).
إن الكَتَبة والفريسيين جالسون على كرسي موسى فمَهْما قالوا لكم فاحفظوه واعملوا به، وأما بمثل أعمالهم فلا تعملوا (مت، ٢٣: ٢–٣).	انظروا قريشًا فخذوا من قولهم وذَرُوا فعلهم (جس، ١٤٣).
أَوْفُوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله (مت، ٢٢: ٢٠).	أدُّوا للأمراء حقَّهم واسألوا الله حقكم (رواية إحياء علوم الدين، للغزالي).

حينئذٍ يضيء الصِّدِّيقون مثل الشمس في ملكوت أبيهم (مت، ١٣: ٤٢).	إن أهل عليين يُشْرِف أحدُهم على أهل الجنة فيضيء وجهه لأهل الجنة كما يضيء القمر ليلة البدر لأهل الدنيا (جس، ١١٦).
احْذَرُوا من الأنبياء الكَذَبة الذين يأتونكم بلِباس الحُمْلان وهم في الباطن ذئاب خُطَفة ... (مت ٧: ١٥).	إن بين يَدَي الساعة كذَّابين فاحذَرُوهم (صحيح مسلم ٦: ٤)، ومثله للشاعر: وإذَا الذِّئابُ استنعَجَتْ لك مرة فحَذارِ منها أن تعودَ ذئابا فالذِّئبُ أخبثُ ما يكونُ إذا بدَا مُتلبِّسًا بين النِّعاجِ إهابا
صَلُّوا في كل حين (لو، ٢١: ٣٦) = الحق أقول لكم: إن كل ما تسألون الآب باسمي يُعْطِيكموه (يو، ١٦: ٢٣).	الصلاة خير موضوع فمن استطاع أن يستكثر فليستكثر (جس، ٢٦٥) = الصلاة مفتاح كل خير (من، ١٩٣) = ما أَذِنَ الله لعبد في الدعاء حتى أذن له في الإجابة (جس، ٣٨٥).
إذا صليتَ فادخل مخدعك وأغلقْ بابك وصلِّ إلى أبيك في الخفية (مت، ٦: ٦).	صلوا أيها الناس في بيوتكم؛ فأفضل صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة (جس، ٦٦).
اسألُوا فَتُعطوا، اطلُبوا فَتجِدُوا، اقْرَعُوا† فيُفْتَح لكم (مت، ٧: ٧).	مَن طلب شيئًا وجدَّ وَجَدَ. من قرع الباب ولجَّ ولَجَ (من، ١٣٠) = سَلْ تُعْطَ (جس، ٨٥).
انظروا إلى طيور السماء فإنها لا تَزْرَع ولا تَحْصُد ولا تُخَزِّن في الأهراء وأبوكم السماوي يقوتها (مت، ٦: ٢٦).	لو أنكم تَتوكَّلُون على الله حق توكله لرزقكم كما تُرزق الطير تغدوا خماصًا وتروح بطانًا (جس، ٣٦٨).
وأنتم فَصَلُّوا هكذا أبانا الذي في السموات‡ لِيتقَدَّس اسمك ليأتِ ملكوتك لِتكُن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض (متَّى، ٦: ٩–١٠).	إذا تَألَّم أحدٌ أو تألَّم أخوه فليقل: ربَّنا أنت في السماء ليتقدس اسمك ليكن ملكوتك في السماء والأرض (حديث أبي داود، ١: ١٠١).
حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي فأنا أكون هناك فيما بينهم (مت، ١٨: ٢٠).	عليكم بالجماعة فإن الله لن يجمع أمتي إلا على هدى (جس، ١٣) = يد الله مع الجماعة (الثعالبي، الإعجاز والإيجاز، ٦–٧).

إذا صنعت صدقة لا تَعلم شَمالُك ما تصنع يمينك لتكون صَدقتُك في خفية وأبوكم الذي يرى في الخفية هو يجازيك (مت، ٦: ٤-٥) = أرملة فقيرة أَلْقتْ فلسين ... إن هذه قد ألقت أكثر من كل الذين ألقوا في الخزانة (مر، ١٢: ١٣-٤٤).	في صحيح البخاري (١: ٧١) يمد الله يوم الدين من عمل الصدقة سرًّا بحيث لا تعلم يده الشمال ما فعَلَتْه يمينه = أفضل الصدقة سرٌّ إلى فقير وجهد من مُقِلٍّ (جس، ٦٥) = صدقة السر تطفئ غضب الله (الإعجاز والإيجاز، للثعالبي، ٦-٧) = من كنوز البر كتمان الصدقة (جس، ١٧٠).
كل مَن ترك بيتًا أو إخوة ... لأجل اسمي يأخذ مائة ضعف ويرث الحياة الأبدية (مت، ١٩: ٢٩).	إن الله تعالى لا يَظْلِم المؤمن حَسنةً يُعطَى عليها في الدنيا ويُثاب عليها في الآخرة (جس، ٩٦).
مَن سَقَى أحد هؤلاء الصغار كأسَ ماءٍ بارد فقط ... فالحق أقول لكم: إنه لا يضيع أجره (مت، ١٠: ٤٢).	مَن سقى عطشانًا فأَرْواه فُتِح له باب الجنة (من، ١٠٤).
كل من رفَع نفسه اتَّضَع، ومن وضَع نفسه ارتفع (لو، ١٤: ١١) = حط المقتدرين عن الكراسي ورفع المتواضعين (لو، ١: ٥٢).	مَنْ تكبَّر وضَعَه الله (من، ١٥١) = مَن تواضَع لله رفعه ومن تَجبَّر قمعه (جس، ٤١٤) = التواضع لا يزيد العبد (ويُرْوَى العالِم) إلا رِفْعَة فتَواضَعوا يَرفَعْكم (جس، ١٧٧).
إذا دُعيتَ فامضِ واتَّكئ في آخِر موضع (لو، ١٤: ٧).	إن مِن التَّواضُع الرضا بالدُّون مِن شرف المَجالِس (جس، ٤٢).
من أراد أن يكون فيكم عظيمًا يكون لكم خادمًا، ومن أراد أن يَصير فيكم الأول يكون عبدًا للجميع (مر، ١٠: ٤٣-٤٤).	سيِّد القومِ خادِمُهم (جس، ٢٤٤؛ من، ٨٦).
إنه لَأسهلُ أن يدخل الجملُ في ثُقب الإبرة من أن يَدخُل غنيٌّ ملكوت السموات (مت، ١٩: ٢٤).	في أصحابي اثنا عشر منافقًا منهم ثمانية لا يدخلون الجنة حتى يَلِجَ الجَمَل في سَمِّ الإبرة (جس، ٣٠١) = وفي سورة الأعراف ٣٨: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾.

إن لم ترجعوا وتصيروا مثل الصبيان فلن تدخلوا ملكوت السموات (مت، ١٨: ٣).	لا يَدخُلَنَّ الجنةَ إلَّا مُرْد (من، ٧٨).
لا تُعْطوا القدس للكلاب ولا تُلْقوا جواهركم قُدَّام الخنازير (مت، ٧: ٦).	لا تَطرحوا الدُّرَّ في أفواه الكلاب (جس، ٤٦١) = لا تَطرحوا الدُّرَ تحت أرجل الخنازير (من، ١٩٢، وفي التمثيل للثعالبي).
مَن أحب نفسه فهو يهلكها ومن أبغض نفسه في هذا العالِم فإنه يحفظها للحياة الأبدية (يو، ١٢: ٢٥).	مَن أحبَّ دنياه أضَرَّ بآخِرَته ومَن أحبَّ آخِرَته أضر بدنياه، فآثِرُوا ما بقي على ما يَفْنَى (جس، ٤٠٨).
اكنزوا لكم كنوزًا في السماء (مت، ٦: ٢٠).§	مَن يتزود في الدنيا ينفعه في الآخرة (جس، ٤٣٦).
إنما يتكلم الفم من فضل ما في القلب (مت، ١٢: ٣٤).	من أحب شيئًا أكثر من ذكره (جس، ٤٠٨؛ من، ١٤٦).
ذُكِرَ في لوقا (١٥: ٤–١٠) فرَحِ واجدُ الخروفِ الضالِّ والدرهم المفقود ثم قال الرب: هكذا يكون في السماء فَرَحٌ بخاطئ يتوبُ أكثرَ مما يكون بتسعة وتسعين صديقًا لا يحتاجون إلى توبة.	اللهُ أَفرَحُ بتوبة عبده من العقيم الوالد، ومن الضالِّ الواجِد، ومن الظمآن الوارد (جس، ٣٥٧).
الويل لكم أيها الضاحكون الآن، إنكم سَتَنوحون وتبكون (لو، ٦: ٢٥).	مَن أذنب وهو يضحك دخل النار وهو يبكي (جس، ٤١٠).
بصبركم تَقْتَنون أنفسكم (لو، ١٢: ١٩) = الذي يصبر إلى المنتهى فذلك يخلص (مت، ١٠: ٢٢).	النصر مع الصبر، والفَرَج مع الكَرْب، وإن مع العسر يسرًا (جس، ٤٤٤) = الصبر مفتاح الفرج (من، ٩٢).
الرجل الصالح من كنزه الصالح يخرج الصالحات، والرجل الشرير من كنزه الشرير يخرج الشرور (مت، ١٢: ٣٥).	الرجل الصالح يأتي بالخبر الصالح، والرجل السوء يأتي بالخبر السوء (جس، ٢٣٢).

قال لهم: إن موسى لأجل قساوة قلوبكم أذن لكم أن تطلقوا نساءكم (مت، ١٩: ٨).	ما أحل الله شيئًا أبغض إليه من الطلاق (جس، ٣٨٤؛ من ١٣٩).
إن كل من نظر إلى امرأة لكي يشتهيها فقد زنى بها في قلبه (مت، ٥: ٢٦).	زنا العينين النظر (جس، ٢٣٤) = ما من مسلم ينظر إلى امرأة أول دفعة ثم يغض بصره إلا أحدث الله تعالى له عبادة يجد حلاوتها في قلبه (جس، ٣٩٩).
الويل لكم أيها الكَتَبة والفِرِّيسِيُّون المُراءون، فإنكم تُشَيِّدون قبور الأنبياء وتُزيِّنون مدافن الصِّدِّيقين ... تشهدون على أنفسكم أنكم قَتلَة الأنبياء (مت، ٢٣: ٢٩).	لعن الله اليهود ... اتَّخَذوا قبور أنبيائهم مساجد (خ، ٢: ٨٣) = قاتَلَ الله اليهود اتَّخَذُوا قبور أنبيائهم مساجد (جس، ٣٠٤).
الويل لكم أيها الكتبة والفِرِّيسِيُّون إنكم تشبهون القبور المُجَصَّصة التي تُرى للناس من خارجها حَسنة وهي من داخلها مملوءة عظامَ أمواتٍ وكل نجاسة (مت، ٢٣: ٢٧).	مَثَلُ الفاجر كمَثل القبر المُشْرِف المُجَصَّص يُعْجِب من رآه وجوفُه ممتلئ نتنًا (جس، ٤٠١).
أكبَّ يسوع يخط بأصبعه على الأرض ... فلما سمعوا طفقوا يَخرُجون واحدًا واحدًا (يو، ٨: ٦–٩).	قد كان نبيٌّ يَخُطُّ فمن وافق خطُّه ذلك الخطَّ عَلِم (من، ١٠٨).
إن في انطلاقي خيرًا لكم (يو، ١٦: ٧).	حياتي خير لكم ومماتي خير لكم (من، ٦٩) = حياتي خير لكم ... فإذا أنا متُّ كانت وفاتي خيرًا لكم (جس، ١٩٧).
أقول لكم: إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولادًا لإبراهيم (مت، ٣: ٨).	لو أن الماء الذي يكون منه الولد أَهرَقْتَه على صخرة لأخرجَ الله منها ولدًا (جس، ٣٦٧؛ من ١٦٢).
إن كنتَ تريد أن تدخل الحياة فاحفظ الوصايا (مت، ١٩: ١٧).	مَنِ اشتاق إلى الجنة سابَق إلى الخيرات (جس، ١٤٨).
كثيرون من الأولين يكونون آخِرين، ومن الآخِرين يكونون أولين (مت، ١٩: ٣٠).	في صحيح البخاري عن أبي هريرة: نحن الآخِرون السابقون يوم القيامة.

الفصل العشرون في متَّى (٢–١٦) يَذكُر الفَعَلَة الذين أخذوا جميعهم دينارًا مع اختلاف ساعات شغلهم.	روى ذلك البخاري في صحيحه (١: ١٢٩؛ و٣: ٤٦–٤٧) ... أُوتي أهل التوراة فعملوا حتى نصف النهار فأُعْطُوا قيراطًا قيراطًا، ثم أُوتِي أهل الإنجيل فعَمِلوا إلى صلاة العصر فأُعْطوا قيراطًا قيراطًا، ثم أوتينا القرآن فعملنا إلى غروب الشمس فأُعْطِينا قيراطين قيراطين ... إلخ.
وأخرَجَ يسوع الذين يبيعون ويشترون في الهيكل (مت، ٢١: ١٢).	نهى عن الشري والبيع في المسجد (جس، ٤٤٥).
أما ذلك اليوم وتلك الساعة، فلا يعلمها أحد ولا الملائكة الذين في السماء ولا الابن إلا الآب (مر، ١٣: ٣٢).	أُوتِيتُ مفاتيح كل شيء إلا الخمس: إن الله عنده علم الساعة ... (جس، ١٤٤) ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ (سورة الأحزاب، ٣٣: ٦٣).
إنها ستأتي ساعة يسمع فيها جميع مَن في القبور صوت ابن الله، فيخرج الذين عملوا الصالحات إلى قيامة الحياة والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدَّيْنُونة (يو، ٥: ٢٨).	﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ... الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ... فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (سورة الحج، ٧ و٥٥).
إن الآب لا يدين أحدًا بل أعطى الحُكْم كله للابن (يو، ٥: ٢٢) = وحينئذ يشاهدون ابن البشر آتيًا على سحابة بقوة وجلال عظيمين ... إلخ (لو، ٢١: ٢٧) = إنا جميعًا سنقف أمام منبر المسيح (رؤ، ١٤: ١٠).	ليهبطن عيسى ابن مريم حكمًا وإمامًا مقسطًا (جس، ٣٨٢) = كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم (جس، ٣٢٦) = ينزل عيسى ابن مريم عند المنارة البيضاء شرقي دمشق (جس، ٤٦٨).
ستقوم أمة على أمة ومملكة على مملكة، وتكون زلازل شديدة ... وأوبئة ومجاعات، وتكون من السماء مخاوف وعلامات عظيمة ... إلخ (لو، ٢١: ١٠–١١).	في صحيح البخاري (٢: ٢١): لا تقوم الساعة حتى يقبض العلم وتكثر الزلازل ويتقارب الزمان وتظهر الفتن ويكثر الهرج.

أعمال الرسل (عم)	الحديث
أجاب الرُّسُل وبطرس وقالوا: إن الله أحق من الناس بأن يطاع (عم، ٥: ٢٩).	طاعة الإمام حق ما لم يَأمُر بمعصية الله (جس، ٢٦٨) = مَن أمركم من الولاة بمعصية الله فلا تطيعوه (جس، ٤١٦) = لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق (من، ١٨٤).

رسائل القديس بولس	الحديث
اعْلَموا وافهموا أنه ليس للزاني أو النَّجس أو البخيل الذي إنما هو عابد وثن ميراثٌ في ملكوت السموات (أفسس، ٥: ٥) = أما تعلمون أن الأثمة لا يَرثون ملكوت الله (١ كور، ٦: ٩).	إن الجنة لا تَحِلُّ لعاصٍ (من، ٣٦) = لا يدخل الجنة لا خِبٌّ ولا خائن ولا منَّان (جس، ٤٦٦).
إنه بالقلب يؤمن الإنسان للبر ويعترف للخلاص (رو، ١٠: ١٠).	الإيمان إقرار باللسان وتصديق بالقلب وعمل بالأركان (جس، ١٦٣) = الإيمان معرفة بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالأركان (من، ٥٥).
كل إنسان كاذب (رو، ٣: ٤) وكذلك في المزامير (١١٥: ١١)، وفي الجامعة (٧: ٢١): ليس من صِدِّيق على الأرض يصنع الخير بغير أن يخطأ.	كل ابن آدم خَطَّاء (جس، ١١٤).
رَوِّضْ نفسك على التقوى ... إن التقوى تنفع في كل شيء، ولها موعد الحياة الحاضرة والمستقبلة (١ تيم، ٤: ٧–٨).	عليك بتقوى الله فإنها جماع كل خير (جس، ٢٨٠؛ من، ٩٨) = أوصيك بتقوى الله فإنه رأس كل شيء (جس، ١٤٥).
لِتَخضعْ كلُّ نفس للسلاطين العالية ... فمن يُقاوِم السلطان يُعانِد ترتيب الله (رو، ١٣: ٢).	السلطان ظلُّ الله في الأرض، فمن أكرمه أكرمه الله، ومن أهانه أهانه الله (جس، ٢٤٧).
ما لم ترَه عينٌ ولا سمعت به أُذن ولا خطر على قلب بشر ما أعده الله للذين يُحِبُّونه (١ كور، ٢: ٩).	إن في الجنة ما لا عين رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ ولا خطر على قلب أحد (جس، ١٢٠) = قال الله تعالى: أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ... إلخ (جس، ٣٠٥).

إنْ بشَّرْنَاكم نحن أو ملاك من السماء بخلاف ما بَشَّرْنَاكم به فليكن مبسلًا (غلاطية، ١: ٨).	لو نَزل موسى فاتَّبَعْتُموه وتركتموني لضَلَلْتُم (جس، ٢٧١).
ذُكر (في ١ كور، ١١: ٢٣–٣٠) إكرامُ الرب للخُبْز إذ كرَّسَه وجعله قربانًا.	أكرِمُوا الخُبْز فإن الله أكرمه، فمن أكرم الخبز أكرمه الله = أكرموا الخبز فإن الله أنزله من بركاتِ السماء وأَخْرَجَه من بركات الأرض (جس، ٧٢).
هو (الله) يرحمُ مَن يشاء ويُقَسِّي من يشاء (رو، ٩: ١٨).	﴿يُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ (سورة المدثر، ٣٤).
الذي يأكلُ فِللرَّب يأكل لأنه يشكر الله، والذي لا يأكل فللرب لا يأكل ويشكر الله (رو، ١٤: ٦).	الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر = الطاعم الشاكر له مثل أجر الصائم الصابر (جس، ٢٧١).
أعْرِضْ عن الكلام العالمي المُلتَبِس بالبدع ... الذي انْتَحلَه قوم فزاغوا عن الإيمان (١ تيم، ٦: ٢٠–٢١) = رَجُل البدعة أعرض عنه (تيطس، ٣: ١٠).	إيَّاكم ومُحْدَثاتِ الأمور، فإن كل مُحْدَثة بدعة وكل بدعة ضلالة (إرشاد الطالبين، ص٨).
لا بد أن يظهر إنسان الخطيئة ابن الهلاك ... ويُرِي من نفسه أنه هو الله ... فيهلكه الربُّ يسوع بنفس فمه (تس، ٢: ٣–٨).	لم يُسلَّط على الدجال إلا عيسى ابن مريم (جس، ٣٦٥) = لَيَقتُلَنَّ ابنُ مريم الدَّجَّالَ بباب لُدٍّ (جس، ٣٨١).

رسائل يعقوب الرسول (يع)	الحديث
الإيمان إن كان بغير أعمال فهو ميت في ذاته (يع، ٢: ١٥ و١٦).	الإيمان قول وعمل (جس، ٥٦) = الإيمان والعمل أخوان ... لا يقبل الله أحدهما إلا مع صاحبه (جس، ١٦٣).
اللسان نارٌ وعالَم من الإثم ... هو شر لا ينضبط مملوء سُمًّا مميتًا (يع، ٣: ٦–٨) = إن كان أحد لا يزلُّ في الكلام فهو رجل كامل (يع، ٣: ٢).	أكثَرُ الناس ذنوبًا يوم القيامة أكثَرُهم كلامًا = أكثَرُ خطايا ابن آدم في لسانه (جس، ٧٠) = أحبُّ الأعمال إلى الله حِفْظُ اللسان (جس، ١٥؛ من، ٦).

إن محبة العالَم عداوة لله، فمن آثَر أن يكون حبيبًا للعالَم فقد صار عدوًّا لله (يع، ٤: ٤) = حبُّ المال أصلُ كلِّ شر (١ تيم، ٦: ١٠).	حبُّ الدنيا رأسُ كل خطيئة (جس، ١٩٢؛ من ٦٨).
صلاةُ الإيمان تُخَلِّص المريض والربُّ ينهضه (يع، ٥: ١٥).	قمْ فَصلِّ إن في الصلاة شفاءً (جس، ١١٠).
رسائل بطرس الرسول (بط)	الحديث
في أيام نوحٍ بُنِي التابوت الذي خَلَص فيه نَفرٌ قليلٌ (بط، ٣: ٢٠).	إن مَثَل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح مَن ركبها نجا ومن تَخلَّف عنها هلك (جس، ١٢٧ و٤٠٢).
أكرِمُوا المَلِك ... اخْضَعُوا لسادتكم (١ بط، ٢: ١٧–١٨).	بجِّلوا المشايخ (من، ٥٦).
رسائل يوحنا الرسول (يو)	الحديث
نحنُ أبناء الله ... نعلم أنه إذا ظهر ... سنعاينه كما هو (١ يو، ٣: ٢).	إنكم سترون ربكم يوم القيامة عيانًا (من، ٤٥).
لا تَكنْ مَحبَّتُكم بالكلام ولا باللسان، بل بالعمل والحق (١ يو، ٣: ٨) = وفي إنجيله (١٧: ٢٣): مَن أحبني يحفظ كلمتي.	مَن أحبَّ اللهَ حفظ وصِيَّته، قال الشاعر: إذا نُدِبوا للقول قالوا فأَحسَنُوا ولكنَّ حُسْنَ القول خالَفَه الفِعْلُ
مَنْ يعمل الخطيئة فهو من إبليس ... ولما ظهر ابنُ الله ليَنْقُض أعمال إبليس (١ يو، ٣: ٨).	كل بني آدم يطعنه الشيطان في جنبيه بإصبعه حين يولد غير عيسى ابن مريم، ذهب ليطعنه فطُعِن في الحجاب (جس، ٣١٩).
كتاب رؤيا يوحنا‖ الرسول	الحديث
إني كلُّ مَن أحبه أُوَبِّخه وأُؤدِّبُه (رؤيا، ٣: ١٩)، ومثله في الرسالة إلى العبرانيين (١٢: ٦)، وفي سفر الأمثال (٣: ١٢): إن الذي يحبه الرب يؤدبه.	إذا أحب الله عبدًا ابتلاه (جس، ٢٣) = إذا أراد الله بقوم خيرًا ابتلاهم (من، ٨) = إن عظم الجزاء مع عظم البلاء وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم (جس، ١١٩).

طُوبى للأمواتِ الذين يموتون في الرب ... لأن أعمالهم تابعة لهم (رؤيا، ١٤: ١٣).	إن مِمَّا يَلحقُ المؤمن من عمله وحسناته من بعد موته علمًا نشَره وولدًا صالحًا ترَكه ... وحياته تلحقه من بعد موته (جس، ٢١٥).
«السماء» لا يدخلها شيء نجس ولا فاعل الرجس (رؤيا، ١٢: ٢٦).	تَنظَّفُوا فإنه لا يدخل الجنة إلا نظيف (جس، ١٠٢ و١٦٢).
أنا الأول والآخر كنتُ ميتًا وها أنا حي ... ولي مفاتيح الموت والجحيم (رؤيا، ١: ١٨) = أنا الألف والياء البداءة والنهاية (١: ٨).	إنما بُعِثتُ فاتحًا وخاتمًا (جس، ١٣٤) = أُعْطيتُ فواتح الكلام وجوامعه وخواتمه (جس، ٦١) = كنت أول الناس في الخلق وآخِرَهم في البَعْث (من، ١١٥): إني أعطيت مفاتيح خزائن الأرض (بخاري، ٢: ٨٦).

[*] ذكر الشنتمري في شرح بيوت الإيضاح (ص٣٦، من نسخة مكتبتنا الخطية) لبعض الكلابيين أبياتًا يخاطب فيها ملكًا ظالمًا:

يا أيها الملكُ المَخوفُ أمَا ترى ... ليلًا وصُبحًا كيف يعتقبان؟
هل تستطيع الشمسُ أن تأتي بها ... ليلًا وهل لك بالمليك يَدانِ؟
اعْلَمْ وأَيقِنْ أن مُلككَ زائلٌ ... واعلم بأن كما تَدينُ تُدانُ

[†] جاء في إحياء علوم الدين للغزالي (٣: ٨١) عن عائشة أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أَدِيموا قَرْع باب الجنة يُفتَحْ لكم.»

[‡] روى الشعراني في كشف الغمة عن جمع الأمة (ص٤٠٢): «إن الله أوحى لموسى هذه الآية كما روى كتاب الأحبار: اللهم لا تُولِج الشيطان في قلوبنا وخَلِّصْنا منه ومن كل شر من أَجْل أن لك الملكوت والأبد والسلطان والملك والحمد والأرض والسماء أبدًا أبدًا.» (Cfr. Goldzieher: *Cosmos Christianus*, II, 300).

[§] جاء في كتاب حياة الحيوان الكبرى للدميري في مادة «سوس» (٢: ٤٢): «روى البيهقي في شعبه عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: من استطاع منكم أن يجعلَ كنزه في السماء حيث لا يناله اللصوص ولا يأكله السوس فليفعل، فإن قلبَ كل امرئ عند كنزه.» (راجع: متَّى، ٦: ١٩–٢١).

ومن الحديث المنقول عن الإنجيل (متَّى، ٤: ٥–٧) ما رواه أبو هريرة وأثبته أبو الفرج في الأغاني (١٧: ٢٨) قوله: «جاء الشيطان إلى عيسى قال: ألستَ تزعم أنك صادق؟ قال: بلى، قال: فأوفِ على هذه الشاهقة فألقِ بنفسك منها، فقال: ويلَك ألمْ يَقُلِ الله: يا ابن آدم لا تبلني بهلاكك فإني أفعل ما أشاء.»

[||] وقد اقتبس ابن الرومي من هذا السفر (٢: ١٦) قوله: يهجو ابن طيفور (العمدة، ص٧٥):

عَدِمتُكَ يا ابنَ أبي الطاهرِ ... وأُطْعمتُ ثُكلكَ من شاعرِ
فما أنتَ سخنٌ ولا باردٌ ... وما بَينَ ذَينِ سوى الفاترِ
وأنتَ كذاكَ تُغَثِّي النُّفو ... سَ تغْثِية الفاترِ الخاثرِ

الفصل السابع

في الخطابة النصرانية بين عرب الجاهلية

بعد كلامنا عن المفرَدات النصرانية في لغة عرب الجاهلية وأعلامها وأمثالها وحِكَمها يقتضي أن نبين نفوذ هذا الدين بينهم بما هو أدل على آدابهم، وليس أكثر دلالة على ذلك من فن الخطابة.

قد افتخر العرب في كل أجيالهم بمقدرتهم على البلاغة والتبسط في الكلام وقوة العارضة حتى إنهم لجهلهم آداب ما سواهم من الشعوب كاليونان والرومان نسبوا إلى قومهم الامتياز بفن الخطابة دون سواهم، ومهما كان من الصحة في هذا الادعاء لا مراء في أنهم عُرِفوا في كل آنٍ بذلاقة اللسان وطلاقة الكلام.

فيا ترى ماذا كان مبلغ نصارى العرب في هذا الفن؟ وهل بقي شيء من آثارهم المنبئ ببلاغتهم الخطابية بين أهل جلدتهم؟

فقبل الجواب على هذا السؤال لا بد من تقديم ملحوظين: الأول أن ما بلغنا من خطب عرب الجاهلية لم يجمع إلا بعد الهجرة بمدة مديدة فدونه الرواة في القرن الثاني للإسلام، فمن البديهي أن كثيرًا من تلك الآثار الخطابية قد ضاع بطول الزمان وآفة النسيان أو لم يبلغنا منه إلا نتف قليلة لا تكفي لأن نبني عليها الحكم الصواب في مقدرة نصارى العرب على إلقاء الخطب.

الملحوظ الآخر أن الرواة الذين رووا تلك المقاطيع كانوا من أهل الإسلام لا يهمهم كثيرًا الإشارة إلى دين خطباء العرب في الجاهلية وكلهم في مظنتهم من أهل الشرك لا يختلف في عرفهم النصراني عن اليهودي أو الوثني.

فلم يبقَ لكشف القناع عن الحقيقة إلا أن نجري على الاستقراء والدلائل التي سبق لنا جَمْعُها في الفصول السابقة للتمييز بين النصارى والمشركين وإثبات ما يمكن استخلاصه لبيان علمهم بالخطابة فنقول:

معلوم أن الخطابة على اختلاف أغراضها من تَثبيت ومَشورة ومُشاجَرة على قسمين كبيرين: دينية ومدنية، وفي كليهما آثار باقية تدل على امتياز النصارى فيهما على عهد الجاهلية وأول ظهور الإسلام.

(١) الخطابة الدينية بين نصارى عرب الجاهلية

بَيَّنَّا في فصول مُطوَّلة سبَقتْ لنا في القسم الأول من هذا الكتاب كم كانت النصرانية منتشرة في أنحاء العرب فتَتبَّعْنا كل جهات جزيرتهم وأثبتنا قولنا استنادًا إلى المُؤرِّخِين القدماء من يونان، ورومان، وسريان معاصرين ثم عرب كَتَبوا بعد الإسلام بقليل، هذا فضلًا عن الآثار الحَجَرية في الحميرية والآثار الفَنِّيَّة المختلفة، فإن كان الأمر كذلك يلزم القول بأن الخطابة الدينية كانت شائعة بين تَبَعَتِها؛ لأن الديانة النصرانية تنتشر عادة بالتعليم الشفاهي؛ إذ قال السيد المسيح لرسله (متَّى، ٢٨: ١٩–٢٠): «اذهبوا وتَلْمِذُوا كلَّ الأمم … وعَلِّمُوهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتُكم به.» فلا يجوز استثناء المُبشرين بالنصرانية بين العرب من هذا الحكم، ولا سيما أنهم كانوا شَيَّدوا بينهم كنائس عديدة وأقاموا لهم أساقفة وكَهَنة وشمامسة كما قررنا ذلك بالشواهد، وهؤلاء كلهم في مقدمة واجباتهم الإرشاد والخطابة في عقائد الدين ليرسخوها في عقول رعاياهم ويثبتوها للخوارج وللطالبين التدين بالنصرانية، فليت شعري ماذا بقي من تلك الآثار الطيبة والخطب أو الميامر، ولا نُنكِر أن اللغة الكنسية كانت في بعض جهات العرب الكلدانية أو اليونانية إلا أنه كان للغة العربية حصتها أيضًا في النواحي التي كان أهلها من أصل عربي محض كاليمن والحجاز، وبين عرب المَدَر الساكنين في الخِيَم حيث كان يسكن بينهم أساقفة يتنقلون معهم في مناجعهم كما صرَّحَت الآثار الكنيسة والمجامع الدينية بذلك ودوَّنَّا أقوالهم.

ومما عُرِّض إلى الفقدان تلك البقايا الجليلة أن الخط العربي الذي عَلَّمه النصارى لإخوانهم العرب كما أَيَّدْنا ذلك بالشواهد لم يكن بعدُ انتشر انتشارًا كافيًا ليحفظ ذلك القلم الحديث كنوزهم الأدبية، ولما جاء الإسلام اتَّجهَت الأفكار إلى الدين الجديد وجعلوا القرآن الكل في الكل لفوز ذويه بقبائل العرب.

هذا مُجْمَل ما يقال عن الخطابة الدينية النصرانية، ولكننا لم نَيأَس من التقاط بعض الحبوب من تلك السنابل المحصودة وبعض الفتات من تلك الموائد الفاخرة، فمن ذلك خطيب ديني شاع اسمه في بطون بلاد العرب وأنجادها، أَجمَعَ كل أهل البادية من

حَضَر ومَدَر على أنه كان آية في البلاغة الخطابية نريد به قس بن ساعدة الذي يدل مجرد اسمه على نصرانيته، وضُرِب به المثل في أساليب البيان، ولو لم يكن في جزيرة العرب غير قس اشتهر في البلاغة والخطابة لكفى النصارى به فخرًا. أما ما يُرْوَى عنه تأييدًا لهذه السعة العظيمة فأسطر قليلة نقلناها في كتابنا شعراء النصرانية (ص٢١٢–٢١٣)، وهناك أخبار رويناها على عِلَّاتها تثبت رفعة مقامه بين العرب، لكنها لا تَشفي عليلًا ولا تَروي غليلًا، وكذلك أخباره المروية عن كَتَبة العرب فإنها أقرب إلى أساطير الأولين وخرافات الأقدمين فيقول الرواة هناك: إنه أَدرَك زمن بقايا الحواريين ورأسهم سمعان الصفا، وإنه عاش ستمائة بل سبعمائة سنة (ص٢١٦) وإنه بَشَّر بمجيء نبي المسلمين وأن محمدًا رآه في سوق عُكاظ يخطب على جمل له أورق (راجع: الشرشي، ٢: ٢٧٥)، وأشياء أخرى أقرب إلى التُّرَّهات منها إلى صحيح الروايات، ولعلهم أصابوا بقولهم: إنه «كان أسقفًا على نجران وإنه كان زاهدًا في الدنيا يلبس المسوح ويتبع السياح على منهاج المسيح.» وكذلك قولهم: إنه «كان يتكئ على عصا في خطبه.» (لا سيفًا كما روى البعض)، فإن أساقفة النصارى يُمْسِكون في أيديهم عكازًا وهم يخطبون، وخلاصة الكلام أن قسًّا كان خطيبًا مصقعًا أَثَّر كلامه البليغ في قلوب العرب حتى نسبوا إليه من الأقوال والأعمال ما يَرُدُّه النقد الصحيح ولا يقبله الذوق السليم، وها نحن نروي ثلاث خُطَب من خطبه فاتَنَا ذِكْرُها في شعراء النصرانية لا تأييدًا لصحتها بل إعلانًا بما تناقله العرب عن قس غثًّا كان أو سمينًا، وهذه الخطب وجدناها في التَّذْكِرة الحمدونية (نسخة باريس الخطية، ص84v):

«أيها الناس! الحِلم شرف، والصبر ظَفَر، والجود سرور، والمعرفة كنز، والجهل سَفَهٌ، والعجز ذِلَّة، والحرب خدعة، والظَّفَر دُوَل، والأيام عِبَر، والمرء منسوب إلى فعله مأخوذ بعمله فاصطنِعُوا المعروف تَكسبُوا الحمد، واستشعِرُوا الجد تَفوزوا به، ودَعوا الفضول يجاريكم السفهاء، وأكرِمُوا الجلوس يَعْمُر ناديكم، وحامُوا عن الحقيقة يُرْغَب في جواركم، وأنْصِفوا مَن آنَفَكم يَرْفُق بكم، وعليكم بمحاسن الأخلاق فإنها رفعة، وإياكم والأخلاق الدَّنِيَّة فإنها تضع الشَّرف، وتهدمُ المجد.

«خطبة» أيها الناس! شارِفُوا بأبصاركم في كَرِّ الجديدين ثم أَرْجِعُوها كَلِيلةً عن بلوغ الأمل، فإن الماضي عِظَة للباقي، ولا تَجْعَلوا الغرور سبيل العَجْز فتنقطع حُجَّتكم في مَوقفٍ اللهُ سائلُكم فيه ومُحاسبُكم على ما أسلفتم، أيها الناس أمس شَاهدٌ فاحْذَروه، واليوم مُؤدِّبٌ فاعرفوه، وغدًا رسول فأكْرِموه، وكُونوا على حذر من هجوم القَدَر؛ فإن أعمالكم تُطلِق أبدانكم والصراط ميدان يكثر فيه العثار؛ فالسالم ناجٍ والغابرُ في النار.

«خطبة» اتقوا عِبادَ الله وأنتم في مَهَل، بادِرُوا الأجَل، ولا يَغرَّنَّكم الأمل فكأن بالموت وقد نَزَل فشَغَلَتِ المرءَ شواغِلُه، وتركَتْ عنه بَواطِلَه، وهيَّأَتْ أكفانَه وبَكاه جيرانُه، وصار إلى المنزل الخالي بجسده البالي قد فارق الرفاهية وعايَنَ الداهية، فوجْهُه في التراب عَفير، وهو إلى ما قدَّم فقير.»

هذه كما ترى حِكَم أكثر منها خطب، والعجب أن الكتبة السريان المعاصِرين الذين استفدنا من تواريخهم عدة أخبار عن العرب لم يأتوا بذكر قس بن ساعدة.

على أنهم ذَكَروا خطيبًا آخر وكاتبًا بليغًا اشتهر بالكوفة في القرن الأول من الإسلام، وكان أسقفًا على نصارى الكوفة وعاقولاء يُدْعى جرجس أسقف العرب، فهذا كان متعمقًا في درس كتب اليونان ونقل قسمًا منها كأورغنون أرسطوطاليس، وكتب شروحًا على الأسفار المُقدَّسة وله عدة خطب وميامر لم تَزَل بين مخطوطات عواصم أوروبة كلندن، وباريس، ورومية يَتَّضِح منها ما اتَّصَف به جرجس أسقف العرب من العلم والبلاغة في الخُطَب الدينية، بَيْدَ أن هذه الآثار كلها لم تَبلغ إلينا إلا بالسريانية، ومن المحتمل أن عربيتها ضاعت فبقيت ترجمتها السريانية، كانت وفاة جرجس المذكور في أواخر القرن الأول للهجرة.

وممن يجب نظمهم في سلك خطباء النصرانية أولئك السُّيَّاح والرهبان الذين تكرر ذِكْرُهم في الشعر العربي المروي سابقًا، فإنهم لم ينقطعوا فقط إلى الصلاة والزُّهد بل كثيرًا ما كانوا يختلطون بالعرب ويدعونهم إلى نبذ أديانهم الباطلة ويرشدونهم إلى الصلاح بالخطب والمواعظ، كما ورد في تراجم البعض منهم؛ كالقديس هيلاريون، والقديس أفتيموس بين عرب الشام، والقديس جرجنسيوس رسول عرب اليمن، وموسى رسول الغَسَّانيين، وغيرهم كثيرون سبق ذِكْرُهم، فينبغي إذن القول بأن الخطابة النصرانية الدينية قد أزهرت بين العرب كما أزهرت بين غيرهم من الأمم وإن لم تبلغ إلينا صورتها بسبب آفات الزمان وكوارث الحدثان.

(٢) الخطابة المدنية بين نصارى الجاهلية

إن كانت الآثار الدينية من خطب نصارى الجاهلية الباقية إلى عهدنا نزرة قليلة فكان أملنا في جمع مآثرهم المدنية أعظم لِكَلَف الرواة بما هو أقرب إلى أخلاقهم وأفكارهم، إلا أنهم ما رووه منها لا يكاد يستحق الذكر أو هو فصول حكمية ليست خطبًا وُضِعَت للإقناع، والإقناع كما لا يخفى هو غاية الخطيب ومِحْوَر الخطابة.

ولكن إذا كانت الخُطَب المروية لا يكاد يعبأ بها إنما نجد في مآثر العرب ما يُثبِت شيوع الخطابة بين القبائل النصرانية، وأول هذه القبائل وأقدمُها قبيلة إيادٍ التي روينا أخبارها وأثبتنا تَنصُّرَها (ص٧٥-٧٦ و١٢٤) عن عدة كتبة. ومنها كان قس بن ساعدة الإياديُّ المارُّ ذِكْرُه، فإياد هذه نَسَب إليها قدماءُ العرب البراعةَ في الخطابة لنا على ذلك شاهدٌ حسن في مديح الشعراء لإياد وذِكْرِهم لخطبائها منها قول الشاعر في وصف خُطَبهم:

يَرْمُون بالخُطَبِ الطوالِ وتارةً ... وَحْيَ الملاحظِ خِيفةَ الرُّقباءِ

وصفهم بتطبيق خطبهم على مقتضى الحال تارة بالطول والتصريح وتارة بالوجازة والكناية والإشارة، وقال أحدهم يرثي أبا دُؤاد بن جرير الإيادي:

نَعى ابنَ جريرٍ جاهلٌ بمُصابِهِ ... فَعمَّ نزارًا بالبُكا والتَّحوُّبِ
نَعاه لنا كالليث يَحمِي عَرينَه ... وكالبدْرِ يُعْشي ضوءُه كلَّ كوكبِ
وأضربُ مِن حدِّ السِّنانِ لسانُه ... وأمْضَى من السَّيف الحسام المُشطَّبِ
زعيمُ نزارٍ كلها وخطيبُها ... إذا قال طأطأَ رأسه كلُّ مُشغبِ
سليل قُرومٍ سادةٍ ثم قالةٍ ... يَبزُّون يوم الجمع أهلَ المُحَطَّبِ
كقس إياد أو لقيط بن مَعْبَدِ ... وعُذْرة والمِنطيقِ زيدِ بن جُندُبِ

فأثنى الشاعر على أبي دُؤاد الإيادي وأطرأ بلاغته في الخَطابة، ثم ذكر أربعة غيره كلهم خطباء وكلهم من إياد، ذَكَر لقيط بن يعمر الإيادي الذي أنذر قومه غزو كسرى لهم وأرسل إليهم قصيدته العينية التي هي خُطبة بليغة حاكت في صدورهم فنجوا من عدوهم، ومنها قوله:

أَبلِغْ إيادًا وخلِّل في سُراتِهم ... أني أرى الرَّأيَ إن لم أُعْصَ قد نَصَعا
يا لَهْفَ نفسيَ إن كانت أمورُكم ... شتى وأُحْكِمَ أَمْرُ الناس فاجتمعا
ألا تَخافونَ قومًا لا أبا لكمُ ... أمْسَوا إليكم كأمثالِ الدَّبَى سُرُعا
ما لي أراكم نيامًا في بُلَهْنِيَة؟ ... وقد تَرَون شهابَ الحرب قد سَطعَا
صُونوا جيادكم واجْلُوا سيوفكمُ ... وحدِّدُوا للقسي النَّبْل والشُّرُعا

يا قومُ لا تأمَنوا إنْ كنتمُ غُبُرًا   على نسائكمُ كِسْرى وما جمَعا
وقَلِّدوا أمركم لله دَرُّكمُ   رَحْبَ الذِّراعِ بأمرِ الحرب مُضْطلِعا
لقد بذلتُ لكم نصحي بلا دَخَلٍ   فاستَيْقِظوا إنَّ خيرَ العلم ما نفعا
هذا كتابي إليكم والنذيرُ لكم   لمن رأى رَأْيَه منكم ومن سَمِعا

وهي طويلة بليغة، وفيها كما ترى كل صفات الخطابة الحماسية، وقد ذكر في مطلعها بِيَع قومه النصارى.

أما الخطيبُ الثاني المذكور فهو عُذرة بنُ حجرة الخطيب الإيادي الذي وصفه الشاعر وشَبَّهه بقس بن ساعدة بقوله:

فإنَّك ضحَّاك إلى كل صاحبٍ   وأَنطَقُ مِن قس غَداة عُكاظِها

لكن آثاره الخطابية مجهولة، ومثله زيدُ بن جُنْدب المنعوت بالمِنْطِيق؛ أي الخطيب المفوه البليغ، فإن خطبه لم تبلغ إلى يدنا، ويروى عنه أنه كان خطيبًا وشاعرًا معًا.

وكما اشتهرَت إياد في الخطابة بين قبائل العرب كذلك قرنوا بها قبيلة تميم، وهي أيضًا من القبائل التي غلبت عليها النصرانية كما دلت إليه كتبة العرب (راجع [القسم الأول، الفصل الثاني من كتابنا])، فمن خطبائهم أَكْثَم بن صَيْفي بن رباحٍ التميمي، قال ابن نباتة في كتابه «سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون» (ص١٢): إنه «أشهر حُكَّام العرب في الجاهلية وحكمائهم وخطبائهم.» وقد جمعوا من كلامه حكمًا وأمثالًا ووصايا لقومه منها قوله:

«يا بني تَميم لا يَفوتَنَّكم وعظي إن فاتكم الدهر بي، يا بني تميم إنَّ مَصارع الألباب تحت ظلال الطَّمَع، ومن سلك الجد أمن العثار، ولن يعدم الحسودُ أن يتعب فكره ولا يجاوز ضره نفسه والسكوت عن الأحمق جوابه.»

ومما رُوِي لأكثم خطابه لكسرى لما أوفده إليه النعمان بن المنذر (اطلب: العقد الفريد، لابن عبد ربه، ١: ١٢٧) قال:

«إن أفضلَ الأشياء أعاليها، وأفضل الخطباء أصدقها، الصدقُ مَنْجاةٌ والكذب مَهْواة، والشر لَجاجة، والحَزْم مَركبٌ صعب، والعَجْز مركبٌ وطيء، آفة الرأي الهوى، والعجز مفتاحُ الفقر، وخير الأمور الصبر، حُسنُ الظن ورطةٌ وسوءُ الظن عِصمةٌ، إصلاح فساد الرعية خير من إصلاح فساد الراعي، مَن فسدت بطانته كان كالغاصِّ بالماء، شر البلاد

بلاد لا أميرَ بها، شرُّ الملوك مَن خافه البريء … خير الأعوان من لم يُراءِ بالنصيحة، أحقُّ الجنود بالنصر مَن حَسُنتْ سريرته، حَسْبُك من شرٍّ سماعُه.»

ومن أقواله ما أوصى به أولاده ليبقوا مُتَّحِدِين وضرَب لهم مثل السهام المجتمعة:

كونوا جميعًا يا بَنِيَّ إذا اعْتَرى　　خَطبٌ ولا تتفرقوا آحادَا
تأبى القِداحُ إذا اجتَمَعْنَ تَكسُّرًا　　وإذا افْترَقْن تَكسَّرت أفرادا

ومن خطباء تميم النصارى حاجبُ بن زُرارة، أثنى العرب على بلاغته وأوفده النعمان أيضًا إلى كسرى فخطب أمامه مدافعًا عن العرب مستعطفًا لرضاه عليهم (العقد الفريد، ١١: ١٢٧):

«رَوى زَندُكَ وعَلَتْ يدُك وهِيبَ سلطانُك، إن العرب أمةٌ قد غُلُظَت أكبادها واستحصدَتْ مرَّتُها ومُنِعَت دَرَّتُها، وهي لكَ وامِقة ما تَأَلَّفتْها مُسترسِلَةٌ ما لاينَتْها سامعةٌ ما سامَحَتها، وهي العَلقمُ مَرارةً وهي الصابُ غَضاضةً، والعسلُ حلاوةً والماءُ الزُّلالُ سلامةً، نحن وفودها إليك، وألسنُتها لديك، ذِمَّتُنا محفوظة وأحسابنا مَمنوعة وعشائرنا فينا سامعة مُطيعة، أن نَئُوب لك حامِدين خيرًا فَلَك بذلك عمومُ مَحْمَدَتِنا، وأن نُذَمَّ لم نُخَصَّ بالذَّمِ دونها.»

ومن خطباء تميم الذين ذَكَرهم أيضًا العرب في أواخر الجاهلية وأوائل الإسلام الزِّبْرقان بن بَدر، وعمرو بن الأهتم، وعدَوُّهما مع عطارد بن حاجب من أكابر السادات وبلغاء الخطباء، وذكروا دخولهم على نبي الإسلام وكلامهم بحضرته (اطلب: الأغاني، ٤: ١٠–١٢)، وهو لا يدلُّ على كبير أمر لا لفظًا ولا معنى؛ إذ لم يُدوِّنْه كاتِب وقتَ إلقائه وإنما روي بعد نيف ومائة سنة، ويصح هذا في أساقفة نجران الوافدين على محمد كما ذكرهم ابن سعد وصاحب الأغاني وغيرهما، فلا يُمكِنَّا أن نُبدي حُكمًا في عارضتهم؛ نظرًا للقليل المصنوع المروي عنهم، وكذا قُل أيضًا عن بقية خطباء العرب الذين اشتهروا بالخطابة فبَقِيَت أسماؤهم وضَاع كلامهم، وإنما ثَبتَ قولنا: إن الخطابة النصرانية دينية كانت أو مدنية بَلغَتْ في الجاهلية مقامًا رفيعًا شهدَ له التاريخ وإن فُقِد معظم آثارها.

الفصل الثامن

في التاريخ النصراني بين عَرَب الجاهلية

إن ما قيل في آثار الخطابة بين نصارى العرب في عهد الجاهلية يَصح في آثارهم التاريخية، فإنها قليلة جدًّا كأن العرب ظَلُّوا في جزيرتهم معتزلين عن بقية الشعوب المسيحية لم يعرفوا منها شيئًا، وليس الأمر كذلك كما سترى وإنما سبب ندرة هذه المآثر أن أهل الجاهلية لم يُدوِّنوا مَعارفهم في بطون الدَّفاتر لقلة انتشار علم الخط بينهم فصح فيهم قول المثل: «كل علم ليس في القرطاس ضاع.»

ويُضاف إلى هذا السبب سبب آخر، وهو قلة اكتراث الرواة المسلمين لتدوينها حين باشروا بجمع آثار الجاهلية في القرن الثاني للهجرة، فكان حينئذٍ معظم هِمَّتهم أن يَرْوُوا ما يسمعونه من عرَب الحضر والمَدَر من الشعر الجاهلي، والمفردات اللغوية، والأمثال، والحِكَم وما أشبه ذلك، أما ما عرفه أجدادهم من تاريخ النصرانية فلم يعيروه بالًا.

على أننا لو نَقَّبْنا في الأمر ودقَّقْنا النظر في تلك المرويات السالمة من تيار الحروب الإسلامية لوجدنا أن عرب الجاهلية عرفوا أشياء كثيرة من تاريخ النصرانية وأثبتوا بذلك شيوعها في ظهرانيهم.

(١) وأول دليل إلى قولنا مَعرفتُهم بالأسفار المُقدَّسة من العهد القديم ليست الأولية فقط الشائعة عند اليهود بل الثانوية أيضًا التي وردت في النسخة السبعينية، وكان النصارى يعتبرونها كمنزلة بالوحي الإلهي مثل الأولية، فمَن راجع ما نقلناه سابقًا في الفصلين الثاني والرابع من هذا الجزء وما ورد فيهما من أخبار العهد العتيق في شعر أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت، وعدي بن زيد بن عمرو بن نوفل وغيرهم تَحقَّقَ أن عرب الجاهلية اطلعوا بفضل النصرانية على كل أخبار التاريخ المقدس قبل المسيح.

(٢) وفي ذَينِك الفصلين بابٌ آخَر يثبت معرفة أهل الجاهلية بتاريخ العهد الجديد أيضًا، أعني أخبار السيد المسيح وأعماله وإنجيله ومجيئه في آخِر الأزمان لِيَدِين العالم، وورَد مثل ذلك في القرآن والحديث كما روينا سابقًا، وكلُّه يشهد على معرفة العرب بزبدة تاريخَي العهد القديم والعهد الجديد معًا.

(٣) ومما يُستفاد من فصولنا السابقة ولا سيما ما أوردناه من الشعر الجاهلي أن العرب قبل الإسلام عَرَفوا أيضًا حق المعرفة: (١) رُسُلَ المسيح وحوارييه وأمه مريم البتول الطاهرة ويُوحَنَّا المعمدان السابق أمام وجهه وبعض المُبشِّرين به في بلادهم من تلاميذه. (٢) كنيسةَ المسيح ونظامَها من بطاركة وأساقفة وكهنة وشمامسة. (٣) رهبانَ النصارى وأديرتَهم وصوامعَهم وقلالِيَّهم ومناسكَهم في أعلى الجبال وسُرُجَهم المتقدة ليلًا وعيشتهم الشظفة. (٤) بِيَعَ النصارى ومعابدَهم وما تمتاز به من هياكل ومحاريب ومنابر ومنارات ومصابيح وصُلبان وصور ودُمًى ونواقيس. (٥) أسرار النصارى وخصوصًا المعمودية والقربان الأقدس والذبيحة الإلهية المُقدَّسة تحت شكلي الخبز والخمر. (٦) أعياد النصارى كالدنح (الغُطاس) والسَّباسب (الشعانين) وخميس العهد والفِصح والسُّلَّاق (الصعود). (٧) عادات النصارى في صومهم وصلواتهم وطوافهم حول الكنائس وحجهم إلى القدس الشريف وملابسهم الخاصة. (٨) امتياز أحبارهم وعلمائهم بعلم الكتابة وبنقل المصاحف الدينية من توراة وزبور وإنجيل مع تنميقها ووشيها بالرسوم وضروب النقوش الملونة، فكل هذه المعلومات تقوم مقام سفر جليل ينبئنا بشيوع التاريخ المسيحي بين عرب الجاهلية.

(٤) وقد أورثنا نصارى العرب فوائد تاريخية جمة، منها ما نُقل عنهم بالتقليد في أقدم التواريخ الإسلامية كالطبري يُؤخَذ منها خبر دخول النصرانية بين عرب العراق والشام، وانتشار الدين المسيحي في جهات اليمن قبل وبعد استيلاء الحَبَش عليها، ومنها كتابات حجرية رقمت على الصخور بالقلم المُسْنَد الحِمْيَري فاكتشفها السياح في أيامنا، وأشرنا إليها في مقالاتنا السابقة، ومما ورد في مضامينها ذكر سد مأرب، والسيل العرم، ومنها عاديات خلفتها الأمم السالفة كبعض القصور التي ينسبها العرب إلى قدماء النصارى وبعض البِيَع؛ مثل كنيسة صنعاء المعروفة قديمًا بالقليس التي صبرت بعض آثارها على آفات الدهر، أو كمِثْل كعبة نجران وغير ذلك مما يتخذ حجة لنسبة المعارف التاريخية وغيرها إليهم.

(٥) ومما وقف عليه العرب من أخبار الكنيسة ذكر بعض شهدائها كالقديس جرجس الشهيد الذي شاع بين العرب اسمه ومنهم من دعاه بالخضر، ويشهد على

انتشار إكرامه في جهاتهم أن أقدم الكنائس النصرانية التي بنيت على اسمه إنما شُيِّدت سنة ٣٦٧م في مدينة شقة من أعمال حوران (راجع: المشرق، ٦، ١٩٠٣م، ٣٨٧)، وقد تكرر اسمه في الكتابات اليونانية المكتشفة هناك، ومثله القديسان الشهيدان سرجيوس وباخوس المكرمان بين العرب في الرصافة والرَّقَّة وجهات الفرات، وكان بَنُو تغلب اتَّخذُوا صورة الأول كراية تتقدمهم في الحرب (ديوان الأخطل، ص٣٠٩) قال:

لما رَأَونا والصليبُ طالعا ومارسرجيس وسُمًّا ناقِعَا
وأبصَرُونا راياتُنا لوامعا خَلَّوْا لنا راذان والمزارعا

وقد ذكرنا سابقًا أن أول أثر من الخط العربي قد كتب سنة ٥١٢ للمسيح؛ أي ١١٠ سنوات قبل الهجرة على مَشْهد القديس سرجيوس في زَبَد، وصورنا هناك صورته (الجزء الأول، [مفردات نصارى الجاهلية الخاصة بكنائسهم وأقداسها]). والأثر الثاني من الخط العربي يرقى إلى السنة ٥٦٨م، وُجِد في حَرَّان من أعمال حُوران، كُتِب على مشهد أقيم تذكارًا للقديس يوحَنَّا المعمدان المكرم هناك.

وكذلك أصحاب الكهف، وهم شهداء أفسس الذين رُوِي عنهم أنهم هربوا من وجه المغتصب في عهد دقيوس قيصر فالتجَئُوا إلى كهف؛ أي مغارة، وظَلُّوا فيها نائمين السنين الطوال حتى أفاقوا من سباتهم بإذن الله وصاروا آية للقيامة، وقد وَرَد ذِكرُهم في القرآن وفي شعر أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت، كما ورد ذكر أصحاب الأخدود؛ أي شهداء نجران الذين ألقاهم ملك اليمن اليهودي ذو نؤاس في أتون النار (راجع: سورة البروج في القرآن)، وذكروا تاريخ حبيب النجار زعموا أنه رافَق تلاميذ المسيح إلى أنطاكية وساعدهم في نَشْر دينه بين أهلها.

(٦) أما التاريخ المَدَني فقد عرف منه نصارى العرب نُتفًا لا سيما تاريخ الأمم المجاورة للعرب من فُرْس وحَبَش ورومان، فمن ذلك ما أنشده أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت في مُحاربة سيف بن ذي يزن للحَبَش بمساعدة الفُرْس وطردهم من جزيرة العرب (راجع: في شعراء النصرانية لاميته، ص٢٣١) التي أولها:

لِيَطلبِ الوِتْرَ أمثالُ ابن ذي يَزَنٍ في البحرِ خَيَّمَ للأعداءِ أحوالا

وربما ذكروا ملوك الروم باسمهم العام (قيصر) كقول امرئ القيس عند رحلته إلى حاضرة ملوك الروم يستنجدهم على قَتلَةِ أبيه:

بكى صاحِبِي لما رأى الدَّرْبَ دونه وأَيْقنَ أنَّا لاحقانِ بقيصرا
فقلتُ له لا تَبكِ عَينُك إنما نُحاولُ مُلكًا أو نموتُ فنُعْذَرا

وخصُّوا بالذِّكْر بعضهم كمُورِق؛ أي موريقيوس قيصر، قال الكندي يذكر بَعْضَ مَن فَتَك بهم الدهر بهم (حماسة البحتري، ع ٣٨٣):

وأَصَبْن أبرهةَ الذي سَجدَتْ له صُمُّ الغيولِ صوامتًا لم تَنطِقِ
وأَجَبْن كِسرى وابنَ كسرى بعده والمرءَ قَيْصَر وانْتَحَبْنَ لِمُورِق

وكذلك ذكروا منهم هِرَقْل أو هِرْقَل، قال لبيد (ديوانه، ص٣٥):

غَلَب الليالي مُلْكَ آلِ مُحرِّقٍ وكَمَا فَعَلْنَ بِتُبَّعٍ وبهِرْقَلِ

أما ملوك العَجم، فقد ذكروا معظم أسماء ملوك سلالتهم الساسانية؛ مثل: كِسرى، وسابور، وأزدشير، وهرمز.

(٧) ومن المرويات العديدة التي نقلها أول كتبة الإسلام على عِلَّاتها فأثبتوها بأسانيدها إلى بعض أهل الكتاب من نصارى ويهود مما لا يخلو منه تأليف واحد من تآليفهم القديمة، وربما أشار إليها القرآن أو نقل عنها الحديث يظهر أنه شاعت في جزيرة العرب مصنفات شتى معظمها لبعض المبتدعين أو لكتبة مجهولين لا صفة لهم رسمية في الكنيسة، وفد بقي منها أشياء في قصص الأنبياء للثعلبي وغيره، وفيها الغث والسمين، ومن هذا التآليف ما ورد ذكره في الشعر القديم ولا نعلم من أمره شيئًا كقول بشر بن أبي خازم، وقيل: الطِّرمَّاح، في كتاب بني تميم (المفضليات، ص٦٧٦):

وَجَدْنا في كتابِ بني تميمٍ أحقُّ الخيلِ بالرَّكْضِ المُعارُ

وكانت بعض هذه التآليف مكتوبة بالسريانية أو الحبشية فوقَف على مضامينها العربُ ونَقَلُوا أشياء منها، خصوصًا من كتاب «مَغارة الكنوز» المنسوب زورًا إلى القديس أفرام، وكان في هذه الكتب الصحيح والسَّخِيف فلم يُفْرِز العربُ العليلَ من السالم.

هذا ما استطعنا استخلاصه من الآثار الباقية، فهو مع قِلَّتِه شاهدٌ صادق على ما توخينا إثباته عن شيوع التاريخ المسيحي عند قدماء العرب.

الفصل التاسع

التعاليم الفلسفية واللاهوتية بين نصارى الجاهلية

أثبتنا في مقدمة أبحاثنا عن النصرانية وآدابها في عهد الجاهلية أن العرب كانوا مشركين كبقية الأمم ما خلا الشعب الإسرائيلي، وأنهم عبدوا الأصنام قبل التاريخ المسيحي وفي القرون الأولى بعده، وإن اختلف شِرْكُهم بعض الاختلاف في جنوب جزيرتهم وشمالها وغربها.

أما الآثارُ المتأخرة الباقية من القرن السادس وأوائل السابع للمسيح فعلى خلاف ذلك، فإنها إلى التوحيد أقربُ منها إلى الشرك، بل لا تكاد تجد في الشعر الجاهلي المجموع في ذلك العهد أثرًا للشرك اللهم إلا بقايا قليلة لا يُعْبأ بها.

وعندنا أن هذا الانقلاب إنما كان سببه شيوع النصرانية في ظهراني العرب كما بَيَّنَّا ذلك بالشواهد المتعددة في القسم الأول من كتابنا، وإن تَقصَّيْنا البحث فيما خَلَّفوه من الآثار وجدنا فيها من المبادئ الفلسفية والتعاليم اللاهوتية ما هو دليل لامع على قولنا.

(١) الفلسفة النصرانية في عرب الجاهلية

ليس أحد من قرائنا ينتظر منا أن نعدد له ما وضعه نصارى العرب في الجاهلية من التآليف الفلسفية، فإن أهل الجزيرة قبل الإسلام وبعده لم يشتهروا مطلقًا في النظريات؛ إذ كان همهم الأعظم أن يَعيشوا في مَواطنهم عيشة فطرية لا يزعجها ضَنْك الفكر ولا يخالطها التعمق في غوامِض الكون، وإن قيل لنا ألا تُحْصِي بين كبار فلاسفة العرب الرئيس ابن سينا، والفارابي، وابن رشد أجبنا أنهم أعاجم لَيْسُوا عربًا، وإن وجد بينهم أفراد أحرزوا لهم ذكرًا في ذلك كالكِنْدي فإنه من باب الشذوذ.

لكنَّ الفلسفة لا تظهر فقط في المؤلَّفات النظرية بل ربما ظهرت في مَطاوي الكلام نثره ونظمه، حيث تلوح المبادئ التي يجري المرء بموجبها ويَرْتَشد بنورها، وذلك خصوصًا في فروعها الثلاثة، أعني بها علم الإله، ثم علم النفس، ثم علم الآداب والحقوق، وكل ذلك مُتوفِّر في آثار الجاهلية كما سترى.

(١-١) علم الإله الحق

يُثبتُ الفيلسوف بالبراهين العقلية وجود الله ووحدانيته وخَلْقَه للعالَم وصفاته الحسنى من قداسة وحِكمة وعلم وقدرة وعدل وعناية بالمخلوقات، وهذا كله تجده في شعراء الجاهلية الذين روينا أقوالهم في القسم الثاني [الفصل الأول] كقول زيد بن عمرو:

إلى الله أُهْدِي مِدْحَتي وثَنائِيَا وقولًا رَصينًا لا يني الدهر باقيا
إلى المَلِك الأعلى الذي ليس فوقه إلــه ولا ربٌّ يــكـون مُـدانـيَـا
رضيتُ بكَ اللهم ربًّا فلن أُرَى أَدِينُ إلـهًا غيـرَك اللـه ثـانيـا

وكقول قس بن ساعدة خطيب العرب:

الـحـمـد لـلـه الـذي لم يخلقِ الخلْقَ عَبَثْ

وكقول ورقة بن نوفل:

أَدِينُ لربٍّ يَستجيبُ ولا أُرَى أَدِينُ لمن لا يسمعُ الدهرَ واعيا
أقول إذا صَلَّيتُ في كل بِيعَة تباركتَ قد أَكثَرْتُ بِاسْمِك داعيا

وكقول عبد القيس بن الخفاف (المفضليات، ص٧٥٠، ed. Lyall):

اللهَ فاتَّقِه وأَوفِ بنذره وإذا حَلفتَ مماريًا فتَجلَّلِ

وكقول طَرَفة (شعراء النصرانية، ٣١٩):

لتُنَقِّبَنْ عَنِّي المنيةُ إنَّ الله ليس لحكمه حُكْم

وكقول سُوَيد بن أبي كاهل:

إنما يرفعُ اللهُ ومَن شاء وَضَعْ

وكقول حاتم الطائي:

كُلوا اليومَ رِزقَ الإلهِ وأَيْسِروا فإنَّ على الرحمن رزقكمُ غَدا

وأقوال كثيرة لأُمَيَّة بن أبي الصَّلْت ولا سيما داليته العجيبة التي أولها:

لكَ الحمدُ والنعماءُ والفضلُ رَبَّنا فلا شيء أعلى منك حمدًا وأمْجَدُ

وفيها يقول:

هو الله باري الخلقِ والخلقُ كلُّه إماءٌ له طوعًا جميعًا وأَعْبُدُ

أُعْجِبَ بها نبي الإسلام فقال لما سمعها من الشريد بن سويد: لقد كاد أُمَيَّة أن يسلم بشعره (اطلب: حياة الحيوان، للدميري، ٢: ١٩٥).

فهذه وأقوالٌ غيرها كثيرة تُثْبِتُ أن العرب في الجاهلية عرفوا الإله الحقيقي، ولا شك بأن هذه المعرفة أتتهم من مُبشِّرِين نصارى سبق لنا ذكرهم في تاريخ النصرانية بين العرب (اطلب القسم الأول).

(١-٢) علم النفس

كان لقدماء العرب قبل أن يستنيروا بنور الإنجيل آراء باطِلَة في النَّفْس وأصلها ومصيرها، فيهيمون بمزاعمهم في كل وادٍ، فلما هداهم الله إلى الحق عدلوا إلى ما هو أقرب إلى الصواب فأقروا بخلود النفس وحَرَّضُوا على تُقى الله وممارسة الأعمال الصالحة، وأشاروا إلى ما ينتظر النفس من الحساب يوم الدين فتجازى عن أعمالها ثوابًا أو عقابًا، وهذا كله مُجمل ما يستفاد من التعاليم الفلسفية، فدونك بعض الشواهد على قولنا، أوردنا في شعر عدي بن زيد [القسم الثاني، الأعلام النصرانية الجغرافية] ما قال في تصوير

الله للإنسان ونفخه فيه من روحه، ولطرفة قوله في عقل الإنسان (شعراء النصرانية، ص٣١٧) وما خُصَّ به من الإدراك:

للفتى عَقلٌ يَعيش به   حيثُ تَهدي ساقَهُ قَدمُه

وقد مَيَّزوا بين الروح الخالدة والجسد الفاني كقول ذي الرمة مستغيثًا:

يا نازعَ الرُّوحِ من جسمي إذا قُبِضتْ   وفارِجَ الكربِ أنقذني من النارِ

وأشاروا إلى وقوف النفس أمام الدَّيَّان وأدائها الحساب عن أعمالها وإلى جزائها خيرًا أو شرًّا على موجب سلوكها، قال الحارث بن عَبَّاد (شعراء النصرانية، ٣٧٠):

كلُّ شيء مصيره للزَّوالِ   غيرَ ربي وصالحِ الأعمالِ

وقال مُرَّة بن ذُهْل في مراقبة الله لأعمال البشر (فيه، ص٢٤٨):

اللهُ للأقوامِ بالمِرصادِ

وقال طرفة (فيه، ٣١٧):

وكيفَ يُرَجِّي المرءُ دهرًا مخلدًا   وأعماله عمَّا قليل تُحاسبه

وقال أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت [القسم الأول، السماء والجحيم وما فيهما]:

يُوقَف الناسُ للحساب جميعًا   فشقي مُعذَّب وسعيدُ

وقال عدي بن زيد:

أَعاذِلَ مَن تُكْتبْ له النار يَلْقَها   كفاحًا ومَنْ يُكتَبْ له الفوزُ يَسعَدِ

ومثله لزهير في معلقته:

فلا تَكتُمُنَّ الله ما في صُدوركم   لِيخفَى ومَهما يَكْتُمِ اللهُ يَعْلَمِ
يُؤَخَّرْ فَيُوضعْ في كتابٍ فُيدَّخرْ   ليومِ الحساب أو يُعَجَّلِ فيُنْقَمِ

وللبيد أيضًا:

وكلُّ امرئ يومًا سَيعلمُ سعيه إذا كُشِفتْ عند الإله المَحاصلُ

وكأن حاتمًا الطائي (شعراء النصرانية، ١٢١) نظم آية الكتاب «مَن يُعطِ الفقيرَ يُقرِض الرَّبَّ.» بقوله:

ولكنما يبغي به الله وَحْدَه فأعطِ فَقد أَرْبحتَ في البَيْعةِ الكَسْبَا

وأقوال عديدة مثلها تنطق بمعرفتهم لأحوال النَّفْس والمعاد، وقد ذكرنا سابقًا [القسم الأول، الباب الثاني] كيف رد العلامة أوريجانس بعض المبتدعين من العرب عن ضلالٍ سَقَطوا به في أمر النفس إذ زعموا أنها تفنى كالجسد ثم تبعث معه في الدَّيْنُونة.

(١-٣) علم الآداب والحقوق

مرجع هذا العلم أن يُعطَى كلُّ ذي حق حَقَّه مع مراعاة الأحوال والمَقامات من رؤساء ومرءوسين وأفراد وجماعات ... إلخ، وبديهي أن أحوال أهل البادية تختلف عن أحوال سُكَّان المُدُن وسُنَنِهم عن سُنَنِهم، ولشعراء الجاهلية تأييدًا لهذه المبادئ الصحيحة أقوال لا تُحْصَى جمعها القدماء فنُحِيل إليها، منها حماسة البحتري الذي نشرناه منذ عهد قريب، قسَّمَه جامعه على ١٧٤ بابًا تتناول معظم الآداب والأخلاق التي يَتباحث بها الفلاسفة فيثبتون وجوبها وقوانينها وفقًا لتعاليم العقل وأحكامه المصيبة، انظر مثلًا ما يقوله الأَفْوَه الأَوْدِي في النظام السياسي وحُكْم أرباب الأمر (شعراء النصرانية، ص٧٠):

لا يُصْلِح الناس فوضى لا سَراةَ لهم ولا سراةَ إذا جُهَّالُهم سادُوا
تُهدى الأمورُ بأهل الرأي ما صَلَحتْ فإنْ تَولَّتْ فبالأشرارِ تَنقادُ
إذا تَولَّى سراةُ الناسِ أمْرَهمُ نما على ذاك أمرُ القوم فازْدَادوا

وهذا النابغة الذبياني يَعزو إلى الله سُلطة الملوك حيث يقول للملك النعمان (شعراء النصرانية، ٦٥٦):

ألم ترَ أن اللهَ أعطاك سُورةً ترى كلَّ مَلِكٍ دُونَها يَتذَبْذَبُ

وكل أديب يعرف خاتمة معلقة زهير وما في أبياتها الأخيرة من الحكم المبنية على علم الأخلاق والآداب الاجتماعية، ومثلها في معلقة الحارث بن الحلزة، ولطرفة يطالب بحقوق أمه وردةَ (شعراء النصرانية، ٢٩٨):

ما تَنظرُون بحقِّ وردةَ فِيكمُ　　صَغُر البنونَ ورَهْطُ وردةَ غُيَّبُ
قد يَبعَثُ الأمرَ العظيمَ صَغيرُهُ　　حتى تظلَّ له الدماء تَصَبَّبُ
قد يُورد الظُّلم المُبِيَّنُ آجنًا　　مِلحًا يُخالَط بالذُّعافِ ويُقْشَبُ
والإثمُ داءٌ ليس يُرجَى بُرْؤُه　　والبِرُّ بُرءٌ ليس فيه مُعطَّبُ
أدُّوا الحقوقَ تَفِرْ لَكُم أعراضُكم　　إنَّ الكريمَ إذا يُحرَّبُ يَغْضَبُ

فهذه كلها أقوال من الفلسفة العقلية أبرزها عرب الجاهلية في صورة شعرية.

(٢) التعاليم اللاهوتية بين نصارى الجاهلية

اللاهوت كما هو معلوم أساسه الوحي، سواء كان مدونًا في الأسفار المُقدَّسة أم شائعًا بتعليم الكنيسة، وقد عرف نصارى العرب الوحي وكتبه وأئمته الأنبياء والرسل كما أثبتنا ذلك في الفصول السابقة (ص١٧٩–١٩٠)، مثل قول الراهب ورقة بن نوفل:

وجبريلُ يأتيه وميكالُ معهما　　من الله وحيٌ يَشرحُ الصدرَ مُنْزَلُ

وقد ورد هناك ذكر التوراة والزبور والإنجيل وبعض الأنبياء والرسل كموسى وداود وسليمان ويونان، ومما أخذوه عن الوحي معلومات عديدة عن الله — جل جلاله — كتوحيده وصفاته العلوية، فإن منها ما يُسْتدَلُّ عليه بالوحي أكثر من القياس النظري والبرهان العقلي، فأي فيلسوف مثلًا وصفه تعالى كما فعل أمية بن أبي الصلت حيث قال:

لك الحمدُ والنَّعماءُ والمُلكُ رَبَّنا　　فلا شيءَ أعلى منكَ مجدًا وأَمْجدُ
مليكٌ على عرشِ السماء مُهَيمنٌ　　لِعِزَّتِه تَعنُو الوجوهُ وتَسجُدُ
عليه حِجابُ النُّورِ والنُّورُ حوله　　وأنهارُ نُورٍ حوله تَتوقَّدُ
مليكُ السمواتِ الشدادِ وأرضِها　　وليس لشيءٍ عن قضاه تَأَوُّدُ

إلخ.

وهو الوحي قد أنبأهم بوجود الملائكة وأوقفهم على مقامهم وجوهرهم وخدمتهم أمام الله وطبقاتهم، فذكروا منهم بأسمائهم جبرائيل وميكائيل، ومن طبقاتهم السرافيل (الساروفيم)، والكَرُوبيَّة (الكروبيم)، والملائكة الحُرَّاس (راجع [القسم الثاني، السماء والجحيم وما فيهما]).

وقد أفادهم الوحيُ تكوينَ الله للعالَم من العدم وإبداعه للكائنات جمادها ونباتها وحيوانها، ثم خلقه للأبوين الأولين ووضعه لهما في جنة عدن ثم سقوطهما بتجربة إبليس ونفيهما من الفردوس، ثم ما جَرى لهما ولنسلهما ولا سيما بوقوع الطوفان، فكل هذه الأمور التي أثبتناها بالنصوص المتعددة لم يعرفها العرب إلا بواسطة الوحي (راجع [القسم الثاني، الفصل الرابع]).

ومن الوحي استفاد العرب أيضًا معرفة أمور الآخرة كالنَّعيم في السماء للأبرار والجحيم في جهنم للأشرار وبعث الأجساد في آخر العالم، وقد أتينا على كل ذلك بشواهد مُتعدِّدة لا تبقي في الأمر ريبًا (اطلب [القسم الثاني، السماء والجحيم وما فيهما]).

ومما توفَّق العرب إلى معرفته بفضل الوحي سِرُّ بشارة الملاك جبرئيل لمريم العذراء وبقاء مريم على بتوليتها مع ولادة ابنها، وعرَفُوا السيد المسيح ورسالته إلى العالم وما أتاه من المعجزات واختياره لرسله الحواريين ودعوه «بأَبِيل الأَبِيلِينَ المسيح ابن مريما»، وأنه هو الذي سَيَدِين الأحياء والأموات [القسم الثاني، الوحي وكُتُبه وأئمته]، وذكروا السابق أمام وجهه يوحنا المعمدان ودَعَوْه يحيى.

وقد عظم عرب الجاهلية تعليم المسيح ونَعَتُوا دينه بالدين القويم كما قال النابغة عن نصارى غسان:

مَجَلَّتُهم ذاتُ الإله ودِينُهم قويمٌ فما يَرْجُون غيرَ العواقبِ

وقد عرف العرب كنيسة المسيح وما فيها من رؤساء كالبطاركة والأساقفة والقسوس والشمامسة ولا سيما الرهبان والنُّسَّاك [القسم الثاني، مفردات نصارى العرب الدالة على رؤسائهم ورهبانهم].

وكذلك اطَّلَعوا على أسرار الكنيسة كالمعمودية والقُرْبان والقُدَّاس، وعلى أعيادها كالسبار (البشارة)، والدنح (الغطاس)، والسباسب (الشعانين)، والفِصح، والسُّلَّاق (الصعود) [القسم الثاني، مُفرَدات نصارى الجاهلية الخاصة بكنائسهم وأقداسها، ثم مفردات لنصارى الجاهلية في أعيادهم ومواسمهم السنوية].

وعرفوا مناسك النصرانية وكنائسها وهياكلها وما تُزانُ به من النقوش والصور، وخصوصًا الصليب فحلفوا به كقول عدي بن زيد.

سعى الأعداءُ لا يَألونَ شرًّا   عليك وربِّ مكَّةَ والصليبِ

وقد حلف الآخَرُ بالقربان ودعاه الشَّبَر:

الحمدُ لله الذي أعطى الشَّبَرْ

ومثله عدي:

إذ أتاني خيرٌ من منعمٍ   لم أَخُنْه والذي أعطى الشَّبَرَ

وحلف الأعشى بالرهبان الساجدين وبالناقوس فقال:

إني وربِّ الساجدين عَشِيَّةً   وما صكَّ ناقوسَ النصارى أَبِيلُها
أُصالِحُكم حتى تبوءوا بِمثْلِها   كصرخة حُبْلى أَسْلَمَتْها قَبيلُها

فهذه كلها أدِلَّة أوضح من النور تُبيِّنُ ما كان للتعاليم اللاهوتية من النُّفوذ بين نصارى العرب استخلصناها من الشعر الجاهلي فقط، وهي أحسن برهان على نفوذ الآداب النصرانية بينهم.

الفصل العاشر

الفنون الجميلة بين النصارى

ليس شيء يدلُّ على رُقِيِّ الأمم كشيوع الفنون الجميلة بينهم؛ لأن الجَمال كما لا يخفى يَسبِي قلب الإنسان ويُجرِّدُه عن الأمورِ السافلة الدَّنِيَّة ليَسْمُو به إلى عالَم العقل فيقربه إلى مصدر الجمال — سبحانه وتعالى — ولذلك قد قيل: إن الفنون الجميلة هي أثمن دُرَّة في تاج الحضارة والمدنية.

على أن العرب من هذا القبيل قد تَخلَّفوا عن بقية الشعوب المتمدنة كالكلدان والآشوريين والفُرْس والمصريين واليونان والرومان فلا تكاد تجد لهم أثرًا يُذْكَر في القرون السابقة لتاريخ الميلاد، والسَّبب في ذلك عيشتهم الفطرية البعيدة من الحضارة وانتقالهم في البوادي انتجاعًا لمراعي الإبل والمواشي، واشتغالهم بالغزوات والحروب.

أما القرون التابعة للسيد المسيح فإنها لا تخلو من بعض آثار هذه الفنون الجميلة، ولا جرم أن النصرانية بدخولها في جزيرة العرب أَدخلتْ معها عنايتها الدائمة بترقية دعائم الحضارة، ولا سيما في الأزمنة التي سبقت قليلًا عهد الإسلام، وفي أوائل ظهوره كما سترى.

وبيانًا لذلك قد عَوَّلْنا على كتابة فصل فيما نعرفه من تأثير النصرانية في ترقية الجمال ونشر أصحابها لأخص فنونه بين العرب، وأشهر هذه الفنون أربعة: هندسة البناء، والتصوير، والحفر، والموسيقى نُفرِد لكل منها بابًا.

(١) هندسة البناء

البناء أول صنائع العمران البشري؛ لأن الإنسان في حاجة إليه لاتقاء عوامل الطبيعة وأذى العدو، على أن البناء لا يُعدُّ من الفنون الجميلة إلا إذا كانت المباني شاهقة البنيان

واسعة الأرجاء ذات أوضاع هندسية ونقوش فنية وفقًا لقواعد راهنة تجعلها من الأبنية المعتبرة فمنها قصور الملوك والمَعاقِل والحصون والهياكل والكنائس وغيرها من الأبنية الدينية والمدنية، وها نحن ندون هنا ما يعود فضله إلى النصرانية مباشرة بالمباني الدينية ثم المدنية.

(١-١) المباني الدينية

إن ما قدمناه من الشواهد العديدة في انتشار النصرانية في كل أنحاء جزيرة العرب في عهد الجاهلية يستلزم توفير الأبنية الدينية والكنائس والأديرة حيثما وجد النصارى، وربما صرح المؤرخون بذكرها دون وصفها فلا يَسعُنا أن نقطع بهندامها وحُسْن هندستها، ولا مراء أنه كان بينها الأبنية الفخيمة والهياكل البديعة.

فمما جاء ذكره من ذلك في اليمن ما رواه المؤرخ فليسترجيوس في مطاوي كلامه عن قنسطنسيوس بن قسطنطين الكبير حيث قال: إن تاوفيل الهندي الذي كان أوفده هذا الملك إلى الحِمْيَرِيين نحو السنة ٣٥٦م شَيَّد في اليمن ثلاث كنائس في ظَفَار حاضرة اليمن، ثم في عدن، وفي هرمز (راجع [القسم الأول، الباب الخامس]).

وقد ذكر كنائس اليمن قَزَما الرحالة الكاتب اليوناني نحو السنة ٥٣٥م فقال: «حيثما سِرتَ تَجد كنائس للنصارى وأساقفة وشهداء وسياحًا حتى بين أهل عربية السعيدة الذين يدعون بالحِمْيَرِيِّين كما في كل العرب أيضًا.» (راجع [القسم الأول، الباب الخامس]).

وقد خص كتبة العرب فصولًا من تواريخهم في وصف كنيسة صنعاء اليمن التي شيدها أبرهة بعد فتح الحبش لليمن وهم يدعونها بالقليس اشتقوها من لفظة Εκκλησία اليونانية وتعريبها الكنيسة، وقد روينا في مجاني الأدب (٣: ٣٠٢) بعض أوصافهم، راجع معجم البلدان لياقوت (في مادة قليس، ٤: ١٧٠)؛ وتاريخ الطبري (١: ٩٣٤-٩٣٥)؛ وتاريخ الشيخ صالح الأرمني (طبعة أوكسفورد، ص١٣٩)، وأقدم من كل هؤلاء صاحب «أخبار مكة» أبو الوليد محمد بن عبد الله الأزرقي من كَتَبة القرن الثالث للهجرة، والعاشر للمسيح (طبعة ليبسيك، ٨٨–٩٠)، وهذا بعض ما رواه قال:

«كان القليس مربَّعًا مستوي التربيع جعل «أبرهة» طوله في السماء ٦٠ ذراعًا وكَبسه من داخله ١٠ أذرع في السماء وكان يصعد إليه بدرج الرُّخام وحوله سور بينه وبين القليس مائتا ذراع يطيف به من كل جانب، وجعل بين ذلك كله حجارة يسميها

أهل اليمن الجروب منقوشة مطابقة لا يدخل بين أطباقها الإبرة مطبقة به، وجعل طول ما بنى به من الجروب ٢٠ ذراعًا في السماء ثم فصل ما بين حجارة الجروب بحجارة مثلثة تشبه الشُّرَف مداخلة بعضها ببعض حجرًا أخضر وحجرًا أحمر وحجرًا أبيض وحجرًا أصفر وحجرًا أسود، وفيما بين كل سافَيْن خَشبُ سَاسَم مُدوَّر الرأس غِلَظ الخشبة حضن الرجل ناتئة على البناء ... ثم فصل بإفْرِيز من رخام منقوش طوله في السماء ذراعان، وكان الرخام ناتئًا على البناء ذراعًا، ثم فصل فوق الرخام بحجارة سود لها بريق من حجارة نُقُم جبل صنعاء المُشْرِف عليها، ثم وُضِع فوقها حجارة صفر ثم حجارة بيض لهما بريق فكان هذا ظاهِرَ حائط القليس، وكان عَرْض حائط القليس سِتَّة أذرع ... وكان له باب من نحاس ١٠ أذرع طولًا في ٤ عرضًا، وكان المدخل منه إلى بيت في جوفه طوله ٨٠ ذراعًا في ٤٠ ذراعًا معلق (؟) العمل بالساج المنقوش ومسامير الذهب والفضلة، ثم يدخل من البيت إلى إيوان طوله ٤٠ ذراعًا عن يمينه وعن يساره وعقوده مضروبة بالفسيفساء مُشَجَّرة بين أضعافها كواكب الذهب ظاهرة، ثم يدخل من الإيوان إلى قبة ٣٠ ذراعًا في ٣٠ ذراعًا جدرها بالفسيفساء، وفيها صُلُب منقوشة بالفسيفساء والذهب والفضة وفيها رخامة مما يلي مطلع الشمس من البَلَق مربعة ١٠ أذرع في ١٠ تغشى عَينَ مَن نظر إليها من بطن القبة، تؤدِّي ضوء الشمس والقمر إلى داخل القبة، وكان تحت الرخامة مِنْبر من خشب اللَّبْخ، وهو عندهم الأَبنُوس مُفَصَّل بالعاج الأبيض ودرج المنبر من خشب الساج ملبسة ذهبًا وفضة، وكان في القبة سلاسل فضة.»

ثم ذكر ما حل بهذه الكنيسة بعد الهجرة وكيف هدمها أبو جعفر المنصور ثاني خلفاء بني عباس بإغراء أحد أبناء الوهب بن المُنَبِّه وبعض يهود صنعاء.

وقد ذكر أبو صالح الأرْمَني في تاريخه (ص١٤٠، من طبعة أوكسفورد) كنيسة أخرى في بلاد اليمن دعاها «مَرُور الدير» قال: إنه كان عليها حصن منيع وتسمى في زمانه بمقبرة الحكماء.

ومما رواه السياح المحدثون أن جامع صنعاء الباقي إلى اليوم كان في سابق الزمان كنيسة حولها المسلمون إلى جامع، وكذلك روى الرحالة الألماني الشهير جلازر (Glaser: *Shizze*, 1: 15, 37) أنه دخل سنة ١٨٨٦م مسجدًا يدعى مسجد نُجَيْم يريم قريبًا من ظَفَار حاضرة اليمن سابقًا فوجد في أبنيته وعمده وجدرانه آثارًا نصرانية ونقوشًا تدل على أنه كان سابقًا كنيسة مسيحية.

وقد اشتهرتْ في تاريخ النصرانية مدينة نجران التي استشهد أهلها في عهد ذي نؤاس (راجع [القسم الأول، الباب الخامس])، فلما عاد إليها السلام ورجعت النصرانية إلى رونقها بُنِي فيها كنيسة كبيرة عرفها العرب بكعبة نجران فورد ذكرها في شعر الأعشى حيث أنشد يخاطب ناقته:

فكعبةُ نَجرانَ حَتْمٌ عليكِ　　حتى تُنَاخِي بأبوابِها
نَزورُ يزيدَ وعبدَ المسيحِ　　وقَيسًا همُو خيرُ أَربابها

فمدح الأعشى هنا بَني عبد المَدَان الحارثِيِّين سادة نجران النصارى، قال أبو الفرج الأصفهاني (الأغاني، ١٠: ١٤٢): «والكعبة التي عناها الأعشى ها هنا يقال: إنها بِيعَة بناها بنو عبد المَدَان على بناء الكعبة وعظموها مضاهاة للكعبة وسموها كعبة نجران، وكان إذا نزل بها مُستَجير أُجِير، أو خائفُ أُمِّن أو طالِب حاجة قُضِيتْ، أو مُسترفِد أُعْطِيَ ما يريده.»

وإن عدلنا بالنظر عن اليمن إلى العراق وجدْنَا هندسة البناء الدينية رائجة فيه أيَّ رواج لنمو النصرانية بين أهله واتساع نطاقها في كل أنحائه، فهناك شاعت الطرائق الرهبانية شيوعها في أرض الصعيد، هناك توفرت المناسك والأديرة التي بلغ عدد المترهبين في بعضها المئات بل بضعة ألوف، وقد عَددْنَا فيما سبق أسماء كثير من هذه الأديرة التي عُنِي بتشييدها الملوك وأعيان الدولة كدير اللج الذي بناه النعمان بن المنذر أبو قابوس. قال ياقوت: «ولم يكن في ديارات الحيرة أحسنُ بناءً منه.» ودير الأعور المنسوب إلى النعمان الذي تنصر وزهد بالدنيا، ودير الجرعة المنسوب إلى عبد المسيح بن بقيلة الغساني، ودير هند الكبرى بنته أم عمرو بن هند «أَمَة المسيح وأم عَبْده وبنتُ عبيده.» (ياقوت، ٢: ٧٠٩)، ودير هند الصغرى، ودير حنظلة، وغيرها كثير (راجع [القسم الأول، الباب السابع])، ولا شك أن بناة هذه الأديرة لم يدَّخِروا وسعًا في حسن بنائها وإتقان هندستها إذ كانوا من أصحاب الثروة والتُّقى معًا، وفي بعض بقاياها إلى اليوم ما يدل على عظم شأنها، وهكذا يقال عن الكنائس فإنها كانت غالبًا هياكل واسعة الأرجاء شاهقة البنيان ذات أسواق متعددة جامعة بين متانة البنيان وحسن الشكل، وقد بقي في الشعر القديم عدة أقوال لفحول الشعراء وصفوا فيها كنائس النصارى وهياكلها ومحاريبها وصلبانها وما تزان به من النقوش (راجع [القسم الثاني، مفردات نصارى

الجاهلية الخاصة بكنائسهم وأقداسها])، وقد خَصَّ الهمداني بالذِّكْر في كتابه جزيرة العرب «كنيسة الباعونة في الحيرة»، وبعض هذه الكنائس في العراق باقية إلى اليوم فأخذ الأثريون يدرسون هندستها ويبينون لخواصها، منهم تلك الآنسة الشهيرة الإنكليزية «المس بل (Miss Bell)» التي وضعت كتابًا ضخمًا في وصف كنائس ما بين النهرين التي سبق عهد البعض منها عهد الإسلام فترتقي إلى القرن الرابع والخامس والسادس للمسيح وأَثْبَتَتْ صِورَ كثيرٍ منها.

وإن اقتربنا في جزيرة العرب إلى بادية الشام ومملكة بني غسان وجدنا فيها من المباني الدينية ما يُقضى منه العجب، وقد أثبتنا في الصفحات السابقة (راجع [القسم الأول، الباب الثاني]) ما رواه مُؤرِّخُو العرب عن ملوك غسان الأولين وما بَنَوْه من الأديرة كدير أيوب، ودير حالي، ودير هند، ودير ضخم، ودير النبعة، ودير بُصْرى، ودير سعد، ومن هذه الأديرة ما بقي عامرًا بعد الإسلام وإلى اليوم يُطْلَق اسم الدير على بعض جهات الصفا وحوران كدير الكهف، ودير قن.

وقد اختلط بنو غسَّان في منازلهم شرقي الشام وفي جنوبها الشرقي بالرومان واليونان النصارى فجاروهم في حضارتهم وتعلموا منهم هندسة البناء فشَيَّدوا مثلهم البِيَع والكنائس التي يُرى بعضها حتى اليوم في جهات حوران والصفا واللجا وجولان وفي عبر الأردن وبلقاء (راجع [القسم الأول، الباب الثاني])، وهي من البنايات الفخيمة وعليها الرموز النصرانية والكتابات اليونانية واللاتينية، وعلى أثر منها كتابة عربية وجدت في حران سبقت الهجرة بأربع وخمسين سنة كُتبت على «مرتول» أي مشهد القديس يوحنا المعمدان الذي شيده أحد شيوخ القبائل العربية المدعو شراحيل [القسم الأول، الباب الثاني].

وترى مثل هذه الأبنية الدينية في الجزيرة وديار ربيعة وديار بكر وشمالي سورية قد أشَرْنا إليها سابقًا [القسم الأول، الباب السابع، الباب الثامن، الباب التاسع] فإن كَتَبَة العرب وشعراء الجاهلية قد ذكروا نحو خمسين ديرًا منها نَعَتوا بعضها بأجمل النعوت كقول ياقوت في معجم البلدان عن دير الرصافة (٢: ٥٦٠) أنه «من عجائب الدنيا حُسنًا وعمارة.» وفي زبد شمالي سورية أقيم سنة ٥١٢ للمسيح مشهد لذكر القديس الشهيد سرجيوس عليه أول أثر من الخط العربي في تلك السنة [القسم الأول، الباب التاسع].

ولم تخل أواسط جزيرة العرب كنجد والحجاز واليمامة من الأبنية النصرانية كالأديرة والبيع والصوامع (اطلب الفصل العاشر من القسم الأول)، وهناك كانت قبائل

نصرانية كطيئ وتميم التي افتخر خطباؤها لما وفدوا على نبي الإسلام بتشييدهم للكنائس فقال الزبرقان:

نحن الكرام ولا حي يعادلنا　　منا الملوكُ وفينا تنصب البيع

ثم ورد في كتاب الوفادات لابن سعد ذكر كنيسة بني حنيفة وراهبها (ص١٢٩–١٣٠)، وقد وجد أيضًا في الحجاز ونجد أديرة للنصارى في الجاهلية كدير خندف ودير غطفان وغير ذلك مما مر وصفه، وقد ذكر الطبري في تاريخه (١: ٣٠٤٧) دير سلع قرب المدينة المنورة يثرب وفيه دُفن الخليفة الثالث عثمان بن عفان.

وما قولنا بالأبنية الجليلة التي أمر ببنائها الملك يستنيان في طور سيناء ذكرًا لتَجَلِّي الرب فيه لبني إسرائيل وإكرامًا للقديسة كاترينا الشهيدة، وهذه الأبنية تشهد إلى اليوم على براعة مهندسيها.

ومما يدخل في هذا الباب ما بناه النصارى من الأبنية الدينية لغير ملتهم، فمن ذلك بناء الكعبة نحو السنة ٦٠٥ للميلاد، تولَّى بناءها رومي اسمه باقوم مع رجل قبطي كما روى النهروالي في كتاب إعلام الأعلام ببيت الله الحرام (ص٤٩–٥٠) قال:

«إن امرأة جمَّرت الكعبة بالبَخُور فطارت شرارة من مجمرتها في ثياب الكعبة، فاحترق أكثر أخشابها، ودخلها سيل عظيم فصدع جدرانها بعد توهينها، فأرادوا أن يَشُدُّوا بنيانها ويرفعوا بابها حتى لا يدخلها إلا من شاءوا وكان البحر قد رمى بسفينة إلى ساحل جدة لتاجر رومي اسمه باقوم، وكان بنَّاءً نجارًا فخرج الوليدُ بن المغيرة في نفر من قريش إلى جدة فابتاعوا خشب السفينة وكلموا باقوم الرومي أن يقدم معهم إلى مكة فقدم إليها وأخذوا أخشاب السفينة أعدوها لسقف الكعبة المشرفة، قال الأموي: كانت هذه السفينة لقيصر ملك الروم يحمل فيها الرخام والخشب والحديد مع باقوم إلى الكنيسة التي أحرقها الفرس بالحبشة، فلما بلغت قريب مرسى جدة بعث الله عليها ريحًا فحطمتها ... قال ابن إسحاق وكان بمكَّة قبطي يَعْرِف نَجْرَ الخشب وتسويته فوافقهم أن يعمل لهم سقف الكعبة ويساعده باقوم.»[1]

[1] راجع أيضًا: كتاب أخبار مكة للأزرقي، ص١٠٤–١١٠.

وليست هذه المرة الوحيدة التي عمَّر النصارى ما خرب من الكعبة، أخبر الأزرقي في أخبار مكة (ص٣٩٥–٣٩٦) أنه وقع سيل جَحَّاف في سنة ثمانين (٧٠٠م) في خلافة عبد الملك بن مروان دخل المسجد وأحاط بالكعبة فكُتب في ذلك إلى عبد الملك فبعث بمال عظيم وكتب إلى عامله على مكة لإصلاح ما خرب قال: «وبعث رجلًا نصرانيًّا مهندسًا في عمل ضفاير المسجد الحرام وضفاير الدور في جنبتي الوادي فأمر بالصخر العظام فنقلت على العَجَل وحفر الأرباض دون دور الناس فبناها وأحكمها من المال الذي بعث به.»

وكذلك جرى في عهد الوليد بن عبد الملك فإنه أراد توسيع المسجد الحرام وزخرفته فاستقدم لذلك مهندسين نصارى، قال ياقوت في معجم (٤: ٤٦٦): «في أيام الوليد استقدم من ملك الروم أربعين روميًّا، وأربعين قبطيًّا ليعملوا المسجد فعمروه سنة ٨٧–٨٨هـ (٧٠٩–٧١٠م) مائتي ذراع.» قال الأزرقي (ص٢٠٩): «وهو (أي الوليد) أول مَن نقل إلى المسجد الحرام أساطين الرخام … وسقفه بالساج المزخرف، وجعل على رءوس الأساطين الذهب على صفائح الشَّبَه من الصفر، وأزَّر المسجد بالرخام من داخله وجعل في وجه الطيقان في أعلاها الفسيفساء.» فكل هذه الأعمال قام بها عملة النصارى.

وما صنعه النصارى في الكعبة والمسجد الحرام في مكة قاموا به أيضًا في المدينة في مسجد النبي لما أراد الوليد أن يُجدِّد بناءه، قال الطبري (٢: ١١٩٤) في تاريخ سنة ٨٨هـ (٧٠٩م):

«بعث الوليد بن عبد الملك إلى صاحب الروم يعلمه بأنه أمر بهدم مسجد رسول الله ﷺ وأن يعينه فيه فبعث إليه بمائة ألف مثقال ذهب وبعث إليه بمائة عامل وبعث إليه من الفسيفساء بأربعين حملًا وأمر بأن يتتبع الفسيفساء في المدائن التي خربت فبعث بها إلى الوليد فبعث الوليد بذلك إلى عمر بن عبد العزيز … وفيها ابتدأ عمر بن عبد العزيز ببناء المسجد.»

ومثله أيضًا مسجد دمشق المعروف بالجامع الأموي الذي خلف كنيسة مار يوحنا بعد الفتح الإسلامي، فإن الوليد إذ أراد تجديد عمارته التجأ أيضًا إلى ملك الروم ليوجه إليه مائة صانع كما روى ابن عساكر في تاريخ دمشق (١: ٢٠٢)، فاجتهدَوا في بنيانه وتزويقه وزخرفته حتى عُدَّ مع كنيسة الرُّهَا ومنارة الإسكندرية من جملة عجائب الدنيا، وقد ذكرنا في المشرق (١٤، ١٩١١م، ٦٣٩) أعمال الفسيفساء الراقية إلى عهد بنائها التي ظهرت قبل بضع سنين في مصلب الجامع وقناطره وكواه بعد تنظيفها من سخام حريق تيمورلنك ومن الملاط والكلس فلاحت بزهو ألوانها العجيبة ومحاسنها الباهرة

وتفنُّن مهندسيها النصارى في النقش وتصوير مَجالي الطبيعة من زهور وأشجار وأثمار وصروح وقصور، وكل يعلم أن ترميم الجامع الأموي وتجديد زخارفه القديمة تولاها في الحقبة الأخيرة المهندس أبيري النصراني.

ومن رأى المسجد الأقصى في بيت المَقدِس ودرس هندسته لا يلبث أن ينسب أيضًا بناءه إلى صَنَعة من الروم الذين انتدبهم إلى تشييده الخليفة عبد الملك بن مروان، وبأمره قُلِعَت قبة كانت للنصارى في كنيسة مدينة بعلبك وهي من نحاس مطلي بالذهب فنصبها على صخرة هيكل سليمان (تاريخ ابن البطريق، ٢: ٤٢)، وقال ابن خلدون في مقدمته: «إن عمر لما حضر لفتح بيت المقدس وكشف عن الصخرة بنى عليها مسجدًا على طريق البداوة، ثم احتفل الوليد بن عبد الملك في تشييد مسجده على سنن مساجد الإسلام … وألزم ملك الروم أن يبعث الفعلة والمال لبناء هذه المساجد وأن ينمقوها بالفسيفساء فأطاع لذلك وتم بناؤها على ما اقترحه.»

ولما ابتنى عمرو في جهات مَنْف جامع الفسطاط وَكَّل بتشييده إلى النصارى، وروى المقريزي في الخطط (٤: ١٢٤، من الطبعة الجديدة) «أن بعض عُمُدِه أو أكثرها ورخامه من كنائس الإسكندرية وأرياف مصر.» وكذا قال عن جامع الجيزة.

فيثبت من هذه الشواهد كلها شيوع الهندسة النصرانية في كل أنحاء جزيرة العرب قبل الإسلام ونسبة كل الأبنية الإسلامية الأولى إليها.

وقد استبان علماء المستشرقين في عهدنا تأثير النصرانية في أبنية الإسلام الدينية، فإن المسلمين عند الفتح العربي لم يُحَوِّلوا فقط كنائس النصارى إلى جوامع ومساجد كما يتفق عليه المؤرخون، لكنهم تَقلَّدوا أيضًا هندسة البِيَع المسيحية فإنهم إذ كانوا يجهلون فن البناء كما قال ابن خلدون التجئوا في الشام والعراق ومصر والأندلس إلى مهندسين وطنيين مسيحيين كان البعض منهم دانوا بالإسلام، فهؤلاء جَرَوا في تشييد مقامات الإسلام الدينية على ما اعتادوه في أوطانهم، وقد درس الاختصاصيون بقايا تلك الأبنية فقابلوا بين كل أقسامها وأقسام الكنائس الوطنية فأثبتوا العلاقة التامَّة بينهما حتى في أخص مميزات الجوامع، كالقِبْلة والمحراب والمِنْبر والمئذنة والحرم، فإن كل ذلك منقول دون فَرْق يذكر عن المباني النصرانية التي وجدها العرب في فتوحاتهم، وقد بين ذلك العلامة جيرو دي برانجه Giraud de Prangey في كتابين ممتعين خصهما بأبنية العرب في الأندلس وصقلية ومراكش (اطلب: الجرنال الآسيوي، J. As. 1842a, 336–357)؛ والمستشرق الاختصاصي فان بركم Max Van Berchem في مقالة بديعة

نشرها هناك (J. As. 1891a, 411–495)؛ وفي كتاب الصناعة العربية للمهندس غايه (A. Gayet; *L'Art arabe*) وغيرهم، فكلهم لسان واحد في إثبات شَبَه مباني الإسلام الدينية بالكنائس النصرانية في ذلك العهد، فمنها ما يشبه الطَّرْز القبطي، ومنها ما هو أشبه بالطِّرْز البوزنطي أو الطِّرْز السوري على اختلاف الصنعة والبنائين النصارى الذين كانوا ملتزمين العمل، بحيث لا يجوز أن يدعى بناؤها بهندسة عربية البتة.[٢] فشَتَّان بين قولهم ورأي بعض المتهوسين كالمسيو سيديليو، والمسيو غوستاف لوبون الذين بخسوا حقوق اليقين ونسبوا إلى العرب ما كان للذِّمِّيين.

(١-٢) الهندسة المدنية[٣]

قد اتَّسعْنا في ذكر الهندسة النصرانية الدينية في عهد الجاهلية وأوائل الإسلام بين العرب، وفي جزيرتهم أيضًا أبنية غيرها مدنية كالقصور والحصون وغير ذلك مما يشيده الملوك والذوات لأغراضهم الخاصة أو لشئون مملكتهم، وهذه الآثار كثيرة في كل أنحاء العرب ولا سيما في ممالكها الثلاث؛ أي التَّبابِعة في اليمن، والمَناذِرة في العراق، والغَساسنة في الشام، ورد شيء من ذكرها في الشعر الجاهلي والتقليد القديم وكشف على بعضها أصحاب الرحل إلى جزيرة العرب في الحقبة الأخيرة، فهذه المباني لا يُعْرَف لها غالبًا تاريخ ولم تذكر أسماء بُناتِها، ولا جَرَم أن للنصارى في قسم منها نصيبًا صالحًا.

[٢] ودونك ما كتبه المسيو غايه في فاتحة كتابه L'Art arabe C'est à regret qu'en tête de ce livre je me suis vu constraint d'inscrire ce titre consacré par l'usage "l'Art arabe" … si jamais titre fut vide de sens, voire meme en opposition absolue a vec la chose qu'il définit, c'est assurément celui–lá. L'Arabe n'a jamais été artiste ….

[٣] إن كثيرًا من الاختراعات المدنية التي زعم البعض أن المسلمين سبقوا إلى اختراعها قد أثبت اليوم العارفون من المُستشرقِين أنهم أخذوها عن الروم والأقباط وغيرهم؛ كالقَوْس المُقَنطَر، والطراز الغوطي، ومما نضيفه هنا إلى ما أوردناه من الشواهد السابقة ما أخبره البلاذري في فتح البلدان (ص٥٤) «أن الخليفة عبد الملك أرسل إلى مكة رجلًا نصرانيًّا ليتلافى أضرار السَّيْل فعمل ضفائر الدور الشارعة على الوادي، وضفائر المسجد، وعمل الرَّدم على أفواه السكك لتحصن دور الناس.» ومما ورد في تاريخ الشيخ أبي صالح الأرمني (ص٦٢) «أن يُوحنًّا الراهب هَنْدَسَ سور القاهرة وأبوابها في الخلافة المستنصرية ووزارة أمير الجيوش بدر.»

وإن باشرنا بالعراق وشمالي الجزيرة وجدنا في شِعْر الأسود بن يَعْفر بعض قصور لآل مُحرِّق، ولبني إياد فقال:

ماذا أؤمل بعد آل مُحرِّق ... تركوا منازِلَهم وبعدَ إيادِ
أهل الْخَوَرنق والسَّدِير وبارقٍ ... والقَصْر ذي الشُّرفاتِ من سِندادِ

فهذه القصور بُنِيَت لملوك نصارى، وقد تولَّى بناءَها مهندسون نصارى ذكروا أحدهم، وهو رجل رومي يقال له: سِنِمَّار بَنَى الخورنقَ للنعمان الكبير (ياقوت، ٢: ٤٩١).

وقد أطرأ العرب مَحاسِن الخورنق دون أن يُدقِّقوا في وصف بنائه، ولعله هو القصر الذي زاره المستشرق البارع لويس ماسينيون سنة ١٩٠٨م المعروف بقصر الأُخَيْضِر وألفتَ إليه نظر العلماء في جمعية الكتابات والفنون سنة ١٩٠٩م، ثم زارَتْه الآنسة الإنكليزية مس بل سنة ١٩١٠م، وأحسنَتْ وصفه في كتابها المدعو Amurath to Amurath وأثبتَتْ صِوَره (ص١٤٧–١٥٨)، وهو بناء عظيم ذو طابقين تدل بقاياه الجليلة على عِظَم شأنه. أما اسمه الأُخَيْضِر فقد اختلفوا في أصله، ولعل أصح ما قيل في ذلك أنه تصحيف الأُكَيدر صاحب دَوْمة الجندل النصراني الذي مر لنا ذكره (ج١، [الباب العاشر])، وقد جاء هناك عن البلاذري أن عمر بن الخطاب نفاه من وطنه لمخالفته دين الإسلام فنزل موضعًا قرب عين تمر في جهات العراق وبنى به منازل سماها دَوْمة باسم حصنه (راجع: مجلة لغة العرب، ٢: ٤٧).

ومما ذَكرَه ياقوت في معجم البلدان (٤: ١١٦) من الأبنية النصرانية المدنية قصر العَدَسِيِّين قال: «إنه في طرف الحيرة لبني عمَّار بن عبد المسيح نُسِبُّوا إلى جدتهم عَدَسة بنت مالك بن عوف الكلبي.»

ولا نشك في أن النصارى هم الذين شَيَّدوا للخلفاء وأمراء العراق مبانيهم، فإن الألمانيين أرباب الحفريات في سامرَّا وجَدُوا بين أنقاضها صورًا وتماثيل أشخاص بألوانها مع رسوم هندسية مُتنِّوعة وصلبان كثيرة مُوقَّعة باسم شماس نسطوري بارع بالتصوير ورَدَ اسمه على صورة الاسم الكلداني «مسمس» (ܡܫܡܫܢܐ).

وقد أفادنا ياقوت الرومي (٤: ٤١٣) أن قصر الخليفة المتوكل المعروف بالجعفري الجامع لكل مَحاسن البناء كان بانيه دليل بن يعقوب النصراني كاتب بغا الشرابي.

ومما وقف عليه الأثريون والسُّيَّاح في أيامنا من الأبنية الجليلة والآثار البديعة في جهات العرب في أنحاء مؤاب غربي وادي سرحان عدة قصور فخيمة ومعاقل جليلة سبق لنا ذكرها في المشرق غير مرة (١، ١٨٩٨م، ٤٨١ و٦٣١؛ ثم ٤، ١٩٠١م، ٧٦٥-٧٦٦ إلخ)، كالمُثَنَّى وقُصَيْر عَمْرَة وطوبة وفيها من الآثار الهندسية ومن التصاوير وتمثيل أحوال البادية كالصيد والغزوات والمآدب والصنائع ما انذهل العلماء لوجوده في البراري، واتَّسعَت مذ ذاك الحين مَجلَّات العلماء ولا سيما تآليف المستشرقين في وصفها والبحث عن بُناتها ومُصوِّرِيها، واليوم قد رجَّح العلماء أن هذه الأبنية من عهد الوليد بن يزيد الخليفة الأموي، وكان يُفضِّل العيش في البادية على المدن، فصرف القَناطير المقنطرة لبناء تلك الآثار لسكناه وسكنى جنوده وحاشيته، أما مُهندِسو هذه القصور فكانوا أيضًا من نصارى الشام ومصر والجزيرة، وقد نسبها العلماء أولًا إلى بعض ملوك العَجَم ثم إلى بَنِي غسان، أو إلى بَنِي لَخْم حتى رجحوا آخرًا كونها للوليد بناها له النصارى الوطنيون، وفي هندسة هذه القصور ما استدلوا به على بلادهم المختلفة، فكأن كل فريق منهم تتبع طريقته الهندسية التي اعتادها في موطنه، وقد وقف حضرة الأب هنري لامنس في تاريخ بطاركة مصر لساويروس بن المُقفَّع على ما يؤيد نسبة هذه البنايات في بَوادي العرب للوليد، قال ابن المُقفَّع ما حرفه:

«وضبط المُلك (بعد هشام) الوليد بن يزيد بن عبد الملك، وكان جِنْسُه يبغضه فبدأ يبني مدينة على اسمه في البرية، وجعل إنسانًا عليها، وكان الماء بعيدًا منها خمسة عشر ميلًا، وجمع الناس من كل موضع وبنى فيها بِيد قَويَّة، ومن كثرة الناس كان يموت كل يوم فيها جماعة من قلة الماء وكان يحمل لها الماء ألف ومائتا جمل وما يكفيهم كل يوم، وكانوا الجمال فرقتين ٦٠٠ تحمل يومًا، و٦٠٠ تحمل يومًا، فوثب عليه رجل اسمه إبراهيم[٤] فقتله وأخذَ المُلك منه وأطلق الأسارى فمضى كل منهم إلى موضعه.»

ولو تَتبَّعْنا بعد هذا المآثر البنائية العربية في شمالي الشام وفي باديتها وما وراء الأردن وفي الحجاز واليمن وفي مصر لوجدنا آثار الهندسة المدنية النصرانية في كثير منها، غير أن هذه الفنون الهندسية لم يحكم العلماء درسها ليتحققوا أصلها ودقائق صنعها،

[٤] والصواب أن الوليد قُتِل في محاربة يزيد الثالث ابن عمه قتله بعد انتصاره عليه، ولم يَطُل زمن ملك يزيد ثم ملك بعده إبراهيم المذكور هنا.

وفي القليل مما ذكرناه دليلٌ كافٍ لإثبات قولنا بأن للنصارى أكبر فضل في البناء العربي الديني والمدني معًا.

(٢ و٣) التصوير والنحت

يظهر الجمال في البناء بحسن رسمه وبراعة هندسته وانتقاء مواده ووحدة أقسامه وإتقان نظامه، أما في فني التصوير والنحت فإن الجمال يلوح بتمثيلهما لمواليد الطبيعة الثلاثة جمادها ونباتها وحيوانها فيخرجها المصور بهيئاتها وألوانها وملامحها وعواطفها، فيكاد يحييها بقلمه الساحر، ويجسمها النحات فيظهرها بنتوءاتها وتداويرها الطبيعية فيحكم صورة وجدانها كأنها لا ينقصها سوى الحركة والنطق.

وكما شاع بين نصارى العرب في الجاهلية فن هندسة البناء كذلك استخدموا فني التصوير والنحت، وأول شاهد يمكن الاستدلال به ما ورد في الشعر الجاهلي من ذكر الصور والدُّمى والتماثيل في بِيَع النصارى وأديرتهم، فأعجبوا بجمالها ونقوشها البديعة حتى ضربوا بها المثل في الجمال فقالوا (الميداني، ١: ٣٠٠): «أحسن من دمية.» وقال عدي بن زيد (شعراء النصرانية، ص٤٥٥):

كَدُمَى العاجِ في المحاريبِ أو كالـ بَيْضِ في الرَّوض زَهرُه مُستنيرُ

وقال عبد الله بن عجلان (الأغاني، ١٩: ١٠٢):

غَرَّاء مثلُ الهلالِ صُورَتُها ومثلُ تمثالِ بِيعَة الذَّهبِ

وقال الأحوص (الأغاني، ٤: ٤٩؛ والشريشي، ١: ٢٩١):

كأنَّ لُبْنَى صبيرُ غاديةٍ أو دُميةٌ زَيِّنَتْ بها البِيَعُ

ومثله للأخطل (ديوانه، ص١٢):

حَلْي يشبُّ بياضَ النَّحرِ واقدُهُ كما تُصَوَّر في الدَّيْر التماثيلُ

وقال عمر بن أبي ربيعة (الكامل، للمبرد، ص٣٧٠):

دُميةٌ عند راهبٍ ذي اجتهادٍ صَوَّرَوها في جانبِ المحرابِ

وقال أُمَيَّة بن أبي عائذ (ديوان الهُذَيْلِيِّين، ص١٧٧):

أو دُميةُ المحرابِ قد لَعِبتْ بها أيدي البُناة بُزُخرفِ الإتراصِ

وقال الأعشى (لسان العرب، ٦: ١٤٤) وبنَى فِعلَين من لفظ الصلبان والصُّوَر:

وما أَيْبُليٌّ على هيكلٍ بناه وصَلَّب فيه وصارَا

ومن العجب أن بعض الشعراء إذ رأوا هذه التماثيل في كنائس النصارى دعوها أصنامًا وأوثانًا، قال أبو قطيفة (معجم البلدان، لياقوت، ٣: ٦٦١):

ولَحَيٌّ بين العُرَيضِ وسَلْعٍ حيثُ أرسى أوتادَهُ الإسلامُ
كان أشهى إليَّ قُربُ جَوارٍ مِن نصارى في دُورِها الأصنامُ

وروى في المفضليات (ed. Lyall ص٥٤٩):

يَطُوفُ العُفاةُ بأبوابِه كَطَوفِ النَّصارى ببيتِ الوَثَنْ

قالوا: أراد بالوثَن الصليب، وكانوا يَنصبونه في وسط الكنائس، وقال بشر بن أبي خازم يَمْدَح بني الحدَّاء النصارى (البيان للجاحظ، ٢: ٧١):

للهِ دَرُّ بني حدَّاءَ مِن نَفرٍ وكلُّ جارٍ على جيرانه كَلبُ
إذا غَدَوْا وعِصِيُّ الطَّلْح أَرجُلُهم كما تُنْصَبُ وَسْط البِيعةِ الصُّلُبُ

فهذه الشواهد وغيرها مثلها تَدلُّ كلها على شيوع فن التصوير ونحت التماثيل بين نصارى العرب، قال صاحب تاج العروس (٨: ١١١): «التمثال الشيء المصنوع مُشبَّهًا بخلق من خلق الله عز وجل ... والتماثيل هي صور الأنبياء، وكان التمثيل مباحًا في ذلك الوقت.»

ومما تكرر ذكره في الشعر الجاهلي نقش النصارى لكتبهم الدينية كقول رؤبة (ديوانه، ص١٤٩):

إنجيلُ أحبارٍ وَحَى مُنَمْنِمُهْ ما خطَّ فيه بالمِدادِ قَلمُهْ

وكقول المُرقَّش يصف رسوم الدار:

الدارُ قَفرٌ والرسومُ كما رَقَّش في ظَهْرِ الأديمِ قَلمُ

وقال في المفضليات (ص٦٩٨):

كتابُ مُحَبَّرٍ هاجٍ بِصَبرٍ يُنَمِّقُه وحاذَرَ أن يُباعَا

وقد ورد في تواريخ العرب القديمة ذكر آثار دينية من النحت والتصوير عُنِي بها النصارى في أنحاء الجزيرة، فمن ذلك ما رويناه سابقًا [القسم الثاني، الفصل الثامن] عن نقوش وتصاوير القليس التي زان بها أبرهة تلك الكنيسة الشهيرة، وقد ذكر بعضهم تماثيلها فعدها لجهله أصنامًا (اطلب: في معجم البلدان وصف القليس وما قال هناك عن كُعَيْت، ٤: ١٧٢).

وما قيل عن كنيسة صنعاء يصح عن بِيعَة نجران المعروفة بكعبة نجران التي عُنِي ببنائها بنو عبد المَدَان، فإن قدماء الكَتَبَة يشيدون بمحاسنها، ولعل صورها أتى بها الحبشة بعد محاربتهم لذي نؤاس وفتحهم نجران، فإن الحبش كانوا يحسنون التصوير، وفي الحديث الإسلامي أن بعض نساء محمد اللواتي كُنَّ هَاجرْنَ إلى أرض الحبشة ذَكَرنَ أمامه حسن كنيسة مارية هناك وتصاويرها، فقال لهن محمد وهو في مرض الموت: «أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قَبْرِه مسجدًا ثم صوروا فيه تلك الصور.» (اطلب: البخاري، في باب المساجد).

وقد ورد في معجم البلدان لياقوت (٢: ٧٠٣) ذكر كعبة نجران وصورها مع شهادة لعموم نصارى العرب باتخاذ الصور في كنائسهم، قال في وصف دير نجران:

«مَوضع باليمن لآل عبد المَدَان بن الديان من بني الحارث بن كعب … بنوه مربعًا مستوي الأضلاع والأقطار مرتفعًا عن الأرض يُصْعَد إليه بدرجة على مثال بناء الكعبة فكانوا يحجونه وهم طوائف من العرب ممن يحل الأشهر الحرم ولا يحج الكعبة،

ويحجه خثعم قاطبة، وكان أهل ثلاث بيوتات يَتبارَوْن في البِيَع وربها أهلُ المنذر بالحيرة، وغسان بالشام، وبنو الحارث بن كعب بنجران، وبَنَوا دياراتهم في المواضع النَّزِهة الكثيرة الشجر والرياض والغُدْران، ويجعلون حيطانها الفَسافِس وفي سقوفها الذَّهَب والصور، كان بنو الحارث بن كعب على ذلك إلى أن جاء الإسلام.»

ومن التصاوير التي لا تزال آثارها إلى يومنا في جزيرة العرب ما تزدان به كنيسة طور سينا الراقية إلى القرن السادس للمسيح، فإن فيها من النقوش والفسيفساء والصور المختلفة أشياء كثيرة اتسع في وصفها زُوَّار ذلك المقام الجليل، وهي لُمصوِّرِين وصَنَعة بوزنطيين أرسلهم يوستنيانوس الملك لتشييد تلك المقامات وتزيينها بضروب النقوش.

وكذلك مكة كان للمُصوِّرِين والنَّحَّاتِين النصارى فيها آثار ذَكرَها أقدم مؤرخ لتلك المدينة، وهو أبو الوليد الأزرقي في كتاب أخبار مكة (ص١١٠–١١١، طبعة ليبسيك) قال يذكر بناء قريش للكعبة في الجاهلية:

«وزَوَّقوا سقفها وجدرانها من بطنها ودعائمها وجعلوا في دعائمها صور الأنبياء وصور الشجر وصور الملائكة فكان فيها صورة إبراهيم خليل الرحمن ...[٥] وصورة عيسى ابن مريم وأمه، وصور الملائكة عليهم السلام أجمعين، فلما كان يوم فتح مكة دخل رسول الله ﷺ البيت ... وأمر بطمس تلك الصور فطُمِسَتْ ووضع كفيه على صورة عيسى ابن مريم وأمه عليهما السلام، وقال: امحوا جميع الصور إلا ما تحت يدي، فرفع يديه عن عيسى ابن مريم وأمه.»

ثم روي عن عطاء بن أبي رياح «أنه أدرك في البيت تمثال مريم مزوقًا في حِجْرِها عيسى قاعدًا مزوقًا.» وذلك «في العمود الذي يلي الباب.» وأنه «هلك في الحريق في عصر ابن الزبير.» وروي عن ابن شهاب (ص١١٣) «أن امرأة من غسان حجت في حاج العرب، فلما رأت صورة مريم في الكعبة قالت: بأبي وأمي إنك لعربية، فأمر رسول الله ﷺ أن يَمْحُوا تلك الصور إلا ما كان من صورة عيسى ومريم.» وذكر الأزرقي أيضًا (ص٤٥٠) أن في مكة

---

[٥] ذكر المسعودي في مروج الذهب (٤: ١٢٦): «أنه لما انهدمت الكعبة بالسيل سُرِق منها غزال من الذَّهَب وحُلِي وجواهر فنَقَضَتْها قريش وكان في حيطانها صور كثيرة بأنواع من الأصباغ عجيبة منها صورة إبراهيم الخليل في يده الأزلام، ويقابلها صورة إسماعيل ابنه يُجير بالناس مُفِيضًا، والفاروق قائم على وفد الناس يقسم فيهم، وبعد هذه الصورة صور كثيرة من أولادهم إلى قصي بن كلاب وغيرهم في نحو ٦٠ صورة مع كل واحدة من تلك الصور إله صاحبها وكيفية عبادته وما اشتهر من فعله.»

«دارًا لسعد القصير غلام معاوية بناها سعد بالحجارة المنقوشة فيها التماثيل مصورة في الحجارة.» فلا شك أن هذه التماثيل والصور اصطنعها النصارى في عهد الجاهلية، كما عُهد إليهم في زمن المهدي بناء مسجد مكة وتزويقه، قال المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم (ص٧٣) يذكر المهدي: «المسجد اليوم من بنائه، وقد ألبست حيطان الأروقة من الظاهر بالفسيفساء حمل إليها صناع الشام ومصر ألا ترى أسماءَهم عليه.»

وإلى هؤلاء الصَّنَعَة النصارى تُعْزى أيضًا النقوش والتصاوير المختلفة بالفسيفساء التي مر لنا ذكرها في الكلام عن الجامع الأموي في دمشق، وفي الأقصى في القدس الشريف، وفي جامع النبي في المدينة، وكذلك النقوش والتصاوير التي أشرنا إليها في الهندسة المدنية في قصور المشتى، وقُصَيْر عَمْرة والأُخَيْضِر فإنها كلها أعمال صَنَعَة يُدْعَون في الغالب رُومًا، وهم نصارى الشام ومصر والعراق.

ومما وقف عليه أرباب العاديات والسياح في الحقبة الأخيرة كنائس قديمة بعضها مطمور في الأرض يرتقي عهدها إلى القرون الثلاثة قبل الإسلام في العراق وما بين النهرين وجهات الأناضول والأرمن على جدرانها تصاوير شتى يدل بعضها على براعة أصحابها في الفن ونقلت رسومها في المجلات الأثرية أو في تآليف مستقلة.

وكان صنعة الحياكة ينسجون الأقمشة ويزينونها بالصلبان والتصاوير فشاعت بين العرب، وقد ورد ذكرها غير مرة في أخبار نبي الإسلام وفي الحديث (اطلب: مجلة المنار، في مجلدها العشرين، ص٢٢٠–٢٣٠) فمن ذلك ما رواه عن مسلم أن عائشة «سترت جانب بيتها بِقِرَام؛ (أي: ستر أحمر) عليه تصاوير وتماثيل.» وأنها «اشترت نُمْرُقة عليها تصاوير.» وأنها «سَتَرت بابها بدرنوك؛ (أي: طنفسة) فيه الخيل ذات الأجنحة.» وكانت هذه الأنسجة يحيكها أهل اليمن النصارى كما سترى فيزينون نقشها بالتصاوير.

وكانوا يُصَوِّرُون على بعضها الصليب وصور القديسين ويتخذونها كألوية كما ذكرنا سابقًا (ص٣٣٤) عن راية بني تغلب الممثلة لمارسرجس، ومن هذا القبيل راية العُقَاب التي اتخذها خالد بن الوليد في أول عهد الإسلام (اطلب: ياقوت، ٣: ٦٩٠-٦٩١) دعيت بذلك لصورة عُقاب كان منسوجًا فيها.

ومما يدخل في هذا الباب نقود نصرانية عليها صور ملوك وقديسين اتخذها أولياء الأمور والخلفاء في أول الإسلام فطبعوا عليها شعارهم أو عبارة قرآنية يوجد منها شيء في المتاحف الكبرى، وقد ذكرنا في مجلة المشرق (١٨، ١٩٢٠م، ٧٩٩) نقودًا للسلجوقيين وللأرتقيين مُصَورة فيها صور ملوك الروم أو أوليائهم وبعضها يمثل شخص السيد المسيح وأمه الطاهرة.

وبالإجمال يمكننا القول بأن فن التصوير لولا الصَّنَعة النصارى في أنحاء الشرق كان فُقد بعد ظهور الإسلام؛ لأن أصحابه استنكفوا من صناعة التصوير لما وجدوا فيها من العَثْرة، وخَطَر الشِّرْك، واستنادًا لما روي في الحديث: «إن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه كلب أو تصاوير.» وإنه «أشد الناس عذابًا عند الله المصورون.» وأن «كل مُصوِّر في النار.» فكسد لذلك فن التصوير بين المسلمين إلا العجم منهم إلى أن عادوا فاتخذوه زينة وفرَّقُوا بين صور العبادة وغيرها، ولا شك أنهم التجَئُوا إلى النصارى فتعلموه منهم، وبرع فيه بعض المسلمين كالكتامي، والنازوك، والقصير، وابن العزيز الذين ذكرهم المقريزي في كتاب الخطط (٢: ٣١٨) في وصف جامع القرافة، وذكر شيئًا من أعمالهم، وقد قال العلامة غايه (Al. Gayet) في كتابه الصناعة العربية (ص٢٥٠–٢٥٢) «إن ما يوجد في مصر من آثار التصوير والحفر والأشغال الخشبية ونقوش الأنسجة والزجاج كلها مأخوذة عن الصَّنَعَة الأقباط الذين علموا هذه الفنون المسلمين في مصر كما يقر به المسلمون أنفسهم.»

(٤) فن الموسيقى[٦] والغناء

الموسيقى من أَجلِّ الفنون الجميلة، غايتُها تأليف الألحان، وتَناسُب النغمات، وتَنظيم الأوزان المُحرِّكة للنفس تحريكًا ملذًّا، فمنها الموسيقى الطبيعية لتلحين الأصوات البشرية والآلية المتخذة من آلات الطَّرَب؛ كالعود والأرغن، وكلتاهما إما دينية لتمجيد الله وتحريك القلوب على خدمته، وإما مدنية ليسلو بها الإنسان عن أَشجانِه، وتطرب بنغماتها

[٦] أَقدمُ ما يُذْكَر عن الغناء بين العرب ما كتبه المؤرخ سوزمان عن بني غسان النصارى في القرن الرابع للمسيح (Sozoméne, HE, VI, 8383) حيث قال: إن الغسانيين كانوا يَتغَنَّون بحوادث قومهم وبحروبهم مع الرومان في عهد ملكتهم النصرانية ماوية وهذا: Hæc gesta multi ex earum regionum incolis, etiamnum commemorant et apud Sarracenos vulgo cantibus celebrantur.

ولا شك أن العرب أخذوا الغناء من الأمم المجاورة لهم كالنبط والروم والفرس (اطلب: مروج الذهب للمسعودي، ٨: ٩١)، ولابن خلدون في مقدمته فصل حسن في صناعة الغناء وفي تأثير الأمم في غناء العرب، ومما قال:

«إن المُغَنِّين من الفُرس والروم وقَعوا إلى الحجاز وصاروا موالي للعرب وغَنَّوا جميعًا بالعيدان والطنابير والمعازف، وسمع العرب تلحينهم الأصوات فلَحَّنُوا عليها أشعارهم، وظهر بالمدينة نشيط الفارسي، وطُوَيس، وسائب خاثر مولى عبد الله بن جعفر، فسَمِعوا شعر العرب ولَحَّنُوه وأجادوا فيه وطار لهم ذِكْر ثم أخذ عنهم مَعْبَد وطبقته وابن سُرَيج وأنظاره، وما زالت صناعة الغناء تَتدرَّج إلى أن كَملتْ أيام بني العباس.»

الصُّدُور، وتَتشنَّف بألحانها الآذان، فتُهيِّج في سامعيها مختلف العواطف اللَّيِّنَة أو الشديدة، المُحْزِنة أو المُبْهِجة على حسب إيقاعها؛ ولذلك قال بعضهم: إن الغناء غِذاء الأرواح، كما أن الشراب غِذاء الأشباح.

ولم يكن العرب ليجهلوا هذا الفن وبعض أصوله في الجاهلية كما يُؤْخَذ من روايات شتى أثبتها أبو الفرج الأصفهاني في كتابه الشهير بالأغاني، وربما دلَّ على بعض أوزانه ونغَمَاته بمفردات كان اصطلح عليها قدماء المُغَنِّين فكشف بعض المحدثين شيئًا من أسرارها.[7]

هذا في غناء أهل الحضر، أما عرب البادية فلم يعرفوا إلا القليل من هذا الفن كالحداء لسَوْق إبلهم وكالبسيط من التَّلاحِين يُسمُّونها بالتَّرنُّم والتهليل والسِّناد والهَزَج. قال ابن خلدون في المقدمة (٢: ٣٥٩، من طبعة باريس): «وهذا كله من أوائل التَّلاحين لا يبعد أن تَتفطَّن له الطباع من غير تعليم، شأن البسائط كلها من الصنائع، ولم يَزل هذا شأن العرب في بداوتهم وجاهليتهم.»

ولا نَشكُّ أن نصارى العرب في الجاهلية أحرَزُوا لهم فخرًا في هذا الفن كما أصابوه بالفنون الجميلة السابق ذكرها، وذلك في قسمي الموسيقى الدينية والمَدنِيَّة معًا.

(١) الموسيقى الدينية

أثبتنا فيما سبق لنا من الكلام كم كان لنصارى العرب من كنائس وأديار وصوامع ومقامات دينية شتى في كل أنحاء الجزيرة في شمالها وجنوبها وأواسطها كانت تُقام فيها الحفلات الدينية، ومن المعلوم أن الرُّتب النصرانية تُباشَر غالبًا بالغناء والترتيل، سواء أُنْشِدَت التسابيح التقوية، أو تُلِيَت المزامير والصلوات الفرضية، وذلك منذ أوائل النصرانية كما وَرَد في رسائل القديس بولس حيث قال لأهل أفسس (٥: ١٨–١٩):

وقد عيَّن ابن عبد ربه في العقد (٣: ٢٣٧) الأمكنة التي شاع فيها الغناء قال:

«إنما كان أصل الغناء في أمهات القرى في بلاد العرب ظاهرًا فاشيًا؛ وهي: المدينة والطائف وخيبر ووادي القرى ودَوْمة الجندل واليمامة، وهذه القرى مَجامع أسواق العرب.»

[7] اطلب: مقالات حضرة الأب كولنجت عن الموسيقى العربية، في المجلة الآسيوية الفرنساوية (Journal Asiatique, 1905. IV. 365 et VIII. 149).

«امْتلِئُوا من الروح متحاورين فيما بينكم بمزامير وتسابيح وأغاني روحية ومُرنِّمِين ومُرتِّلِين في قلوبكم للرب.» ومثله قوله لأهل كولسي (٣: ١٦).

وقد ورد في كُتُب العرب أن الرهبان كانوا إذا خافوا المَلالة والفتور على أبدانهم تَرنَّمُوا بالألحان واستراحت إليه أنفسهم، وقال الأبشيهي في «المُستطرَف في كل فن مستظرف» (٢: ١٧٧): «لأهل الرهبانية نَغَمات وألحان شَجِيَّة يُمجِّدُون الله تعالى بها ويبكون على خطاياهم ويتذكرون نعيم الآخرة.» وقد قِيل في مُغَنٍّ منهم (ياقوت، ٢: ٦٩١):

إذا رَجعَ الإنجيلُ واهتَزَّ مائدًا   تَذكَّر محزونٌ وحَنَّ غريبُ
وهاج لقَلْبِي عندَ ترجيعِ صَوتِهِ   بلابلُ أسقام به ووجيبُ

وقيل في غيرهم (٢: ٦٩٥):

إني طربتُ لرُهبانٍ مُجاوبةٍ   بالقُدْس بعد هُدُوٍّ الليلِ رهبانا

وفي الشعر الجاهلي ألفاظ أطلقوها على غناء القسوس والرهبان، فيقولون «هَيْنَم القس» إذا نَغَّم بخفوت الصوت، قال أيمن بن خريم يشير إلى تقديس الكأس عند النصارى (الأغاني، ١٦: ٤٥):

ولم يَشهدِ القسُّ المُهَيْنِمُ نارَها   طروقًا ولا صَلَّى على طَبْخِها حَبْرُ

ومثلُه «زَمزمَ»؛ أي طرب في صَوتِه خفيًّا، قال الأعشى في المعنى (شعراء النصرانية، ص٣٧٨):

لها حارس لا يَبرحُ الدهرَ بينها   وإن ذُبحت صَلَّى عليها وزَمْزَما

وإذا رفع صوته بالدعاء قالوا: «سَبَّح»، وأنشدوا:

وما سَبَّح الرُّهبانُ في كل بِيعَةٍ   أبيلُ الأَبِيلينَ المسيحَ ابنَ مَرْيَما

وإذا تَغنَّى القس بقراءته قيل: شَمْعَل، وإذا أطْلَق صوته بالدعاء قِيل: جَأَر. قال ربيعة بن مقروم في وصفه راهبًا (الأغاني، ١٩: ٩٢):

جَئَّار سَاعاتِ النِّيامِ لربِّه حتَّى تَخدَّد لَحمُهُ مُتَشمْعِلِ

(قال): المُتَشَمْعِل المُتَغَنِّي في تلاوة الزَّبُور، وقال عدي بن زيد النصراني يُقْسِم برئيس دينه:

إنَّنِي واللهِ فاقبلْ حَلْفَتي بأَبيلٍ كُلَّما صَلَّى جَأَرْ

وقولهم: «رجَّع الإنجيل»: إذا ردَّد نَغماتِه في حلْقِه، وقد مر، ومثله التلحين في قراءة الإنجيل، وجاء في الحديث (إرشاد الأنام، للشيخ علي سالم، ص١٩؛ وفي الجامع الأصغر): «إيَّاكم ولُحون أهل الكتابين؛ أي التوراة والإنجيل، وهم اليهود والنصارى، فإنهم يُراعُون حسن الصوت ولا يَلتَفِتُون إلى تَدبُّر المعنى.» (كذا)، فمِن هذا كله ترى ما كان من المقام السَّنِيِّ للغناء الديني بين نصارى العرب.

ولما ظهر الإسلام وشاع القرآن بين أهله أخذوا قراءته وتَلحِينَه من قراءة وتلحين نصارى العرب، روى الفاكهي في كتاب أخبار أم القرى (ص٩) عن عائشة قالت: سمع النبي ﷺ قراءة أبي موسى الأشعري فقال: «لقد أُوتِي هذا من مزامير داوُد.» وجاء في الحديث في الجامع الأصغر (اطلب: إرشاد الأنام، للشيخ علي سالم، ص١٧ و١٩): «سَيجيء بعدي قومٌ يُرَجِّعُون بالقرآن تَرجيع الغناء والرهبانية والنَّوْح لا يُجاوِز حناجرهم مفتونة قلوبهم بقلوب مَن يعجبهم شأنهم.» وروي أيضًا في الحديث: «اقرءوا القرآن بلحون العرب وإياكم لحون أهل الكتابين.»

(١-٢) الموسيقى المدنية

راجتْ في الجاهلية في دُور الملوك من تَبَابِعة وغَساسنة ومَناذرة، وقد عرف القراء من فصولنا السابقة نفوذ النصرانية بين هؤلاء الملوك الذين تَقَلَّدوا في أفراحهم عادات الشعوب المجاورة لهم، لا سيما اليونان والفرس والروم، والدليل على ذلك ما قاله المسعودي في مروج الذهب (٨: ٩٩): «إن العود عند أكثر الأمم وَجَل الحكماء يوناني صنعه أصحاب الهندسة على هيئة طبائع الإنسان.» ثم إن كثيرًا من الألفاظ الدالة على أدوات الغناء

دخيلة فممَّا استعاروه من الروم «الأرغن ὄρϒανον»، و«البَرْبَط βάρβιτος»، و«السَّنْطور ψαλτήριον»، و«القانون ϰανών»، و«القيثار ϰιϐάρα». وكانوا يأتون بالقِيَان الروميات وغيرهن كما روى حسان بن ثابت في وصفه لبعض الحفلات التي احتفل بها ملكُ غَسان جبلة بن الأيهم قال (أغاني، ١٦: ١٥): «لقد رأيتُ عشر قيانٍ؛ خمس روميات يُغَنِّين بالرومية بالبرابط، وخمس يُغَنِّين غناءَ أهل الحيرة.» أهداهن إليه إياس بن قبيصة.

ومنه يتضح أن الغناء والأدوات الموسيقية استعارها العرب من الأمم المجاورة لا سيما النصرانية، أما أهل البادية فبقي هذا الفن بينهم في بساطته على موجب معرفتهم الفطرية، وقد شهد على ذلك أبو الفرج في كتابه الأغاني، قال يذكر عمر بن الخطاب أول الخلفاء الراشدين ومفندًا قول ابن خرداذبه (٨: ١٣٩):

«ولا كان الغناء العربي أيضًا عُرِفَ في زمانه إلا ما كانت العرب تستعمله من النَّصب والحداء، وذلك جارٍ مَجْرى الإنشاد، إلا أنه يقع بتطريب وترجيع يسيرٍ ورفْعٍ للصوت ... وأوَّلُ مَن دُوِّنَت له صَنعَتُه منهم؛ (أي من الخلفاء) عمر بن عبد العزيز فإنه ذكر عنه أنه صَنَع في أيام إمارته على الحجاز سبعة ألحان ... ومن الناس من ينكر أن تكون لعمر بن عبد العزيز هذه الصَّنْعَة ... ولم يوجد في وقت من الأوقات ولا حال من الحالات اشتهر بالغناء ولا عُرِف به ولا بمعاشرة أهله ... ومخالفوهم قد أيدتهم أخبار رويت.»

وفي أيام بني أمية اشتهر أوَّل المُغَنِّين من العرب؛ وهم: أبو يحيى عُبَيد الله بن سُرَيج المُتوفَّى بالجذام في زمن هشام بن عبد الملك، ثم أبو الخطاب مسلم بن محرز، وكان أصله من الفُرْس، ثم سعيد بن وهب كان أبوه أسود، وكان هو خلاسيًّا، مات في أيام الوليد بن يزيد في دمشق، ثم الغريض واسمه أبو يزيد، وقيل: أبو مروان عبد الملك، وأبو الوليد مالك بن أبي السَّمْح، وسبقهم أبو عثمان سعيد بن مسحج، وكان في أيام معاوية.

ولا شك أن نصارى العراق والروم مع أهلِ فارس هم الذين عَلَّمُوا هؤلاء فنَّ الغناء. قال أبو الفرج في كتاب الأغاني (ص٣: ٨٤)، وقوله حجة في هذا الباب، في ترجمة ابن مُسْحج أنه:

«مِكِّي أَسْوَد مُغَنٍّ مُتقدِّم من فحول المُغَنِّين وأكابرهم وأول من صنع الغناء منهم، ونَقَل غناء الفُرْس إلى غناء العرب، ثم رحل إلى الشام وأخذ ألحان الروم والبَرْبَطِيَّة والإسطوخوسِيَّة؛ (أي تنظيم الأوزان) (στοιχείωσις)، وانقلب إلى فارس فأخذ بها غناءً كثيرًا وتَعلَّم الضرب، ثم قدم إلى الحجاز، وقد أخذ مَحاسن تلك النَّغَم وألقى منها ما

اسْتَقْبَحه من النَّبَرات والنَّغَم التي هي موجودة في نَغَم غناء الفُرْس والروم خارجة عن غناء العرب، وغنَّى على هذا المذهب فكان أول من أثبت ذلك ولَحَّنَه وتَبِعَه الناس بعدُ … وهو الذي علم ابن سُرَيْج والغريض.»

وجاء له في محلٍّ آخر عن الغريض (٢: ١٤٦):

«قال هارون بن محمد الزيات: حدثني حماد بن إسحاق عن أبيه أن الغريض سمع أصوات رهبان بالليل في دير لهم فاستحسنها فقال له من معه: يا أبا يزيد صغ على مثل هذا الصوت لحنًا، فصاغ مثله في لحنه: «يا أم بكر …» فما سمع بأحسن منه.»

فترى تأثير غناء النصارى والرهبان في الغناء العربي في الإسلام، ولنا ما هو أشهر من ذلك نريد به ترجمة بعض المُغَنِّين من الذين ذكرهم أبو الفرج وغيره من كَتَبَة العرب، فمنهم حُنَين الحيري من فحول المغنين، روى أبو الفرج ترجمته[٨] في الأغاني (٢: ١٢٠–١٢٧) وقال هناك: إنه من العباديين وأخواله من بني الحرث بن كعب النصارى كان في أيام بني أمية، وهو من أهل الحيرة، وكان مُغرَمًا بالغناء فاتصل إلى أن نبغ فيه وفي صناعة العود، وكان نَسِيجَ وَحْدِه في العراق فبلغ خبرُه المُغنِّين في الحجاز ابن سريج والغريض ومعبد، فكتبوا إليه ووجهوا إليه نفقة ليشخص إليهم فخرج إلى الحجاز وسكن في بيت سكينة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب فمات عندها؛ وذلك لأن الناس ازدحموا على سطح بيتها ليسمعوا غناءه فسقط الرواق ومات حُنَين تحت الردم، وجاء في الفهرست لابن النديم (ص١٤١) أن لإسحاق الموصلي كتابًا في أخبار حُنَين الحيري.

واشتهر في الغناء في أوائل الإسلام من النصارى غير حنين، منهم عون الحيري، وكان عباديًّا أيضًا، ذكره صاحب الأغاني (٢: ١٢٥؛ و١٠: ١٣٥)، وذكر برصوما المزمر (٥: ٣٤ و٤٦ … إلخ)، وذكر أيضًا بعض الحيريين وبه يثبت قولنا: إن للنصرانية في عهد الجاهلية وأوائل الإسلام فضلًا في إشاعة الغناء والموسيقى العامية والمدنية كما أشاعوا بين العرب الغناء والموسيقى الدينية، وكانت طريقتهم في الغناء على النمط القديم المُستحسَن إلى أن اشتهر في أيام الرشيد أخوه إبراهيم بن المهدي الذي قال عنه أبو الفرج في الأغاني (٩: ٣٥): إنه «هو أول من أفسد الغناء القديم وجعل للناس طريقًا إلى الجسارة على تغييره.»

[٨] اطلب: المجلة الآسيوية الفرنسوية (Journ. As., 1873^{b}, 425–433).

الفصل الحادي عشر

العلوم والصنائع بين نصارى العرب

بديهي أن عيشة العرب الساذجة في البوادي تحت الخِيَم بين الشَّاءِ والنُّوق لا تحتاج إلى علوم واسعة وصنائع راقية، وأحسن ما قيل في ذلك ما ورد في كتاب طبقات الأمم للقاضي أبي قاسم صاعد الأندلسي[١] حيث بَيَّن إجمالًا ما كان عليه العرب من البداوة وقلة الاكتراث بالعلوم، سواء كانوا من أهل المدر أو أهل الوبر، حتى قال: إنهم «لم يكن فيهم عالِم مذكور ولا حكيم مشهور.» على أنه استثنى منهم أهل اليمن وبني حِمْيَر فسلم لهم بالمعارف الدَّالة عليها الآثار الباقية من عهدهم وخصَّ منها علم النجوم، وعلم الهندسة، وكذلك لم ينكر أن لبقية العرب في عهد الجاهلية وأول ظهور الإسلام إلمامًا في مرئيات الفَلَك والمَواقيت والطِّبِّ، ومعرفة ببعض الصنائع، وها نحن نذكر هنا ما يثبت قولنا في نفوذ النصرانية بين عرب الجاهلية من جهة بعض العلوم والصنائع.

(١) العلوم بين عرب الجاهلية

ذكرنا منها في فصل الفنون الجميلة «علم الهندسة»، وما كان للنصارى من الفضل في الآثار البنائية الدينية والمدنية قبل الهجرة وفي أول الإسلام فليُراجَع، ونضيف إلى قولنا هناك أن النصارى أوَّل مَن نقل إلى العربية كتب أوقليدوس في الهندسة، وذلك في صدر الدولة العباسية نقله أولًا الحجاج بن يوسف بن مطر، ثم ثابت بن قُرَّة، فبقي علينا أن نثبت ما أداه النصارى للعرب من الخدم في علوم الطب والنبات والنجوم والفقه، أما الشعر والعلوم اللُّغَوِيَّة فسنفرد لها بابًا آخر.

[١] راجع: طبعتنا، ص٤١–٤٧، التي سعينا بنشرها مع شروح وفهارس سنة ١٩١٢م، فاختلسها عبد الرءوف أفندي الدَّبَّاغ ونَشَرَها في مصر بعد تجريدها عن فوائدها.

(١-١) الطب

قال صاعد (ص٤٧): «إن صناعة الطب كانت موجودة عند جماهير العرب لحاجة الناس طرًّا إليها.» لكن هذا العلم قد اقتبسوه من الأمم النصرانية المُجاوِرة، ولا سيما من الكلدان والسريان واليونان، وكان للسريان مدارس طبية ومستشفيات في العراق وفارس في جنديسابور، وكذلك اليونان اشتهرت مدرستهم الطبية في الإسكندرية، فإن تَصَفَّحْنَا التواريخ القديمة وجَدْنَا أن الطب شاع بين العرب بواسطة حكماء نصارى أو متطببين من تلامذتهم.

فَمِمَّن سبقوا الإسلام وجاء ذكرهم في تواريخ الأطباء تِيادُروس، قال ابن النديم في الفهرست (ص٣٠٣)، ونقله عنه ابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء في طبقات الأطباء (١: ٣٠٧): «تِيادروس كان نصرانيًّا وله معرفة جيدة بصناعة الطب ومحاولة لإعمالها وبنَى له سابور ذو الأكتاف البِيَع في بلده ويقال: إن الذي بَنَى له البِيَع بهرام جور، ولتيادروس من الكتب كُنَّاش (أي مجموع طبي).»

وقد سبق عهد الإسلام أيضًا أطباء سريان أو رُوم شاعُوا عند العرب كأَهْرَن بن أَعين المعروف بالقس الذي وضع كناشًا بالسريانية في ٣٠ مقالة، قال ابن جلجل: إن عمر بن عبد العزيز وجده في خزائن الكتب فأمر ماسرجويه اليهودي بإخراجه فوَضَعه في مُصلَّاه واستَخَار الله في إخراجه إلى المسلمين للانتفاع به. (ابن أبي أصيبعة، ١: ١٦٣)، وكشَمْعُون الراهب المعروف بطيبويه (١: ١٠٩)، وكسرجيس الراسعيني أول ناقل كتب اليونان إلى السريانية، وكسرابيون ويوحنا ابنه من أهل بَاجَرمَى، فليوحنا كتاب كُنَّاش كبير في سبع مقالات، وذكر ابن بختيشوع في تاريخه من الأطباء الروميين إصطفن الحراني وأقرن الرومي (تاريخ الحكماء، للقفطي، ص٥٦)، وذكروا طبيبًا آخر روميًّا يدعونه أنسطاس، ولم يعرفوا زمانه ضربوا به المثل في الحذق بالطب، وقيل: من اسمه اشتقوا اللفظة العربية النطس أو النطاسي (تاج العروس، ٤: ٢٥٨).

قال أوس بن حجر يذكر رجلًا من تيم الرباب اسمه حذيم، ضُرِب المثلُ بحذقه في الطب:

فهل لكم فيها إليَّ فإنَّني طبيبٌ بها أعيا النِّطاسِيَّ حِذْيَمَا

وأشهر من هؤلاء الحارث بن كَلَدة الثقفي المعروف بطبيب العرب، كان من نصارى النساطرة، وقد اتسع في ترجمته وذكر مآثره الطبية كثيرون من كتبة العرب، كالقفطي في تاريخ الحكماء (ص١٦١)، وابن أبي أصيبعة (١: ١٠٩)، وابن قتيبة في المعارف (ص٩٨)، وذكر له ابن عبد ربه شعرًا (في العقد الفريد، ٣: ١١٤) قالوا: إنه كان من الطائف وسافر إلى بلاد فارس وأخذ الطب من نصارى جنديسابور وغيرها، وبرز في صناعة الطب وطبب في فارس وعالج بعض أجِلَّائهم فبرئوا وحصل له بذلك مال كثير، ثم رجع إلى بلده الطائف وأدرك الإسلام فاتخذه صاحبه كطبيب، وكان محمد يأمر مَن به علة أن يأتيه، وبقي إلى أيام معاوية، قال أبو زيد: «وكانت للحارث مُعالجات كثيرة ومعرفة بما كانت العرب تعتاده وتحتاج إليه.» وقد ذكروا له حكمًا وأقاويل عديدة تدل على ثقوب عقله وكثرة علمه، وقالوا: إنه أسلم لكن إسلامه لم يصح.

وتَبِع الحارثَ ابنُه النَّضرُ بن الحارث بن كَلَدة، وهو ابنُ خالة نبي المسلمين، قال ابن أبي أصيبعة (١: ١١٣): «وكان النَّضر قد سافر البلاد أيضًا كأبيه واجتمع مع الأفاضل والعلماء بمكة وغيرها وعاشَر الأحبار والكهنة واشتغل وحصل من العلوم القديمة أشياء جليلة القدر واطلع على علوم الفلسفة وأجزاء الحكمة، وتعلم من أبيه أيضًا ما كان يعلمه من الطب وغيره.» ثم ذَكَر مُعاداته لمحمد وسعيه بأذاه إلى أن كان يوم بدر فانتصر محمد وأنصاره على أعدائهم، وكان النَّضر من جملة المأسورين فأمَرَ بقتله (سنة ٦٢٤م)، وقد روينا سابقًا رثاء أخته قتيلة له (اطلب: الأغاني، ١: ١٠)، وقول محمد عندما سمع أبياتها: «لو سمعت هذا قبل أن أقتله ما قَتلتُه.»

وقد ذُكر من الأطباء النصارى في صدر الإسلام عبد الملك بن أبجر الكناني، قال فيه ابن أبي أصيبعة (١: ١١٦): «كان طبيبًا عالمًا ماهرًا، وكان مقيمًا في أول أمره في الإسكندرية؛ لأنه كان متولي التدريس بها من بعد الإسكندرانيين، وذلك عندما كانت البلاد في ذلك الوقت لملوك النصارى، ثم إن المسلمين لما استولوا على البلاد وملكوا الإسكندرية أسلم ابن أبجر على يد عمر بن عبد العزيز، وكان حينئذٍ أميرًا قبل أن تصل إليه الخلافة وصحبه، فلما أفضت الخلافة إلى عمر وذلك في صفر سنة ٩٩ للهجرة، نقل التدريس إلى أنطاكية وحَرَّان وتَفرَّق في البلاد، وكان عمر بن عبد لعزيز يَستطِبُّ ابن بجير ويعتمد عليه في صناعة الطب.»

واشتهر في الطب غير هؤلاء من نصارى العرب في أوائل الإسلام، ذكر منهم القفطي وابن أبي أصيبعة الطبيب ابن الأثال، قال في طبقات الأطباء (١: ١١٦): «كان طبيبًا

متقدمًا من الأطباء المتميزين في دمشق نصراني المذهب، ولما ملك معاوية بن أبي سفيان دمشق اصطفاه لنفسه وأحسن إليه، وكان كثير الافتقاد له والاعتقاد فيه، والمحادَثة معه ليلًا ونهارًا، وكان خبيرًا بالأدوية المفردة والمركبة.» وقد روي في الأغاني (١٥: ١٣) كيف قتله خالد بن المهاجر؛ لأنه سقى بأمر معاوية سُمًّا عَمَّه عبد الرحمن بن خالد.

واشتهر أيضًا في أيام معاوية الطبيب النصراني أبو الحكم الدمشقي، قال ابن أبي أصيبعة (١: ١١٩): «كان طبيبًا نصرانيًّا عالمًا بأنواع العلاج والأدوية، وله أعمال مذكورة وصفات مشهورة، وكان يستطبه معاوية ويعتمد عليه في تركيبات أدوية لأغراض قصدها منه، وعُمِّر أبو الحكم عُمْرًا طويلًا حتى تجاوز المائة سنة.» ثم ذكر ابنه الحكم وحفيده عيسى بن الحكم، وجرى كلاهما على خطته متطببين وماتَا في عهد الدولة العباسية.

ومن مشاهير الأطباء المسيحيين في أوائل الدولة الأموية تياذوق وثاودون «كان تياذوق طبيبًا فاضلًا، وله نوادر وألفاظ مستحسنة في صناعة الطب، وكان في أول دولة بني أمية ومشهورًا عندهم بالطب، وصحب أيضًا الحجاج بن يوسف الثقفي المتولي من جهة عبد الملك بن مروان وخدمه بصناعة الطب، وكان يعتمد عليه ويثق بمداواته، وكان له منه الجامكية الوافرة والافتقاد الكثير ... ومات تياذوق بعدما أسن وكبر، وكانت وفاته في واسط في نحو سنة ٩٠ للهجرة، وله من الكتب كُنَّاش كبير أَلَّفه لابنه، وكتاب إبدال الأدوية وكيفية دقها وإيقاعها وإذابتها.» (ابن أبي أصيبعة، ١: ١٢١). أما ثاودون فذكره ابن العبري في تاريخه (ص١٩٤) وذكر له أيضًا كُنَّاشًا، ولم نجد له ذكرًا في غيره.

ومن مشاهير أطباء العرب ما رواه صاحب نقائض جرير والأخطل (ص٢٣٠) «أن في يوم ماكسين قُتل رجلان تغلبيان من بني الطبيب يقال لهما: الآسيان يدعى أحدهما الأحمر.»

فترى صدق قولنا في فضل النصارى العرب في فن الطب والمعالجات، أما فن الجراحة فزَاوَلها رجل نصراني من تميم على عهد رسول الإسلام اسمه ابن أبي رمثة، ذكره ابن أبي أصيبعة (١: ١١٦) قال: إنه كان مزاولًا لأعمال اليد وصناعة الجراحة، وقد صحفه المرحوم جرجي زيدان في كتاب التمدن الإسلامي (٣: ٢١) بابن أبي رومية.

(١-٢) علم النبات

يلحق العرب علم النبات بعلم الطب الذي يستمد منه مواده وأدويته، وذلك ما يَدْعُونه بالمفردات ومنها يستحضر الأطباء أدويتهم فيُعِدُّون المُركَّبَات، ولا جَرَم أن العرب في

الجاهلية عرفوا كثيرًا من النباتات التي تنمو في جزيرتهم وعَلِمُوا بالتجربة فوائدها الغذائية والعلاجية، والدليل عليه ما ورد في معاجمهم من أسماء النباتات التي جمع منها الأصمعي كتابًا دعاه كتاب النبات والشجر، نشره الدكتور هفنر في مجموعنا الموسوم بالبلغة في شذور اللغة (ص١٧–٦٢)، ونشر أيضًا للأصمعي كتاب النخل والكرم (٦٣–٩٨).

غير أن هذه اللغويات لا يحصل منها علم مفيد إلا بمعرفة خواص تلك المفردات ومنافع كل صنف من النبات، وقد أصبح النصارى في هذا العلم كما في علم الطب قومًا وسطًا بين القدماء والعرب، فإن الأطباء الذين مر ذكرهم إذ درسوا في مدارس الإسكندرية وجنديسابور اقتبسوا منها أيضًا علم النبات الصالح للطب والغذاء، والدليل عليه فصول أوردها ابن أبي أصيبعة وغيره من الكتبة للحارث بن كلدة فيها عدة أوصاف للأدوية النباتية وللأشجار والأثمار والحشائش، ذكرها في محاورة جرت له بينه وبين كسرى أنوشروان.

وكذلك تآليفهم التي دعوها بالكناشات، وهي لفظة سريانية يراد بها المجاميع الطبية وأوصاف الأدوية المتخذة عمومًا من النبات.

ولعل هؤلاء الأطباء درسوا كتاب ديسقوريدس العين زربي اليوناني في النبات والحشائش والأدوية المفردة في أصله اليوناني وعليه كان المعول في الطب القديم، أما ترجمته العربية فكان النصارى أيضًا أول المقدمين عليها، قال ابن جلجل (في طبقات الأطباء، ٢: ٤٦–٤٨): «إن كتاب ديسقوريدس ترجم بمدينة السلام في الدولة العباسية في أيام جعفر المتوكل، وكان المترجم له إصطفن بن بسيل الترجمان من اللسان اليوناني إلى اللسان العربي، وتصفح ذلك حنين بن إسحاق المترجم فصحح الترجمة وأجازها.» ثم قال ما خلاصته: إن إصطفن كان أبقى أسماء كثيرة من النباتات على لفظها اليوناني لجهله ما يوافقها في اللسان العربي، وبقي الأمر كذلك إلى أن أرسل ملك الروم إلى صاحب الأندلس الملك الناصر عبد الرحمن نسخة من كتاب ديقوريدس مع صور الحشائش بألوانها ثم أرسل إليه راهبًا يدعى نيقولا جاء إلى قرطبة سنة ٣٤٠هـ/ ٩٥١م، وأعاد النظر في ترجمة إصطفن فصححها ووضع للنباتات أسماءً عربية موافقة لها، وذلك بصحبة أطباء وجدهم هناك ذوي معرفة بالنباتات والعقاقير فصارت هذه الترجمة هي المعول عليها واستفاد منها ابن جلجل وابن البيطار في تآليفهما عن المفردات، ثم كان لجالينوس أيضًا تأليف في النبات عَرَّبه حنين بن إسحاق.

(١-٣) علم النجوم

إن صفاء أَديم السماء في أنحاء جزيرة العرب في معظم ليالي السنة لَمِمَّا أَلْفتَ أنظار أهلها إلى ما زَيَّن به الله الأفلاك من النجوم والكواكب والسيارات فعرفوها منذ سالف الأعصار ودَلُّوا إليها بأسماء شاعتْ بعدئذٍ بين الأمم الغربية، وهي لا تزال إلى اليوم جارية على لفظها العربي بين أرباب الفَلَك، وكان مما يبعث هِمَّتَهم إلى رصد الفلك ومراقبة النجوم حاجتهم إليها ليهتدوا بها في أسفارهم، وهم قوم رُحَّل يقطعون البراري والأقفار، ومنهم القوافل التي كان عليها المُعتمَد في المواصلات بين الهند وفارس وسواحل الشام، وكانوا استفادوا شيئًا كثيرًا من ذلك بمجاورتهم للكلدان الذين سبقوا جميع الأمم في علم الفلك، فأخذوا عنهم الأنواء الجَوِّيَّة وحركات السيارات ومنازل القمر ومنطقة البروج، وفي الشعر القديم آثار من ذلك.

ولنا شاهد في سِفْر أيوب على معرفة العرب لأسماء النجوم وحركاتها في الفلك، إذ كان أيوب النبي عربيَّ الأصل عاش في غربي الجزيرة حيث امتحن الله صبره، وكذلك في المجوس الذين اهتدوا بالنجم إلى مذود السيد المسيح شاهِد آخَرُ على قولنا، والمجوس على رأي كثيرين من الآباء من شيوخ العرب، على أن هذا العلم كبقية العلوم كان عند العرب عمليًّا ليس نظريًّا. ريثما قام بينهم وفي جيرتهم من يبحث فيه بحثًا مدققًا، وكان السريان أول من فعلوا ذلك منهم برديصان المبتدع (راجع ترجمته في: المشرق، ١٨: ٩٧٧)، ومنهم سرجيوس الراس عيني، ويعقوب الرُّهَاوي، وجرجس المعروف بأسقف العرب، وساويرس سِبوكت وغيرهم، وتآليفهم باقية إلى يومنا في خزائن كتب أوروبة الكبرى، منها ترجمتهم لعدة مصنفات يونانية لجالينوس، ولا سيما لبطليموس القلوذي، فإنهم نَقَلوا كتابه المجسطي، وهو أفضل وأمتع كتاب وضعه اليونان في علم الهيئة، ثم تولَّى بعدهم تعريبه وتفسيره علماء النصارى؛ أولهم حُنَين بن إسحاق، ثم الحجاج بن يوسف بن مطر الكوفي، وثابت بن قُرَّة في عهد المأمون، ثم عبد المسيح بن ناعمة الحِمْصي فأصبح مذ ذاك علم النجوم زاهرًا في الإسلام.

(١-٤) الفقه

هو علم الأحكام الشرعية العملية، ولم يكن للعرب أن يستغنوا عنه، وهو إما ديني وإما مدني، وللنصارى في كليهما بعض الآثار بين عرب الجاهلية.

فأما الفِقْه الديني فكان نصارى العرب يتبعون أحكامه المنصوصة في المَجامِع العمومية والخصوصية التي كان يعلن بها أساقفتهم في أنحاء الجزيرة، وكانت هذه الأحكام مكتوبة إما باللغة السريانية كما ترى في المجامع النسطورية التي نُشِرَت بالطبع (راجع القسم الأول، [الباب السادس]) وإما باللغة اليونانية كالحقوق القانونية التي وضعها القديس جرجنسيوس رسول الحِمْيَرِيين بعد موت شهداء نجران (القسم الأول، [الباب الخامس]).

وأما الفقه المدني فغلب على المُتَنَصِّرين من بني غسان والقبائل المجاورة للفرات وما بين النهرين الفقه الروماني كما نظمه الملك يوستنيان، ولما جاء الإسلام أدخلوا كثيرًا من أحكامه في الفقه الإسلامي كما بين ذلك العلماء الأوروبيون.

وكان لقبائل العرب قضاةٌ نَجِدُ بينهم بعضًا من الدائنين بالنصرانية نخص منهم بالذِّكْر قس بن ساعدة أسقف نجران المدعو بحكيم العرب وحكمهم، وزهير بن جناب القضاعي، وذو الإصبع العدواني (راجع تراجمهم في: شعراء النصرانية).

وقد اشتهر في الجاهلية قضاة بني تميم وأغلبهم نصارى بينهم أسقف نصراني مَرَّ لنا ذكره [القسم الأول، الفصل الثاني والأعلام النصرانية الجغرافية]، وهو محمد بن سفيان بن مجاشع بن دارم (نقائض جرير والفرزدق، ص٤٥٣)، وقد ورَدَ هناك عن حكام تميم ما حرفه [القسم الأول، الفصل الثاني]: «كان حُكَّام بني تميم في الجاهلية ستة: ربيعة بن محاسن أحد بني أسيد بن عمرو بن تميم، وزرارة بن عدس بن زيد بن عبد الله بن دارم، وضمرة بن ضمرة النَّهْشَلي، وأكثم بن صيفي، وأبوه صيفي من بني أسيد بن عمرو، والأقرع بن حابس، حتى بعث الله نبيه محمدًا ﷺ، وهو الأقرع بن حابس بن عقال بن محمد بن سفين بن مجاشع.» وقال في تفسير قول جرير (ص٤٣٨): «ونحن الحاكمون في عكاظ.»: إن الحكام والأئمة في الموسم (أي عكاظ) كانوا بعد عامر بن ظَرِب في بني تميم، فكان الرجل يلي الموسم منهم ويلي غيره القضاء، فكان مَن اجتمع له الموسم والقضاء جميعًا سعد بن زيد مناة بن تميم، ثم وَلِي ذلك حنظلة بن مالك بن زيد مناة، ووليه ذُؤَيب بن كعب بن عمرو بن تميم، ثم وليه مازن بن مالك بن عمرو بن تميم، ثم الأضبط بن قريع بن عوف بن كعب بن سعد، ثم صلصل بن أوس بن مخاشن بن معاوية بن شريف بن جروة، وكان آخِرَ تميمي اجتمع له القضاء والموسم سفيان بن مجاشع فمات حتى جاء الإسلام، وكان محمد بن سُفَيْن بن مجاشع يقضي بعكاظ فصار ميراثًا لهم، فكان آخر من قضى منهم الذي وصل إلى الإسلام الأقرع بن حابس.

(٢) الصنائع بين عرب الجاهلية

إن كان العرب في الجاهلية قد استغنوا عن كثير من العلوم لعدم حاجتهم إليها ليس الأمر كذلك في الصنائع، فإنهم كانوا مع سذاجة عيشهم يحتاجون إلى كثير من المصنوعات التي لا تُنال إلا بالحِرَف والصناعات كالمأكول والملبوس والأسلحة والمعاملات التجارية، وقد كان للنصارى من العرب اليد الطولى في كل ذلك كما سترى.

(٢-١) صناعة النسيج والحياكة

هذه الصناعة من مَذاهب الحضارة، فكان عرب البادية يجهلونها، وإنما شاعت بين عرب الحضر، وأكثر ما نرى شيوعها بين نصارى العرب في جهات اليمن والبحرين والشام وفي بلاد قُضاعة، وكانوا يبيعون بعضها من أقباط مصر، وهذه بعض الشواهد على إثبات قولنا.

قال الثعالبي في لطائف المعارف (طبعة ليدن، ص٢٨): إن أهل اليمن «كانوا يُعَيَّرُون بالحياكة»، وكان المَثَل يُضْرَب برياط اليمن وبِبُرود اليمن، وربما كانوا يخططونها، قال أوس بن حجر:

فإني رأيتُ العِرْضَ أحوجَ ساعةً إلى الصَّوْنِ مِن رَيْطٍ يمانٍ مُسَهَّمِ

وكانت البرود اليمانية غالية الثمن (التاج، ٢: ٣٠٠)، ومنها ما كان يصطنع في نجران. جاء في صحيح البخاري في باب البرود أن صاحب الإسلام كان يلبس «بردًا نجرانيًّا غليظ الحاشية.» وقد وصفوا أنواعًا من برود اليمن ذكرها ابن سيده في المخصص (٤: ٧٢) كالعَصْب قال: «هو ضرب من الثياب يُعْصَب غزله، ويُدرَج ثم يُصْبَغ ويُحاكُ، يقال بُرْد عَصْب»، وكالمراجل يقال ثوب مُمَرْجَل؛ أي على صنعة المِرْجَل وهو ضرب من الوشي، وكالخالِ وهو الثوب الناعم، وكالحِبْرَة والحَبَرَة، وكلها من برود اليمن.

ومما نُسِب من الثياب إلى مخاليف اليمن؛ الوشيُ العبقريُّ المنسوب إلى عَبْقَر من أرض اليمن والطَّنَافس العبقرية، قال ياقوت (في مادة عبقر): «بَنُو يزيد ينسجون الصوف فعملوا منه الزَّرَابِي العبقرية وعملوا البُرُود اليزيدية.» ومما نُسِب إلى شَرْعَب المخلاف باليمن البرود الشَّرْعَبْية، ونُسِب إلى مخلاف جيشان الخمر الجيشانية، وإلى

سَحول وريدة قريتين في اليمن الثياب السَّحُولية المصنوعة من القطن الأبيض، قال طرفة (ديوانه، ٧٦):

وبالسَّفْح آياتٌ كأن رسُومَها   يمانٍ وَشَتْه رَيْدةٌ وسَحُولُ

وإلى السدير من أرض اليمن نسبوا البرود السديرية، قال الأعشى:

وبَيداءَ قَفر كبُرْد السَّدِير   مشاربُها دائراتٌ أُجُنْ

وكان اليمنيون يعملون الرحال وينقشونها ويحسنون صنعها، قال جرير (نقائض، ٧٥٦) يصف رحالًا:

ومنقوشة نقش الدنانير عوليت   على عجل فوق العتاق العياهم

ومن ثياب اليمن الرقم والعقل وهما أحمران كانوا يسدلونهما على هوادج النساء (المفضليات، ص٥٧٨)، ومثلهما الغزل اليماني ذكره أبو الفرج في الأغاني (١: ٣٢)، وما يدل على أن هذه المنسوجات كانت من صنع النصارى ما ذكره ابن سعد في طبقاته في باب الوفود، قال عن وفد نجران، وكلهم من النصارى: إن رسول الإسلام صالحهم «على ألف حُلَّة في رجب، وألف في صفر، أوقية كل حلة من الأواق وعلى عارية ثلاثين درعًا وثلاثين رمحًا وثلاثين بعيرًا وثلاثين فرسًا.» وقد تكرر في كتب الحديث ذكر الحلل والأنسجة والحرائر النجرانية.

وكان العرب قبل الهجرة وفي أوائل الإسلام يقتنون أيضًا ملابسهم عند نصارى مَنْبِج وإليها نسبوا الأكسية المَنْبِجانية ويقال: الأنبجانية.

وقد اشتهرت بين العرب المنسوجات القبطية، فإن بعض مدنها كالإسكندرية ودمياط وتنيس والفرما كانت تحتوي على معامل شائعة الذكر، قال ياقوت (٢: ٦٠٣): «إن دمياط كان يعمل فيها القصب البلخي من كل فن والثياب البيض الغالية الثمن والفرش القلموني من كل لون المعلم والمطرز.» وإلى القبط نسبت القباطيات، وكانت ثيابًا معروفة بالرِّقَّة والدِّقَّة والبياض، قال الكميت يصف ثورًا:

لَياحٌ كأنْ بالأتحميَّة مُسبِعٌ   إزارًا وفي قُبطيَّةٍ مُتجلْبِبُ

وفي الحديث أن محمدًا كان يُجَلِّل بُدْنَه القَباطِي والأَنْماط، والنَّمَط ضَرْب من الثياب المصبغة، وقد ذكر المقريزي في الخطط (١: ١٨١) أنهم في الإسلام كانوا يأخذون كسوة الكعبة من تنيس، وذُكِر عن الفاكهي أنه رأى لهارون الرشيد كسوة من قَباطِيٍّ تاريخها سنة ١٩٠هـ/ ٨٦٠م، وذكر أيضًا الثياب القيسية والثياب الدبيقية المنسوبة إلى دبيق مدينة بين الفَرَما وتِنِّيس، وكانت من أدَقِّ الثياب المنسوجة بالذهب.

وكان أكثر الحرير يأتي به العرب من بلاد الروم، قال الأخطل (راجع: ديوانه، ص٣٨٧):

بناتُ الرُّومِ في سَرَقِ الحَريرِ

والسَّرَق واحدته سَرَقة وهي شقائق الحرير أو أجوده وقال في ذلك:

يَرْفُلْنَ في سَرَقِ الفِرِنْد وَقَزِّهِ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ يَسْحَبْنَ مِن هُدَّابه أذيالا

ومن الأنسجة الثمينة التي كان يتزاحم عليها أمراء العرب الدَّفْني من مصنوعات اليمن، قال الأعشى يصف بعض الأعيان (شرح المفضليات، ص٥٢٨، ed. Lyall).

يَمْشون في الدَّفْني والأبرادِ

ومثلها السيراء من برود اليمن المُوشَّاة المخططة التي يخالطها الحرير كالسيور كان يحيكها نصارى نجران ودَوْمة الجندل، وفي الحديث أن أُكَيدر بن عبد الملك النصراني صاحب دَوْمة أهدى إلى محمد حُلَّة سيراء (التاج، ٣: ٢٨٧)، وكذلك عرف أهل مكة الأرجوان من مصنوعات سواحل الشام، ورد ذِكْرُه في تاريخ اليعقوبي (٢: ٢٣) في وصف زينة نبي الإسلام، وفي حديث الخليفة عثمان بن عفان (النهاية، لابن الأثير، ٢: ٧١)، وقد ورد في صحيح مسلم (٢: ١٥٢)، وصحيح الترمذي (١: ٣٣١)، وفي أنساب البلاذري (٣٣٢)، وغيرها ذكر حُلَل الديباج والثياب المُعَصْفَرة، والحِبَر المُفَوَّفة؛ أي الرقيقة المُوَشَّاة والطيالسة التي كان يهديها الوفود من أهل اليمن ومن الرُّهبان إلى صاحب الشريعة الإسلامية، وأكثرُها من صنع نصارى اليمن أو الشام، قال ابن الأثير في أُسْد الغابة في أخبار الصحابة (٢: ٤١١): إن عُطَارد بن حاجب الذي وفَد على نبي الإسلام مع

وجوه تميم النصارى، وكان سيدًا في قومه أهدى محمدًا ثوب ديباج، وروى المسعودي في مروج الذهب (٤: ١٧٨) أن ملوك اليمن قدموا إلى أبي بكر وعليهم الحُلَل والحِبَر وبُرود الوَشْي، وذكر أيضًا (١: ٢٢١) السَّاجَ والطَّيْلَسان فيما فرضه خالد بن الوليد على النصارى العباديين وزعيمهم عبد المسيح بن بقيلة من أهل الحيرة، وكذلك صاحب بانقيا بصبهر بن صلوبا، ذكر البلاذري في «فتح البلدان» (ص٢٤٤) أنه «صُولِح على ألف درهم وطيلسان.»

وكان اليمنيون يحسنون عَمَل الرِّحَال وينقشونها، قال جرير (النقائض، ص٧٥٦):

ومنقوشةٍ نَقْشَ الدنانيرِ عُولِيَتْ على عَجَلٍ فَوقَ العِتَاق العَياهِم

ومن منسوجاتهم أيضًا الطَّنافِس والبُسُط والأَنْطاع، اتخذوا بعضها لكسوة الكعبة، قال البلاذري في «الفتوح» (ص٤٧): «وكانت كسوة الكعبة في الجاهلية الأنطاع والمغافر (والصواب المعافر وهي منسوجات يمنية) فكساها الرسول ﷺ الثياب اليمنية، ثم كساها عمر وعثمان القباطي، ثم كساها يزيد بن معاوية الديباج … وكساها بنو أمية في بعض أيامهم الحلل التي كان أهل نجران يُؤَدُّونها.» ومن الطنافس الشهيرة الطنافس العبقرية التي كان يصطنعها نصارى تنوخ وقُضاعة، قال ابن خلدون في تاريخه (٢: ٢٤١): «إن التنوخيين نزلوا عبقرة من أرض الجزيرة ونسج نساؤهم البروج العبقرية.» وقال ياقوت في معجم البلدان (٣: ٩٠٧): إن عبقرة كان يُوشَى فيها البسط وغيرها فنسب كل شيء جيد إلى عبقرة، وقال الفَرَّاء هي الطنافس الثخان، وقال مجاهد: العبقري الديباج، وقد ذكر المقريزي في الخطط مصانع البسط في صعيد مصر مما كان يشتغله نصارى الأقباط في البَهْنَسَاء ودمياط وتِنِّيس ودابِق. ذكر أن بعض البسط كان يبلغ طوله ٣٠ ذراعًا وكان يباع الزوج منها مائتي مثقال ذهب، وروى أن فسطاطًا صنعوه في تنيس منسوجًا بالذهب بيع بقيمة ١٤٠٠٠ دينار ما يساوي اليوم من نقودنا نحو ٢٠٠٠٠٠ فرنك، وكانوا ينقشون على هذه البسط صورًا شتى من الرجال والسباع والخيل والطيور، وفي متاحف أوروبة منها بقايا (Gayet: l'Art Arabe, 248–252)، وكان البعض منها مصلبًا أي منقوشًا عليها الصلبان.[٢] ورويَ في التاج في حديث جرير (١: ٣٣٨) قوله: «رأيتُ على الحسين ثوبًا مُصلَّبًا؛ أي فيه نقش أمثال صلبان.»

[٢] اطلب أيضًا: H. LAmMENS: FATIMA, 70–71.

(٢-٢) النجارة

هي أيضًا إحدى الصنائع التي شاعت بين النصارى فاستفاد منها العرب في الجاهلية وأوائل الإسلام، وذلك لندورة الخشب في أنحاء كثيرة من جزيرة العرب إلا أطرافها ولبعد العرب عن العمران الحضري، قال ابن خلدون في المقدمة (٢: ٣١٣، طبعة باريس): «إن العرب أبعد الناس من الصنائع والسبب في ذلك أنهم أعرق في البدو وأبعد من العمران الحضري، والعجم من أهل الشرق وأمم النصرانية عدوة البحر الرومي أقوم الناس عليها؛ لأنهم أعرق في العمران الحضري وأبعد عن البدو.» ثم ذكر كيف أن العرب استجلبوا صنائعهم من عند تلك الأمم.

وقد مر لنا شيء من أعمال النصارى الخشبية في جزيرة العرب منها ما سبق في ذكر القليس (المشرق، ١٨، ١٩٢٠م، ٥٢٥) وما دخل فيه من الأخشاب الثمينة كالساسم والساج والأبنوس اشتغلها النصارى فزينوا بها كنائسهم قبل الإسلام.

ومثل ذلك ما رواه أبو الوليد محمد الأزرقي في كتاب أخبار مكة (ص١٠٥، ١٠٧، ١١٤) عن باقوم الرومي النجار والبناء الذي وكلت إليه قريش بناء الكعبة بعد حريقها وتَصدُّع جدرانها، فبناها بما اشتراه القريشيون من الخشب الذي أقبلت به سفينة للروم إلى جدة، وهم نصارى الأقباط، والروم أيضًا الذين سقفوا بالساج المزخرف المسجد الحرام في مكة في أيام الوليد بن عبد الملك (الأزرقي، ص٢٠٩).

ومما صنعه النصارى في أول الإسلام لخدمة نبيه وخلفائه الراشدين المِنْبَر اصطنعه أولًا رومي نجار كما روى أبو سعيد، وقيل: «إن اسمه باقوم أو ياقول الرومي غلام سعيد بن العاص.» وقيل: إن اسمه إبراهيم النجار (أُسْد الغابة في معرفة الصحابة، لابن الأثير، ١: ٤٣) كان يجلس عليه محمد للجمعة.

وكان في خدمة نبي الإسلام صانع نصراني آخر اسمه تميم بن أوس الداري من نصارى لخم، أسلم سنة ٩ للهجرة وخدم محمدًا، وكان يسكن معه المدينة ويدعونه راهب الأمة،[٣] ثم أقطعة قرية عينون عند بيت المقدس (أسد الغابة، ١: ٢١٥).

ثم أضافوا إلى المنبر عرشًا كان يجلس عليه محمد إذا خطب كما جاء في طبقات ابن سعد (ج٢، ق٢، ص١١)، وكان أيضًا من عمل النصارى، وبعد موت نبي المسلمين

[٣] اطلب: مجلة تاريخ الأديان (Revue de l'Hist. des Religions, 1920. p. 250–252).

تردد الخلفاء الراشدون في رقي المنبر، وقد أخبر المقريزي (الخطط، ٢: ٢٤٧) أن عمرو بن العاص اتخذ منبرًا فكتب إليه عمر بن الخطاب يعزم عليه في كسره ويقول: «أما حسبك أن تقوم قائمًا والمسلمون جلوس تحت عقبيك.» فكسره، لكنهم ما لبثوا أن أقاموا المنابر في المساجد، روى المقريزي (٢: ٢٤٨) عن والي مصر قرة بن شريك العبسي أنه نصب منبرًا جديدًا في السنة ٩٤هـ/٧١٣م. (قال): «وذكر أنه حمل إليه من بعض كنائس مصر، وقيل: إن زكريا بن برقنى ملك النوبة النصراني أهداه إلى عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح، وبعث معه نجارًا حتى ركبه واسم هذا النجار بُقْطُر من أهل دَنْدَرة، ولم يَزَل هذا المنبر في المسجد حتى زاد قرة بن شريك في الجامع فنصب منبرًا سواه.»

وكان العرب يلتجئون أيضًا إلى أهل الأرياف من الشام واليمن والعراق فيتخذون من نجاريهم العمد والأوتاد لخيامهم، والحدوج لظعائنهم، والرِّماح والقِسِيِّ والسِّهام لسلاحهم؛ لأن الخشب مادة لكل هذه كما بين ابن خلدون في مقدمته (٢: ٣٢٤)، ولا تصير إلى الصورة الخاصة بها إلا بالصناعة، والقائم على هذه الصناعة هو النجار، وقد بقي من أعمال النصارى الدالة على براعتهم في هذه الحرفة عدة آثار ترى في كنائس وأديرة أقباط الصعيد وطور سينا والجزيرة، ومنها ما تَحوَّل إلى جوامع، ومنها المقاصير القديمة، والشعاري والمشارب كان النصارى يهندسونها قديمًا وصبر بعضها على آفات الدهر.

(٢-٣) الحدادة

كما النِّجَارة كذلك الحِدَادة خدم بها نصارى اليمن والشام والبحرين قبائل عرب البادية، وكان الحَدَّاد يدعى في الجاهلية قَيْنًا، والقُيُون عند العرب بنو أسد قيل: إن أول من عمل الحديد منهم كان الهالك بن عمرو بن أسد بن خزيمة فدعي أيضًا الحداد هالكيًّا، وممن ورد ذكرهم في أوائل الإسلام من أرباب الحِدَادة خبَّاب بن الأرت من نصارى بني تميم سُبِيَ من وطنه وبِيعَ في مكة فحصل في خدمة نبي المسلمين والخلفاء الراشدين من بعده، توفي سنة ٣٧هـ/٦٥٨م.

وكان أكثر اتخاذ العرب للحديد لتهيئة آلات حربهم، أعني السيوف والدروع ونصال الرماح والسهام والخوذ، أما السيوف فمن أكرمها وأشهرها المشرفيات المنسوبة إلى المشارف من قرى الشام، ومنها السيوف الحارِيَّة، وهي التي كان يصنعها نصارى

الحيرة في العراق، ومنها السُّريجِيَّات وكانت سيوفًا منسوبة إلى قين يدعى سُرَيْجًا مصغر سرجيس، وفيها يقول العجاج:

وبالسُّرَيْجِيَّات يَخْطِفْنَ القَصَرْ

وقد ذكروا سبعة من مشاهير السيوف زعموا أن بلقيس ملكة سبأ أهدتها إلى سليمان الحكيم، وفي ذلك دلالة على أهلها اليمن؛ وهي ذو الفقار كان لمنبه بن حجاج، فصار إلى نبي الإسلام، ثم ذو النون، والصمصامة كانَا لعمرو بن معدي كرب، ثم مِخْذم ورَسُوب كانا للحارث بن جبَلَة ملك غسان النصراني، ثم ضرس الحمار، وقيل: ضرس العير أو ضرس البعير كان لعلقمة بن ذي قيفان الحِمْيَري، ثم الكشوح ولم يذكروا صاحبه.

أما الدروع[٤] فمما يدلُّ على علاقتها بالنصارى وأهل الكتاب أن العرب ينسبون نسجها إلى داود وسليمان كما رويناه سابقًا (راجع [القسم الثاني، الفصل الثالث والفصل الرابع])، وكل يعرف خبر الدروع التي أودعها امرؤ القيس الكندي الشاعر النصراني عند السموءل (اطلب: ديوان السموءل الذي نشرناه آنفًا، ص٨)، وقد عرف أيضًا أهل نجران بصناعة الدروع، والدليل عليه أن محمدًا صالحهم على ثلاثين درعًا كما سبق، ومن دروع البحرين الرُّدَيْنِيَّات نُسِبَت إلى امرأة تدعى رُدَيْنَة كانت تبيعها أو تصنعها، ومنها ما كان يُنْسَج حلقتين حلقتين، وهي المُضاعَفة قالت الخنساء تصف لأمة أخيها صخر:

إذا تَلَأَّمَ في زَغْفٍ مُضاعَفَةٍ وصارمٍ مِثْلِ لونِ المِلْحِ جرَّادِ

أما نِصَال الرِّماح والسهام، فزعم الثعالبي في لطائف المعارف (ص٧، ed. De Jong) «أن أوَّل مَن عُمِل له سِنان من حديد سَيف ذو يَزن الحِمْيَري وإليه نُسِبَت الرماح اليزنية، وإنما كانت أَسِنَّة العرب صياصي البقر.» والله أعلم، وإنما يُرجِّح الرأي بأن أصل النصال من اليمن ومن الأمم النصرانية المجاورة للعرب، وقد امتازت بين الرماح العربية السمهريات نسبة إلى سمهر اسم رجل قيل: إنه زوج ردينة ورفيقها في الحدادة،

[٤] أن قبيلة حطمة من محارب كانت شهيرة بعمل الدروع.

ومنها الخطيات وهي رماح كانوا يستجلبونها من الخط، وهو مرفأ للسفن في البحرين وعمان، وكذلك السهام الصاعدية منسوبة إلى قرية صعدة في اليمن على غير قياس.

واتخذوا أيضًا من الحديد الجواشن ومثلها الخوذ يقنعون بها رءوسهم تعلموها من الروم والفرس وهي البيض، ثم انتشر استعمالها في بلاد الإسلام حتى إنهم أحصوا ما في خزانة السفاح أول خلفاء بني العباس فوجدوا خمسين ألف درع وخمسين ألف سيف وثَلاثين ألف جوشن، ومائة ألف رمح، وزادت على ذلك في أيام هارون الرشيد فأحصاها الفضل بن الربيع فوجد عشرة آلاف سيف محلاة بالذهب وخمسين ألفًا للشاكرية والغلمان ومائة وخمسين ألف رمح ومائة ألف قوس، وألف درع خاصة محلاة، وألف درع عامة، وعشرين ألف بيضة، وعشرين ألف جوشن، ومائة وخمسين ألف ترس، وأربعة آلاف سرج محلاة خاصة، وثلاثين ألف سرج عامة (مطالع البدور، للغزولي، ٢: ١٦٢).

ومما يدل على اتساع فن الحدادة بين نصارى العرب وفرة أسلحة ملوك الحيرة، فقد ذكر أبو الفرج في الأغاني (٢٠: ١٣٢) أن النعمان بن المنذر لما خاف كسرى وحاوَل الفرار من وجهه استودع ماله هانئ بن مسعود الشيباني، وكان في جملة وديعته «ألف شِكَّة ويقال: أربعة آلاف شِكَّة، والشِّكَّة السلاح كله»، وكان للنعمان بن المنذر كتائب مُدجَّجة بالأسلحة الحِيرِيَّة أخصها كتيبتاه الشهباء والدوسر، وقد ذكر ابن خلدون في تاريخه (٢: ١٨٠): «الباهوت مسلحة كسرى في الحيرة.»

وكانت في بُصْرى أيضًا في حوران مصانع أسلحة مشهورة، قال الحُصَين بن الحمام يذكر عمرو بن هند ملك الحيرة المعروف بالمُحرِّق (شرح المفضليات، ص١٠٨، ed. Lyall):

عليهنَّ فتيانٌ كساهم مُحرِّقٌ   وكان إذا يكسو أجادَ وأكْرَمَا
صفائح بُصْرى أخلَصَتْها قُيونُها   ومُطَّردًا مِن نَسْجِ دَاودَ مُبْهَما
يَهزُّون سُمرًا من رماحٍ رُدَينَةٍ   إذا حُرِّكتْ بَضَّت عوامِلُها دما

وكانوا يَطبَعون أسلحتهم ويرسمون عليها النقوش والتماثيل فكان على سيف الحارث بن ظالم صورة حَيَّتَيْن، وأنشد (شرح المفضليات، ص٦١٦):

عَلوتُ بذي الحَيَّاتِ مَفْرِقَ رَأسِه   وهل يَركبُ المكروهَ إلا الأكارمُ

أراد بذي الحِيَّات سَيفَه لما كان عليه من تمثال الحيَّات، وذكر الآخَرُ سيفًا عليه صورة سمكة فعرف بذي النون، ومَرَّ ذكره:

ويُخبِرُه مكانُ النُّونِ منِّي   وما أعطَيْتُه عَرَقَ الخِلالِ

(٢-٤) التجارة

قد اشتهر العرب منذ القديم بالتجارة كما ورد ذلك في سفر التكوين (٣٧: ٢٥) في قصة يوسف الحسن الذي باعه إخوته للإسماعيليين المُنحدِرين بتجارتهم إلى مصر، على أن هذه التجارة راجت أسواقُها بعد المسيح بهمة الأمم النصرانية المجاورة للعرب، لا سيما الرومان والحبش، وقد سبق لنا (ص٥٧) ذكر الوفد الذي أرسله إلى الحِمْيَريِّين الملكُ قنسطنسيوس بن قسطنطين الكبير لعَقْد معاهدة تجارية مع ملكهم، وذكرنا هناك أيضًا ما ورد في الدستور التيودوسي لثاودوسيوس الكبير بخصوص متاجَرة الرومان والحبشة مع العرب.

وقد اشتهر نصارى الحيرة بالتجارة، وقد ذكر أبو الفرج الأصبهاني (الأغاني، ٢٠: ١٣٤) لَطِيمتَهم قال: «وهي عِير كانت تخرج من العراق فيها البَزُّ والعطر والألطاف يرسلونها إلى اليمن.» وقال في التاج (٩: ٦٠): «اللطيمة وعاء المِسْك أو سُوقه، وقيل: كل سوق يُجْلَب إليها غير ما يُؤْكَل من حُرِّ الطِّيب والمتاع غير الميرة.»

وكانت قريش في الجاهلية تَرتَزِق بالتجارة، وربما رحلوا إلى الحيرة، وقد ذكر في الأغاني (٨: ٤٨-٤٩) خروج مسافر بن أبي عمرو بن أمية من سادة قريش، وأبي سفيان بن حرب إلى الحيرة لأمورهم التجارية، وقال الثعالبي في لطائف المعارف (ص٧-٨، ed. De Jong): إن هاشمًا وهو عمرو بن عبد مناف كان «أول مَن سنَّ الرحلتين في التجارة رحلة الشتاء والصيف، وهو أول من خرج إلى الشام من قريش، ووفد على الملوك وأبْعَد في السفر ومرَّ بالأعداء، وأخذ منهم الإيلاف الذي ذكره الله تعالى.» يشير إلى سورة قريش (١٠٦: ١-٢) حيث يقول: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾. قالوا: الإيلاف العهدُ والذِّمَام، قال الفيروزآبادي: «الإيلاف شبه الإجازة بالخفارة وأول مَن أخذها هاشم من ملك الشام.» وورد في تفاسير القرآن أن أصحاب الإيلاف كانوا أربعة إخوة، وهم بنو عبد مناف: أولهم هاشم، وكان يُؤَالِف ملك الشام باع منه خيلًا فسمح له أن يتاجر في الشام، والثاني عبد شمس وكان يؤالف إلى الحبشة، والثالث المُطَّلِب وكان

يرحل إلى اليمن، والرابع نوفل، وكان يرحل إلى فارس، وكان هؤلاء يُسَمَّون المُتَّجِرين، وفيهم قال الشاعر:

يا أيها الرَّجُل المُحوِّل رَحْلَه	هلَّا نزلتَ بآل عبدِ منافِ؟
الآخِذُون العهدَ من آفاقها	والراحلونَ لرحلةِ الإيلافِ
والرائشون وليس يُوجَد رائشٌ	والقائلونَ هَلُمَّ للأضيافِ
والخالِطُون غَنِيَّهم بفقيرهم	حتى يصيرَ غَنِيُّهم كالكافي

وقال الثعالبي في ثمار القلوب (ص٩): «إن قريشًا زهدوا في الغصوب فلم يبقَ لهم مَكْسَبة سوى التجارة، فضربوا في البلاد إلى قيصر بالروم والنجاشي بالحبشة والمُقَوقِس بمصر، وصاروا بأجمعهم تجارًا خُلَطاء.» وقال في الأغاني (٨: ٥٢): «وكانت أرض الحبشة لقريش متجرًا.» وذكر هناك عمارة بن الوليد المخزومي، وعمرو بن العاصي بن وائل السهمي، وخروجهما إلى النجاشي في الجاهلية للاتجار.

وكان للعرب عِدَّة أسواق يجتمعون فيها للمقايضات وضُروب المبايعات قد ذكرها في المشرق (١، ١٨٩٨م، ٨٦٧) جناب الأديب محمود شُكْري أفندي الآلوسي، وكان معظم هذه الأسواق في جهات الجزيرة العربية التي يغلب فيها عدد النصارى في الجاهلية وأكثرهم من الحضر يرتزقون بالتجارة كأسواق البحرين في عُمان وهَجَر والمشقَّر وصُحار، وكأسواق حضرموت والشِّحْر، وكأسواق اليمن مثل سوق صنعاء، وكسوق دَوْمة الجندل، وكسوق عُكَاظ في الحجاز التي كان يقوم فيها قس بن ساعدة واعظًا وخطيبًا مصقعًا.

ومما لم يذكره هناك من الأسواق العربية النصرانية سوق الحيرة، وقد ذكره أبو الفرج في الأغاني، قال (١٦: ٩٩) قال: «وكان بالحيرة سوق يجتمع إليه الناس كل سنة.» وروى هناك خروج الحكم بن أبي العاصي إليه ومعه عطر يريد بيعه، وأخذ حسان بن جبلة الخير على نفسه أن يقدم للقوم «كل خمر أو لحم أو طعام ما أقاموا في سوق الحيرة.» وقصد حاتم الطائي هذه السوق أيضًا وأظهر فيها شيئًا من كرمه الذي ضرب به المثل بنحره الجزور وإطعام الناس.

وما لا ينكر أن أهل اليمن وعمان والبحرين وهجر والحيرة كانت تجارتهم واسعة رابحة ومعائشهم رغدة، والخصب والرخاء غالبين على أطرافهم مع ما فيها من وفرة الغلات والذخائر وصنوف المعادن والأرفاق، بخلاف عرب نجد والحجاز فكانت بلادهم مُجدِبة قاحلة كثيرة الرمال والصحاري، وقد جاء في سيرة نبي الإسلام أنه تعاطى

التجارة في شبابه استأجرته خديجة بنت خويلد في مالها، فكان يخرج به إلى الشام تاجرًا، فرأى أهلها النصارى ودخل صوامع رهبانها، وكان محظوظًا في تجارته فدعا ذلك خديجة إلى أن تقترن به.

وكما كان العرب يخرجون إلى بلاد النصارى المجاوِرة لبلادهم كذلك كان النصارى يقدمون إلى الحجاز ويبيعون أهلها محصولات أوطانهم، ولنا على ذلك عدة شواهد، منها «موقف النصارى» في مكة، قال في التاج في مادة حسر (٣: ١٤٠): «بطن مُحَسِّر وادٍ قُرْب مزدلفة بين عرفات ومنى، وفي كتب المناسك هو وادي النار لأنه موقف النصارى، وأنشد عمر رضي الله عنه حين أفاض من عرفة إلى مزدلفة، وكان في بطن محسر»:

إليك يَعْدُو قلِقًا وَضِينا   مخالفًا دِينَ النَّصارَى دِينَا

وكذلك «مقبرة النصارى» في مكة أيضًا، ذكرها الأزرقي في أخبار مكة (ص٥٠١)، وقال: إنها دُبر المِقْلع؛ أي الجبل الذي بأسفل مكة على يمين الخارج إلى المدينة على طريق بئر عنبسة.

وكان بعض هؤلاء التجار ينشرون النصرانية في مكة، جاء في أُسْد الغابة لابن الأثير (٥: ١٧٢) أن ولدين لأبي حُصَين الأنصاري تَنصَّرا على يد تُجَّار من الشام أَتَوا إلى مكة، وأنهما لَحِقَا معهم بالشام.

ومن سِلَع تجَّار النصارى في الجاهلية وبعدها الخمر كانوا يعصرونها ويبيعونها ويشربونها في مجالس الأُنس، وقد وصفها شاعرهم الأعشى بقوله:

وكأسٍ شربتُ على لَذَّة   وأخرى تَداويتُ منها بها
لِيَعلم مَن لامَ أني امرؤٌ   أتيتُ المروءة من بابها

وقد اعتادوا عَصْر المُدامَة لدخولها في مشاعرهم الدينية في القربان، كما مر سابقًا، وتَغَنَّوا في معانيها الرمزية كما فعل ابن الفارِض في ميميته.

وممَّا تاجَر به نصارى اليمن والعراق والبحرين الجواهر والحجارة الكريمة كالجَزْع والياقوت واللآلئ، وقد اشتهر الجَزْع اليماني، وقد عُرِف أيضًا بالخَرَز اليماني (conquer de Vénus)، وكان يتاجر به أهل ظَفَار نُسِب إليهم، قال المُرقَّش الأصغر يصف ظعائن يقطعن القفار:

تَجَلَّيْنَ ياقوتًا وشَذْرًا وصِيغةً   وجَزعًا ظَفاريًّا ودرًّا تَوائِما

وقد ذكر في الأغاني (١١: ١٦٣) درجًا لطلحة الطلحات كان فيه حجارة ياقوت يُساوي ثمن كل حجر منها أربعين ألف درهم.

وروى البكري في معجم ما استعجم يصف رُكوب ملك الحيرة إلى دير اللج (ص٣٦٦): «وكان النعمان يركب في كل أحواله وفي كل عيدٍ ومعه أهل بيته خاصة من آل المنذر من يُنادِمُه عليهم حُلَل الديباج المُذَّهَّبة، وعلى رءوسهم أكاليل الذهب، وفي أوساطهم الزنانير المُفضَّضة بالجوهر، وبين أيديهم أعلام فوقها صلبان الذَّهب، فإذا قضوا صلاتهم انصرفوا إلى مستشرفة على النجف.»

أما اللآلئ والدُّرر الثمينة فكان يغوص عليها أهل البحرين منذ زمن الجاهلية، قال النابغة الذبياني:

أو دُرَّةٍ صَدفيةٍ غَوَّاصُها   بَهِجٌ متى يَرَها يُهِلَّ ويَسْجُدِ

وقد أحسن المُسيِّب بن عَلَس في وصفه الغائص على اللآلئ وانتخابه الثمين بينها واستخراجها من البحر، قال (شعراء النصرانية، ٣٥٦؛ وخزانة الأدب، ١: ٥٤٤):

كجُمانَة البَحريِّ جاء بها   غوَّاصُها من لُجَّة البحرِ
صَلْبُ الفؤادِ رئيسُ أربعةٍ   مُتخالِفي الألوان والنَّجْرِ
فتَنازَعوا حتى إذا اجتمعوا   ألْقَوا إليه مَقالِدَ الأمرِ
وعَلَت بهم سَجْحاءُ خادمةٌ[٥]   تَهْوي بهم في لُجَّة الغَمْرِ
حتى إذا ما ساء ظنُّهمُ   ومضى بِهم شهرٌ إلى شَهرِ
ألقى مَراسِيَه بتَهلكةٍ   ثَبتَتْ مراسيها فما تَجْرِي
فانصبَّ أَسقفُ رأسِه لَبِدٌ   نُزِعتْ ربا عيناهُ للصبرِ[٦]
أَشْفى يَمُجُّ الزيتَ[٧] مُلتَمِسٌ   ظمآنُ ملتهبٌ من القَفرِ
قَتلَتْ أباه فقالَ أَتبعُه   أو أستفيدَ رَغيبة الدَّهْرِ[٨]

---

[٥] أراد بالسجحاء السفينة الطويلة الظهر.

[٦] أي رمى بنفسه في البحر وغاصَ لإخراج الدُّرر، والأسقف الطويل المنحني ليغوص، واللَّبِد؛ أي المتلبد.

[٧] أراد بالزيت الماء؛ أي أشرف يَقذِف الماء من فيه كعادة الغائص.

[٨] يريدُ أن أبا هذا الغائص هلَك في تحصيل هذه الدرة غرقًا، فقال ابنه أتبعه أو أنالها.

نِصْفَ النهارِ الماءُ غامِرُه   وشريكُه بالغيب ما يدري
فأصاب مُنْيَتَه فجاء بها   صَدَفِيَّة كمضيئة الجَمْرِ
يُعْطَى بها ثمنًا فيَمْنَعُها   ويقولُ صاحبه ألا تشري
وترى الصَّواري[٩] يسجدون لها   ويضمُّها بيديه للنَّحْرِ
فلَتِلكَ شبهُ المالكيَّةِ إذ   طَلعتْ ببهجتها من الخدْرِ

(٢-٥) المِلَاحة

كما اشتهر نصارى العرب بالتجارة البرية كذلك أصابوا في التجارة البحرية سهمًا فائزًا، وقد بيَّنَّا سابقًا انتشار النصرانية في سواحل جزيرة العرب في اليمن وعُمَان والبحرين فوجدوا في مُجاوَرة البحار وسائل جديدة لتنمية ثروتهم وزيادة أرباحهم، فكان الحميريون وأهل البحرين يحسنون اصطناع السفن وعمارتها فيقطعون بها خليج العرب إلى الحبشة وبحر عمان إلى الهند وخليج فارس إلى جهات العجم، وقد أشاروا إلى ذلك في شعرهم، قال عمرو بن كلثوم التغلبي في معلقته يفتخر بكثرة سفن قبيلته تغلب النصرانية:

مَلأْنَا البرَّ حتى ضاق عَنَّا   وظهر البحر نملؤه سَفِينَا

وقد أحسن طرفة في وصفه لسفن قومه في البحرين فذكر بعض أشكالها العظيمة، وهي الخلايا والعدولية من سفن البحرين، وذكر أحد رؤساء البحر المدعو ابن يامن ومَخْرَ سفينته غمر المياه فقال:

كأنَّ حُدوجَ المالكيَّةِ غُدوةً   خلايا سَفينٍ بالنواصف من دَدِ
عَدَوليَّةٌ أو من سفينِ ابنِ يامنٍ   يجور بها الملاح طورًا ويَهتدِي
يَشُقُّ حبابَ الماءِ حيزومُها بها   كما قَسَم التُّرْبَ المُفائلُ باليدِ

---

[٩] الصواري جمع صارٍ، وهو المَلَّاح والبحري، ويُروى: الشواري جمع شارٍ؛ أي المشتري، وسجودهم لفخر الدرة ونفاستها.

وذكر الأعشى النُّوتيَّ السائر بسفنه على الفرات عند طغيانه:

مِثل الفُراتِيِّ إذا ما طَمَا   يَقذِفُ بالبُوصِيِّ والماهرِ

وأشار امرؤ القيس إلى طَلْي السفن بالقير:

فشبَّهْتُم في الآلِ حينَ زَهاهمُ   عَصائبَ دَومٍ أو سفيناً مُقيَّرا

وقال الشَّمَّاخ يذكر سُفُن البحرين وغواربها الكبيرة:

رماحُ رُدَينةٍ وبحارِ لَجٍّ   غواربُها تُقاذِفُ بالسَّفِينِ

وكانوا يدعون النُّوتِيَّ ملَّاحًا وصراريًّا جَمْعُه صَراري أيضًا وصُرَّاء، قال ربيعة بن مقروم:

وأعرضَ واسطٌ فعدَلْنَ عَنهُ   كما عَدَلَ الصَّراريُّ السَّفِينَا

وقال المُمزَّق العبدي:

ألا ابنَ المُعلَّى خِلْتَنَا وحَسِبْتَنا   صَراريَّ نُعْطِي الماكِسِينَا مُكُوسا

على أن فنَّ المِلاحة الذي كان يعرفه ويزاوله عربُ الحَضَر في سواحل الجزيرة، كان في الغالب مجهولًا لدى عرب الحجاز ونَجْد، بل كانوا يَعُدُّون ركوب البحر كالطامَّة العظمى، فبعد انتشار الإسلام وثُبوت قدمه إذ رأوا في سواحل الشام ومصر سُفَن الروم أرادوا أن يَعْبُروا البحر ليغزوا الجزائر كقُبرس أو سواحل اليونان وآسية الصغرى، فالتجئوا إلى مَن كان في حوزتهم من الروم في الشام والأقباط في مصر ومن نصارى العرب في جهات البحرين، فتعلموا منهم صناعة السُّفُن كما أخذوا صناعة التجارة لأن إنشاء السُّفن يحتاج إليها لما يدخلها من الألواح والدُّسُر والصَّواري والمَجاذيف مع هندسة أجزائها فعَمَّروا لهم السُّفُن وجهزوا لحروبهم في أيام معاوية ودولة بني أمية.

وفي اللغة ما يدلُّ على أصلِ فَنِّ الملاحة الأجنبي فترى فيها ألفاظًا متعددة إما رومية وإما آرامية أو حبشية تُثْبِت حدوث الملاحة في الحقبة الأولى من الإسلام، وقد تَقلَّدُوا في صُنْعِها صورة مراكب الروم واليونان في هيئاتها المختلفة وأجرامها المتباينة، فمما استعاروه من اليونانية: «أسطول στόλος»، «أنجر άϒϰυρα»، «نوتي ναύτης»، ومن السريانية أو الآرامية: سَفِينة، قارِب، قُرْقُور، دضقل، رُبَّان، مَلَّاح، سُكَّان، قِلْع، مجذاف، صارٍ، ومن الحبشية، بَحر، شِراع، مَرْسى.

(٢-٦) النقود

إن التجارة والمقايَضات في البيع والشراء لا تَجْرِي عادة إلا بمسكوكات ونقود تُدْفَع بدلًا من السلع والبضائع، وكان للدول النبطية ولملوك ميشان وخراسان في العراق ولملوك الجزيرة في جهات الرُّهَا وحضر، ولملوك تَدمُر نقود ضربوها باسمهم ذهبية وفضية ونحاسية، منها أمثال حسنة في متاحف أوروبة وعند بعض الخاصة فوصفوها ورسموا صورها وفَنَّدوا بذلك ما كتبه المقريزي في كتابه النقود القديمة الإسلامية حيث قال:

«كانت نقودُ العرب في الجاهلية التي تَدُور بينها الذَّهَب والفضة لا غير، تَرِد إليها من الممالك دنانير الذهب قيصرية من قِبَل الروم، ودراهم فضة على نوعين، سوداء وافية وطبرية عتقًا، وكان وزن الدراهم والدنانير في الجاهلية مثل وزنها في الإسلام مَرَّتَين، ويُسمَّى المثقال من الفضة درهمًا، ومن الذهب دينارًا ولم يكن شيء من ذلك يتعامل به أهل مكة في الجاهلية، وكانوا يتعاملون بأوزان اصطلحوا عليها فيما بينهم.»

فإن علماء النقود العربية كالمسيو فكتور لنغلوا V. Langlois في كتابه عن نقود العرب قبل الإسلام (Numismatique des Arabes avant L'Islamisme)؛ والمسيو لافوا H. Lavoix في كتابه عن النقود الإسلامية المصونة في مكتبة باريس العمومية؛ والمسيو دي تيسنهوزن de Tiesenhausen وغيرهم أثبتوا استعمال عرب الجاهلية للنقود النحاسية واستغربوا قول المقريزي عن الدراهم السوداء والطبرية واستنتجوا من كلامه جهله بالنقود القديمة.

وما لا يُنْكَر أن العرب قبل الإسلام تداولوا في بلادهم ومع الأمم المجاورة لهم النقود النصرانية فراجت بينهم أيَّ رواج على اختلافها ذهبية كانت أم فضية أو نحاسية، وأغلب ما عرفه العرب من النقود مما كانوا يتعاملون به نقود قيصرية رومية ذات رسوم دينية. وقد اشتهرت بينهم نقودُ هِرَقْل، قال المسعودي في مروج الذهب (٢: ٣٣٣): «وهو الذي

ضَرَب الدنانير والدراهم الهرقلية.» وقال البلاذري في فتح البلدان (ص٤٩٦): «وكانت دنانير هرقل ترد على أهل مكة في الجاهلية.» وروي في الأغاني (١١: ٥٢) لكثير عزة قوله:

يَرُوقُ عُيونَ الناظرات كأنَّه   هرقليٌّ وَزن أحمرُ التِّبْر راجحُ

وروى الأنباري في شرح معلقة عنترة (ed. Recher, 61):

دنَانيرُ مما شِيفَ في أرضِ قَيصرِ

أراد الدنانير الجلية المُعْلَمة الموسومة بالكتابة. وقد ذكر أُحَيحة بن الجلاح دنانير مَدينة أَيْلة التي كان صاحبها الأمير النصراني يُوحَنَّا بن رُؤْبة قال يرثي ابنه (ياقوت، معجم البلدان، ١: ٤٢٢):

ألا إنَّ عَيني بالبكاءِ تهلَّلُ   جزوعٌ صبورٌ كل ذلك نَفعلُ
فما هِبْرِزيٌّ من دنانيرِ أَيْلةٍ   بأيدِي الوُشاةِ ناصعٌ يَتأكَّلُ
بأحسنَ منه يومَ أصبحَ غاديًا   ونَفَّسَنِي فيه الحِمام المُعَجَّلُ

(قال): «يَتأكَّل؛ أي يأكل بعضه بعضًا لحسنه، والوشاة الضرابون.» وقد وصفوا كذلك الدراهم الرومية. قال عنترة يصف روضة أصابها المطر الجود فأنعشها:

جادَتْ عليه كل بِكْرٍ ثَرَّةٍ   فَتركْنَ كلَّ حَديقةٍ كالدِّرْهمِ

ومثله الأسود بن يعفر (شعراء النصرانية، ص٤٨٢):

مِن خَمرِ ذِي نَطَفٍ أغنَّ مُمنطَقٍ   وافى بها كدَراهمِ الأسجادِ

(قال): أراد بالأسجاد اليهود والنصارى. وكانوا يدعون النقود الخفيفة النحاسية نُمَيًّا وفلوسًا، قال أوس بن حجر (ديوانه ed. Haffner):

وفارقَتْ وَهي لم تَجْرَبْ وباعَ لها   من الفَصافِص بالنُّمِّيِّ سِفْسِيرُ

وقال جرير يهجو الأخطل (الأغاني، ٧: ١٧٨):

والتَّغْلبِيَّة مَهْرُها فَلْسانِ

ومن الأدلة التي تشهد على رواج النقود الرومية بين عرب الجاهلية أن معظم الألفاظ الدالة عليها يونانية أو لاتينية الأصل كدينار «δηνάριον»، و«دِرْهَم δράχμη»، و«قيراط κεράτιον»، و«نُمَيٍّ νοῦμμος»، و«فَلْس φόλλιν»، و«قِنْطَار Centenarium».

ثم ظهر الإسلام والمسلمون لم يعهدوا ضرب النقود فتعاملوا بمسكوكات الروم التي كانوا يربحونها بمتاجرتهم مع بلاد الشام ومصر والعراق أو وجدوها في فتح البلدان فأخذوها غنيمة واقتسمها جنودهم، ولجهلهم لغة البلاد التي استولوا عليها أقاموا لهم عمالًا من نصارى الوطنيين وَلَّوْهم على دواوينهم المالية لجباية الخراج والضرائب المختلفة، وكان من جملتهم في دمشق سرجيوس أو سرجون جد القديس يوحنا الدمشقي المعروف بابن منصور.

ففي أيام الخلفاء الراشدين، ولا سيما عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وفي أوائل الدولة الأموية ضُرِبَت نقود العرب على هيئتها النصرانية السابقة، ففي متاحف أوروبة عشرات من النقود التي ضُرِبَت في دمشق وحمص وبعلبك وطبرية في أيام عمر في السنة ١٧ للهجرة وما بعدها، وكلها عليها رسم هرقل ملك الروم مع صورته وسائر أَشْعِرة النصرانية كأول حروف اسم السيد المسيح، وكصَليبه المُقدَّس، وصورة النسر، وعلى بعضها شعار قسطنطين الكبير: «بهذه العلامة انتصر ἐν τούτῳ νίκα» ثم سمة النقود M مع اسم المدينة باليونانية أو بالعربية هكذا: «ضرب. دمشق حمص، طبرية، بعلبك، إيليا، أنطاكية، جايز»، ومعظم هذه النقود فلوس من نحاس، وقد وُجِد على بعضها اسم عمر بالاختصار «عمر بن الخط» واسم خالد بن الوليد، واسم يزيد بن أبي سفيان، واسم أبي عبيدة.[١٠]

وترى البسملة (باسم الله) مرقومة على عدة نقود من ذلك العهد كلمة، وقال ياقوت في معجم البلدان (٤: ٨٨١): إن الحجاج بن يوسف أول من ضرب درهمًا عليه شعار الإسلام «لا إله إلا الله ومحمد رسول الله»، وليس قوله بسديد؛ لأنه تعرف نقود

[١٠] اطلب: مقالة في نقود الإسلامية الأولى، للبارون دي سلان، في المجلة الآسيوية الفرنسوية (J. A. 1871 2, 199–211).

لعلي بن أبي طالب ضربت في البصرة سنة ٤٠هـ عليها هذا الشعار «لا إله إلا الله وحده لا شريك له» وعلى الوجه الآخر «محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون».[١١]

ومن هذا ترى غَلَط معظم مُؤرِّخِي العرب الذين زعموا أن أول من كتب على النقود الإسلامية بالعربية هو الخليفة عبد الملك بن مروان، قال الثعالبي في لطائف المعارف (ص١٣): «أول من نقش على الدراهم والدنانير بالعربية عبد الملك بن مروان، فإنه عُنِي بذلك وكتب إلى الحجاج في إقامة رسمه.»

وقد أخبر المقريزي في كتاب النقود الإسلامية (ص٥، طبعة الجوائب) أن معاوية بن أبي سفيان كان قبل ذلك ضرب دنانير عليها تمثاله متقلدًا سيفًا، ومثل هذه الدنانير لم يجدها بعدُ الأثريون، لكنهم وجدوا فلوسًا تمثل معاوية واقفًا وشعر رأسه مفروق على جبهته وفي يمناه السيف وفي ظهر الفلس اسم إيليا وفلسطين مع صليب على هذه الهيئة «+»، فلما ملك الخليفة عبد الملك جرى أولًا على مثال أسلافه وأبقى الصليب مع صورته واسمه في الدنانير والفلوس إلى السنة العاشرة من ملكه، ويوجد من هذه النقود بعض الأمثلة في المتاحف، وهي مضروبة في حمص ودمشق وعمان وقنسرين ومَنْبِج وسرمين وغيرها.

وها نحن ننقل هنا صورة ثلاثة نقود عربية ترتقي إلى أوائل الإسلام وعليها صور ملوك الروم ورموزهم المسيحية.



[١١] اطلب: المجلة الآسيوية الألمانية (ZDMG. XVII, 39).

A دينار عربيٌّ على وجهه صورة هرقل ملك الروم، وفي يمناه الصليب وفي يُسراه كُرَة يعلوها صليب صغير، مع اسم طبرية باليونانية، وعلى ظهر الدينار سمة النقود M مع اسم خالد (ابن الوليد) باليونانية.



B فَلْس عربي على وجهه صورة هرقل الموصوفة، وعلى ظهره مع سمة النقود هذه الألفاظ بالعربية: صدر، دمشق، جائز.



C فلس عربي على وجهه صورة الخليفة «عبد الملك أمير المؤمنين»، وعلى ظهره صورة الصليب المرتكزة على سارية مع اسم سيرين حيث ضرب، وهذا الفلس ممسوح أكثره، وإنما وجدت منه نقود أخرى أجلى صورة مع كتابته العربية.

وهذه النقود في متحف باريس.

ففي السنة العاشرة من خلافته عدل عن النقود السابقة، واتخذ نقودًا جديدة خالية من الرسوم النصرانية؛ ولذلك عده كتبة العرب كأول خليفة نقش الدنانير، قال الطبري

في تاريخه (٢: ٩٣٩–٩٤٠): «أول نقش الدنانير والدراهم على عهد عبد الملك بن مروان سنة ٧٦هـ»، والصواب أنه ضرب أولًا النقود القديمة ونقش فيها صورًا أنكرها عليه بقايا من الصحابة كما يُقِر بذلك المقريزي في كتاب النقود الإسلامية (ص٦)، وفي السنة ٧٦هـ/٦٩٦م ضرب نقودًا إسلامية مَحْضَة وأزال منها الصور والرسوم النصرانية، لكنه بقي شيء منها لعله ضُرِب بدون علمه، ففي متحف باريس دينار ضرب سنة ٧٧هـ عليه صورة عبد الملك مع سارية نصرانية، وفيه أيضًا نقود نحاسية ضربت في السنة ٨٠هـ عليها رسم صليب.

أما سبب اتخاذه السكة الإسلامية فنفوره مما كانت الروم ترسمه على سكتهم من تعظيم الصليب والإعلان بلاهوت المسيح، وهذا أيضًا ما دفعه إلى أن يحدث كتابات الطوامير والقراطيس التي كان في صدرها مثل هذه الأشعرة النصرانية، وقد أخبر بذلك البلاذري في فتح البلدان (ص٢٤٠):

«قالوا: كانت القراطيس تدخل بلاد الروم من أرض مصر ويأتي العرب من قبل الروم الدنانير، فكان عبد الملك بن مروان أول من أحدث الكتاب الذي يكتب في رءوس الطوامير من «قل هو الله أحد» وغيرها من ذكر الله، فكتب إليه ملك الروم: إنكم أحدثتم في قراطيسكم كتابًا ننكره، فإن تركتموه وإلا أتاكم في الدنانير من ذكر نبيكم ما تكرهونه، (قال) فكبر ذلك في صدر عبد الملك فكره أن يدع سنة حسنة سنها فأرسل إلى خالد بن يزيد بن معاوية فقال له: «يا أبا هشام إحدى بنات طبق.» وأخبره الخبر فقال: «أَفْرخ رَوْعك يا أمير المؤمنين حَرِّم دنانيرهم فلا يُتعامَل بها واضرب للناس سككًا ولا تَعْفُ هؤلاء الكفرة مما كرهوا في الطوامير.»» فقال عبد الملك: «فَرَّجْتَها عني فرَّج الله عنك.» وضرب الدنانير، قال عوانة بن الحكم وكانت الأقباط تذكر المسيح في رءوس الطوامير وتنسبه إلى الربوبية تعالى علوًّا كبيرًا، وتجعل الصليب مكان بسم الله الرحمن الرحيم، فلذلك كره ملك الروم ما كره واشتد عليه تغيير عبد الملك ما غيره.

وقد أتى هذا الخبر مفصلًا في كتاب المحاسن والمساوئ للبيهقي (ed. Schwally, p. 498–502) نقتطف منه ما يأتي:

قال الكسائي: «دخلتُ على الرشيد ذات يوم وهو في إيوانه وبين يديه مال كثير قد شق عنه البدر شقًّا، وأمر بتفريقه في خَدَم الخاصة وبيده درهم تلوح كتابته وهو يتأمله، وكان كثيرًا ما يحدثني فقال: هل علمتَ مَن أول من سن هذه الكتابة في الذهب والفضة؟ قلتُ: يا سيدي هذا عبد الملك بن مروان، قال: فما كان السبب في ذلك؟ قلتُ:

لا علم لي غير أنه أول من أحدث هذه الكتابة، فقال: سأخبرك، كانت القراطيس للروم، وكان أكثر من بمصر نصرانيًّا على دين ملك الروم، وكانت تطرز بالرومية وطرازها «آبا وابنا وروحًا قديشا.» (ܐܒܐ ܘܒܪܐ ܘܪܘܚܐ ܕܩܘܕܫܐ) فلم يزل كذلك صَدْر الإسلام كله يمضي على ما كان عليه إلى أن ملك عبد الملك بن مروان فتنبه عليه، وكان فطينًا، فبينما هو ذات يوم إذ مَرَّ به قرطاس فنظر إلى طرازه فأمر أن يترجم بالعربية ففعل ذلك فأنكره ... فأمر بالكتاب إلى عبد العزيز بن مروان، وكان عامله بإبطال ذلك الطراز ... وأن يأخذ صُنَّاع القراطيس بتطريزها بسورة التوحيد.»

ثم أخبر استياء ملك الروم من هذه الكتابة وتهديده بنقش شَتْم نبي الإسلام، وكيف استقدم عبد الملك من المدينة محمدَ بن علي بن الحسين ليستشيره في ذلك، فدله على ضَرْب سكك الدراهم والدنانير كما روى البلاذري عن خالد بن يزيد بن معاوية، فأُبْطِلتْ مذ ذاك السكك الرومية والطراز الرومي.

وقد ضرب أمراء المسلمين في إفريقية والأندلس بعد فتحهما نقودًا عليها أيضًا شارات النصرانية كالصليب واسم السيد المسيح باللاتينية مع أسماء الأمراء المسلمين.

وقد سبق لنا القول: إن السلجوقيين في بلاد الروم والأرتقيين فيما وراء النهرين ضربوا أيضًا نقودًا عليها صور ملوك النصارى مع علامات النصرانية بينها صورة السيد المسيح، والبتول مريم والدته الطاهرة (اطلب: ١٨، ١٩٢٠م، ٧٩٩).

(٢-٧) التعليم

ومن الصنائع الشريفة التي دَخلتْ بين العرب بفضل النصرانية صناعة التعليم، وكان شيوع المدارس أولًا بين الأمم المجاورة للعرب كالكلدان والسريان في العراق وما بين النهرين، وكالروم في جهات الشام وفلسطين، فلَمَّا تَنصَّر العربُ أخذ أحداثُهم يَتردَّدُون على المَعْلَمَين المَنْصُوبين للتعليم في الجهات المُجاوِرة لمساكن قبائلهم في مدارس كانوا يدعونها بالأسكولات، وهي كلمة دخيلة استعارها السريان من اليونانية σχολή اشتهر منها مدارس الرُّهَا ونَصِيبِين والمَدائن والحِيرة ودمشق، ومع أن التعليم في هذه المدارس كان في السريانية أو اليونانية لم يعدم العرب فيها وسائل لدرس لغتهم.

ومما يُؤيِّد الأمر أخبار بعض شعراء العرب، فمن ذلك ما ورد في كتاب الأغاني (٥: ١٩١) عن المُرقَّش الأكبر حيث قال: «وكان مُرقَّش يكتب، وكان أبوه دفعه وأخاه حرملة وكانَا أحب ولده إليه، إلى نصراني من أهل الحيرة فعلمهما الخط.» وروي عن

عدي بن زيد (الأغاني، ٢: ٢٠) أن أباه طرحه في الكتَّاب مذ نشأ ثم أرسله مع شاهان مرد إلى كُتَّاب الفارسية حيث «تعلم الكتابة والكلام بالفارسية حتى خرج من أفهم الناس بها وأفصحهم بالعربية.» إلى أن صار كاتبًا للملك النعمان، وجاء أيضًا في أخبار طرَفَة والمُتلَمِّس (الأغاني، ٢١: ١٩٣–١٩٥) أن المتلمس لما أراد أن يطلع على ما كتبه في حقهما عمرو بن هند إلى المُكَعْبر عاملِه في البحرين عدل إلى غلام عبادي من غلمان الحيرة فأعطاه الصحيفة ليقرأها له ففعل ووقف على مضمونها، إذ أوصى بقتلهما فألقى المتلمس الصحيفة في النهر وفَرَّ سالمًا بنفسه وقُتِل طرفة، فيتضح من ذلك أن العباديين وكانوا نصارى العرب كانوا يواظبون على المدارس، وقد ذكر في محل آخر (أغاني، ١٨: ٧٨) فضل معلم نصراني على سواه في البصرة في عهد بني أمية وولاية الحجاج، وفي طبقات ابن سعد (٣: ٢٥٨) أن في عهد عمر بن الخطاب كان جُفَينة النصراني من أهل الحيرة يُعلِّم الكتاب في المدينة، وذلك بعد أن أمر عمر بخروج النصارى من جزيرة العرب، وفيه دليل على حاجة المسلمين في أوائل الإسلام إلى المعلمين، وفي قائمة المعلمين التي سردها قدماء الكتبة كالجاحظ في البيان والتبيين (١: ١٠١)، وابن قتيبة في كتاب المعارف (ص١٨٥)، وابن رسته في الأعلاق النفيسة (ص٢١٦) أسماء ذِمِّيين وموالٍ من نصارى ويهود كانوا يَتعاطَون مهنة التعليم.

هذا فضلًا عمن كانوا يختلفون إلى الرهبان والكهنة النصارى في صوامعهم وأديرتهم ليتعلموا القراءة والكتابة، كما ذكر عن أبي نصر البراق بن روحان (شعراء النصرانية، ص١٤١) أنه كان يتردد إلى راهب فيتعلم منه تلاوة الإنجيل، وكما قال في الأغاني (٣: ١٤) عن ورقة بن نوفل أنه «كان يكتب بالعبرانية (يريد السريانية) من الإنجيل ما شاء أن يكتب.» ولعل الراهب الذي أشار القريشيون إليه بقولهم عن محمد (سورة النحل): ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ كان أحد معلمي النصارى في مكة، كما تعلم أهلها الكتابة من بشر بن عبد الملك النصراني أخي أُكَيدر الكندي صاحب دَوْمة الجندل (السيوطي، في المزهر، ١: ٣٩٠)، وكانوا يسمون هذه الكتابة بالجَزْم؛ أي الفصل، سواء فصلوها عن خَطِّ حِمْيَر المعروف المُسْنَد كما ارتأى أبو حاتم (التاج، ٨: ٢٢٨)، أو بالحَرِي لفصلها عن الحروف الكلدانية، وهي أقرب إليها، وفي فضل بشر على قريش قال أحد شعراء كندة منشدًا:

لا تَجْحَدوا نَعماءَ بِشْرٍ عليكمُ   فقد كان ميمونَ النَّقيبةِ أزْهَرا
أتاكُم بَخَطِّ الجَزْمِ حتى حفظتمُ   من المال ما قد كان شَتَّى مُبَعْثَرا

وأبقيتمُ ما كان بالمال مُهمَلًا   وطَأمنتمُ ما كان منه مُبَقَّرا
فأجريتمُ الأقلامَ عودًا وبَدأةً   وضَاهَيتمُ كُتَّابَ كِسرى وقَيْصرَا
وأغنيتمُ عَن مُسندِ الحي حِمْيرا   وما زَبرَتْ في الصُّحف أقلامُ حِمْيرَا

ومما نسبوه إلى قس بن ساعدة أسقف نجران في كتاباته أنه أول من كتب في رسائله «من فلان إلى فلان بن فلان.» ونسبوا إليه فَصْل الخطاب بأن قال بعد حمد الله والدعاء: «أما بعد.» افتتاحًا للخطاب، ومثلها قولهم: «باسمك اللهم.» زعموا أن أول من كتبها الشاعر النصراني أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت الثقفي.

فكل هذه الشواهد تدل على شيوع صناعة التعليم بين نصارى العرب واجتهادهم في تعميمها، وقد سبق لنا بين القبائل المُتَنَصِّرة (ص١٢٤) ذكر قبيلة إياد، وقد روينا أنهم اشتهروا بمعرفة الكتابة فقال فيهم أمية شاعرهم (سيرة ابن هشام، ص٣٢):

قَومِي إيادٌ إنهم أَمُمُ   أو لو أقامُوا فتهزَلُ النَّعَمُ
قومٌ لهم ساحةُ العراقِ إذا   ساروا جميعًا والقطُّ والقَلمُ

ومثلهم الحِمْيَريون ولا سيما نصارى نجران، وإنما كانوا يكتبون الخط المعروف بالمُسْنَد، قال ابن خلدون في مقدمته: «ومن حِمْيَر تعلمت مُضَر الكتابةَ العربية.» وإلى حَذاقَة حِمْيَر في الكتابة يُشير أبو ذؤيب بقوله (لسان العرب، ١٨: ٣٠٦):

عرفتُ الدِّيارَ كخطِّ الدُّوِيِّ   حَبَّرَهُ الكاتِبُ الحِمْيَرِي

وممن سعى في نشر التعليم من أساقفة النصارى في عهد بني أمية فثيون أحد جثالقة الكلدان، قال عنه ابن ماري في تاريخ بطاركة كرسي المشرق من كتابه المجدل (ص٦٦): إنه «نصب في كرسيه أسكولًا فتَشبَّه به الأساقفة في عمارة البِيَع والأسكولات، أما المسلمون فإنهم لم يُنْشِئوا المدارس إلا بعد هذا العهد بزمن طويل.» قال المقريزي في الخطط (٢: ٣٦٣) «المدارس مما حدَث في الإسلام ولم تكن تُعْرَف في زمن الصحابة ولا التابعين، وإنما حدث عملها بعد الأربعمائة من سني الهجرة (كذا) وأول من حفظ عنه أنه بنى مدرسة في الإسلام أهل نيسابور فبنيت بها المدرسة البيهقية ... وأول مدرسة أُحْدِثَت في ديار مصر المدرسة الناصرية نسبة إلى السلطان الناصر صلاح الدين يوسف.»

الفصل الثاني عشر

العادات النصرانية بين عرب الجاهلية وفي أول الإسلام

قد شاعَت في جزيرة العرب في عهد الجاهلية وأوائل الإسلام عادات لا يُمكِن تعليلها إلا بنفوذ النصرانية واندماجها في القبائل العربية، فمن هذه العادات ما هو ديني بحت، ومنها ما هو شرعي، وبعضها مدني واجتماعي، فها نحن نتتبع هذه الأقسام الثلاثة بالتوالي:

(١) العادات الدينية

(١-١) الصلاة

هي في مُقدِّمة الواجبات الدينية، بها يرتفع الإنسان عن حضيض عالمه هذا الهيولي إلى ربه وخالقه ليسجد له ويشكره ويستغفره من ذنوبه ويلتمس نعمه، على أن أهل البادية كانوا في كل أطوار تاريخهم قلما يكترثون لهذه الفريضة كأن لسان حالهم يقول مع أحدهم:[١]

لا لصلي (نصلي) ولا لصوم (نصوم)
ولا لذكر (نذكر) ربنا حما (لما) لقوم (نقوم)

[١] اطلب: كتاب الكولت لندبرغ (Landberg: *Dialectes de J' Arabie Méridionale*).

فلما دخلَتِ النصرانية بينهم أَلِفَت القبائل المُتَنَصِّرة الصلاة والدعاء إلى الله كما يلوح من عدد الكنائس التي كان النصارى أقاموها في جهات العرب، وكما بَيَّنَّا في القسم الأول من كتابنا بشواهد مختلفة رويناها عن كل ناحية من جزيرة العرب.

ولما ظهر الإسلام فرض صاحبه على تبعته خمس صلوات في النهار فاستعار ذلك مما وجده شائعًا بين الرهبان الذين كانوا يقيمون صلواتهم السبع في خمس قومات من النهار والليل، جاء في نقائض جرير والفرزدق (ص٥٢٥) عن صلوات النصارى: «وكانت أخص صلواتهم خمسًا» قال الفرزدق يذكر عجوزًا من بني جعفر عاذت بأبيه غالب:

عجوز تصلي الخمس عاذت بغالب   فلا والذي عاذت به لا أضيرها

وأخص صلوات المسلمين في طرفي النهار حين يُصْبِحون وحين يُمْسون (سورة هود، ع١١٦؛ وسورة الروم، ١٧)، وهكذا كان رهبان جزيرة العرب يبكرون إلى الصلاة ويواظبون عليها في ليلهم، قال مجنون ليلى:

كأنَّه راهبٌ في رأسِ صَومعةٍ   يَتلو الزَّبُور ونَجمُ الصبحِ ما طَلَعَا

وقال الآخر (اللسان، ١٤: ٨٩):

عن راهبٍ مُتبتِّلٍ مُتَقهِّلِ   صادي النَّهار لِلَيلِه مُتَهَجِّد

ومن سُنن الإسلام (الوضوء) والاغتسال قبل الصلاة، وهي عادة كان سبق إليها نصارى الشرق فتجدها في قوانينهم القديمة، ففي كتاب الأيثيقون؛ أي الآداب لأبي الفرج بن العبري باب وهو الثالث من مقالته الثالثة قسمه إلى عشرة فصول بحث فيها عن طهارة الجسد وأحكامها وشروطها كما كانت شائعة في كنائس مِلَّتِه اليعقوبية، وذكر الأحواض التي كانت في ساحات الكنائس لإتمام فريضة الوضوء، وقد وصف حضرة الخوري إبراهيم حرفوش في المشرق (٦، ١٩٠٣م، ١١٦–١٢٣) أحد مخطوطات دير مار شليطا القديمة، وفيه قوانين جارية في الأعصار السالفة في ٥١ بابًا ورد في إحدى صفحاته (ص١٠٨) شروط الصلاة وحدودها على هذه الصورة:

«فأما حدودها (أي الصلاة) وشروطها فإنها تحتاج في أول شيء إلى الطهارة، وهو الاغتسال بالماء في إثر الحدث، فإن لم يجد الماء فليتجمر بثلاثة أحجار وما زاد عليها

حتى يَنْفِي أثر النجوى، ثم غسل اليدين بالتسمية وغسل الوجه برسم الصليب المحيي، ويستحب أيضًا غسل الرجلين في كل غداة، فأما من لم يحدث فلا يحتاج إلى الاستنجاء بل يستحب منه غسل اليدين والوجه، وغاية الغسل أن يعم الماء العضو الذي يغسله وعومًا كاملًا ... إلخ (ثم يليه فصل في الاغتسال من الجنابة غسلًا عامًّا ... مع الاعتراف إلى الكاهن وقبول صلاة الاستغفار).»

ومن شروط الصلاة في الإسلام الاتجاه إلى (القبلة)، وهي أيضًا عادة مستعارَة من قدماء النصارى الذين كانوا يتجهون في صلاتهم إلى الشرق إذ يتخذون الشمس الشارقة رمزًا عن السيد المسيح المعروف بشمس العدل والموصوف بالشرق، قال صرمة بن أنس قبل الإسلام (كتاب البدء، ١: ٧٦) يصف صلاة النصارى إلى مطلع الشمس:

وله شَمَّس النصارى وقامَوا   كلَّ عيدٍ لهم وكل احتفال

فاتَّخَذ محمد على مثالهم قبلة للصلاة كانت أولًا أورشليم ثم حوَّلَها إلى الكعبة في مكة.

وفي الصلاة الإسلامية (القيام والسجود والركوع ورفع الأيدي)، وكل ذلك سبق إليه النصارى ووصفه شعراء العرب، وقد وصف البُعَيثُ رهبان النصارى عند وقوفهم في الصلاة (اطلب [الدين ومقاماته ومناسكه من الجزء السابق]):

رجال يَتْلُون الصلاة قيام

وقال المضرس الأسدي في سجودهم:

وسِخال ساجية العيون خَواذل   بجماد لِينةَ كالنصارى السُّجَّدِ

وقال النابغة الذبياني في الراهب الراكع (تاج العروس، ٥: ٣٦٣):

سيبلغُ عذرًا أو نَجاحًا من امرئ   إلى رَبِّه ربِّ البريةِ راكعِ

وقال آخر في رفع أكفهم في الصلاة:

فذَا فضْلُ أيدي المُستغيثِ المُسبِّحِ

وإذا تلا المسلمون القرآن لحنوا فيه (بالتجويد)، ولعلهم أخذوه عن تلحين الرهبان بالزبور والتسابيح، قال ابن قتيبة في المعارف (ص١٨٠):

«كان أول مَن قرأ بالألحان عبيد الله بن أبي بكرة وكانت قراءته حزنًا ليست على شيء من ألحان الغناء ولا الحداء، فورث ذلك عنه ابن ابنه عبد الله بن عمر بن عبيد الله، فهو الذي يقال له: قراءة ابن عمر، وأخذ ذلك عنه الإباضي، وأخذ سعيد العلاف وأخوه عن الإباضي قراءة ابن عمر، وكان هارون الرشيد معجبًا بقراءة سعيد العلاف ... وكان القراء كلهم الهيثم وابن أعين وغيرهم يدخلون في القراءة من ألحان الغناء والحداء والرهبانية، فمنهم من كان يدس الشيء من ذلك دسًّا رفيقًا ومنهم من كان يجهر بذلك.»

فلا مِراء أن القراءة المحزنة وألحان الرهبانية تدل هنا صريحًا إلى نفوذ الغناء الرهباني في التجويد.

ويجوز أن نضيف إلى هذا الباب «السُّبحة» التي يدعوها النصارى المسبحة يتلون عليها صلوات معلومة اختلفت مع الأزمنة، وقد وُجِد منها في مقابر سياح الأقباط في الصعيد، وهي قديمة في الإسلام لورود ذكرها في كتاب العين للخليل قال:[٢] «السُّبحة خَرزات يُسَبَّح بعددِها.» وجاء في مجلة المنار المصرية لمُنشِئها محمد رشيد رضا (١٥: ٨٢٣) فصل في السبحة وأصلها في الإسلام قال:

«كنا نرى هذه السُّبَح في أيدي القِسِّيسين من النصارى والرهبان والراهبات، ونسمع أنها مأخوذة عن البراهمة ... والظاهر أن المسلمين أَخَذُوها أولًا عن النصارى فكانوا في مهد الإسلام عند ظهوره في جزيرة العرب وفي البلاد المُجاوِرة لها كالشام ومصر، فلا بد أن يكونوا قد أَخَذُوا السبحة عنهم فيما أخذوه من اللباس والعادات، والأمر في السبحة ينبغي أن يكون أشدَّ مِن أَخْذ غيرها عنهم؛ لأنها تدخل في العبادة وتُعَد شعارًا ... فالسبحة من البدع الداخلة في العبادة (كذا).»

(١-٢) الصوم

أحد أركان الإسلام لم يعرفه المشركون من العرب في الجاهلية، وإنما كان المُتنَصِّرون منهم يقومون به على مقتضى نواميسهم، ولعلهم كانوا يصومونه في رجب، وهو وقتئذٍ من أشْهُرِهم الثابتة يوافق شَهْرَنا نيسان، قال المقريزي في الخطط (١: ٢٨٢):

[٢] اطلب: مجلة لغة الغرب، ٢: ٣٤٥.

«رجب شهر حرام ويقولون له: الأصم؛ لأنهم كانوا يَكُفُّون فيه عن القتال فلا يسمع فيه صوت سلاح ... ورجب الأصم هو شهر مُضَر، وكانت العرب تصومه في الجاهلية، وكانت تمتار فيه وتمير أهلها، وكان يأمن بعضهم بعضًا فيه ويخرجون إلى الأسفار ولا يخافون.»

قال أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت يذكر جزاء الصائمين في دار النعيم:

إذا بَلَغوا التي أَجْرَوا إليها تَقبَّلَهم وحُلِّل مَن يُصومُ

وكان أخص أصوامهم صوم الفِصح، قال نمر بن تولب:

صدَّتْ كما صَدَّ عمَّا لا يحل له ساقي نصارى قُبَيل الفِصح صوَّامُ

ومن صوم النصارى اقتبس محمد صوم رمضان ثلاثين يومًا، وكان صوم الفِصح لا يزيد على ذلك في بعض الكنائس.[٣] ومنهم أيضًا أخذ عادة الإفطار بعد غروب الشمس إلا أن النصارى لم يَأْكُلوا حينئذٍ إلا مرة واحدة على خلاف المسلمين الذين حلل لهم الأكل طول الليل، وكذلك كان النصارى لا يأكلون إلا الأعشاب والبقول والأثمار دون اللحم والبياض، وكلاهما مسموح به للمسلمين، قال العلامة توماس بتريك هيوس (U. Patrik Hughes) في معجم الإسلام (ص٥٣٤) Dictionary of Islam: «إن الأرجح عندنا أن محمدًا أخذ عن النصارى ناموس الصوم ثلاثين يومًا، وكان صوم النصارى في الشَّرْق غاية في الشدة يمتد إلى النهار والليل معًا، فخفف محمد هذه السُّنَّة وحصرها في النهار دون الليل تلطيفًا لشدته كما قال (سورة البقرة، ع١٧١): ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾».

أما الخيط الأبيض والخيط الأسود اللذان ذكرهما هناك (ع١٨٣)، فإن أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت كان سبق إلى الإشارة إليهما بقوله (تاج العروس، ٥: ١٣٧):

الخيطُ الَابْيَضُ ضوء الصُّبح مُنفَلِقُ والخيطُ الَاسْودُ لونُ الليلِ مَركومُ

[٣] اطلب: معجم العاديات النصرانية (Dict. D' Archevologie et de Liturgie. Art CAREME).

(١-٣) الزكاة

هي أيضًا من أركان الإسلام المفروضة على ذويه بقوله (سورة البقرة، ٢: ٧٧): ﴿أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾؛ أي الصدقة وما يُرْصَد من الأموال لوجه الله وإعانة الفقراء، وعندنا أن صاحب الشريعة الإسلامية تَقلَّد فيه أهل الكتاب؛ أي اليهود والنصارى، فإن موسى في كتاب التثنية الاشتراع وسفر اللاويين يفرض على بني إسرائيل تعشير مالهم لخدمة الكهنة والهيكل … أما النصارى فمن وصايا كنيستهم الراقية إلى قرون النصرانية الأولى الوصاة بوفاء العشر.

ولما دخل النصارى في طاعة المسلمين من العرب وُضِعَت عليهم العشور والمكوس، قال المقريزي في الخطط (٢: ١٢٢):

«قال زياد بن جرير: أول من بعث عمر بن الخطاب رضي الله عنه منا على العشور أنا، فأمرني أن لا أفتش أحدًا، وما مر علي من شيء أخذتُ من حساب أربعين درهمًا درهمًا من المسلمين، وأخذت من أهل الذمة من عشرين واحدًا وممن لا ذمة له العشر، وأمرني أن أغلظ على نصارى بني تغلب … فلَعَلَّهم يُسْلِمون.»

(١-٤) الحج

هو أيضًا من أركان الإسلام ومعلوم أن الحج إلى مكة سبق الإسلام، وكان نصارى العرب يحجون في الجاهلية لمزارات مختلفة، ولا سيما للقُدس الشريف، فإن القديس إيرونيموس في أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس ذكر في رسائله (Migne, P. L:, XXII, 489, 870) بين زوار الأراضي المقدسة الذين كان يشاهدهم في بيت لحم عرب اليمن وهو يدعوهم على موجب اصطلاح ذلك العهد بأهل الهند، وقد وصف امرؤ القيس تزاحم الأولاد على الراهب المُقدِّس؛ أي العائد من زيارة القدس الشريف بقوله (اللسان، ٨: ٥٠):

كما شَبْرَقَ الولدانُ ثَوبَ المُقَدِّسِ

وفي ذلك القرن الخامس كان عرب حِمْيَر والعراق يحجون زرافات إلى مقام القِدِّيس سمعان العمودي كما روى ذلك في تاريخه تاودوريطس الذي عاينهم هناك (Migne, P. G., LXXIV. 104).

ومن مزارات العرب التي كانوا يَحُجُّون إليها مَشْهَد القديسين سرجيوس وباخوس في الرُّصَافة، وقد مر لنا ذكر الكتابة العربية السابقة للإسلام التي وردت هناك.

وكانوا يَحُجُّون في جزيرة العرب إلى كنيسة القليس التي شيدها أبرهة في صنعاء بعد فتح اليمن (راجع الجزء السابق، [الباب الخامس والقسم الثاني، الفصل الثامن]) ومثلها كنيسة ظَفَار.

ومن المَحاجِّ التي كان يقصدها أيضًا النصارى العرب في الجاهلية طور سينا ومعابده الشهيرة المقامة في مَشارف ذاك الجبل حيث يروي التقليد مناجاة الله — عز وجل — لموسى النبي وأوحى إليه بشريعته.

بل كان نصارى العرب واليهود في الجاهلية يحجون إلى مكة كما روى ذلك ياقوت في معجم البلدان؛ لأنهم كانوا يرون في الكعبة تذكارًا لما ورد في سفر التكوين (ف٢١) عن هاجر وإسماعيل بن إبراهيم الخليل متفقين في ذلك مع تقليد عرب الحجاز، وقد ذكر في الأغاني (٢١: ١٦٤) خروج هدبة بن خثرم إلى الحج وكان نصرانيًّا كما ذكر التبريزي في شرح الحماسة (ص٢٣٥).

وقد مر لنا [القسم الأول، الباب الخامس والقسم الثاني، الدين ومقاماته ومناسكه] أن النصارى كانوا يدعون بعض بِيَعَهم بالكعبات مثل كعبة نجران الوارد ذكرها في شعر الأعشى، وكعبة اليمن، وقال عبدة بن الطبيب (المفضليات، ٢٩١):

في كعبةٍ شادَها بانٍ وزَيَّنَها فيها ذُبالٌ مُضيءُ اللَّيل مَفتولُ

وكان لكعبة مكة منذ عهد الجاهلية حَرَم؛ أي حدود تحدق بها لا يجوز انتهاكها، ووضع محمد حرمًا لمسجد النبي في المدينة، وإنما الحرم شاع قبلًا عند اليهود حول هيكل أورشليم واتخذه النصارى لبعض كنائسهم الكبرى لامتيازها، وهو الحِمَى كان الداخلون فيه في أمان، وقد ورد في المشرق (١٣، ١٩١٠م، ٧١) اكتشاف المسيو نويل جيرون لنُصب؛ أي عمود ضخم من الحجر المانع في دمشق كان دالًّا على حمى كنيسة دمشق قبل الفتح الإسلامي كما تبينه كتابة يونانية أثبتناها هناك، وكان للنصارى قرب بعض الكنائس بروج للأطيار لا يجوز صيدها كحمام مكة التي يضرب المثل في أمانها فيقال: آلَفُ مِن حَمام مكة.

وكان العرب يطوفون حول الكعبة، وكانت تلك عادة جارية بين النصارى العرب أن يطوفوا حول الكنائس، قال الشاعر الجاهلي يذكر طواف النصارى حول الصليب فدعاه زورًا بالوثن (لسان، العرب ١٧: ٣٣٤):

يَطوفُ العفاةُ بأبوابِه كطَوف النصارى ببيتِ الوَثَنْ

ومما رواه في الأغاني (٧: ١٤٨) لعنترة، وقيل: بل لعبد قيس بن خفاف البُرْجُمي قوله:

تَمْشِي النَّعام به خَلَّاءً حوله　　مَشْي النصارى حول بيتِ الهَيْكلِ

وقال الحارث بن خالد يصف بشرة أمة عائشة بنت طلحة (أغاني ١٥: ١٣٣):

وبَشَرةُ خُودٌ مِثلُ تمثالِ بِيعَةٍ　　تظلُّ النصارى حوله يومَ عِيدِها

(١-٥) استلام الحجر الأسود

ومن المعلوم أن المسلمين إذا حجوا إلى الكعبة وطافوا حولها استلموا الحجر الأسود الذي فيها، ولعلهم يفعلون ذلك احتذاءً بنبيهم، قال البخاري في الصحيح (٢: ١٤٨): «جاء عمرُ إلى الحجر الأسود فقَبَّلَه فقال: إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبِّلك ما قبَّلْتُك.» قلنا: ولا يبعد أن العرب أخذوا ذلك عن النصارى الذين يُقَبِّلون حجارة كنائسهم تعبُّدًا أو كحجاجهم إلى القدس الشريف حيث يُقبِّلُون قَبْر السيد المسيح أو الحجر الذي صعد من فوقه إلى السماء في جبل الزيتون وعليه رسم أثر قدمه المبارك.

وقد سَبَق لنا ذِكْر حَمَام مكة ومأمنها من الصيد، ودونك ما رُوِي عن حمام الكنائس، روى الطبري في تاريخه (٢: ٨٦١) لرجل من بكر بن وائل ونسبه في الأغاني (١٢: ٧٢) لعبد الرحمن بن الحكم:

أَتَتكَ العِيس تنفخُ في بُراهَا　　تَكشفُ عن مناكبها القُطوعُ
كأنَّ مواقعَ الأكرارِ منها　　حَمامُ كنائسٍ بُقْعٌ وُقوعُ

(١-٦) النذور[٤]

يُروى عن عرب الجاهلية أنهم كانوا ينذرون مواليدهم للكعبة. ذكر أبو الوليد الأزرقي في أخبار مكة (ص١٢٨-١٢٩) عن امرأة أخزم بن العاصِ الجُرْهُمية أنها كانت عاقرًا

---

[٤] ومما ورد عن نذور العرب في الجاهلية قول أمية بن الأشكر (حماسة البحتري، العدد ٥٢٠):

وكَمْ من أسيرٍ من قريشٍ وغيرِها　　تَدارَكه من سَعْيِنا نَذْرُ ناذرِ

وقال عبد قيس بن خفاف البرجمي (المفضليات، ٧٥٠):

اللهَ فَاتَّقِ وأَوفِ بِنذرِه　　وإذا حَلفتَ مماريًا فَتجلَّلِ

فنذرتْ إن ولدت غلامًا أن تَتصدَّق به على الكعبة عبدًا لها يخدمها ويقوم عليها، فولدَتْ من أخزم الغوث فتصدَّقَت به عليها فكان يَخدُمها مع أخواله من جُرْهُم، (قلنا): إن هذه العادة أعني نَذْر المولود إلى الله كان سبق العرب إليها أصحابُ الكتاب من يهود ونصارى. وكلٌّ يَعرِفُ كيف نذرَتْ حَنَّة العاقرُ إن ولدتْ غلامًا تجعله في خدمة الله فولدَتْ صموئيل فوفت بنذرها، وقد ورد في القرآن في سورة آل عمران نَذْر امرأة عمران (يعني القديسة حَنَّة) بابنتها مريم العذراء فخدمته تعالى بالمحراب تحت كفالةِ زكريا الكاهن.

(١-٧) المساجد وبناؤها على شكل الكنائس

لا مِراء في أن المسلمين أول من شَيَّدوا المساجد لصلاتهم بَنَوها على صورة الكنائس فضلًا عمَّا حَوَّلُوه منها إلى جوامع عند فتحهم البلاد النصرانية كالجامع الأموي في دمشق، والجامع الأقصى في القدس الشريف، وجوامع حمص وحماة وحلب، فكلُّ مَن يدخل هذه الجوامع من المهندسين يحتم لأول وهلة أنها من هندسة النصارى الأقدمين كما أثبتنا ذلك في فصل الفنون الجميلة (ص٣٤٣–٣٥٠)، فلما حاول المسلمون تشييد مساجد جديدة تَقلَّدوا فيها الكنائس النصرانية، وكان بناتها في الغالب نصارى من الروم والقبط وأهل الشام لا يعرفون إلا هندستهم الدينية.

وقد قابَلَ المرحوم فان بركم (M. van Berchem) بَيْن كل أقسام الجوامع؛ كصَحْنِها، ورِواقها، وأركانها، وعواميدها، وسُقُفها، وقِبلَتها، ومحرابها، ومنبرها، ومقصورتها، ومنارتها، وبين الكنائس النصرانية وأقسامها المختلفة عند ظهور الإسلام وختم بقوله: «إن وضع الجوامع يُشْبِه شبهًا تامًّا واضحًا بناء الكنائس القديمة،[٥] يريد الكنائس المعروفة بالكنائس الملكية (Basiliques).

وما نقوله هنا إجمالًا عن هندسة الجوامع نستطيع أن نثبته أيضًا لكل قسم منها مفردًا كالمآذن والمنارات التي تَقلَّدوا فيها الصوامع النصرانية، وكالمنبر الذي مر ذكره في باب النجارة وهلم جرًّا.

---

[٥] راجع: **Encyclopédie de L'Islam**, art. ARCHITECTURE, p. 428b؛ اطلب أيضًا: كتاب سلادين في الفنون الإسلامية (**H. Saladin**: Manuel d' Art Musulman, 1,7–10)؛ وكتاب: تواريخ الإسلام، لبرنس كاتيئتاني (**L. Caetani**: Annaili dell, Islam, I, 432)؛ ومجلة الإسلام، لبكر (**Beker**, Islam, III, 392)؛ وكتاب: الصناعة العربية، لغايه (**Gayet**: L'Art arabe, p. 27–58).

(١-٨) الخطابة في المساجد

ومما استحدثه الإسلام الخُطَب الدينية في المجامع. يروى لصاحب الشريعة الإسلامية بعض الخطب التي ألقاها في قومه يذكرهم ويحضهم على الأعمال الصالحة، وإنما تَقلَّد في ذلك ما وجَدَه من العادات الجارية بين النصارى المجاورين له الذين كان أربابهم وكهنتهم يرشدون في الكنائس رعاياهم، وقد مر لنا فصل في الخطابة بين نصارى العرب في الجاهلية مع ذكر إمامهم المضروب فيه المثل قس بن ساعدة.

وكان منبر الخطابة بين النصارى رمزًا عن الرئاسة والسلطة الدينية، وكذلك اعتبره محمد والمسلمون بعده، فكان الخلفاء يَرْقَوْنه أيام الأعياد والصلوات العمومية فيلقون منه الخُطَب كما كان يفعل أساقفة النصارى في كنائسهم، وقد سبق لنا [القسم الثاني، الفصل الحادي عشر] ذكر العرش الذي أضافوه إلى المنبر، وكان يجلس عليه محمد كما روى ابن الأثير في أُسْد الغابة وابن سعد في طبقاته، وكان ذلك على مثال العرش الذي يجلس عليه رؤساء الدين النصراني في كنائسهم.

وكذلك اعتاد الأساقفة إذا خطبوا أو صلوا صلاة عمومية أن يمسكوا بيدهم العصاة الرعوية المعروفة بالعُكَّاز، وقد مر في خبر قس بن ساعدة أنه كان إذا خطب يتكئ على عصًا (وقيل: على سيف)، ومما رواه البخاري في صحيحه في كتاب الصلاة (١: ١٣٥) «أن النبي أمر بحربة فتوضع بين يديه فيصلي إليها.»

وللجوامع مآذن أو منارات يؤذنون منها بالصلاة، وهي أيضًا مما تقلد فيه المسلمون النصارى، فإن المسلمين كانوا يؤذنون أولًا بالصلاة على باب مساجدهم، ثم علوا سطوحها للأذان أو أذنوا فوق أسوار المدن كما ورد في شعر الفرزدق، قال (تاج العروس، ٩: ١٢٠):

وحتَّى علَا في سُورِ كلِّ مدينةٍ　　مُنادٍ ينادي فوقها بأذانِ

ثم تقلدوا أخيرًا صوامع الرهبان وهي قَلالي مُحدَّدة الطَّرف أو أبراج كان يسكنها الراهب لعبادته ويقرع منها الناقوس، فصارت المئذنة مرادفة للصومعة، ورَدَ ذلك في كتب الأدباء كأبي الفرج الأصبهاني في الأغاني (٢٠: ٨٥)، إذْ ذكر مئذنة المدينة فدعاها أيضًا هناك بالصومعة.[٦] وروى عن بعض المُوسوسين أنهم «كانوا يَصْفَعون المشايخ في

[٦] اطلب: مجلة الجمعية الشرقية الأميركانية (JAOS., XXX, 132–154, art. GOTTHEIL).

الصوامع إذا أذَّنوا»، وفي خطط المقريزي (٢: ٢٤٨) أن معاويةَ أَمَر مَسْلَمَةَ بن مَخْلَد ببناء الصوامع للأذان في جامع فسطاط العتيق المعروف بجامع عمرو قال: «وجعل مَسْلَمة للمسجد الجامع أربع صوامع في أركانه الأربع ... وأمر أن لا يُضْرَب بناقوس عند الأذان يعني الفجر.» وكذلك ورد في تاريخ الشيخ أبي صلح الأرمني (ص٥٤، .éd., Evetts): «وكان فتوح مصر في المحرم سنة ٢٠ للهجرة، ومن الصوامع ما هو باقٍ إلى الآن جعلهم المسلمين مواذن (كذا).»

(١-٩) المجامر في المساجد والجنازات

معلوم أن النصارى في مناسكهم الدينية في الكنائس وفي جنازات موتاهم يُضْرِمون المَجامر ويَحْرِقون البخور ويُوقِدُون الشمع والمشاعل، قال الحسين بن الضحاك يصف كنيسة (البكري، ٣٦٩):

عَجَّتْ أساقِفُها في بيت مذبحها　　أذْكَى مَجامِرَها بالعُودِ والنارِ

وقد روى الترمذي في صحيحه (١: ١١٦) عن محمد أنه كان يجمر المسجد قبل وفود الجماعة، وذكر ابن الأثير في النهاية (١: ١٧٥) نُعَيْمًا المجمر الصحابي قال: «وهو الذي كان يَلِي إجْمَار مسجد رسول الله ﷺ»، وهكذا فعل الخلفاء الراشدون بعده، ثم معاوية وبعض خلفاء بني أمية.

ومما ورد في كتاب تحقيق النصرة لأبي بكر المراغي أن عمر بن الخطاب عند رجوعه من غزوة الشام أتى «بمجمرة من الفضة فيها تماثيل، وكان يُجَمِّر بها المسجد ثم تُوضَع بين يدي عمر بن الخطاب.» ومما ورد في تجمير المسلمين للموتى ما ذكره ابن الأثير في أُسْد الغابة في معرفة الصحابة (٥: ٥٤٥) وابن حجر العسقلاني في الإصابة في تمييز الصحابة (٨: ١٨٧) عن مرضية الصحابية قالت: «أراكم تنكرون شيئًا رأيتُه يُصْنَع على عهد رسول الله ﷺ وسلم رأيت الميتَ على عهد رسول الله ﷺ يتبع بالمجمر»، وكذلك روى ابن سعد في طبقاته (٨: ٥٣-٥٤) عن عائشة زوج نبي الإسلام أنه حُمِلَت في دفنها المشاعل من الجريد الملفوف بالخرق والمغموس بالزيت، ثم أَفْتَوا بتحريم التجمير، وفي صحيح ابن ماجة «أنه لا يجوز اتباع الجنائز بالمجامر وما يشابهها لأن ذلك مِن فِعْل الجاهلية.» يعني النصرانية.[٧]

[٧] اطلب: المجلة الآسيوية الألمانية (ZDMG. 1905, 403–404)؛ وتاريخ معاوية، للأب لامنس (**Lammens**: Moawia, 367, 436).

(١-١٠) إكرام القبور

يروى في الحديث (جامع السيوطي، ص٣٥٧): «قاتَل الله اليهود والنصارى، اتَّخَذوا قبور أنبيائهم مساجد.» كأن صاحب الشريعة الإسلامية حرَّم بذلك إكرام الموتى وزيارة الموتى وزيارة قبورهم، إلا أن المسلمين لم يُعِيروا بالًا الحديث المذكور كما يثبت ذلك مألوف عادتهم في إكرام قبر نبيهم في المدينة وقبور الخلفاء الراشدين، هنالك مع ما يزين تلك القبور من الحُلِيِّ ويوقد فوقها من السُّرُج ويقدمون إليها من الهدايا، ومن ذلك يتضح أن العادة النصرانية غَلَبَتْ عليهم إلا بعض المتطرفين منهم كالوهابيين الذين ينكرون كل إكرام للأولياء، ومما يستند إليه أهل السنة في إكرام الأولياء ما رواه ابن سعد في كتاب الطبقات الكبير (ج٢، ق٢، ص٩-١٠) «أن رسول الله ﷺ صلى على أهل البقيع؛ أي قتلى أحد بعد ثماني سنين.» وقد أخبر الواقدي عن فاطمة الزهراء ابنته أنها كانت تخرج إلى أُحُد لزيارة قبر حَمْزَة عم محمد.[٨]

(١-١١) الاستشهاد

وأخص مَن يكرمهم النصارى شهداء دينهم الذين بموجب وَصاة السيد المسيح فضَّلُوا الموت في سبيل إيمانهم على الحياة والغنى والشهوات، وليس للنصارى شهداء غيرهم، فرأى صاحب الشريعة الإسلامية ما في هذه الميتة الشريفة من المجد فعَظَّم الاستشهاد ورغَّب فيه بالمواعيد الجليلة في الآخرة. لكن بَيْن هذا الاستشهاد والاستشهاد النصراني بَونًا عظيمًا، فبينما النصارى لا يَعُدُّون شهيدًا إلا مَن مات لأجل الدين المستقيم، ترى المسلمين يكرمون كشهداء كل من مات في الحرب والجهاد، بل يُعْتَبَرون كشهداء غيرهم أيضًا، جاء في الحديث (جامع السيوطي، ص٢٩٦): «الغريق شهيد، والحريق شهيد، والغريب شهيد، والملدوغ شهيد.» وروى حديثًا آخر (ص٢٧٢): «الطاعون، والغرق، والبطن، والحَرَق، والنُّفَساء شهادة لأمتي.» وفي صحيح البخاري (٣: ١٩٣): «الشهداء خمسة، المطعون، والمبطون، والغريق، وصاحب الهدم، والشهيد في سبيل الله.»

---

[٨] اطلب: كتاب الأستاذ غولتسيهر: (**Goldziher**: Culte des Saints chez les Musulmans. Paris, 1880).

(٢) العادات الشرعية والاجتماعية

(٢-١) أصول الشرع الإسلامي

لما ظهر الإسلام كان مُعْظَم العرب لا يَعْرفون من الشرع إلا ما يفي بأمورهم ويكفي لمعاملاتهم في حياتهم الساذجة، فلَمَّا فتحوا البلاد الراقية في التَّمَدُّن؛ كالشام ومصر والعراق والعجم احتاجوا إلى شرائع أوسعَ وأدَقَّ، وكان نصارى تلك البلاد يتبعون الشرائع الرومانية التي نَقَّحها ونظَّمها يوستنيان الملك، فعليها جَرى العربُ أولًا بمساعدة عُمَّال من نصارى الروم، والسريان، والأقباط، وإنما ثبتوا على بعض نواميسهم الأصلية في عيشتهم الفطرية مع ما استخلصه الفقهاء من القرآن أو الحديث، وبقوا على ذلك إلى أواسط القرن الثاني للهجرة إذ ظهر كبار الأئمة؛ كالشافعي وأبي حنيفة ومالك وابن حنبل فوضَعوا للفقه الإسلامي أصولًا ثابتة يرجع إليها المسلمون حتى يومنا هذا، على أن الذين يدرسون هذا الفقه لا يزالون يُقابِلون بينه وبين الشرع الروماني ويَلْحَظون أشياء كثيرة مَصدرُها الحقوق الرومانية.

(٢-٢) الدواوين

لا قيام لدولة كبيرة إلا بإنشاء دواوين مختلفة يعهد إلى كل منها تدبير بعض أمورها كبَيْت المال، وتدبير الجند، وديوان الإنشاء، وديوان التوقيع، وديوان الأعمال، وديوان الجباية، وديوان الخاتم، ولم يكن للعرب الفاتحين دُرْبة في كل ذلك، ومن ثم أَقَرُّوا الدواوين على ما كانت عليه قبل فتحهم في أيدي عمال من نصارى البلاد، وجاء في كتاب لطائف المعارف للثعالبي (ص١٠) «أن أول من دَوَّن الدواوين عمر بن الخطاب عملًا بما قال له رجل: رأيت الأعاجم يدونون ديوانًا لهم فدَوِّن لنا أنتَ ديوانًا، فأمر بوضع الديوان.» على أن هذه الدواوين تولاها أولًا النصارى لعلمهم بتدبيرها. لنا على ذلك مثال جليل في أسرة ابن منصور الدمشقية التي اشتهر منها سرجة أو سرجيون بن منصور من ندماء يزيد بن معاوية (الأغاني، ١٦: ٧)، وكاتب معاوية بن يزيد، وعبد الملك بن مروان على ديوان الخراج والجُنْد (الطبري، ٢: ٨٣٧؛ ابن عبد ربه ٢: ٣٢٢) وابنه يوحنا هو ملفان الكنيسة اليونانية العظيم المعروف بالقديس يوحنا الدمشقي، وكان هؤلاء العمال يكتبون في الرومية أو القبطية أو الفارسية إلى أن تَمكَّن العرب من نظارة تلك الدواوين فنقلوها إلى العربية وذلك في عهد عبد الملك بن مروان، ثم الوليد بن عبد الملك.

(٢-٣) التاريخ

كان للأمم المجاورة للعرب تواريخ للأعوام والشهور يعرفون بها أزمنة الوقائع والحوادث المهمة فكان اليونان يُؤرِّخون بسني الخليقة وبتاريخ الإسكندر ذي القرنين وبمولد المسيح، وكان الفُرْس يُؤرِّخون بيزدجرد بن شهريار، أو أحد ملوكهم، وأرَّخ العرب قبل الإسلام بعام الفيل أو ببعض أيامهم المشتهرة كيوم جبلة، ويوم الكُلاب، ويوم ذي قار، أما المسلمون فقيل: إن عُمَر أول من أرَّخَ منهم في السنة ١٩ أو ٢٠ هجرية، تَعلَّموا ذلك من جيرتهم. جاء في كتاب الشماريخ في علم التاريخ للسيوطي (ص٩، éd. Seybold) «أن رجلًا من المسلمين قدم من أرض اليمن فقال لعمر: رأيت باليمن شيئًا يسمونه التاريخ يكتبون من عام كذا وشهر كذا، فقال عمر: إن هذا لحسن فأَرخوا.» ثم اختلفوا في بدء التاريخ إلى أن اصْطَلحوا على سنة هجرة محمد من مكة إلى المدينة، وجعلوا أول العام شهر المُحرَّم شهر حرام ومُنْصَرف الناس من الحج، قالوا: إنه يوافق يوم الخميس الثامن من شهر آيار لأنه سنة ٩٣٣ للإسكندر.

(٢-٤) الحَلِف

قد اعتاد العرب على القَسَم بالله وبما يقرب إليه كالملائكة والأولياء، قال عبيد بن الأبرص (ديوانه éd. Lyall ص٦٧):

حَلفتُ بالله أن الله ذو نِعَمٍ لِمَن يشاءُ وذو عفوٍ وتَصْفاحِ

وقال الآخر (أمالي القالي، ٣: ٢٩):

أمَّا والذي لا يعلمُ الغيبَ غيرُه ومَن هو يحيي العَظْم وهو رَميمُ
لقد كنتُ أطوي البطن والزَّادُ يُشْتَهى مُحافظةً مِن أن يُقالَ لَئِيمُ

وكانوا في الجاهلية يحلفون بأصنامهم كاللات والعُزَّى ونَسْر، ثم شاع ذلك بينهم حتى النصارى واليهود دون إشارة إلى معتقدهم بها كما يقال باللاتينية حتى في عهدنا: بحق هِرْكِل mehercle، أو بالإيطالية بحق بخوس per Bacco، فكذلك نصارى العرب حلفوا بأصنام الجاهلية وبالأنصاب على سبيل العادة ليس عن اعتقاد ديني، فمن ذلك قول عبد المسيح المُتلَمِّس يهجو عُمرَ بنَ المنذر:

أَطرَدْتَني حَذَرَ الهجاءِ ولا واللاتِ والأنصابِ لا تَئِلُ

ويروى: واللهِ والأنصابِ، ومثلُه مُهلهِل التغلبيُّ حلف بالأنصاب:

كلَّا وأَنْصابٍ لنا عاديَّةٍ   مَعبودةٍ قد قُطِّعَتْ تَقطيعا

وحلف أوس بن حجر باللات والعُزَّى فقال:

وباللات والعُزَّى ومَن دانَ دِينَها   وبالله إنَّ الله منهن أعظمُ

وحلف الأخطل بالعُزَّى وبِنَسْر، وما يضحى عليهما من الضحايا:

أما ودماءٍ ماثِراتٍ تَخالُها   على قُنَّةِ العُزَّى وبالنَّسْر عِنْدَما

وذكر له في الأغاني (٧: ١٧٣) حلفًا قاله افتخارًا على جرير والفرزدق: «أنا واللاتِ أشعَرُ منهما.» فأردف الراوي قائلًا: «حلفَ باللاتِ هزؤًا واستخفافًا بدينه.» (قلنا): بل حلف بها جريًا على عادة العرب دون حمله ذاك الحلف على الدين مع ما نعلمه من تَشبُّث الأخطل بدينه حتى في مجالس الخلفاء، ومما حلف به مشيرًا إلى دينه ما رواه أيضًا أبو الفرج في الأغاني (في الصفحة المذكورة): «وحقِّ الصليبِ.» «وحقِّ الصليبِ والقربانِ.» وروي له في محل آخر (٨: ٨٥): «قُدُّوس قُدُّوس ... وحقِّ الصليبِ.» وقد ذكر له في نقائض جرير والفرزدق حلفًا بالمسيح.

وكذلك لم يأنف النصارى عن الحلف بمكة ومناسك الحج، قال الأخطل (اطلب: ديوانه، ص١١٩؛ وشرح مغني اللبيب، للشيخ محمد الأمير، ١: ٢١٠):

إني حلفتُ بِربِّ الراقصات وما   أَضْحَى بمكَّة من حُجُبٍ وأستارِ
وبالهدايا التي احمَرَّتْ مَذارعها   في يومِ نُسكٍ وتَشريقٍ وتَنْحارِ
وما بِزَمزمَ من شُمطٍ مُحلِّقةٍ   وما بِيَثرِبَ مِن عُونٍ وأبكارِ
لَألجأْتَنِي قَرَيشٌ خائفًا وجِلًا   ومَوَّلَتْنِي قريشٌ بعدَ إعسارِ

وحلَف الآخَرُ بالكعبةِ وإلهِ إسرائيلَ (أمالي القالي، ٢: ٤٦):

قلتُ وكنتُ رَجلًا فَطِينَا   هذا وربِّ البيتِ إسرائينَا

وقد جمع عدي بن زيد الشاعر النصراني الشهير في حلفه بين مكة والصليب (الأغاني، ٢: ٢٤):

سعى الأعداءُ لا يَأْلُون شرًّا عليكَ ورَبِّ مكةَ والصَّليبِ

ومثله الأعشى حلف بإسكيم الرهبان وبالكعبة:

حلفتُ بِثَوبَي راهبِ الدير والتي بناهَا قُصَيٌّ والمضاض بنُ جُرْهُمِ

وورد في الأغاني (١٢: ٧٥) لعبد الرحمن بن الحكم بن أبي العاص:

حلفتُ بِربِّ مكةَ والمُصلَّى وبالتوراة أحلفُ والقُرانِ

وهو القائل أيضًا (إصلاح المنطق، ص٢٢٤):

وإني وربِّ الساجدين عَشِيَّةً وما صكَّ ناقوسَ النصارى أبِيلُها
أُصالِحُكم حتَّى تَبوءُوا بمثلها كصرخة حُبْلَى أسلَمَتْها قَبيلُها

ومما لا شُبهة فيه عن إيمانهم بالمسيح قول عمر بن عبد الحق:

وما قَدَّس الرُّهبانُ في كل بِيعَةٍ أَبِيلَ الأَبِيلينَ المسيحَ ابنَ مَريَما

قال في اللسان (١٣: ٦): وكانوا يُعظِّمون الأبيلَ ويحلفون به، وحلف عدي بن زيد بالقُربان ودعاه الشَّبر (إصلاح المنطق، ١٦٩):

إذْ أتاني خَبَرٌ من مُنعمِ لم أَخُنْهُ والذي أعطى الشَّبَرْ

(٢-٥) الختانة

معلومٌ أنه لا ذِكْر للختانة مطلقًا في القرآن، وإنما يجري عليها المسلمون بموجب السنة والتقليد، والشائع بين الكَتَبة المحدثين أن العرب قبل الإسلام كانوا يختتنون، وفي زعمهم هذا نظر فإن لنا عدة شواهد تثبت أن كثيرين من العرب لم يألفوا الختانة، ومن المحتمل

أن النصرانية أبطلتها بينهم، روى صاحب الأغاني لحاجب[٩] يزيد بن المهلب أبياتًا في هجو اليَمَن ومما ينسبه إليهم أنهم غُرْلٌ غير مُخْتَتِنِين قال (١٣: ٥١):

فَللزِنجُ خيرٌ حينَ تَنسبُ والدًا   من أبناءِ قَحطانَ العَفاشِلَةَ الغُرْلِ

وجاء في التاج (٢: ٣٢٤) بيت للفرزدق عن آل حُوران غير المُخْتَتِنين،[١٠] وكذلك هجا حُريثُ بن عنَّاب بني ثعل ودعاهم بالغُلْف (أغاني، ١٣: ١٠٣)، ومما ورد في نقائض جرير والفرزدق (ص٦٦٩) أن بني عامر يوم شِعْب جَبَلة قَتلُوا ثمانين غلامًا أَغْرَل، وفي أمالي القالي (٣: ٦) ما يُثْبِتُ رأينا قال: «روى الأصمعي عن سلم بن قتيبة قال: كانت إيادٌ تَرِد المياه فيُرَى منها مائِتَا شابٍّ على مائتي فرَس بِشِيَة واحدة، وكانوا أَعدَّ العرب، وإنهم استقلوا بعشرين ألف غلام أَغْرَل فأوغلوا حتى وقعوا ببلاد الروم.»

وقد ذكر ابن الأثير في تاريخه في وصف أيام العرب أنه كان ٦٠٠٠٠ منهم غلفًا دون ختانة، فلا شك أن النصرانية بانتشارها في جزيرة العرب قبل الإسلام كانت أبطلت تلك السنة بين كثير من القبائل.

---

[٩] اسمه حاجب بن ذبيان المازني (الأغاني: ١٣: ٥٠).

[١٠] ومثلهم النبط لم يختتنوا، قال في اللسان (٧: ٦٣):

كأنَّ على أكتافهم نَشْرُ غَرقدٍ   وقد جاوَزُوا نيَّان كالنَّبَط الغُلْفِ

وقد ذكر أبو علي القالي في أماليه (٣: ٤٦) أن بني إياد «استَقلُّوا بعشرين ألف غلام أغرل.»

ومما لا ينكر أن النصرانية كانت نفذت نفوذًا عظيمًا في بادية الشام وبلاد النبيط وحاضرتهم سلَع (Petra) لنا على ذلك شاهد عياني يرقى عهده إلى القسم الأول من القرن الرابع للميلاد ألا وهو أوسابيوس أسقف قيصرية المُلقَّب بأبي التاريخ الكَنَسي، فإنه في شرحه على آية أشعيا (٤٢: ١١): «لتشد البرية ومدنها ... وسكان الصخرة.» قال: «إننا قد شهدنا تحقيق هذه النبوة إذ قد تشيدت كنائس المسيح في عهدنا في عاصمة مدينة الصخرة؛ أي صُلَّع، وفي ضواحيها، بل في بوادي العرب الشرقيين.»

(Eusebius in Isaiam XLII ii: *Lætabuntur qui babitant Petram*): “Cujus sermonis veritatem moxipse eventus comprobavit, cum in ipa Petrensium civitate, et in agro ejus necnon in solitudinibus Sarracenorum Christi Ecclesiæ nostro tempore fundatæ sunt (*Migne*: PG., XXIV, col. 319) — Cujus rei testes ac spectators sunt quotquot in Arabum regionbus peregrinantur.”

(٢-٦) الحجاب

قد فرض الشرع الإسلامي التحجب على نساء المسلمين، وليس المسلمون أول من سبقوا إلى الأمر به، فإن الأمم القديمة كانت تحجب الفتيات إلى عهد زواجهن، فإذا تزوجن أسفرن عن وجوههن، ولنا على ذلك شواهد في سفر التكوين (٢٤: ٦٥؛ و٣٨: ١٤)، وقد ورد مثل هذا الأمر في الآثار الآشورية والرومانية وغيرها، وكذلك الكنيسة لم تزل توصي النساء بالحشمة وتغطية رءوسهن، ولا سيما وقت الصلاة في الكنيسة (١ كور، ١١: ٣–١٧).

على أن صاحب الشريعة الإسلامية عمم ذلك وفرض به على جميع النساء مطلقًا ناهيًا عن سفور وجوههن إلا بإزاء أقاربهن الأدنين، وهذه سنتهم إلى يومنا إلا من تقلدوا الآداب العصرية وتمثلوا بأمم الغرب فيعتبرون الحجاب مضرًّا بتربية الإناث مانعًا لترقية جنسهن باخسًا من قدرهن.

وما لا شك فيه أن عرب البادية لا يحجبون نساءهم، تلك عادة جروا عليها منذ القديم، وما القناع والنصيف والخمار إلا أكسية كانت نساؤهم يسترن بها رءوسهن دون الوجوه وعلى الأقل دون العيون كما ترى في وصاوص المصريات، وفي الشعر الجاهلي ما يؤيد زعمنا، قال المثقب العبدي (المفضليات، ص٥٧٩):

أَرَينَ مَحاسنًا وكَنَنَّ أُخْرَى   من الأجياد والبَشَرِ المَصُون

وورد هناك بين الشروح عن منجول البراقع: «لا يلبس منجولَ البراقع إلا الحسانُ لأنهن يحببن أن ترى وجوههن منها لحسنها، والقِبَاح تلبس الوَصَاوِص لضيقها حتى لا ترى وجوهها لقبحها»، وقال عمر بن أبي ربيعة (المفضليات، ص٢٥٩):

ولما تَواقَفْنا وسَلَّمْتُ أقبَلَتْ   وجوهٌ زَهاها الحُسنُ أن تَتَقَنَّعَا

وروى في الحماسة (ص٥٥٣): «ولما تَفاوَضْنَا الحديثَ وأسفَرَتْ.» قال: «وهكذا كانت نساءُ العرب تفعل إذا كانت جميلة.» بل نَبذتْ كثير من نساء الإسلام الحجاب كما روى المؤرخون، أخبر الصفدي في شرح لامية العجم (١: ٦٨): «كانت عائشة بنتُ طلحة بن عبيد الله لا تَستُر وجهها بشيء فلما دخل بها مصعب بن الزبير كَلَّمها في ذلك فقالت: إن الله عز وجل قد وسَمَنِي بوسم جمال فأحببتُ أن يراه الناس، واللهِ ما فيَّ وصْمةٌ أستترُ لها.»

وقد ذكر صاحب الأغاني (١٠: ١٢٨) أن الخليفة المأمون كان يخرج إلى الشَّمَّاسيَّة ليتنزه بعد قدومه من خُراسان، ثم أخبر أن إبراهيم الموصلي دخل إليه «وهو يشرب مع الجواري وما كانوا يحجبون جَوارِيَهم في ذلك الوقت ما لم يَلِدْنَ.»

(٢-٧) الرِّدَافة

هي من العادات التي اتخذها العرب من الأمم النصرانية المجاوِرة لهم وهي كالوزارة شاعت عند ملوك الحيرة وملوك غسان النصارى، قال في التاج (٦: ١١٥): كانت الردافة في الجاهلية لبني يربوع؛ لأنه لم يكن في العرب أحد أكثر غارة على ملوك الحيرة من بني يربوع فصالحوهم على أن جَعَلوا لهم الردافة ويَكُفُّوا عن أهل العراق الغارة … قال جرير وهو من بني يربوع:

رَبَعْنا وأَرْدَفْنَا الملوكَ فَظَلُّوا　　　وِطَابَ الأجاليبِ الثُّمامَ المُنزَّعَا

وقال المبرد (الكامل، ٧٦٣): «للرِّدَافة مَوضعان أحدهما أن يُرْدِفَه الملوك دوابَّهم في صيدٍ، والآخَرُ أن يَخْلُف الملكَ إذا قام عن مَجلِسه فَينظرَ في أمر الناس، (قال) كان الملكُ يُرْدِف خَلْفَه رجلًا شريفًا وكانوا يركبون الإبل، وأردافُ الملوك هم الذين يَخْلُفونهم في القيام بأمر المملكة بمنزلة الوزراء في الإسلام وأحدهم رِدْفٌ، والاسم الرِّدافَة كالوِزَارة.» وقد ذكر ياقوت في معجم البلدان (٣: ٥١٨) في مادة طِخْفة اليوم المنسوب إلى هذا المكان بين بني يربوع وجيش ملك الحيرة لما أراد بعدَ مَوتِ رِدْفِه عَتَّاب بن هرمي بن رياح بن يربوع أن ينقل الردافة إلى غيرهم فأَبَتْ بنو يربوع ذلك ورَحلَتْ فنزلَتْ طِخْفَةَ وبعَثَ الملك إليهم جيشًا فيه قابوسُ ابنه وابن له آخر وحَسَّان أخوه فانتصر عليهم بنو يربوع، وبَقِيَت الردافة فيهم.

(٢-٨) العمامة

تُنْعَت العمامة عند العرب بتَاجِهم، وقد وصفها أبو الأسود الدؤلي بقوله: العمامة جُنَّة في الحرب ومُكْنَةٌ من الحَرِّ ومِدْفَأة من القُرِّ، ووقارٌ في النوادي، وزيادة في القامَة، وهي تُعَدُّ من ميزة سادة العرب، قالت الخنساء في أخيها:

فارسُ الحربِ والمُعمَّمُ فيها　　　مَدرَهُ الحربُ حين تلقى نِطاحَا

وقد شاعت العمامة خصوصًا بين نصارى اليمن والعراق، ومِمَّا يروي صاحب الأغاني في خَبَر أساقفة نَجران مع نبي الإسلام أنهم كانوا «من السادة المُعمَّمِين» وترى إلى يومنا العمامة من مميزات كهنة وأساقفة وبطاركة الكلدان في العراق وجهات ما بين النهرين.

الفصل الثالث عشر

الشعر النصراني وشعراء النصرانية بين عرب الجاهلية وأول الإسلام

هذا آخِرُ فصلٍ من كتابنا «النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية» نختم به القسم الثاني منه المختص بآداب النصرانية، وقد أَجَّلْنَاه إلى آخِر الكتاب لنجعل كل ما سبق كتوطئة له؛ إذ كان غرضنا أن نبين نصرانية معظم الشعراء الذين سبقوا الإسلام.

(١) أصل الشعر العربي

زعم بعض الثَّرْثارين المُتفَيْهِقين أن الشِّعر العربي سبق الإسلام بمِئينٍ من السنين بل سبق ميلاد السيد المسيح بأجيال عديدة حتى نَسبُوا منه نُتفًا إلى زمن نبي يَدعونه هُودًا يزعمون أنه عاش قبل إبراهيم الخليل في الألف الثالث قبل المسيح، وتَوغَّل غيرهم في غُلُوِّهم وأوهامهم فرَوَوا لآدمَ أبي البشر أبياتًا رثى بها — على رأيهم — ابنَه هابيلَ القتيل فعارَضه فيها إبليس الرجيم.[١]

تلك مزاعم يضحك منها العلماء ويضرب بها عُرْضَ الحائطِ كلُّ من له أدنى إلمام بتاريخ اللغات عمومًا واللغة العربية خصوصًا.

وقد ارتأى البعض أن سِفْر أيوب المورود في التوراة عربيُّ الأصل عربيُّ اللهجة والتَّصوُّرات شِعْرِيُّ الصورة، وقد استوطن أيوبُ صاحبه غربي جزيرة العربية في البَثَنيَّة وضمَّن آياته كثيرًا من التشابيه والأوصاف الشائعة بين العرب كذِكْر النجوم ووصف الخيل وغير ذلك. نُجِيب على هؤلاء أن في هذا الرأي نظرًا لأسباب منها أن سفر أيوب لا

---

١ اطلب: مجلة المشرق، ٦، ١٩٠٣م، ٤٨٩–٤٩٣.

يُعْرَف منه منذ نحو ثلاثة آلاف سنة غير ترجمته العبرانية، ثم ليس لدينا حُجَّة قاطعة يمكننا أن نستند إليها لنثبت كتابته في لغة أخرى، فإن مضامين هذا السفر والتقليد اليهودي القديم لا يذكران شيئًا من ذلك، وعلى كل حال إذا صح قول العلماء بأن سفر أيوب كُتِب بالأصل في العربية، فلا شك أن تلك العربية كانت مختلفة عن عربيتنا التي هي لهجة بعض قبائل الحجاز لهجة قريش التي لم تَشِعْ إلا بعد قرون عديدة، ولعلها النبطية أو لغة أخرى أقرب إلى الآرامية منها إلى العربية، ومن ثم ليس من الممكن الاستناد إلى هذه اللغة المزعومة لنجعلها أصل شعرنا العربي في الوقت الحاضر.

وإن تتبعنا بعد ذلك سياق الأجيال منحدرين إلى أوائل النصرانية لا نجد ذكرًا للغة العربية إلا بعض تقاليد مستحدثة رواها الرواة بعد الإسلام لا يوثق بها، ولسنا لننكر أن العرب في تلك الأثناء تكلموا بلغة خاصة لكن تلك اللغة كانت تختلف اختلافًا عظيمًا في كل قبيلة على اختلاف مواقعها في أنحاء الجزيرة وتأثير اللغات المجاورة لها، وحالة المتكلمين بها من أهل الحضر أو أهل المدر، فيطلقون على كل هذه اللهجات اسم اللغة العربية كما يطلقون اسم العرب على أهل الجزيرة مع اختلاف عناصرهم القحطانية والعدنانية والإسماعيلية.

ولعل بعض رجال تلك القبائل بعد أن بسط الرومان سيطرتهم على نواحي العرب فقَلَّدُوهم بعض أعمالها، دَوَّنوا شيئًا من مآثر لغتهم فأخذَتْها أيدي الضياع، ومن الشواهد الحسنة التي يمكننا أن نثبت بها قولنا كتابة حجرية وجدت في رومية سنة ١٧٧٣م.[٢] راقية إلى أوائل القرن الثاني للمسيح في عهد تراجانوس القيصر، وهذه الكتابة لاتينية كتبها ورَّاق عربي اسمه مرقس أولبيوس كستوراس كان رافق حملتي الرومانيين في غالية وفي سورية فجعلها على ضريح رجل اسمه مرقس أولبيوس سيمفورس كان معه في الحملتين:

> M. Ulpius Symphorus vixit ANNIS XXIV … Ulpius CASTORAS LIBRARIUS BENE MERENTI QUOD is EXPEDITIONIBUS DUABUS GALLIÆ ET SYRIÆ SECUM FUERAT.

[٢] اطلب: المجلة الآسيوية الفرنسوية (J. As. 1840 I. p. 199)؛ وكتاب لينورمان في الكتابة الفينيقية (Essai sur la Propagation de l'Alphabet Phénicien. II, 145).

فذكر ورَّاق أو كاتِب عربي في ذلك العصر من الأمور الغريبة التي تُثْبِت ما كان للعربية من الشأن في تلك الأيام، ولكن ما هي تلك العربية التي يشار إليها أهي عربية قريش؟ أو النبطية أو الحميرية أو لغة قبائل الشام الخاضعة للرومان؟ كل ذلك محتمل ولا يمكن بَتُّ الحكم به، وما لا شك فيه أن ذلك الكاتب لم يَخُطَّ كتاباته بالقلم العربي الذي برز للوجود في أواسط القرن السادس للمسيح فقط، وإنما كانوا يكتبون قبل ذلك بأقلام لغات أخرى أخصها في جنوبي جزيرة العرب الحِمْيَرية، والمينوية، وفي الشمال بالنبطية والثَّمُودية واللِّحْيانية والصَّفَوية، وقد وُجِدَت من كل هذه الخطوط أمثال مختلفة في جهات العرب يرقى بعضها إلى ما قبل المسيح.

وقد سبق لنا القول: إن أقدم كتابة تقرب لهجتها من عربية قريش هي الكتابة الضريحية التي وجدت في جهات الصفا على قبر ملك العرب امرئ القيس بن عمرو وتاريخها في ٧ من شهر كانون الأول سنة ٣٢٨ للمسيح، وهي مكتوبة بالحرف النبطي الجميل أوردنا سابقًا رسمها، أما لغتها فمع قربها من لغة قريش أي لغتنا الفصحى لا تزال مضطربة مشوشة مختلطة بألفاظ غريبة.

فإن كان المنثور في القرن الرابع للمسيح على هذه الصورة فما قولنا بالموزون؟ ولنا هنا أيضًا شاهد صادق على أن العرب في ذلك الجيل لم يجهلوا الشعر، وهو لأحد المعاصرين المؤرخ اليوناني سوزومان.[٣] فإنه في تاريخه الكَنَسي في الفصل الثامن والثلاثين منه يذكر مُحارَبة ماوية ملكة عرب الشام للرومانيين وانتصارها على جيوشهم ثم تَنَصُّرها وتَنَصُّر قومها على يد أحد السُّيَّاح المدعو موسى، فهناك يصرح المؤرخ بما شاع من الأغاني الحماسية بين رعايا ماوية يُعَدِّدُون فيها مآثرهم وغاراتهم على الرومان وهذا نصه:[٤]

> Hæc ita gesta multi ex earum regionum incolis etiamnum commemorant et apud Saracenos vulgo cantibus celebrantur.

وما يقوله المؤرخ سوزومان عن الأغاني الحماسية يجوز أن نُطْلِقَه على بقية أمورهم كالأفراح والأحزان والمديح والغزل والفخر؛ لأن الغناء غريزة في الإنسان، ولكن يا تُرَى

٣ **Sozom: H. E,** *L. VI, ch. 38; Migne, pp. GG, LXVII, col.* 1410.

٤ **Sozom: H. E.,** *L. VI, ch. 38; Migne, pp. GG, LXVII, col.* 1410.

ماذا كانت أوزان تلك الأغاني؟ وكم كانت أجزاؤها؟ كيف كان إيقاعها؟ وهل كانت لغتها فصيحة كلغتنا أو بالأحرى كانت لهجة خاصة لتلك القبائل؟ إننا نجهل كل ذلك.

فلكي نستطيع أن نبني كلامنا على أساس متين لا بد أن نتقرب إلى زماننا بزهاء مائتي سنة، أعني إلى أوائل القرن السادس للمسيح فإن الشعر العربي الموزون ذا الأبحر المتعددة والإيقاع الثابت لا تُرَى آثاره قبل ذلك.

ويؤيد قولنا اتفاق كتبة العرب الأقدمين. قال الجاحظ في كتاب الحيوان (١: ٢٧): «أما الشعر فحديث الميلاد صغير السن، أول من نهج سبيله وسهَّل الطُّرُق إليه امرؤ القيس بن حجر، ومهلهل بن ربيعة … فإذا استظهرنا الشعر وَجَدْنا له إلى أن جاء الله بالإسلام خمسين ومائة عام، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتي عام.»

وذكر السيوطي في المزهر (٢: ٢٣٨) لعمر بن شَبَّة في طبقات الشعراء قوله:

«وهؤلاء النَّفَر المُدَّعَى لهم التَّقدُّم في الشعر متقاربون لعل أقدمهم لا يسبق الهجرة بمائة سنة أو نحوها.»

على أن هذا القول يصح في القصائد المطولة ليس في الأبيات القليلة التي لعل بَعضَها يرتقي إلى أواسط القرن الخامس، قال محمد بن سلام الجمحي في طبقات الشعراء (ص١٨): «لم يكن لأوائِلِ العرب من الشعر إلا الأبيات يقولها الرجل في حادثة، وإنما قُصِّدَت القصائدُ وطُوِّل الشعر على عهد عبد المطلب، وهاشم بن عبد مناف.»

فيبقى البحث عن تلك الأبيات المفردة والقليلة، فكيف اهتدى إلى نَظْمِها العرب؟ هل ابتكروها دون علم سابق؟ أو حذوا فيها حذو غيرهم من الأمم المجاورة لهم كالحبش والروم والسريان؟

قلنا: إن الغناء غريزة في الإنسان والغناء يحتاج إلى بعض الوزن والإيقاع، فلما أراد الناطقون بالعربية المحضة، وهي عربيتنا التي أخذت بالثبات في القرن الخامس للمسيح ابتدءوا بالتعبير عن عواطفهم وإحساساتهم في الحب والتحمس والغضب والوصف بما يقرب من الشعر الموزون، أعني بالكلام المسجع الذي روى منه الرواة الأقدمون بعض المقاطيع كان يرتجلها الكهان والعرافون وبعض القوالين، فمن أقدم ما رووا من ذلك قول ظريفة الخير الكاهنة تنذر زوجها الملك عمرًا بسيل العرم (المسعودي، في مروج الذهب، ٣: ٣٧٩):

«ما رأيت اليوم، قد ذهب عني النوم، رأيتُ غيمًا أبرَقَ، وأرعَدَ طويلًا ثم أَصعَقَ، فما وقع على شيء إلا احترق، فما بعد هذا إلا الغرق.» (وقالت ص٣٨٢): «هي داهية

ركيمة، ومصيبة عظيمة، بأمور جسيمة ... إن لي فيها الويل، مما يجبي به السيل ... خطب جليل، وحزن طويل، وخلف قليل، وعدٌ من الله نزل، وباطلٌ بَطل، ونكالٌ بنا نكل، فبغيرك يا عمرو فليكن الثكل.»

فترى في هذه الأقوال أسجاعًا متتالية بينها شيء من الموازنة فانتقلوا منها إلى أبسط البحور، وهو الرَّجَز فلزموا التقفية كلُزومهم الأسجاع في المنثور وراعوا فيه عدد الأجزاء والوزن مع جوازات كثيرة، وكانت أبياته قليلة، قيل: إن من أقدمِ ما ورد منه قول دُوَيد بن زيد بن نهد حين حضره الموت:

اليومَ يُبْنَى لِدُوَيدٍ بَيتُه   لو كان للدَّهرِ بِلًى أَبْلَيْتُه
أو كانْ قِرْنِي واحدًا كَفَيْتُه   يا رُبَّ نَهبٍ صالحٍ حَوْيتُه
ورُبَّ غيلٍ حَسَنٍ لَوَيْتُه

وقول امرئ القيس إذ بلغه خبر قتل أبيه بِدمُّون في نواحي اليمن:

تَطاولَ الليلُ عَلينا دَمُّونْ   دَمُّونُ إنَّا مَعْشرٌ يَمانُونْ
وإنِنَّا لِقومِنا مُحِبُّون

ومثله لكليب أخي المهلهل، وتروى لطرفة ارتجز بها إذ رأى قنابر تلتقط حبًّا ينثر لها:

يا لكِ من قُبَّرَةٍ بِمَعْمَرِ   خلَا لك الجوُّ فبِيضي واصْفرِي
قد رُفِعَ الفخُّ فماذا تَحْذَرِي   ونَقِّري ما شئتِ أن تُنَقِّري
قد ذهبَ الصياد عنكِ فأبشري   لا بد يومًا أن تُصادِي فاصْبِري

فإن كان السجع والرجز المذكوران هما — كما يظهر — أصْلَ الشِّعر العربي ترتقي آثارهما إلى أوائل القرن السادس أو أواخر الخامس، فيجب البحث عن أُمَّة مجاورة للعرب أمكنهم أن يتقلدوها في سَجْعِهم ورَجَزِهم السابقين، وإننا نرى أن تلك الأمة كانت الأمة الآرامية؛ أي الكَلْدان والسُّرْيَان الذين كانوا منذ أواسط القرن الرابع بعد تَنصُّرِهم زَيَّنُوا كلامهم المنثور بالسجع والفواصل ونَظَمُوا شعرًا يقرب من أراجيز العرب، ولما كان الآراميون يَسْتَوطنون حدود العرب، وكثيرًا ما امتزجوا بهم امتزاج الماء بالراح وبَنَوا في جزيرتهم العددَ العديد من الأديرة والمناسك حيث كان الرُّهبان يَتغَنَّون بالتسابيح، ويُحْيون لياليهم بالأناشيد الروحية، فيسمعهم أهل البادية ويُردِّدون نغماتهم فتبعثهم

على الاقتداء بهم كما فعلوا بعد ذلك في تجويد القرآن على ما أثبتنا سابقًا، فلا نشك أن العرب أخذوا أيضًا عن نصارى السريان والكلدان تسجيع الكلام وموازينه الشعرية البسيطة كما ترى في الأراجيز العربية، ولعل القبائل القريبة من الروم وجدت أيضًا في تلحينهم وغنائهم وشِعْرِهم ما دفعهم إلى التشبه بهم في آدابهم.

ويؤيد قولنا هذا أن كثيرًا من القبائل العربية المُتَنَصِّرة كانت تحضر ما يُقِيمه في وسطها من الرتب الدينية الأساقفة والكهنة، خصوصًا في جهات الشمال والشمال الغربي حيث توفرت الكنائس النصرانية الكلدانية والسريانية، وفي جهات الشام شرقي دمشق، وفي نواحي الأردن حيث انتشرت اليونانية وأقيمت الطقوس الكنسية في تلك اللغة، أما القبائل المتنقلة فكان يرافقها أساقفة أو كهنة يدعون بأساقفة المضارب كما شرحنا ذلك كله في القسم التاريخي، فلا غرو أن العرب الذين كانوا يعاينون تلك المحافل الدينية ويسمعون ألحانها تأثروا منها فاستفزتهم قريحتهم إلى أن يجروا عليها نوعًا، سواء كان في غنائهم أو في شعرهم.

ولنا فيما رويناه عن سوزومان المؤرخ شاهِدٌ آخَر على رأينا إذ ينسب إلى بني غسان تلك الأغاني العربية التي كانوا ينشدونها بعد محاربتهم للرومان، وهو في الفصل عينه يذكر تَنصُّرَهم، وفي ذلك دليل على أصل كلامهم الموزون وعلاقته مع دينهم النصراني، سواء كانت تلك الأغاني أسجاعًا مرصوفة أو أراجيز موزونة.

(٢) في تَرقِّي الشِّعْر العربي وتَقْصيد القصائد

كان بحر الرَّجَز كأساسٍ أول للشعر العربي. على أن تفاعيله بما فيها من الجوازات الشعرية العديدة ما لَبثَتْ أن برزتْ على صورٍ شتى تَفنَّن بها الشعراء بتركيب الأسباب والأوتاد فأخرجوها على أوزان مختلفة جرَوا عليها بفطرتهم دون أن يدونوها بكتاب مكتوب، فبَقِيَت سماعية تقليدية إلى أن قام الخليل في القرن الثاني للهجرة وأمعن النظر في صورها وأوزانها واستخرج أعاريضها وأثبتها على قواعد صحيحة، وإلى ذلك أشار ابن رشيق في العمدة (ص٥) بقوله في أصل الشعر العربي: «كان الكلام كله منثورًا فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارِم أخلاقها، وطيب أعراقها، وذِكْر أيامها الصالحة، وأوطانها النازحة، وفُرسانها الأنجاد، وسُمَحائها الأجواد؛ لتهز نفوسها إلى الكرم، وتدل أبناءها على حُسْن الشِّيَم، فتوهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام، فلما تم لهم وزنه سَمَّوه شعرًا لأنهم قد شَعروا به؛ أي فطنوا له.»

وهنا لا نتردد في القول بأن الذين قاموا بذلك فوضعوا هذه الأوزان إنما كانوا من العرب المُتَنَصِّرين من قبائل غَلَبتْ عليها النصرانية بشهادة قدماء المؤرخين، لا سيما المسلمين كقبائل ربيعة التي منها بكر وتغلب ويشكر وحنيفة وكقبائل قُضاعة، ومنها كلب وتنوخ وكقبائل اليمن ومنها كندة ولخم وغسان وبعض قبائل قيس كَذُبيان وعبس، نحيل القراء لإثبات نصرانيتهم إلى قسمنا الأول في تاريخ النصرانية في عهد الجاهلية.

وعلى رأينا أن شعراء الجاهلية الأولين إذ اكتحلوا بنور النصرانية واحْتَكُّوا بأهلها من الأمم المجاوِرة كالسريان واليونان والحَبَش، ودخلوا على ملوكها العرب الغساسنة والمناذرة وبني الحارث، وكان تَمدُّن اليونان والروم والفرس غلب عليهم تأدَّبُوا بآدابهم وجارَوْا أولئك الطوائف في بلاغتهم وتأنَّقُوا بالنَّظْم على مثالهم.

وساعد الشعراء في تقصيد قصائدهم ما جرى في القرن السادس للمسيح من الوقائع والحروب التي اشتهر فيها العرب، سواء كانت تلك الحروب أهلية بين القبائل كحرب البسوس أو جرت لهم مع الأجانب كحرب ذي قار بين العرب والفرس، فإن الشعراء وجدوا فيها ما استفز قريحتهم وهَيَّج إحساساتهم فوصفوها بقصائدهم وللنصارى منهم فيها حظ وَفِيٌّ كما سترى.

(٣) الشعر النصراني

رأيت فيما سبق أن النهضة الشعرية كانت خصوصًا في القرن السادس للمسيح؛ أي القرن السابق لظهور الإسلام، وفي تأخُّر تلك النهضة سرٌّ غامض ارتاب في فَكِّه الباحثون عن أخبار الجاهلية، فهذه أمة عظيمة منتشرة في بلاد تكاد مساحتها تساوي مساحة أوروبة على أطرافها الممالك الوطنية ذات الجاه والشرف والسلطان سبقت الإسلام بعدة قرون لا ينقصها شيء من أسباب الحضارة والعمران بينها أرباب العقول الراجحة والأذهان المتقدة لسانها من أغنى الألسنة وأشرفها وأقدرها على التعبير عن كل العواطف البشرية، وهي مع ذلك لم تُنْتِج شاعرًا مُفلِّقًا قبل أوائل القرن السادس، وذلك بإقرار أقدم الكتبة من العرب، فكيف يا ترى يمكن تعليل ذلك الخمول؟

إننا طالما أَمَعَنَّا النظر في هذا الأمر، واستقصينا البحث فيه فلم نجد له شرحًا مقبولًا إلا بأن نقول: إن النصرانية كانت أصل تلك النهضة، ولأنها لم تبلغ في جزيرة العرب نفوذها وعِزَّها إلا في القرن السادس، وإن كان دخولها إلى الجزيرة سبق ذلك العهد، فكذلك بلغت النهضة الأدبية معها إلى أوج عِزِّها في ذلك الجيل.

(١) وكان من نتائج تَوغُّل النصرانية في جهات العرب أنها سَوَّلَت لهم طرقًا للكتابة التي لا تستطيع الآداب أن تنتشر وتَترقَّى دونها، فاستمد العرب فَنَّ الكتابة من نصارى العراق والنبط والحبش، تلك المصادر الثلاثة للأقلام العربية الأولى، أعني القلم النَّسْخي والمُسْنَد والكُوفي، وقد أثبتنا ذلك في باب خاص عليك بمراجعته [القسم الثاني، الفصل الأول]، وناهيك به على ما كان النصرانية من السَّهم الأفوز في حفظ المآثر الأدبية ونشرها، وقد وقع ذلك في القرن السادس.

(٢) وكان للنصرانية فضل آخر على ترقية الآداب بين العرب أن أربابها مع نَشْر الكتابة نشروا أيضًا التعليم، إما بفتح المدارس للناشئة وإما بالتعليم الخاص، وقد جمعنا في فصل سابق [القسم الثاني، الفصل الحادي عشر] بعض الشواهد المثبتة لقولنا منها المدارس المتعددة المُنْشأَة في العراق في أديرة الرهبان وغيرها كان يحضرها أحداث العرب كما ذكرنا هناك عن المُرَقَّشَيْن الأكبر والأصغر، وعن عدي بن زيد، وعن ورقة بن نوفل، والبراق بن روحان، ونَوَّهْنا أيضًا بذكر معلمين نصارى في مكة والمدينة وغيرهما، فليت شعري أيحتاج إلى برهان أعظم لبيان تأثير النصرانية في آداب الجاهلية وشعرائها المبرزين في ذلك القرن السادس؟

(٣) ومن الأدلة المقنعة على أن النصرانية هي التي بعثت الشعر العربي وأخرجته من مهده في القرن السادس أن ذلك الشعر كان ظهوره أولًا بين القبائل النصرانية، فإن استثنينا على ذلك أقدم الكتبة كابن قتيبة في كتابيه المعارف، وفي الشعر والشعراء، وابن سلام الجمحي في طبقات الشعراء (ص٢٢)، وابن الرشيق القيرواني في العمدة (ص٥٤) ثم السيوطي في المزهر (٢: ٢٣٨) أجابونا باتفاق الأصوات أن الشعر العربي كان أولًا في ربيعة، وقد أثبتنا شيوع النصرانية في ربيعة كما أجمع عليه الرواة كابن قُتَيبة (في المعارف، ص٣٠٥)، وابن رسته في الأعلاق النفيسة (ص٢١٧) وغيرها (راجع [القسم الأول، الفصل الثاني])، ومن ربيعة كانت تلك القبائل العظيمة التي كادت تستولي على جزيرة العرب كبكر وتغلب ابني وائل، وكبَنِي امرئ القيس وشيبان وعجل وحنيفة، وقد تحققنا نصرانيتها كلها استنادًا إلى معظم الكتبة، فالنتيجة بعد ذلك ظاهرة وهي نصرانية الشعراء المنتمين إليها الذين سبقوا غيرهم زمنًا كما سبقوهم إلى تقصيد القصائد، قال الفرزدق يذكر المهلهل التغلبي:

ومُهَلْهِل الشعراء ذاك الأول

(٤) ولنا بَيِّنَة أخرى على نصرانية هؤلاء الشعراء الأولين نَعْنِي بها منازلهم التي كانوا يسكنونها مع قبائلهم، فإن قبائل ربيعة كانت تحتل مَفاوِز ما بين النهرين من الفرات شرقي حلب وجنوبها إلى جهات الموصل والعراق، ولا يزال يُطْلَق على قسم كبير منها اسم ديار بكر، وديار ربيعة، وكانت هناك النصرانية راسخة القدم منذ القرن الرابع للمسيح فتنسك فيها الحبساء بعدد وافر كصعيد مصر، وتشيدت فيها أديرة ذكر منها كتبة السريان والعرب ما ينيف على المائة عدًّا، فما لبثت تلك القبائل العربية أن جحدت الشرك ودانت بدين المسيح، وقد روينا في القسم التاريخي كثيرًا من أخبارها والشواهد على تَنصُّرِها نقلناها عن أصدق الرواة من يونان ولاتين وسريان بينهم كتبةٌ كانوا معاصرين للأمور التي يخبرون بها وشهود عيانيون لما يدونونه في بطون التواريخ، فتارة يذكرون كنائسهم وتارة أساقفتهم الساكنين بينهم في الحَضَر والمَدَر وتحت الخيم، وحينًا مزاراتهم الدينية إلى غير ذلك من الدلائل الصريحة على إيمانهم.

فلما ظهر الإسلام أقرَّ كَتَبَتهم بما تحققوه من تَنصُّر تلك القبائل، وقد دَوَّنَّا ما أعلنوا به حيث قالوا: «إن من قبائل العرب المُتَنَصِّرة بكر وتغلب ولخم وبَهْراء وتنوخ وجذام.» وكلهم من ربيعة أو من القبائل اليمنية المحالفة لها.

ومما يجدر بالاعتبار أن بين هؤلاء الشعراء قرابة يستدل بها أيضًا على وحدة دينهم، فإن كليبًا والمُهَلْهِل كانَا خالي امرئ القيس بن حجر الكندي وأمه فاطمة أختهما، وكان المُرَقَّش الأكبر عوف بن سعد عم المُرَقَّش الأصغر عمرو بن حرملة، وكان هذا عم طرفة بن العبد، وكانت أم طرفة وردة، وهي أخت المتلمس جرير بن عبد المسيح.

(٥) ويؤيد قولَنا في نصرانية هؤلاء الشعراء أن مَن يراجع دواوينهم أو ما رُوي عنهم من القصائد لا تجد فيها أثرًا للشِّرْك وعبادة الأصنام، اللهم إلا في بعض الأقسام التي بَيَّنَّا أنها كانت ألفاظًا جارية على ألسنتهم كما ترى من أشكالها في ألسنة كل الشعوب دون إشارة إلى مُعتقَد الْبَتَّة (اطلب [القسم الثاني، الفصل الثاني عشر]).

(٦) وعلى خلاف ذلك تجد في شعرهم آثارًا بينة لاعتقادهم بالإله الواحد وبخلود النفس مع اقتباسات وإشارات واضحة إلى الأسفار المُقدَّسة وإلى الأنبياء وإلى العادات النصرانية، وقد جمعنا منها فصولًا واسعة مَرَّ ذِكرُها في كتابنا هذا فلتراجع، وهذا يصح أيضًا في معظم الشعراء الذين جمعنا قصائدهم في كتاب شعراء النصرانية، سواء كانوا من إيادٍ أو مُضَر أو قُضاعة أو طيئ أو من القبائل اليمنية.

ولا شك أننا كنا وجَدْنا في منظوماتهم ما هو أدلُّ على دينهم لو لم يُفْقَد كثير منها، وزد على ذلك أن أهل اللغة الذين حاوَلوا جَمْع تلك الآثار لم يباشروا بتدوينها إلا في أواسط القرن الثاني للهجرة إذ كان قسم كبير منها قد أخذته يد الضياع أو تَلِفَ بالنسيان، وكان هؤلاء الرواة مسلمين لا يهمهم غير الفرائد الأدبية والنوادر اللغوية فيضربون الصفح عَمَّا يُعَزِّز دينًا غير الدين الإسلامي، ويثبت ذلك ما تجد في المعاجم من أبيات متفرقة دُوِّنَت في مظانها يستفاد منها أشياء كثيرة من نصرانية أهل الجاهلية رويناها فيما سبق كلآلئ فريدة من قلائد منفرطة.

وإن قيل ما لهم لم يُصَرِّحوا بنصرانية هؤلاء الشعراء، فيُزِيلوا بذلك الشك والريب؟

«**السبب الأول**»: لذلك كما قلنا إن الرواة السابق ذِكْرُهم قَلَّما سَعَوا في البحث عن أديان أولئك الشعراء، وإذا تَصفَّحتَ ما نقلوه من أخبار شعراء الجاهلية لا تكاد تجد تنويهًا بأحوالهم الدينية، وإن ذكروا شيئًا من ذلك رَوَوه استطرادًا لا تعمدًا، ولولا إشاراتٍ خفيفة عن البعض الذين لا شبهة في نصرانيتهم لما تحققنا دينهم كقس بن ساعدة، وعدي بن زيد، وجابر بن حُنَي، والبرَّاق بن روحان، وبسطام بن قيس.

«**السبب الثاني**»: لسكوتِ الرواة عن نصرانية أولئك الشعراء أنهم كانوا من قبائل عِصامِيَّة صحيحة النسب، فما كانوا يرون داعيًا إلى ذكر دينها وكلها متساوية في شرف جنسها العربي من قحطان أو من عدنان على خلاف القبائل اليهودية، فإن الكتبة الأقدمين يُميِّزُونها عن القبائل العربية ويصرحون بيهوديتها نسبًا ودينًا كقريظة والنضير.

«**والسبب الثالث**»: الذي قضى على الرواة المذكورين الإضراب عن ذكر أديان الشعراء ما وجدوه من الاختلاف في نصرانيتهم، فإن دعاة النصرانية الذين دخلوا في جهات العربية لم يكونوا على معتقَد واحد، فكان بينهم الصحيح الإيمان كالقديس بنتانوس (S^t Panténe) وأوريجانوس، وموسى رسول الغسانيين، والقديسيين هيلاريون ونيلوس وأفتيموس، ثم عقبهم النساطرة في العراق وفي سواحل البحرين وعمان واليمن، واليعاقبة في جهات الفرات وما بين النهرين وبادية الشام، وكان فر إلى جزيرة العرب كثيرون من المبتدعين لينجوا من نقمة ملوك الروم وغيرهم كاللاأدريين، والمندائيين، ومُتَنصِّرِي اليهود المدعوين بالإبيونيين والكسائيين وهلم جرًّا، حتى إن القديس أبيفانيوس منذ القرن الرابع كان يصف جزيرة العرب بكثرة بدعها وأضاليلها.

ومن ثم إذا تكلمنا عن شيوع النصرانية في جزيرة العرب لسنا نقصد بها الديانة الكاثوليكية الخالية من كل ضلال بل الدين المسيحي عمومًا مع ما اختلط به من آراء الهراطقة الباطلة، والحق يُقال: إن تَوَفُّر هذه الشِّيَع وتعاليمها المتناقضة هي التي سَوَّلَت للإسلام الفوز بالنصرانية في جزيرة العرب وفي البلاد الخارجة عنها، وقد ظهر بعد ذلك في نفس الإسلام شيء كثير من تلك البِدَع كما ترى في كتاب المِلَل والنِّحَل للشهرستاني، ولابن حزم وغيرهما، فكانت كَنارٍ تحت رماد شَبَّت بمساعي الخوارج والملحدين في أيام الخلفاء.

وآراؤنا هذه عن شيوع النصرانية في كل أنحاء العرب ونفوذها في آدابهم وشعرهم قد تَحقَّقها غيرُنا من كبار المستشرقين كدي ساسي، ولونورمان في فرنسة، و«بلغراف Palgrave»، وليال في إنكلترة.[٥] وولهوزن في ألمانية فيرون في معظم الشعر الجاهلي من عواطف وتصوير أفكار ومعرفة حقائق عقلية وأدبية ما لا يمكن نسبته إلى غير النصرانية مما يخالف المعلومات التي سبق كتبة السريان واليونان والرومان فرَوَوْها عن العرب قبل ذلك العهد، وذلك وفقًا لما نعلم عن تَنصُّر المَناذرة والغَساسنة وملوك كندة وبعض التبابعة، فأثَّرَت نصرانيتهم في شعراء ذاك القرن السادس ندماء أولئك الملوك فقصدوهم متدينين بدينهم، وقَلَّما تجد شعراء نَبَغوا حينئذٍ في نواحٍ أخرى من العرب كنجد والحجاز، وإن وجد بعضهم فآثار النصرانية فيهم ظاهرة كورقة بن نوفل، وزيد بن عمرو، وشعراء طيئ.

(٤) شعراء النصرانية

إذا ما تخطَّيْنا الآن من هذه البينات والأدلة العمومية عن الشعر النصراني ونفوذه بين عرب الجاهلية واعتبرنا أفراد الشعراء الذين أثبتنا أسماءهم وقصائدهم في كتابنا «شعراء النصرانية» تَمهَّد لنا الطريق للحكم بنصرانيتهم إما بتاتًا وإما ترجيحًا، فها نحن نستقري ذكرهم على سياق قبائلهم التي انتسبوا إليها.

---

[٥] اطلب: كتاب ليال، في مقدمة ترجمته الإنكليزية (**G. Lyall**: Translation of Ancient Arabian Poetry).

(٤-١) أولًا: قبائل ربيعة

قبائل ربيعة كثيرة العدد كانت تسكن في الجهات الممتدة بين الفرات والخابور إلى أنحاء العراق، وبنو ربيعة على اختلاف قبائلهم يتصلون بربيعة بن نزار جدهم الأعلى، وفي ربيعة خصوصًا انتشر الدين النصراني كما روى كثيرون من كتبة المسلمين؛ كابن قتيبة، وابن رسته، والقاضي صاعد الأندلسي، والفيروزآبادي (راجع أقوالهم في [مقدمة المؤلف: عرب الجاهلية])، ولا تجد فيما يُرْوَى من شعرهم أثرًا للشرك وعبادة الأصنام وفيه على خلاف ذلك من الأقوال في التوحيد وتُقَى الله ومَدْح الفضيلة ما يدل على تأثير التعاليم النصرانية في قلوبهم، إذ كانوا محاطين في أنحائهم بالسياح وأديرة الرهبان والكنائس، ويتردد أكثرهم على ملوك الحيرة المُتَنَصِّرين ويمدحونهم، وثبتت النصرانية في ربيعة مدة بعد الإسلام، وقد ذكر في الأغاني (٢٠: ١٢٧): «نصارى بعض أحياء ربيعة في عهد بني أمية.»

(أ) شعراء تغلب

لا نظن أن أحدًا ينكر علينا نصرانية تَغْلِب مع اتفاق الكتبة القدماء على اعتصامها بالدين المسيحي، وذلك قبل الهجرة بزمن طويل يمكن ترقيته إلى ما وراء القرن الخامس للميلاد إلى عهد السُّيَّاح والرُّهْبان الذين أزهروا في الجزيرة في القرن الرابع للمسيح، وقد مرَّت لنا الشواهد على ذلك في القسم الأول، ومن ثَمَّ لا حاجة إلى إثبات نصرانية شعراء تغلب الذين نظمناهم في سلك كتابنا شعراء النصرانية وهم ثمانية هذه أسماؤهم على ترتيب ذكرهم في الكتاب مع الإشارة إلى الصفحات التي وردت فيها أخبارهم:

١	كليب وائل	شعراء النصرانية	ص١٥١–١٥٩
٢	المهلهل أخو كليب	شعراء النصرانية	ص١٦٠–١٨١
٣	السفاح التغلبي	شعراء النصرانية	ص١٨٢-١٨٣
٤	الأخنس بن شهاب	شعراء النصرانية	ص١٨٤–١٨٧
٥	جابر بن حُنَي	شعراء النصرانية	ص١٨٨–١٩١
٦	أفنون بن صريم بن معشر	شعراء النصرانية	ص١٩٢–١٩٤
٧	عُمَيْرَة بن جُعَيْل	شعراء النصرانية	ص١٩٥-١٩٦
٨	عمرو بن كلثوم	شعراء النصرانية	ص١٩٧–٢٠٤

فهؤلاء كلهم سواء صرَّحوا بدينهم النصراني كما ترى في ترجمة جابر بن حُنَي أم سكتوا عنها فلا شك بنصرانيتهم.

(ب) شعراء بكر

إن نصرانية بني بكر ثابتة كنصرانية تَغْلِب، وكانت كلتا القبيلتين ساكنة في الجزيرة مُتجاورة في ديار بكر وديار ربيعة، وهما تَرتَقِيان إلى أصل واحد إلى وائل، ومنه إلى ربيعة بن نزار، وتَدِينَان بدين واحد، وكل مَن ذكر نصرانية تغلب أضاف إليها بَكرًا كما روينا سابقًا، هذا مع ما حصل بين القبيلتين من النزاعات والحروب أَخصُّها حرب البسوس كما يجري غالبًا من المنافسات والضغائن بين الأقارب، وبكر قبيلة كبيرة كتغلب تتفرع إلى فروع عديدة؛ كضبيعة، وشيبان، ومُرَّة، ويَشْكُر، وعِجْل، وقد أتينا في باب القبائل المُتَنَصِّرة بذكر هذه الفروع.

(١) «بنو ضبيعة بن قيس بن ثعلبة» ذكرنا منهم في شعراء النصرانية هؤلاء الثمانية الآتِين:

١	سعد بن مالك بن ضبيعة	شعراء النصرانية	ص٢٦٤–٢٦٧
٢	جحدر بن ضبيعة	شعراء النصرانية	ص٢٦٨–٢٦٩
٣	عمرو بن سعد بن مالك (المرقَّش الأكبر)	شعراء النصرانية	ص٢٨٢–٢٩٢
٤	ربيعة بن سفيان بن سعد (المرقش الأصغر)	شعراء النصرانية	ص٣٢٨–٣٢٩
٥	طَرَفة بن العبد بن سفيان بن حرملة بن سعد	شعراء النصرانية	ص٢٩٨–٣٢٠
٦	الخرنق أخت طرفة	شعراء النصرانية	ص٣٢١–٣٢٧
٧	عمرو بن قميئة بن ذريح بن سعد	شعراء النصرانية	ص٢٩٣–٢٩٧
٨	المُسَيِّب بن عَلَس ... بن مالك بن ضبيعة	شعراء النصرانية	ص٣٥٠–٣٥٦

فكل هؤلاء مُتقارِبو العهدِ بينهم واشجة رحَمٍ من سلالة واحدة، وقد صرح في كتاب الأغاني (٥: ١٩١) تَخرُّج المُرَقَّش الأكبر على نصارى الحيرة، وذكرنا في شعراء النصرانية استشهاده بزَبُور داود:

وكذلكَ لا خَيْرٌ ولا   شرٌّ على أحد بدائم
قد خُطَّ ذلك في الزبُو   رِ الأَوَّلِيَّات القَدائم

وطَرَفة بن العبد كان ابن حفيد المُرَقَّش الأكبر، وابن أخي المُرَقَّش الأصغر، وودة أم طَرَفة كانت أخت جرير بن عبد المسيح المعروف بالمُتَلَمِّس فكفى بهذه القرابة دليلًا على نصرانية طرفة، وعيشة طرفة والمتلمس في الحيرة بين النصارى ودخولهما على ملكها النصراني عمرو بن هند، مما يؤيد ذلك، وفي شعر طَرَفة تَنويه بخُلود النَّفْس والحساب كقوله:

فكيفَ يُرجِّي المرءُ دهرًا مخلدًا وأعمالُه عمًّا قليلٍ تُحاسِبُه

وتصريح بحكم الله المطلق على الأنام:

إنَّ الله ليسَ لحُكْمِه حُكمُ

وبكمال أعماله تعالى:

وما قد بناهُ الله تَمَّ تمامُهْ وما قد بناه اللهُ فاللهُ ماحِقُهْ

وهو القائل في الحض على الخير والحياد عن الشر:

الخيرُ خيرٌ وإن طالَ الزَّمَان به والشرُّ أخبثُ ما أَوْعيتَ من زادِ

وله في مودته لأهل الدين:

سَأصرفُ نَفْسي عن هوى كلِّ غادرٍ وأُعرِضُ عن أخلاقه وأُخارِقُهْ
وأجعلُ أهلَ الدِّينِ أهلَ مودتي ليعلم أهلُ الفضلِ مَن أنا واثِقُهْ

وكان عمرو بن قميئة من قَرابة المُرَقَّشَين الأكبر والأصغر، وطَرَفة، وهو الذي رافَق امرأ القيس في سفره إلى القيصر ملك القسطنطينية، وفي أخباره ما يدل على ابتعاده عن الدَّناءة والإثم كيوسف الحسن والتجائه إلى نصارى الحيرة فرارًا من التهمة الباطلة، وهذا كله مما لا يدع شبهة في نصرانيته.

وكذلك المُسيِّب بن عَلَس من ندماء ملك الحيرة عمرو بن هند كطرفة والمُتلَمِّس، وكان خالَ الأعشى الكبير، وهو القائل يَدعو بني عامر إلى تُقَى الله:

أَلَا تَتَّقونَ اللهَ يا آل عامر وهل يَتَّقِي اللهَ الأبَلُّ المُصمَّمُ

(٢) «شعراء شيبان»، شيبان أحد بطون بني ثعلبة بن عكابة المذكورين في تواريخ الروم والسريان كنصارى العرب يدعونهم ܬܥܠܒܝܐ (Thalabenses) ويذكرون لهم أساقفة (راجع: المكتبة الشرقية، للسمعاني، ١: ٢٦٥؛ ومقدمته في الجزء الثاني CXI)، وقد ذكرنا من شعرائهم أربعة وهم:

١	جسَّاس بن مُرَّة بن ذُهْل بن شيبان	شعراء النصرانية	ص٢٤٦–٢٥١
٢	جليلة أختُه	شعراء النصرانية	ص٢٥٢-٢٥٣
٣	عبد المسيح بن عسلة	شعراء النصرانية	ص٢٥٤-٢٥٥
٤	بسطام بن قيس ... بن ذهل بن شيبان	شعراء النصرانية	ص٢٥٦–٢٦٣

جسَّاس هو قاتِل كليبِ وائل صهره زوج جليلة، وكان طليعة قومه في حرب البسوس، ونصرانيته ثابتة من عدة وجوه: (١) من انتسابه إلى شيبان. (٢) من قرابته إلى بني تغلب. (٣) من اعترافه بالإله الحق وبالبعث في حلفه حيث يقول:

إني وربِّ الشاعرِ الغَرورِ وباعثِ الموتى من القبورِ

ولِهمَّام أخي جسَّاس شعر في المفضليات، ولا حاجة لبيان نصرانية عبد المسيح بن عسلة، فإن اسمه يشهد له، وقصيدتُه المروية هنا قد طُبِعَت مؤخرًا في جملة المفضليات (ed. Lyall, p. 556)، ولم يُذْكَر هناك عن نسب قائلها إلا كونه «أخا بني مرة بن همام بن مرة بن ذهل بن شيبان.»

أما بسطام بن قيس بن مسعود فهو أحد فرسان بني شيبان المعدودين في الجاهلية، قال ابن قيم الجوزية في أخبار النساء (ص٩٨): كان بسطام فارسًا جوادًا عفيفًا، وقال ابن عبد ربه في العقد الفريد (٢: ٦٧): قد رَبَّع الذُّهْلِيِّين واللَّهازم اثني عشر مرباعًا، أما نصرانية بسطام بن قيس فقد جاهَر بها ابن دريد في الكامل (ص١٣٠)، وابن عبد ربه أيضًا في العقد الفريد (٣: ٨٨) في أخبار يوم الغبيط، وقد ورد هنالك اسم الحنيف مع اسم النصراني حيث قال: «ونادَى القوم نجادًا أخا بسطام كُرَّ على أخيك وهم يرجون أن يأسروه فناداه بِسطام: إن كَررتَ فأنا حنيف، وكان بسطام نصرانيًّا فلحق نجاد بقومه.» وقد جاء في الأغاني (١٩: ١٨) ذكر زِيقُ بن بسطام فقال عنه: إنه كان نصرانيًّا وذكر ابنته حدراء (١٩: ١٢) قال: «تزوَّجَها الفرزدق وكانت نصرانية.»

(٣) «قيس بن ثعلبة» أخو شيبان بن ثعلبة، إليه ينتسب الحارث بن عَبَّاد بن ضبيعة رئيس بني بكر في حرب البسوس بعد اعتزاله الحرب مُدَّة إلى أن قُتِل ابنُه بجير، ونصرانيته تثبت بنصرانية شيبان لأن شيبان وقيسًا كليهما ابنا ثعلبة بن عكابة.

(راجع: أخبار الحارث في شعراء النصرانية، ص٢٧٠–٢٨١).

(٤) «يشكر بن بكر» حي كبير من بكر بن وائل يدين بدينها، ذكرنا منه ثلاثة شعراء مجيدين:

١	الحارث بن حِلِّزَة	شعراء النصرانية	٤١٦–٤٢٠
٢	المُنَخَّل اليَشْكُري	شعراء النصرانية	٤٢١–٤٢٤
٣	سويد بن أبي كاهل	شعراء النصرانية	٤٢٥–٤٣٦

الحارث بن حِلِّزَة هو الذي دافَع عن قومه عند عمرو بن هند ملك الحيرة بمعلقته الهمزية المشهورة مناقضًا لمعلقة عمرو بن كلثوم، وبهما وقع الصلح بين بكر وتغلب.

وكان المُنَخَّل اليشكري من ندماء ملك الحيرة النصراني النعمان بن منذر، أما سُوَيد بن أبي كاهل فأدرك الإسلام ولم يذكر أحد إسلامه، ومن شعره الدال على دينه قوله من عينيته الشهيرة:

كتبَ الرحمنُ والحمدُ له سعةَ الأخلاق فينا والضَّلَعْ
وإبـاءً لـلـدَّنِـيَّـات إذا أُعْطِي المكثورُ ضيمًا فكَنَعْ
وبـنـاء لـلـمـعـالـي إنـمـا يرفع الله ومن شاء وَضَعْ
نِـعَـمٌ لـلـه فـيـنـا رَبُّـهـا وصَنيعُ اللهِ واللهُ صَنَعْ

(٥) «علي بن بكر» ذكرنا شاعرين من بني علي بن بكر بن وائل وهما:

١	فِنْد الزِّمَّاني	شعراء النصرانية	ص٢٤١–٢٤٥
٢	أعشى قيس بن ثعلبة	شعراء النصرانية	ص٢٥٧–٣٩٩

كان فِنْد الزِّمَّاني سيد بكر في زمانه وشهد حرب البسوس، وحارَب مع بني بكر ورئيسهم الحارث بن عباد، وهو من نصارى اليمامة، وقد روينا شعره في تلك الأيام.

وأشهرُ منه ميمون بن قيس، وهو الأعشى الكبير، وقد نظمناه بين الشعراء النصارى ليس فقط لانتمائه إلى بني بكر النصارى بل لأسباب أخرى منها: (١) تَخَرُّجه على العباديين ورأيه بآرائهم، قال في الأغاني (٨: ٧٩): «كان الأعشى قدريًّا (أي يقول بحرية الإنسان في أعماله) ... أخذ مذهبه من قبل العباديين نصارى الحيرة كان يأتيهم يشتري منهم الخمر فلقنوه ذلك.» (٢) وكان راوية الأعشى يحيى بن متَّى النصراني العبادي. (٣) زيارة الأعشى لنجران وكنيستها المعروفة بكعبة نجران ولأساقفتها وأمرائها النصارى. قال يكلم ناقته:

وكعبةُ نَجْرانَ حَتْمٌ عليكِ حتَّى تُناخِي بأبوابِها
نَزُورُ يزيدًا وعبدَ المسيحِ وقيسًا همُ خيرُ أربابِها

(٤) تَجوُّله في البلاد النصرانية كحمص وأورشليم قال:

وقد طُفْتُ للمالِ آفاقَهُ عُمانَ فحِمص فأوريشلمْ
فنجرانَ فالسَّرْو من حِمْيرٍ فإني مُرامٍ لَه لم أرمِ

(٥) إيمانه بالبعث والحساب كقوله:

إذا أنتَ لم تَرحلْ بزادٍ من التُّقى ولاقيتَ بعدَ الموت مَن قد تَزوَّدَا
ندمتَ على أن تكون كمثلِه فتُرْصَد للأمرِ الذي كان أرصدَا

(٦) اقتباساتُه الشعرية من العادات النصرانية كحَلِفِه بأسكيم الرهبان:

فإنِّي وثوبَي راهب اللُّجِّ والتي بناها قُصَيٌّ والمضاضُ بنُ جُرْهمِ

قال البكري في معجم ما استعجم (٤٨٩): اللُّجُّ غديرٌ عند دير هند، وقيل: إنه أراد المسيح — عليه السلام — ويُرْوى: «وثوبَي راهب الطور.» والتي بناها قصي، يعني مكة، وهذا كما حلف عدي بن زيد «برب مكة والصليب» وحلف الأعشى بمثل ذلك فقال:

وإني وربِّ الساجدين عشيَّةً وما صكَّ ناقوسَ النصارى أَبيلُها

وللأعشى في وصْف هياكل النصارى وصلبانها وصورها:

فما مُعْتَلٍ بي على هيكلٍ بناه وصَلَّب فيه وصارَا

(٧) ذكره للأنبياء وأحداث الأسفار المقدَّسَة كقوله في نوح وفلكه:

جزى الإلهُ إياسًا خيرَ نَعْمتِه   كما جَزى المرءَ نوحًا بعد ما شابَا
في فُلْكِه إذ تَبدَّاها ليصنعها   وظلَّ يجمع ألواحًا وأبوابا

وقد روينا له أبياتًا في داود النبي وفي سليمان الحكيم وفي المَنِّ والسلوى وغير ذلك مما يدل على معرفته للأسفار الكريمة.

(٨) ويؤيد ذلك ذكره لِفِصْح النصارى ومدحه لهوذة بن علي الذي فك أسرى تميم في ذلك العيد فقال:

بهم يقرب يومَ الفِصْحِ ضاحيةً   يرجو الإله بما أسدَى وما صَنعَا

وكل هذه الشواهد لا يمكن تعليلها إلا بأن يقال: إنه كان يَدين بالنصرانية، وقد ذهب إلى هذا القول المستشرق وِلْهَوْزِن حيث قال Wellhausen: *Reste arab. Heidentums*, p. 233: يظهر أن أحد شعراء الجاهلية المدرسيِّين الأعشى قد كان نصرانيًّا Einer der klassischen Dichter der Gâhilija, al-A'cha, soll Christ gewesen sein.

(ج) ربيعيون آخرون

أربعة شعراء من رَبيعة من غير قبائل بكر وتغلب روينا شعرهم وهم:

١	البرَّاق بن روحان	شعراء النصرانية	ص١٤١–١٤٧
٢	ليلى العفيفة زوجتُه	شعراء النصرانية	ص١٤٨–١٥٠
٣	جرير بن عبد المسيح (المُتلَمِّس)	شعراء النصرانية	ص٣٢٠–٣٤٩
٤	المُثقب العبدي	شعراء النصرانية	ص٤٠٠–٤١٥

هم من أحياء مختلفة لا شك في نصرانيتهم، فالبرَّاق كما ورد في جمهرة أنساب العرب للكلبي كان من قرابة المهلهل التغلبي، وتخَرَّج على راهب فتعلم منه تلاوة الإنجيل، ولعل دَيْر ابن برَّاق الذي ذكره ياقوت في معجم البلدان إليه ينتسب، والمُتلَمِّس ينتمي إلى

ضُبَيعة بن ربيعة بن نزار، وكفى باسمه «جرير بن عبد المسيح» دليلًا على دينه، نادَمَ مُدَّة عمرو بن الهند، ثم هرب منه إلى الشام، واجتمع بأهلها النصارى، وفي ذلك يقول:

حَنَّت قَلوصي بها واللَّيْل مُطَّرِقٌ   بَعْد الهَدْو وشاقَتْها النواقيسُ

وهو القائل عن تُقَى الله:

وأعلمُ عِلْمَ حقٍّ غيرَ ظنٍّ   وتقوى الله من خير العتادِ

أما المثقب العبدي فكان من أسد بن ربيعة يرتقي إليها بعبد القيس بن أَفْصَى التي سبق لنا ذكر شيوع النصرانية بينها، كان أبوه محصن بن ثعلبة سيدًا خطيرًا وأحد السعاة بالصلح بين بكر وتغلب كما قال المثقب:

أَبِي أصلحَ الحَيَّينِ بكرًا وتغلبًا   وقد أَرعَشتْ بكرٌ وخفَّ حُلُومُها

والمثقب دخل على ملوك الحيرة فمدح منهم عمرو بن هند والنعمان بن قابوس.

(٤-٢) ثانيا: شعراء إياد

إياد بن نزار أخو ربيعة، تَشعَّبَت منه أحياء وفروع متعددة شارَكوا ربيعة في نصرانيتهم كما شهد على ذلك كتَبة مسلمون فضلاء كأبي نصر الفارابي، والبكري، وابن دريد (اطلب نصوصهم في [القسم الأول، الفصل الأول])، وقد ذكر ياقوت في معجم البلدان أديرة بناها بنو إياد كدير السوا، ودير قرة، وفي أخبار البلد الحرام للفاسي (ص١٣٧) أن كاهنًا من إياد اسمه وكيع بن سلمة ابْتَنَى صرحًا ليناجي فيه الله، قال بشر بن الحجر (البيان والتبيين، للجاحظ، ١: ١٩٠):

ونحنُ إيادٌ عباد الإلهِ   ورهطُ مُناجِيه في السُّلَّم

وأشهر مَن عُرِف من شعرائهم شاعران ذكرناهما في كتابنا:

١	قس بن ساعدة	شعراء النصرانية	ص٢١١–٢١٨
٢	أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت	شعراء النصرانية	ص٢١٩–٢٣٧

قس بن ساعدة هو خطيب العرب الشهير وأسقف نجران، لا حاجة إلى إثبات نصرانيته، وصفَه الجارودُ النصراني العبقسي لمحمَّدٍ بما رويناه هناك [القسم الثاني، مفردات نصارى الجاهلية الخاصة بمساكن الرهبان]، هذا مع ما دخل في أخباره من الأقاصيص الفَرِيَّة التي رويناها على عِلَّاتها.

أما أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت وهو من ثقيف بها يرتقي إلى إياد، فيُمْكنًا بيان نصرانيته بالأدلة الآتية: (١) كونه من إياد التي أثبتنا نصرانيتها وافتخاره بمعارف قومه، لا سيما الكتابة وفن الكتابة كما سبق تَعَلَّمَه العربُ من النصارى:

قَومِي إياد لو أنهم أَمَمُ ولو أقاموا فتُهْزَلَ النَّعَمُ
قومٌ لهم ساحةُ العراقِ إذا ساروا جميعًا والقطُّ والقَلَم

(٢) كان أمية من الحنفاء، وقد سبق (ص١١٨-١١٩) أن الحَنِيفية في الجاهلية يراد بها النصرانية أو شيعة من شيعها وأتينا على ذلك بشواهد إسلامية. (٣) اطلاعه على الأسفار المُقدَّسة والإنجيل ودرسه لها (الأغاني، ٣: ١٨٧). (٤) دخوله كنائس النصارى واجتماعه برهبانها (ص١٨٨). (٥) معرفته للغة السريانية لغة نصارى العراق، قال ابن دريد في تاج العروس (٣: ٢٨٦): «كان أُمَيَّة يستعمل السريانية كثيرًا لأنه كان قد قرأ الكتب.» (٦) في شعره من مُقتبَسات الكُتُب المقدَّسة ما تفرد به كعدي بن زيد، فإن له أوصافًا عديدة للأحداث الكتابية وللعقائد الدينية كوصفه الجميل للعِزَّة الإلهية والملائكة والدَّيْنُونة والجحيم والنعيم وبشارة العذراء ومولد المسيح العجيب ما يدل صريحًا على تَنَصُّره، على أننا نُقِرُّ بأن في أخباره اضطرابًا لبُعْد عهد الرواة عن زمانه.

(٤-٣) ثالثًا: شعراء مُضَر

لم تنتشر النصرانية في مُضَر بن نِزار وقبائله انتشارها في قبائل أخويه ربيعة وإياد، على أننا وَجَدْنا أيضًا عدة آثار تُنبِئ بدخول النصرانية في أحياء كثيرة منها؛ كبني عقيل الذين غَلَبتْ عليهم النصرانية، وبني تميم، وعبس، وذبيان، وقيس عيلان، وناجية، وقد أوردنا على ذلك شواهد فيما سبق في باب القبائل المُتَنَصِّرة وذكرنا بعض الأديرة المُشَيَّدة بينها.

(أ) بنو تميم

روينا أخبار وأشعار خمسة منهم أعني:

١	عدي بن زيد	شعراء النصرانية	ص٤٣٩–٤٧٤
٢	الأسود بن يعفر	شعراء النصرانية	ص٤٧٥–٤٨٥
٣	سلامة بن جندل	شعراء النصرانية	ص٤٨٦–٤٩١
٤	أوس بن حجر	شعراء النصرانية	ص٤٩٢–٤٩٧
٥	علقمة الفحل	شعراء النصرانية	ص٤٩٨–٥٠٩

عديٌّ بن زيد بإقرار كل الكتبة كان نصرانيًّا من أسرة نصرانية في خدمة ملك نصراني من ملوك الحيرة، وفي شعره من الآثار الدينية ما لم يرو عن غيره إلا عن أمية بن أبي الصَّلْت، ففيه روايات من الأسفار الُمقدَّسة ... وقد حلف بالشَّبَر؛ أي القربان وبالصليب، وفي أخباره ذكر دخوله الكنائس إلى غير ذلك.

وكان الأسود بن يعفر التميمي من سادة قومه ونادَم النعمان كعدي بن زيد، وعاش بين نصارى الحيرة، وكانت بنو عِجْل النصارى أخواله.

وكذلك سلامة بن جندل الذي نشرنا ديوانه سنة ١٩١٠م فإنه كالأسود بن يعفر عاش في جهات الحيرة التي عَمَّت النصرانية كل أنحائها وعاشرَ قومًا من النصارى كتغلب والعباديين وفي شعره تلميح إليهم، ولا أثر لكليهما في قصائدهما إلى شيء من الشرك وعلى خلاف ذلك، وردت في شعر سلامة تشابيه وإشارات نصرانية كذكره لداود النبي وتنويه بمخطوطات النصارى الُمنَمَّقة وبملابس العباديين.

وقد جعَلْنا أيضًا أوس بن حجر في جملة النصارى، وهو أحد الذين أطلقهم من الأسر بِسطام بن قيس رئيس شيبان النصراني بعد ظَفَره بتميم؛ فمَدَحه أوس لكرمه، ومن تشابيهه النصرانية قوله يشبه لميع رمحه بمصباح رئيس النصارى يوم عيد الفصح:

عليه كَمِصباحِ العزيزِ يَشَبُّهُ   لِفِصْحٍ ويَحْشُوه الذُّبالَ المُفتَّلَا

وعلقمة بن عبدة التميمي كان مداحًا لملوك غسَّانَ النصارى، وله محاضَرات مع امرئ القيس، والزِّبْرقان بن بدر الشاعرين النصرانيين، وفي شعره إشارة إلى كأس قربان النصارى ومفعولها الصالح دون الأذى بشاربها قال في وصفها:

كأسُ عزيزٍ من الأعناب عَتَّقَها　　لبعضِ أَحْيَانها حانِيَّةٌ حُومُ
تَشفِي الصُّداعَ لا يُؤذِيك صالِبُها　　ولا يُخالطُها في الرأس تَدْويمُ

قال الشارح: «العزيز كبير النصارى وقوله: «لبعض أحيانها»؛ أي أعدها لِفصْح أو لعيد.»

(ب) عبس وذبيان

عبس وذبيان أبوهما بَغِيض بن غَطَفان يتصلان به إلى إلياس بن مُضَر بن نزار، وقد وقعتْ بينهما حروب كما جرت بين بكر وتغلب، وقد نوهنا بولوج النصرانية في أحيائهما (ص١٣٤)، وقد ذكرنا من عبس أربعة شعراء:

١	الرَّبِيع بن زياد	شعراء النصرانية	ص٧٨٧–٧٩٣
٢	عنترةُ بن شَدَّاد	شعراء النصرانية	ص٧٩٤–٨٨٢
٣	عُرْوَة بن الوَرْد	شعراء النصرانية	ص٨٨٣–٩١٦
٤	قيس بن زُهَيْر	شعراء النصرانية	ص٩١٧–٩٣٢

ومن ذبيان أوردنا تَرْجَمَتَي وقصائد شاعرين وهما:

١	النابغة الذبياني	شعراء النصرانية	ص٦٤٠–٧٣٢
٢	الحصين بن الحمام	شعراء النصرانية	ص٧٣٣–٧٤٥

الربيع بن زياد أحد أعيان بني عبس، كان من نُدَماء النعمان بن المنذر ملك الحيرة مع سرجون بن توفيل وغيره من النصارى كما روى صاحب الأغاني، وفي ذلك دليل على أنه يدين بدينهم، وفي أخباره أدلة على توحيده وكرم أخلاقه.

أما عنترةُ فكانت أمه حَبَشية والحَبَش نصارى كما هو معلوم، وفي شعره الصحيح والمصنوع آثار عديدة دالَّة على توحيده وآدابه ودينه، وفي ذلك ما يدل على نصرانيته لأن

التوحيد قبل محمد لم يَشع في جزيرة العرب إلا بفضل النصرانية، وزد على ذلك أنه كان في خدمة المَلِك زهير وابنه قيس النصرانيين.

وكذلك عروة بن الوَرْد مُوحِّد في شعره، وله في أخباره من أعمال الرحمة على الفقراء والمبئوسين ما لا يُعْهَد مثله إلا عند من رُبُّوا على التعاليم النصرانية فَدُعِي لذلك عروة الصعاليك وشِعْرُه أيضًا خالٍ من كل شرك.

أما قيس بن زهير فكان أبوه حليف ملوك الحيرة، صاهَرَه النعمان فتزوَّج ابنته لشَرَفه وسُؤْدَده، وقد روى ابن الأثير في تاريخه (١: ٢٤٢) أنه بعد حرب داحس والغبراء «تاب إلى ربه وساح في الأرض حتى انتهى إلى عُمَان فترهب.»

وفي شعر النابغة عدة آثار منبئة بتوحيده وتدينه وتقاه، وقد مدح ملوك غسان والمناذرة النصارى وفي ملوك غسان يقول:

مَجلَّتُهم[٦] ذاتُ الإله ودِينُهم قويمٌ فما يَرْجُون غير العواقبِ

وهو مديح لا يقوله شاعر ما لم يدن بدينهم، وقد ذكر صليب الزوراء في مدحه للنعمان ملك الحيرة النصراني:

ظَلَّت تقاطيع أنعامٍ مُؤبَّلَة لدى صليب على الزَّوراءِ منصوبِ

وقال يذكر المصلين من الرهبان الذين شيعوا جنازة الملك الغساني النعمان بن الحارث بن أبي شمر:

فآبَ مُصَلُّوه بِعَينٍ جليَّةٍ وغُودر بالجولانِ حَزْمٌ ونائلُ

ومن آثار عِفَّتِه الشاهدة له على دينه النصراني وإيمانه بالآخرة قوله:

حيَّاك ربي فإنا لا يحل لنا لَهْوُ النساء وإن الدين قد عَزَما
مُشَمِّرين على خُوصٍ مُزمَّمَة نرجو الإله ونرجو البِرَّ والطُّعُمَا

وفي اعتقاده لعزة الله وجلاله يقول:

حلفتُ فلم أترك لنَفْسِك رِيبةً وليس وراءَ اللهِ للمرءِ مَذْهَبُ

---

[٦] قال في خزانة الأدب في شرح هذا البيت (٢: ١١): المجلَّة الكتابُ لأنَّه يُجَلُّ ويُعظَّم وأراد به الإنجيل؛ لأنهم كانوا نصارى، ويروى: محلتهم، أما رواية الأصمعي فبالجيم، وهو كتاب النصارى.

وقد ذكر في شعره الأنبياء كداود وسليمان، كقوله في داليته التي مدح بها النعمان:

إلا سليمان إذ قال الإلهُ له ... قُمْ في البَرِيَّةِ فازْجُرْها عن الفَنَدِ
فمَنْ أطاعكَ فانْفَعْهُ بطاعته ... كما أطاعكَ وادْلُلْهُ على الرشدِ

وكان الحُصَين بن الحمام ذبيانيًّا أيضًا، وفي ترجمته أنه كان يُؤمِن بالله ويُقِر بالبعث وبعواقب الإنسان من نَعيمٍ وجَحيم فقال من أبيات وهو نعم القول (أغاني، ١٢: ١٢٨):

فلم يَبقَ من ذاك إلا التُّقى ... ونفسٌ تُعالِج آجالها
أمورٌ من الله فوق السماء ... مقاديرُ تُنزلَ إنزالَها
أعوذُ بربي من المُخْزِيا ... تِ يوم تَرَى النَّفسُ أعمالها
وخفَّ الموازينُ بالكافرين ... وزُلْزلَت الأرضُ زلزالَها
ونادى منادٍ بأهلِ القبورِ ... فهَبُّوا لتُبْرِزَ أثقالها
وسُعِّرَتِ النارُ فيها العذاب ... وكانَ السلاسلُ أغلالَها

ومن بني قيس عيلان من غير عبس وذبيان ذو الإصبع العدواني ينتمي إلى عَدْوان بن عمرو بن سعد بن عيلان، وقد أَنِسْنَا في شعره من الآداب والحِكَم ما حملنا على الترجيح بنصرانِيَّته مع خُلُوِّه من كل أثر للشِّرْك، فهو يذكر الله وقُدرَته على كل ما يشاء، وفي قومِه عَدْوان قد أُحْصِي سبعون ألفَ غلامٍ أغرلٍ كما روى صاحب الأغاني عن الأصمعي (٣: ٢)، وقد رأينا في إهمالهم للختانة أثرًا لنصرانيتهم.

(ج) شعراء هوازن

هوازنُ يرتقي نَسبُها إلى خصَفة بن قيس عيلان بن إلياس بن مُضَر أَدَرَجْنا اثنين من شعرائها في جملة شعراء النصرانية وهما:

١	كعب بن سعد الغنوي	شعراء النصرانية	ص٧٤٦–٧٥١
٢	دريد بن الصِّمَّة	شعراء النصرانية	ص٧٥٢–٧٨٣

في شعر كعبِ بن سعد مِنَ الحِكَم والعواطف اللينة والحنان ما دفعنا إلى ضَمِّه إلى شعراء النصرانية، ثم إن أخاه أبا المِغْوَار قُتِل في حرب ذي قار التي كان أكثر محاريبها من القبائل النصرانية.

أما دُرَيدُ بن الصِّمَّة فإنه كان سيد قومه بني جشم وفارسهم أدرك الإسلام وحارَب محمدًا وأنصاره يوم حنين، وفي شِعْرِه من الإيمان بالله وذِكْرِ الأنبياء ما ينفي عنه الشِّرْك ويدل على أنه أخذ ذلك عن النصارى، وكان أخوه يُدْعَى عبد الله وفي اسمه شاهد على دينه، وقد مدح في شعره بني الديَّان نصارى نجران.

(د) مُضَرِيُّون آخرون

هم أربعة نظمناهم في سلك كتابنا يرتقي نسبهم إلى إلياس بن مضر بن نزار:

١	زُهَيْر بن أبي سُلْمَى	شعراء النصرانية	ص٥١٠–٥٩٥
٢	عبيد بن الأبرص	شعراء النصرانية	ص٥٩٦–٦١٥
٣	ورقة بن نوفل	شعراء النصرانية	ص٦١٦–٦١٨
٤	زيد بن عمرو بن نفيل	شعراء النصرانية	ص٦١٩–٦٢٢

زهير صاحب المُعلَّقة الميمية الشهيرة ومادح السيدين الحارث بن عوف، وهرم بن سنان اللذين سعيَا بإصلاح قبيلتي عبس وذبيان بعد حرب داحس والغبراء، كان مؤمنًا بالله وبيوم الدين والحساب ومن أقواله في ذلك قوله للمتحاربين ليتركوا كل ضغينة:

فلا تَكْتُمنَّ اللهَ ما في صدوركم ليخفى ومَهْمَا يُكْتَمِ اللهُ يَعْلَمِ
يُؤَخَّرْ فيُوضَعْ في كتابٍ فَيُدَّخَرْ ليومِ الحساب أو يُعَجَّلْ فيُنْقَمِ

وقال أيضًا:

بـدَا لـي أنَّ الـلـه حـقٌّ فـزادَنـي إلى الحق تَقوَى اللهِ ما كانَ باديا

وهو القائل:

تَزوَّدْ إلى يومِ المماتِ فإنه ولو كَرِهَتْهُ النَّفسُ آخِرُ مَوعِدِ

وقدمنا أن الإيمان بالله وبالحساب قبل الإسلام يشعر بنصرانية قائله، وهو ينسب إلى الله في شعره الحُكْم في خلائقه مع وجوده إلى الأبد، وكذلك أشار في قصائده إلى أمور من الكتاب المُقدَّس كذكره لفرعون وداود.

عَبيد بن الأبرص أحد الشعراء الوافدين على ملوك غسان وكندة النصارى، وقد مدحهم بشعره، وفي ديوانه ما ينبئ بتوحيده وتقاه واعتقاده للآخرة، كقوله في بائيته الشهيرة:

مَن يسألِ الناسَ يَحرِمُوه وسائلُ اللهِ لا يخيبُ
بالله يُدْرَكُ كلُّ خير والقولُ في بعضه تَلغيبُ
واللهُ ليس له شريكٌ علَّامُ ما أَخفَتِ القلوبُ

وكثيرًا ما ينسب إليه تعالى القدرة والبقاء والعلم، فمن قوله:

ولَيَفْنيَنْ هذا وذاك كلاهما إلا الإلهَ ووَجْهَه المعبودا

وذكر أيضًا في شعره النبي داود.

أما ورقة بن نوفل فلا خلاف في نصرانيته فإن عامة الكَتَبة المسلمين يُقِرُّون بذلك كابن قتيبة في المعارف، وابن هشام في سيرة الرسول، وقد روينا ما قاله أبو الفرج الأصفهاني في الأغاني، ومثله ابن الأثير في أسد الغابة (٥: ٤٣٦) قال: «إن ورقة كان امرأً تَنصَّر في الجاهلية يكتب الكتاب العبراني، ويكتب من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب.» وكان ورقةُ ابنَ عم خديجة زوجة رسول الإسلام، وفي شعره ما يثبت صحة دينه.

أما زيد بن عمرو بن نُفَيل فيقال عنه: إنه خلَع عبادة الأوثان واجتمع بالأحبار والرهبان وضَرَب في البلاد يطلب الحنيفية دين إبراهيم، وعندنا أن هذه الحنيفية هي إحدى شِيَع النصارى، ولو قابلتَ بين شعره وشعر ورقة وجدت بينهما شبهًا تامًّا في كل معانيهما وزُهْدِهما وإيمانهما بالإله الواحد وبالبعث والخلود للأبرار في دار النعيم، وللكُفَّار في نار الجحيم.

(٤-٤) رابعًا: شعراءُ اليمن من بني كهلان

في القسم الأول من كتابنا خصصنا عدة صفحات لبيان نفوذ النصرانية في اليمن منذ القرون الأولى للنصرانية، ولا سيما بعد انفجار سد مأرب بين القبائل المنتقلة إلى شمالي جزيرة العرب وغربيها وجنوبها الشرقي فلا حاجة إلى تكرار ما أثبتناه عن تَنصُّر كندة

وقُضاعة وغَسَّان والمَناذرة، وقد روينا أخبار بعض الشعراء من قبائل يمنية؛ أعني كندة ومَذْحِجًا وطيئًا.

(أ) شعراء كندة

أشعر شعراء كندة بل رأسهم وزعيمهم امرؤ القيس الكندي، روينا أخباره بعد أن قدمنا عليها أخبار أعمامه:

١	أعمام امرئ القيس.	شعراء النصرانية	ص١–٥
٢	امرؤ القيس بن حجر	شعراء النصرانية	ص٦–٦٧

قد سبق لنا في المشرق مقالة مُطوَّلة ردَدْنا فيها على مَزاعم الأب أنستاس الكرملي الذي ادَّعى أن امرأ القيس كان مزدكيًّا فكتب عن ذلك فصلين أثبتناهما في المشرق (٨، ١٩٠٥م، ٨٨٦ و٩٤٩) فأبطلنا زعمه وأثبتنا نصرانية امرئ القيس بعشرة براهين (٨: ٩٩٨–١٠٠٦): (١) تَفنِيدُنا لَمن زعم أنه كان وثنيًّا أو مزدكيًّا (٩٩٩–١٠٠٢). (٢) خُلُو شِعْره من آثار الشرك وعبادة الأصنام. (٣) عدة أبيات من قصائده تُصرِّح بتوحيده وإقراره بالبعث والنشور. (٤) إشارات واضحة إلى شئون النصارى وعاداتهم ورهبانهم وزُبُورهم سبق ذكرها. (٥) انتشار النصرانية في كندة قبيلة امرئ القيس كما أعلن ذلك عبد المسيح الكندي في معارَضَته للهاشمي حيث يذكر شرف كندة ويفتخر بدينها المسيحي. (٦) خروج امرئ القيس إلى قيصر الروم يستنجده على قَتَلَةِ والده حجر، وما كان امرؤ القيس ليفكر في ذلك لولا رابطة الدين بينه وبين ملك الروم الذي كان في ذلك الوقت يدعى يُوستِنْيان العريق في دينه النصراني. (٧) كانت عَمَّةُ امرئ القيس هند بنت الحارث المعروفة بهند الكبرى وهي زوجة المنذر بن ماء السماء ووالدة عمرو بن هند التي عَمَّرَت الدَّيْر المنسوب إليها في الحيرة وعَلَّقَت عليه كتابة تدعو فيها نفسها «أَمَة المسيح وأم عَبْدِه وبِنْت عبيده» وبذلك تثبت أيضًا نصرانية أعمام امرئ القيس الذين ذكرناهم. (٨) وكذلك أم امرئ القيس هي فاطمةُ أختُ المُهَلْهِل وكُلَيب من قبيلة تغلب النصارى. (٩)، وقد روينا في المشرق (٨، ١٩٠٥م، ١٠٠٥) ما نقله فوطيوس في مكتبته عن الأصل اليوناني للمؤرخ ننُّوز الذي أرسله يوستنيان الملك سفيرًا إلى الحبشة وإلى

امرئ القيس الكندي ليوليه على مقاطعات فلسطين.[٧] وفيه من الشواهد على نصرانية امرئ القيس ما لا يُنكَر. (١٠) وشفعنا أخبار تلك السفارة بذكر سفارة أخرى رواها المؤرخ بُروكوب الشهير في كتابه عن الحرب الفارسية (Procope, B. P., L. 20) قال إنها عهدت إلى يليان من قبل ملك الروم إلى الحبشة والحِمْيَرِيين ليجعلوا الملك على قبائل مَعَدٍّ في يدِ امرئ القيس الذي كان في ذلك الوقت شاردًا بين القبائل، ويقول عنه بُرُوكوب «إنه كان أحد رؤساء القبائل من نسل كريم وذا بطش في الحرب.» وقد أثبتنا كلامه بالحرف في الأصل اليوناني.

(ب) شعراء مَذْحِج

مَذْحِج قبيلة يمنية كبيرة كانت تسكن جنوبي العرب في جهات نجران، وفيها انتشرت النصرانية على يد أحد دعاتها الذي يدعوه العرب فيمون، ومنها كان شهداء نجران في عهد ذي نؤاس، وإليها ينتمي بنو الحارث بن كعب سادة نجران النصارى بناة الكنائس وكعبة نجران (راجع [القسم الأول، الفصل الثاني])، وقد اخترنا من شعراء مَذْحِج ثلاثة وهم:

١	الأَفْوَه الأَوْدِي	شعراء النصرانية	ص٧٠–٧٤
٢	عبد يغوث	شعراء النصرانية	ص٧٥–٧٩
٣	يزيد بن عبد المَدَان	شعراء النصرانية	ص٨٠–٨٨

كان الأَفْوَه الأَوْدِي سَيِّد قومه وفي شِعْره من الحِكَم ما يدلُّ على حصافة رأيه وحسن نظره وآدابه، ومثله عبد يغوث كان فارسًا مغوارًا، أما يزيد بن عبد المَدَان فكان من أشراف اليمن، وسيد مَذْحِج من بني الديان الذين مَدَحَهم الأعشى لجُودِهم وعِزِّهم، ولا حاجة لإثبات نصرانيتهم مع شهرتها.

(ج) شعراء بني طيئ

طيئ إحدى القبائل اليمنية التي صرَّح كَتَبةُ العربِ بنصرانيتها، قال ابن واضح اليعقوبي في تاريخه (١: ٢٩٨): «تَنصَّر من أحياء العرب من اليمن طيئ ومَذْحِج.» راجع أدلة

[٧] اطلب: أعمال الآباء اليونان (Migne, pp. GG., CIII, col. 46–48).

أخرى أثبتناها فيما سبق (راجع [القسم الأول، الفصل الثاني])، وقد اخترنا من شعراء طيئ الأربعة الآتي ذكرهم:

١	حنظلة الطائي	شعراء النصرانية	ص٨٩–٩٢
٢	قَبيصة بن النصراني	شعراء النصرانية	ص٩٣–٩٧
٣	حاتم الطائي	شعراء النصرانية	ص٩٨–١٣٤
٤	إياس بين قبيصة	شعراء النصرانية	ص١٣٥–١٣٨

حنظلةُ الطائي هو ذاك الوافد على النعمان يوم بُؤْسِه وفاءً بوعده؛ إذ رجع ليُقْتَل بعد غَيْبتِه، وكان قيامه بوعده لأَجْل دينه النصراني داعيًا لتَنَصُّر النعمان، ومات بعد أن ترَهَّب في الدير الذي ابتناه على نفقته.

قبيصة بن النصراني أحد بني جَرْم المشهورِين بنصرانيتهم في طيئ، ذكَرَه مرارًا أبو تمام في حماسته، ويدل اسمه على دينه.

وكذلك حاتم الطائي نصراني لا شك فيه،[٨] فإن إيمانه بالإله الواحد وبالبعث والنشور وإشاراته إلى بعض أمور النصرانية تثبت أمر دينه، وفي سيرته من آثار العِفَّة والكرم ما هو مُوافِق للروح النصرانية ولعله اقتبس من الإنجيل قوله:

كُلُوا اليومَ من رزق الإله وأَيْسِروا وإنَّ على الرحمن رِزقَكمُ غدا

وقد صرح الكتبة بنصرانية ابنه عَدِي الذي وفد على محمد وقيل: إنه أسلم، وذكر صاحب دائرة العلوم الإسلامية (Encyclopédie de l'Islam, p. 138) في ترجمة عدي بن حاتم أن الأب والابن كانَا نصرانيين، وسبَقَه إلى ذلك غانيار Gagnier في سيرة محمد الإفرنسية.

[٨] ومما ينبئ بنصرانيته صَفْحُه عن أعدائه وذلك «مُحافظةً على دينه» قال:

سمعتُ بِعيبِهِ فصفحتُ عنهُ محافظةً على حسَبِي وديني

أما إياس بن قبيصة فهو ابن أخي حنظلة الذي كان وفاؤه داعيًا لتَنَصُّر النعمان، وكانت أمه أخت هانئ بن مسعود رئيس بني شيبان النصارى، وكان إياس من أشراف الحيرة، ولم يعدلوا عن دينهم لما ظهر الإسلام، فإن الطبري يخبر في تاريخه (١: ٢٠١٨) أنهم فَضَّلوا دفع الجزية مع البقاء على دين المسيح.

(د) شعراء كَلْب

إن نصرانية كَلْب المُنتَمِية إلى قُضاعة مما لا يختلف في اثنان (راجع [القسم الأول، الفصل الثاني] من كتابنا)، ولم نذكر من هذه القبيلة غير زهير بن جناب الكلبي القضاعي (ص٢٠٥–٢١٠، من شعراء النصرانية)، ولَّاه أبرهةُ على بَكْر وتغلب (ص٢٠٦)، وذلك بسبب نصرانيته ونصرانية بكر وتغلب، وكذا يقال عن دخوله على ملوك غسان وبني لَخْم، وجاء في تذكرة ابن حمدون (نسخة برلين، ص٢١٥): «إن زهير بن جناب كان سيدًا مطاعًا شريفًا في قومه، ويقال: كانت فيه عشر خصال لم تجتمع في غيره من أهل زمانه، كان سيد قومه، وشريفهم، وخطيبهم، وشاعرهم، وقائدهم، ووافدهم إلى الملوك، وطبيبهم (والطب في ذلك الزمان شَرَف)، وجارى قومه إلى كاهنهم، وكان فارس قومه، وله البيت فيهم والعدد منهم.» ثم يورد وصاته لبنيه يحرضهم فيها على الثقة بالله.

وبزهير بن جناب ختام فصلنا هذا الذي قدمنا فيه الدلائل على نصرانية الشعراء المذكورين في كتابنا، وبه أيضًا نَجَازُ كتاب «تاريخ النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية»، ونُكرِّر ما قلنا سابقًا أننا؛ أولًا: ذكرنا من شعراء الجاهلية الذين صرَّح الكتبةُ بدينهم النصراني. ثانيًا: حقَّقنا نصرانية كثيرين منهم بنصرانية قبائلهم وبِخُلُوِّ شعرهم من آثار الشِّرْك وبتوحيدهم لله واعتقادهم بخلود النفس والثواب والعقاب، وبإشاراتهم إلى دين النصارى، وكل ذلك لا يمكن تعليله بين عرب الجاهلية إلى بنفوذ النصرانية. ثالثًا: أَخَذْنَا اسم النصرانية بمعناه الواسع سواء كان الشعراء من تبعته المستقيمي الإيمان أو من شِيَعِه الضالة كالآريوسية والنسطورية واليعقوبية. رابعًا: لسنا لندعي أن هؤلاء النصارى جروا في سيرتهم بكل حرص على نواميس النصرانية لا سيما في أمر الطلاق وفي غزواتهم وأخذهم بالثأر على خلاف التعاليم النصرانية، وإنما تبعوا في ذلك سنن عرب البادية واقتفوا آثارهم، وتقلدوا عاداتهم، والعادة كما يعرف طبيعة ثانية يصعب استئصالها وقهرها. خامسًا: وإن وجد أحد في بعض أقوالنا شططًا فمعاذ الله أن نكابر الحق إن بينه لنا أرباب الفضل والعلم، وليس الكمال إلا لله.

مراجع

جدول لأخص الكتب الطبعية والخطية الْمُعْتَمَد عليها

(١) الكتب العربية

الآثار الباقية من القرون الخالية، لأبي الريحان البيروني (1878 Leibzig).
آثار البلاد وأخبار العباد، للقزويني (1848 Goettingen).
الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، مصر، ١٢٨٧هـ.
أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، للمقدسي البشاري (1908 Leiden).
إحياء علوم الدين، للغزالي، مصر، ١٢٨٩هـ.
الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري (1888 Leiden).
أخبار فطاركة كرسي المشرق، لسليمان بن ماري (1899 Rome).
أخبار مكة، لأبي الوليد الأزرقي (1858 Leipzig).
أساس البلاغة، للزمخشري، مصر، ١٢٩٩هـ.
أُسْد الغابة في معرفة الصحابة، لعز الدين أبي الحسن ابن الأثير، مصر، ١٢٨٥هـ.
الاشتقاق، لابن دريد (1854 Goettingen).
الأضداد، لأبي بكر الأنباري (1881 Leiden).
الأعلاق النفيسة، لابن رسته (1891 Leiden).
الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني، بولاق مصر، ١٢٨٥هـ، الجزء ٢١ (1888 Leiden).
أمثال العرب، للميداني، مصر، ١٢٨٤هـ.
البدء والتاريخ، للمقدسي (1899–1919, Paris).

بلوغ الأدب في أحوال العرب، لشكري أفندي الآلوسي، بغداد، ١٣١٤–١٣١٨.
تاج العروس، للزبيدي، مصر، ١٣٠٧هـ.
تاريخ أبي الفداء، الآستانة، ١٢٨٥هـ.
تاريخ بطاركة الإسكندرية، لساويروس بن المقفع، (خط).
تاريخ الجزيرة، لابن شداد، (خط).
تاريخ الحكماء، لجمال الدين القفطي (1903 Leipzig).
تاريخ حمزة الأصفهاني (1844 Leipzig).
تاريخ سعيد بن بطريق، بيروت، ١٩٠٦م.
تاريخ الشيخ أبي صالح الأرمني (1895 Oxford).
تاريخ الطبري (1879–1901 Leipzig).
تاريخ العبر، لابن خلدون، مصر، ١٢٨٤هـ.
تاريخ الكامل، لأبي الحسن علي ابن الأثير، مصر، ١٢٩٠هـ.
تاريخ مختصر الدول، لابن العبري، بيروت، ١٨٩٠م.
تاريخ نسطوري قديم، (خط).
تاريخ اليعقوبي (1883 Leiden).
تذكرة ابن حمدون، (خط).
تقويم البلدان، لأبي الفداء (1840 Paris).
التنبيه والإشراف، للمسعودي (1893 Leiden).
تهذيب الألفاظ، لابن السكيت، بيروت، ١٨٩٥م.
الجامع الصغير، للسيوطي (خط، وطبعة مصر، ١٣٣٠هـ).
جمهرة أشعار العرب للقرشي (خط، وطبعة مصر ١٣٠٨هـ).
حماسة أبي تمام مع شرح التبريزي (1828 Bonnæ).
حماسة البحتري، بيروت، ١٩١٠م.
الحماسة البصرية، (خط).
حياة الحيوان، للدميري، (خط)، وطبعة مصر، ١٢٩٢هـ.
الحيوان، للجاحظ (خط)، وطبعة مصر، ١٣٢٤هـ.
خزانة الأدب، للبغدادي، مصر، ١٢٩٩هـ.
الخطط والآثار، للمقريزي، بولاق، مصر، ١٢٧٠هـ.
ديوان الأخطل، طبعة بيروت، ١٨٩١–١٩١٠.

ديوان امرئ القيس (1837 Paris).
ديوان أُمَيَّة بن أبي الصَّلْت (مجموعتنا الشخصية؛ ثم 1911 Leipzig).
ديوان جرير، نسخة خطية، وطبعة مصر، ١٣١٣ﻫ.
ديوان حسان بن ثابت (1910 Leiden).
ديوان الحطيئة، الآستانة، ١٣٠٨ﻫ.
ديوان ذي الرمة (1919 Cambridge).
ديوان رؤبة (1903 Berlin).
ديوان سلامة بن جندل، بيروت، ١٩١٠م.
ديوان السموءل، بيروت، طبعة ثانية، ١٩٢٠م.
ديوان الشماخ، مصر، ١٣٢٧ﻫ.
ديوان طَرَفة (1901 Paris).
ديوان العَجَّاج (1896 Wien).
ديوان الفَرَزْدَق (1870 Paris).
ديوان لبيد (1880 Wien).
ديوان المُتَلَمِّس (خط، ثم طبعة 1903 Leipzig).
ديوان النابغة الذبياني (1800 Paris).
سراج الملوك للطرطوشي (مصر، ١٢٨٩ﻫ).
السيرة الحلبية (إنسان الفنون)، لعلي الحلبي، مصر، ١٢٩٢ﻫ.
سيرة الرسول، لابن هشام (1860 Goettingen).
شرح رسالة ابن زيدون، لابن نباتة، مصر، ١٢٩٠ﻫ.
شرح مقامات الحريري، للشريشي، مصر، ١٢٨٢ﻫ.
شعراء النصرانية، بيروت، ١٨٩٠–١٨٩٢م.
الصحاح للجوهري، بولاق، ١٢٩٢ﻫ.
الصحيح، البخاري، مصر، ١٧٩٠م، الآستانة ١٣١٥ﻫ.
صحيح مسلم، الآستانة، ١٣٣٤ﻫ.
الطبقات الكبيرة، لابن سعد (1905–1921 Leiden).
العقد الثمين في دواوين الشعراء الجاهليين (1870 London).
العقد الفريد، لابن عبد ربه (خط، وطبعة مصر، ١٣٠٢ﻫ).
العمدة، لابن رشيق (خط، وطبعة مصر، ١٢٢٥ﻫ).

عيون الأخبار، لابن قتيبة (1900–1908 Berlin).
عيون الأنباء في طبقات الأطباء، لابن أبي أصيبعة (مصر، ١٢٩٩هـ/ ١٨٨٢م).
فتوح البلدان، البلاذري (1866 Leiden).
فتوح الشام والمغازي، للواقدي (1854–1856 Calcutta).
الفهرست، لابن النديم (1872 Leipzig).
القرآن مع معجمه (1842, ed. Flügel, Lipsiæ).
قصص الأنبياء (العرائس)، للثعلبي، مصر، ١٢٧٧هـ.
الكامل، للمبرد، مصر، ١٣٠٩هـ (1864 Leipzig).
الكتاب المُقدَّس، بيروت (١٨٧٦: ١٨٨٢).
كشف الظنون، للحاج خليفة (1835–1858 London).
لسان العرب، لابن مكرَّم، مصر، ١٣٠٠هـ.
اللطائف والمعارف، للثعالبي (1867 Leiden).
المجدل، لعمرو بن متى (1896 Rome).
مجموعة المعاني، الآستانة، ١٣٠١هـ.
المُخصَّص، لابن سيده، مصر، ١٣١٦هـ.
مروج الذهب، للمسعودي (1861–1877 Paris).
المزهر، للسيوطي، مصر، ٢٨٢.
مسالك الممالك، للإصطخري (1870 Leiden).
المسالك والممالك، لابن حوقل (1870 Leiden).
المسالك والممالك، لابن خرداذبه (1870 Leiden).
المُستطرَف من كل فن مُستظْرَف للأبشيهي، مصر، ١٢٨٥هـ.
المعارف، لابن قتيبة، مصر، ١٣٠٠هـ.
معجم البلدان، لياقوت الحموي (1866–1873, Leipzig).
معجم ما استعجم، للبكري (1877 Goettingen).
المفضليات، للمفضل الضبي مع شروح الأنباري (C. Lyall بيروت ١٩٢٠م).
المِلَل والنِّحَل، للشهرستاني (1842 London).
مقدمة، ابن خلدون (1858 Paris).
النجوم العَوالي في أنباء الأوائل والتوالي، للعصامي، (خط).

نزهة المشتاق، للإدريسي، ذكر الشام (1885 Bonn).
نقائض جرير والأخطل، بيروت، ١٩٢٢م.
نقائض جرير والفرزدق (Leiden 1905–1912).
وفيات الأعيان، لابن خلكان (1838 Paris، مصر، ١٢٩٩هـ).

(٢) الكتب الأوروبية

BIBLIOGRAPHIE

Abbeloos: Greg. Barhebræi Chronicon Ecclesiasticum.
— Acta S. Maris.

Arnold (J. M.): Islam, his History and Relations.
ACTA SANCTORUM.

Assemani: Bibliotheca Orientalis.

Berger (Ph.): L’ Arabie avant l’Islam, d’aprés les Inscriptions.

Bergmann: De Religione Arabum anteislamica.

Blochet: Le Culte d’Aphrodite Anahita chez les Arabes du Paganisme.

Caetani (Princ. L.): Annali dell’Islam.

Carpentier (E. s. j.): De SS. Aretha et Ruma Commentarius.

Caussin de Perceval: Essai sur l’Histoire des Arabes avant l’Islam.

Chauvin (V.): Le jet de pierres au Pélerinage de la Mecque.

Bedjan (P.): Acta Martyrum et Sanctorum.

Bell (Miss G.): Amurath to Amurath.

Brünnow (R. E.) et Domaszewski: De Provincia Arabiæ.

Budge (E. A. W.): Book of the Bee.

Chabot (Abbé J–B.): Synodes Nestoriens.

Cheikho (L. s. j.): Les Evâques du Sinai.

CORPUS INSCRIPTIONUM SEMITICARUM.

Dalmann (D^r G.): Petra u. seine Felsheiligtümer.

DICTIONNAIRE D'ARCHÉOLOGIE et de Liturgie.

Dozy (R.): Essai sur l'Histoire de l'Islamisme.

— Die Israeliten zu Mekka.

Dussaud (R.): Less Arabes avant l'Islam.

— Mission dans les regions désertiques de la Syrie moyenne.

Eusebins Cæsariensis: Historia Ecclesiastica.

Evagrius: Historia Ecclesiastica.

Fraenkel: (S.): Aram. Fremdwoerter in arabischen.

Gamurrini (J. Fr.): S. Silviæ Pereginatio.

Gayet: (Al.): L'Art arabe.

Glaser (E.): Geschichte u. Geographie Arabiens.

— Die Abissinier in Arabien u. Afrika.

Goeje (M. J. de): Mémoires d'Histoire et de Géographie.

Goldziher (Ig.): Muhammedanische Studien.

— Abhndl: z. arab. Philologie.

Guidi (I.): L'Arabie antéislamique.

Josephus (Fl.): Antiquitates hebraicæ.

JOURNAL ASIATIQUE FRANCAIS.

Lagarde (P.): Anlecta Syriaca.

Lammens (H. s. j): Le Berceau de l'Islam.

— Etudes sur Mo'awiah.

— Fâtima.

Land (J. P.): Anecdota Syriaca.

Langlois (V.): Numismatique des Arabes avant l'Islamisme.

Lequien (M.): Oriens Christianus.

Mai (A.): Spicilegium.

Mansi: COLLECTIO CONCILIORUM.

MÉMOIRESS DES INSCRIPTIONS ET BELLES–LETTRESS.

MÉLANGES DE LA FACULTÉ ORIENTALE.

Migne: PATROLOGIE GRECQUE.

Migne: PATROLOGIE arialE.

Michel le Grand: Histoire (éd. Chabot).

Mingana: Sources syriaques.

Mordtmann: Himjar. Inschriften.

Musil (Al.): Arabia Petræa.

Noeldeke (Th.): Die ghassaniden Fürsten.

— Neue Beitrage z. semit. Sprachwissenschaften.

RENDICONTI D. REALI ACCADEMIA DEI LINCEI.

REVUE DE L'HISTOIRE DES RELIGIONS.

REVUE DES ETUDES JUIVES.

PROCOPIUS: DE BELLO PERSICO.

Rothstein (G.): Die Dynastie d. Lahmiten in Arabia.

Sacy (S. de): Mémoire sur l'Hist. des Arabes avant Mahomet.

Socrates et Sozomenus: Hist. ecclesiasitica (Migne).

SYRIA: Expedition of the Princetum University.

Theodoretus: Historia religiosa (Migne).

Theophanes: Hist. ecclesiastica (ib.).

Vogué (M. de): Syrie Central.

Waddington: Inscriptions de l'Arabie romaine.

Wellhausen (J.): Reste d'arab. Heidentum.

— Skizze u. Vorarbeitung.

Wetzer W. H. (J.): Macrizii Historia Coptorum.

Wright: Early Christianity in Arabia.

ZEITSCHRIFT d. morgenl. Gesellschaft (ZDMG).


هنداوي